

مُخْتَصَرُ الْجَامِعِ

فِي

السِّيَرِ النَّبَوِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُخْتَصَرُ الْجَامِعِ

فِي

السِّيَرِ النَّبَوِيَّةِ

تأليف

سيرة الزايد

إجازة في الشريعة وإجازة في الآداب

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

المطبعة: العلمية

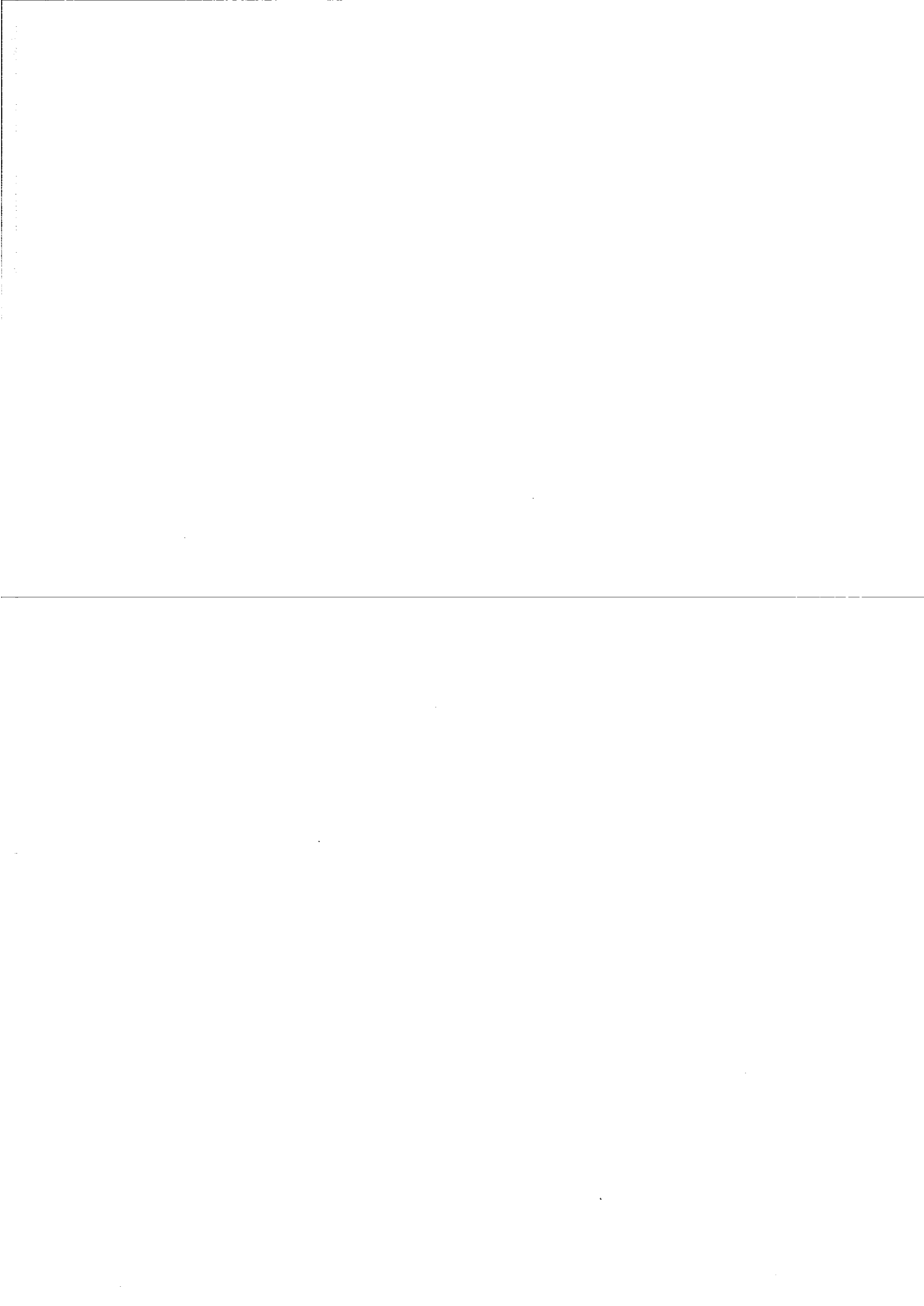
عدد النسخ / ١٠٠٠ /

الجزء الثاني

ويضم :

تمة القسم الثالث (من السنة الرابعة للهجرة حتى الوفاة) .

القسم الرابع : شائل النبي ﷺ .



السنة الرابعة للهجرة

لقد كان لغزوة أُحُدْ أثر سيء على سمعة المساميين ، فقد زالت هيبتهم عن النفوس وطمعت بهم القبائل ، وكشفهم اليهود والمنافقون بما كانوا يظرونه من العداوة والبغض ، فلم يمض على هذه الغزوة شهران حتى تهيأت قبائل بني أسد للإغارة على المدينة ، ثم أخذ خالد بن سفيان الهذلي يجمع الرجال لنفس الغرض ، ثم قامت قبائل غُضَلْ والقارة بمكيدة تسببت في قتل طائفة من الصحابة ، وقام عامر بن الطفيل في نفس الوقت بمكيدة مثلها تسببت في قتل سبعين من الصحابة ، ثم تقضت بنو النضير العهد وهما بقتل النبي ﷺ ، ولم يكن رسول الله ﷺ غافلاً عن هذه التحركات والمطامع ، بل كان يواجهها بحكمته حتى استطاع أن يعيد للمسلمين هيبتهم ومكانتهم . وفيما يلي تفصيل لهذه الأحداث .

سرية أبي سلمة رضي الله عنه إلى بني أسد :

وكان سببها أن رجلاً من طييء قدم المدينة يريد امرأة ذات رجم به متزوجة رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزل على صهره الذي هو من أصحاب رسول الله ﷺ ، فأخبر أن طليحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومها بني أسد بن خزيمه ومن أطاعها يدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ ، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ دعا أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد - وكان قد جرح بأحد جرحاً على عضده ، فكث شهراً يداويه حتى رأى أن قد برىء - وقال له : « اخرج في هذه السرية فقد استعملتكم عليها » ، وعقد له لواء ، وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وقال : « سر حتى ترد أرض بني أسد ، فأعز عليهم قبل أن تلاقى عليهم جموعهم » ، وأوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً .

فخرج أبو سلمة في أصحابه ، وذلك في أول المحرم من السنة الرابعة للهجرة ، وخرج معهم الطائي دليلاً ، فأخذ السير ، ونكب عن سنن الطريق ، وسبق الأخبار ، وانتهى إلى أدنى قطن^(١) ، فأغار على سرح^(٢) لهم ، فضمه وأخذ رعاء لهم مماليك ثلاثة ، وأفلت سائرهم ، فجاؤوا جمعهم فأخبروهم الخبر وحذروهم ، فتفرق الجمع في كل وجه ، فلما ورد أبو سلمة الماء وجد الجمع قد تفرق ، فمسكر وفرق أصحابه ثلاث فرق : فرقة قامت معه ، وفرقتان أغارتا في ناحيتين شتى ، فرجعتا إليه سالمتين وقد أصابتا نعاماً وشاء . فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة سالماً غانماً^(٣) ، ولم يلق حرباً .

فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة : اقبوا غنائمكم ، فأعطى أبو سلمة الطائي الدليل رضاه من الغنم ، وأخرج صفى رسول الله ﷺ عبداً ، ثم خمسها ، وقسم الباقي على أهل السرية ، ثم أقبلوا حتى دخلوا المدينة ، وكانت مدة غيبتهم بضع عشرة ليلة . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين أحد والحندي) .

(١) قطن : ماء من مياه بني أسد ، قاله ابن إسحاق ، وعند ابن سعد : جبل بناحية فيد به ماء لبني أسد بن خزيمه . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٠/٢) .

(٢) السرح : الفاشية ، ولا يسمى سرحاً إلا ما يعتدى به ويراح (الوسيط : ج ٤٢٧/١) .

(٣) ذكر ابن إسحاق أنه قتل في هذه السرية مسعود بن عروة .

فلما دخل أبو سلمة ، رضي الله عنه ، المدينة انتقض به جرحه ، فلم يلبث حتى مات ثلاث ليالٍ بقين من جمادى الآخرة أو لثمان خلون منه^(١) .

روى مسلم بسنده عن أم سلمة ، رضي الله عنها ، قالت : دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شقّ بصره ، فأغضه ، ثم قال : « إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ » ، فضجّ ناس من أهله ، فقال : « لَا تَدْعُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَيَّ مَا تَقُولُونَ » ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لَأبي سَلَمَةَ ، وارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ واخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ ، واغْفِرْ لَنَا وَلِئِنَّ يَارَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَأفْسَحْ لَهٗ فِي قَبْرِهِ ، وَيَوِّزْ لَهٗ فِيهِ »^(٢) .

وروى بسنده عن عبيد بن عمير قال : قالت أم سلمة : لما مات أبو سلمة قلت : غريب وفي أرض غريبة لأبكيه بكاء يتحدّث عنه ، فكنت قد تهيأت للبكاء عليه ، إذ أقبلت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدني^(٣) ، فاستقبلها رسول الله ﷺ وقال : « أَنْتَرِيدِينَ أَنْ تُدْخِلِي الشَّيْطَانَ بَيْتاً أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْهُ ؟ » مرتين ، فكففت عن البكاء فلم أبك^(٤) .

وروى بسنده عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ أَوِ الْمَيِّتَ ، فَكُفُّوا خَيْرًا ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَيَّ مَا تَقُولُونَ » ، قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! إن أبا سلمة قد مات ، قال : « قُولِي : اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي وَلَهٗ ، وَأَعْقِبِي مِنْهُ عَقِبِي حَسَنَةً » ، قالت : فقلت ، فأعقبني الله من هو خير لي منه محمداً ﷺ^(٥) .

سريّة عبد الله بن أنيس رضي الله عنه لقتل ابن نُبَيْحِ الهُدَلِيِّ :

وفي اليوم الخامس من المُحَرَّم من السنة الرابعة للهجرة بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ، رضي الله عنه ، إلى سفيان بن خالد بن نُبَيْحِ ، وقيل : خالد بن سفيان بن نُبَيْحِ الهُدَلِيِّ ثم اللّحياني ، وهو بعزّة^(٦) أو بنخلّة ، وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد ، وكان ينزل عزّة وما والاها في ناس من قومه وغيرهم ، قد جمع الجوع هناك لحربه ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله : « أَتَيْتَهُ فَأَقْتُلْهُ » - وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ لَسِفَيَانَ الْهُدَلِيَّ يَهْجُونِي وَيَشْتَمُونِي وَيُؤْذِنُونِي ؟ » فقال عبد الله : أنا له يا رسول الله ، ابعثني له ، فبعثه - قال عبد الله : فقلت : انعتني لي يا رسول الله حتى أعرفه ، قال : « إِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ هِبْتَهُ وَفَرَّقْتَ مِنْهُ وَذَكَرْتَ الشَّيْطَانَ » ، قال عبد الله : وكنت لأهاب الرجال ، فقلت : يا رسول الله ! والذي أكرمك ، ما فرقت من شيء قطّ ، فقال : « آيَةٌ مَا يَبْنِيكَ وَبَيْنَهُ أَنْتَ إِذَا رَأَيْتَهُ وَجَدْتَ لَهُ قَشْعِرِيرَةً » ، قال عبد الله : فأخذت سيفي واستأذنته أن أقول ، فأذن لي .

قال عبد الله : فخرجت أغتري^(٧) إلى خزاعة ، حتى إذا كنت ببطن عزّة لقيته بمشي ووراء الأحابيش ومن ضوى^(٨) إليه ، فهبته ، وعرفته بنعت رسول الله ﷺ ، فقلت : صدق الله ورسوله ، وقد دخل وقت العصر حين رأيته ، فأقبلت نحوه ، وخشيت أن تكون بيني وبينه مجاورة^(٩) تشغلني عن الصلاة ، فصليت وأنا أمشي أومئ برأسي إيماء ، فلما انتهيت إليه ، قال : من الرجل ؟ فقلت : رجل من خزاعة ؛ سمعت بك وبجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك ، قال : أجل إني لفي ذلك ، فشيت معه ، وحدّثته واستحلى

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢٨٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٥٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣/٢٢٠ ، ٢٢٢) ، والمستدرک (ج ٤/١٨) .

(٢) صحيح مسلم (ج ٢/٦٣٤) كتاب الجنائز - باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ح ٧ .

(٣) إسعاد النساء في المناسبات : هو أن تقوم المرأة فتقوم معها أخرى من جارياتها فتساعدنها على النياحة (النهاية : ج ٢/٣٦٧) .

(٤) صحيح مسلم (ج ٢/٦٣٥) باب البكاء على الميت ح ١٠ .

(٥) صحيح مسلم (ج ٢/٦٣٣) باب ما يقال عند المريض والميت ح ٦ .

(٦) عزّة : موضع بقرب عرفات . انظر : (معجم البلدان : ج ١/١٥٩٦) .

(٧) اغتري إلى فلان : انتسب إليه صئفاً أو كذباً (الوسيط : ج ٢/٦٠٥) .

(٨) ضوى إليه : مال وأنضم . وقد تقمّم .

(٩) تجاوروا في الحزب : أي جال بعضهم على بعض ، وكانت بينهم مجاورات ، بمعنى تطارذوا وتصاروا . انظر : (لسان العرب : ج ١/٧٣٠) ،

و (الوسيط : ج ١/١٤٩) .

حديثي، حتى انتهى إلى خيائه وتفرق عنه أصحابه، حتى إذا هدا الناس واناموا اغترزته^(١) فقتلته - وفي رواية: أنه لما سأله من الرجل؟ قال: باغي حاجة فهل من مبيت؟ قال: نعم فالحق بي، قال: فخرجت في أثره، فصليت العصر ركعتين خفيفتين، ثم لحقته فضربته بالسيف - قال: وأخذت رأسه، ثم دخلت غاراً في الجبل، وجاء الطلب وأنا في الغار، وضربت العنكبوت علي فلم يبيدوا شيئاً، فانصرفوا راجعين.

قال: ثم خرجت، فكنت أسير الليل وأتوارى بالنهار، حتى قدمت المدينة، فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد، فلما رأيته قال: «أفلح الوجء»، قلت: أفلح وجهك يا رسول الله، قد قتلتك، قال: «صدقت»، ووضع عبد الله رأسه بين يدي رسول الله ﷺ وأخبره خبره. وكانت غيبته ثمانى عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من الحرم.

قال عبد الله: ثم قام بي فأدخلني بيته، فأعطاني عصا وقال: «أمسك هذه العصا عندك يا عبدة الله بن أنيس»، قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ، وأمرني أن أمسكها عندي، قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله لم ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! لِمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخضرون يومئذ» - وفي رواية: قال له: «تخضرت هذه في الجنة» - فقرأها عبد الله بسيفه، فكانت عنده، فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدرجوها في كفنه بين جلده وثيابه، ففعلوا^(٢).

☆ ☆ ☆

بعث الرجيع^(٣)

وكان البعث في صفر من السنة الرابعة للهجرة (انظر: مصور السرايا والغزوات بين أحد والحدائق). وسببه أن بني لحيان حياً من هذيل^(٤) مشى إلى عضل والقارة، وهما قبيلتان من الهون بن خزيمه بن مدركه، وذلك بعد مقتل سفيان بن خالد الهذلي، فجمعوا لهم إبلاً على أن يكلموا رسول الله ﷺ أن يخرج إليهم نفرأ من أصحابه. فقدم رهط منهم على رسول الله ﷺ فمظهرين الإسلام، فقالوا: يا رسول الله! إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام.

ويقال: إن النبي ﷺ أراد أن يبعث عيوناً إلى مكة ليأتوه بخير قريش، فوافق ذلك مجيء رهط من عضل والقارة يطلبون من يفقههم، فبعث معهم رسول الله ﷺ ستة من أصحابه - في رواية ابن إسحاق - للأمرين جميعاً، وفي رواية البخاري وابن سعد أنهم كانوا عشرة. وهم كما سماهم ابن إسحاق:

مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير اللبيبي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عدي من بني جحجبه بن كلفة، وزيد بن الدثنة من بني تيباسة، وعبد الله بن طارق البلوي. وزاد ابن سعد: معتب بن عبيد البلوي وهو أخو عبد الله بن طارق لأمه، وهما حليفان في بني ظفر. وأمر رسول الله ﷺ عليهم مرثد بن أبي مرثد، أو عاصم بن ثابت كما في رواية البخاري.

(١) أي أخذه في غفلة. انظر: (الوسيط: ج ٦٥٤/٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢٩٣/٤)، وطبقات ابن سعد (ج ٥٠/٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤١/٤)، وجمع الزوائد (ج ٢٠٣/٦، ٢٠٤).

(٣) الرجيع: ماء لهذيل قرب الهداة بين مكة والطائف، وأضيف البعث إلى الماء لأن الوقعة كانت بالقرب منه. انظر: (معجم البلدان: ج ٢٢٩/٤)، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٦٤/٢).

(٤) وقيل: أصل بني لحيان من بقايا جرهم، دخلوا في هذيل فنسبوا إليهم. ولحيان: بفتح اللام وكسرهما لغتان. انظر: (فتح الباري: ج ٢٨١/٧)، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٤٦/٢).

فخرج هؤلاء مع القوم حتى إذا كانوا بالرَّجِيعِ على صدر الهداة^(١) غدروا بهم ، فاستصرخوا^(٢) عليهم بني لِحْيَان ، فنَفَرُوا لهم^(٣) بقريب من مائة رجل رام - وقيل : بمائتي رجل - فاقتصوا آثارهم ، حتى وجدوا مآكلهم التمر في منزل نزلوه ، فقالوا : تمر يثرب ، فاتبعوا آثارهم حتى لحقوهم ، فلم يَرَع^(٤) القوم وهم في رحالهم ، إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشّوهم ، فلما حسنَ بهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى قَدْفَد^(٥) ، فأحاط بهم القوم ، فأخذ عاصم ومن معه أسيافهم ليقاتلوه ، فقالوا لهم : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ، فانزلوا وأعطوا بأيديكم ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتل منكم أحداً .

فأما مَرْتَدُ بن أبي مَرْتَدٍ وخالد بن البَكَيْرِ وعاصم بن ثابت ، فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً - وفي رواية البخاري : قال عاصم : أيها القوم ! أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ، ثم قال : اللهم ! أخبر عتاً نبيك ﷺ - فاستجاب الله لعاصم ، فأخبر رسوله خبرهم يوم أصيبوا - فرموم بالنبيل حين امتنعوا من النزول ، ورماهم عاصم حتى فنيته نبيله ، ثم طاعنهم حتى انكسر رحمه ، ثم سلّ سيفه وقال : اللهم ! إني حميت دينك أول النهار فاحم لي لحمي آخره ، ثم قاتل فجرح منهم رجلين وقتل واحداً ، ثم شرعوا فيه الأسيئة^(٦) حتى قتلوه وقتلوا صاحبيه .

وأما زيد بن الدثينة وخبيّ بن عديّ وعبد الله بن طارق ، فلانوا ورقوا ورجبوا في الحياة ، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى ، فنزلوا إليهم ، فلما استكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها ، فقال عبد الله بن طارق : هذا أول الغدر ؛ والله لا أصحبكم إن لي هؤلاء أسوة ، يريد القتل ، فجرّروه وعالجوه ، فأبى أن يصحبهم فقتلوه - وفي رواية : أنهم أسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها ، حتى إذا كانوا بمَرِّ الظُّهْرَانِ^(٧) انتزع عبد الله بن طارق يده من القران ، ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبّره رحمه الله بمَرِّ الظُّهْرَانِ - وانطلقوا بخبيّ وزيد فقدموا بها مكة ، فباعوها من قريش بأسيرين من هذيل كنا بمكة . فأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية ليقبله بأبيه أمية بن خلف ، فبعث به صفوان مع مولى له يقال له نسطاس إلى التميم ، وأخرجه من الحرم ، واجتمع عنده رهط من قريش منهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له حين قدّم ليقبل : أشدك الله يا زيد ؛ أتحبّ أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ قال : والله ما أحبّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمد محمداً ، ثم قتله نسطاس .

وأما خبيّ فابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، وهم عقبة وأبو سرّوعة وأخوها لأمتها حَجِير بن أبي إهاب التميمي وهو الذي تولّى شراءه ، وكان خبيّ هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر^(٨) ، فلبث عندهم أسيراً حتى خرجت الأشهر الحرم فقتلوه . وكانوا في أول الأمر أساؤوا إليه في إيساره ، فقال : ما يصنع القوم الكرام هذا بأسيرهم ، فأخرجوه وأحسنوا إليه وحبسوه في بيت ماوية مولاة حَجِير بن أبي إهاب ، وكانت تحدّث بقصته بعد أن أسلمت وحسن إسلامها ، فكانت تقول : والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيّ ، لقد اطلعت عليه يوماً من صير الباب ، فوجدته يأكل قِطْفاً^(٩) من عنب في يده مثل رأس الرجل ، وإنه لموثق بالحديد ، وما بمكة من ثمره ، وما كان ذلك إلا رزقاً رزقه الله تعالى خبيياً ، قالت : وكان خبيّ يتهجّد بالقرآن ، فكان يسمعه النساء فيبكين ويرقن عليه ،

- (١) الهداة : موضع بين عسفان ومكة (معجم البلدان : ج ٤٤٨/٨) .
- (٢) استصرخ الإنسان وبه ، إذا أتاه الصّارخ وهو الصّوت يعلّمه بأمرٍ حادثٍ يستعين به عليه (النهاية : ج ٢١/٣) .
- (٣) نفرّوا لهم : أي خرّجوا لقتالهم (النهاية : ج ٩٢/٥) .
- (٤) أي لم يبتغهم ويفجأهم أو يفزعهم .
- (٥) القَدْفَدُ : الموضع الذي فيه غلظٌ وأرتفاع (لسان العرب : ج ٢٣٦٤/٥) .
- (٦) الأسيئة : جمع سِنَانٍ ، وسِنَانُ الرُّمُحِ : خديده (لسان العرب : ج ٢١٢٢/٣) .
- (٧) الظُّهْرَانُ : وادٍ قرب مكة وعندة قريّة يقال لها مرّ تضاف إلى هنا الوادي فيقال : مرّ الظُّهْرَانِ . وقد تقدّم .
- (٨) قيل : إن الذي قتل الحارث بيد خبيّ بن إساف ، ويحتمل أن يكون خبيّ بن عديّ شارك في قتله والله أعلم . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٦٨/٢) .
- (٩) القِطْفُ : العنقود (الوسيط : ج ٧٥٢/٢) .

فقلت له : يا حُبَيْب ! هل لك من حاجة ؟ قال : لا ، إلا أن تسقيني العذب ، ولا تطعميني ما ذُبِح على النُصب ، وتخبريني إذا أرادوا قتلي .

فلما انسلخت الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله أخبرته ، قالت : فوالله ما رأيته اكثرث لذلك ، وقال : ابغي إليّ بمجديدة أنظهر بها للقتل ، قالت : فبعثت إليه بموسى مع ابني ، أو مع غلام من الحي ، فقلت : ادخل بها على هذا الرجل البيت ، فوالله ما هو إلا أن ولّى الغلام بها إليه ، فقلت : ماذا صنعت ؟ أصاب والله الرجل ثأره ؛ يقتل هذا الغلام فيكون رجلاً برجل . فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ، ثم قال : لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ وأنتم تريدون قتلي ؟ قالت ماويّة : وأنا أسمع ذلك ، فقلت : يا حُبَيْب ! إنما ائتمنتك بأمان الله ، وأعطيتك يهلك ، ولم أعطك لتقتل ابني ، فقال حُبَيْب : ما كنت لأقتله ، وما نستحلّ في ديننا الغدر ، ثم خلّى سبيله ، وأخبرته أنهم مخرجوه فقاتلوه بالغداة - وفي رواية البخاري : فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يَسْتَحِدُّ^(١) بها فأعارته ، فدرج بُيِّ لها ، وهي غافلة ، حتى أتاه ، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ، قالت : ففزعت فزعة عرفها حُبَيْب ، فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك .

فخرجوا به من الحرم ، وهو في الحديد ، حتى انتهوا به إلى التّنعيم ، وخرج معه الصبيان والنساء والعبيد وجماعة أهل مكّة ، فلم يتخلف أحد ؛ إما موتور فهو يريد أن يتشافي بالنظر من وتره^(٢) ، وإما غير موتور فهو مخالف للإسلام وأهله ، فلما أجمعوا على صلبه ، قال لهم حُبَيْب : دعوني أصلي ركعتين ، فتركوه ، فركع ركعتين أتمها وأحسنها من غير أن يطوّل فيهما ، ثم أقبل على القوم فقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت ، أو قال : لطلوّلتها . فكان حُبَيْب أول من سنّ الركعتين عند القتل لكل مسلم قتل صبراً .

ثم رفعوه على خشبة طويلة ، فلما أوثقوه قال : اللهم ! إنّا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا - وفي رواية قال : اللهم ! إني لا أنظر إلا في وجه عدوّ ، اللهم ! إني لأجد من يبلغ رسولك منّي السلام ، فبلغه عني ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فزعموا أن النبي ﷺ قال حينئذ : « وَعَلَيْهِ السَّلَامُ » ، فقال أصحابه : يا نبيّ الله ! على من ؟ قال : « أَخُوكُمْ حُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ يُقْتَلُ » - ثم استقبل حُبَيْب الدعاء فقال : اللهم ! أحصهم عدداً ، واقتلهم ببدأ^(٣) ، ولا تبق منهم أحداً ، ثم أنشأ يقول :

فلست أبالي حين أقتل مسلماً
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
على أيّ جنب كان لله مصرعي
يُبارك على أوصال شلّو^(٤) مُمزع

وروي أنه قال :

لقد جمّع الأحزاب حولي وألبوا
ولكلهم مُبدي العداوة جاهد
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم
إلى الله أشكرو غُرْبتي ثم كُرْبتي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي
قبائلهم واستجمعوا كلّ مجتمّع
عليّ لأني في وثاق مضيّع
وقربت من جذع طويل ممّنع
وما أُرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فقد بصّعوا لحي^(٥) وقد يئس مطمعي

(١) الاستحداً : حلقُ العانة بالحديد (النهاية : ج ١/٣٥٢) .

(٢) المؤنور : صاحب الوتر ، الطالِبُ بالثأر ، يُقال : وتَرَّته : إذا نقصته ، فكأنك جعلته وترّاً بعد أن كان كثيراً (النهاية : ج ١/١٤٨) .

(٣) البدأ : جمع بدّة ، والبدّة : الحصّة والنصيب ، أي اقتلهم حصصاً مقسمة لكل واحد حصته ونصيبه ، ويروى بفتح الباء أي بدأ ؛ أي : متفرقين في

القتل واحداً بعد واحد من التّبديد (النهاية : ج ١/١٠٥) .

(٤) الشلّو : الجلد والحسد من كل شيء (لسان العرب : ج ٢/٢٣١٧) .

(٥) بصّع اللحم : قطعة (الوسيط : ج ١/٦٠) .

وذلك في ذات الإله وإن يشأ
وقد خيروني الكفر والموت دونه
وما بي حنار الموت إن لميت
ووالله ما أخشى إذا مت مسلماً
فلمست بمبديد للعدو تخشعاً
ولا جزعاً إنني إلى الله مرجعي
يبارك على أوصال شلومزع
وقد هملت عيناي من غير مجزع
ولكن حناري حنار مملق
على أي جنب كان في الله مضجعي

قال ابن إسحاق : فكان معاوية بن أبي سفيان يقول : حضرته يومئذ فبين حضره مع أبي سفيان ، فلقد رأيتنه يلقيني إلى الأرض فرقاً من دعوة حبيب ، وكانوا يقولون : إن الرجل إذا دُعي عليه فاضطجع لجنبه زلت عنه .

فلما وضع فيه السلاح وهو مصلوب نادوه وناشدوه : أتحب أن نمحاً مكانك ؟ فقال : لا والله العظيم ، ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه ، فضحكوا ، ثم قام إليه أبو سُرُوعَةَ عَقْبَةَ بن الحارث - وقيل : أبو سُرُوعَةَ هو أخو عَقْبَةَ واسمه الحارث - وقيل : الذي قتله أبو مَيْسَرَةَ لما روي أن عَقْبَةَ بن الحارث قال : ما أنا والله قتلته حبيباً ، لأننا كنت أصغر من ذلك ، ولكن أبا مَيْسَرَةَ أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي ، ثم أخذ بيدي وبالحربة ، ثم طعنه بها حتى قتله .

ووكّل به المشركون من يجرس جثته ، فجاء عمرو بن أمية الضمري ، رضي الله عنه ، أو كان رسول الله ﷺ بعثه إلى حبيب^(١) ، فصعد خشبته ليلاً فقطعها عنه وألقاه ، فسمع وجبة^(٢) خلفه ، فالتفت فلم ير حبيباً كأنما ابتلعت الأرض ، فلم ير له أثر .

وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت ليؤتوا بشيء من جسده يعرف ، وذلك لأن عاصماً كان قتل رجلاً عظيماً من عظمائهم يوم بدر^(٣) ، فبعث الله لعاصم مثل الظلة من الدبر^(٤) فحمته من رسلهم ، فلم يقدرُوا أن يقتطعوا منه شيئاً - وفي رواية : أن عاصماً لما قُتل أراد أن يُذلل رأسه لبيعه من سُلَاقَةَ بنت سعد بن شهيد ، وهي أم مسافع ورجل ابن طَلْحَةَ العبدري ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في فحفه^(٥) الخمر ، وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة ، ففنته الدبر ، فلما حالت بينهم وبينه قالوا : دعوه حتى يمسي فنذهب عنه ، فنأخذنه ، فبعث الله في الليل سيلاً أتياً^(٦) فاحتل عاصماً فذهب به ، وكان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسّه مشرك ولا يمسّ مشركاً أبداً^(٧) تنجساً . فكان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يقول حين بلغه أن الدبر منعت : يحفظ الله العبد المؤمن ، كان عاصم نذر أن لا يمسّه مشرك ولا يمسّ مشركاً أبداً في حياته ، ففنع الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته^(٨) .

(١) سيأتي خبر بعثه بعد قليل .

(٢) الوجبة : هي صوت السقوط . وقد تقدّم .

(٣) روي أنه قتل عَقْبَةَ بن أبي معيط صبراً بأمر النبي ﷺ لما رجعوا من بدر . راجع غزوة بدر .

(٤) الدبر : النخل ، وقيل : الزنابير (النهاية : ج ٩٩/٢) .

(٥) الفحف : ما انفلق من الجمجمة وانفصل (النهاية : ج ١٧/٤) .

(٦) سئل أتبي : لا يذري من أين أتى (لسان العرب : ج ٢٢/١) .

(٧) قال القسطلاني : قوي رجاؤه في الله ، فعاذه بذلك ، أو عاذه أن لا يمكّن مشركاً من مسّه ، وللمراد سأله ذلك (شرح الزرقاني على المواهب :

ج ٧٤/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠/٣ ، ١٦٠ - ١٦٧) ، و (ج ٣١٠/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٨٢/٤) كتاب الجهاد والسير - باب هل يستأسر الرجل ،

و (ج ١٠٠/٥ - ١٠٢) كتاب الغازي ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٥/٢) و (ج ٤٣٢/٣) و (ج ٣٠١/٨) ، وسنن سعيد بن منصور (ج ٢٩٩/٢ - ٣٠٠) ،

ومسند الإمام أحمد (ج ٢٨٧/٥) ، وجمع الزوائد (ج ١٩٩/٦ - ٢٠٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٣٦/٣ - ٢٣٧) ، وعيون الأثر (ج ٤٢/٢) ، وشرح

الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٦٨/٢ ، ٧١ ، ٧٣) .

ما نزل من القرآن في بعث الرّجيع :

وكان مما نزل من القرآن في تلك السريّة ، كما روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : لما أصيبت السريّة التي كان فيها مرثد وعاصم بالرّجيع ، قال رجال من المنافقين : يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لاهم قعدوا في أهليهم ، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين ، وما أصاب أولئك النّفَر من الخير الذي أصابهم ، فقال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفٰسِدَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُنَا جَهَنَّمُ وَلِئِن سَأَلْتَهُ لَمَنِ الْإِثْمُ اتَّخَذَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لَمَّا مَلَآتِ السَّمَاءُ دُخَانًا وَمَن يَخْرُجْ مِنْهَا يَكْفُوفًا كَبًّا ۝۱۱ ﴾ (١) .

سريّة عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه لقتل أبي سفيان :

ولما قُتل أصحاب بعث الرّجيع وبلغ خبرهم رسول الله ﷺ بعث النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى مكة ، وأمره بقتل أبي سفيان ، وبعث معه جبّار بن صخر الأنصاري أو سلمة بن أسلم بن حريش . ويروى في سبب أمر النبي ﷺ بقتل أبي سفيان أنه كان أرسل إلى النبي ﷺ من يقاتله ، وذلك أنه قال لنفر من قريش بمكة : ما أحد يغتال محمداً ، فإنه يمشي في الأسواق ، فندرك ثأرنا ؟ فأتاه رجل من العرب ، فقال لأبي سفيان : إن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله ، فإني هاد بالطريق خريث (٢) ، ومعني خنجر مثل خافية النسر (٣) ، قال : أنت صاحبنا ، فأعطاه بعيراً ونفقة ، وقال : اطو أمرك فإني لأمن أن يسمع هذا أحد فينبهه إلى محمد ، قال العربي : لا يعلم به أحد .

فخرج ليلاً على راحلته حتى قدم المدينة ، ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ ، فقيل له : قد توجه إلى بني عبد الأشهل ، فأتاه فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجدهم ، فاما رآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « إن هذا الرجل يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريد » ، فوقف فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب » فذهب ينحني على رسول الله ﷺ كأنه يساره ، فجبده أسيد بن الحضير وقال له : تنح عن رسول الله ﷺ وجبذ بداخلة إزاره ، فإذا الخنجر ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا غادر » ، وسقط في يدي العربي وقال : دمي دمي يا محمد ، فقال رسول الله ﷺ : « اصدقني ما أنت ؟ وما أقدمتك ؟ فإن صدقني نفعك الصدق ، وإن كذبتني فقد أطلعت على ما هممت به » ، قال العربي : فأنأمن ؟ فأنت أمين ، فأخبره بخبر أبي سفيان وما جعل له ، فأمر به فحبس عند أسيد ، ثم دعا به من الغد ، فقال : « قد أمتنتك فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك ؟ » قال : وما هو ؟ قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله » ، قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، والله يا محمد ما كنت أفرق من الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعت نفسي ، ثم أطلعت على ما هممت به مما سبقته به الركباني ولم يعلمه أحد ، فعرفت أنك ممنوع وأنت على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان ، فجعل النبي ﷺ يتبسم ، وأقام أياماً ، ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده ، فلم يسمع له بذكر .

وعندئذ بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية وجبّار بن صخر الأنصاري وأمرهما بقتل أبي سفيان ، فخرجا حتى قدما مكة ، وحبسا جملتها بشعب من شعاب يأجيج ، ثم دخلا مكة ليلاً ، فقال جبّار لعمرو : لو أننا طفنا بالبیت وصلينا ركعتين ، فقال عمرو : إن القوم إذا تعشوا جلسوا بأفئدتهم ، فقال : كلا ، إن شاء الله ، قال عمرو : فطفنا بالبیت وصلينا ، ثم خرجنا نريد أبا سفيان ، فوالله إننا

(١) البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٧ ، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٦٧/٣) .

(٢) الخريث : الدليل الحاذق بالدلالة ؛ كأنه ينظر في خرت الإبرة - أي قبيها (لسان العرب : ج ١١٢٤/٧) .

(٣) يريد أنه صغير ، والخافية هي الرئيش الصغير في جناح الطائر (النهاية : ج ٥٧/٢) .

لنشي بمكة إذ نظر إليّ رجل من أهل مكة فعرفني ، فقال : عمرو بن أمية ، والله إن قديمها إلا لشرّ - وكان عمرو رجلاً فاتكاً في الجاهلية - فقلت لصاحبي : النجاء ، فخرجنا نشدّة ، حتى أصعدنا في جبل ، وخرجوا في طلبنا ، حتى إذا علّونا الجبل يسوا منا ، فرجعنا ، فدخلنا كهفاً في الجبل ، فبتنا فيه ، وقد أخذنا حجارة فرضناها دوننا ، فلما أصبحنا غداً رجل من قريش - يقال هو عثمان بن مالك بن عبد الله التيميّ - يقود فرساً له ويخلي عليها^(١) فغشينا ونحن في الغار ، فقلت : إن رأنا صاح بنا ، فأخذنا فقتلنا ، قال : ومعني خنجر قد أعدته لأبي سفيان ، فأخرج إليه فأضربه به على ثديه ضربة ، وصاح صيحة أسمع أهل مكة ، وأرجع فأدخل مكاني ، وجاءه الناس يشددون ، وهو بأخر رمق ، فقالوا : من ضربك ؟ فقال : عمرو بن أمية ، وغلبه الموت فمات مكانه ، ولم يدلّ على مكاننا ، فاحتموه ، فقلت لصاحبي لما أمسينا : النجاء ، فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة ، فمرنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خبيّب بن عدّي ، فقال أحدهم : والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية ، لولا أنه بالمدينة لقلت : هو عمرو بن أمية ، قال : فلما حاذى الخشبة شدّ عليها فأخذها فاحتملها ، وخرجاً شدّاً^(٢) ، وخرجوا وراءه حتى أتى جرفاً^(٣) بمهبط مسيل يأجج ، ورمى بالخشبة في الجرف فغيبه الله عنهم ، فلم يقدروا عليه ، قال : وقلت لصاحبي : النجاء النجاء حتى تأتي بعيرك فتقعد عليه ، فإني سأشغل عنك القوم ، وكان الأنصاري لا رجلة^(٤) له ، فانطلق فركب بعيره وأتى النبي ﷺ فأخبره الخبر ، قال عمرو : ومضيت حتى أخرج على ضجّان ، ثم أويت إلى جبل فأدخل كهفاً ، فبينما أنا فيه إذ دخل عليّ شيخ من بني الدّيل أعور في غنية له ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : من بني بكر ، فمن أنت ؟ قال : من بني بكر ، فقلت : مرحباً ، فاضطجع ، ثم رفع عقيرته^(٥) فقال :

ولست بمسلم مصادمت حيّاً ولا دان بـمدين المسلمين

فقلت في نفسي : ستعلم ، فأهلته ، حتى إذا نام أخذت قوسي ، فجعلت سبتها في عينه الصحيحة ، ثم تحاملت عليه حتى بلغت العظم ، ثم خرجت النجاء حتى جئت العرّج^(٦) ، ثم سلكت ركوّية^(٧) ، حتى إذا هبطت النقيع إذا رجلان من قريش من المشركين كانت قريش بعثتها عيناً إلى المدينة ينظران ويتجسّسان ، فقلت : استأسرا ، فأبيا ، فأرمي أحدهما بسهم فأقتله ، واستأسر الآخر ، فأوثقته رباطاً ، وقدمت به المدينة^(٨) .

☆ ☆ ☆

- (١) يخلي عليها : أي يجتمع لها الخلا ، والخلا : الرطب من الثبات (الوسيط : ج ٢٥٤/١) .
- (٢) أي عدواً (النهاية : ج ٤٥٢/٢) .
- (٣) الجرف : شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله (الوسيط : ج ١١٨/١) .
- (٤) الرجلة : القوة على المشي (لسان العرب : ج ١٥٩٧/٢) .
- (٥) عقيرته : صوته . وقد تقدم .
- (٦) العرّج : قرية جامعة في واد من نواحي الطائف ، وهي أول تهامة ، وبينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلاً ، وهي في بلاد هذيل (معجم البلدان : ج ١٤١/٦) .
- (٧) ركوّية : ثنية بين مكة والمدينة عند العرّج صعبة (معجم البلدان : ج ٢٨٠/٤) .
- (٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٠/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٢/٢ - ٢٣٤) . وذكر ابن سعد في الطبقات (ج ٩٢/١) خبر السرية قبل الحديبية أي في السنة السادسة للهجرة ، مخالفاً لابن هشام والبيهقي اللذين جعلها بعد بعث الرجيع . والله أعلم .

وقعة بئر معونة (١)

وكانت في صفر من السنة الرابعة للهجرة . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين أحد والخذق) . وسببها - كما ذكر أصحاب الحديث وأهل السير والمغازي - أنه قدم على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك المعروف بلعاب الأسيّة ، وكان سيّد بني عامر بن صعصعة ، وأهدى له هديّة ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها وقال : « يا أبا براء ! لا أقبل هديّة مُشرك ، فأسلّم إن أردت أن أقبل هديّتك » (١) . وفي رواية : أن أبا براء بعث بآبن أخيه ليبيد بن ربيعة هديّة فرس ، فردّه النبي ﷺ وقال : « لا أقبل هديّة مُشرك ، ولو قبِلت لقبِلت هديّة أبي براء » ، ثم قال : قد بعث يستشفيك من وجع به يقال له الدبيلة (٢) ، فتناول رسول الله ﷺ مدرة (٣) فتفل فيها ، ثم ناوله إياها ، فقال : « دَفَّها بماء ثم استهها إِياءه » ، ففعل فبرىء - ثم عرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام وأخبره بماله فيه ، وما وعد الله المؤمنين من الثواب ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يسلم ولم يتعد وقال : يا محمد ! إن أمرك هذا الذي تدعو إليه حسن جميل ، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله ﷺ : « إنني أخشى عليهم أهل نجد » ، فقال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من الأنصار شبيّة يسمون القراء ، وأمر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي المثنق ليهوت (٤) ، وبعث معهم المطلب السلمي ليدلهم على الطريق - وقيل : كانوا أربعين رجلاً من خيار المسلمين ، منهم الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان أخو أم سليم ، وعروة بن أسماء بن الصلت ، ونافع بن بُدَيْل بن وَرْقَاء ، وألحكم بن كَيْسَانَ ، وعامر بن فُهَيْرَة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهم - وقد كان هؤلاء يقرؤون القرآن في المسجد ، فإذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة فيتدارسون بالليل يتعلمون ويصلون ، حتى إذا كانوا في وجه الصبح استعذبوا من الماء فوضعوه في المسجد ، واحتطبوا من الحطب فباعوه واشتروا به الطعام لأهل الصمة والفقراء ، أو جاؤوا به إلى حجر أزواج النبي ﷺ .

وقد روي سبب آخر لبعث النبي ﷺ أصحابه إلى بئر معونة ، فيذكر أن عامر بن الطفيل قدم على النبي ﷺ المدينة فراجع النبي ﷺ وارتفع صوته ثم قال : ومخوفه لأملأها عليك خيلاً ورجالاً ، فقال النبي ﷺ : « يكفينيك الله وأبنا قبيلة » ، ثم خرج عامر ، فجمع للنبي ﷺ ، فاجتمع من بني سليم ثلاثة أبطن ، وهم : رِعلٌ ودُكوانٌ وعُصَيّة ، فلما سمع بجمعهم النبي ﷺ أرسل أصحابه إليهم .

ومضى الصحابة حتى وصلوا إلى بئر معونة ، فلما نزلوا عليها عسكروا بها وسرحوا ظهرهم ، وبعثوا حرام بن ملحان خال أنس بن مالك بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل وقومه ، وهو ابن أخي أبي براء ، وانطلق معه رجلان ، فقال حرام لها : كونا قريباً حتى آتيهم ، فإن آمنوني كنتم ، وإن قتلوني آتيتهم أصحابكم ، فخرج حرام ، فقال : يا أهل بئر معونة ! إني رسول رسول الله إليكم ؛ أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ؟ فجعل يحدثهم . وفي رواية : فلم ينظر عدو الله عامر بن الطفيل في كتاب النبي ﷺ ، بل عرض عنه ، وأوماً إلى رجل فاتاه من خلفه قطعنه حتى أنفذه بالرمح ، فقال حرام : الله أكبر فزت ورب الكعبة .

(١) معونة : ماء من مياه بني سليم ، وهو بين أرض بني عامر وحرة بني سليم ، ونسبت الوقعة إليها لتزولهم بها ، وتعرف هذه الوقعة أيضاً بـسريّة المنذر بن عمرو لأنه كان الأمير فيها ، وبسريّة القراء لكثرة القراء الذين ذهبوا فيها . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٢/٢) ، وسيرة ابن هشام (ج ١٨٥/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٧٤/٢) .

(٢) قال الخطابي : يشبه أن يكون هذا الحديث منسوخاً ، لأنه قد قبل هديّة غير واحد من المشركين ، أهدى له الموقيس مازية والبغلة ، وأهدى له أكيدر دومة ، فقبل منها . وقيل : إنما ردّ هديّته ليتغيظه بردها فيحمله ذلك على الإسلام (النهاية : ج ٢٩٢/٢) .

(٣) الدبيلة : حراجٌ ودملٌ كبيرٌ تظهر في الجوف فتقتل صاحبها غالباً (النهاية : ج ٩٩/٢) .

(٤) المدرة : واحدة المدر ؛ قطع الطين اليابس .

(٥) المثنق : اسم فاعل من أثنق ؛ وأثنق : أسترع ؛ أي أن المتبئة أسترعت به وساقته إلى مضره (لسان العرب : ج ٢١٢٥/٤) .

وقيل : إن حرام بن ملحان ارتث^(١) يوم بئر معونة ، فقال الضحّاك بن سفيان الكلابيّ - وكان مسلماً يكتّم إسلامه - لامرأة من قومه : هل لك في رجل إن صحّ كان نعم الراعي ، فضمتّه إليها فعالجته ، فسمعته يقول :

أتت عامر ترجو الهوادة بيننا وهل عامر إلا عدو مداجن
إذا مارجعنا ثم لم تك وقعة بأسيفنا في عامر أو نطاعن
فلا ترجونا أن تقاتل بعدنا عشائرننا والمقربات الصوافن^(٢)

فوثبوا عليه فقتلوه . والقول الأول أصح .

ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر إلى قتال الباقيين ، فأبوا أن يجيبوه ، وقالوا : لن نخبر جوار أبي براء - وقد كان عقد لهم عقداً وجواراً - فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم : غصبة وريلاً وذكوان ، فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فأحاطوا بهم في رحالمهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقالوا : اللهم ! إنا لا نجد من يبلغ عنا رسولك غيرك ، اللهم ! فاقراً منا عليه السلام ، وأخبره خبرنا ، ثم قاتلوه . وفي رواية : واستبسط المسلمون حراماً ، فأقبلوا في أثره ، فلقيهم المشركون فأحاطوا بهم ، فقال المسلمون : والله ما إيتاكم أردنا ، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي ﷺ ، فكاثروهم ، فقتلتوا ، فقتل أصحاب رسول الله ﷺ ، وفيهم عروة بن أسماء بن الصلت ، وعرض عليه المشركون أن يؤمنوه ، وكان ذا خلة لعامر بن الطفيل ، وقومه من بني سليم ، فأبى وقال : لا أقبل لكم أماناً ، ولا أربغ بنفسي عن مصرع أصحابي ، ثم تقدّم فقاتلهم حتى قُتل ، وبقي المنذر بن عمرو فقالوا له : إن شئت آمنّاك ، فأبى وقتلهم حتى قُتل ، فقال رسول الله ﷺ : « أَعْتَقَ لِيَمُوتَ » ؛ يعني أنه تقدّم على الموت وهو يعرفه ، فقتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد ؛ فإنهم تركوه وبه رمق ، فارتث من بين القتلى ، فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيداً .

وكان عمرو بن أمية الضمريّ والمُنذر بن محمد بن عقبة الأنصاريّ في سرح المسلمين ، فلم ينبئهما بمصاب أصحابها إلا الطير تحوم على موضع الوقعة ، فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً - وفي رواية : فقال أحدهما : قتل أصحابنا والرحمن ، فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم والحيل التي أصابتهم واقفة ، فقال المنذر لعمرو : ماترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر ، فقال المنذر : لكنني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنت لتخبرني عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قُتل ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً ، فلما أخبرهم أنه من مضر ، أخذه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه ، ورجع عمرو بن أمية إلى المدينة .

وكان من بين القتلى عامر بن فهيرة ، فلم يوجد جسده رضي الله عنه ، كانوا يرون الملائكة هي دفنته ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ وَارَتْ جَسَدَهُ وَأَنْزَلَتْ فِي عِلْيَيْنَ »^(٣) .

وفي الصحيح عن عروة قال : لما قُتل الذين ببئر معونة وأسر عمرو بن أمية الضمريّ ، قال له عامر بن الطفيل : من هذا ؟ فأشار إلى قتيل ، فقال له عمرو بن أمية : هذا عامر بن فهيرة ، فقال : لقد رأيتنه بعدما قُتل رُفِعَ إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ، ثم وُضِعَ^(٤) .

(١) الأثرثاث : أن يُجْمَلَ الجريحُ مِنَ المعركة وهو ضعيف قد أُنْخِثَتْ الجراحُ (النهاية : ج ١٩٥/٢) .

(٢) المقربات الصوافن : المقربات من الخيل ؛ التي صُمِّرَتْ للركوب ، أو التي تكون قريبة معدّة (لسان العرب : ج ٣٥٦٧/٥) ، والصوافن : الخيل التي تقوم على ثلاث قوائم (لسان العرب : ج ٢٤٦٧/٤) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٢/٢ - ١٨٧) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٤/٥ ، ١٣٥ ، ١٣٧) كتاب المغازي - باب غزوة الرجيع ، وصحيح مسلم (ج ١٥١١/٣) كتاب الإمارة - باب ثبوت الجنة للشهيد ح ١٤٧ ، وطبقات ابن سعد (ج ٥١/٢ - ٥٢) و (ج ٣٧٧/٤) ، ودلائل البيهقي (ج ٢٤٢/٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ٦٥٩/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٤٥/٢) ، وعيون الأثر (ج ٤٥/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٣٥/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٥٢/٤) ، و (ج ١٢٥/٦ ، ١٢٧) ، والدرر في اختصار المغازي والسير (ص : ١٧٨) .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٣٦/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الرجيع .

وكان الذي قتله رجلاً من بني كلاب ، يقال له جَبَّار بن سَلْمَى ، وكان حضرها يومئذ مع عامر ثم أسلم ، فكان يقول : إني طعمته يومئذ بالرمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعتة يقول : فزت والله ، فقلت في نفسي : ما قوله فزت ؟ أأنت قد قتلت الرجل ؟ فأتيت الضحاك بن سفيان الكلابي - وكان مسلماً - فسألته عن قوله ، فقال : بالجنة ، أو قال : الشهادة ، فقلت : فاز لعمر الله ، وعرض عليّ الإسلام فأسلمتُ ودعاني إلى ذلك ما رأيت من مقتل عامر بن فهيرة ومن رفعه إلى السماء علواً .

وجاء رسول الله ﷺ خبر أهل بئر معونة ، وجاءه في نفس الوقت مُصاب حَبِيب بن عدي وأصحابه على لسان جبريل ، عليه السلام ، وأنزل الله ، عز وجل ، فيهم قرآناً يتلى ، ثم نسخ بعد ، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ، ثم نعاهم إلى إخوانهم فقال : « إِنَّ أَصْحَابَكُمْ قَدْ أُصِيبُوا ، وَإِنَّهُمْ قَدْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ فَقَالُوا : رَبَّنَا أَخْبِرْ عَنَّا إِخْوَانَنَا بِمَا رَضِينَا عَنْكَ وَرَضَيْتَ عَنَّا » ، ثم قال : « هَذَا عَمَلٌ أَبِي بَرَاءٍ ؛ قَدْ كُنْتُ لِهَذَا كَارِهاً مَتَّخِوفاً » .

فبلغ ذلك أبا براء فشقّ عليه إخفار عامر إتياءه وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره ، فبات عقب ذلك . وقال حسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، يحرّض بني أبي براء على عامر بن الطفيل فذكر أبياتاً ، فلما بلغ ذلك ربيعة بن عامر بن مالك حل على عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح ، فوقع في فخذه فأشواه^(١) ، ووقع عن فرسه ، فقال : هذا عمل أبي براء ، إن أمت فدمي لعمي فلا يتبعن به ، وإن أعيش فسأرى رأيي فيما أتي إلي^(٢) .

وقد وجد رسول الله ﷺ على أهل بئر معونة والرّجيع وجداً شديداً ما وجدته على أحد حتى إنه لبث شهراً يدعو على الذين قتلوه^(٣) ، فعن أنس ، رضي الله عنه ، قال : فأنزل الله علينا ثم كان من المنسوخ : إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ، فدعا النبي ﷺ على رِعْلٍ وَذُكْوَانَ وَبَنِي لِحْيَانَ وَعَصِيَّةَ الَّذِينَ عَصَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ^(٤) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يقول حين يفرغ من صلاة الفجر : « اللَّهُمَّ ! اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مَضْرٍ ، واجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ كَسِيئِ يَوْسَفَ ، اللَّهُمَّ ! الْعَنَ لِحْيَانَ وَرِعْلًا وَذُكْوَانَ وَعَصِيَّةَ عَصَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » ، ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾^(٥) .

ويروى أنه ﷺ قنت شهراً متتابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح يدعو عليهم^(٦) ، كما يروى أنه قال : « اللَّهُمَّ ! اهْدِ بَنِي عَامِرٍ ، واطْلُبْ خُفْرَتِي مِنْ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ »^(٧) .

ولما أقبل عمرو بن أمية إلى المدينة لقي في طريقه بالقرقرة من صدر قناة رجلين من بني عامر ثم من بني كلاب ، فنزلا معه في ظلّ كان هو فيه - وكان معها عقد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو - وقد سألها حين نزلا : من أنتم ؟ فقالا : من بني عامر ، فأملها حتى إذا ناما عدا عليها فقتلها وهو يرى أنه قد أصاب بها ثأر أصحابه . ثم قدم عمرو المدينة فأخبر رسول الله ﷺ بمقتل

(١) يُقَالُ : رَمَى فَأَشْوَى : إِذَا لَمْ يُصَبِّ الْمَقْتَلُ ، وَشَوَيْتَهُ : أَصَبْتُ شَوَاتَهُ ، وَالشَّوَى : جِلْدُ الرَّأْسِ ، وَقِيلَ : أَطْرَافُ الْبَدَنِ (النهاية : ج ٥١١/٢) .

(٢) سيأتي خبر وفاته في وفد بني عامر بن صعصعة .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٧/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٢٢/٢ ، ٥٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٥٢/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٦/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الرّجيع ، و (ج ١٠٤/٨) كتاب الدعوات - باب الدعاء على المشركين ، والمستدرک (ج ١١٠/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٢٥/٦) .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٣٥/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الرّجيع .

(٥) آل عمران : ١٢٨ ، والخبر في صحيح مسلم (ج ٤٦٧/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب القنوت في جميع الصلاة ح ٢٩٤ .

(٦) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٠١/١) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٢/٢) .

أصحاب بئر معونة ، فقال له ﷺ : « أُبْتِ مِنْ بَيْنِهِمْ ؟ » ، ثم أخبر النبي ﷺ بقتله العامريين ، فقال : « بئس ماصتعت ! لقد كان لها مني أمان وجوار ، لأديتها » ، فبعث بديتها إلى قومها^(١) .

☆ ☆ ☆

غزوة بني النضير

وقعت غزوة بني النضير في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة^(٢) . وبني النضير قوم من اليهود ، كانوا هم وبنو قريظة نازلين بظاهر المدينة في حدائق وأطام لهم .

وقد اختلف في سبب هذه الغزوة ، فذكر جلّ أهل المغازي أن رسول الله ﷺ خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية الرجلين الكلبيين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري ، لأنه كان ﷺ أخذ العهد على اليهود أن يعاونوه في الديات ، وقيل لأنه كان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ، فأتى رسول الله ﷺ مسجد قباء ، فصلى فيه ركعتين ، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم أتى بني النضير فكلّمهم ، فقالوا له : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، فاقعد حتى تطعم وترجع بجاحتك ، ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به ، فجلس رسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا ، وجلس معه أبو بكر وعمر وعليّ وطائفة من أصحابه .

فلما خلا بعضهم ببعض هموا بالعدو به ، واثيروا بقتله ، فقالوا : إنكم لا تجدونه أقرب منه الساعة ، استريحوا منه تأمنوا في دياركم ، ويرفع عنكم البلاء - وفي رواية : قالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ؛ أي منفرداً ليس معه من أصحابه إلا نحو العشرة - فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيقتله ويريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحّاش بن كعب ، فقال : أنا لذلك ، فقال : سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما همتم به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه ، فأبوا عليه وعزموا على قتله ، فصعد عمرو بن جحّاش ليلقي عليه صخرة كما قال ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء مع جبريل بما أراد القوم ، فقام عليه الصلاة والسلام مظهراً أنه يريد أن يقضي حاجة ، وترك أصحابه في مجلسهم ورجع مسرعاً إلى المدينة .

فلما استلبث^(٣) النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه ، فقال لهم حبيبي بن أخطب : لقد عجل أبو القاسم كذا نريد أن نقضي حاجته ، فأقبل رجل من المدينة ، فسأله عنه ، فقال : لقيته عامداً المدينة - وفي رواية : وندمت اليهود على ماصنعوا ، فقال لهم كينانة : هل تدرون لِمَ قام محمد ؟ قالوا : والله ما ندري وما تدري أنت ، فقال : والله أخبر بما همتم به من الغدر ؛ فلا تخدعوا أنفسكم ، والله إنه لرسول الله - ومضى أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فقالوا : قمت ولم نشعر بك ، فأخبرهم بما أرادت يهود من الغدر به ، ونزل في ذلك قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَمَّا خَسِبُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٤) .

هذا ما ذكره عامة أهل المغازي في سبب الغزوة ، وقال بعضهم في سببها أن بني النضير كانوا قد دسّوا إلى قريش حين نزلوا بأحد لقتال رسول الله ﷺ وأصحابه ، فضوّهم على القتال ودلّوهم على العورة .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٦/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٢/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٧٧/٢) .

(٢) هذا تاريخها عند ابن إسحاق وابن سعد ، وفي صحيح البخاري (ج ١١٢/٥) أنها كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أخذ . وقد رجحنا ما ذكره ابن إسحاق وابن سعد لما ذكرنا أن سبب هذه الغزوة همهم بالغدر بالنبي ﷺ لما خرج إليهم يستعينهم في دية قتيل عمرو بن أمية وكان ذلك حين انصرف من بئر معونة التي كانت بعد أخذ اتفاقاً .

(٣) استلبث : هو استغفل من اللبث : الإبطاء والتأخر (النهاية : ج ٢٢٤/٤) .

(٤) الآية : ١١ .

وقال آخرون : إن كفار قريش كتبوا بعد وقعة بدر إلى اليهود يتهذّبونهم : إنكم أهل الحُلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلنّ صاحبنا أو لنفعلنّ كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نساءكم شيء^(١) . فلما بلغ اليهود الكتاب أجمعت بنو النضير على الغدر ، فأرسلوا إلى رسول الله : أخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك أتبعناك ، ففعل ، فاشتلت اليهود الثلاثة على الحناجر ، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمرهم ، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم ، فرجع .

وأياً كان السبب فما لبث رسول الله ﷺ أن بعث إليهم محمد بن مسلمة : أن اخرجوا من بلدي فلا تُساكنوني بها ، وقد هممت بما هممت به من الغدر ، وقد أجلتكم عشراً ، فن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه ، فقالوا : يا محمد ! ما كنا نظنّ أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس - وكانوا حلفاءهم - فقال محمد بن مسلمة : تغيّرت القلوب ، وبخا الإسلام العهد . فكثروا على ذلك أياماً يتجهّزون ، وأرسلوا إلى ظهر لهم بني الجَدْر^(٢) وتكازروا^(٣) من ناس من أشجع إبلاً .

فلما سمع المنافقون ما يراد بإخوانهم وأوليائهم من اليهود أرسلوا إليهم ، فقالوا لهم : إنّا معكم محيانا ومماتنا ، إن قوتلتم فلکم علينا النصر ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ولم نتخلف عنكم . ويقال : أرسل إليهم عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين سوّيداً وداعساً : أن اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من دياركم وأقيوا في حصنكم ، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم في حصنكم فيوتون عن آخرهم ، وتُمدّكم قُرَيْظَةَ وحلفاؤكم من عَطْفَانَ .

فلما وثق اليهود بأماشي المنافقين عظمت عزّتهم ، ومنّاهم الشيطان الظهور ، وطمع رئيسهم حَيَّي بن أخطب فما قاله ابن أبي ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ : إنّا لا نخرج من ديارنا ، ولئن قاتلتنا لتقاتلنك ، فاصنع ما بدا لك . فأظهر رسول الله ﷺ التكبير ، وكبر المسلمون لتكبيره ، وقال : « حازبتُ يهودَ » .

فسار إليهم النبي ﷺ في أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، فصلى العصر بفضاء بني النضير ، وعليّ يحمل رايته . فلما رأوا رسول الله ﷺ التجؤوا إلى حصونهم ، فقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ وأمر بقطع النخيل والتحريق فيها^(٤) . فقد روى البخاري بسنده عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : حرّق رسول الله ﷺ نخل بني النضير ، وقطع وهي البُوَيْرَة^(٥) .

فنادوه : يا محمد ! قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ - وكانت النخلة أعجب إلى اليهود من الوصيف^(٦) - فوقع في نفوس بعض المسلمين من قولهم شيء ، فخافوا أن يكون فعلهم فساداً ، وقال بعضهم : بل نقطع لنغيظهم بذلك ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٧) ، فطابت أنفسهم حينئذ ، وكان قطع النخل وعقر الشجر خزيّاً لليهود .

وكفّ الله تعالى أيدي المنافقين فخذلهم ولم ينصروهم ، وفيهم نزل قوله عزّ وجلّ : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾^(٨) .

(١) الخَدَم : جمعُ خَدَمَة وهي الخُلخال ، كنوا بذلك عن سي نساءهم .

(٢) ذُو الجَدْر : مَسْرَحٌ على سِتَّةِ أميالٍ مِنَ المدينةِ بناحيةِ قُبَاءِ (معجم البلدان : ج ٦٦٣) .

(٣) أي استأجروا (الوسيط : ج ٧٩١/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩١/٣ - ١٩٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٧/٢ ، ٥٨) ، ودلائل البيهقي (ج ١٨١/٣) ، ودلائل أبي نعيم (ج ٦٢٩/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٥٢/٢) ، وسنن أبي داود (ج ٤٠٤/٣) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب في خير النضير ح ٣٠٠٤ ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٨١/٢) ، وفتح الباري (ج ٣٣١/٧) .

(٥) البُوَيْرَة : مَوْضِعٌ منازل بني النضير (معجم البلدان : ج ٣١٠/٢) ، والخبر في صحيح البخاري (ج ١١٢/٥) كتاب للغازي - باب حديث بني النضير .

(٦) الوصيف : الخَادِمُ ، غلاماً كان أو جارية (الوسيط : ج ١٠٤٨/٢) .

(٧) الحشر : ٥ .

(٨) الحشر : ١٢ .

غزوة بني النضير
 ربيع أول ٤هـ - آب ٦٢٥ م



فلما ظهر لهم تخلي المنافقين عنهم ، واعتزلتهم قَرْيُظَةَ فلم تمنعهم ، وكذا حلفاؤهم من غَطَفَانَ ، فأيسوا من نصرهم ، وقذف الله في قلوبهم الرعب قالوا : نحن نخرج عن بلادك ، فقال رسول الله ﷺ : « لا أَقْبَلُهُ الْيَوْمَ ، وَلَكِنْ أَخْرَجُوا مِنْهَا وَلَكُمْ دِمَاؤُكُمْ وَمَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ إِلَّا الْحَلْقَةَ » . فنزلوا على ذلك ، وكان حاصرهم خمسة عشر يوماً ، وقيل أكثر أو أقل . وولى رسول الله ﷺ إخراجهم محمد بن مسَلَمَةَ . (انظر : مصور غزوة بني النضير) .

فاحتلوا من أموالهم وأمتعتهم ما استقلَّتْ^(١) به الإبل ، وكانت ستائة بعير ، فكانوا يهدمون بيوتهم بأيديهم ليحملوا ما استحسَنوه من أبواب ونوافذ ، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف حتى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم ، ثم حملوا النساء والصبيان على الهوادج ، فخرجوا من ديارهم مطهرين التجلُد ، معهم الدفوف والمزامير ، والقيان يعزفن خلفهم ، وفيهم أم عمرو صاحبة عروة بن الوُرْدِ الصَّبِيِّ التي ابتاعوا منه وكانت إحدى نساء بني غفار ، بزهاء^(٢) وفخر ماريئي مثله من حي من الناس في زمانهم . فلما مروا بسوق المدينة ورأهم رسول الله ﷺ قال : « هَؤُلَاءِ فِي قَوْمِهِمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي الْمُغِيرَةَ فِي قَرِيْشٍ » ، ثم قال : « امضُوا فَإِنَّ هَذَا أَوَّلُ الْحَشْرِ وَأَنَا عَلَى الْآثَرِ » . وكانوا من سبَطٍ لم يُصَبِّهِمْ جِلاء ، فيها خلا ، وكان الله قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبِّ ، فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام . وحنن المنافقون عليهم حزناً شديداً .

فسار أكثرهم وأشرفهم كسَلَامُ بن أبي الْحَقِيْقِ ، وكِنَانَةُ بن الرَّبِيعِ ، وَحِيَّي بن أَخْطَبِ ، إلى خيبر ، فلما نزلوها دان لهم أهلها ، وسارت جماعة منهم إلى أذْرَعَاتِ الشَّامِ .

وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار ، لأن المرأة منهم كانت إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده ، فلما أجلبت بنو النضير قال آباء أولئك : لاندع أبناءنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾^(٣) .

ولم يسلم من بني النضير إلا رجلاَن وهما يامين بن عمير ، وأبو سعد بن وهب ، قال أحدهما لصاحبه : والله إننا لنعلم أنه لرسول الله ، فما نتظر أن نسلم فنأمن على دماننا وأموالنا ، فنزلا من الليل ، فأسلما وأحرزا أموالها . وجعل يامين لرجل جَعْلًا^(٤) على أن يقتل له عمرو بن جَحَّاش ، وذلك بعد أن قال له رسول الله ﷺ : « أَلَمْ تَرَ مَا لَقِيتُ مِنْ ابْنِ عَمَّكَ وَمَا هَمَّ بِهِ مِنْ شَأْنِي ؟ » فقتله فيما يزعمون .

وقبض رسول الله ﷺ ما تركوه من الأموال والسلاح ، فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً . وكانت أموال بني النضير وأرضهم وديارهم صفيّاً لرسول الله ﷺ ، حُبْسًا^(٥) لنوائبه ، ولم يحمسها ، ولم يسهم منها لأحد ، لأن الله أفاءها عليه ، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوقِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾^(٦) ، فكانت خالصة له ﷺ يضعها حيث يشاء ، فأعطى أكثرها له هاجرين وقسمها بينهم خاصة ، ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار إذ كانوا قد قاسمهم في الأموال والديار لما هاجروا وأخى بينهم رسول الله ﷺ . وكان ينفق مما بقي منها على أهله نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكرَاعِ عِدَّةً في سبيل الله ، أو يجعله يجعل مال الله^(٧) .

(١) أَقْلُ الشَّيْءِ وَاسْتَقْلَهُ : إِذَا رَفَعَهُ وَحَمَلَهُ (النهاية : ج ١٠٤/٤) .

(٢) الرَّهَاءُ : الرَّهْوُ وَالْكَيْبُرُ وَالْفَخْرُ (النهاية : ج ٢٢٢/٢) .

(٣) البقرة : ٢٥٦ .

(٤) الْجُعْلُ : مَا يُجْعَلُ عَلَى الْعَمَلِ مِنْ أَجْرٍ أَوْ رِشْوَةٍ (الوسيط : ج ١٢٦/١) .

(٥) أَي وَقْفًا (لسان العرب : ج ٧٥٢/١) .

(٦) الحشر : ٦ .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩٢/٣ - ١٩٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٨٢/٢ - ٥٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٨/٣) ، ودلائل أبي نعيم

(ج ٦٣٥/٢) ، وسنن أبي داود (ج ١٣٢/٣) كتاب الجهاد - باب في الأسير يكره على الإسلام ح ٢٦٨٢ ، و (ج ٤٠٦/٣) كتاب الخراج والإمارة

والفيء - باب في خير بني النضير ح ٢٠٠٤ ، وصحيح البخاري (ج ١١٤/٥) كتاب المغازي - باب حديث بني النضير ، و (ج ١٨٤/٦) كتاب

التفسير - سورة الحشر .

روي أنه لما ظهر رسول الله ﷺ على بني النضير وغنم أموالهم دعا الأنصار الأوس والخزرج ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم في منازلهم وإيثارهم على أنفسهم ، ثم قال لهم : « إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال التي أفاء الله عليّ وخصني بها مع أموالكم بينكم جميعاً ، وإن شئتم أمسكنم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » ، فقالوا : بل اقسم هذه فيهم ، واقسم لهم من أموالنا ما شئت - وفي رواية : « إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم » ، فتكلم سعد بن عباد وسعد بن معاذ ، رضي الله عنهما ، فقالا : يا رسول الله ! بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ! ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » ، وقال أبو بكر رضي الله عنه : جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً ، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال العنوي :

جزى الله عنا جعفرأ حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن آمننا تلاقى الذي يلقون مما ملت

وأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾^(١) . فقسم رسول الله ﷺ ذلك بين المهاجرين ، ولم يعط أحداً من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين ؛ سهل بن حنيف وأبا دجانة ، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق ، وكان سيفاً له ذكر عندهم^(٢) .

وأنزل الله تعالى في أمر بني النضير سورة الحشر بأسرها ، فوصف فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسوله ﷺ وما عمل به فيهم ، ومدح فيها الأنصار ، وذم المنافقين وفضح ما كان بينهم وبين اليهود ، وبين أحكام الفية ... وكان ابن عباس ، رضي الله عنهما ، يقول عن سورة الحشر سورة بني النضير كما روي في الصحيح^(٣) .

☆ ☆ ☆

تحريم الخمر :

وأثناء حصار النبي ﷺ لبني النضير ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة أنزل الله تحريم الخمر تحريماً باتاً^(٤) . وقد جرى تحريمها على ثلاث مراحل ، وذلك لأن المسلمين كانوا ألفوا شرابها ، حتى استغنى بها بعضهم عن الشراب ، فلم يكن إقلاعهم عنها ميسوراً ، ولو منعوا عنها دفعة واحدة لشق ذلك عليهم .

فقد قدم رسول الله ﷺ المدينة ، والناس يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوه عنها ، فأنزل الله سبحانه قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾^(٥) إلى آخر الآية ، فقال الناس : ما حرم علينا ، إنما قال : ﴿ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ فشرها قوم لوجود النفع وتركها آخرون لوجود الإثم ، حتى إذا كان يوم من الأيام دعا رجل من الأنصار نقرأ إلى شرابها ، فحضرت صلاة المغرب ، فقام أحدهم يصلّي بأصحابه وهو سكران ، فقرأ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فخلط في القراءة ، فأنزل الله فيها آية أغلظ منها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾^(٦) ، فقل شاربوها ، وكان

(١) الحشر : ٩ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩٣/٣) ، وعيون الأثر (ج ٥٠/٢) ، وفتوح البلدان (ص : ٢٣) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩٤/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١١٢/٥) كتاب المغازي - باب حديث بني النضير .

(٤) هذا مقاله ابن هشام في السيرة (ج ١٩٢/٣) ، وقيل : كان تحريمها عام الفتح سنة ثمان . انظر : (فتح الباري : ج ٢٧٩/٨) .

(٥) البقرة : ٢١٩ .

(٦) النساء : ٤٣ .

أحدهم يشرب في وقت معين ويمتنع سائر اليوم حتى يأتي الصلاة وهو مفيق ، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) فَحَرَّمَ الخمر تحريماً باتاً (٢) .

وقد جاء في سبب نزولها ما روى مسلم بسنده عن سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، قال : أتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا : تعال نطعمك ونستميك خمرأ ، وذلك قبل أن تحرم الخمر ، قال : فأتيتهم في حش - والحش البستان - فإذا رأس جزور مشوي عندهم وزق من خمر ، قال : فأكلت وشربت معهم ، قال : فذكرت الأنصار والمهاجرون عندهم ، فقلت : للمهاجرون خير من الأنصار ، قال : فأخذ رجل أحد لحيي (٣) الرأس فضربني به ، فجرح بأنفي ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأنزل الله عز وجل ، في - يعني نفسه - شأن الخمر : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٤) .

وروى الحاكم بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا حتى إذا تملأوا (٥) عبث بعضهم ببعض ، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته ، فيقول : فعل بي هذا أخي فلان ، والله لو كان بي رؤوفاً رحياً ما فعل هذا بي ، قال : وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن ، فوقع في قلوبهم الضغائن ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... ﴾ الآية (٦) .

وروى الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أنه قال : اللهم ! بين لنا في الخمر بيان شفاء ، فنزلت التي في البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الآية ، فدعني عمر فقرأت عليه ، فقال : اللهم ! بين لنا في الخمر بيان شفاء ، فنزلت التي في النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ فدعني عمر فقرأت عليه ، ثم قال : اللهم ! بين لنا في الخمر بيان شفاء ، فنزلت التي في المائدة : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَهْلُ أَنْتُمْ مُنْتَهَوْنَ ﴾ (٧) فدعني عمر فقرأت عليه ، فقال : انتهينا انتهينا (٨) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قام رسول الله ﷺ فقال : « يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ! إِنَّ اللَّهَ يُعَرِّضُ عَلَيَّ فِي الْخَمْرِ تَعْرِيباً لَا أَدْرِي لَعَلَّه يُنَزِّلُ عَلَيَّ فِيهِ أَمْراً » ، ثم قام فقال : « يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ ، فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَا يَشْرِبُهَا وَلَا يَبِيعُهَا » ، قال : فسكبوها في طرق المدينة (٩) .

وعن أنس ، رضي الله عنه ، قال : كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة ، فنزل تحريم الخمر ، فأمر منادياً فنادى ، فقال أبو طلحة : اخرج فانظر ما هذا الصوت ؟ قال : فخرجت ، فقلت : هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت ، فقال لي : اذهب فأهرقها ، قال : فجرت في سلك المدينة ، قال : وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ (١٠) ، فقال بعض القوم : قتل قوم وهي في بطونهم ، قال : فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحَ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ (١١) .

(١) المائدة : ٩٠ .

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٥١/٢) .

(٣) اللحيان : هما العظمان اللذان فيها الأسنان من كل ذي لحي . وقد تقدم .

(٤) صحيح مسلم (ج ١٨٧٧/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ح ٤٣ .

(٥) تَمَلَّأَ : أَخَذَ فِيهِ الشَّرَابُ (الوسيط : ج ١٠٠/١) .

(٦) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١٤١/٤) وقال الذهبي : على شرط مسلم .

(٧) المائدة : ٩١ .

(٨) رواه الترمذي في سننه (ج ٢٥٢/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة المائدة ح ٢٠٤٩ .

(٩) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٧٨/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(١٠) الفضيخ : شَرَابٌ يَتَّخَذُ مِنَ الْبُسْرِ الْمَفْصُوحِ ؛ أَي : الْمَشْدُوحِ (النهاية : ج ٤٥٢/٣) .

(١١) المائدة : ٩٣ ، والخبر في صحيح البخاري (ج ٦٧/٦) كتاب التفسير - سورة المائدة .

وفي رواية : فقال النبي ﷺ : « لَوْ حَرَمْتَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوها كَمَا تَرَكَتُمْ » (١) .

وروي عن عبد الرحمن بن شُرَيْحِ الْخَوْلَانِيِّ أَنَّهُ كَانَ لَهُ عَمٌّ يَبِيعُ الْحُمْرَ ، وَكَانَ يَتَصَدَّقُ بِثَمَنِهِ ، فَنهَيْتَهُ عَنْهَا فَلَمْ يَنْتَهُ ، فَقدمت المدينة فلقيت ابن عباس ، فسألته عن الحمر وثمنها ، فقال : هي حرام وثمنها حرام ، ثم قال : يا معشر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ! إنه لو كان كتاب بعد كتابكم ، أو نبي بعد نبيكم لأنزل فيكم كما أنزل فيمن كان قبلكم ، ولكن أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ، ولعمري هو أشد عليكم ، قال : ثم لقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الحمر ، فقال : سأخبرك عن الحمر ، إني كنت عند رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، في المسجد ، فبينما هو مُحْتَبٌ حَلَّ حَبِوتَهُ ، ثم قال : « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذَا الْحُمْرِ شَيْءٌ فَلْيُؤَدِّهِ بِهِ » ، فجعل الناس يأتونه ، فيقول أحدهم : عندي راوية (٢) حمر ، ويقول الآخر : عندي راوية ، ويقول الآخر : عندي زق أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اجْمَعُوهُ بِتَبِيعِ كَذَا وَكَذَا ، ثُمَّ آذِنُونِي » ، ففعلوا ثم آذنه ، قال : ففقت فمشيت وهو متكى عليّ ، فلحقنا أبو بكر ، رضي الله عنه ، فأخذني رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فجعلني عن يساره ، وجعل أبا بكر مكاني ، ثم لحقنا عمر ، فأخذني وجعلني عن يساره ، فمشى بينهما ، حتى إذا وقف على الحمر ، قال للناس : « أَتَعْرِفُونَ هَذِهِ ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، هذه الحمر ، قال : « صَدَقْتُمْ » ، ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْحُمْرَ ، وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا ، وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا ، وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَبَايِعَهَا وَمُشْتَرِيَهَا ، وَأَكَلَ ثَمَنِيهَا » ، ثم دعا بسكين ، فقال : « اشْحَذُوهَا » ، ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يخرق بها الرزاق ، فقال الناس : إن في هذه الرزاق لمنفعة ، فقال : « أَجَلٌ ، وَلَكِنْ إِنِّي أَفْعَلُ غَضَبًا لِلَّهِ لِمَا فِيهَا مِنْ سَخَطِهِ » ، فقال عمر : أنا أكفيك يا رسول الله ، قال : « لا » (٣) .

شأن أعشى بني قيس :

روى ابن هشام في السيرة أن أعشى بني قيس خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام ، فقال أبياتا يمدح فيها رسول الله ﷺ ، فلما كان بمكة أو قريبا منها اعترضه بعض المشركين من قريش ، فسأله عن أمره ، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم ، فقال له : يا أبا بصير ! إنه يحرم الزنى ، فقال الأعشى : والله إن ذلك لأمر مالي فيه من أرب ، فقال له : يا أبا بصير ! فإنه يحرم الحمر ، فقال الأعشى : أما هذه ؛ فوالله إن في النفس منها لغلالات (٤) ، ولكنني منصرف فأترؤى منها عامي هذا ، ثم أتته فأسلم ، فانصرف فمات في عامه ذلك ، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ (٥) .

☆ ☆ ☆

غزوة بدر الآخرة (٦) :

ولما اقترب الموعد المضروب مع قريش في غزوة أحد - حيث كان أبو سفيان قال منصرفه منها : الموعد بيننا وبينكم بدر من العام القابل ، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : « قُلْ نَعَمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » - استنفر رسول الله ﷺ المسلمين وأمرهم بالتهيؤ للخروج إلى بدر . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين أحد والخذق) .

أما أبو سفيان فإنه كره الخروج ، وأخذ الرعب ، وكان قد قدم مكة في ذلك الوقت نعيم بن مسعود الأشجعي ، فقال له

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٢٥١/٢) .

(٢) الرّأويّة : المَرَادَةُ (لسان العرب : ج ١٧٨٤/٣) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١٤٤/٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٤) الغلّالة : بقیة كل شيء ، وهي ماتعللت به ؛ أي : لهوت ، من الغلّال : الشرب بعد الشرب . انظر (لسان العرب : ج ٣٠٧٩/٤) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٤١١/١) .

(٦) وتسمى غزوة بدر الصغرى لعدم وقوع حرب فيها ، وتسمى أيضا بدر الموعد للمواعدة عليها مع أبي سفيان يوم أحد ، وهي الثالثة ، كما تسمى غزوة جيش السويق . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٩٢/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٢٨٤/٣) .

أبو سفيان : إني قد واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي ببدر ، وقد جاء ذلك الوقت ، وهذا عام جدب وإنما يصلحنا عام خصب عيذاب^(١) ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيجترى علينا ، فنجعل لك عشرين فريضة^(٢) يضمنها لك سهيل بن عمرو على أن تقدم المدينة فتخذل أصحاب محمد عن الخروج لبدر ، فوافق على ذلك وحملوه على بعير ، فأسرع السير حتى قدم المدينة ، فوجد الناس يتجهزون ، فتدسس لهم وقال : ليس هذا برأي ، ألم يجرح محمد في نفسه ! ألم يقتل أصحابه ! وأخبرهم بجمع أبي سفيان لهم وما معه من العدة والسلاح ، فثبط الناس وقذف في قلوبهم الرعب ، حتى بلغ الأمر رسول الله ﷺ ، فتكلم فقال : « والذي نفسي بيده لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد ! » فأذهب الله عنهم ما كانوا يجدون .

فخرج رسول الله ﷺ في شعبان من السنة الرابعة للهجرة^(٣) ، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة أو عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول ، وحمل لواءه علي بن أبي طالب ، وسار في المسلمين وهم ألف وخمسمائة ، وكانت الخيل عشرة أفراس ، وخرجوا ببضائع لهم وتجارات ، وكانت بدر مجتمعاً يجتمع فيه العرب وسوقاً من أسواقهم ، فاتتهوا إليها وأقاموا ينتظرون للمشركين .

وخرج أبو سفيان بن حرب من مكة في قريش وهم ألفان ، ومعهم خمسون فرساً ، حتى انتهوا إلى متجئة من ناحية مَرَّ الظهران ، أو إلى عسفان ، ثم قال : يامعشر قريش ! إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإني راجع فارجعوا ، فرجع الناس ، فسماهم أهل مكة جيش السويق ؛ يقولون : إنما خرجتم تشربون السويق . وهذه حيلة دبرها أبو سفيان ، لأنه لم يكن يريد حرباً بل خرج لئلا يقال أخلف وعده ولم يخرج .

وأما رسول الله ﷺ فأقام على بدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان لميعاده ، فأناه مخشي بن عمرو الضمري - وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودان - فقال : يا محمد ! والله إن كنا قد أخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ، فما عملكم إلى هذا الموسم ؟ أجيئت للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : « نعم يا أخا بني ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالذناك حتى يحكم الله بيننا وبينك » ، قال : لا ، والله يا محمد مالنا بذلك منك من حاجة .

وباع المسلمون في تلك المدة ما معهم من التجارات ، فربحوا للدرهم درهماً ، روي عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾^(٤) ، قال : هذا أبو سفيان قال يوم أحد : يا محمد ! موعدم بدر حيث قتلت أصحابنا ! فقال محمد ﷺ : « عسى ! » فانطلق النبي ﷺ لموعده حتى نزلوا بدرأ ، فوافقوا السوق ، فذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ مِنْ اللَّهِ وَفَضَّلَ لِمِمْسَسَهُمْ سُوءَ ﴾^(٥) والفضل : ما أصابوا من التجارة^(٦) .

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقد سمع الناس بسيره ، وبلغ قريشاً أمره ، وكان الخبر لهم بذلك معبد بن أبي معبد الخزاعي ، فإنه مر برسول الله ﷺ وهو ببدر ، ثم خرج سريعاً إلى مكة فأخبرهم بخبر رسول الله ﷺ وموافاته بدرأ في أصحابه ، فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان : قد نهيتك يومئذ أن تعيد القوم ، وقد اجترؤوا علينا ، ورأوا أن قد أخلفناهم^(٧) .

☆ ☆ ☆

(١) الفَيِّدَابُ : الواسع المخصب (الوسيط : ج ٦٥٢/٢) .

(٢) الفَرِيضَةُ : البعير المأخوذ في الزكاة ، سمي فريضة ؛ لأنه فرض واجب على رب المال ، ثم اتسع فيه حتى سمي البعير فريضة في غير الزكاة (النهاية : ج ٤٢٢/٣) .

(٣) ويقال : أول ذي القعدة كما في طبقات ابن سعد (ج ٥٩٢) ، والقول الأول هو الصحيح كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٨٩/٤) .

(٤) آل عمران : ١٧٣ .

(٥) آل عمران : ١٧٤ .

(٦) طبقات ابن سعد (ج ٦٠/٢) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢١/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٩٢) .

زواج النبي ﷺ من أم سلمة رضي الله عنها :

وفي شوال من السنة الرابعة للهجرة تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة ، رضي الله عنها ، وهي هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية ، وذلك بعد أن انقضت عدتها من زوجها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد رضي الله عنه . وكانت أنجبت منه سلمة وعمر وزينب ورقية ، وقيل : ذرة بدل رقية .

وقد كانت أم سلمة ، رضي الله عنها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلمٍ تُصيبةٌ مُصيبةٌ فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم ! أجرني في مصيبتِي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها » - وفي رواية : قالت أم سلمة : أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ ، فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً فسرت به ، قال : « لا تُصيبُ أحداً من المسلمين مُصيبةٌ فيسترجع عند ذلك ثم يقول : اللهم ! عندك أحسبُ مصيبتِي هذه ، اللهم ! أخلفني فيها بخيراً منها إلا أعطاه الله ذلك » - قالت : فلما مات أبو سلمة استرجعت وقلت : اللهم ! عندك أحسبُ مصيبتِي فأجرني فيها ، وكنت إذا أردت أن أقول : فأبدلني بها خيراً منها ، قلت في نفسي : أي المسلمين خير من أبي سلمة ؟ أول بيت هاجر ، ثم إني قلتها ، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ .

ويروي أنه لما انقضت عدتها ، وذلك لعشر ليال بقين من شوال من السنة الرابعة للهجرة ، خطبها أبو بكر ، فردته ، ثم خطبها عمر فردته ، فأرسل إليها رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبها له ، ويقال عمر بن الخطاب ، فقالت : مرحباً برسول الله ﷺ وبرسوله ، أفرىء رسول الله ﷺ السلام ، وأخبره أني امرأةٌ غيّري ، وأنني امرأةٌ مُصيبةٌ^(١) ، وليس أحد من أوليائي شاهداً ، فأنى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك ، فقال : « ارجعْ إليها فقلْ لها : أمّا قولك إنني امرأةٌ غيّري فأدعُ الله فيذهب غيّرك ، وأمّا قولك إنني امرأةٌ مُصيبةٌ فسكنكم صبيانك ، وأمّا قولك إنه ليس أحدٌ من أوليائك شاهداً فليس أحدٌ من أوليائك شاهداً ولا غائبٌ يكره ذلك » . وفي لفظ : « إلا سيرضاني » .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ أتاهما فاستأذن عليهما ، فأذنت له ، فخطبها إلى نفسه ، فلما فرغ من مقالته قالت أم سلمة : يا رسول الله ! ما بي أن لا تكون بك رغبة فيّ ولكني امرأةٌ في غيرةٍ شديدة ، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به ، وأنا امرأةٌ قد دخلت في السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : « أمّا ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله ، عز وجل ، عنك ، وأمّا ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك ، وأمّا ما ذكرت من العيال فإننا عيالك عيالي » ، قالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ . فدعا رسول الله ﷺ لها فكانت في النساء كأنها ليست منهن لا تجد ما يبدن من الغيرة .

وفي روايات أخرى أن أم سلمة قالت لأبي سلمة : بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة وهي من أهل الجنة ، ثم لم تزوج بعده إلا جمع الله بينها في الجنة ، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها ، فتعال أعاهدك ألا تزوج بعدي ولا أتزوج بعدك ، قال : أنطيعيني ؟ قالت : ما استأمرتك إلا وأنا أريد أن أطيعك ، قال : فإذا مت فتزوجني ، ثم قال : اللهم ! ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني لا يحزنها ولا يؤذيها ، فلما مات أبو سلمة قالت : من هذا الفتى الذي هو خير لي من أبي سلمة ؟ فلبثت ما لبثت ثم جاءها رسول الله ﷺ فلف رداءه ووضعه على أسكفة الباب واتكأ عليه وقال : « هل لك يا أم سلمة » ، قالت : إني امرأة شديدة الغيرة وأخاف أن يبدو إلى رسول الله ﷺ مني ما يكره ، فانصرف ، ثم عاد ، فقال : « هل لك يا أم سلمة ، إن كان بك الزيادة في صدقك زدنا ؟ » فعادت لقولها ، فقالت أم عبد : يا أم سلمة ! تدرين ما يتحدث به نساء قريش ، يقلن إن أم سلمة إنما ردت محمداً لأنها شابة من قريش أحدث منه سناً وأكثر منه مالاً ، فأنت رسول الله ﷺ فتزوجها . زوجته إنها سلمة بن أبي سلمة ، أو عمر بن أبي سلمة ابنها ، وأصدقها رسول الله ﷺ فراشاً حشوه ليف ، وقدحاً وصحفةً ومجشةً^(٢) . وفي رواية : قال لها رسول الله ﷺ : « لا أتصك شيئاً مما أعطيت أختك فلانة : جرتين ورحاتين وِسادةً من آدم حشوها ليف » .

(١) أي ذات صيبة ذكور وإناث . انظر الوسيط (ج ٥٠٩/١) .

(٢) المجشة : آلة الجرش من رحي وغيرها ، ويقال : جش الحَب : جرشه (الوسيط : ج ١٢٤/١) .

وكان النبي ﷺ يأتيها ليدخل بها ، فإذا رآته أخذت ابنتها زينب فجعلتها في حجرها لترضعها ، وكان رسول الله ﷺ حياً كريماً يستحي فينصرف ، فعمل بذلك عمار بن ياسر ، رضي الله عنه ، وكان أخاها من الرضاعة ، فجاء إليها فقال : أين المقبوحة المنبوحة (١) ؟ التي قد آديت بها رسول الله ﷺ ، فأخذها فذهب بها ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : « أَيْنَ زَنَابُ ؟ » قالت : أخذها عمار ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي آتَيْكُمُ اللَّيْلَةَ » ، فأتى رسول الله ﷺ فابتنى بها ، وذلك في ليال بقين من شوال .

وكانت وليته عليها تماً وسمناً ، أو تماً وسويقاً ، قال أنس رضي الله عنه : لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة أمر بالنطع (٢) فبسط ، ثم ألقى عليه تماً وسويقاً ، فدعا الناس فأكلوا ، وقال : « الْوَلِيَّةُ فِي أَوَّلِ يَوْمِ حَقٍّ ، وَالثَّانِي مَعْرُوفٌ ، وَالثَّلَاثَةُ رِئَاءٌ وَسُمْعَةٌ » .

وقالت أم سلمة : تزوجني رسول الله ﷺ فأتقني فأدخلني بيت زينب بنت خزيمة أم المساكين بعد أن ماتت ، فإذا جرة ، فاطلمت فإذا فيها شيء من شعير ، وإذا رحى وبُرْمَةٌ وقدر ، فنظرت فإذا فيها كعْبٌ من إهالة (٣) ، قالت : فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصّته (٤) في البرْمَةِ ، وأخذت الكعْب من الإهالة فأذمته به ، قالت : فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه . وكان أهل المدينة يقولون : دخلت أيم العرب أم سلمة على سيّد الإسلام والمسلمين أوّل العشاء عروساً ، وقامت من آخر الليل تطحن وهي أم المؤمنين رضي الله عنها (٥) .

يروى أنه عندما تزوجها ﷺ قال لها : « إِنِّي أَهْدَيْتُ إِلَى النَّجَاشِيِّ أَوْاقاً مِنْ مِسْكِ وَخَلَّةٍ ، وَإِنِّي لِأَرَأُهُ إِلاَّ قَدْ مَاتَ وَلا أَرَى الْهَدِيَّةَ الَّتِي أَهْدَيْتُ إِلَيْهِ إِلاَّ سَرَدْتُ ، فَإِذَا رَدَّتْ إِلَيَّ فَهُوَ لَكَ » أو « لَكُمْ » . فكان كما قال : هلك النجاشي ، فلما ردت إليه الهدية أعطى كل امرأة من نسائه أوقية من ذلك المسك ، وأعطى سائر أم سلمة ، وأعطاهما الخلة (٦) .

ويروى أنه لما ابنتي رسول الله ﷺ بها أقام عندها ثلاثاً وقال : « إِنَّهُ لَيْسَ بِكَ عَلَى أَهْلِكَ هَوَانٌ » - وفي لفظ : « إِنَّ بِكَ عَلَى أَهْلِكَ كَرَامَةٌ » - « إِنَّ شَيْئاً سَبَعْتُ لَكَ ، وَإِنْ سَبَعْتُ لَكَ سَبَعْتُ لِنِسَائِي » - وفي لفظ : « إِنَّ شَيْئاً رَدَّتْكَ وَحَاسِبْتِكَ بِهِ ، لِلْبِكْرِ سَبْعٌ وَلِلثَيْبِ ثَلَاثٌ » - وفي لفظ : « إِنَّ شَيْئاً أَنْ سَبَعْتُ عِنْدَكَ وَأَسْبَعْتُ عِنْدَ صَوَاحِبَاتِكَ ، وَإِلاَّ فَثَلَاثَتِكَ ، ثُمَّ أَذُورُ عَلَيْكَ فِي لَيْلَتِكَ » ، قالت : بل ثلث لي يا رسول الله (٧) .

- وكانت أم سلمة ، رضي الله عنها ، من أجل الناس ، قالت عائشة رضي الله عنها : لما تزوجها رسول الله ﷺ حزنت حزناً شديداً لها ذكروا لنا من جمالها ، قالت : فتلطفت لها حتى رأيتها ، فرأيتها والله أضعاف ما وصفت لي في الحسن والجمال ، فذكرت ذلك لحفصة - وكانت هي وعائشة يداً واحدة - فقالت : لا والله إن هذه إلا العيرة ، ما هي كما يقولون ، فتلطفت لها حفصة حتى رأتها ، فقالت : قد رأيتها ولا والله ما هي كما تقولين ولا قريب وإنها لجميلة ، قالت عائشة : فرأيتها بعد فكانت لعمري كما قالت حفصة ولكني كنت غيري (٨) .

(١) الْمُتَبَوِّحُ : الذي يُرَدُّ وَيُخْسَأُ ، وَالْمُنْبُوْحُ : الذي يُضْرَبُ لَهُ مِثْلُ الْكَلْبِ ، مِنَ الْقُبْحِ وَهُوَ الْإِبْعَادُ . وَرَجُلٌ مُنْبُوْحٌ : يُضْرَبُ لَهُ مِثْلُ الْكَلْبِ وَيُشْبَهُ بِهِ وَهُوَ الْمَشْتُوْمُ . (لسان العرب : ج ٣٥٠٩/٥ ، ج ٤٣٢٠/٦) .

(٢) النَّطْعُ : بِسَاطٍ مِنَ الْجِلْدِ (الوسيط : ج ٩٣٨/٢) .

(٣) كَعْبٌ مِنْ إِهَالَةٍ : أَي قِطْعَةٌ مِنَ السَّمْنِ وَالذُّهْنِ (النهاية : ج ١٧٩/٤) .

(٤) يُقَالُ عَصَّتُ الْعَصِيَّةَ : اتَّخَذْتُهَا (لسان العرب : ج ٢٩٦٧/٤) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٢٢/٤) ، وصحيح مسلم (ج ٦٣١/٢) كتاب الجنائز - باب ما يقال عند المصيبة ح ٣ ، والمستدرک (ج ١٧٨/٢) و (ج ١٧٤/٤ ، ١٧٤/٦ ، ١٨) ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٢٧/٤) ، و (ج ٣١٢/٦ ، ٣١٤ ، ٣١٧) ، ومجمَع الزوائد (ج ٥٠/٤) و (ج ٢٤٥/٩) ، وسنن ابن ماجه (ج ٦٤١/١) كتاب النكاح - باب متى يستحب البناء بالنساء ح ١٩٩١ ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٨/٨ ، ٩٢) ، وسنن البيهقي (ج ٢٦٠/٧) ، ودلائله (ج ٤٦٤/٣) .

(٦) انظر : المستدرک (ج ١٨٨/٢) .

(٧) انظر : صحيح مسلم (ج ١٠٨٢/٢) كتاب الرضاع - باب قدر ماتستحقه البكر والثيب من إقامة الزوج عندها عقب الزفاف ح ٤١ وح ٤٢ ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٣٢١/٦) ، وسنن الدارقطني (ج ٢٨٢/٣) .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ٩٤/٨) .

روي أن رسول الله ﷺ كان عند أم سلمة ، فجعل الحسن من شِقِّ والحسين من شِقِّ ، وفاطمة في حجره ، فقال : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾^(١) ، وأم سلمة وابنتها زينب جالستان ، فبكت أم سلمة ، فنظر إليها رسول الله ﷺ فقال : « مَا يُبْكِيكِ ؟ » فقالت : خصصتهم وتركتني وابنتي ، فقال : « أَنْتِ وَابْنَتُكِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ »^(٢) .

- وفاتها :

توفيت أم سلمة ، رضي الله عنها ، في سنة تسع وخمسين ، وكان لها يوم ماتت أربع وثمانون سنة ، وقيل : توفيت سنة إحدى وستين حين جاء نعي الحسين وهو الصحيح كما قال ابن عساكر ، أو سنة ثنتين وستين زمن يزيد بن معاوية ، وكانت آخر أمهات المؤمنين ، رضي الله عنهن ، وفاة . وصلى عليها أبو هريرة وابن أخيها عبد الله بن عبد الله بن أبي أمية ، ودُفنت في البقيع ، ونزل في قبرها ابنها سلمة وعمر ، وابن أخيها عبد الله ، وعبد الله بن وهب بن زُمعة الأسدي ، رضي الله عنها وأرضاها^(٣) .

☆ ☆ ☆

(١) هود : ٧٣ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق (ق ١٧٢/١) .

(٣) انظر : المستدرک (ج ١٨/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٦/٨) ، وتاريخ دمشق (ق ١٧٢/١) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٤٥/٩) .

غزوة ذات الرِّقَاع

وتسمى هذه الغزوة غزوة نَجْد ، وغزوة مُحَارِبِ خَصَمَةَ ، وغزوة بني ثَعْلَبَةَ ، وغزوة الأعاجيب ، لما وقع فيها من الأمور العجيبة .

واختلف في تسمية هذه الغزوة بذات الرِّقَاع ، فقيل : لأنهم رَقَعوا فيها راياتهم ، وقيل : سُمِّيت باسم شجرة كانت بذلك الموضع يقال لها ذات الرِّقَاع . وقيل : ذات الرِّقَاع اسم موضع وهو جبل فيه بقع حُمْرَة وسواد وبياض ، قريب من النُّخَيْل بين السُّعْد والشُّقْرَة^(١) . وقيل : سُمِّيت كذلك لأن أقدامهم تَقَبَّتْ^(٢) من المشي فلفوا عليها الحِرْقَ ، فعن أبي موسى ، رضي الله عنه ، قال : خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ، ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقه ، فنَقَبَّتْ أقدامنا ، وتَقَبَّتْ قدماي وسقطت أطفاري ، وكنا نلْفُ على أرجلنا الحِرْقَ ، فسُمِّيت غزوة ذات الرِّقَاع لما كُنَّا نعصِب من الحرق على أرجلنا . وحدث أبو موسى بهذا ثم كره ذلك ، قال : ما كنت أصنع بأن أذكره ، كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه^(٣) .

وقد جزم عامة أهل السير والمغازي أن هذه الغزوة كانت قبل خيبر ، ولكنهم اختلفوا في زمنها ؛ فعند ابن إسحاق أنها بعد بني النضير وقبل الخندق سنة أربع للهجرة في شهر جمادى الأولى ، وعند ابن سعد وابن حبان أنها كانت في المحرم سنة خمس ، وأما أبو معشر فجزم أنها كانت بعد بني قريظة^(٤) .. ولكن ما ورد في الصحيحين من أن أبا موسى وأبا هريرة ، رضي الله عنهما ، شهدا ذات الرِّقَاع يدل - كما قال البخاري - على أنها كانت بعد خيبر في السنة السابعة للهجرة ، لأنها إنما قدما بعد خيبر كما سيأتي^(٥) . فالأولى الاعتماد على ما ثبت في الصحيحين ، غير أننا رأينا ذكر هذه الغزوة هنا في آخر السنة الرابعة وقبل الخندق اتباعاً لمعظم أصحاب المغازي ، ولما روى ابن إسحاق أن النبي ﷺ سأل جابراً ، رضي الله عنه ، في ذات الرِّقَاع « هل تزوجت بعد ؟ » الحديث وسيأتي مفصلاً في قصة جمل جابر ، رضي الله عنه ، وهو يدل على أن رسول الله ﷺ لم يكن يعلم بعد شيئاً عن زواجه ، في حين أنه ﷺ في غزوة الخندق التي كانت في السنة الخامسة دعاه جابر ، رضي الله عنه ، إلى طعام صنعته زوجته وقال لها ﷺ يومئذ : « كلي هذا وأهدي ، فإن الناس

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٤/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦١/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٨/٩) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٨٦٢/٢) .

(٢) تَقَبَّتْ : أي رَقَعَتْ جُلُودَهَا وَتَنَفَّطَتْ (قَرِحَتْ) مِنَ الْمَشْيِ . انظر : (النهاية : ج ١٠٢/٥) .

(٣) صحيح البخاري (ج ١٤٥/٥) كتاب المغازي - باب غزوة ذات الرِّقَاع . وقد رجح السهيلي السبب الذي ذكره أبو موسى ، رضي الله عنه ، وكذا

النووي ثم قال : ويحتمل أن تكون سُمِّيت بالجمع . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٨٨٢/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٤/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦١/٢) ، وفتح الباري (ج ٤١٧/٧) . وانظر : مصور السرايا والغزوات بين أحد

والخندق .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤٤/٥ ، ١٤٧) كتاب المغازي - باب غزوة ذات الرِّقَاع ، وصحيح مسلم (ج ١٤٤٩/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة

ذات الرِّقَاع / ح ١٤٩ . ويحتمل أن تكون ذات الرِّقَاع اسماً لغزوتين مختلفتين : واحدة بعد خيبر وأخرى قبلها ، فقد قيل : إن الغزوة التي شهدتها

أبو موسى ، رضي الله عنه ، وسُمِّيت ذات الرِّقَاع غير غزوة ذات الرِّقَاع التي وقعت فيها صلاة الخوف ، لأن أبا موسى ، رضي الله عنه ، قال في

روايته إنهم كانوا ستة أنفس ، والغزوة التي وقعت فيها صلاة الخوف كان المسلمون فيها أضعاف ذلك . ولكن أجيّب عن ذلك أن العدد الذي ذكره

أبو موسى ، رضي الله عنه ، محمول على من كان مرافقاً له ولم يرد جميع من كان مع النبي ﷺ . انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٢/٣) ، وفتح

الباري (ج ٤١٩/٧) .

أصابتهم مجاعة « على ماسيأتي تفصيله . وهذا يؤكد أن ذات الرِّقَاع كانت قبل الخندق وإلا - إن كانت بعدها - كيف يسأل رسول الله ﷺ جابراً « هل تزوجت بعد ؟ » وهو في الخندق رأى زوجته وقال لها ما قال (١) .

سبب الغزوة ونتيجتها :

وسبب هذه الغزوة هو ما بلغ النبي ﷺ أن جموعاً من بني مُحَارِب ، أو من أنْهَار ، وبني ثعلبة من غَطَفَانَ قد اجتمعوا لحربه ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ في أربعمئة من أصحابه ، ويقال : سبعمئة ، واستعمل على المدينة أبا ذرَّ الغِفَارِيَّ أو عثان بن عفان ، رضي الله عنهما ، ومضى إلى أن أفضى إلى وادي الشَّقْرَةَ ، فأقام به يوماً وبث السرايا ، فرجعوا إليه مع الليل وأخبروه أنهم لم يروا أحداً ، فسار رسول الله ﷺ في أصحابه حتى نزل نخلاً ، وهو موضع بنجد من أراضي غطفان ، فلم يجد في محالهم أحداً إلا نسوة فأخذهن وفيهن جارية وضيئة ، وهربت الأعراب إلى رؤوس الجبال ، ثم لقي جمعاً منهم ، فتقارب الناس ، ولم يكن بينهم قتال ، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً ، وحضرت صلاة العصر ، فخاف المسلمون أن يغير المشركون عليهم ، فصلّى رسول الله ﷺ بهم صلاة الخوف . ثم انصرف راجعاً إلى المدينة وقد غاب خمس عشرة ليلة ، وبعث جعالم بن سُرَاقَةَ بين يديه بشيراً إلى المدينة بسلامته وسلامة المسلمين (٢) .

وقد رويت صلاة الخوف من طرق كثيرة ، وجاءت على كيفية متعددة ، منها ما رواه البخاري بسنده عن صالح بن خوات عن شهد رسول الله ﷺ صلى صلاة الخوف أن طائفة صفت معه وطائفة وجاه العدو ، فصلّى بالتي معه ركعة ، ثم ثبت قائماً وأتموا لأنفسهم ، ثم انصرفوا فصفاً وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ، ثم سلم بهم (٣) .

وفي صحيح البخاري أيضاً عن جابر ، رضي الله عنه ، قال : وأقيمت الصلاة ، فصلّى بطائفة ركعتين ثم تأخروا ، وصلّى بالطائفة الأخرى ركعتين ، وكان للنبي ﷺ أربع وللقوم ركعتين (٤) .

شأن عباد بن بشر رضي الله عنه :

تقدّم أن المسلمين أصابوا في هذه الغزوة سيباً ، وكان فيه جارية وضيئة ، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً أتى زوجها - وكان غائباً - فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يصيب محمداً أو يهريق في أصحاب محمد ﷺ دمماً أو يُخَلِّصَ صاحبتَه ، فخرج يتبع أثر المسلمين ، فنزل رسول الله ﷺ في شِعب استقبله ، فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَكُلُونَا لِيَلْتَنَا هَذِهِ ؟ » فقام عمار بن ياسر وعباد بن بشر ، رضي الله عنهما ، فقالا : نحن يا رسول الله ، قال : « فَكُونَا بِهَمِّ الشَّعْبِ » .

فلما جلسا هناك قال عباد لعمار : أيّ الليل تحبّ أن أكفيك به : أوله أم آخره ؟ قال : بل أكفي أوله ، فاضطجع عمار فنام ، وقام عباد بن بشر يصلّي ، فأقى الرجل ، فلما رأى سواد عباد عرف أنه ربيّة (٥) القوم ، فرماه بسهم فوضعه فيه ، فانترعه عباد ، فرماه بآخر فوضعه فيه ، فانترعه ، فرماه بثالث فوضعه فيه ، فانترعه ، ثم ركع وسجد ، ثم أيقظ عماراً فقال : اجلس فقد أثبت (٦) ، فوثب ،

(١) انظر : فقه السيرة / للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص : ٢١٠) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٤/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٤/٥) كتاب المغازي - باب غزوة ذات الرِّقَاع ، وطبقات ابن سعد (ج ٦١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٧١/٣) .

(٣) صحيح البخاري (ج ١٤٥/٥) كتاب المغازي - باب غزوة ذات الرِّقَاع .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٤٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة ذات الرِّقَاع .

(٥) الرِّبِيَّةُ : هو العيّن والطليعة الذي يُنظَرُ للقوم لئلاّ يدهمهم عدوّ ، ولا يكون إلاّ على جبل أو شرفٍ يُنظَرُ منه . وقد تقدّم .

(٦) يُقال : أثبت فلان ؛ إذا اشتدّت به عيئة أو أثبتته جراحة فلم يتحرّك (لسان العرب : ج ٤٦٧/١) .

فلما رآها الرجل عرف أنه قد نذرا به ، فهرب ، فقال عمار لعباده وقد رأى مابه من الدماء : سبحان الله !! أفلا أهببتني^(١) أول مارماك ؟ فقال : كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها ، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فأذنتك ، وإيم الله لولا أن أضيّع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها^(٢) .

قصة غورث :

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنها : كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ ، فلما قفل رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة أدركته القائلة^(٣) في واد كثير العضاة^(٤) ، فنزل رسول الله ﷺ ، وتفرق الناس في العضاة يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت سبرة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فبينا نومة ، فجاء رجل من المشركين ، يقال له غورث بن الحارث ، فاخترط سيف^(٥) رسول الله ﷺ فقال : أتخافني ؟ قال : « لا » ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله » . قال جابر : فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئناه ، فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً^(٦) » ، فقال لي : من يمنعك مني ؟ قلت : الله ، فها هو ذا جالس « فتهدده أصحاب النبي ﷺ ، وعفا عنه رسول الله ﷺ ولم يعاقبه^(٧) .

وإنما لم يؤاخذ رسول الله ﷺ بما صنع لشدة رغبته في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام دون إراقة الدماء^(٨) .

وفي رواية أخرى عن جابر رضي الله عنه أن رجلاً من بني محارب يقال له غورث قال لقومه من غطفان ومحارب : ألا أقتل لكم محمداً ؟ قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به ، فرأى من المسلمين غيرة فجاء رسول الله ﷺ وسيفه في حجره ، فقال : يا محمد ! أنظر إلى سيفك هذا ؟ قال : « نعم » - وكان محلى بفضة ، فأخذه فاستله ثم جعل يهزه ويهمهم فيكبت^(٩) الله ، ثم قال : يا محمد ! أما تخافني ؟ قال : « لا ؛ وما أخاف منك ؟ » قال : أما تخافني وفي يدي السيف ؟ قال : « لا ، يمتنعني الله منك » ، ثم عد إلى سيف رسول الله ﷺ فدفعه إليه - ويقال : سقط السيف من يده - فأخذه رسول الله ﷺ وقال : « من يمنعك مني ؟ » فقال : كن خير آخذ ، قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » فقال : أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أقوم مع قوم يقاتلونك ، فحلى رسول الله ﷺ سبيله ، فجاء إلى قومه فقال : جئتمكم من عند خير الناس . وأنزل الله تعالى فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(١٠) .

وتقدم أن هذه الآية نزلت في عمرو بن جحاش أخي بني النضير عندما هم بإلقاء الحجر على النبي ﷺ ، فالله أعلم أي ذلك كان^(١١) .

(١) أهبة : تبهة (لسان العرب : ج ٤٦٠/٦) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٩/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٧٨/٢) .

(٣) القائلة : الاستراحة نصف النهار ، وإن لم يكن معها نوم (النهاية : ج ١٣٢/٤) .

(٤) العضاة : كل شجر عظيم له شوكة ، وأحدته : عضة (النهاية : ج ٢٥٥/٣) .

(٥) اخترط السيف : سلته من غمده (النهاية : ج ٢٢/٢) .

(٦) أي مجرداً من غمده (النهاية : ج ٤٥/٣) .

(٧) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤٦/٥ ، ١٤٧) كتاب المغازي - باب غزوة ذات الرقاع .

(٨) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٩٠/٢) .

(٩) يكبت : يذلة ويضربه ويخيبه (النهاية : ج ١٢٨/٤) .

(١٠) اللائدة : ١١ .

(١١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٦/٣ - ٢١٧) ، والمستدرک (ج ٢٩/٣) .

قصة جمل جابر رضي الله عنه :

وفي مرجع النبي ﷺ من هذه الغزوة ابتاع من جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، جملة وشرط له ظهره إلى المدينة ، وسأله عن دين أبيه وأخبره به ، فاستغفر له رسول الله ﷺ في تلك الليلة خمسا وعشرين مرة^(١) . ولنترك جابراً رضي الله عنه يحدثنا عن قصة جملة وما دار بينه وبين النبي ﷺ في الطريق إلى المدينة .

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنها : خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف ، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تضي وجعلت أتحلف حتى أدركني رسول الله ﷺ ، فقال : « مَا لَكَ يَا جَابِرُ ؟ » فقلت : يا رسول الله ! أبطأ بي جملي هذا ، قال : « أَيْحُهُ » ، فأخنته وأناخ رسول الله ﷺ ، ثم أخذ عصا فَنَحَسَهُ^(٢) بها نَحَسَاتٍ ودعا له ، ثم قال : « اِرْكَبْ » فركبت ، فخرج والذي بعثه بالحق يواهي ناقته مَوَاهِقَةً^(٣) ، فقال : « كَيْفَ تَرَى بَعِيرَكَ ؟ » قلت : بخير قد أصابته بركتك ، قال : « أَفَتَبِعْتَنِي بِكَذَا وَكَذَا ؟ وَاللَّهِ يَغْفِرُ لَكَ » ، قال جابر : فاستحييت ولم يكن لنا ناضح غيره ، فقلت : بل أهبه لك يا رسول الله ، قال : « لَا ، وَلَكِنْ بِغَنِيهِ » ، قلت : فسئنيه يا رسول الله ، قال : « قَدْ أَخَذْتَهُ بِدِرْهِمٍ » ، قلت : لا ، إذن تغنيني يا رسول الله ، قال : « فَبِدِرْهِمَيْنِ » ، فقلت : لا ، قال : فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقية ، فقلت : أفقد رضيته يا رسول الله على أن لي فقار ظهره حتى أبلغ المدينة ؟ قال : « نَعَمْ » ، فقلت : فهو لك ، قال : « قَدْ أَخَذْتَهُ » .

ثم قال : « يَا جَابِرُ ! هَلْ تَزَوَّجْتَ بَعْدُ ؟ » فقلت : نعم يا رسول الله ، قال : « أَتَيْبًا أَمْ بَكْرًا ؟ » فقلت : بل تَيْبًا ، قال : « أَفَلَا جَارِيَةٌ تَلَاعِبُهَا وَتَلَاعِبُكَ ؟ » فقلت : يا رسول الله ! توفي والدي أو استشهد ولي أخوات صغار ، فكرهت أن أتزوج مثلهن فلا تؤدبهن ولا تقوم عليهن ، فتزوجت تَيْبًا لتقوم عليهن وتؤدبهن ، فقال : « أَصَبْتَ إِذْ شَاءَ اللَّهُ ، أَمَا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَارًا^(٤) أَمْرُنَا بِجَزْوٍ فَفُجِحَتْ وَأَقْمُنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَاكَ ، وَسَمِعَتْ بِنَا فَفَقَضَتْ نَهَارِقَهَا^(٥) » ، فقلت : والله يا رسول الله مالنا من نهارق ، قال : « إِنَّهَا سَتَكُونُ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدِمْتَ فَأَعْمَلْ عَمَلًا كَيْسًا^(٦) » . قال : فلما جئنا صِرَارًا أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت وأقنا عليها ذلك اليوم ، فذهبنا لندخل المدينة ، فقال رسول الله ﷺ : « أَهْمَلُوا حَتَّى نَدْخُلَ عِشَاءً ، لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعْبَةُ^(٧) وَتَسْتَحِدَّ الْمُغَيْبَةُ^(٨) » .

فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنا ، قال : فحدثت المرأة الحديث ، فقالت : دونك سمع وطاعة ، قال : فلما أصبحت أخذت برأس الجمال ، فأقبلت به حتى أخته على باب مسجد رسول الله ﷺ ، ثم جلست قريباً منه ، وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمال ، فقال : « مَا هَذَا ؟ » قالوا : يا رسول الله ! هذا جمل جاء به جابر ، قال : « فَأَيْنَ جَابِرُ ؟ » ، قال : فدعيت له ، فقال : « يَا ابْنَ أَخِي ! خُذْ بِرَأْسِ جَمَلِكَ فَهَوِّ لَكَ » ، فقلت : ما هو جملي وإنما هو جملك يا رسول الله ، قال : « خُذْ جَمَلَكَ » ، فقلت : ما هو جملي وإنما هو جملك يا رسول الله ، قال : « خُذْ جَمَلَكَ » . قال جابر : كنا نراجعه مرتين في الأمر إذا أمرنا به ، فإذا أمرنا الثالثة لم نراجعه ، قال : فأخذته ، فقال : « لَعْمُرِي مَا نَفَعْنَاكَ لِنُنْزِلَكَ عَنْهُ » ، ثم دعا بلالاً فقال له : « اذْهَبْ بِجَابِرٍ فَأَعْطِهِ أَوْقِيَةً » ، قال : فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً ، قال : فوالله ما زال يَنِمُّ عِنْدِي وَيُرَى مَكَانَهُ مِنْ بَيْتِنَا حَتَّى أَصِيبَ يَوْمَ الْحَرَّةِ^(٩) .

(١) انظر : سنن الترمذي (ج ٦٩١/٥) كتاب المناقب - باب في مناقب جابر بن عبد الله رضي الله عنها ح ٢٨٥٢ ، وطبقات ابن سعد (ج ٦١/٢) .

(٢) نَحَسَ الدَّابَّةُ : طَمَنَ مَوْخَرَهَا أَوْ جَنَّبَهَا بِعَوْدٍ أَوْ نَحْوِهِ حَتَّى تَنْشَطَ (لسان العرب : ج ٤٢٧٧/٦) .

(٣) يُوَاهِقُ نَاقَتَهُ : أَي يَبَارِيهَا فِي السَّيْرِ وَيُنَاقِشُهَا ، وَمَوَاهِقَةُ الْإِبِلِ : مَدَّ أَعْنَاقِهَا فِي السَّيْرِ (النهاية : ج ٢٣٣/٥) .

(٤) صِرَارٌ : بَطْرٌ جَاهِلِيٌّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى طَرِيقِ الْعِرَاقِ (طبقات ابن سعد : ج ٦١/٢) .

(٥) النَّهَارِقُ : جَمْعُ نَمْرَقَةٍ ؛ وَهِيَ الْوَسَادَةُ الصَّغِيرَةُ يُتَكَأُ عَلَيْهَا (الوسيط : ج ٩٦٣/٢) .

(٦) الْكَيْسُ : الْجَمَاعُ ، وَالْكَيْسُ : الْعَقْلُ ، جَعَلَ طَلَبَ الْوَلَدِ عَقْلًا (النهاية : ج ٢١٧/٤) .

(٧) الشَّعْبَةُ : الْمُغْبَرُ الرَّأْسُ ، الْمُتَشَتِّفُ الشَّعْرَ (لسان العرب : ج ٢٢٧٢/٣) .

(٨) الْمُغَيْبَةُ : الَّتِي غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا (النهاية : ج ٣٩١/٣) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٧/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٦٢/٤) كتاب الجهاد والسير - باب استئذان الرجل الإمام ، وصحيح مسلم (ج ١٠٨٧/٢) .

كتاب الرضاع - باب استحباب نكاح البكر ح ٥٨ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٥٨/٢) ، وسنن الدارمي (ج ١٤٦/٢) .

أعاجيب حدثت في غزوة ذات الرِّقَاع :

ففي هذه الغزوة جاءت النبي ﷺ امرأة بدويّة بابت لها ، فقالت : يا رسول الله ! هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان ، فقال : « أَذْنِيهِ مِنِّي » ، فأدنته ، ففتح فاه فبصق فيه وقال : « اخْسَأْ عَدُوَّ اللَّهِ ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ » قالها ثلاث مرات ، ثم قال للمرأة : « شَأْنُكَ بِأَبْنِكَ ، لَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُصِيبُهُ » . فكان كذلك ، فإنه لما أقبل النبي ﷺ من ذات الرِّقَاع عرضت له تلك المرأة فسألها : « مَا فَعَلَ ابْنُكَ ؟ » فقالت : والذي بعثك بالحق ما أصابه شيء مما كان يصيبه ، وأهدت له وطب^(١) من لبن وشاة ، فقبل النبي ﷺ هديتها^(٢) .

- وفي هذه الغزوة أيضاً جاء رجل من أصحاب النبي ﷺ بعشّ طير يحمله فيه فراخ ، فأقبلت أمهّن حتى وقعت عليهن معهن وأبت إلا لزومهن ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « اتَّعَجِبُونَ لِرَحْمِ أُمِّ الْأَفْرَاحِ فِرَاحِهَا ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : « قَوْلَ الَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ اللَّهُ أَرْحَمَ بِعِبَادِهِ مِنْ أُمَّ الْأَفْرَاحِ بِفِرَاحِهَا ، ارْجِعْ بِهِنَّ حَتَّى تَضَعَهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُنَّ وَأُمَّهُنَّ مَعَهُنَّ » ، فرجع بهن^(٣) .

روي عن عبد الله ، رضي الله عنه ، قال : كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حمرة^(٤) معها فرخان ، فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة ، فجعلت تفرّش^(٥) ، فجاء النبي ﷺ فقال : « مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدهَا ؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا » . ورأى قرية نمل قد حرقناها ، فقال : « مَنْ حَرَقَ هَذِهِ ؟ » قلنا : نحن ، قال : « إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ »^(٦) .

- وفيها أيضاً أقبل جمل يرقد^(٧) حتى برك بين يدي رسول الله ﷺ ومدّ جرانه^(٨) ، فقال رسول الله ﷺ : « اتَّذَرُونَ مَا قَالَهُ هَذَا الْجَمَلُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هَذَا جَمَلٌ جَاءَ يَسْتَعْدِينِي عَلَى سَيِّدِهِ ، يَزْعَمُ أَنَّهُ كَانَ يَخْرُثُ عَلَيْهِ مِنْذُ سِنِينَ حَتَّى إِذَا أُجْرِبَتْ^(٩) وَأَعْجَفَتْ^(١٠) وَكَبِرَ سِنُهُ أَرَادَ أَنْ يَنْحَرَهُ ، أَذْهَبَ يَا جَابِرُ إِلَى صَاحِبِهِ فَأَتَتْ بِهِ » ، فقال جابر : يا رسول الله ! ما أعرف صاحبه ، قال : « إِنَّهُ سَيَدُّكَ عَلَيْهِ » ، قال جابر : فخرج بين يدي حتى وقف بي في مجلس بني خطمة ، فقلت : أين ربّ هذا الجمل ؟ قالوا : هذا جمل فلان بن فلان ، فجئتته فقلت : أجب رسول الله ﷺ ، فخرج معي ، فقال له رسول الله ﷺ : « جَمَلُكَ يَسْتَعْدِي عَلَيْكَ ، زَعَمَ أَنَّكَ حَرَثْتَ عَلَيْهِ زَمَانًا حَتَّى أُجْرِبْتَهُ وَأَعْجَفْتَهُ وَكَبِرَ سِنُهُ أَرَدْتَ أَنْ تَنْحَرَهُ » ، فقال : والذي بعثك بالحق إن ذلك كذلك ، فقال له رسول الله ﷺ : « بَعْنِيهِ » ، قال : نعم يا رسول الله ، فابتاعه منه ، ثم سببه في الشجر حتى نصب ستام^(١١) ، فكان إذا اعتلّ على بعض المهاجرين أو الأنصار من نواضحهم شيء أعطاه إيّاه ، فكث بذلك زمناً^(١٢) .

☆ ☆ ☆

(١) الوطْبُ : الرِّقُّ الَّذِي يَبْكُونُ فِيهِ السَّمْنُ وَاللَّبَنُ (النهاية : ج ٢٠٣/٥) .

(٢) انظر : مجمع الزوائد (ج ٧/٩) .

(٣) انظر : سنن أبي داود (ج ٤٦٨/٣) كتاب الجنائز - باب الأمراض المكفرة للذنوب ح ٣٠٨٩ .

(٤) الْحَمْرَةُ : طَائِرٌ صَغِيرٌ كَالْعَصْفُورِ (النهاية : ج ٤٣٩/١) .

(٥) تَفْرَشُ : أَي تَفْرَشُ جَنَاحَيْهَا وَتَقْرُبُ مِنَ الْأَرْضِ وَتَفْرَفُ (النهاية : ج ٤٣٠/٣) .

(٦) سنن أبي داود (ج ١٢٥/٣) كتاب الجهاد - باب في كراهية حرق العدو بالنار ح ٣٦٧٥ .

(٧) يَرْقُدُ : يُسْرِعُ فِي عَدُوهِ (لسان العرب : ج ١٧٠٢/٣) .

(٨) الْجِرَانُ : بَاطِنُ الْعَنْقِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٩) أُجْرِبُ التَّجِيرُ : أُصِيبُ بِالْجَرْبِ (الوسيط : ج ١١٤/١) .

(١٠) أَي : أَهْزَلُهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(١١) سَتَامُ التَّعْيِيرِ وَالنَّاقَةِ : أَعْلَى ظَهْرِهَا (لسان العرب : ج ٢١١٧/٣) .

(١٢) انظر : مجمع الزوائد (ج ٨/٩) .

السنة الخامسة للهجرة

غزوة دومة الجندل (١) :

وهي أول غزوات الشام ، وكان سببها ما بلغ رسول الله ﷺ أن بدؤمة الجندل جمعاً كثيراً من القبائل ، وأنهم يظلمون من مرهم من الضأفطة (٢) ، وينهبون مامعهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة لهاجمتها . فندب رسول الله ﷺ الناس ، واستخلف على المدينة سبأع بن عرْفُطَةَ الغفاري ، وخرج لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول في ألف من المسلمين ، فكان يسير الليل ويكن (٣) النهار ، ومعه دليل له من بني عذرة يقال له مذكور ، فلما دنا منهم إذا هم مُغْرَبُونَ (٤) وإذا أشار النعم والشاء ، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم ، فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه ، وجاء الخبر أهل دومة فتفرقوا ، ونزل رسول الله ﷺ بساحتهم فلم يجد بها أحداً ، فأقام بها أياماً وبث السرايا وفرقها ، فرجعت ولم تصب منهم أحداً ، وأخذ منهم رجل ، فسأله رسول الله ﷺ عنهم ، فقال : هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نعمهم ، فعرض عليه الإسلام ، فأسلم ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ولم يلق كيداً ، لعشر ليال بقين من شهر ربيع الآخر . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين أحد والخندق) .

وفي هذه الغزاة وادع رسول الله ﷺ عَيْبَةَ بن حِصْن أن يرعى بتعلمين وما ولاه إلى المراض ، والمراض على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة على طريق الرَبْدَة ، وكان ما هناك قد أخصب ، وبلاد عَيْبَةَ قد أجدبت (٥) .

وفد مَرْيَةَ :

وفي رجب من السنة الخامسة للهجرة قدم على رسول الله ﷺ أربعائة رجل من مَرْيَةَ ، فيهم النُعْمَان بن مَقْرَن ، وقرة بن إياس ، وخزاعي بن عبد نهم (٦) ، وبلال بن الحارث ، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ، وجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم ، وقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم » ، فرجعوا إلى بلادهم .

وأقطع رسول الله ﷺ بلال بن الحارث أرضاً فيها جبل ومعدن (٧) ، وكتب له النبي ﷺ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا مَا أَعْطَى مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ الْمَزْنِيَّ ، أَعْطَاهُ مَعَادِنَ الْقَبَلِيَّةِ ، جَلَسِيهَا وَعَوْرِيهَا (٨) ، وَحَيْثُ يَصْلُحُ الزَّرْعُ مِنْ قُدْسٍ (٩) ،

(١) دُومَةُ الْجَنْدَلِ : طَرَفٌ مِنْ أَقْوَامِ الشَّامِ ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ دِمَشْقَ خَمْسَ لِيَالٍ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ أَوْ سِتَّ عَشْرَةَ لَيْلَةً . طبقات ابن سعد (ج ٦٢/٢) .

(٢) الضَّافِطَةُ وَالضَّفَّاطُ : الَّذِي يَجْلِبُ الْمَيْزَةَ وَالْمَتَاعَ إِلَى الْمَدِينِ (لسان العرب : ج ٢٥٩٦/٤) .

(٣) كَمَنَّ فِي الْمَكَانِ كَمُونًا : تَوَارَى (الوسيط : ج ٨٠٥/٢) .

(٤) غَرَّبَ الْقَوْمَ : ذَهَبُوا فِي الْمَغْرِبِ (لسان العرب : ج ٣٢٢٥/٤) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٢/٢) .

(٦) قال ابن الكلبي : كان لمزينة صنم يقال له نهم ، وبه كانت تسمى عبد نهم ، وكان سادن نهم خزاعي بن عبد نهم من بني عدياء ، فلما سمع بالنبي ﷺ ثار إلى الصنم فكسره ، ثم لحق بالنبي ﷺ فأسلم . (الأضنام / ص : ٢٩) .

(٧) الْمَعْدِنُ : مَوْضِعٌ اسْتُخْرِجَ الْجَوْهَرُ مِنْ ذَهَبٍ وَنَحْوِهِ (الوسيط : ج ٥٩٥/٢) .

(٨) الْقَبَلِيَّةُ : نَاحِيَةٌ مِنْ نَوَاحِي الْفُرْعِ بِالْمَدِينَةِ (معجم البلدان : ج ٢٩/٧) وَالْجَلْسُ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَالغَوْرُ : مَا انْحَفَضَ مِنْهَا (لسان العرب : ج ٢٣١٣/٥) .

(٩) قُدْسٌ : جَبَلٌ مَعْرُوفٌ بِجِدَاءِ سَقِيَا مَرْيَةَ (معجم البلدان : ج ٢٩٧/٢ ، ٣٥) .

ولم يُعْطِهِ حَقَّ مُسْلِمٍ . فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها ، فظهر فيها مَعْدِنٌ أو مَعْدِنَان ، فقالوا : إنما بِعْنَاكَ أرضَ حَرْثٍ ولم نَبِعْكَ المَعَادِنَ ، وجاؤوا بكتاب النبي ﷺ لهم في جريدة ، فقَبَلَهَا عمر ومسح بها عينه وقال لقيمه : انظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة ورَدَّ عليهم الفُضْلُ (١) .

روى الإمام أحمد بسنده عن النُّعْمَانِ بْنِ مَقْرَنٍ قَالَ : قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَرْبَعَاءَةٍ مِنْ مَرْيَتِنَا ، فَأَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرِهِ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا لَنَا طَعَامَ نَتْرُودُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَمْرٍ : « زَوِّدْهُمْ » ، فَقَالَ : مَا عِنْدِي إِلَّا فَاضِلَةٌ مِنْ تَمْرٍ وَمَا أَرَاهَا تَغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً ، فَقَالَ : « أَنْطَلِقُ فَرَوِّدْهُمْ » ، فَاَنْطَلَقَ بِنَا إِلَى عَلِيَّةَ (٢) لَهُ ، فَإِذَا فِيهَا تَمْرٌ مِثْلَ الْبِكْرِ الْأَوْزُقِ (٣) ، فَقَالَ : خَذُوا ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ حَاجَتَهُمْ ، قَالَ : وَكَتَبْتُ فِي آخِرِ الْقَوْمِ ، قَالَ : فَالْتَفَتُّ وَمَا أَفْقِدُ مَوْضِعَ تَمْرَةٍ ، وَقَدْ احْتَمَلَ مِنْهُ أَرْبَعَاءَةٌ رَجُلًا (٤) .

ويروى أن خَزَاعِيَّ بْنَ عَبْدِئِثْمَ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ مَرْيَتِنَا لَا يَتَجَاوِزُونَ الْعَشْرَةَ ، فَبَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَوْمِهِ ، فَلَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِمْ لَمْ يَجِدْهُمْ كَمَا ظَنَّ ، فَأَقَامَ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ فَقَالَ لَهُ : « أَذْكَرُ خَزَاعِيًّا وَلَا تَهْجُءَ » ، فَقَالَ حَسَانٌ :

أَلَا أَبْلَغُ خَزَاعِيًّا رَسُولًا	بِأَنَّ الذَّمَّ يَغْسِلُهُ الْوَفَاءُ
وَأَنَّكَ خَيْرُ عَثَانَ بْنِ عَمْرٍو	وَأَسْنَاهَا إِذَا ذُكِرَ السَّنَاءُ
وَبِإِيْعَتِ الرَّسُولِ وَكَانَ خَيْرًا	إِلَى خَيْرٍ وَأَذَاكَ الثُّرَاءُ
فَمَا يَمْجُزُكَ أَوْ مَالًا تَطِيقُهُ	مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا تَعْجِزُ عِندَهُ

وعِدَاءُ بَطْنِهِ الَّذِي هُوَ مِنْهُ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ قَامَ خَزَاعِيًّا فَقَالَ : يَا قَوْمُ ! قَدْ خَصَّكُمْ شَاعِرُ الرَّجُلِ فَأَنْشُدْكُمْ اللَّهَ ، قَالُوا : فَإِنَّا لَا نُنْبِئُ (٥) عَلَيْكَ ، فَأَسْلَمُوا وَوَفَدُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَوَاءَ مَرْيَتِنَا يَوْمَ الْفَتْحِ إِلَى خَزَاعِيَّ بْنِ عَبْدِئِثْمَ ، وَكَانُوا يَوْمَئِذٍ أَلْفَ رَجُلٍ ، وَهُوَ أَخُو الْمُغَفَّلِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغَفَّلِ وَأَخُو عَبْدِ اللَّهِ ذِي الْبِجَادَيْنِ (٦) .

وقد جاء في فضل مَرْيَتِنَا مَا رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَسْلَمَنَّ وَغَفَارًا وَجْهِيئَةً ، وَمَنْ كَانَ مِنْ مَرْيَتِنَا ، أَوْ مَرْيَتِنَا ، وَمَنْ كَانَ مِنْ جُهَيْئَةٍ ، خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَسَدٍ وَطَيْئٍ وَعَطْفَانَ » (٧) .
زواج النبي ﷺ من زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :

وهي زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشِ بْنِ رَبَّابِ الْأَسَدِيَّةِ أُخْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ ، وَأُمُّهَا أُمِّيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ عَمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَكَانَتْ قَدِيمَةَ الْإِسْلَامِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَمِنْ هَاجِرٍ إِلَى الْمَدِينَةِ ، تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْهِجْرَةِ (٨) بَعْدَ أَنْ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَذَلِكَ إِطْبَالًا لِعَادَةِ تَحْرِيمِ زَوْجَةِ الْمَتَّبِيِّ .

فقد كان رسول الله ﷺ زَوْجَهَا مِنْ حَبِّهِ وَمَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَكَانَ قَدْ أَعْتَقَهُ وَتَبَنَاهُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ كَمَا ذَكَرْنَا فِيمَا

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٩١/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٩/٤) ، وسنن أبي داود (ج ٤٤٤/٣) كتاب الحراج والإمارة - باب في إقطاع الأرضين ح ٣٠٦٢ ، وفتوح البلدان (ص : ٢٧) .

(٢) العليَّةُ : العُرْفَةُ فِي الطَّائِقِ الثَّانِي مِنَ النَّارِ وَمَا فَوْقَهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٣) الْبِكْرُ : الْفَتِيَّةُ مِنَ الْإِبِلِ (لسان العرب : ج ٣٣٤/١) .

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٤٤٥/٥) .

(٥) أَي لَا تَمْتَنِعْ عَمَّا تَرِيدُ مِثْلًا (لسان العرب : ج ٤٣٢٢/٦) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٩١/١) .

(٧) مسند الإمام أحمد (ج ٣٦٩/٢) .

(٨) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١١٤/٨) ، وقد اختلف في زمن زواجه ﷺ من زَيْنَبِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَقِيلَ : فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ ، أَوْ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ لِلْهِجْرَةِ . انظر : المستدرک (ج ٣/٤) ، وعيون الأثر (ج ٣٠٤/٢) ، وفتح الباري (ج ٤٣٠/٧) .

مضى - فعن قتادة قال : خطب النبي ﷺ زينب وهي بنت عمته وهو يريد لها لزيد ، فظننت أنه يريد لها لنفسه ، فلما علمت أنه يريد لها لزيد أبت ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) ، فرضيت وسلمت (٢) .

وفي روايات أخرى : أنها كانت امرأة جميلة ، فلما خطبها رسول الله ﷺ على زيد ، قالت : لأرضاه ، أنا خير منه حسبا ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! إِنَّهُ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيَّ خَلْقُهَا وَإِنِّي مُطَلِّقُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ وَآتَى اللَّهُ الْكَلِمَاتِ ﴾ (٣) . رضي الله عنه (٤) .

روي عن الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْكَحْتُ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ ، وَأَنْكَحْتُ الْمُقَدَّادَ صُبَاعَةَ بِنْتَ الزُّبَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الشَّرْفَ الشَّرْفُ لِلْإِسْلَامِ » (٥) .

فكثرت زينب عند زيد ، رضي الله عنها ، قريبا من سنة ، ثم جاء زيد يشكوها إلى النبي ﷺ لأنها كانت تؤذيه بلسانها ، وتتعاظم عليه بشرفها ، فجعل يقول : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! إِنَّهُ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيَّ خَلْقُهَا وَإِنِّي مُطَلِّقُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ وَآتَى اللَّهُ الْكَلِمَاتِ ﴾ (٦) ، أي يقول له : لا تطلقها ، ولكنه لم يطق معاشرتها فطلقها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٧) . فقد كان الله أعلم نبيه ﷺ أن زينب ، رضي الله عنها ، ستكون من أزواجه ، إلا أنه ﷺ بالغ في الكتمان لزيد بقوله : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » ، فعاتبه الله تعالى على ذلك حيث لم يخبر ﷺ بما يعلمه خشية قاله الناس في أنه سيتزوج امرأة ابنه المتبنى . قالت عائشة رضي الله عنها : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذه ، أي : الآية .

فلما انقضت عدتها منه ، قال رسول الله ﷺ لزيد : « أَذْهَبُ فَأَذْكُرُهَا عَلَيَّ » - وفي ذلك ابتلاء عظيم وشاهد بين على قوة إيمانه رضي الله عنه - فانطلق زيد حتى أتاها وهي تحمّر عجينها ، قال زيد : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فولّيتها ظهري ونكصت على عقبي ، فقلت : يا زينب ! أرسل رسول الله ﷺ يذكرك ، فقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدتها (٨) ، وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٩) . فجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن .

وفي رواية أنه بينا رسول الله ﷺ جالس يتحدث مع عائشة ، رضي الله عنها ، إذ أخذته غشية ، فسرى عنه ، وهو يتبسّم ، فقال : « مَنْ يَذْهَبُ إِلَى زَيْنَبَ يَبْشُرُهَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ زَوَّجَهَا مِنَ السَّمَاءِ ؟ » وتلا رسول الله ﷺ الآية ، قالت عائشة : فأخذني ما قرّب وما بعد لما ييلفنا من جمالها ، وأخرى هي أعظم الأمور وأشرفها ماصنع لها زوجها الله من السماء . فخرجت سلّمت خادم رسول الله ﷺ تشتدّ ، فحدّثتها بذلك ، فأعطتها أوضاحا (١٠) عليها ، وسجدت شكرا لله عزّ وجلّ ، وجعلت لله عليها صوم شهرين .

فكانت زينب ، رضي الله عنها ، تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول : زوّجكن أهاليكن وزوّجنني الله تعالى من فوق سبع

(١) الأحزاب : ٣٦ .

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٩١/٧) وقال : رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح .

(٣) انظر : المستدرک (ج ٢٣/٤) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٣٦/٧) .

(٤) سان سعيد بن منصور (ج ١٦١/١) .

(٥) الأحزاب : ٣٧ .

(٦) لعلها استخارت ربها لخوفها من تقصير في حقّه ﷺ . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (ج ٢٢٨/٩) .

(٨) الأوضاح : جمع وضح ؛ وهو خلي من الدرهم الضحاح ، والخلخال (الوسيط : ج ١٠٥١/٢) .

سموات . وكانت تقول للنبي ﷺ : زوجنيك الرحمن ، عز وجل ، من فوق عرشه ، وكان جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، هو السفير بذلك ، وأنا ابنة عمتك ، وليس لك من نسائك قريبة غيري .

أما ما روي أن أباها أبا أحمد بن جحش زوجه إياها^(١) ، فيمكن تأويله بأنه لما رأى النبي ﷺ أتى منزلها بعد نزول القرآن رضيه وفرح به ، إذ لا كلام له ولا لغيره مع الله تعالى^(٢) .

فما تزوجها رسول الله ﷺ قال المنافقون : تزوج حليمة ابنه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾^(٣) ، وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلاً وهو يقال له زيد بن محمد ، فأنزل الله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾^(٤) فدعى زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وأول رسول الله ﷺ حين بنى بزینب بنت جحش ، رضي الله عنها ، بنخز ولحم ، قال أنس رضي الله عنه : فأرسلت على الطعام داعياً ، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون ، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعو ، فقلت : يا نبي الله ! ما أجد أحداً أدعوه ، قال : « ارفعوا طعامكم » ، قال أنس : ما رأيت النبي ﷺ أولم على أحد من نسائه ما أولم عليها ، أولم بشاة ، وأشبع الناس خبزاً ولحماً . وذلك شكراً لله حيث زوجه إياها بالوحي^(٥) .

روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله ، قال : فصنعت أُمِّي أُمَّ سَلِيمٍ حَيْسًا^(٦) فجعلته في ثَوْرٍ^(٧) ، فقالت : يا أنس ! اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل بعثت بهذا إليك أُمِّي ، وهي تقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منّا قليل يارسل الله ، قال : فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ فقلت : إن أُمِّي تقرئك السلام وتقول إن هذا لك منّا قليل يارسل الله ، فقال : « ضَعُوهُ » ، ثم قال : « اذْهَبْ فَادْعُ لِي فَلَانًا وَفَلَانًا وَفَلَانًا وَمَنْ لَقِيتَ » وسمى رجلاً ، قال : فدعوت من سَمِيَ ومن لقيت ، قال : قلت لأنس : عدد كم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة . وقال لي رسول الله ﷺ : « يا أنس ! هاتِ الثَّوْرَ » ، قال : فدخلوا حتى امتلأت الصُّمَّةُ والحَجْرَةُ ، فقال رسول الله ﷺ : « لِيَتَحَلَّقُوا عَشْرَةَ عَشْرَةَ ، وَلِيَأْكُلُوا كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ » ، فقال : فأكلوا حتى شبعوا ، قال : فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم ، فقال لي : « يا أنس ! ارفَعُ » ، قال : فرفعت ؛ فأدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت^(٨) .

وفي رواية : قال أنس : ثم خرجت إلى أُمِّي لأعجبها مما رأيت ، فقالت : لا تعجب ، لو شاء الله أن يأكل منه أهل المدينة كلهم لأكلوا^(٩) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٤) .

(٢) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٤٦/٣) .

(٣) الأحزاب : ٤٠ .

(٤) الأحزاب : ٥ .

(٥) انظر : السنن الكبرى للبيهقي (ج ١٣٦/٧) ، ودلائله (ج ٤٦٦/٢) ، وسنن الترمذي (ج ٣٥٢/٥ ، ٣٥٤) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الأحزاب ج ٣٢٠٧ ، ح ٢٢١٢ ، وجمع الزوائد (ج ٩١/٧) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٩/٦) كتاب التفسير - سورة الأحزاب ، و (ج ٣١٧/٧) كتاب النكاح - باب من أولم على بعض نسائه أكثر من بعض ، و (ج ١٥٢/٩) كتاب التوحيد ، وصحيح مسلم (ج ١٠٤٨/٢) كتاب النكاح - باب زواج زينب بنت جحش .. ح ٨٩ ، والمستدرک (ج ٢٥/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٢/٨) ، والبدایة والنهاية (ج ١٤٥/٤) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٤٦/٣) .

(٦) الحَيْسُ : تَمْرٌ وَأَقِطٌ وَبَنَنْ تَحْلَطُ وَتَعَجَنْ وَتَسْوَى كالتَّرِيدِ (الوسيط : ج ٢١٠/١) .

(٧) الثَّوْرُ : إِنَاءٌ مِنْ صَفْرٍ أَوْ حِجَارَةٍ (النهاية : ج ١٩٩/١) .

(٨) صحيح مسلم (ج ١٠٥١/٢) كتاب النكاح - باب زواج زينب بنت جحش ح ٩٤ .

(٩) طبقات ابن سعد (ج ١٠٥/٨) .

نزول الحجاب :

فلما طعم الناس جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس وزوجته موليّة وجهها إلى الخائط ، ففتقلوا على رسول الله ﷺ ، فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع ، وهم قعود يتحدثون - وفي رواية : وإذا هو ﷺ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما خرج قام من قام وقعد ثلاثة نفر يتحدثون ، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا النفر جلوس ، فرجع ، وكان ﷺ شديد الحياء ، فانطلق إلى حجرة عائشة ، رضي الله عنها ، فقال : « السّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله » ، فقالت : وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك ، بارك الله لك ، فتقرى رسول الله ﷺ حجر نسائه^(١) ، كهنّ يقول لمن كما قال لعائشة ، ويقنن له كما قالت عائشة .

وفي رواية أخرى : ثم خرج إلى حجر أمهات المؤمنين كما كان يصنع صبيحة بناءه فيسلم عليهنّ ويدعوهن ، ويسلمن عليه ويدعون له ، ثم رجع ، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنّوا أنهم قد ثقلوا عليه فابتدروا الباب فخرجوا كلهم - وفي رواية : أنهم قاموا ، فانطلق أنس فأخبر النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا - فجاء ﷺ حتى دخل ، قال أنس : فذهبت أدخل فألقى السّتر بيني وبينه وقال : « وراءك يا بنّي » وحجب نساءه مني يومئذ وأنا ابن خمس عشرة سنة ، وأنزلت آية الحجاب وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءً ﴾^(٢) الآية . فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر ، رضي الله عنه ، فأخبره بذلك .

وقد كان سيدنا عمر ، رضي الله عنه ، قال : يا رسول الله ! يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب^(٣) .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كنت أكل مع النبي ﷺ في قعب^(٤) ، فرآه عمر ، فدعاه فأكل ، فأصابت أصبعه أصبعي ، فقال : حسّ أو أوه ، لو أطاع فيكنّ ما رأتكنّ عين ، فنزلت آية الحجاب^(٥) .

وعنها أيضاً أن أزواج النبي ﷺ كنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع ، وهو صعيد أفتح^(٦) ، فكان عمر يقول للنبي ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاء ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر : ألا قد عرفناك ياسودة ، حرصاً على أن يتزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب^(٧) .

ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأن ذلك وقع قبيل قصة زينب ، رضي الله عنها ، فلقربه منها أطلق نزول آية الحجاب بهذا السبب ، ولا مانع من تعدد الأسباب^(٨) .

- من فضائل زينب رضي الله عنها :

روي عن راشد بن سعد قال : دخل النبي ﷺ منزله ومعه عمر بن الخطاب ، فإذا هو بزینب بنت جحش تصلي وهي في صلاتها تدعو ، فقال النبي ﷺ : « إنها لأواهة »^(٩) .

(١) أي تتبّعها واحدة واحدة ينظر حالها وأمرها . انظر (لسان العرب : ج ٣٦١٧٥) .

(٢) الأحزاب : ٥٣ .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤٨٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠) كتاب التفسير - سورة الأحزاب ، وصحيح مسلم (ج ١٠٥١٧٢) كتاب النكاح - باب زواج زينب

بنت جحش ج ٩٤ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٣٢٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٤/٨) .

(٤) القعب : القدح الضخم الغليظ . وقد تقدم .

(٥) رواه الهيثمي في جمع الزوائد (ج ٩٣/٧) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة .

(٦) أفتح : واسع . من الفتح ؛ أي : السعة والانتشار (لسان العرب : ج ٣٤٩٨/٥) .

(٧) صحيح البخاري (ج ٤٩/١) كتاب الوضوء - باب خروج النساء إلى البراز .

(٨) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٤٧/٣) .

(٩) رواه الهيثمي في جمع الزوائد (ج ٢٤٧/٩) وقال : رواه الطبراني وإسناده منقطع ، وفيه يحيى بن عبد الله البجلي وهو ضعيف .

وروي عن أم سلمة ، رضي الله عنها ، أنها قالت في زينب : وكانت لرسول الله ﷺ مَعْجَبَةً ، وكان يستكثر منها ، وكانت امرأة صالحة ، صَوَامَةً ، قَوَامَةً ، صَنَعًا (١) تتصدق بذلك كله على المساكين (٢) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : وكانت تغزل الغزل وتعطيه سرايا النبي ﷺ يخيطنون به ويستعينون به في مغازيهم (٣) .
وعنها أيضاً قالت : يرحم الله زينب بنت جحش لقد نالت في هذه الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف ، إن الله زوجها نبيّه ﷺ في الدنيا ونطق به القرآن ، وإن رسول الله ﷺ قال لنا ونحن حوله : « أُسْرَعَنَّ بِي لِحَوْقًا أُطُولُكُنَّ بَاعًا » ، فبشرها رسول الله ﷺ بسرعة لحوقها به ، وهي زوجته في الجنة (٤) .

وعنها أيضاً قالت : ولقد كانت زينب بنت جحش وأم سامة لهما عنده - أي عند النبي ﷺ - مكان ، وكاننا أحب نساءه إليه فيما أحسب بعدي (٥) .

وعنها أيضاً قالت : وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ (٦) ، أي : تظاهيني وتفأخري ، بجبالها ومكانتها عنده عليه السلام .

- وفاتها :

توفيت زينب ، رضي الله عنها ، سنة عشرين وهي ابنة ثلاث وخمسين سنة ، وكانت أول نساء النبي ﷺ موتاً بعده (٧) ، روي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « أُسْرَعَنَّ لِحَاقًا بِي أُطُولُكُنَّ يَدًا » . قالت : فكُنَّ يتطاولن أَيْتَهُنَّ أطول يداً ، قالت : فكانت أطولنا يداً زينب ، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق (٨) .

وعن بَرَزَةَ بنت رافع قالت : لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها ، فلما أدخل عليها قالت : غفر الله لعمر ، غيري من أخواني كان أقوى على قسم هذا مني ، قالوا : هذا كله لك ، قالت : سبحان الله ! واستترت منه بثوب وقالت : صبّوه واطرحوا عليه ثوباً ، ثم قالت لي : أدخلني يدك فاقبضي منه قبضة فاذهي بها إلى بني فلان وبني فلان ، من أهل رجمها وأيتامها ، حتى بقيت بقيّة تحت الثوب ، فقالت لها بَرَزَةُ بنت رافع : غفر الله لك يا أمّ للمؤمنين ! والله لقد كان لنا في هذا حق ، فقالت : فلم مات تحت الثوب ، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهماً ، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت : اللهم ! لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا ، فماتت (٩) .

وفي رواية : فجعلت تقول : اللهم ! لا يدركني قابل هذا المال فإنه فتنة ، ثم قسمته في أهل رجمها وفي أهل الحاجة حتى أتت عليه ، فبلغ عمر فقال : هذه امرأة يُراد بها خير ، فوقف على بابها وأرسل بالسلام وقال : قد بلغني ما فرقت ، فأرسل إليها بألف درهم يستنققها ، فسلكت بها طريق ذلك المال (١٠) .

(١) صَنَعٌ : مُصَدَّرٌ وَصِفٌ بِهِ صَنَعَ يَصْنَعُ صَنَعًا ، وامرأة صَنِيعَةٌ وَصَنَاعٌ : أي حاذِقَةٌ ماهِرَةٌ بِعَمَلِ اليَدَيْنِ (لسان العرب : ج ٢٥٠٨/٤) .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ١٠٢/٨) .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٨٩/٨) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا وفي بعضهم ضعف .

(٤) طبقات ابن سعد (ج ١٠٨/٨) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ١١٤/٨) .

(٦) صحيح البخاري (ج ١٥٢/٥) كتاب للغازي - باب حديث الإفك .

(٧) انظر : المستدرک (ج ٢٥/٤) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٤٨/٩) .

(٨) صحيح مسلم (ج ١٩٠٧/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل زينب رضي الله عنها ح ١٠١ .

(٩) طبقات ابن سعد (ج ١٠٩/٨) .

(١٠) طبقات ابن سعد (ج ١١٠/٨) .

روي عن عثمان الجحشي قال : ما تركت زينب بنت جحش ديناراً ولا درهماً ، كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه ، وكانت مأوى المساكين ، وتركت منزلها فباعوه من الوليد بن عبد الملك حين هدم المسجد بخمسين ألف درهم^(١) .

وكفنت زينب ، رضي الله عنها ، في خمسة أثواب ، بعث بهن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وتصدق عنها أختها حمنة بكفنها الذي كانت أعدته ، وصلى عليها عمر بن الخطاب ، وهي أول من جعل على جنازتها نعش من أزواجه عليه السلام ، وكانت أوصت أن تُحمل على سرير رسول الله عليه السلام ويجعل عليه نعش ، ونزل في قبرها محمد بن عبد الله بن جحش ، وأسامة بن زيد ، وعبيد الله بن أبي أحمد بن جحش ، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله وهو ابن أختها حمنة بنت جحش ، ودُفنت بالبقيع رحمها الله تعالى^(٢) . (انظر مخطط قبور السلف المعروفة بالبقيع الشريف) .

☆ ☆ ☆

(١) المستدرك (ج ٢٤/٤) .

(٢) انظر : المستدرك (ج ٢٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٠/٨ ، ١١٣) .

غزوة بني المصطلق (١)

ويقال لها غزوة المرسيع ، وكانت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة (٢) . وسببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن الحارث بن أبي ضرار سيّد بني المصطلق ورئيسهم جمع قومه لحرب رسول الله ﷺ ومن قدر عليه من العرب ، فبعث رسول الله ﷺ بريدته بن الحصيب ، رضي الله عنه ، ليعلم علم ذلك ، فاتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ، فوجدهم قد جمعوا الجوع ، قالوا : من الرجل ؟ قال : منك ؛ قدمت لما بلغني من جمعكم لهذا الرجل فأسير في قومي ومن أطاعني فنكون يداً واحدة حتى نستأصله ، قال الحارث : فنحن على ذلك فعجل علينا ، فقال بريدته : أركب الآن وأتيكم بجمع كثير من قومي ، فسروا بذلك منه ، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم ، فندب رسول الله ﷺ الناس إليهم ، فأسرعوا الخروج ، وكانوا سبعمائة ، وكان خروجهم في شعبان ليلتين خلتا منه سنة خمس للهجرة ، وقادوا الخيول وهي ثلاثون فرساً : عشرة للمهاجرين ، منها فرسان للنبي ﷺ : ليزاز والطرب ، وعشرون للأنصار ، وخرج معهم بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قطّ مثلها . واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة زيد بن حارثة ، ويقال أبا ذر الغفاري أو تميلة بن عبد الله الليثي .

وكان الحارث بن أبي ضرار قد وجّه عيناً له لياتيه بخبر رسول الله ﷺ ، فأصابه النبي ﷺ في طريقه ، فسأله عنهم فلم يذكر من شأنهم شيئاً ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فضرب عنقه . فلما بلغ الحارث مسير رسول الله ﷺ وأنه قد قتل عينه سيء بذلك ، ومن معه ، وخافوا خوفاً شديداً ، وتفرّق عنهم من كان معهم من العرب من غير قومه .

وانتهى رسول الله ﷺ إلى المرسيع ، فضربت عليه قبته ، وكان معه فيها عائشة وأمّ سلمة ، رضي الله عنهما ، فتهيأ المسلمون للقتال ، وصفّ رسول الله ﷺ أصحابه ، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر أو إلى عمار بن ياسر ، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة ، ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فنادى في الناس : قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ، فأبوا ، فتراموا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه فحملوا حملة رجل واحد ، وكان شعارهم يا منصور أمت أمت ، فانهزم المشركون ، وقتل منهم عشرة فيهم حامل لوائهم ، وأسر سائرهم . وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري واستاق الإبل والشاء . (انظر : مصور غزوة بني المصطلق) .

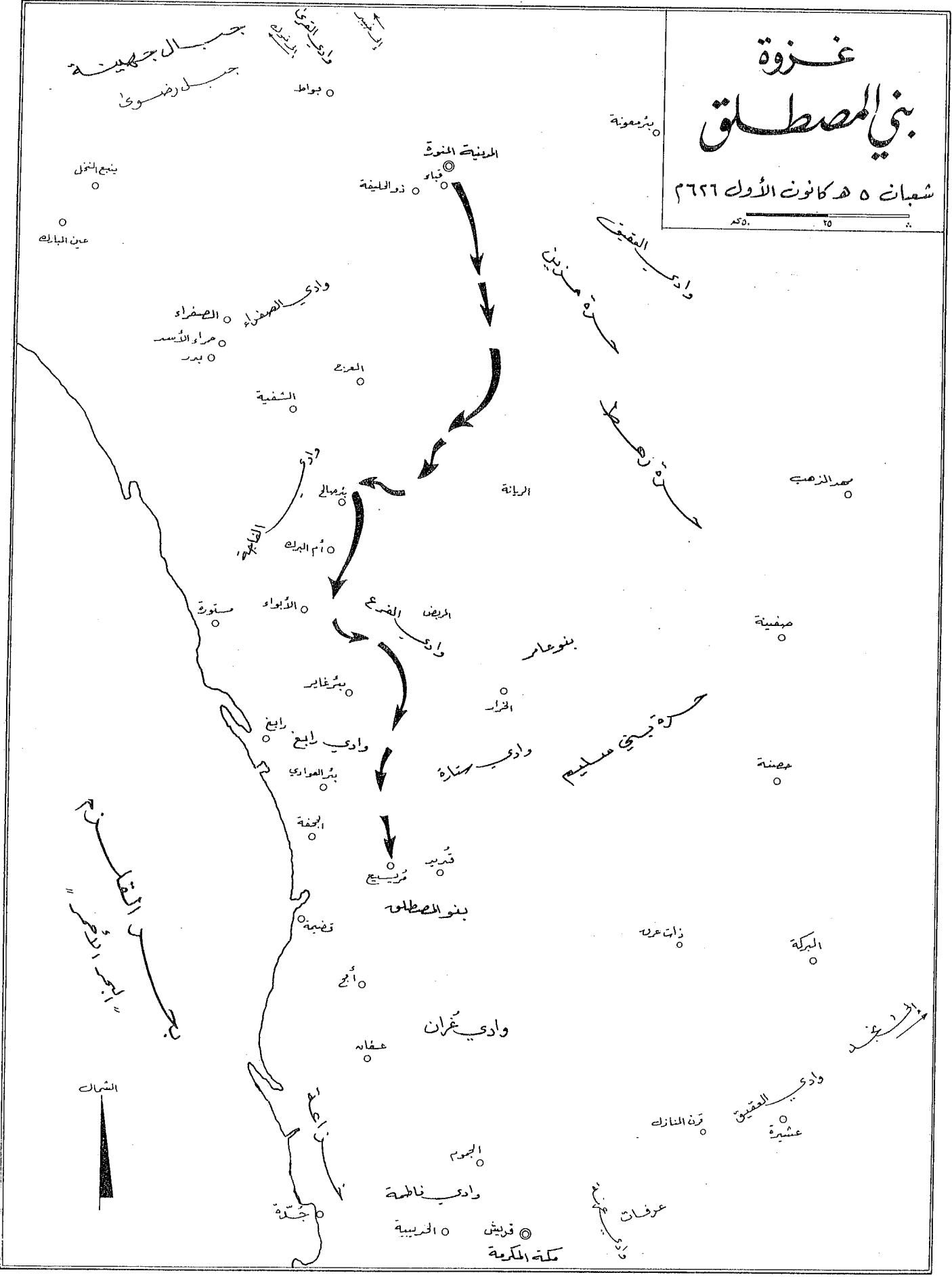
(١) المصطلق : بطن من خزاعة ، وهم بنو جذيمة ، وجذيمة هو المصطلق ؛ مأخوذ من الصلق وهو رفع الصوت ، كانوا ينزلون على ماء لهم يقال له المرسيع ناحية قديدي إلى الساحل ، فسميت الغزوة به . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٤/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٣/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٧٨/٢) .

(٢) اختلفت في زمن هذه الغزوة ، فعند ابن إسحاق والبخاري أنها في شعبان سنة ست للهجرة . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٣/٣) وصحيح البخاري (ج ١٤٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة بني المصطلق من خزاعة . وعند ابن سعد وموسى بن عقبة أنها في شعبان من السنة الخامسة . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٣/٢) ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٥/٤) . وقد رجح ابن حجر في فتح الباري (ج ٤٣٠/٧) أنها في شعبان سنة خمس ، لأنه ثبت في حديث الإفك عند البخاري والذي كان عقب هذه الغزوة أن سعد بن معاذ تنازع هو وسعد بن عبادة في شأن أصحاب الإفك ، فلو كانت المرسيع في شعبان سنة ست مع كون الإفك فيها لكان ما وقع في صحيح البخاري من ذكر سعد بن معاذ غلطاً - لأنه مات أيام قريظة وكانت في سنة خمس على الصحيح - وهو بعيد . وهذا ما ذهبنا إليه في تاريخ هذه الغزوة .

غزوة بني المصطلق

شعبان ٥ هـ كانون الأول ٦٢٦م

٢٥ كم



وفي رواية في صحيح البخاري أنه لم يكن بينهم قتال ، بل أغار رسول الله ﷺ عليهم وهم غازون^(١) ، وأنعامهم تُسقى على الماء ، فقتل مقاتلتهم وسي ذراريهم^(٢) .

وأمر رسول الله ﷺ بالأسارى فكتفوا ، واستعمل عليهم بريدة بن الحصيْب ، وأمر بالفنائم فجمعت من متاع وسلاح ونعم وشاء ، واستعمل عليها شقران مولاه ، وجمع الذرية ناحية . فكانت الإبل ألفي بعير ، والشاء خمسة آلاف شاة ، وكان السبي مائتي أهل بيت .

ثم قسم رسول الله ﷺ ذلك كله في الموضع الذي عنها فيه ، فأخرج الخمس ، ثم قسم الباقي بين الناس ، فأعطى الفرس سهمين ولصاحبه سهماً ، وللراجل سهماً ، واستعمل على مقيِّم الخمس وسُهَّان المسلمِين مَحْمِيَّة بن جَزء ، ففرق السبي فصار في أيدي الرجال ، وقسم النَّعَم والشاء فعدلت الجزور بعشر من الغنم ، وبيعت الرِّثَّة^(٣) من المتاع في من يزيد^(٤) .

زواج النبي ﷺ من جَوَيْرِيَّة بنت الحارث رضي الله عنها :

وكان فبين أصيب يومئذ من السبايا جَوَيْرِيَّة بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المُصْطَلِق ، وكانت تحت مُسَافِع بن صفوان فقتل في هذه الغزوة ، وقيل : كانت تحت ابن عم لها يقال له صفوان ذو الشُّفْر ، فلما قسم السبي وقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس بن الشَّسَّاس أولابن عم له ، فكاتبت على نفسها - وفي رواية : أنها صارت في سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، فكاتباها على تسع أواق من ذهب - وكانت امرأة حلوة ملاححة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأنت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها ، قالت عائشة : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب الحياء فكرهتها ، وعرفت أنه ﷺ سبى منها ما رأيت ، فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله ! أنا جَوَيْرِيَّة بنت الحارث بن أبي ضرار سيِّد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، ف وقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشَّسَّاس ، أولابن عم له ، فكاتبت على نفسي ، فجمعتك أستعينك على كتابتي ، فقال رسول الله ﷺ : « فُهَلْ لَكَ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ » قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أَقْضِي عَنْكَ كِتَابَتَكَ وَأَتَزَوَّجُكَ » ، قالت : نعم يا رسول الله ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فاشتراها منه ، فأعتقها وتزوجها وأصدقها أربعمائة درهم .

فلما خرج الخبر إلى الناس قالوا : أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما كان في أيديهم من السبي . قالت عائشة : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المُصْطَلِق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .

أما بقية السبي فمنهم من منّ عليه رسول الله ﷺ بغير فداء ، ومنهم من اقتدى ، فافتديت المرأة والذرية بست فرائض ، وقدموا المدينة ببعض السبي ، فقدم عليهم أهلهم فافتدوهم ، فلم تبق امرأة من بني المُصْطَلِق إلا رجعت إلى أهلها^(٥) .

روي عن جَوَيْرِيَّة بنت الحارث أنها قالت : رأيت قبل قدوم النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بثلاث ليال كأن القمر أقبل يسير من يثرب حتى وقع في حجري ، فكرهت أن أخبر بها أحداً من الناس حتى قدم رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما سبينا رجوت الرؤيا ، فلما أعتقني وتزوجني والله ما كلمته في قومي ، حتى كان المسامون هم الذين أرسلوهم ، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي تخبرني الخبر ، فحمدت الله عز وجل^(٦) .

(١) الغار : الغافل (الوسيط : ج ٦٥٤/٢) .

(٢) صحيح البخاري (ج ١٩٤/٢) كتاب العتق - باب من ملك من العرب رقيقاً . ويمكن الجمع بين الروايتين بأنه لما أغار النبي ﷺ عليهم ثبتوا وصفوا للقتال ، ثم انهزموا وقعت الغلبة عليهم ، وقتل منهم من قاتل . انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٧٩/٢) .

(٣) الرِّثَّة : رديء المتاع (الوسيط : ج ٢٢٨/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/٢ - ٢٣٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٢/٢ - ٦٤) ، و (ج ١١٦/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٦/٤ - ٤٨) ، وسننه (ج ٢٠٥/٦) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٩/٣) ، و (ج ٢٢٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٤/٢) و (ج ٢١٧/٨) .

(٦) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٧/٤) .

ويقال إن رسول الله ﷺ جعل صداقها عتق كل أسير من قومها ، أو أربعين منهم^(١) .

والروايات السابقة تقتضي أن رسول الله ﷺ تزوجها وهم على ماء المَرَّيسيع ، ويقال : لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق ومعه جَوَيْرِيَّة بنت الحارث ، وكان بذات الجيش^(٢) ، دفع جَوَيْرِيَّة إلى رجل من الأنصار وديعة ، وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق^(٣) نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء فرغب في بيعين منها فغيبها في شعب من شعاب العقيق ، ثم أتى النبي ﷺ وقال : يا محمد ! أصبم ابنتي وهذا فداؤها ، فقال رسول الله ﷺ : « فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في شعب كذا وكذا ؟ » فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله ، فوالله ما أطلع على ذلك إلا الله ، فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين ، فجاء بها ، فدفع الإبل إلى النبي ﷺ ودفعته إليه ابنته جَوَيْرِيَّة ، فأسلمت وحسن إسلامها ، فخطبها النبي ﷺ إلى أبيها ، فزوجه إياها ، وأصدقها أربعائة درهم^(٤) .

وروي عن أبي قلابة أن النبي ﷺ سبي جَوَيْرِيَّة بنت الحارث ، فجاء أبوها إلى النبي ﷺ فقال : إن ابنتي لا يسبى مثلها ؛ فأنا أكرم من ذلك ، فخل سبيلها . قال : « أرأيت إن خيرتها أليس قد أحسنا ؟ » قال : بلى وأذيت ما عليك ، قال : فاتاها أبوها ، فقال : إن هذا الرجل قد خيرك فلا تفضحين ، فقالت : فإني قد اخترت رسول الله ﷺ ، قال : قد والله فضحتنا^(٥) .

ولما تزوجها رسول الله ﷺ ضرب عليها الحجاب ، وكان يقسم لها كما يقسم لنسائه ، وكان اسمها برة فسمها رسول الله ﷺ جَوَيْرِيَّة ، وكان يكره أن يقال : خرج من عند برة .

وكانت حين تزوجها رسول الله ﷺ بنت عشرين سنة ، وتوفيت سنة خمسين للهجرة ، وهي يومئذ ابنة خمس وستين سنة ، وقيل : توفيت في شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين في إمارة معاوية ، رضي الله عنه ، وصلى عليها مروان بن الحكم وهو يومئذ والي المدينة^(٦) .

وبسبب زواج النبي ﷺ من جَوَيْرِيَّة ، رضي الله عنها ، هدى الله أكثر بني المصطلق إلى الإسلام ، فقد أسلم أبوها الحارث فخرج داعياً لقومه إلى الإسلام ، وأسلموا ، وبعد إسلامهم بأكثر من عامين بعث إليهم رسول الله ﷺ الوليد بن عتبة بن أبي معيط لأخذ صدقاتهم ، ويروى أن بعثه إليهم كان سنة تسع أو عشر^(٧) .

نزول سورة المنافقين وعودة النبي ﷺ إلى المدينة :

ذكرنا أنه خرج مع النبي ﷺ في هذه الغزوة ناس كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قط مثلها ، فيهم عبد الله بن أبي ابن سؤل ، ولم يكن خروجهم رغبة في الجهاد وإنما غرضهم أن يصيبوا من عرض الدينا ، مع محاولة إيقاع الفتنة بين صفوف المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

فقد روي أنه بينما رسول الله ﷺ مقبلاً على المَرَّيسيع ، بعد انقضاء الحرب ، وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أجبر له من بني غفار يقال له جَهْجَهَاء بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جَهْجَهَاء وسنان بن وَبَر الجَهْني حليف بني

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٤/٢) .

(٢) ذات الجيش : موضع قُرب المدينة ، وهو واد بين ذي الحليفة وتربان (معجم البلدان : ج ١٩٢/٣) .

(٣) العقيق : موضع بناحية المدينة وفيه عيون ونخل (معجم البلدان : ج ١٩٩/٦) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٠/٣) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ١١٨/٨) .

(٦) انظر : المستدرک (ج ٢٧/٤ ، ٢٨) ، وصحيح مسلم (ج ١٦٨٧/٣) كتاب الأدب - باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن ح ١٦ .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٠/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦١/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٥٤/٩) ، وعيون الأثر (ج ٩٥/٢) . وسيأتي

خير بعث الوليد إلى بني المصطلق مُصدقاً في السنة التاسعة عند ذكر بعث النبي ﷺ عماله على الصدقات .

عوف بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ! فأقبلت قريش سراعا ، وأقبلت الأوس والخزرج ، وشهروا السلاح ، حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا دَعْوَى أَهْلِ الجاهليَّةِ ؟ » فأخبروه بما جرى ، فقال : « دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ » . ثم قال : « لِيُنْصَرَ الرَّجُلُ أَخِيَّةَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ؛ إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيُنْهَهِ ، فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيُنْصُرْهُ » . فكلّموا عند ذلك المضروب فترك حقّه وعفا عن أخيه واصطلحا ، وسكنت الفتنة .

وبلغ ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول فغضب - وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم بن غلام حدّث - وقال : أوّقد فعلوها ؟ قد نافرنا^(١) وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدّنا وجلايب قريش^(٢) إلا كما قال الأول : سَمَنَ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتوهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، فلا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله .

فسمع ذلك زيد بن أرقم ، رضي الله عنه ، فشى به إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ونفر من المهاجرين والأنصار - وفي رواية : فذكر ذلك زيد لعمّه فذكره للنبي ﷺ ، فدعاه فحدّثه فكره رسول الله ﷺ ذلك وتغيّر وجهه - فقال عمر : يا رسول الله ! دعني أضرب عنق هذا المنافق ، أو قال : مُر عِبَادَ بَنِ بَشْرٍ فليقتله ، فقال له رسول الله ﷺ : « فكيف يا عمّ إذا تحدّث النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ ؟ وَلَكِنْ أَدْنُ بِالرَّحِيلِ » ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

وقيل : إن زيد بن أرقم ، رضي الله عنه ، قال لابن أبي - لما قال : أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ - : أنت والله الذليل المنقّص في قومك ، ومحمد ﷺ في عزّ من الرحمن وقوة من المسلمين ، فقال له ابن أبي لعنه الله : اسكت ، فإنما كنت ألعب .

وكان رسول الله ﷺ أرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله ، فحلف بالله واجتهد يمينه ما تكلم بهذا ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنْ كَانَ سَبَقَ مِنْكَ قَوْلٌ فَتَبَّ » فجحد وحلف ، فلام زيدا قومه وقالوا : ما أردت إلى هذا ؟ أسأت با بن عمك وظلمته ، ولم يصدّقك رسول الله ﷺ .

وفي رواية : أن ابن أبي ابن سلول مشى إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفا عظيما ، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل - حدّبا على ابن أبي ودفعاً عنه - وقالوا : كذب زيد رسول الله ﷺ .

قال زيد رضي الله عنه : فوقع في نفسي مما قالوا شدة ، وصدّقه رسول الله ﷺ وكذبني ، فجاء إليّ عمي فقال : ما أردت أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك وكذبك للمسلمون ، قال : فأصابني غمّ لم يصيبني مثله قط .

فلما استقلّ رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير ، رضي الله عنه ، فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه ، ثم قال : يا نبيّ الله ! والله لقد رُحِتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَوْ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبِكُمْ ؟ » قال : وأيّ صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي » ، قال : وما قال ؟ قال : « زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَخْرَجَ الْأَعَزَّ مِنَ الْأَذَلِّ » ، قال : فأنت يا رسول الله والله تُخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ! أرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الحُرز ليتوجّوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى أذتهم الشمس ثم نزل

(١) نافرته : خاصّة وفاخرة (الوسيط : ج ١٤٨/٢) .

(٢) هذا لقب كان للمشركون يلقبون به أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة ، يعني المهاجرين .

بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسّاً الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي .

ثم راح رسول الله ﷺ بالناس ، وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز قُوَيْقُ النَّبِيْع يقال له تَقْعَاء ، فلما راح وكان قرب المدينة هبّت على الناس ريح شديدة أذنتهم وتحوّفوها ، حتى تكاد أن تدفن الراكب ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تخافوها ، فإنها هبّت لِمُوتِ عَظِيْمٍ مِنْ عَظَمَاءِ الْكُفَّارِ » - وفي رواية : فزعموا أنه قال : « ماتَ اليَوْمَ مُنَافِقٌ عَظِيْمٌ النَّفَاقِ » .

ويروي أن عُبَاةَ بن الصَّامِتِ ، رضي الله عنه ، قال لابن أبيّ : أبا حَبَاب ! مات خليلك ، قال : أي أخيلائي ؟ قال : من موته فتح للإسلام وأهله ، قال : من ؟ قال : زيد بن رِفَاعَةَ بن التَّائِبِ ، قال : يا ويلاه ! كان والله وكان ، فجعل يذكر ، فقال عُبَاةَ : اعتصمت بالذَّنْبِ الأَبْتَرِ ، قال : من أخبرك يا أبا الوليد بموته ؟ قلت : رسول الله ﷺ أخبرنا الساعة أنه مات هذه الساعة ، فأسقط في يديه ، وانصرف كئيباً حزيناً .

فلما قدموا المدينة وجدوا رِفَاعَةَ بن زيد بن التَّائِبِ - ويقال : زيد بن رِفَاعَةَ - أحد بني قَيْنَقَاع ، وكان عظيماً من عظماء يهود وكهنأ للمنافقين ، مات في ذلك اليوم .

وكانت غيبته عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً ، وقدم المدينة لهُلالِ رمضان .

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبيّ ومن كان على مثل أمره ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى زيد بن أرقم فأخذ بأذنيه وقال : « هذا الذي أوفى الله بأذنيه » ، ثم قرأ عليه سورة المنافقين حتى بلغ ما أنزل الله في ابن أبيّ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْبَرِّ الْمَسْجِدَ الَّذِي يُبْعَثُونَ ﴾ (١) ، فقال له : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ » .

وفي رواية : قال زيد : فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر ، وقد خفقت برأسي من الهم ، فأتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي ، فما كان يسترني أن لي بها الخلد أو الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقني فقال : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قلت : ما قال لي شيئاً غير أنه عرك أذني وضحك في وجهي ، فقال : أبشر ، ثم لحقني عمر فقال : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ فقلت له مثل قولي لأبي بكر ، فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ (٢) .

ورويت قصة زيد بوجه مختلف فعن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، أنه سأله بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم ، فقال : هو الذي يقول له رسول الله ﷺ : « هذا الذي أوفى الله بأذنيه » . قال : وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول - ورسول الله ﷺ يخطب - : لئن كان هذا صادقاً ، لنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم : فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار ، ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فحجده القائل ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية تصديقاً لزيد - يعني قوله : ﴿ يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ .. ﴾ (٣) الآية (٤) .

وكان عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، رضي الله عنه ، لما بلغه الذي كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بداً فاعلاً فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخرج

(١) المنافقون : ٧ - ٨ .

(٢) المنافقون : ١ - ٨ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٣٤ - ٢٣٦) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٧/١٨٧ - ١٩٢) كتاب التفسير - سورة المنافقين ، وصحيح مسلم (ج ٤/١٩٩٨) كتاب البر والصلة - باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ح ٦٢ ، و (ج ٤/٢١٤٥) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ح ١٥ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٦٤ ، ٦٥) ، والمستدرک (ج ٢/٤٨٩) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤/٣٦٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤/٥٧ ، ٥٩) ، ومغازي الواقدي (ج ٢/٤٢٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢/٢٨٧) .

(٣) التوبة : ٧٤ . سيأتي في غزوة تبوك أن هذه الآية نزلت في الجلاس بن سويد ، وأن الذي رفع مقالته إلى النبي ﷺ عمير بن سعد .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤/٥٧) .

ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال له رسول الله ﷺ : « بَلْ تَتَرَفَّقُ بِهِ وَتُحْسِنُ صَحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا » .

فلما رجع رسول الله ﷺ من المريسيع تقدم ابن عبد الله بن أبي الناس حتى وقف لأبيه على باب المدينة ، فلما رآه أناخ به وقال : والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاء النبي ﷺ أذن له ، وقال : « دَعَا ، فَكَلَمَرِي لِنَحْسِنَنَّ صَحْبَتَهُ مَا دَامَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا » ، فخلّى سبيله .

ويقال إن عبد الله سلّ على أبيه السيف وقال له : لله عليّ ألا أعده حتى تقول : محمد الأعزّ وأنا الأذلّ ، فقال ابن أبي : ويلك ! محمد الأعزّ وأنا الأذلّ ، فبلغت رسول الله ﷺ فأعجبه وشكرها له^(١) .

روي عن عبد الله بن أبي بكر قال : كان عبد الله بن أبي إذا طلع على رسول الله ﷺ ، وعنده أصحابه من الأوس والخزرج ، وقد كانوا عرفوا ضيغته على رسول الله ﷺ ، ويُعجبهم أن يعرف له شرفه ويكرهون أن يقولوا ذلك له لما يعرفون من ضيغته عليه ، فيقول بعضهم لبعض : هذا عبد الله بن أبي ، فإذا سمعها رسول الله ﷺ قال له : « اذنه »^(٢) .

وروي عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحديث - أي ابن أبي - كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعتفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب - حين بلغه ذلك من شأنهم - : « كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرُؤُ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَ قُلْتُ لِي أَقْتَلُهُ لِأُرْعِدَتْ لَهُ أَنْفٌ لَوْ أَمَرْتَهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْتُهُ » ، قال : قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري^(٣) .

شهداء المسلمين في غزوة بني المصطلق :

ولم يقتل من المسلمين في هذه الغزوة إلا رجل واحد هو هشام بن صبابة من بني كلب بن عوف ، أصابه رجل من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ .

وقدم أخوه مقيس بن صبابة من مكة مسلماً ، فيما يظهر ، فقال : يا رسول الله ! جئت مسلماً ، وجئتك أطلب دية أخي ، فقتل خطأ ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه ، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتداً ، فأهدر رسول الله ﷺ دمه ، فقتل يوم فتح مكة^(٤) .

حديث الإفك :

وفي هذه الغزوة وقع حديث الإفك الذي كان أعظم فتنة حاكها المنافقون ، وأسأوا فيه إلى مقام الرسول ﷺ ، ونشروا القسالة حول عرضه وكرامته وأحبّ أزواجه إليه .

ولنترك السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، تروي لنا حديث الإفك كاملاً ، كما رواه عنها أئمة الحديث وأصحاب السير والمغازي . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سرفاً أقرع بين نساءه ، فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نساءه كما كان يصنع ، فخرج سهمي عليهنّ معه ، قالت : فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل في هودجتي وأنزل فيه ، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل راجعاً إلى المدينة نزل في بعض المنازل فبات به بعض الليل ثم أذن في الناس بالرحيل ، فقامت حين أذنوا بالرحيل فضيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٣٣٦) ، وسنن الترمذي (ج ٤١٨/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة المنافقين ح ٣٣٦٥ ، وطبقات ابن سعد

(ج ٦٥/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٢١٧/٩) .

(٢) دلائل البيهقي (ج ١٢/٤) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٣٧/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٤/٣ ، ٢٢٧) .

فلمست صدري ، فإذا عُدت لي من جَزَع ظَفَارٍ^(١) قد انقطع ، فرجعت فالتست عقدي فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يَرَحَّأُونَ^(٢) بي ، فاحتلوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه ، وهم يظنون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يغشهن اللحم إنما يأكلن العُلقة من الطعام^(٣) ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحلوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا البعير^(٤) ، فساروا ، ووجدت عقدي بعدما استرَّ الجيش . فجتت منازلهم وليس بها من داع ولا مجيب ، فأقمت بمنزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ ، فبينما أنا جالسة في منزلي وقد تلففت بجلبابي غلبتني عيني فبتت ، فاستيقظت إلا بقول صفوان بن المعطل السلمي : إنا لله وإنا إليه راجعون ، طعينة رسول الله ﷺ ؟ وكان صفوان من وراء الجيش لأنه كان على الساقفة^(٥) يتخلف عن الناس ليلتقط ما يسقط من المتاع كالقَدَح والجِرَاب^(٦) والإداوة ؛ فيحمله حتى يأتي به أصحابه - وقيل : كان كثير النوم لا يستيقظ حتى يرتحل الناس ، فسأل رسول الله ﷺ أن يجعله على الساقفة فجعله - فسار ليلاً فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نام ، قالت عائشة : فعرفني حين رأني ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فاسترجع وقال : ما خلفك يرحمك الله ؟ قالت : فخرمت وجهي بجلبابي ، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهو حتى أناخ راحلته ، فوطيء على يدها وقال : يا أمه ! قومي فاركي ، قالت : فقامت إليها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا وذلك في نحر الظهيرة^(٧) ، فلما رأى ذلك الناس قالوا ما قالوا ، وهلك من هلك بقول البهتان والافتراء .

وكان أول من أشاع حديث الإفك في المعسكر عبد الله بن أبي ابن سؤل في جماعة من الخزرج المنافقين ، ثم أشاع ذلك في المدينة بعد دخولهم ، فجعل يستوشيه^(٨) ويجمعه ويذيعه ، وكان أصحابه يتحدثون به عنده فيقره ويستعمه .

قالت عائشة : فَأَرْتَعَج^(٩) العسكر ، ثم قدمنا المدينة ، فاشتكت حين قدمت شهراً ، والناس يَفِيضُونَ^(١٠) في قول أصحاب الإفك ، وانتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبيي ولا أشعر بشيء من ذلك ، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي ، كنت إذا اشتكت رحمني ولطف بي ، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك ، فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل وعندي أمي تَمْرُضِي سَلَمٌ ثم قال : « كَيْفَ تَيْكُم ؟ » لا يزيد على ذلك ، ثم ينصرف ، حتى نَقَهْت^(١١) من وجعي ، وكنا قوماً عرباً ، ولا نتخذ في بيوتنا هذه الكُنْف^(١٢) التي تتخذها الأعاجم ناعفها ونكرها ، إنما كنا نذهب في فُسْح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعني أمٌ مِسْطَح^(١٣) بنت أبي رَهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، قالت : فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها ، فقالت تعس مِسْطَح ، فقلت لها : بئس ما قلت ؛ أتسبين رجلاً شهد بدرًا ؟ فقالت : أو ما بلغك ما قال يابنت أبي بكر ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك فقلت : أو

(١) الجَزَعُ : ضَرْبٌ مِنَ الْخَرَزِ (لسان العرب : ج ٦١٧/١) ، وَظَفَارٍ : مَدِينَةٌ بِالْيَمَنِ قُرْبَ صَنْعَاءَ يُنْسَبُ إِلَيْهَا الْجَزَعُ الظَّفَارِيُّ (معجم البلدان :

ج ٨٦/٨) .

(٢) رَحَّلَ الْبَعِيرَ : جَعَلَ عَلَيْهِ الرَّحْلَ ، وَرَحَّلَ الْبَعِيرَ هُوَ مَا يُوضَعُ عَلَى ظَهْرِهِ لِلرُّكُوبِ . وقد تقدم .

(٣) أَيْ يَكْتَنِفِينَ بِالْبُلْغَةِ مِنَ الطَّعَامِ . انظر : (النهاية : ج ٢٨٩/٣) .

(٤) بَعَثَ الْبَعِيرَ : حَلَّ عِقَالَهُ وَأَطْلَقَهُ (الوسيط : ج ٦٢/١) .

(٥) سَاقَةُ الْجَيْشِ : مُؤَخَّرُهُ ، وَالسَّاقَةُ : جَمْعُ سَاقٍ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَسُوقُونَ جَيْشَ الْعَرَاةِ وَيَكُونُونَ مِنْ ورائِهِ يَحْفَظُونَهُ . وقد تقدم .

(٦) الْجِرَابُ : وَعَاءٌ يُحْفَظُ فِيهِ الزَّادُ وَنَحْوُهُ (الوسيط : ج ١١٤/٨) .

(٧) نَحْرُ الظَّهِيرَةِ : هُوَ حِينَ تَبْلُغُ الشَّمْسُ مُنْتَهَاهَا مِنَ الارتفاعِ ، كَأَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَى النُّحْرِ وَهُوَ أَعْلَى الصَّدْرِ (النهاية : ج ٢٧/٥) .

(٨) يَسْتَوْشِي الْحَدِيثَ : أَيْ يَسْتَخْرِجُهُ بِالْبَحْثِ عَنْهُ (النهاية : ج ١٩٠/٥) .

(٩) ارْتَعَجَ : اضْطَرَبَ (النهاية : ج ٢٣٤/٢) .

(١٠) أَقَاضَ الْقَوْمَ فِي الْحَدِيثِ : انْتَشَرُوا ، وَقِيلَ : هُوَ إِذَا انْدَقَعُوا وَخَاصَّوْا وَأَكْثَرُوا (لسان العرب : ج ٣٥٠/٥) .

(١١) نَقَةُ الْمَرِيضِ يَنْقُهُ فَهُوَ نَاقَةٌ : إِذَا تَرَأَى وَأَفَاقَ ، وَكَانَ قَرِيبَ الْعَهْدِ بِالْمَرَضِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ كَالصِّحَّةِ وَقَوْتِهِ (النهاية : ج ١١٧/٥) .

(١٢) الْكُنْفُ : جَمْعُ كَيْفِيفٍ ، وَهُوَ الْحَلَاءُ ، كَأَنَّ كَيْفِيفَ فِي أَسْتَرِ النَّوَاحِي (لسان العرب : ج ٢٩٤/٥) .

(١٣) مِسْطَحٌ : لَقَبٌ وَاسْمُهُ عَوْفٌ (سيرة ابن هشام : ج ٢٤٤/٣) .

قد كان هذا ؟ قالت : نعم والله ، فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً ، ووعت . قالت : فدخل علي رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ وأنا أريد أن أستيقن الخبر من قبلها ، قال : « لا عليك » - وفي رواية أنها استأذنت رسول الله ﷺ قبل إخبار أم مسطح لها بالقصة ، فإنها لما أنكرت من رسول الله ﷺ لطفه بها ، ورأت مارت من جفائه لها حين اشتكت ، وجدت في نفسها فقالت له : لو أذنت لي فانتقلت إلى أمي فرضتني ، فأذن لها ، فأرسل معها الغلام حتى أتت أهلها . قالت : فدخلت الدار فوجدت أمي أم رومان^(١) في السفلى وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت أمي : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها وقلت لها : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ، فقالت : يا بنية ! هو في عليك أو خفي عليك الشأن ، فإنه والله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدتها وكثرن عليها وكثر الناس عليها ، فقلت : سبحان الله ! أو لقد تحدثت الناس بهذا ؟ وقلت : وقد علم به أي ؟ قالت : نعم ، قلت : ورسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . فخرت مغشياً عليها ، فما أفأقت إلا وعليها حمى بنافض^(٢) ، قالت عائشة : فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ ، فنزل فقال لأمي : ماشأنا ؟ فقالت : بلغها الذي ذكر من شأنها ، ففاضت عيناه وقال : والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية قط ، فكيف وقد أعزنا الإسلام ؟ فبكي أهل الدار ، ثم قال : أقسمت عليك أي بنية إلا رجعت إلى بيتك ، قالت : فرجعت .

وأما رسول الله ﷺ فإنه لما استلبت^(٣) الوحي عنه واشتد قلبه ، استشار أصحابه فقال : « مَا تَرَوْنَ ؟ » فقال عمر رضي الله عنه : من زوجها لك يا رسول الله ؟ قال : « الله تعالى » ، قال : أفنظن أن الله دلس عليك فيها ؟ سبحان الله ! هذا بهتان^(٤) عظيم . وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه : سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم . وقال بعض الصحابة : أت رسول الله ، صلى الله عليك وسلم ، وينزل عليك الوحي ، وأمرنا لأمرك تتبع . وقال آخرون : والله لبيئته الله لك فلا تعجل . وأبو بكر جالس يسمع وقد صار وجهه كأنه صب عليه زرنبيخ ، فقال له رسول الله ﷺ « أَلَا تَعْدِرُنِي^(٥) مِنْ عَائِشَةَ ؟ » فقام إليها أبو بكر فرفع يده فضرب صدرها ضربة شديدة ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « عَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا رَدْتُ هَذَا » .

قالت عائشة : وسأل رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، رضي الله عنها ، عن أمري فقال لها : « ماذا علمت أو رأيت ؟ » فقالت : يا رسول الله ! أحمي سمعي وبصري^(٦) ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني^(٧) أو قالت تناصيني^(٨) من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع . قالت : وطفقت أختها حممة تحارب لها ، فهلكت فين هلك .

وسأل رسول الله ﷺ أم أيمن فقالت : حاش سمعي وبصري^(٩) أن أكون علمت أو ظننت بها قط إلا خيراً .

قالت عائشة : ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ، رضي الله عنهم ، فاستشارهما في فراق أهله ، فأما أسامة فأثنى علي خيراً وقال : يا رسول الله ! أهلك ولا تعلم إلا خيراً ، ولا تعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل . وأما علي فإنه قال : يا رسول الله ! لم يضيئ الله عليك والنساء سواها كثير ، وإنك لنادر على أن تستخلف ، أو قال : قد أحل لك طلاقها ، وسئل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : « أَيُّ بَرِيرَةَ ! هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبُكَ ؟ » قالت له بريرة : والذي بعثك

(١) واسمها زَيْنَبُ بنت عَبْدِ دُهْمَانَ أحد بني فِرَاس بن عَنَمٍ من بني كِنَانَةَ فيما قال ابن هشام في السيرة (ج ٢٤٢/٣) .

(٢) حَمَى بِنَافِضٍ : أَي حَمَى بِرَعْدَةٍ شَدِيدَةٍ ، كَأَنَّهَا نَفَضَتْهَا أَي حَرَكْتُهَا ، وَالنَّفَضَةُ : الرُّعْدَةُ (لسان العرب : ج ٤٥٥/٦) .

(٣) أَي أَبْطَأَ عَنَهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٤) الْبُهْتَانُ : الْبَاطِلُ (النهاية : ج ١٦٥/١) .

(٥) أَي : أَلَا تَقْوَمُ بِعَدْرِي فِي ذَلِكَ - إِنْ أَدْبَيْتَهَا (لسان العرب : ج ٢٨٥٦/٤) .

(٦) أَي أَمْتَقَهَا مِنْ أَنْ أَنْسَبَ إِلَيْهَا مَا مِنْ يَذْرَاةٍ ، وَمِنْ الْعَذَابِ لَوْ كَذَّبَتْ عَلَيْهَا (النهاية : ج ٤٤٨/١) .

(٧) تَسَامِينِي : أَي تَعَالَيْنِي وَتَفَاخِرْنِي ، وَهُوَ مَفَاعَلَةٌ مِنَ السُّؤْمِ : أَي تَطَاوَلْنِي فِي الْخَطْوَةِ عِنْدَهُ (النهاية : ج ٤٠٥/٢) .

(٨) تَنَاصِينِي : أَي تَنَازِعْنِي وَتَبَارِينِي (النهاية : ج ٦٨/٥) .

(٩) أَي أَنْزَعَتْ سَمْعِي وَبَصْرِي ، يُقَالُ : حَاشَ لِلَّهِ تَنْزِعًا لَهُ . انظر : (لسان العرب : ج ١٠٥٠/٢) .

بالحق ، ما رأيت عليها أمراً قطّ أغمصه^(١) غير أنها جارية حديثة السنّ تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن^(٢) فتأكله . فانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقني رسول الله ﷺ ، حتى أسقطوا لها به^(٣) ، فقالت : سبحان الله ، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبرّ الذهب الأحمر ، وقام إليها عليّ فضربها ضرباً شديداً وهو يقول لها : اصدقني رسول الله ﷺ ، فجعلت تقول : والله ما أعلم إلا خيراً .

قالت عائشة : ولقد سئل عن ابن المَعَطَّل ، فوجدوه رجلاً حصوراً ما يأتي النساء ، ولما بلغه ما قيل فيه قال : سبحان الله ! فولذي نفسي بيده ما كشفت من كَنَفِ أُنثَى قطّ . قالت : ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله .

قالت عائشة : ثم قام رسول الله ﷺ في الناس يخظهم ، ولا أعلم بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أيها الناس ! ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً - يعني صفوان - ما علمت عليه إلا خيراً ، ولا يدخل بيئي قطّ إلا وأنا حاضِرٌ ، ولا عبت في سقرٍ إلا غاب معي » ، ثم استعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول فقال وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ! من يعذرني^(٤) من رجلٍ قد بلغني عنه أذاه في أهلي ؟ » فقام إليه سعد بن معاذ - سيّد الأوس - فسل سيفه فقال : أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيّد الخزرج ، قالت : وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتمته الحميّة ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيات : الأوس والخزرج حتى هُوا أن يقتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

قالت عائشة : ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ ، وعندي أبوي ، وعندي امرأة من الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي معي ، وقد بكيت ليلتين ويوماً^(٥) لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى ظننت أن البكاء فالق كبدي ، فسلم رسول الله ﷺ ، ثم جلس - ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها - فتشهد فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أمّا بعد ، يا عائشة ! إنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسببرك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه » . قالت : فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك فقلص دمي حتى ما أحسن منه قطرة ، فقلت لأبوي : ألا تحببان رسول الله ﷺ ؟ فقالا : والله ما ندري بماذا نجيبه ، قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام ، قالت : فلما أن استعجما عليّ استعبرت فبكيت ، ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ، وإني والله لقد علمت لقد سمعت هذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم وصدقت به ، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني ، ولكن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أي منه بريئة - لتصدقني ، إني والله ما أجد لي ولكم مثلاً - والتست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبَّرَ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَقَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾^(٦) . ثم تحولت فاضطجعت على فراشي والله يعلم أي حينئذ بريئة ، وأن الله مبرئني ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يقرأ به في المساجد ويصلى به ، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبزيها الله بها ، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه لَيَسْتَحَدِّرُ منه من العرق مثل الجبان وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه ، قالت عائشة : فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فرغت ولا باليت ، قد عرفت أي منه بريئة ، وأن الله ، عز وجل ، غير ظالمي ، وأما أبوي فولذي نفس عائشة بيده ما سري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال

(١) أغمصه : أي أعينها به وأطعن به عليها (النهاية : ج ٢٨٦/٢) .

(٢) الداجن : الشاة التي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى (فتح الباري : ج ٤٧٠/٨) .

(٣) أي صرخوا لها بالأمر (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ١١٥/١٧) .

(٤) أي من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه فلا يلومني ؟ (النهاية : ج ١٩٧/٢) .

(٥) أي الليلة التي أخبرتها فيها أم مسطح الخبر ، واليوم الذي خطب فيه النبي ﷺ الناس واللييلة التي تليه .

(٦) يوسف : ١٨ .

الناس ، قالت : فسُري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : « يا عائشة ! أما الله فقد برأك » ، فقلت : بحمد الله لا بحمدك ، وكنت أشد ما كنت غضباً ، فقال لي أبوي : قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحده ولا أحدك ، ولكن أحد الله ، عز وجل ، الذي أنزل براءتي ، لقد سمعته فأنكرتموه ولا غيرتموه ، فقام أبو بكر إليها فقبل رأسها ، فقالت : ألاعدرتني ؟ فقال : أي سماء تظلمني وأي أرض تقلني إن قلت ما لا أعلم ؟ قالت : وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ (١) العشر الآيات (٢) .

- إقامة الحد على من أشاع حديث الإفك :

فلما نزلت براءة السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد ، فخطب الناس وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمئة بنت جحش - وكانوا من أفصح بالفاحشة - فضربوا حنكهم ثمانين جلدة كل واحد منهم .

وترك عبد الله بن أبي ابن سؤل فلم يحد مع أنه رأس أهل الإفك والذي تولى كبره منهم ، لأن الحدود كفارة لأهلها ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

وقيل : إنه جلد ثمانين جلدة ، فعن سعيد بن جبير قال : جلد النبي ﷺ حسان بن ثابت وعبد الله بن أبي مسطحاً وحمئة بنت جحش ، كل واحد ثمانين جلدة في كذب عائشة ، ثم تابوا من بعد ذلك ، غير عبد الله بن أبي رأس المنافقين مات على نفاقه (٤) .

وكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره ، فلما أنزل الله عن عائشة ، رضي الله عنها ، قال : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال وأدخل علينا ، فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفِرُوا لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا تُجِيبُوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) . فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، وأكون لليتامى خيراً ما كنت ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً - وفي رواية : أنها لما نزلت بكى أبو بكر ، فقال لمسطح : أما قد نزل القرآن فيك لأضعفك لك النفقة وقد غفرت لك ، فإن الله أمرني أن أغفر لك (٦) .

- شأن صفوان مع حسان رضي الله عنها :

وكان حسان بن ثابت عرض بصفوان بن المعطل في شعره وهجاه بأبيات ، منها قوله :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا وابن الفريضة أمسى بيضة البلد

فلما بلغ صفوان ذلك اعترض حسان وهو في مجلس قومه بالسيف فضربه ، وقال له :

- (١) النور : ١١ .
- (٢) أخذنا تفاصيل حديث الإفك من : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٢/٣ - ٣٤٦ ، ٣٥٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٨/٥ - ١٥٤) كتاب للغازي - باب حديث الإفك ، و (ج ١٣٤/٦ - ١٣٦) كتاب التفسير - سورة النور ، وجمع الزوائد (ج ٢٣٠/٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٠٢/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨١/٨) ، ومغازي الواقدي (ج ٤٣٠/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٩٨/٢) .
- (٣) النور : ١١ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٧/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٩/٥) كتاب للغازي - باب حديث الإفك ، وسنن أبي داود (ج ٦١٨/٤) كتاب الحدود - باب في حد القذف ح ٤٤٧٤ ، وجمع الزوائد (ج ٢٨٠/٦) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٠٥/٢) .
- (٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨٠/٧) وقال : رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح .
- (٥) النور : ٢٦ .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٨/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٥٢/٥) كتاب للغازي - باب حديث الإفك ، وجمع الزوائد (ج ٩٧/٧) و (ج ٢٣٩/٨) .

تلقَى ذُبَابَ السيفِ عني فإني
ولكنني أحمي حياي وأشثني
غلام إذا هوجيت لست بشاعر
من الباهت الرامي البراء الطواهر

فوثب ثابت بن قيس بن الشَّاس على صفوان فجمع يديه إلى عنقه بجبل ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج ، فلقى عبد الله بن رواحة ، فقال : ما هذا ؟ قال : أما أعجبتك ؟ ضرب حسان بالسيف ، والله ما أراه إلا قتله ، قال له عبد الله بن رواحة : هل علم رسول الله ﷺ بشيء مما صنعت ؟ قال : لا والله ، قال : لقد اجترأت ، أطلق الرجل ، فأطلقه ، ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان بن المَعَطَّل ، فقال صفوان : يا رسول الله ! أذاني وهجاني ، فاحتلمي الغضب فغضبتني ، فقال رسول الله ﷺ : « يا حسان ! أتشوهت على قومي (١) أن هداهم الله للإسلام ؟ » ويقال : « أبعد أن هداكم الله للإسلام ؟ أحسن يا حسان في الذي قد أصابك » ، قال : هي لك يا رسول الله .

وفي رواية : أنه لما بلغ رسول الله ﷺ ضرب صفوان حسان بن ثابت قال لهم : « خذوه فإن هلك حسان فاقتلوه به » ، فأخذوه فأسروه وأوثقوه ، فبلغ ذلك سعد بن عبادة ، فخرج في قومه إليهم فقال : أرسلوا الرجل ، فأبوا عليه ، فقال : عمدت إلى قوم رسول الله ﷺ فتشتونهم وتؤذونهم ، وقد زعمتم أنكم نصرتموهم ؟ فغضب سعد لرسول الله ﷺ ولقومه ، فقال : أرسلوا الرجل ، فأبوا عليه حتى كاد أن يكون بينهم قتال ، ثم أرسلوه ، فخرج به سعد إلى أهله فكساه حلة ، ثم أرسله ، فدخل صفوان المسجد ليصلي فيه ، فرآه رسول الله ﷺ فقال : « من كساك كساء الله من ثياب الجنة ؟ » فقال : كساني سعد بن عبادة .

ثم عوّض رسول الله ﷺ حسان بن ثابت من الذي أصابه بيرحاء ، وكانت مالا لأبي طلحة زيد بن سهل تصدق بها على آل رسول الله ﷺ ، فأعطاه رسول الله ﷺ حسان في ضربته ، وأعطاه بعد سيرين أمة قبطية ، فولدت له عبد الرحمن بن حسان . وكانت عائشة ، رضي الله عنها ، تكره أن يسب عنها حسان وتقول : إنه الذي قال :

فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقساء

قال عروة : ذهبت أسب حسان عند عائشة ، فقالت : لا تسبه ، فإن كان ينافح عن رسول الله ﷺ (٢) .

نزول آية التيمم :

وفي غزوة المريسيع أيضاً نزلت آية التيمم ، فقد فقدت عائشة ، رضي الله عنها ، عقدها أيضاً ، فاحتبس المسلمون على طلبه ، فحضرت الصلاة وليس معهم ماء ، فصلوا ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله آية التيمم (٣) .

قالت عائشة رضي الله عنها : خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبليداء ، أو بذات الجش ، انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء ، وذلك من السحر ، فأتوا إلى أبي بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر - ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام - فقال : حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، قالت : فلقبت من أبي ما الله به عليم من التعنيف والتأفيف ، وجعل يطعن بيده في خاصرتي ويقول : يا بُيَّة ! في كل سفرة تكونين عناء وبلاء ، فما يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي ، فاستيقظ رسول الله ﷺ وحضرت الصلاة ، فالتس الماء فلم يجد ، فأنزل الله تعالى آية التيمم ، فتميموا وصلوا ، قالت : فبعثنا البعير الذي كنت عليه ، فأصبنا العقد تحته ، فقال أبو بكر عند ذلك : والله يا بُيَّة إنك لَمَّا

(١) أي : أتتكررت وتفتحت لهم (النهاية : ج ٥١١/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٥٠/٣ ، ٣٥٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٥٠/٥ ، ١٥٥) كتاب المغازي - باب حديث الإفك ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧/٤) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٥/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٩٢/١) كتاب التيمم .

علمت مباركة ، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إِيَّاهم من البركة واليسر ؟ وقال أُسَيْدُ بن حَضَيْرٍ : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، جزاك الله خيراً ، فوالله ما نزل بك أمر تكريهينه إلا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيراً^(١) .

وعلى هذا يكون سقط عَقْدِ عائِشة ، رضي الله عنها ، في تلك الغزوة مرّتين ، ويقال إن ذلك كان في غزوة أخرى متأخرة عن غزوة المريسيع وهو الصحيح^(٢) .

☆ ☆ ☆

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١/٩١ ، ٩٢) كتاب التيمم ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٧٢/٦) .

(٢) انظر : عيون الأثر (ج ١٠٢/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٠٧/٢) .

غزوة الخندق

وهي غزوة الأحزاب^(١) ، وكانت في شوال من السنة الخامسة للهجرة^(٢) .

وسببها أنه لما نزل أشرف بني النضير في خيبر بعد إجلائهم عن ديارهم ، أخذوا يفكرون في التآمر على المسلمين وإعداد العدة لإنزال ضربة قاتلة بهم . فعزم نفر من يهود بني النضير وبني وائل أن يحزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين .

فخرج جمع من أشرافهم ووجوههم ، فيهم سلام بن مشكم ، وابن أبي الحقيق ، وخبى بن أخطب ، وكنانة بن الربيع النضريون ، وهوذة بن قيس وأبو عمار الوائليان ، إلى مكة ، فألبوا قريشاً ودعواهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فقال أبو سفيان بن حرب : مرحباً وأهلاً ، أحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ، وقالت لهم قريش : يا معشر يهود ! إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا مختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ هُوَ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ إلى قوله : ﴿ هُوَ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعيراً ﴾^(٣) ، فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطهم لما دعواهم إليه من حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا لذلك وتعاهدوا على قتاله ، ووعدهم لذلك موعداً .

ثم خرج أولئك اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعواهم إلى مادعوا إليه قريشاً وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك ، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم نصرهم عليه ، فأجابوهم إلى ذلك . ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله ﷺ ، ففارقوهم على مثل ذلك^(٤) .

خروج الأحزاب وأسماء رؤسائهم وعدتهم :

تجهزت قريش وجمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب من كنانة وأهل تهامة ، فكانوا أربعة آلاف ، وعقدوا اللواء في دار الندوة وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، وقادوا معهم ثلاثمائة فارس ، وكان معهم ألف وخمسمائة بعير ، وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن حرب ، ووافتهم بنو سليم بمز الظهران وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية - وهو أبو أبي الأعور السلمى الذي كان مع معاوية بصفيين - وخرجت معهم بنو أسد يقودهم طليحة بن خويلد ، وخرجت قبائل غطفان : بنو قزارة وهم ألف يقودهم عبيدة بن حصن ، وبنو مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف - وقيل : لم تحضر بنو مرة رجح بهم الحارث والقول الأول أثبت - وبنو أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعر بن زخيلة ، ويقال : مسعود ، وخرج معهم قوم آخرون ، فكان جميع الذين وافوا الخندق عشرة آلاف ،

(١) سُميت بغزوة الأحزاب لاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين ، وهم قريش وغطفان واليهود ومن تبعهم .

(٢) وهذا قول جمهور أهل المغازي والسير ، وهو الصحيح كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٩٤/٤) ، وفي صحيح البخاري (ج ١٣٧/٥) عن موسى بن عقبة أنها كانت في شوال سنة أربع .

(٣) النساء : ٥١ - ٥٥ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٩/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٥/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٦٤/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٨/٣) .

وهم الأحزاب الذين ستم الله ، وكانوا ثلاثة عساكر ، وعِنَاج الأمر^(١) إلى أبي سفيان بن حرب ، فاتجهوا نحو المدينة على ميعاد كانوا قد تعاهدوا عليه^(٢) . (انظر : مصور غزوة الأحزاب) .

مشاورة النبي ﷺ وأصحابه وحضر الخندق :

ولما تهيأت قريش للخروج قدم ركب من خزاعة في أربع ليال المدينة حتى أخبروا رسول الله ﷺ ، فلما سمع عليه الصلاة والسلام بما أجمعوا عليه من الأمر دعا الناس وأخبرهم خبر عدوهم ، وشاورهم في أمرهم ، فأشار عليه سلمان الفارسي ، رضي الله عنه ، بالخندق - وكان أول مشهد شهده مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر - فقال : يا رسول الله ! إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، فأعجب ذلك المسلمين ، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك .

وبادر رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة ، فأمر بضرب الخندق من جهة الشمال بين حرتي واقم والوبرة - وذلك لأن المدينة كانت مشبكة بالبنيان ومحاطة بالحرات وبساتين النخيل من كل جانب سوى الشمال ، فاتخذ الخندق في هذه الناحية - وقطع لكل عشرة رجال أربعين ذراعاً ، ووكل بكل جانب منه قوماً ، فكان المهاجرون يحفرون من ناحية راتج إلى ذباب ، وكانت الأنصار يحفرون من ذباب إلى جبل بني عبيد ، وخندق بنو عبد الأشهل عليها مما يلي راتج إلى خلفها حتى جاء الخندق من وراء المسجد النبوي الشريف ، وخندق بنو ديار من عند جربا . (انظر : مصور غزوة الأحزاب) . وكان سلمان ، رضي الله عنه ، رجلاً قوياً يعمل عمل عشرة رجال ، فلما وُكل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً تنافس فيه المهاجرون والأنصار ، فقال المهاجرون سلمان منّا ، وقالت الأنصار : سلمان منّا ، فقال رسول الله ﷺ : « سَلْمَانٌ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ » .

وعمل رسول الله ﷺ في حفر الخندق بنفسه ترغيباً للمسلمين في الأجر وتنشيطاً لهم ، فدأب فيه ودأبوا ، قال البراء رضي الله عنه : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه ، فسمعتُه يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
فأنزلن سكيناً علينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
إن الألى قد بغوا علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
وإن أرادوا فنناً أنيننا

قال : ثم عدّ صوته بآخرها^(٣) .

روي عن سهل بن سعد ، رضي الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق ، وهم يحفرون ، ونحن ننقل التراب على أكتادنا^(٤) ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ ، فَاعْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ »^(٥) .

وعن أنس ، رضي الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع ، قال : « اللَّهُمَّ ! إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ ، فَاعْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ » ، فقالوا مجيبين له :

(١) عِنَاجُ الْأَمْرِ : مَلَائِكَةُ (الوسيط : ج ٦٣٦/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٠/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٦/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣١/٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٦/٢) و (ج ٨٢/٤) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٦٦/٢) ، ودلائل النبوة لليبيقي (ج ٢٩٧/٣) ، والمستدرک (ج ٥٩٧/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٠/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق ، والسيرة الحلبية (ج ٣١١/٢) .

(٤) الْأَكْتَادُ : جَمْعُ كَتْدٍ ، وَهُوَ مُجْتَمَعُ الْكَتِفَيْنِ ، وَهُوَ الْكَاهِلُ (النهاية : ج ١٤٩/٤) .

(٥) صحيح البخاري (ج ١٣٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق .

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً^(١)

وعن سلمان ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ حين ضرب في الخندق قال : « بِسْمِ اللَّهِ وَبِهِ هُدَيْنَا » - أو قال : « بَدِينَا » ، أي ابتدأنا - « وَلَوْ عَبَدْنَا غَيْرَهُ شَقِينَا ، فَأَحِبُّ رَبًّا وَأَحِبُّ دِينًا »^(٢) .

وكان من جملة من يعمل في الخندق رجل من المسلمين يقال له جَعِيلُ بن سُرَاقَةَ ، وكان رجلاً دميماً قبيح الوجه ، صالحاً ، وكان رسول الله ﷺ قد غيّر اسمه وسماه عمراً ، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون :

سَمَاهُ مِنْ بَعْدِ جَعِيلِ عَمْرًا وَكَانَ لِلْبِئْسِ يَوْمًا ظَهْرًا

وجعل جَعِيلُ يقول مع المسلمين : سَمَاهُ مِنْ بَعْدِ جَعِيلِ عَمْرًا ، وهو يضحك مع المسلمين ، فعرفوا أنه لا يبالي ، وصار رسول الله ﷺ إذا مرّوا بعمرو قال : « عَمْرًا » ، وإذا مرّوا بظهر قال : « ظَهْرًا » . وقال النبي ﷺ : « لَا يَفْضُبُ الْيَوْمَ أَحَدٌ مِنْ شَيْءٍ أَرْتَجَزَ بِهِ مَا لَمْ يَقُلْ مِنْ قَوْلِ كَعْبٍ أَوْ حَسَّانٍ » ، ونهاهما أن يقولوا شيئاً يُخْفِظَانِ^(٣) به أحداً .

وكان زيد بن ثابت ، رضي الله عنه ، فيمن ينقل التراب يومئذ مع المسلمين - وهو ابن خمس عشرة سنة - فقال رسول الله ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ نِعْمَ الْعَلَامُ » ، وغلبته عيناه يومئذ فرقد ، فجاءه عَمَارَةُ بن حَزْمٍ فأخذ سلاحه وهو لا يشعر ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا رُقَادٍ ! نِمْتَ حَتَّى ذَهَبَ سِلَاحُكَ ! » ثم قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَهْ عِلْمٌ بِسِلَاحِ هَذَا الْعَلَامِ ؟ » فقال عَمَارَةُ بن حَزْمٍ : أنا يا رسول الله أخذته ، فردّه ، فنهى رسول الله ﷺ أن يَرَوُعَ الْمُؤْمِنُ ، وأن يُؤْخَذَ مَتَاعُهُ لِأَعْبَاءٍ وَجِدًا .

- واصل المسلمون عملهم في حفر الخندق بجدّ ونشاط مستعجلين يبادرون قدوم العدو ، فكانوا يعملون فيه طول النهار ويرجعون إلى أهلهم في المساء ، وجعل الرجل منهم يضحك من صاحبه إذا رأى منه فترة ، وصار الشخص منهم إذا نابتته النائبة من الحاجة التي لا بدّ له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بها ، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان عليه من عمله رغبة في الخير واحتساباً له ، حتى فرغوا من حفره في ستة أيام قبل أن يصل جيش الأحزاب إلى أسوار المدينة .

أما المناقون فكانوا يتوانون في العمل ويشبطون العزائم ، وكانوا يُورُونَ بِالضُّعْفِ^(٤) ، ويتسلّون من العمل ويذهبون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن .

- وقد قاسى المسلمون وهم يبدأون في الخندق من شدة الجوع ، وأصابهم جهْدٌ شديد ، حتى ربطوا على بطونهم الحجارة من الجوع ، قال أنس رضي الله عنه : كانوا يُوتُونَ بِلَاءٍ كَفِّيٍّ مِنَ الشَّعِيرِ فَيَصْنَعُ لَهُمْ بِأَهَالَةِ سِنْحَةٍ^(٥) فَتَوْضِعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ ، وَهِيَ بَشْعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مَنْتَنٌ ، فَيَأْكُلُونَ مِنْهَا ، ويقول النبي ﷺ : « إِنَّمَا الْخَيْرُ خَيْرُ الْآخِرَةِ » .

وقال أبو طلحة رضي الله عنه : شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين^(٦) .

(١) صحيح البخاري (ج ١٣٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق .

(٢) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤١٤/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٠٨/٢) .

(٣) أَحْفَظَةٌ : أَعْضَبَةٌ . وقد تقدّم .

(٤) يُورُونَ بِالضُّعْفِ : مِنَ التَّوْرِيَةِ ، أَي : يُخْفُونَ مَقْصُودَهُمْ مِنْ خِذْلَانِ الْمُسْلِمِينَ بِإِظْهَارِ الضُّعْفِ ، أَوْ يَتَعَلَّلُونَ بِهِ ، سُمِّيَ تَوْرِيَةً لِإِظْهَارِهِمْ خِلَافَ قَصْدِهِمْ مِنْ عَتَمِ إِعَانَةِ الْمُسْلِمِينَ وَخِذْلَانِهِمْ ، وَأَبْرَزُوهُ فِي صُورَةِ الضُّعْفِ (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية : ج ١٠٥/٢) .

(٥) الْإِهَالَةُ : كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْأُدْهَانِ مِمَّا يُوتَدَمُ بِهِ ، وَقِيلَ : هُوَ مَا أُذِيبَ مِنَ الْأَلْيَةِ وَالشُّحْمِ (النهاية : ج ٨٤/١) ، وَالسِّنْحَةُ : الْمَتْفِيرَةُ الرِّيْحِ ، وَيُقَالُ : رُنِحَتْ (النهاية : ج ٤٠٨/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣١/٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٦/٢) و (ج ٢٤٥/٤ ، ٢٤٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩١/٢)

وصحيح البخاري (ج ١٣٨/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٢٨٨/٢ ، ٣٠١) ، والمستدرک (ج ٤٢١/٣) ، وسنن الترمذی (ج ٥٨٥/٤) كتاب الزهد - باب ماجاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ ح ٢٣٧١ ، وجمع الزوائد (ج ١٣١/٦) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٠٥/٢ ، ١٠٨) .

معجزات ظهرت في غزوة الخندق :

وقد وقع في الخندق آيات من أعلام نبوته ، عليه الصلاة والسلام ، منها تكثير الطعام القليل ، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنها : لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خَمْصاً^(١) شديداً ، وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لانذوق ذواقاً .. فقلت : يا رسول الله ! ائذن لي إلى البيت ، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر ، فعندك شيء ؟ قالت : عندي شعير وعناق^(٢) ، فذبحت العناق وطحننت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرومة ، ثم جئت النبي ﷺ ، والعجين قد انكسر^(٣) والبرومة بين الأثافي^(٤) قد كادت أن تنضج ، فقلت : طعم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، قال : « كم هو ؟ » فذكرت له ، قال : « كثير طيب » ، ثم أمر النبي ﷺ صارخاً فصاح : « يا أهل الخندق ! إن جابراً قد صنع سوراً^(٥) فحي هلاً^(٦) بكم » ، وقال رسول الله ﷺ : « قل لها : لا تنزع البرومة ولا الحُبز من التَّنور حتى آتي » ، قال جابر : فجئت فقلت لامرأتي : ويحك ! جاءك النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ، قالت : هل سألك ؟ قلت : نعم ، قالت : الله ورسوله أعلم ، قد أخبرته بما كان عندنا ، قال : فذهب عني بعض ما كنت أجد وقلت : صدقت ، فأقبل رسول الله ﷺ والناس معه ، فقال : « ادخلوا ولا تضاعطوا^(٧) » ، فأخرجت له عجينة فبصق فيه وبارك ، ثم عد إلى برمتنا فبصق وبارك ، ثم سمي فأكل ، وجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرومة والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويعرف حتى شبعوا ، وهم ألف ، وبقي بقية ، فقال : « كُلي هذا وأهدي ، فإن الناس أصابتهم مجاعة » - وفي رواية : قال جابر : فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغيط^(٨) كما هي وإن عجيننا ليختر كما هو^(٩) .

وروي عن ابنة لبشير بن سعد ، أخت النعمان بن بشير ، قالت : دعيتني أمي عمرة بنت ربيعة فاعطتني خفنة^(١٠) من تمر في ثوبي ، ثم قالت : أي بنية ! اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن ربيعة بغدائهما ، قالت : فأخذتها فانطلقت بها ، فررت برسول الله ﷺ وأنا ألتصم أبي وخالي ، فقال : « تعالي يا بنية ، ما هذا معك ؟ » قالت : فقلت : يا رسول الله ! هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن ربيعة يتغديانه ، قال : « هاتيه » ، قالت : فصبته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما ، ثم أمر بشوب فبسط له ، ثم دحا^(١١) بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان عنده : « اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء » ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب^(١٢) .

- وما ظهر من أعلام نبوته ﷺ أيضاً يوم الخندق مارواه البخاري وغيره في شأن الكذبية^(١٣) ، قال جابر رضي الله عنه : إننا يوم

(١) حَمَصَ البَطْنُ حَمَصاً : خَلَا وَصَمَرَ (الوسيط : ج ٢٥٥/١) .

(٢) العَنَاقُ : الأَثْنَى مِنَ المَعِزِّ (الوسيط : ج ٦٢٨/٢) .

(٣) أي لَأَنَّ وَرَطَبَ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ الحَمِيرُ (فتح الباري : ج ٣٩٨/٧) .

(٤) الأَثَافِي : هي الحِجَارَةُ التي تُنصَبُ وتُجْعَلُ القِدْرُ عَلَيْهَا . وقد تقدم .

(٥) صَنَعَ سُوراً : أي طَعَاماً دَعَا إِلَيْهِ النَّاسُ (لسان العرب : ج ٢١٤٩/٣) .

(٦) حَيَّ هَلَا : هي كَلِمَتَانِ جُعِلَتَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ، فَحَيٌّ بِمَعْنَى : أَقْبَلُ ، وَهَلَا بِمَعْنَى : أُسْرِعُ ، يُقَالُ : حَيَّ هَلَا الثَّرِيدَ ؛ معناه : هَلِّمْ إِلَى الثَّرِيدِ (لسان العرب : ج ٤٦٩٢/٦) .

(٧) ضَاعَطَ : زَاحَمَ (الوسيط : ج ٥٤٢/١) .

(٨) تَغِطُّ : أي تَغْلِي وَيُسَمَّعُ غَطِيطُهَا (لسان العرب : ج ٢٢٧١/٤) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٨/٥ ، ١٣٩) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق .

(١٠) الحَفْنَةُ : مِلءُ الكَفَّينِ مِنْ شَيْءٍ (الوسيط : ج ١٨٦/١) .

(١١) دَحَا : بَسَطَ (الوسيط : ج ٢٧٢/١) .

(١٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/٣) .

(١٣) الكَذْبِيَّةُ : هي القِطْعَةُ الغَليظَةُ الصُّلْبَةُ مِنَ الأَرْضِ لا تَعْمَلُ فِيهَا الفَأْسُ . انظر : (النهاية : ج ١٥٦/٤) .

الخنديق نحر فعرضت كذبة شديدة ، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا : هذه كذبة عرضت في الخندق ، فقال : « رُسُوها بالماء ، أنا نازل » ، ثم قام وبطنه معصوب بمحجر ، فأخذ النبي ﷺ المَعُول^(١) ثم قال : « بِسْمِ اللَّهِ » ، فضرب ثلاثاً فعاد كثيباً أَهْيَل^(٢) - وفي رواية : قال جابر : فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكذبة ، فيقول من حضرها : فولذي بعثه بالحق نبياً لا نهالت^(٣) حتى عادت كالكتيب لا تترد فأساً ولا مسحاة^(٤) .

وروي عن سلمان الفارسي ، رضي الله عنه ، أنه قال : ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليّ صخرة ، ورسول الله ﷺ قريب مني ، فلما رأني أضرب ورأى شدة المكان عليّ نزل فأخذ المَعُول من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المَعُول بركة ، قال : ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته بركة أخرى ، قال : ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته بركة أخرى ، قال : قلت : بأبي أنت وأمي يارسول الله ! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المَعُول وأنت تضرب ؟ قال : « أَوْ قَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَانَ ؟ » قال : قلت : نعم ، قال : « أَمَّا الْأُولَى فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْيَمْنَ ، وَأَمَّا الثَّانِيَةَ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالْمَغْرِبَ ، وَأَمَّا الثَّلَاثَةَ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْمَشْرِقَ »^(٥) .

وروي نحو ذلك عن البراء بن عازب ، رضي الله عنها ، وفيه : أنه بالضربة الأولى كسر ثلث الحجر وقال : « اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيَتْ مَفَاتِيحَ الشَّامِ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا » ، وبالضربة الثانية كسر ثلث الحجر وقال : « اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيَتْ مَفَاتِيحَ فَارِسَ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ ، وَأُبْصِرُ قُصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا » ، وبالضربة الثالثة قطع بقية الحجر وقال : « اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيَتْ مَفَاتِيحَ الْيَمْنَ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا »^(٦) . فكبر المسلمون عند ذلك واستبشروا وقالوا : موعود صادق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر والفتوح^(٧) .

منازل المشركين حول المدينة :

ومأ إن فرغ المسلمون من حفر الخندق حتى أقبلت قريش فنزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة ، أي : بأعلى وادي قناة من تلقاء الغابة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذئب تقمى إلى جانب أحد^(٨) .

خروج المسالمين ، منزلهم وعددهم :

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسالمين حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع^(٩) ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ، فضرب ﷺ هنالك عسكره والخنديق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الأظام ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ، ولواء الأنصار لسعد بن عباد ، وجعل شعارهم : حم لا ينصرون .

وضربت للنبي ﷺ قبة من آدم ، وجعل على حرسها طائفة من الأنصار فيهم عباد بن بشر ، فكانوا يجرسونه كل ليلة ، وكان رسول الله ﷺ يعقب فيها ثلاثة من نسائه : عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش ، وسائر نسائه في بني حارثة . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾^(١٠) .

(١) المَعُول هو المسحاة ، وهي أداة تجرف بها الأرض . انظر : (الوسيط : ج ٤٢٢/١) .

(٢) أي زملاً سائلاً (النهاية : ج ٢٨٩/٥) .

(٣) انهالت : سقطت ولم تثبت مكانها (لسان العرب : ج ٤٧٢٩/٦) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٨/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٠٠/٣) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٤/٣) .

(٦) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٣٠٢/٤) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٨٢/٤) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٥/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٠/٣) .

(٩) سلع : جبل بسوق المدينة (معجم البلدان : ج ١٠٧/٥) .

(١٠) الأحزاب : ٢٢ .

وأرسل رسول الله ﷺ سليطاً وسفيان بن عوف طليعة للأحزاب فقتلوهما ، فأتي بها رسول الله ﷺ فدفنهما في قبر واحد ، فهما الشهيدان القرينان (١) .

مناوشات المشركين :

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها ، فقالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ، فقيل لهم : إن معه رجلاً فارسياً أشار عليه بذلك ، قالوا : فن هنالك إذا ! فلجؤوا إلى فرض الحصار على المسلمين - ولم يكونوا مستعدين لذلك حين خرجوا من ديارهم - وصار المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً ، ويغدو خالد بن الوليد يوماً ، ويغدو عمرو بن العاص يوماً ، ويغدو هُبَيْرَةُ بن أبي وَهَب يوماً ، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً ، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويتفرقون مرّةً ويجمعون أخرى ، ويناوشون أصحاب رسول الله ﷺ ويقدمون رماتهم فيرمون ، ورسول الله ﷺ وأصحابه وجاههم يحرسون خندقهم ويتطلعون إلى جولات المشركين ويرشقونهم بالنبل حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه .

وأقاموا على ذلك بضعاً وعشرين ليلةً قريباً من شهر ، لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصار ، وكان رسول الله ﷺ يختلف إلى ثلثة في الخندق يحرسها يخاف أن يأتي منها المشركون ، قالت عائشة : فيأتي فيضطجع في حجرى ، ثم يقوم فيسمع ، فسمع يوماً حساً إنسان عليه الحديد ، فانسَلَّ في الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ هذا ؟ » قال : أنا سعد جئتكَ لتأمرني بأمرك ، فأمره رسول الله ﷺ أن يبيت في تلك الثغرة ، قالت عائشة : فنام رسول الله ﷺ في حجرى حتى سمعت غطيطه ، فقالت عائشة : لأنساها لسعد بن أبي وقاص (٢) .

نقض بني قُرَيْظَةَ العهد :

ثم إن أبا سفيان بن حرب دسَّ حَيَّيَّ بن أخطب إلى بني قُرَيْظَةَ يسألهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ويكونوا معهم عليه ، فخرج حَيَّيَّ بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد صاحب عقد بني قُرَيْظَةَ وعهدهم ، فضرب عليه باب حصنه ، فأغلقه كعب دونه وقال لقومه : لا تكونوا من هؤلاء القوم في شيء فإنكم لا تدرين لمن تكون الدبيرة ، وقد أهلك حَيَّيَّ قومه فاحذروه ، وأبى أن يفتح له ، فألح عليه وناداه : ويحك يا كعب ! افتح لي ، قال : ويحك يا حَيَّيَّ ! إنك امرؤ مشؤوم ، وإني قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً ، قال : ويحك ! افتح لي أكلمك ، قال : ما أنا بفاعل ، قال : والله إن أغلقت الحصن دوني إلا نخوت على جِشْيَشْتِكَ (٣) أن أكل منها معك ، فأخفظ الرجل ، ففتح له ، فقال : ويحك يا كعب ! جئتكَ بجزء الدهر وبيحر طام (٤) ، جئتكَ بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسبال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بدتب نغمى إلى جانب أحد ، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام (٥) قد هراق ماءه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حَيَّيَّ فدعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء ، والله ما أكرهنا على دين ولا غصبنا مالاً ولا ننتقم من محمد وعمله شيئاً ، وأنت تدعو إلى الهلكة ، فندركك الله إلا ما أعفيتنا من نفسك .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٣٥ ، ٢٤٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٦٧ ، ٧٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٦/١٢٥) ، والسيرة الحلبية (ج ٢/٣١٤) . وقد تقدم في غزوة حراء الأسد أن القرينين هما : مالك ونعمان ابنا خلف بن عوف .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٣٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٦٧ ، ٦٨) ، ومجمع الزوائد (ج ٦/١٣٥) ، والسيرة الحلبية (ج ٢/٣٢٤) .

(٣) الجِشْيَشْتَةُ : واحدة الأَجَشْيَشِ ، والجِشْيَشُ أَنْ تُطَخَّنَ الحِنْطَةُ طَخْنًا جَلِيلًا ثُمَّ تُنْصَبَ بِهِ القِدْرُ ، ويُلقَى عليها لَحْمٌ أو تَمَرٌ فيَطْبَخُ (لسان العرب : ج ١/٦٢٨) .

(٤) طَمًا الماءُ : اِزْتَفَعُ (لسان العرب : ج ٧/٢٧٠) .

(٥) الجَهَامُ : السَّحَابُ الذي لا ماءَ فيه (الوسيط : ج ١/١٤٤) .

وقال عمرو بن سَعْدَى الْقُرْظِيُّ : يا معشر يهود ! إنكم قد حالتمم محمدًا على ما قد علمتم أن لا تخونوه ولا تنصروا عليه عدوًّا ، وأن تنصروه على من دهم يثرب ، فأوفوا على ما عاهدتموه عليه ، فإن لم تفعلوا فخلوا بينه وبين عدوه واعتزلوهم .

فلم يزل حَيَّبِي بكعب يفتله في الذرّوة والغارب^(١) حتى سمح له على أن أعطاه عهداً وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك يصيبني ما أصابك ، فنقض كعب بن أسد عهده وبريء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ . وعند ذلك مزقت بنو قريظة الصحيفة التي كان فيها العقد ، ونبذوا إلى رسول الله ﷺ بالحرب ، وكتبوا مشركي مكة وعيّنهم بن حصن وأبا سفيان بن حرب : أن اثبتوا فإننا سنخالف^(٢) المسالمين إلى بيضتهم^(٣) .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ قال : « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ، ثم بادر إلى التثبيت من الأمر ، فقال : « مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟ هَلْ تَقْضُوا الْعَهْدَ ؟ » فانطلق الزبير بن العوام فجاء بخبرهم ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ »^(٤) .

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنها قال : كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء ، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً ، فلما رجعت قلت : يا أبت ! رأيتك تختلف ، قال : أوهل رأيتني يا نبيي ؟ قلت : نعم ، قال : كان رسول الله ﷺ قال : « مَنْ يَأْتِ بِنِي قَرْيَظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ ؟ » فانطلقت ، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، فقال : « فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي »^(٥) .

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ سيّد الأوس وسعد بن عبادة سيّد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير^(٦) وقال لهم : « انطلقوا حتى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً^(٧) أعرفه ، ولا تفتؤا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أحدث ما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، فدعواهم إلى المودعة وتجديد الحلف ، فقالوا : الآن وقد كسر جناحنا - يريدون بجناحهم المكسورة بني النضير - فشاتمهم سعد بن معاذ ، وهم حلفاؤه ، وشاتموه ، وكان رجلاً فيه حدة ، وقيل : سعد بن عبادة ، فقال سعد بن عبادة لسعد بن معاذ أو بالعكس : دع عنك مشامتهم فما بيننا وبينهم أرى من المشامة . ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة - أي : كقدر عضل والقارة بأصحاب الرّجيع حبيب وأصحابه فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ، أُبَشِّرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ » ، ثم تقنّع رسول الله ﷺ بثوبه فاضطجع ومكث طويلاً ، فاشتدّ على الناس البلاء والخوف حين رأوا رسول الله ﷺ اضطجع وعرفوا أنه لم يأت من بني قريظة خير ، ثم إنه رفع رأسه فقال : « أُبَشِّرُوا بِفَتْحِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ »^(٨) . (انظر : مصور غزوة الأحزاب) .

(١) أراد أنه ما زال يخادعهم ويتلطفهم حتى أجابه ، والأصل فيه : أن الرجل إذا أراد أن يؤنس البعير الصعب ليبرمه ويتفاد له جعل يمرّ يده عليه ويمسح غاربه ويفتل وبره حتى يستأنس ويضع فيه الرّمام (لسان العرب : ج ٢٢٢٧/٤) .

(٢) أي تأتيهم من خلفهم أو تزجج إليهم فنأخذهم على غفلة (لسان العرب : ج ١٢٣٥/٢) .

(٣) أي مجتمعتهم وموضع سلطانهم ، ومستقرّ دعوّتهم ، أراد استئصالهم وإهلاكهم جميعاً . انظر : (النهاية : ج ١٧٢/٥) .

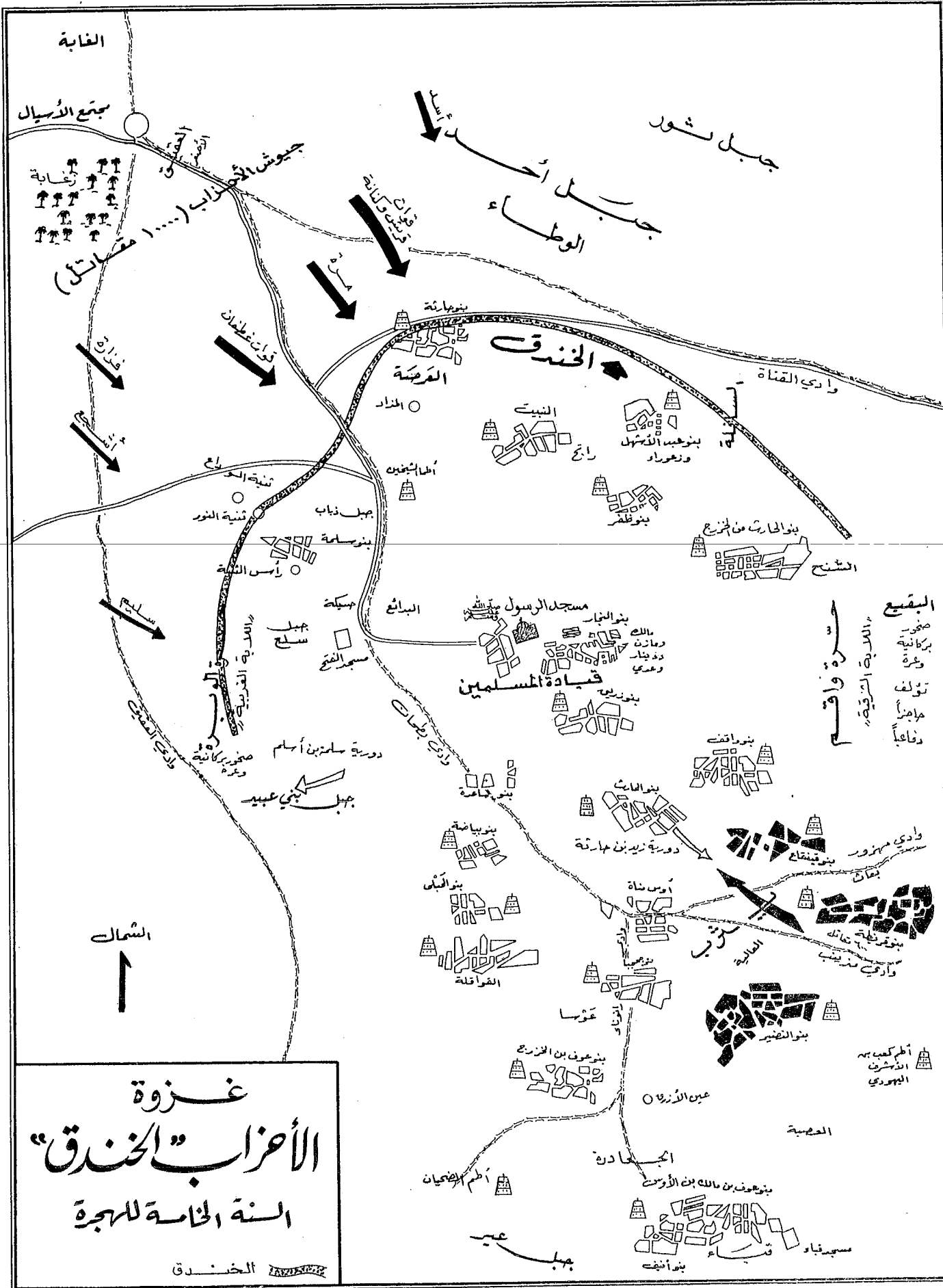
(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٥/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٠/٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٦٤٧/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢١٤/٣) .

(٥) صحيح البخاري (ج ٢٧/٥) كتاب المناقب - باب مناقب الزبير بن العوام .

(٦) لعلّ النبي ﷺ أرسل السعدان ومن معهما بعد مجيء الزبير رضي الله عنه لاحتمال أن ترجع بنو قريظة إلى العهد بعد تقضه حياء من حلفائهم ، لأنهم كانوا حلفاء الأوس ، ويحتمل أن يكون النبي ﷺ أرسل الجميع دفعة واحدة . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١١٣/٢) .

(٧) لحنّ له لحناً : أي قال له قولاً يفهمه عنه ويخفى على غيره (الوسيط : ج ٨٢٦/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٧/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٢/٢) .



غزوة
الأعراب الخنزق
النهضة الخيامية للهجرة

الخنزق

اشتداد الخوف وظهور النفاق :

وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين ، واشتد الخوف ، وخيف على الذراري والنساء ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (١) .

ونجم النفاق من بعض المنافقين وتكلموا بكلام قبيح حتى قال مُعْتَب بن قَشِير (٢) أحد بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كِسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

وقال أوس بن قَيْظِي أحد بني حارثة بن الحارث في ملاء من رجال قومه : يا رسول الله ! إن بيوتنا عورة من العدو ، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة ، نخشى عليها السرقة . فجعل رسول الله ﷺ لا يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، وفي هؤلاء أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٣) .

أما رسول الله ﷺ فإنه لما رأى ما فيه الناس من البلاء والكرب جعل يبشّرهم ويقول لهم : « والذي نفسي بيده لَيُفْرَجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنَ الشَّدَّةِ ، وَإِنِّي لأُرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ آمِنًا ، وَأَنْ يَدْفَعَ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، إِلَيَّ مَقَاتِيحَ الْكَعْبَةِ ، وَلِيُهْلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَلِتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » (٤) .

حراسة المدينة :

وكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير ، تخوفاً على الذراري والنساء من بني قريظة . وقد روي أن أهل الأطم ما كانوا ينامون إلا عقيباً (٥) خوفاً من بني قريظة أن يُغَيروا عليهم (٦) . (انظر مصور غزوة الأحزاب) .

وفعلت قامت يهود بني قريظة بمهاجمة أطم من تلك الأطم ، فقد روي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى الخندق جعل نساء وعمته صفية في فارع حصن حسان بن ثابت ، وجعل معهن حسان ، قالت صفية : فجاء نفر من اليهود إلى الأطم يلتمسون غرة نساء النبي ﷺ ، وجعلوا يرمون الحصن ، ودنا أحدهم إلى بابه وجعل يطيف به ، قالت صفية : وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ وللمسلمون في نخور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا أت ، فقلت : يا حسان ! إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن ، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله ، قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، ولو كان في كنت مع النبي ﷺ ، قالت : فلما لم أر عنده شيئاً احتجرت (٧) ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، ثم رجعت إلى الحصن : فقلت : يا حسان ! انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل ، قال : ما لي بسلبه من حاجة ، فقلت : خذ رأسه فأرم به عليهم ، فقال : والله ما ذاك في ، قالت : فأخذت برأسه فرميت به على اليهود ،

(١) الأحزاب : ١٠ .

(٢) قال ابن هشام : لم يكن مُعْتَب بن قَشِير من المنافقين فإنه كان من أهل بدر . (سيرة ابن هشام : ج ٢٢٨/٣) .

(٣) الأحزاب : ١٢ - ١٣ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٨/٣ ، ٢٦٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٢/٣ ، ٤٣٣ ، ٤٥٢) .

(٥) ينامون عقيباً : أي نوباً ، تنام طائفة بعد طائفة يتناوبون في ذلك (لسان العرب : ج ٣٠٢٥/٤) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٧/٢) و (ج ٨١/٥) .

(٧) احتجرت الرجل بالإنزال : إذا شدة على وسطه (النهاية : ج ٣٤٤/١) .

فتفرقوا وذهبوا وهم يقولون : قد علمنا أن محمداً لم يكن ليترك أهله خلوفاً^(١) ليس معهن أحد . فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك ضرب نصفية بسهم ، كما كان يضرب للرجال ، من غنائم بني قريظة^(٢) .

وعن رافع بن خديج ، رضي الله عنه ، قال : لم يكن حصن أحسن من حصن بني حارثة ، فجعل النبي ﷺ النساء والصبيان والذري فيهِ ، وقال : « إِنَّ أُمَّ بَكْرٍ أَحَدٌ فَأَلْمَعْنَ بِالسَّيْفِ » ، فجاءهن زجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له نَجْدَانُ أَحَدُ بَنِي حِشَّاشٍ عَلَى فَرَسٍ ، حَتَّى كَانَ فِي أَصْلِ الْحِصْنِ ، ثُمَّ جَعَلَ يَقُولُ لِلنِّسَاءِ : انزِلْنَ إِلَيَّ خَيْرَ لَكِنَّ ، فَحَرَكْنَ السَّيْفَ ، فَأَبْصَرَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَابْتَدَرَ الْحِصْنَ قَوْمٌ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ يُقَالُ لَهُ : ظَهَيْرُ بْنُ رَافِعٍ فَقَالَ : يَا نَجْدَانُ ! ابْرُزْ ، فَبْرَزَ إِلَيْهِ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ فَرَسَهُ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ رَأْسَهُ ، فَذَهَبَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ^(٣) .

اشتداد الحصار وسعي النبي ﷺ إلى مصالحة عطفان :

ولما اشتد على الناس البلاء والحصار بعث رسول الله ﷺ إلى عبيثة بن حصن الفزاري وإلى الحارث بن عوف المري - وهما قائدا عطفان - فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بن معها عنه وعن أصحابه ، ويخذلا بين الناس ، فجرى بينه وبينهما الصلح - بعد أن طلبا النصف فأبى عليهما إلا الثلث فرضيا - حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المروضة في ذلك .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، رضي الله عنهما ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله ! أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ أو قالوا : إن كنت أمرت بشيء فامض لأمر الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ كُنْتُ أَمَرْتُ بِشَيْءٍ مَا أَسْتَأْمِرُ بِكُمْ ، وَلَكِنْ هَذَا رَأْيِي أَغْرَضَهُ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَكَالْبُؤُوكُمْ^(٤) مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَأَزِدْتُ أَنْ أُكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا » . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يظلمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرئ^(٥) أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟! والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « فَأَنْتَ وَذَلِكَ » ، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فرماها فيها من الكتاب ، ثم قال : لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا^(٦) .

اقتحام نفر من المشركين الخندق :

وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون على الخندق ، وعدوهم يحاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال إلا المرامة بالنبل - كما تقدم ذكره - حتى خرجت فوارس من قريش على خيلهم بعد أن تلبسوا للقتال ، منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ، ونوفل بن عبد الله ، وضرار بن الخطاب ، فمرو بمنازل بني كنانة فقالوا : تهتروا يا بني كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم ، ثم أقبلوا تغتق^(٧) بهم خيلهم ، حتى وقفوا على الخندق ، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً فاقتمحو منه ، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلم ، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم ، وجعل عمرو بن عبد ود يدعو إلى البراز ، وهو ابن تسعين سنة ، ويقول :

ولقد بُحِجْتُ مِنَ النُّسْأِ ءَ لِمَجْمَعِهِمْ هُنَّ مِنْ مَبَارِزِ؟

(١) أي لم يتركهن سدى لا راعي لهن ولا حامي . يقال : حي خلوفاً ، إذا غاب الرجال وأقام النساء . ويُطْلَقُ عَلَى الْمُقِيمِينَ وَالطَّاعِنِينَ (النهاية : ج ٦٨٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٦٣) ، والمستدرک (ج ٥٠/٤) ، ومجمع الزوائد (ج ١١٤/٦ ، ١٣٣) .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٣٢/٦) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

(٤) يقال : هم يتكالبون على كذا ، أي : يتوالبون عليه (لسان العرب : ج ٣٩١٢/٥) .

(٥) القرى : الضيافة (الوسيط : ج ٧٢٨/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٩/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٩/٢ ، ٧٣) .

(٧) تغتق : تُسْرِعُ (الوسيط : ج ٦٣٨/٢) .

أحبّ إليّ أن أجاهدكم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم ! وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تُميتني حتى تُقِرَّ عيني من بني قريظة ، فاستمسك عِرْفَه فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكمه كما سيأتي^(١) .

قالت عائشة رضي الله عنها : خرجت يوم الخندق أقفؤ آثار الناس ، فسمعت وئيد الأرض ورائي - أي حِسَ الأرض - فالتفتُ فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس ، فجلست إلى الأرض ، فرَسعد وقد أخذ صَفْرَةَ^(٢) وهو حديث عهد بعرس ، وعليه درع له مَقْلَصَةٌ^(٣) قد خرجت منها ذراعه كلها - وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم - وفي يده حربته يَرْقُلُ^(٤) بها ويقول :

لَبْتُ قَلِيلاً يَشْهَدُ الْهَيْجَا^(٥) جَمَلٌ لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فنادته أمه من حصن بني حارثة وقالت له : ألحق أي بُني فقد والله أخرت ، فقلت لها : يا أم سعد ! والله لو ددت أن درع سعد كانت أَسْبَغُ^(٦) مما هي ، وخِفت عليه حيث أصاب السهم منه ، قالت عائشة : فقمتم فاقتمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه مِعْفَرَه ، فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لَجريئة ، وما يُؤمِنُك أن يكون بلاء أو يكون تَحْوُزٌ^(٧) ، قالت : فما زال يُلومني حتى تمدت أن الأرض انشقت لي ساعتئذ فدخلت فيها ، قالت : فرجع الرجل المِعْفَر عن وجهه ، فإذا طلحة بن عبيد الله ، فقال : يا عمر ! ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوُّز أو الفرار إلا إلى الله عز وجل ؟ قالت : ويرمي سعداً رجل من المشركين من قريش يقال له ابن العرقعة بسهم له ، فقال : خذها وأنا ابن العرقعة ، فأصاب أكحله فقطعه ، فدعا الله ، عز وجل ، سعد فقال : اللهم ! لا تُميتني حتى تُقِرَّ عيني من قريظة ، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية ، قالت : فرقي كَلْمَه^(٨) .

استمرار القتال وفوات الصلاة :

ولما طال المقام على المشركين اتعدوا أن يغدوا جميعاً ولا يتخلف منهم أحد ، فباتوا يعبؤون أصحابهم ، ثم وافوا الخندق قبل طلوع الشمس ، وأخذوا يفرقون كتائبهم حوله ، فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، ووعدهم النصر إن صبروا ، وقد جعلهم المشركون في مثل الحصن من كتائبهم ، فأحدقوا بكل وجه من الخندق ووجهوا على قبة النبي ﷺ كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد ، فقاتلهم يومهم ذلك إلى هوي^(٩) من الليل ، ما يقدر المسلمون أن يزولوا عن مواضعهم ، ولا صلى رسول الله ﷺ ولا أصحابه ظهراً ولا عصراً ولا مغرباً ولا عشاء حتى هزمهم الله ، فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم ، وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ﷺ ، وأقام أسيد بن الحضير على الخندق في مائتين من المسلمين ، فكرَّ خالد بن الوليد في خيل من المشركين يطلبون غرة المسلمين ، فناوشوهم ساعة ، فزرق^(١٠) وحشي بن حرب الطفيل بن النعمان ، وقيل : الطفيل بن مالك من بني سلمة بمزراقه فقتله ، وانكشفوا . ولم يكن بعد ذلك اليوم قتال حتى انصرف للمشركون ، لكنهم لا يدعون الطلائع بالليل يطعمون في الغارة .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٤/٣ ، ٢٤٦ ، ٢٧٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٢/٥) كتاب المغازي - باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب .. ، وصحيح مسلم (ج ٧٣١/٤) كتاب السلام - باب لكل داء دواء ح ٧٥ ، وسنن الترمذي (ج ١٤٤/٤) كتاب السير - باب ما جاء في النزول على الحكم ح ١٥٨٢ ، والمستدرک (ج ٥١/٤) .

(٢) أي اضطَبَّعَ بالزُوسِ أو الرُّغقرانِ تَجَمُّلاً لِعُرْسِهِ .

(٣) مَقْلَصَةٌ : أي مُجْتَمِعَةٌ مُنْضَمَّةٌ (النهاية : ج ١٠٠/٤) .

(٤) رَقُلٌ : جَرَّ ذَيْلَهُ وَتَبَخَّرَ (لسان العرب : ج ١٦٩٧/٣) .

(٥) الْهَيْجَا : الْحُرُوبُ (النهاية : ج ٢٨٦/٥) .

(٦) سَبَّغَ الشَّيْءَ سَبُوعًا : تَمَّ وَطَالَ وَاتَّسَعَ (الوسيط : ج ٤١٦/١) .

(٧) التَّحْوُزُ : هُوَ التَّنْحِي ، مِنْ الْحَازِ الْقَوْمِ ، أَي : تَرَكُوا مَرْكَزَهُمْ وَمَعْرَكَةَ قِتَالِهِمْ وَمَأْلًا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ (لسان العرب : ج ١٠٤٦/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/٣ - ٢٤٤) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٤١/٦) .

(٩) الْهَوِيُّ : الْحَيْنُ الطَّوِيلُ مِنَ الزَّمَانِ ، وَقِيلَ : هُوَ مُخْتَصٌّ بِاللَّيْلِ (لسان العرب : ج ٤٧٢/٦) .

(١٠) زَرَقَ بِمَزْرَاقِهِ : رَمَى بِهِ ، وَالْمَزْرَاقُ : الرُّمْحُ الْقَصِيرُ (الوسيط : ج ٢٩٤/١) .

فلما صار رسول الله ﷺ في قَبْتِه أمر بلالاً فأذن وأقام الظهر، فصلّى، ثم أقام لكل صلاة إقامة، فصلّى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات (١).

روي عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فحَبَسْنَا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فاشتد ذلك عليّ، فقلت في نفسي: نحن مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقام فصلّى بنا الظهر، ثم أقام فصلّى بنا العصر، ثم أقام فصلّى بنا المغرب، ثم أقام فصلّى بنا العشاء، ثم طاف علينا فقال: «مَاعلى الأَرْضِ عِصَابَةٌ يَذْكُرُونَ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، غَيْرِكُمْ» (٢).

وجاء في روايات أخرى أن التي فاتت من الصلوات صلاة العصر، فعن جابر بن عبد الله، رضي الله عنها، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس جعل يسبّ كَفَّار قريش وقال: يا رسول الله! ما كُيدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبي ﷺ: «والله ما صليتُها»، فزلنا مع النبي ﷺ بَطْحَانَ (٣)، فتوضّأ للصلاة وتوضّأنا لها، فصلّى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلّى بعدها للمغرب (٤).

وعن عبد الله قال: حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى احمرّت الشمس أو اصفرّت، فقال رسول الله ﷺ: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوَسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللهُ أَجْوَاهَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا» (٥)، وفي رواية عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: «مَلَأَ اللهُ عَلَيْهِمُ بَيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا» (٦).

وسبيل الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق استمرت بضعة عشر يوماً، فكان هذا في بعض الأيام وهذا في بعضها (٧).

خداع نعيم بن مسعود للمشركين:

وبينا رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاير عدوهم عليهم، وإتيانهم إيّاهم من فوقهم ومن أسفل منهم، إذ أتى نعيم بن مسعود الأشجعيّ رسول الله ﷺ ليلاً بين المغرب والعشاء فوجده يصلي، فلما رآه ﷺ جلس ثم قال: «مَا جَاء بِكَ يَا نَعِيمُ؟» قال: جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حقّ، فمُرني بما شئت يا رسول الله فإن قومي لم يعملوا بإسلامي، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذَلْنَا عَنْنَا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدَعَةٌ»، قال نعيم: ولكن يا رسول الله أنى أقول؟ قال: «قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ فَأَنْتَ فِي حِلٍّ».

فخرج نعيم، رضي الله عنه، حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة! قد عرفتم وُدّي إيّاكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال: اكتبوا عني، قالوا: نفعنا، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم، لا تقدرّون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتهم عليه، وبلدهم وأمواهم ونسأؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهْرَةً (٨) أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج ٦٨/٢، ٦٩)، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٧٥/١)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠١/٣).

(٢) سنن النسائي (ج ٢٩٧/١) كتاب المواقيت - كيف يقضى الفائت من الصلاة.

(٣) بَطْحَانُ: أحد أودية المدينة الثلاثة (معجم البلدان: ج ٢١٦/٢).

(٤) صحيح البخاري (ج ١٤١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق.

(٥) صحيح مسلم (ج ٤٢٧/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ٢٠٦.

(٦) صحيح البخاري (ج ١٤١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق.

(٧) انظر: السيرة الحلبية (ج ٢٢٢/٢).

(٨) النُهْرَةُ: الفرصة (النهاية: ج ١٣٥/٥).

ثم خرج نعيم ، رضي الله عنه ، حتى أتى قريشاً ، فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتبوا عني ، قالوا : نفضل ، قال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه إننا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان سبعين رجلاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ، وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم ، يعني بني النضير ، فأرسل إليهم : أن نعم . فإن بعثت إليكم يهود يلتسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً ، واحذروهم .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان ! إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليّ ولا أراكم تتهموني ، قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بتهم ، قال : فاكتبوا عني ، قالوا : نفضل ، فأمرك ؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم ، وكان رجلاً منهم فصدقوه .

وجاء في روايات أخرى أن قريشاً وغطفان أرسلوا إلى بني قريظة أنه قد طال ثواؤنا وأجذب ما حولنا ، فاجتهد رعيماً للظهر ، وقد أردنا أن نخرج إلى محمد وأصحابه فيقضي الله بيننا وبينهم فإذا ترون ؟ فأرسلت إليهم بنو قريظة أن نعم ما رأيتم فإذا شئتم فانهضوا فإننا لا نجسكم إذا بعثتم بالرهن إلينا ، فسمع ذلك نعيم بن مسعود فأتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال له رسول الله ﷺ : « إنني مسير إليك شيئاً فلا تذكره » ، قال : نعم ، قال : « إن يهود قد أرسلوا إليّ يدعونني إلى الصلح وأردت بني النضير إلى دورهم وأموالهم » ، فخرج نعيم من عند رسول الله ﷺ فأتى قريشاً وغطفان فأخبرهم بقول رسول الله ﷺ ، وكان رجلاً نعوماً^(١) لا يملك الحديث ، فلما ولى قال رسول الله ﷺ : « إن الحرب خدعة ، وعسى الله أن يصنع لنا » .

فلما كانت ليلة السبت ، وكان من صنع الله ، عز وجل ، لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورووس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إننا لسنا بدار مقام وقد هلك الحنف والحافر^(٢) فاجتهدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت (أي اليوم الذي يلي هذه الليلة) وهو يوم لانعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فمسخوا قرده وخنازير كما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين تقاتل معكم محمداً حتى تعطوننا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإننا نخشى إن صرستم الحرب^(٣) واشتد عليكم القتال أن تنشروا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش لغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إننا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إننا والله لا تقاتل معكم محمداً حتى تعطوننا رهناً . فأبوا عليهم ، وقال أبو سفيان : ألا أراي أستعين بإخوان القرده والخنازير ؟ وخذل الله بين الفريقين ، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء ، وهؤلاء من نصر هؤلاء ، واختلف أمرهم وتفرقوا ، فانطلق الأحزاب منهزمين من غير قتال ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾^(٤) .

(١) رَجُلٌ نَمُومٌ : أي يمشي بالنميمة ، وَنَمَّ الْحَدِيثُ : ثقلة (لسان العرب : ج ٤٥٥١/٦) .

(٢) أَرَادَ بِالْحَنْفِ : الإبل ، وبالحافر : الخيل . انظر : (لسان العرب : ج ١٢١٢/٢) .

(٣) صَرَسْتَهُ الْحَرْبُ صَرَسًا : غَضَّتَهُ (لسان العرب : ج ٢٥٧٨/٤) .

(٤) الأحزاب ح ٢٥ ، وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٧/٣ - ٢٤٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٩/٢ ، ٧٣) و (ج ٢٧٧/٤ - ٢٧٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي

(ج ٤٠٤/٣ ، ٤٤٧) .

دعاء النبي ﷺ على الأحزاب :

وكان رسول الله ﷺ دعا على الأحزاب فقال : « اللَّهُمَّ ! مُنِزِلَ الْكِتَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ ! اهْزِمْهُمْ وَزَلِّزْلِهِمْ » (١) .

ويروى أنه قال : « اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ ! إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدُ . يَا صَرِيحَ الْمَكْرُوبِينَ ، يَا مُجِيبَ الْمُضْطَرِّينَ ، اكْشِفْ هَمِّي وَعَمِّي وَكُرْبِي ، فَإِنَّكَ تَرَى مَا نَزَلَ بِي وَبِأَصْحَابِي » .

وقال له المسلمون : يا رسول الله ! هل من شيء نقوله ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ، قال : « نَعَمْ ، قُولُوا : اللَّهُمَّ ! اسْأَلُ عَوْرَاتِنَا ، وَأَمِنْ رَوْعَاتِنَا » (٢) .

هزيمة الأحزاب :

وقد استجاب الله تعالى دعاء رسوله ﷺ والمسلمين بعد أن صبروا على شدة عدوهم وخلص إلى كل امرئ منهم من الكرب والجهد ما خالص ، فقد كانوا بين ثلاث قوى من المكر والحصار : قريش وخطفان ومن معهم شمال المدينة ومن حولها ، ويهود بني قريظة جنوب المدينة ، والمنافقون داخل المدينة .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٣) .

روي عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : دعا رسول الله ﷺ في مسجد الأحزاب يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين الظهر والعصر ، فعرفنا البشر في وجهه . قال جابر : فلم ينزل بي أمرهم غائظ إلا توخيت تلك الساعة من ذلك اليوم فدعوت الله فأعرف الإجابة (٤) .

فبعد أن تحاذل الفريقان ودبت الفرقة في صفوفهم ، أتى جبريل ، عليه السلام ، ومعه الريح ، فقال النبي ﷺ حين رأى جبريل : « أَلَا أُبَشِّرُوكُمْ » ثلاثاً .

فبعث الله تعالى عليهم الريح في ليل شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم على أفواهها ، وتطفئ نيرانهم ، وتقوض خيامهم وقبابهم (٥) وتقطع أوتادهم ، حتى لم يكد الرجل منهم يهتدي إلى رحله ، بل صارت الريح تدفن الرجال وترميمهم بالحصى ، حتى ما أبقى الله لهم بيتاً يقوم ولا رَحْماً ، ولم يعد لهم قرار ، وحتى ما كان في الأرض منزل أشد عليهم ولا أكره إليهم من منزلهم (٦) .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « نَصُرْتُ بِالصَّبَا وَأَهْلِكَتُ عَادَ بِالذَّبُورِ » (٧) .

وأرسل الله تعالى عليهم مع الريح جنوداً من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف ، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (٨) .

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٧٢/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٢/٢ ، ٢٢٤) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢/٣) .

(٣) البقرة : ٢١٤ .

(٤) طبقات ابن سعد (ج ٧٢/٢) .

(٥) القِيَابُ : جَمْعُ قَيْبَةٍ ، وَهِيَ الْبِنَاءُ مِنَ الْأَدَمِ خَاصَّةً (لسان العرب : ج ٣٥٠٧/٥) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٠/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٦/٣) .

(٧) صحيح البخاري (ج ٤١/٢) كتاب الاستسقاء - باب قول النبي ﷺ نُصِرْتُ بِالصَّبَا . وَالذَّبُورُ : رِيحٌ تَهْبُ مِنْ الْمَغْرِبِ ، وَتَقَابِلُ الْقَبُولِ ، وَهِيَ رِيحُ الصَّبَا وَمَهَبُهَا مِنْ مَشْرِيقِ الشَّمْسِ إِذَا اسْتَوَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . انظر : (الوسيط : ج ٢٦٧/١ ، ٥٠٩) .

(٨) الأحزاب : ٩ ، وانظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٤٨/٣) .

استخبار النبي ﷺ عما حلّ بالمشركين ومناداة أبي سفيان بالرحيل :

فلما أرسل الله تعالى عليهم الريح وانتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم ، أراد أن يبعث رجلاً فينظر ما فعل القوم ليلاً ، فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ » - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - « أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ ؟ » أو قال : « جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، قال ذلك ثلاثاً ، فما قام إليه رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فدعا رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ، رضي الله عنه ، قال حذيفة : فلم أجد بداً من القيام حين دعاني باسمي ، فجننته ، فقال : « أَسَمِعْتَ صَوْتِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ وَمَسَّأَلْتِي الرَّجَالَ لِأُبَعَثَهُمْ فَيَخْبِرُونَ لَنَا خَبَرَ الْقَوْمِ ؟ » فقال حذيفة : والذي بعثك بالحق إنه لبأذني ، قال : « فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُومَ حِينَ سَمِعْتَ كَلَامِي ؟ » قال : الضَّرُّ وَالْجُوعُ ، فلما ذكر الجوع ضحك رسول الله ﷺ - وفي رواية : قال حذيفة : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق ما قتت إليك إلا حياء منك ، من البرد ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنْطَلِقُ يَا ابْنَ الْيَمَانِ وَلَا بَأْسَ عَلَيْكَ مِنْ حَرٍّ وَلَا بَرْدٍ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيَّ » - وفي رواية أخرى أنه قال : والله ما بي أن أقتل ولكنني أخشى أن أؤسر ، فقال : « إِنَّكَ لَنْ تَؤَسَّرَ ، اللَّهُمَّ ! احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ ، أَذْهَبْ يَا حَذِيفَةَ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ فَانظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ ، وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ وَلَا تُحَدِّثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِينَا » . وقام رسول الله ﷺ يصلي تلك الليلة ، وكان إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ (١) فَرَعَ (٢) إِلَى الصَّلَاةِ (٣) .

روي أن حذيفة بن اليمان ، رضي الله عنه ، ذكر يوماً مشاهدم مع رسول الله ﷺ ، فقال له رجل من جلسائه من أهل الكوفة : يا أبا عبد الله ! أرايتم رسول الله ﷺ وصحبه؟ قال : نعم يا ابن أخي ، قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد ، فقال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا ، وقال رجل آخر من بينهم : لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت ، وقال آخرون : أما والله لو كنا شهدنا ذلك لفعلنا وفعلنا ، فقال لهم حذيفة : لا تمَنُّوا ذلك ، فلقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود : أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا مخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً ؛ في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له ، فيتسللون ، ونحن ثلاثمائة أو نحو ذلك ، إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى مر علي ، وما علي جنة من العذو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي ، قال : فأتاني وأنا جاث على ركبتي ، فقال : « مَنْ هَذَا ؟ » فقلت : حذيفة ، فقال : « حَذِيفَةُ ! » قال : فتصاصرت بالأرض فقلت : بلى يا رسول الله ، كراهية أن أقوم ، قال : « قُمْ » ، فقممت ، فقال : « إِنَّهُ كَائِنٌ فِي الْقَوْمِ خَبْرٌ ، فَأَتِنِي بِخَبْرِ الْقَوْمِ » ، قال : وأنا من أشد الناس قَرَعاً وأشدهم قَرَأً (٤) ، فخرجت (٥) ، وذكر الحديث بنحو ما سبق .

قال حذيفة : فخرجت مستبشراً بدعاء رسول الله ﷺ كأي احتملت احتمالاً ، وذهب عني ما كنت أجد من الخوف والبرد ، وجعلت كأنما أمشي في حَمَامٍ (١) حتى أتيت القوم ودخلت في غبارهم (٢) ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، وإذا هي ما تجاوز

(١) حَزَبَهُ أَمْرٌ : أي إذا نَزَلَ بِهِ مَهْمٌ أَوْ أَصَابَهُ غَمٌّ (النهاية : ج ١/٣٧٧) .

(٢) فَرَعَ إِلَيْهِ : لَجَأً (لسان العرب : ج ٥/٣٤١) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٥٠) ، وصحيح مسلم (ج ٣/١٤١٤) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة الأحزاب ح ٩٩ ، والمستدرک (ج ٣/٣١٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٦٩٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣/٤٠٦ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤) .

(٤) الْقَرُّ : الْبُرْدُ (الوسيط : ج ٢/٧٣٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٥٠) ، وصحيح مسلم (ج ٣/١٤١٤) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة الأحزاب ح ٩٩ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣/٤٥١٢) .

(٦) يعني أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس ، ولا من تلك الريح الشديدة شيئاً ، بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له ، ودعائه ﷺ له . (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ١٢/١٤٦٧) .

(٧) غَمَارَ النَّاسِ : جَمْعُهُمُ الْمَسْكَاتِفُ (النهاية : ج ٣/٢٨٤) .

عسكرهم شبراً ، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار^(١) في عَصْبَة حوله ، فوضعت سهماً في كَبِد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تَدْعُهُمْ عَلَيَّ » فأمسكت ، ولو رميته لأصبته . قال : حتى إذا جلست فيهم أحسّ أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم فقال : يا معشر قريش ! لينظر امرؤ من جلسه ، قال حذيفة : فضربت بيدي على الذي عن يميني وأخذت بيده وقتلت له : من أنت ؟ فقال : عمرو بن العاص ، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده وقتلت : من أنت ؟ قال : معاوية بن أبي سفيان . قال حذيفة : فعلت ذلك خشية أن يفتن بي فبدرتهم بالمسألة ، فقام أبو سفيان خطيباً في القوم فقال : يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ماترون ؛ ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فياني مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله^(٢) إلا وهو قائم ، فقال له عكرمة بن أبي جهل : إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس ! فاستحيا أبو سفيان وأناخ جملة وأخذ بزمامه وهو يقوده وقال : ارحلوا ، فجعل الناس يتحملون ويرحلون ، وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم ، وظلّ أبو سفيان قائماً حتى خف العسكر ، فقال لعمر بن العاص وخالد بن الوليد : أقمي في جريدة من الخيل^(٣) يزاء محمد وأصحابه فإننا لا نأمن الطلب ، فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس ساقية للعسكر وردد لهم مخافة الطلب ، وانطلق جميع العسكر .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشروا راجعين إلى بلادهم ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصبيهم . (انظر : مصور إجلاء بني قريظة) .

وفي رواية أن رسول الله ﷺ أمر حذيفة أن يأتي قريشاً وبنو كنانة وقيساً وأمره فيهم بقوله ، قال حذيفة : فأتيت قريشاً فقلت : يا معشر قريش ! إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقال أين قريش ؟ أين قادة الناس ؟ أين رؤوس الناس ؟ فيقتلونكم فتصلوا القتال^(٤) ، فيكون القتل فيكم ، ثم أتيت بني كنانة فقلت : يا معشر بني كنانة ! إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقال : أين رماة الحدق ؟ فيقتلونكم فتصلوا القتال ، فيكون القتل فيكم ، ثم أتيت قيساً فقلت : يا معشر قيس ! إنما يريد الناس إذا كان غداً أن يقولوا أين قيس ؟ أين أحلاس الخيل^(٥) ؟ أين الفرسان ؟ فيقتلونكم فتصلوا القتال ، فيكون القتل فيكم . قال حذيفة : فلما دنا الصبح ناديت : أين قريش ؟ أين رؤوس الناس ؟ فقالوا : أيّهات^(٦) هذا الذي أتينا به البارحة ، أين بنو كنانة ؟ وأين الرماة ؟ فقالوا : أيّهات هذا الذي أتينا به البارحة ، أين قيس ؟ أين أحلاس الخيل ؟ أين الفرسان ؟ فقالوا : أيّهات هذا الذي أتينا به البارحة ، فتخاذلوا ، وانطلقوا لا يلوي أحد منهم على أحد ، وفيهم أنزل الله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾^(٧) .

فلما رجع حذيفة مرّ بخيل على طريقه بين النبي ﷺ وبين المشركين ، فخرج له فرسان منهم فقالا : ارجع إلى صاحبك فأخبره أن الله قد كفاه إياهم بالجنود والريح .

قال حذيفة : ثم أتيت النبي ﷺ وأنا أمشي في مثل الحمام ، فلما جئته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت . وفي لفظ : فوالله

- (١) أي : يُدْفَعُ (النهاية : ج ٥١٣) .
- (٢) العقال : الخيل الذي يُعْقَلُ به البعير (النهاية : ج ٢٨٠/٣) .
- (٣) يقال : ندب القائد جريدة من الخيل إذا لم ينهض معهم رجلاً ، ويقال : جريدة من الخيل للجماعة جرّدت من سائرها لوجه (لسان العرب : ج ٥٨٩/١) .
- (٤) أي تقاسوا شدته ، يقال : صلي بالأمر إذا فاسى حرةً وشدته وتعبته (لسان العرب : ج ٢٤٩٢/٤) .
- (٥) الأحلاس : جمع جلس ، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب ، وأراد بأحلاس الخيل : لزومهم لظهورها (النهاية : ج ٤٢٣/١ - ٤٢٤) .
- (٦) أيّهات : لغة في هيّهات ؛ بمعنى : بقّد (لسان العرب : ج ١٩٥/١) .
- (٧) الأحزاب : ٢٥ .

ماعدًا أن رجعت راجعني القُرُوجعلت أُفْرِقَف^(١) - فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائمًا حتى أصبحت ، فلما أصبحت قال لي : « قُمْ يَا نَوْمَانُ » .

وفي رواية قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي ، فأومأ إلي بيده أن اذن ، فدنوت ، ثم أومأ إلي أيضاً أن اذن ، فدنوت حتى أسبل عليّ من الثوب الذي كان عليه وهو يصلي ، فلما فرغ من صلاته قال : « ابْنَ الْيَمَانِ ! مَا الْخَبْرُ ؟ » قلت : يا رسول الله ! تفرّق الناس وقد صبّ عليهم من البرد مثل الذي صبّ علينا ، ولكننا نرجو من الله ما لا يرجون ، وجعلت أخبره عن أبي سفيان فجعل يضحك حتى رأيت أنيابه^(٢) .

الرجوع من الخندق :

فلما أصبح رسول الله ﷺ والمسلمون ، وقد فتح الله ، عزّ وجلّ ، لهم وأقرّ أعينهم بجلاء الأحزاب عنهم ، قال رسول الله ﷺ : « لَنْ تَغْزَوْكُمْ قَرِيْشٌ بَعْدَ غَاْمِكُمْ هَذَا ، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزَوْنَهُمْ ، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ » . وقد كان كما أخبر عليه الصلاة والسلام فلم تغزم قريش بعد ذلك ، وكان ﷺ هو الذي يغزوها حتى فتح الله تعالى عليه مكة .

ثم أذن النبي ﷺ للمسلمين في الانصراف إلى منازلهم ، فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك ، وهم يقولون : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قبله ولا شيء بعده .

وكانوا قد أقاموا بالخندق محاصرين في شتاء بارد أربعاً وعشرين ليلة ، فرجعوا مجهودين ووضعوا السلاح ، وكان انصرافهم يوم الأربعاء لسبع ليال يقين من ذي القعدة^(٣) .

☆ ☆ ☆

(١) أُفْرِقَفُ : أُرْتَعِدُ مِنَ الْبُرْدِ (الوسيط : ج ٧٣٦/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥١/٣ - ٢٥٢) ، وصحيح مسلم (ج ١٤١٤/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة الأحزاب ح ٩٩ ، والمستدرک (ج ٣١/٣) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٤١/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٩/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٥٢/٣ - ٤٥٥) ، وعيون الأثر (ج ٦٦/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٧/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٨/٣ ، ٢٥٢ ، ٢٧٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٤١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الخندق ، وطبقات ابن سعد (ج ٦٩/٢ ، ٧٠ ، ٧٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٧/٣) .

غزوة بني قريظة

ذكرنا أن يهود بني قريظة نقضوا العهد وتآمروا مع الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ ، ثم كفوا عن القتال لما أوقعه نعيم بن مسعود من النشل بينهم وبين الأحزاب ، فكان لا بد أن يفرغ النبي ﷺ لأولئك الذين مارسوا الغدر وأصبح وجودهم بالمدينة فتنة تهدد سلامة المسامحين وأمنهم .

ففي اليوم الذي رجع فيه رسول الله ﷺ من الخندق هو وأصحابه ووضعوا السلاح ، أتاه جبريل ، عليه السلام ، وقت الظهر ، معتجراً بعمامة من إستبرق^(١) مرخياً منها بين كتفيه ، على بغلة عليها رجالة^(٢) عليها قطيفة من ديباج . وفي رواية : على فرس عليه لأتمته ، وإن على ثناياه لنتع الغبار . والنبي ﷺ قد اغتسل ، فقال له : عذيرك^(٣) من محارب ، ألا أراك تغسل رأسك ، فوالله ما نزلنا بعد ، انض إلى بني قريظة . وفي رواية : قال : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ » ، فقال جبريل عليه السلام : غفر الله لك ، والله ما وضعناه منذ نزل بك العدو ، وما رجعنا الآن إلا من طلب القوم حتى بلغنا حمراء الأسد ، إن الله عز وجل ، يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، وأنا عامد لهم بين معي من الملائكة فزلزل بهم الحصون ، فاخرج بالناس ، فقال رسول الله ﷺ : « إن في أصحابي جهداً فلو أنظرتهم أياماً » ، فقال جبريل عليه السلام : قم فشدّ عليك سلاحك ، فوالله لأدقنهم كدقّ البيض على الصفا^(٤) ، ولأدخلن فرسي هذا عليهم في حصونهم ثم لأضععنهما^(٥) ، فلا أنزل عنها حتى تفتح لك . فأدبر جبريل ، عليه السلام ، ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ عندي فسمع صوت وثبة شديدة ، فقام فزعا وثب وثبة منكرة وخرج ، فقامت في أثره ، فإذا رجل على دابة والنبي ﷺ متكئ على معرفة^(٦) الدابة يكلمه ، فرجعت ، فلما دخل علي رسول الله ﷺ قلت : لقد وثبت وثبة شديدة ثم خرجت ، فذهبت أنظر فإذا هو دحية الكلبي ، قال : « أو رأيته ؟ » قلت : نعم ، قال : « ذاك جبريل أمرني أن أخرج إلى بني قريظة » . وكان دحية ، رضي الله عنه ، تشبه لحيته وسنّه ووجهه جبريل عليه السلام .

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة ، ثم لبس رسول الله ﷺ لأتمته وسار إليهم على حمار عزي^(٧) يقال له يعفور . وفي رواية : على حمار خطامه^(٨) حبل من ليف وتحتة إكاف^(٩) من ليف . واستعمل

- (١) الإستبرق : الديباج العليظ (الوسيط : ج ١٦/١) .
- (٢) الرجالة : سرج من جلود ليس فيها خشب كانوا يتخذونه للرخص الشديد (لسان العرب : ج ١٦٠٩/٢) .
- (٣) عذيرك : أي هات من يفتدرك فيه (النهاية : ج ١٩٧/٣) .
- (٤) الصفا : جمع صفاة ، وهي الصخرة والحجر الأملس (النهاية : ج ٤١/٢) .
- (٥) ضعضعة : أي هدعة حتى الأرض (لسان العرب : ج ٢٥٨٧/٤) .
- (٦) المعرفة : موضع العزف من الطير والحبل . وقد تقدم .
- (٧) حمار عزي : لاسرج عليه (لسان العرب : ج ٢٩٢٠/٤) .
- (٨) الخطام : ما وضع على أنف الحمار ليقاد به (الوسيط : ج ٢٤٤/١) .
- (٩) الإكاف : السرج (الوسيط : ج ٤٧/١) .

على المدينة ابن أم مكتوم ، رضي الله عنه ، وأعطى الراية علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وقدمه بين يديه إلى بني قريظة .
(انظر : مصور إجلاء بني قريظة) .

ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصَّوْرَيْنِ^(١) ، قبل أن يصل إلى بني قريظة ، فقال : « هَلْ مَرَّ بِكُمْ أَحَدٌ ؟ »
قالوا : يا رسول الله ! قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج ، فقال رسول الله ﷺ :
« ذَلِكَ جَبْرِيلُ بَعَثَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ يُرْزِلُ بِهِمْ حُصُونَهُمْ وَيَقْدِفُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ » .

فلما انتهى علي ، رضي الله عنه ، إلى حصون بني قريظة ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار ، وغرز الراية عند أصل الحصن
سمع منها مقالة قبيحة في حق النبي ﷺ وحق أزواجه ، فسكت المسلمون وقالوا : السيف بيننا وبينكم . ورجع علي ، رضي الله عنه ،
إلى رسول الله ﷺ ، وأمر أبا قتادة الحارث بن ربيعة أن يلزم الراية ، فلقية بالطريق فقال : يا رسول الله ! لا عليك أن لاتدنو من
هؤلاء الأخابث ، قال : « لِمَ ؟ أَظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَدَى » قال : نعم يا رسول الله ، قال : « امْضِ ، فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ ، لَوْ رَأَوْني لَمْ
يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً » . فسار رسول الله ﷺ إليهم وتقدمه أسيد بن الحضير ، رضي الله عنه ، فقال : يا أعداء الله ! لا تبرح حصنكم
حتى تموتوا جوعاً ، إنما أتم بمنزلة ثعلب في جحر ، قالوا : يا ابن الحضير ! نحن مواليكم دون الخرج ! وخاروا ! أي : خافوا ، قال :
لا عهد بيني وبينكم ولا إل^(٢) .

فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم نادى بأعلى صوته نفرأ من أشرافهم حتى أسمعهم فقال : « أَجِيبُوا يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ! يَا إِخْوَانَ
الْقِرْدَةِ وَالْحَنَازِيرِ ! هَلْ أَخْرَاكُمْ اللَّهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ تَقَمَّتَهُ ؟ » قالوا : يا أبا القاسم ! ما كنت جهولاً ولا فحاشاً .

ونزل رسول الله ﷺ من معه من المسلمين على بئر من آبار قريظة يقال لها بئر أنا ، وتلاحق به بقية أصحابه ، فأدركتهم العصر
في الطريق ، فقال بعضهم : لانصلبها إلآ في بني قريظة كما أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت ، حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر
بها بعد العشاء الآخرة شغلهم عن السير مالم يكن لهم منه بُدٌ في حربهم ، وقال بعضهم : لم يرد منا ذلك ، وإنما أراد سرعة الخروج ،
وتخوفوا فوت الوقت فصلوها في الطريق ، فما عابهم الله بذلك في كتابه ، ولا عتف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين .

وكان عدد من خرج إلى بني قريظة ثلاثة آلاف مقاتل ، والخيول ستة وثلاثين فرساً ، فحاصروا بني قريظة مع رسول الله ﷺ
خمساً وعشرين ليلة ، وقيل خمسة عشر يوماً ، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب .

فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لقومه : يا معشر يهود ! قد نزل بكم من
الأمر ماترون ، وإني عارض عليكم خلافاً ثلاثاً : فخذوا أيها شئتم ، قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصنقه ، فوالله لقد
تبين لكم إنه لنبي مرسل ، وإنه للذي تجدونه في كتابكم ، وإنه الذي بشر به عيسى ، وإنكم لتعرفون صفته ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم
وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : هو به ولكن لانفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره ، قال : فإذا أبيتم علي هذه فهلتم فلنقتل أبناءنا
ونسائنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصَلِّتِينَ السيوف لم تترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك ولم تترك
وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء ، قالوا : نقتل هؤلاء المساكين !!؟ فما خير العيش بعدهم ؟ قال :
فإن أبيتم علي هذه ، فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنونا فيها فانزلوا لعنا نصيب من محمد وأصحابه
غرة ، قالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه مالم يحدث من كان قبلنا إلآ من قد علمت فأصابه مالم يخف عليك من المسخ ، قال :
ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

وقال لهم عمرو بن سعدى : يا معشر اليهود ! إنكم قد حالتم محمداً على ما حالقتموه عليه ، ألا تنصروا عليه أحداً من عدوه ، وأن
تنصروه من دهمه ، فنتقض ذلك العهد الذي كان بينكم وبينه ، فلم أدخل فيه ولم أشرككم في غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا

(١) الصَّوْرَيْنِ : مَوْضِعٌ قُرْبَ الْمَدِينَةِ (معجم البلدان) ج ٣٩٩/٥ .

(٢) الإل : الحِلْفُ وَالْعَهْدُ (لسان العرب) ج ١١٢/١ .

على اليهودية وأعطوا الجزية ، فوالله ما أدري يقبلها أم لا ، قالوا : نحن لا نقرّ للعرب بخرج^(١) في رقابنا يأخذوننا به ، القتل خير من ذلك ! قال : فإني بريء منكم ، وخرج^(٢) .

ثم إنهم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا الخلقعة ، فأبى رسول الله ﷺ . ثم إنهم أرسلوا إليه ثانية بأنه لا حاجة لهم بشيء من الأموال لا من الحلقة ولا من غيرها ، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه . فلما رأوا ذلك أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من الأوس لعلمهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر لنستشيره في أمرنا ، وكان حليفاً لهم ، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش^(٣) إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم ، وقالوا له : يا أبا لبابة ! أترى أن نزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقة إنه الذبح ، قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدمي من مكانها حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ، فقلت : والله لا أنظر في وجه رسول الله ﷺ حتى أحدث لله عز وجل ، توبة نصوحاً يعلمها الله من نفسي ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمدته وقال : لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت ، وأعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً . وفيه أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٤) .

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال : « أما إنني لو جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلبه من مكانه حتى يتوب الله عليه » . ويروى أن رسول الله ﷺ قال له : « أحسبت أن الله تعالى غفل عن يدك حين تشير إليهم بها إلى حلقك » فلبث حيناً ورسول الله ﷺ عاتب عليه .

وأقام أبو لبابة ، رضي الله عنه ، مرتبطاً بالجذع ست ليال ، وقيل : قريباً من عشرين ليلة ، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتخله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ، حتى ذهب سمعه فما يكاد يسمع ، وكاد يذهب بصره ، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة رضي الله عنها ، قالت أم سلمة : سمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك ، فقلت : ممّ تضحك يا رسول الله ؟ أضحك الله سنك ، قال : « تيب على أبي لبابة » ، قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ قال : « بلى إن شئت » ، فقامت على باب حجرتها فقالت : يا أبا لبابة ! أبشرفقد تاب الله عليك ، فثار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله ، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده ، فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه ، فقال له أبو لبابة : يا رسول الله ! إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأساكنك ، وأني أخلع من مالي صدقة لله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يجزيء عنك الثلث »^(٥) .

نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ وتنفيذ الحكم :

ولما اشتد الحصار ببني قريظة أذعنوا ورضوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، بالرغم مما أشار إليه أبو لبابة أنه الذبح ، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب ، وأخذت معنوياتهم تنهار ، وبلغ هذا الانهيار غايته عندما اقترب عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، من

(١) الخرج والخراج : الإتاوة تؤخذ من أموال الناس (لسان العرب : ج ١١٢٦/٢) .

(٢) سيأتي خبره بعد قليل عند ذكر نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ .

(٣) يقال : جهش الصبي إلى أمه : فرغ إليها وهم بالبكاء (الوسيط : ج ١٤٣/١) .

(٤) الأنفال : ٢٧ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٢/٣ - ٢٥٦) ، وصحيح البخاري (ج ١٩/٢) أبواب صلاة الخوف ، و (ج ١٤٢/٥ ، ١٤٣) كتاب المغازي - باب مرجع النبي ﷺ من غزوة الأحزاب ، وصحيح مسلم (ج ١٣٩١/٣) كتاب الجهاد والسير - باب المبادرة بالغزوة ح ٦٩ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٤٥٢/٣) و (ج ١٤٢/٦) ، والمستدرک (ج ٤٦٦/٢) و (ج ٢٤/٣) ، وجمع الزوائد (ج ٤١/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٤/١) و (ج ٧١/٢ ، ٧٤ ، ٧٧) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧/٤ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣) و (ج ٢٧٠/٥) ، وعيون الأثر (ج ٦٨/٢ ، ٧٠) ، ومغازي الواقدي (ج ٤٩٧/٢ ، ٥٠٣) .

حصنهم وصاح : يا كتيبة الإيمان ! ثم تقدّم هو والزبير بن العوّام ، رضي الله عنه ، وقال : والله لأذوقنّ مذاق حمزة أو لأقتحنّ حصنهم ، فأذعنوا حينئذ ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ .

فأمر بهم رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ، رضي الله عنه ، فكثفوا وجعلوا ناحية ، وكانوا ستائة أو سبعمائة - وقيل : كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة مقاتل - وأخرج النساء والذراري من الحصون وجعلوا ناحية وكانوا ألفاً ، واستعمل عليهم عبد الله بن سلام ، رضي الله عنه ، وأمر بسلاحهم فجعل في قبته .

فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ! صلى الله عليك وسلم ، إنهم كانوا موالينا وحلفاءنا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت ، يعنون بني قينقاع لأنهم كانوا حلفاء الخزرج حاصرهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبي ابن سلول فوهبهم له على أن يجلوا ، فظنّت الأوس من رسول الله ﷺ أن يهب لهم بني قريظة كما وهب بني قينقاع للخزرج ، فلما كلمته الأوس أبي أن يفعل ببني قريظة ما فعل ببني قينقاع ، ثم قال لهم : « ألا ترضونّ يامعشر الأوس أن يحكمّ فيهم رجل منكم ؟ » قالوا : بلى ، فقال رسول الله ﷺ : « فذاك إلى سعد بن معاذ » .

وقيل : إنه ﷺ قال لبني قريظة : « اختاروا من شئتم من أصحابي » ، فاختاروا سعد بن معاذ ، فرضي بذلك رسول الله ﷺ ، فنزلوا على حكم سعد رضي الله عنه .

وكان سعد بن معاذ ، رضي الله عنه ، يومئذ في المسجد النبوي في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها ربيعة الأسلمية ، وقد كان رسول الله ﷺ قال لقوم سعد حين أصابه السهم بالخندق : « اجملوه في خيمة ربيعة حتى أعوده من قريب » - لأن ربيعة كان لها خيمة في المسجد تداوي فيها الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة الصحابة ممن لم يكن له من يقوم عليه - فكان النبي ﷺ إذا مرّ به يقول : « كيف أمسيّت ؟ » وإذا أصبح قال : « كيف أصبحت ؟ » فيخبره .

فأرسل النبي ﷺ إلى سعد ، فحمله قومه على حمار ، قد وطّؤوا له بوسادة من أدم لمشقة ركوبه عليه لجرحه ولأنه كان رجلاً جسيماً ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون له : يا أبا عمرو ! أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد أن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى إليهم رجال بني قريظة .

فلما انتهى سعد ، رضي الله عنه ، إلى رسول الله ﷺ ، والمسلمين قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيديكم ، أو خيركم ، فأنزّلوه » ؛ فقال عمر : سيّدنا الله عزّ وجلّ ، فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار ، وأما الأنصار فيقولون : قد عمّ بها رسول الله ﷺ المسلمين ، فقاموا إليه ، فلما أنزلوه قالوا : يا أبا عمرو ! إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم ، قال : وعلى من ههنا ؟ وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له ، فقال رسول الله ﷺ : « نعم » ، قال سعد : فياني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسّم الأموال ، وتسي الذراري والنساء - وزيد في رواية : وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت الأنصار : إخواننا كنّا معهم ، فقال : إني أحببت أن يستغنوا عنكم - فقال رسول الله ﷺ لسعد : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعه أرقعة^(١) » - وفي لفظ : « أصبت حكم الله فيهم » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بالأسارى فحبسوا في دار رملة بنت الحارث امرأة من بني النجار ، وقيل : حبسوا في دار أسامة بن زيد ، ولعلمهم جعلوا في بيتين ، أو سيق الرجال إلى دار أسامة بن زيد ، والنساء والذرية إلى دار بنت الحارث .

وغدا رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ثم خرج إلى سوقها فخذق بها خنادق ، ثم بعث إليهم ، فجيء بهم أرسلالاً^(٢) تضرب أعناقهم في

(١) الأرقعة : جمع رقيع ، وهو من أسماء السماء ، قيل : سميت بذلك لأنها رقيعت بالنجوم (فتح الباري : ج ٤١٢٧) .

(٢) جيء بهم أرسلالاً : أي طائفة بعد طائفة . وقد تقدّم .

تلك الخنادق ويُلَقون فيها . وقد قال بعضهم لسيدهم كعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً : يا كعب ! ماتراه يصنع بنا ؟ قال : أفي كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعي لا ينزع ، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل ، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ ، ثم ردة عليهم التراب في تلك الخنادق .

وكان من جملة من قُتل معهم حَيَّي بن أخطب ، فإنه كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه ، فلما أتى به - وعليه حلة له فُقَاحِيَّة^(١) قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسلبها - قال له رسول الله ﷺ : « هل أخزأك الله ؟ » فقال حَيَّي : لقد ظهرت علي ، أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يُخذل ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ! إنه لا بأس بأمر الله ؛ كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ، ثم جلس ففُضرت عنقه .

ولم يُقتل من نساءهم إلا امرأة واحدة يقال لها بنانة كانت طرحت رَحَى على خَلَاد بن سُوَيْد فشدت رأسه فقتلته ، فقتلها رسول الله ﷺ به .

قالت عائشة رضي الله عنها : لم يُقتل من نساءهم إلا امرأة واحدة ، قالت : والله إنها لعندي تحدثت معي وتضحك ظهراً وبطناً ، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق ، إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة ؟ قالت : أنا والله ، فقلت لها : ويحك ! مالك ؟ قالت : أقتل ، قلت : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثته ، قالت : فانطلق بها ففُضرت عنقها . فكانت عائشة تقول : فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تُقتل .

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل كل من أنبت منهم ، وترك من لم ينبت ، فكان عَطِيَّة القُرَظِيّ من لم ينبت ، فخلى سبيله وألحق بالسبي .

- واستوهب ثابت بن قيس بن الشّمس ، رضي الله عنه ، الزبير بن باطا من رسول الله ﷺ ، فوهبه له ، وكان الزبير قد منّ على ثابت بن قيس يوم بعاث - وهي الحرب التي جرت بين الأوس والخزرج قبل قدوم النبي ﷺ المدينة - أخذته فجز ناصيته ثم خلى سبيله ، فجاءه ثابت ، رضي الله عنه ، وهو شيخ كبير ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ! هل تعرفني ؟ قال : وهل يجهل مثلي مثلك ؟ قال : إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي ، قال : إن الكريم يجزي الكريم ، ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ! إنه قد كانت للزبير عليّ مئة وقد أحببت أن أجزيه بها ، فهب لي دمه ، فقال رسول الله ﷺ : « هو لك » ، فأتاه فقال : إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك فهو لك ، فقال : شيخ كبير لأهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، هب لي امرأته وولده ، فقال : هم لك ، فأتاه فقال : قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهم لك ، قال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما يتقائم على ذلك ؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ! ماله ، قال : « هو لك » ، فأتاه ثابت فقال : قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك فهو لك ، قال : أي ثابت ! ما فعل الذي كان وجهه مِراً صِينِيَّة يترأى فيها عذارى الحي ، كعب بن أسد ؟ قال : قُتل ، قال : فما فعل سيّد الحاضر والبادي حَيَّي بن أخطب ؟ قال : قُتل ، قال : فما فعل مَقْدَمْتنا إذا شدنا وحاميتنا إذا قررنا عَزَال بن سَمَوَال ؟ قال : قُتل ، قال : فما فعل المجلسان ؟ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة ، قال : ذهبوا قُتلوا ، قال : فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم ، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر لله فتلة ذلوا ناضح^(٢) حتى ألقى الأحيّة ، فقدّمه ثابت ففُضرت عنقه ، فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله : ألقى الأحيّة ، قال : يلقاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مَحَلدأ .

- واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رِفَاعَةَ بن سَمَوَال القُرَظِيّ ، وكان رِفَاعَةَ قد هرب وولادها ، وكان يعرفهم

(١) فُقَاحِيَّة : ضَرْبٌ مِنَ الوُثْيِ كما قال ابن هشام .

(٢) أي مقدار ما يتناول للاستسقي للذئب ، وفي رواية أنه قال : « فلست صابراً عنهم إفراغة دلو » . انظر : الروض الأنف (ج ٢٨٤/٣) .

قبل ذلك ، وهي إحدى حالات النبي ﷺ قد صلّت معه القبلتين وبايعته تبعة النساء ، فقالت : يا نبي الله ! بأبي أنت وأمي ، هب لي رِفاعَةً ، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل ، فوهبه لها ، فاستحيته ، فأسلم وله صحبة .

- وأسلم نفر من بني هذل من اليهود كانوا مع بني قريظة ، وليسوا منهم ولا من بني النضير ، نسبهم فوق ذلك ، وهم ثعلبة وأسيّد ابنا سَعِيّة ، وأسد بن عَبِيد ، وكانوا شباباً أحياناً فقالوا لبني عمهم : يا بني قريظة ! والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهَيَّانِ ، قالوا : ليس به ، قالوا : بلى ، والله إنه هو بصفته ، فنزلوا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ ، وأسلموا ، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهلهم .

قال ابن إسحاق : ولما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سَعِيّة ، وأسيّد بن سَعِيّة ، وأسد بن عَبِيد ، ومن أسلم من يهود معهم فأمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام ورسخوا فيه ، قالت أحبار يهود ، أهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا أتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا من أخيرنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى دين غيره ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم : ﴿ لَيْسُوا سِوَا مَن أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (١) .

- وخرج في تلك الليلة عمرو بن سَعْدَى الْقَرْظِيّ ، فرّ بحرس رسول الله ﷺ ، وعليه محمد بن مسلمة تلك الليلة ، فلما رآه قال : من هذا ؟ قال : أنا عمرو بن سَعْدَى ، وكان عمرو قد أرى أن يدخل مع بني قريظة في غدوهم برسول الله ﷺ ، وقال : لا أعذر بمحمد أبداً ، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه : اللهم ! لا تحرمي إقالة عثرات الكرام ، ثم خلى سبيله ، فخرج على وجهه ، حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ، ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومه هذا ، فذكر لرسول الله ﷺ شأنه ، فقال : « ذاك رجلٌ نجاة الله بوفائه » . وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برمة (٢) فبين أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فأصبحت رُمته ملقاة ولا يدرى أين ذهب ، فقال رسول الله ﷺ : « أفَلْتَنَّا بِمَا عَلَّمَ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ » . والله أعلم أي ذلك كان (٣) .

تقسيم غنائم بني قريظة واصطفاء النبي ﷺ رِيحَانَةً :

كان رسول الله ﷺ قد أمر أن يجمع ما وجد في حصونهم من السلاح والأثاث والثياب وغير ذلك ، فجمع ، فوجد في حصونهم ألف وخمسة مائة سيف ، وثلاثمائة درع ، وألفاً رُمح ، وألف وخمسة مائة ترس وحجفة ، وخمسة مائة سكر فأهريق ذلك كله ، ووجدوا جبالاً نواضح وماشية كثيرة . فحس رسول الله ﷺ ذلك كله مع النخل والسبي حتى الرُّبّة من المتاع ، ثم قسم الباقي على الغنائين ، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم : للفارس سهان وفارسه سهم ، وأسهم للرجل سهماً واحداً ، ورضخ (٤) للنساء اللواتي حضرن القتال منهن عمته صفية ، رضي الله عنها ، وقيل : أسهم لها لأنها قتلت اليهودي .

وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبانيا من سبانيا بني قريظة إلى نجد ، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً ، وبعث بطائفة أخرى من السبي إلى تهامة والشام فبيعوا بالخيول والسلاح والإبل والمال .

(١) آل عمران : ١١٣ ، والخبر في سيرة ابن هشام (ج ١٨٥/٢) .

(٢) الرُّبّة : قِطْعَةٌ خَبْلٍ يُشَدُّ بِهَا الْأَسِيرُ أَوْ الْقَاتِلُ إِذَا قِيدَ إِلَى الْقِصَاصِ (النهاية : ج ٢٦٧/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/١) ، و (ج ٢٥٦/٣ - ٢٦٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٢/٥ ، ١٤٤) كتاب المغازي - باب مرجع النبي ﷺ من

الأحزاب ... ، و (ج ٧٢/٨) كتاب الاستئذان - باب قول النبي ﷺ قوموا إلى سيدكم ، ومسنود الإمام أحمد (ج ٢٨٢/٤) و (ج ١٤٢/٦) ، والمستدرک

(ج ١٢٤/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧٥/٢ ، ٧٧) و (ج ٤٢٧/٣ ، ٥٣٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩/٤ ، ٢٠) ، وسنن الترمذي (ج ١٤٥/٤)

كتاب السير - باب ما جاء في النزول على الحكم ح ١٥٨٢ وح ١٥٨٤ ، والسيرة الحلبية (ج ٣٣٧/٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب

اللدنية (ج ١٣٦/٢) .

(٤) الرُّضْخُ : العَطِيَّةُ الْقَلِيلَةُ (النهاية : ج ٢٢٨/٢) .

وصار الخمس إلى مخيمية بن جزء الزبيدي - وكان عامل رسول الله ﷺ على الأخماس - فكان رسول الله ﷺ يعتق منه ويهب منه ويخديم منه من أراد ، وكذلك صنع بما صار إليه من الرثة (١) .

- واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ریحانة بنت زيد بن عمرو إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، وقيل : ریحانة بنت زيد بن شمعون من بني النضير ، كانت متزوجة في بني قريظة رجلاً يقال له الحكم كان محباً لها ومكرماً ، وكانت ذات جمال ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه .

وقد كانت حين سبها قد تعصت بالإسلام وأبت إلا اليهودية ، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد في نفسه لذلك من أمرها ، فبينما هو مع أصحابه إذا سمع وقع نملين خلفه ، فقال : « إن هذا لشعلبة بن سعية يبشّرني بإسلام ریحانة » ، فجاءه فقال : يا رسول الله ! قد أسلمت ریحانة ، فسرّه ذلك من أمرها ، وعرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب ، فقالت : يا رسول الله ! بل تتركني في ملكك فهو أخف عليّ وعليك ، فتركها (٢) .

هذا ما قاله ابن إسحاق ، وذكر ابن سعد وغيره أن رسول الله ﷺ عرض عليها الإسلام ، فقال لها : « إن اخترت الله ورسوله اخترت رسول الله لنفسه » ، فقالت ریحانة : إني أختار الله ورسوله ، فما أسلمت أعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها بعد أن حاضت حيضة وهي في منزل أم المنذر ساسي بنت قيس النجارية ، وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشأ كما كان يصدق نساءه ، وأعرس بها في بيت أم المنذر في الحرم سنة ست من الهجرة ، وضرب عليها الحجاب ، فغارت عليه غيرة شديدة ، فطلقها تطليقة ، فشقّ عليها وأكثر البكاء فراجعها ، ولم تزل عنده ﷺ حتى ماتت مرجعه من حجة الوداع سنة عشر ، فدفنها بالبقيع - ويقال : إنه لما طلقها لحقت بأهلها ، فكانت تقول : لا يراني أحد بعد رسول الله ﷺ فكانت تحتجب في أهلها - وكان رسول الله ﷺ معجباً بها ، وكانت لا تسأله إلا أعطها ذلك ، وكانت تكون في نخل بالعالية ، وكان ﷺ يقبل عندها إذا أتى النخل (٣) .

شهداء غزوة بني قريظة :

استشهد يوم بني قريظة رجل واحد من المسلمين هو خلاد بن سويد الذي طرحت عليه رحي فشدت رأسه شديداً شديداً فقتل ، فقال رسول الله ﷺ : « إن لة لأجر شهيدتين » ، فقيل : ولم ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « لأن أهل الكتاب قتلوه » . ومات أبو سنان بن محصن بن حمران أخو بني أسد بن خزيمه ، ورسول الله ﷺ محاصر بني قريظة ، فدفن في مقبرة بني قريظة التي يدفنون فيها آنذاك ، وإليه دفنوا أمواتهم في الإسلام (٤) .

وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه :

ولما انتضى شأن بني قريظة استجاب الله دعوة سعد بن معاذ ، رضي الله عنه ، وكان قد دعا فقال : اللهم ! إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ ، وأخرجوه ، اللهم ! فإني أظنّ أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقي له حتى أجاهدم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فأفجرها واجعل موتي فيها (٥) ، فانفجر

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٢٦٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٧٤ ، ٧٥) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٩/١٢٨) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢/١٢٨) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٢٦٤) ، والمستدرک (ج ٤/٤١٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨/١٢٩ ، ١٣١) ، وتاريخ دمشق (ق ١٦٧/١ ، ١٩٧) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٨/١٢٩ ، ١٣٠) ، والمستدرک (ج ٤/٤١٧) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٢٧٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣/٥٣١) .

(٥) قال ابن كثير في البداية والنهاية (ج ٤/١٢٣) : « كان دعا أولاً بهذا الدعاء قبل أن يحكم في بني قريظة ، ولهذا قال فيه : ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة ، فاستجاب الله له ، فلما حكم فيهم وأقر الله عينه أي قرار دعا ثانياً بهذا الدعاء ، فجعلها الله له شهادة رضي الله عنه وأرضاه » .

جرحه من لَبْتِهِ^(١) وكان برئ حتى ما يرى إلا مثل الخُرْصِ^(٢) ، فلم يَرِ عَظْمَهُمْ ، وفي المسجد خيمة من بني غفار^(٣) ، إلا الدم يسيل إليهم ، فقالوا : يا أهل الخيمة ! ما هذا الذي يأتينا من قبلكم ؟ فإذا سعد يَتَذَوُّ جُرْحَهُ^(٤) دماً ، فما زال الدم يسيل حتى مات رضي الله عنه منه شهيداً^(٥) .

وعد روي في سبب انفجار جرح سعد ، رضي الله عنه ، أنه لما فرغ منهم وحكم فيهم بما حكم مرت عليه عَنَز ، وهو مضطجع ، فأصابت الجرح بظلمتها^(٦) ، فما رقاً حتى مات^(٧) .

ولما بلغ رسول الله ﷺ انفجار جرح سعد ، قام إليه فاعتنقه وهو يَكِيدُ بنفسه^(٨) ، والدم ينضح في وجهه ﷺ ولبتيه ، لا يريد أحد أن يقي رسول الله ﷺ الدم إلا ازداد منه رسول الله ﷺ قرباً ، فقال له : « جَزَاكَ اللهُ خَيْراً مِنْ سَيِّدِ قَوْمٍ ، فَقَدْ أَنْجَزْتَ اللهُ مَا وَعَدْتَهُ وَلِيُنْجِزَنَّكَ اللهُ مَا وَعَدَكَ » ثم دعا له فقال : « اللَّهُمَّ ! إِنَّ سَعْدًا قَدْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ ، وَصَدَّقَ رَسُولَكَ ، وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ ، فَتَقَبَّلْ رُوحَهُ بِخَيْرٍ مَا تَقَبَّلْتَ بِهِ رُوحاً » ، فلما سمع سعد كلام رسول الله ﷺ فتح عينيه ، ثم قال : السلام عليك يا رسول الله ، أما إني أشهد أنك رسول الله .

ورجع رسول الله ﷺ إلى منزله ، فأتاه جبريل ، عليه السلام ، من جوف الليل معتجراً بعمامة من إستبرق ، فقال : يا محمد ! من هذا الميت ، أو العبد الصالح ، الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش^(٩) ؟ فقام رسول الله ﷺ يجير ثوبه إلى سعد ، فوجده قد مات ، واحتمله قومه إلى ديارهم^(١٠) .

روي عن سلمة بن أسلم قال : رأيت رسول الله ﷺ ونحن على الباب نريد أن ندخل على أثره ، فدخل رسول الله ﷺ وما في البيت أحد إلا سعد مسجى ، قال : فرأيت يتخطى ، فلما رأيت وقفت ، وأوماً إليّ : قف ، فوقفت ورددت من ورائي ، وجلس ساعة ثم خرج ، فقلت : يا رسول الله ! ما رأيت أحداً وقد رأيتك تتخطى ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا قَدِرْتُ عَلَى مَجْلِسٍ حَتَّى قَبِضَ لِي مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَحَدَ جَنَاحَيْهِ فَجَلَسْتُ » ، ورسول الله ﷺ يقول : « هَنِيئاً لَكَ أبا عمرو ، هَنِيئاً لَكَ أبا عمرو »^(١١) .

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ، رضي الله عنها ، قالت : لما مات سعد بن معاذ صاحبت أمه ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أَلَا يَرِفَأُ دَمْعُكَ ، وَيَذْهَبُ حَزْنُكَ ، فَإِنَّ ابْنَكَ أَوَّلُ مَنْ صَحِكَ اللهُ إِلَيْهِ ، وَاهْتَزَّتْ لَهُ الْعَرْشُ »^(١٢) .

- (١) كان موضع الجرح ورم حتى وصل إلى صدره فانفجر من لَبْتِهِ .
- (٢) الخُرْصُ : الحَلَقَةُ الصُّغِيرَةُ مِنَ الحَلِيِّ ، وهو من خَلَّى الأذُنَ (النهاية : ج ٢٢/٢) .
- (٣) ذكرنا فيما مضى أن الخيمة كانت لِرَقِيذَةَ الأَسْلَمِيَّةِ ، فيحتمل أن يكون لها زوج من بني غفار ، أو نزلها قوم من بني غفار . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٢٨/٢) .
- (٤) يَتَذَوُّ جُرْحَهُ : أي يَسِيلُ ، يُقَالُ : غَدَا الجُرْحُ يَتَذَوُّ ، إذا دَامَ سَيْلَانُهُ (النهاية : ج ٣٤٧/٣) .
- (٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧١/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٤/٥) كتاب المغازي - باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب .. ، وصحيح مسلم (ج ١٣٩٠/٣) كتاب الجهاد والسير - باب جواز قتال من تقض العهد .. ح ٦٨ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ١٤٢/٦) .
- (٦) الظَّلْفُ وَالظَّلْفُ : ظَفْرٌ كُلُّ مَا اجْتَرَّتْ (لسان العرب : ج ٢٧٥١/٤) .
- (٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٧٨/٢) .
- (٨) يَكِيدُ بِنَفْسِهِ : يَجُودُ بِهَا ، يُرِيدُ التُّزَعُ (النهاية : ج ٢١٦/٤) .
- (٩) قال النووي : اهتز العرش : هو فرح الملائكة الحاقين به بقدم روح سعد رضي الله عنه . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (ج ٢٢/١٦) .
- (١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧١/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٢٢/٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩) ، وصحيح البخاري (ج ٤٤/٥) كتاب المناقب - باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه ، والمستدرک (ج ٢٠٦/٣) .
- (١١) طبقات ابن سعد (ج ٤٢٨/٣) .
- (١٢) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٠٦/٣) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

ولما فرغ من جهاز سعد ، رضي الله عنه ، فاحتل الناس نعشه ، وكان رجلاً بادناً ، وجدوا له خِفة ، فقال رجال من المنافقين : والله إن كان لبادناً ، وما حملنا جنازة أخف منه ، وذلك لحكمه في بني قريظة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ لَه حَمَلَةً غَيْرُكُمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ اسْتَبَشَّرَتِ الْمَلَائِكَةُ بِرُوحِ سَعْدٍ وَاهْتَزَّتْ لَه الْعَرْشُ ، وَلَقَدْ نَزَلَ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ شَهِدُوا جِنَازَةَ سَعْدٍ مَا وَطِئُوا الْأَرْضَ قَبْلَ الْيَوْمِ » .

وقد شارك النبي ﷺ في حمل جنازة سعد ، رضي الله عنه ، من بيته حتى خرج به من الدار ، ثم مشى أمامها ، حتى انتهوا إلى البقيع ، فلما فرغوا من دفنه ، رشَّ ﷺ على قبره ماء وجلَّه بثوبه (١) .

روي عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : كنت أنا ممن حفر لسعد قبره بالبقيع ، وكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا قتره (٢) من تراب ، حتى انتهينا إلى اللحد (٣) .

وعن محمد بن شريحيل قال : اقتبض إنسان من تراب قبر سعد بن معاذ ففتحها ، فإذا هي مسك ، قال رسول الله ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ ، » حتى عُرف ذلك في وجهه (٤) .

ونزل في قبر سعد ، رضي الله عنه ، أربعة نفر : الحارث بن أوس بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ، وأبو نائلة سلكان بن سلامة ، وسلمة بن سلامة بن وقش .

قال جابر رضي الله عنه : لما دُفن سعد ونحن مع رسول الله ﷺ ، وهو واقف على قدميه عند القبر ، سبَّح ﷺ ، فسبَّح الناس معه ، ثم كبر ، فكبر الناس معه ، فقالوا : يا رسول الله ! ممَّ سبَّحت ؟ قال : « لَقَدْ تَضَاقَى عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ » (٥) .

وروي عن عائشة ، رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا مِنْهَا نَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ » (٦) .

روي أن بعض أهل سعد سئل ما بلغكم من قول رسول الله ﷺ في هذا ؟ فقالوا : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ سئل عن ذلك ، فقال : « كَانَ يَقْصُرُ فِي بَعْضِ الطُّهُورِ مِنَ الْبَوْلِ » (٧) .

وقد حزن المسلمون لفقد سعد رضي الله عنه ، فعن عائشة قالت : ما كان أحد أشدَّ فحماً على المسلمين بعد رسول الله ﷺ وصاحبيه ، أو أحدهما ، من سعد بن معاذ (٨) .

وعنها أيضاً قالت : رجع رسول الله ﷺ من جنازة سعد ودموعه تحادر على لحيته (٩) .

وجعلت أم سعد تبكيه وهي تقول :

وَيْلَ أُمِّ سَعْدِ سَعْدًا صِرَامَةً وَحَنَدًا

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٧١) ، وسنن الترمذي (ج ٥/٦٩٠) كتاب المناقب - باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه ح ٢٨٤٩ ، وسنن ابن ماجة (ج ١/٤٩٥) كتاب الجنائز - باب ماجاء في إدخال الميت القبر ح ١٥٥١ ، وسنن البيهقي (ج ٤/٥٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣/٤٢١) .

(٢) القتره : العبرة (لسان العرب : ج ٥/٣٥٢٦) .

(٣) طبقات ابن سعد (ج ٣/٤٣١) .

(٤) كنز العمال (ج ١٣/٤١٢) وقال المصنف : رواه أبو نعيم في المعرفة ، وسنده صحيح .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٧٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣/٤٣٢) .

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده (ج ٦/٥٥) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٣/٤٦) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٧) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤/٢٠) .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ٣/٤٣٢) .

(٩) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٩/٣٠٧٩) وقال : رواه الطبراني ، وسهل أبو حريز ضعيف .

وَسُوْدُودًا وَمَجْدًا وَفَارِسًا مَعْدًا
سُدَّ بِهِ مَسَدًا يَهْدُهُ هَامًا قَدًا

فقال رسول الله ﷺ لها : « لا تزيدني على هذا ، وكان والله ما علمت حازماً في أمر الله ، قوياً في أمر الله » ، وقال أيضاً :
« كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ » (١) .

ما نزل من القرآن في أمر الخندق وبنى قريظة :

وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَمْرِ الْخَنْدَقِ وَبِنَى قَرِيظَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقَصَّةَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، ذَكَرَ فِيهَا مَا نَزَلَ مِنَ الْبَلَاءِ وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَكِفَايَتِهِ إِيَّاهُمْ حِينَ فَرَّجَ اللهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ بَعْدَ مَقَالَةٍ مِنْ قَالٍ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ... ﴾ إِلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَفْتَلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ، وَأُورِثْتُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٢) .

وفد أشجع :

وقدمت أشجع على رسول الله ﷺ عام الخندق ، وهم مائة ، على رأسهم مسعود بن رَحِيْلَةَ ، فنزلوا شُجْبَ سَلْعٍ ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وأمرهم بأحمال التمر ، فقالوا : يا محمد ! لانعم أحداً من قومنا أقرب داراً منك منا ، ولا أقل عدداً ، وقد ضيقنا بحربك وحرب قومك ، فجيئنا نوادعك ، فوادعهم ، وكتب لهم رسول الله ﷺ بذلك كتاباً (٣) .

ثم أسلموا بعد ذلك وبايعوا رسول الله ﷺ ، فعن عوف بن مالك الأشجعي قال : كنا عند النبي ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة ، فقال : « ألا تبايعون رسول الله ؟ » فبسطنا أيدينا ، فقال قائل : يا رسول الله ! إنا قد بايعناك فعلام نبايعك ؟ فقال : « أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتقيموا الصلوات الخمس ، وتسمعوا وتطيعوا » وأسر كلمة خفية : « ولا تسألوا الناس شيئاً » ، قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً يناوله إياه (٤) .

☆ ☆ ☆

- (١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/٣) ، وجمع الزوائد (ج ١٥/٣) .
- (٢) الأحزاب : ٩ - ٢٧ ، وانظر سيرة ابن هشام (ج ٢٦٥/٣) .
- (٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٧٤/١ ، ٣٠٦) .
- (٤) سنن ابن ماجه (ج ٩٥٧/٢) كتاب الجهاد - باب البيعة ح ٢٨٦٧ .

السنة السادسة للهجرة

لما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقریظة وكسرت شوكة قريش أمن المسلمون وهذا وضع المدينة ، فأخذ رسول الله ﷺ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب الذين كان يبلغه عنهم عزمهم على الإغارة على المدينة للسلب والنهب ، فكان ﷺ يذهب بنفسه أو يرسل السرايا المختلفة لرد الهجمات قبل أن تحصل ولتأديب أولئك الأعراب الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين غزوتي الخندق والحديبية) .

سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى القرطاء :

ففي الحرم من السنة السادسة للهجرة بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ، رضي الله عنه ، في ثلاثين راكباً إلى القرطاء ، وهم بطن من بني بكر واسمه عبید بن كلاب من قيس عيلان ، كانوا ينزلون البكرات بناحية ضريبة^(١) ، وبين ضريبة والمدينة سبع ليال ، وأمره أن يشن عليهم الغارة .

فخرج لعشر ليال خلون من الحرم ، فسار الليل وكمن النهار ، فلما أغار عليهم هرب سائرهم بعد أن قتل نفرأ منهم ، واستاق نعاماً وشاء ، ولم يعرض للظعن ، وانحدر إلى المدينة فقدمها ليلية بقيت من الحرم . فخمس رسول الله ﷺ ما جاء به وقسم ما بقي على أصحاب السرية ، فعدلوا الجزور بعشر من الغنم ، وكانت النعم مائة وخمسين بعيراً ، والغنم ثلاثة آلاف شاة^(٢) .

وقيل : أسر في هذه السرية ثمانية بن أثال سيد بني حنيفة^(٣) .

غزوة بني ليحيان :

وسببها أن رسول الله ﷺ وجد على خبيث بن عدي وأصحابه وجداً شديداً ، وهم الذين كانت بنو ليحيان قد غدرت بهم بالرّجيع في السنة الرابعة للهجرة ، ولكن لما كانت ديارهم - وهي بناحية عسفان - متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة ، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر قريش ، فلما انهزمت الأحزاب واستكانت قريش رأى أن الوقت قد حان لغزومهم ، فخرج إليهم في شهر ربيع الأول ، أو في جهاذي الأولى سنة ست من الهجرة ، في مائتي رجل ، ومعهم عشرون فرساً ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، رضي الله عنه ، وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غزوة ، فسلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام ، ثم على مخيض ، ثم على البتراء ، ثم عدل ذات اليسار فخرج على بين ، ثم على صخيرات اليمام ، ثم استقام به

(١) ضريبة : قرية لبني كلاب على طريق البصرة وهي إلى مكة أقرب . وقد تقدم .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧٨/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٤٤/٢) .

(٣) انظر : عيون الأثر (ج ٧٦/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ١٧٤/٣) . وذهب ابن كثير في البداية والنهاية (ج ١٤٦/٤) إلى أن أسر ثمانية كان بعد خيبر فقال : « في سياق ابن إسحاق عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أنه شهد ذلك ، وهو إنما هاجر بعد خيبر » . وما يرجح ما ذهب إليه ابن كثير من أن أسر ثمانية لم يقع في تلك السرية أنه وردت الإشارة إليها في سيرة ابن هشام في موضع ، ثم سبقت قصة أسر ثمانية في موضع آخر بعده ، مما يدل أن الحادثين منفصلتان عند ابن إسحاق ، وكذا لم يرد عند ابن سعد أن أسر ثمانية كان في تلك السرية . وقد أرجأنا ذكر قصة أسره إلى ما بعد خيبر ، وأوردناها مستقلة إذا لم يتبين لنا السرية التي أسرها .

الطريق على الحجة من طريق مكة فأخذ السير سريعاً حتى نزل على وادي غران بين أمج وعسفان ، وهي منازل بني لحيان ، إلى بلد يقال له ساية حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم .

وسمعت به بنو لحيان فهربوا وتمتعوا في رؤوس الجبال فلم يقدر ﷺ منهم على أحد ، فأقام بأرضهم يوماً أو يومين ، وبعث السرايا في كل ناحية فلم يقدروا على أحد .

فقال رسول الله ﷺ حين أخطأه من غزتهم ما أراد : « لو أننا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أننا قد جئنا مكة » ، فخرج بأصحابه حتى نزل عسفان ، فبعث أبا بكر ، رضي الله عنه ، في عشرة فوارس إلى كراع الغميم^(١) لتسبع به قريش فيذعروهم ، فأتوا الغميم ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً .

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة وهو يقول : « آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعتاء السفري^(٢) وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال » .

وكانت غيبته عليه الصلاة والسلام أربع عشرة ليلة^(٣) . وقد روى البيهقي في دلائله أن رسول الله ﷺ صلى في هذه الغزوة بعسفان صلاة الخوف^(٤) ، والمشهور أن ذلك كان زمن الحديبية ، فالله أعلم .

سرية عكاشة بن محصن رضي الله عنه إلى الغمر :

وفي شهر ربيع الأول سنة ست للهجرة وجّه رسول الله ﷺ عكاشة بن محصن الأسدي ، رضي الله عنه ، إلى الغمر ، غمر مزروق ، وهو ماء لبني أسد على ليلتين من قيده^(٥) ، في أربعين رجلاً ، فخرج سريعاً يعيد السير ، ونذر به^(٦) القوم فهربوا ، فنزل على بلادهم فوجدها خلواً^(٧) ، فبعث شجاع بن وهب الأسدي طليعة ، فرأى أثر النعم ، فقصدتها المسلمون ، فأصابوا ريبة^(٨) لهم فأمنوه فدلهم على نعم لبني عم له ، فأغاروا عليها ، فاستاقوا مائتي بعير وأطلقوا الرجل ، وحدروا الإبل إلى المدينة ، وقدموا على رسول الله ﷺ ولم يلقوا كيداً .

وقيل : كان أمير هذه السرية ثابت بن أقرم ومعه عكاشة بن محصن ولقيط بن أعصم ، فأصيب بها ثابت بن أقرم^(٩) .

سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى ذي القصة :

وفي شهر ربيع الآخر سنة ست للهجرة بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ، رضي الله عنه ، إلى بني ثعلبة من عطفان وبني عوال من ثعلبة وهم بني القصة ، وبينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً طريق الريدة ، في عشرة نفر ، فوردوا عليهم ليلاً ، فأحرق به القوم ، وهم مائة رجل ، فتراموا ساعة من الليل ، ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوه ، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً ، فضرب كعبه فلم يتحرك ، وجردوه من الثياب ، ومرّ بمحمد بن مسلمة رجل من المسلمين فحملة حتى ورد به المدينة^(١٠) .

(١) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة ، وهو وادٍ أمام عسفان بثانية أميال (معجم البلدان : ج ٢٢٧٧) .

(٢) وعتاء السفري : شدته ومشقته . وأصله من الوعث ، وهو الرمل ، والمشي فيه يشتد على صاحبه ويشق (النهاية : ج ٢٠٦٥) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢١٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧٨٢ - ٧٩) .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٦٥/٣) .

(٥) قيده : بكيدة في نصف طريق مكة من الكوفة ، بينها وبين وادي القري سبب ليال (معجم البلدان : ج ٤٠٨٦) .

(٦) نذر به : علم وأحسن بمكانه (النهاية : ج ٣٧٥) .

(٧) يحال : حياً خلواً إذا غاب الرجال وأقام النساء ، وقد تقدم شرحها .

(٨) الريبة : هو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه (النهاية : ج ١٧٩٢) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٤/٢) ، وعيون الأثر (ج ١٠٤/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٢١٠/٦) .

(١٠) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٨٥/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٥٤/٢) .

سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى ذي القصة :

وفي شهر ربيع الآخر أيضاً سنة ست للهجرة بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ، رضي الله عنه ، إلى ذي القصة على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة ، في أربعين رجلاً من المسلمين حين صلوا المغرب ، فساروا إليهم مشاة حتى وافوا ذا القصة مع عمّاية الصبح^(١) ، فأغاروا عليهم ، فأعجزهم هرباً في الجبال ، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم فتركوه ، وغنوا نعمةً من نعمهم فاستاقوه ورثةً من متاعهم ، وقدموا بذلك المدينة ، فخمسه رسول الله ﷺ وقسم ما بقي عليهم .

وقد قيل : إن سبب بعثه ﷺ أبا عبيدة إلى ذي القصة هو ما بلغه من أن بني مُحارب بن خَصَفَةَ ، وَثَعْلَبَةَ وَأَمَّاراً - وهما من عَطْفَانَ - أجمعوا أن يُغيروا على سُرْح المدينة وهو يرمى بهيئاً^(٢) . فلعل النبي ﷺ بعث أبا عبيدة مرتين إلى ذي القصة ، أو أن يكون البعث مرة واحدة ولكن له سببان : الأخذ بثأر أصحاب محمد بن مسلمة المقتولين ، ودفع من أراد الإغارة على سُرْح المدينة^(٣) .

سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني سُلَيْم بالجُموم :

وفي الشهر نفسه من سنة ست أيضاً بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، إلى بني سُلَيْم فسار حتى ورد الجُموم ناحية بطن نخل عن يسارها ، وبطن نخل من المدينة على أربعة بُرْد^(٤) ، فأصابوا عليه امرأة من مَزِينَةَ يقال لها حَلِيمَةَ ، فدلّتهم على مَحَلَّة^(٥) من محالّ بني سُلَيْم ، فأصابوا في تلك المَحَلَّة نَعْمًا وشاء وأسرى ، فكان فيهم زوج حَلِيمَةَ الْمَزِينَةَ ، فلما قفل^(٦) زيد بن حارثة بما أصاب وهب رسول الله ﷺ للمَزِينَةَ نفسها وزوجها^(٧) .

سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى العيص^(٨) :

وسببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام بقيادة أبي العاص بن الربيع ، فبعث زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، في سبعين راكباً ليتعرّض لها ، وذلك في جَدَادَى الأولى سنة ست للهجرة ، فأدركوها وما فيها ، وأخذوا يومئذ فضةً كثيرةً لصفوان بن أمية ، وأسروا ناساً من كان في العير ، منهم أبو العاص بن الربيع فقيل له : هل لك أن تسلّم وتأخذ هذه الأموال ، فإنها أموال المشركين ؟ فقال أبو العاص : بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي . ويروى أنهم أصابوا ما في العير وأعجزهم أبو العاص هارباً .

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين تجارةً ومالاً وأمانة ، وهو زوج زَيْنَب بنت رسول الله ﷺ ، وأمّه هالة بنت خُوَيْلِدٍ أخت خديجة رضي الله عنها . فاتى أبو العاص زينب ، رضي الله عنها ، تحت الليل - وكانت هاجرت قبله وتركته على شركه^(٩) - فاستجار بها ، فأجارت^(١٠) ، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ ردّ أموال العير عليه ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح فكبر وكبر الناس صرخت زينب ، رضي الله عنها ، من صُفَّة^(١١) النساء : أيها الناس ! إنني قد أجزت أبا العاص بن الربيع ، فلما سلّم

(١) عَمَّايَةَ الصُّبْحِ : ظَلَمْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَتَبَّيَّنَةَ ، أو بَقِيَّةَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ (لسان العرب : ج ٣١١٧/٤) .

(٢) هَيْئًا : موضِعٌ على سبعة أميال من المدينة (طبقات ابن سعد : ج ٨٦٢) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٨٦٢) ، وعيون الأثر (ج ١٠٥/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٥٥/٢) .

(٤) الْبُرْدُ : جَمْعُ بَرِيدٍ ، وَالْبَرِيدُ : قَرْسَخَان (لسان العرب : ج ٢٥٠/٨) .

(٥) الْمَحَلَّةُ : مَنْزِلُ الْقَوْمِ (الوسيط : ج ١٩٢/٨) .

(٦) قَفَلَ مِنَ السَّفَرِ : رَجَعَ (الوسيط : ج ٧٥٨/٢) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٨٦٢) .

(٨) الْعَيْصُ : موضِعٌ ، بينه وبين المدينة أربع ليالٍ ، وبينه وبين ذي المُرْوَةِ ليلةٌ وقد تقدّم أنه موضع في بلاد بني سُلَيْم . انظر : (طبقات ابن سعد : ج ٨٧/٢) .

(٩) تقدّم خبر هجرة زينب ، رضي الله عنها ، إلى النبي ﷺ بإذن زوجها في أحداث غزوة بدر الكبرى .

(١٠) الْجَوَارُ : الْمَهْدُ ، وَأَجَارَتْ : حَمَاهُ وَأَقْدَمَهُ (الوسيط : ج ١٤٦/١) .

(١١) الصُّفَّةُ : الْمَوْضِعُ الْمَظْلَلُ . انظر : (لسان العرب : ج ٢٤٦٣/٤) .

رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ! هل سمعتم ما سمعتُ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أمّا والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده ما علمتُ بشيءٍ من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم ، إنّه يجيزُ على المسلمين أذناهم » . ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته ، فقالت له : إن أبا العاص بن الربيع إن قَرَب فابن عمّ وإن بَعُد فأبو ولد وإني قد أجزته ، فأجاز رسول الله ﷺ جوارها ، وسألته أن يردّ عليه ما أخذ منه فقبل وقال لها : « أي بُنيّة ! أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له » .

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : « إن هذا الرجل منا حيثُ قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسبنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نجب ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحقّ به » ، فقالوا يارسول الله ! بل نردّه عليه . فردّوه عليه حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ويأتي بالشنّة^(١) والإداوة^(٢) ، حتى العقال ، حتى ردّوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً .

ثم ذهب أبو العاص إلى مكة فأدّى إلى كل ذي مال من قريش ماله ومن كان أضح^(٣) معه ، ثم قال : يامعشر قريش ! هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفيّاً كريماً ، قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعي من الإسلام عنده إلا تخوّف أن تطنّوا أي إنما أردت أن أكل أموالكم ، فلما أذاها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

ثم خرج إلى النبي ﷺ مهاجراً في المحرم سنة سبع من الهجرة ، فردّ عليه رسول الله ﷺ زينب ، رضي الله عنها ، على النكاح الأول ولم يحدث شهادة ولا صداقاً^(٤) . وقيل : ردّها عليه بمهر جديد ونكاح جديد ، والقول الصحيح أنه ﷺ أقرّها على النكاح الأول كما قال الإمام أحمد^(٥) .

وذكر موسى بن عقبة كما رواه البيهقي عنه في الدلائل أن الذي أخذ غير أبي العاص أبو جندل وأبو بصير ومن معها من المسلمين لما أقاموا بالساحل يقطعون الطريق على تجار قريش في مدة الهدنة بعد الحديبية^(٦) .

وقد تقدم أن النبي ﷺ كان يثني على أبي العاص في مصاهرته خيراً ، وكان ﷺ يصلي وهو حامل أمّامة بنت زينب من أبي العاص رضي الله عنهم^(٧) .

توفيت زينب رضي الله عنها في أول سنة ثمان للهجرة ، وكانت أمّ سلمة وسودة بنت زمعة وأمّ أيمن وأمّ عطية رضي الله عنهن من حضر غسلها . قالت أمّ عطية : لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال لنا رسول الله ﷺ : « ابدأن بيمينها ومواضع الوضوء منها ، واغسلنها وترّاً ثلاثاً أو خمساً ، واجعلن في الحامسة كافرراً » - وفي رواية : « أو سبعم أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك » - « فإذا غسلتنها فأعلميني » . قالت : فنسلناها وجعلنا رأسها ثلاثة قرون ، ثم أعلمناه ، فأعطانا حقّوه^(٨) وقال : « أشعرنها إياه » .

فلما فرغ من جهازها خرج رسول الله ﷺ بجنازتها وخرج معه أصحابه ، فأروه كئيباً حزيناً فلم يكلموه ، فلما انتهوا إلى قبرها

(١) الشنّة : السقاء الخلق . انظر (النهاية : ج ٥٠٦/٢) .

(٢) الإداوة : إناء صغير يحمل فيه الماء ، وقد تقدّم .

(٣) أبضعة البضاعة : أعطاه إياها ، والبضاعة : طائفة من مالك تبعثها للتجارة (لسان العرب : ج ٢٩٧/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٠٢/٢ ، ٣٠٤) ، والمستدرک (ج ٢٣٦/٣) و (ج ٤٥/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٧/٢) و (ج ٢٢/٨) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٩٥/٩) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٦١/١) .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٠٧/٢) ، وسنن الدار قطني (ج ٢٥٢/٣) .

(٦) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٧٤/٤) وسيأتي خبر أبي بصير وأبي جندل بعد صلح الحديبية .

(٧) انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٥٨/٢) .

(٨) الحقو : الإزاز (الوسيط : ج ١٨٨/١) .

وفرعوا من لحدّه ، نزل رسول الله ﷺ فيه ، فخرج ملتعب اللون قد سُري عنه ، فسألوه عن ذلك فقال : « إِنَّهَا كَانَتْ امْرَأَةً مِسْقَامَةً (١) ، فَذَكَرْتُ شِدَّةَ الْمَوْتِ وَصَمَّةَ الْقَبْرِ فَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهَا ، فَفَعَلَ » (٢) .

سريّة زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى الطّرف (٣) :

وفي جِادى الآخرة سنة ست للهجرة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، إلى الطّرف وهو ماء قريب من المَرَضِ دون النّخيل على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة ، وقيل : هو بطريق العراق ، فخرج إلى بني نعلبة في خمسة عشر رجلاً ، فهربت الأعراب وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم وأن هؤلاء مقدّمة ، فأصاب من نَعَمهم عشرين بغيراً ، ورجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، وغاب أربع ليال ، وكان شعارهم أميت أميت (٤) .

سريّة زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القرى (٥) :

وفي رجب سنة ست للهجرة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه ، إلى وادي القرى ، فلقى بني قزارة ، فأصيب بها ناس من أصحابه وارثت (٦) زيد من بين القتلى (٧) .

سريّة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل :

وفي شعبان سنة ست للهجرة دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، فقال له : « تَجَهَّرْ فَإِنِّي بِاعْتِكَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ يَوْمِكَ هَذَا ، أَوْ مِنْ الْغَدِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » ، فأصبح عبد الرحمن فعدا إلى النبي ﷺ ، فأقعدته بين يديه وعممه بيده (٨) .

روي عن عطاء بن أبي رباح قال : سمعت رجلاً من أهل البصرة يسأل عبد الله بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنها ، عن إرسال العمامة من خلف الرجل إذا اعتم ، قال : فقال عبد الله : سأخبرك إن شاء الله عن ذلك بعلم . كنت عاشر رهط من أصحاب رسول الله ﷺ في مسجده : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليان ، وأبو سعيد الخدري ، رضي الله عنهم ، وأنا مع رسول الله ﷺ إذ أقبل فتى من الأنصار فسلم على رسول الله ﷺ ثم جلس ، فقال : يا رسول الله ! صلى الله عليك ، أيّ المؤمنين أفضل ؟ فقال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً » ، قال : فأيّ المؤمنين أكيس (٩) ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَحْسَنُهُمْ اسْتِعْدَادًا لِمَا قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ بِهِ ، أَوْلَيْكَ الْأَكْيَاسُ » ، ثم سكت الفتى ، وأقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ! خَمْسُ خِصَالٍ إِذَا نَزَلَنَ بِكُمْ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُذَرِكُوهُنَّ ؛ إِنَّهُ لَمْ تَظْهَرَ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمَكِّيَّاتِ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسَّيْنِ وَشِدَّةِ الْمُؤَنَةِ وَجُورِ السُّلْطَانِ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا الزَّكَاةَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ فَلَوْلَا الْبَهَائِمُ مَا مَطَرُوا ، وَمَا تَقَضَّوْا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذَ بَعْضُ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا يَحْكُمُ أَيْمَنُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَتَجَبَّرُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْمِهِمْ نَيْبَهُمْ » .

(١) الْمِسْقَامُ : كالسقيم وهو الكثير السقم (لسان العرب : ج ٢٠٤٢/٣) .

(٢) انظر : صحيح مسلم (ج ٦٤٧/٢ - ٦٤٨) كتاب الجنائز . باب في غسل الميت ح ٢٩ - ح ٤٢ ، وللمستدرک (ج ٤٦/٤) ، وجمع الزوائد (ج ٤٧/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤/٨) .

(٣) وقيل : الطّرف بكسر الراء . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٥٨/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٠/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٧/٢) ، وعيون الأثر (ج ١٠٦/٢) .

(٥) وادي القرى : هو واد بين المدينة والشّام ، كثرت قراه ، ولذلك قيل له وادي القرى ، وأهله عرب ويهود . انظر : (معجم البلدان : ج ٢٧٥/٨) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٢٦٢/٤) .

(٦) الأريثات : أن يُحتمل الجريح من المعركة وهو ضعيف وقد أئختته الجراح . وقد تقدّم .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٠/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٧/٢) .

(٨) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٨٩/٢) ، وكنز العمال (ج ٥٩٢/١٠) .

(٩) أكيس : أغفل (لسان العرب : ج ٣٩٦٧/٥) .

ثم أمر عبد الرحمن بن عوف أن يتجهّر لسرية بعثه عليها ، فأصبح وقد اعتمَ بعمامة من كرايس (١) سوداء ، فأدناه رسول الله ﷺ منه ثم نقضها ، ثم عممه بها ، وأرسل من خلفه أربع أصابع ، أو نحواً من ذلك ، ثم قال : « هكذا يا ابنِ عوفٍ فاعتمَّ فإنه أحسن وأعرف » (٢) .

ثم عقد له رسول الله ﷺ اللواء بيده ، أو أمر بلالاً أن يدفعه إليه ، وقال : « خذهُ بِسْمِ اللَّهِ وَبَرَكَتِهِ » ، ثم حمد الله وصلى على نفسه وقال : « اغزِ بِسْمِ اللَّهِ ، وفي سبيلِ اللَّهِ ، فقاتِلْ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ! لا تَعْلُ ولا تُغْدِرُ ولا تُمَثِّلُ ، ولا تَقْتُلُ وليداً ، فهذا عهدُ اللَّهِ وسيرةُ نبيِّهِ فيكم » ، وأمره رسول الله ﷺ أن يسير إلى كلب بدؤمة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام وقال له : « إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم » .

فسار عبد الرحمن ، رضي الله عنه ، بأصحابه وكانوا سبعائة رجل ، حتى قدم دؤمة الجندل ، فكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أبوا أول ما قدم أن يعطوه إلا السيف ، فلما كان اليوم الثالث أسلم رأسهم وملكهم الأصمغ بن عمرو الكلبى ، وكان نصرانياً ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، فبعث عبد الرحمن رافع بن مكيث بشيراً إلى النبي ﷺ يخبره بما فتح الله عليه وكتب له بذلك . وتزوج عبد الرحمن ثابراً بنت الأصمغ وولد له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن (٣) .

سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى فدك (٤) :

وفي شعبان سنة ست للهجرة بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، في مائة رجل إلى بني سعد بن بكر ، أو إلى حيٍّ منهم يقال لهم بنو عبد الله بن سعد ، وذلك لما بلغه ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر ، فخرج علي ، رضي الله عنه ، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى المصح ، وهو ماء بين خيبر وفدك ، وبين فدك والمدينة ست ليال ، فأصابوا عينا لهم ، فقالوا : ما أنت ؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد ؟ قال : لا أعلم لي به ، فشدوا عليه فأقر أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر يعرض على يهودها نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويقدمون عليهم ، فقالوا له : فأين القوم ؟ قال : تركتهم وقد نجح منهم مائتا رجل ورأسهم وبر بن علي ، قالوا : فسير بنا حتى تدلنا ، قال : على أن تؤمنوني ، فأمنوه ، فدلهم ، فأغاروا عليهم ، فأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاة ، وهربت بنو سعد بالظعن ، فغزل علي ، رضي الله عنه ، صفي النبي ﷺ لقوقاً (٥) تدعى الحفصة ، ثم عزل الخمس ، وقسم سائر الغنائم على أصحابه ، وقدم المدينة ولم يلق كيداً (٦) .

سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القرى :

وكان سببها كما ذكر ابن سعد أن زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، خرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ ، فلما كان دون وادي القرى لقيه ناس من قزارة من بني بدر ، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم ، وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره .

وأما ابن إسحاق فذكر في سببها أن زيدا لما لقي بني قزارة بوادي القرى في سريره التي قبل هذه وأصيب ناس من أصحابه وارثت هو من بين القتلى حلف أن لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو بني قزارة (٧) .

(١) الكرايس : جمع كرايس ، وهو ثوبٌ غليظٌ من القطن (الوسيط : ج ٧٨٧/٢) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٣٠٧/٤) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٠٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٩/٢) و (ج ٢٤٥/٤) ، وسنن البيهقي (ج ٣٦٢/٦) ، وكثر العمال (ج ٥٩٢/١٠) .

(٤) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، وكانت مستقلة بشؤونها ، وأهلها من اليهود ، وبها قوم من بني سعد بن بكر .

انظر : معجم البلدان (ج ٢٤٢/٦) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٢٦٤/٤) .

(٥) الناقة اللقوح : هي الناقة الغريبة اللبن . انظر : (النهاية : ج ٢٦٢/٤) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٩/٢) ، ومغازي الواقدي (ج ٥٦٢/٢) .

(٧) يمكن الجمع بين القولين بتعدد السبب بأن يكون لما برىء ذهب للتجارة فنهوه فرجع وأخبر النبي ﷺ .

فلما استَبَلَّ^(١) زيد بعثه رسول الله ﷺ إلى بني فزارة في جيش ، في شهر رمضان سنة ست للهجرة ، فكمنوا النهار وساروا الليل ، ثم صَبَّحهم زيد وأصحابه فكَبَرُوا وأحاطوا بالحاضر^(٢) ، فقتلهم وأصاب فيهم ، وقتل قيس بن المسحَر اليغمري مَسْعَدَةَ بن حَكَمَةَ ، وأسرت أم قُرَظَةَ فاطمة بنت ربيعة بن بدر ، كانت عجوزاً كبيرة عند مالك بن حَذِيفَةَ بن بَدْر ، وبنت لها ، وعبدالله بن مَسْعَدَةَ ، فأمر زيد بن حارثة قيس بن المسحَر أن يقتل أم قُرَظَةَ ، فقتلها قتلاً عنيفاً ؛ ربط بين رجلها حبلاً ثم ربطها بين بعيرين ثم زجرها فذهبا فقطعها^(٣) ، ثم قدموا على رسول الله ﷺ المدينة بابتنة أم قُرَظَةَ وبابن مَسْعَدَةَ ، وكانت بنت أم قُرَظَةَ لسَلَمَةَ بن عمرو بن الأَكْوَع ، كان هو الذي أصابها ، وكانت في بيت شرف من قومها ، كانت العرب تقول : لو كنت أعز من أم قُرَظَةَ ما زدت^(٤) ، فسألها رسول الله ﷺ سَلَمَةَ ، فوهبها له ، فأهداها لخاله حَزَن بن أبي وَهَب ، فولدت له عبد الرحمن بن حَزَن^(٥) .

وقد ذكر بعضهم أن زيدا إنما قتل أم قُرَظَةَ كذلك لسببها رسول الله ﷺ ، وقيل لأنها جهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها وقالت لهم : اقدموا المدينة فاقتلوا محمداً ، فقال النبي ﷺ : « اللهم ! أتكلمها بولدها » ، وبعث إليهم زيد بن حارثة فقتلهم ، وبعث بدُرْعَمَا^(٦) إلى رسول الله ﷺ فنصبه بين رُحَيْن ، وأقبل زيد حتى قدم المدينة ، فأتى النبي ﷺ ففرع بابه ، فقام إليه ﷺ عُريانياً يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله ، فأخبره بما ظفَّره الله به^(٧) .

ويقال : إن أمير هذه السرية أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ففي صحيح مسلم عن سَلَمَةَ بن الأَكْوَع قال : غزونا فزارة ، وعلينا أبو بكر أمره رسول الله ﷺ علينا ، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة ، أمرنا أبو بكر فعرَّسنا^(٨) ، ثم شنَّ الغارة ، فورد الماء ، فقتل من قتل عليه ، وسي ، وأنظر إلى عُنُق من الناس^(٩) ، وفيهم الذراري ، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل ، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا فجنث بهم أسوقهم ، وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قَشَع^(١٠) من آدم - قال : القشع : النطع - معها ابنة لها من أحسن العرب ، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر ، فنقلني أبو بكر ابنتها ، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً ، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق ، فقال : « يا سَلَمَةَ ! هب لي المرأة » ، فقلت : يا رسول الله ! والله لقد أعجبتني ، وما كشفت لها ثوباً ، ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق فقال لي : « يا سَلَمَةَ ! هب لي المرأة لله أبوك ! » فقلت : هي لك يا رسول الله ! فوالله ما كشفت لها ثوباً ، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة^(١١) .

وفي سنن أبي داود عن سَلَمَةَ قال : أمر رسول الله ﷺ علينا أبا بكر ، رضي الله عنه ، فغزونا ناساً من المشركين ، فبيئناهم^(١٢)

(١) استَبَلَّ : تَرَى (الوسيط : ج ٧٠/٨) .

(٢) الحاضر : الحي . وقد تقدّم .

(٣) روى خبر قتل أم قُرَظَةَ بهذه الصورة الشنعاء الواقدي وابن سعد ، ولم يذكره ابن هشام ولا أحد من أصحاب السير أو السنن ، فعمل الخبر ضعيف ، لأنه لا يتصور أن أصحاب رسول الله ﷺ يمتل بامرأة ويقتلها هذا القتل الشنيع ، إضافة إلى أن رسول الله ﷺ نهى عن المثلة ، وقد مضت وصيته لعبد الرحمن بن عوف حين أرسله إلى دومة الجندل وفيها نهب عن التمثيل ، وليس بين سرية عبد الرحمن وسرية زيد غير شهر واحد .

(٤) قال ابن سيّد الناس في عيون الأثر (ج ١١٠/٢) : « وإنما قالوا : أعز من أم قُرَظَةَ ، لأنها كان يُعلّق في بيتها خمسون سيفاً كلهم لها ذو محرم » .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٠/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٠/٢) . وسيأتي أن مَسْعَدَةَ بن حَكَمَةَ قُتِل في غزوة ذي قرد .

(٦) الدرغ : قَمِيصُ الْمَرْأَةِ (الوسيط : ج ٢٨٠/١) .

(٧) انظر : عيون الأثر (ج ١١٠/٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٦٨٦/٢) ، وذكر صاحب السيرة الحلبية هذا الخبر في كتابه (ج ١٨٠/٣) ثم قال : قال بعضهم : إنه خبر منكر .

(٨) التَّعْرِيْسُ : نَزُولُ الْمُسَافِرِ آخِرَ اللَّيْلِ نَزْلَةً لِلنُّوْمِ وَالِاسْتِرَاحَةِ (النهاية : ج ٢٠٦/٣) .

(٩) عُنُقُ مِنَ النَّاسِ : أَي جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ (النهاية : ج ٢١٠/٣) .

(١٠) الْقَشَعُ : الْفَرْوُ الْحَلَقُ (النهاية : ج ٦٥/٤) .

(١١) صحيح مسلم (ج ١٣٧٥/٢) كتاب الجهاد والسير - باب التنفيل وفداء الأسير - ج ٤٦ .

(١٢) أَي أَصْبَنَاهُمْ كَيْلًا ، وَتَبَيَّنَتِ الْعَدُوُّ : هُوَ أَنْ يُقْصَدَ فِي اللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْلَمَ فَيُؤَخَذَ بَعْتَةً (النهاية : ج ١٧١/١) .

نقلهم ، وكان شعارنا تلك الليلة أميت أميت ، قال سلمة : فقتلت بيدي تلك الليلة سبعة أهل أبيات من المشركين^(١) .

أما ابن سعد فقد جعلها سريتين : الأولى في رمضان سنة ست وأميرها زيد كما تقدم ، والثانية في شعبان سنة سبع وأميرها أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(٢) ، لكن احتمال التعدد بعيد لكون المرأة الفزارية مذكورة في السريتين ، وإن كلاً لها بنت جميلة وأن سلمة بن الأكوع أسرها ، وأن رسول الله ﷺ أخذها منه ، فما في الصحيح أصح والله أعلم .

سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى مدين^(٣) :

ذكر أن رسول الله ﷺ بعث زيد بن حارثة نحو مدين ومعه صميرة مولى علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وأخ له ، فأصاب سيباً من أهل مينا ، وهي السواحل ، وفيها جماع^(٤) من الناس ، فبيعوا ، ففرق بينهم ، فخرج رسول الله ﷺ وهم يبيكون ، فقال : « مآلهم ؟ » فقيل : يا رسول الله ! فرق بينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تتبعوهم إلا جميعاً » أي الأمهات والأولاد^(٥) .

سرية عبد الله بن عتيك رضي الله عنه لقتل سلام بن أبي الحقيق^(٦) :

كان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق فيمن حزب الأحزاب على رسول الله ﷺ وأعانهم بالمؤنة والمال الكثير ، وكان يؤدي رسول الله ﷺ ويظاهر كعب بن الأشرف عليه ، فلما انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام بن أبي الحقيق . وكان كعب بن الأشرف قتل على أيدي رجال من الأوس ، فأرادت الخزرج أن لا يكون للأوس فضل عليهم عند رسول الله ﷺ فأسرعوا إلى هذا الاستئذان ، فأذن لهم^(٧) .

روي عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : وكان مما صنع الله به لرسوله ﷺ أن هذين الجيئين من الأنصار الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين^(٨) ؛ لاتصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غناء^(٩) إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ في الإسلام ، قال : فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك .

ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلاً علينا أبداً ، قال : فتذاكروا من رجل لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف ؟ فذكروا ابن أبي الحقيق ، وهو بخيبر ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله ، فأذن لهم^(١٠) . (انظر : مصور مجموعة الغزوات والسرايا ضد اليهود) .

فخرج إليه خمسة رجال من الخزرج : عبد الله بن عتيك ، ومسعود بن سنان ، وأبو قتادة الحارث بن ربيعة ، وخزاعي بن أسود حليف لهم من أسلم ، وعبد الله بن أنيس حليف لهم من جهينة . وذكر بعضهم فيهم : أسعد بن حرام بدل خزاعي بن أسود ، وأمر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك ، ونهأهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة ، فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا حصن أبي رافع ، فلما دنوا

(١) سنن أبي داود (ج ١٠٠/٣) كتاب الجهاد - باب في البيات ح ٢٦٢٨ .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١١٧/٢) .

(٣) مدين : على بحر القلزم - أي البحر الأحمر - محاذية لتبوك على نحو من سبّ مراحل (معجم البلدان : ج ٤١٨٧) .

(٤) الجماع : أخلط من الناس من قبائل شتى (الوسيط : ج ١٢٦/١) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٢/٤) .

(٦) ويقال : اسمه عبد الله بن أبي الحقيق كما في صحيح البخاري (ج ١١٧/٥) كتاب للغازي - باب قتل أبي رافع .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٢/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١١٧/٥) كتاب للغازي - باب قتل أبي رافع ، وطبقات ابن سعد (ج ٩١/٢) ، وتاريخ

الطبري (ج ٤٩٣/٢) .

(٨) أي لا يفعل أحدهما معة شيئاً إلا فعل الآخر معه شيئاً مثله (النهاية : ج ٦١/٣) .

(٩) الغناء : النفع والكفاية (الوسيط : ج ٦٧١/٢) .

(١٠) سيرة ابن هشام (ج ٣١٤/٣) .

منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنّع بثوبه كأنه يقضي حاجة ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله ! إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب ، قال عبد الله : فدخلت فكنت ، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد^(١) ، قال : فقامت إلى الأقاليد^(٢) فأخذتها ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان في علائي^(٣) له ، فلما ذهب عنه أهل سره صعدت إليه ، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت عليّ من داخل ، قلت : إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إليّ حتى أقتله ، فانتهمت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت ، فقلت : يا أبا رافع ! قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة بالسيف وأنا دهش ، فما أغنت شيئاً ، وصاح ، فخرجت من البيت فكثت غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأمك الويل ، إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف ، قال عبد الله : فضربته ضربة أثخنته^(٤) ولم أقتله ، ثم وضعت طبة^(٥) السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أني قتلتها ، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة له ، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقى ، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب ، فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته ؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقت إلى أصحابي فقلت : النجاء ، فقد قتل الله أبا رافع ، فانتهمت إلى النبي ﷺ فحدثته ، فقال : « ابسط رجلك » ، فبسطت رجلي فمسحها ، فكأنها لم أشكها قط^(٦) . وكان مقتله في شهر رمضان سنة ست للهجرة كما ذكر ابن سعد^(٧) .

وجاء في روايات أخرى أنهم لما ذهبوا إلى خيبر كنوا حتى إذا هدأت الرجل جاؤوا إلى دار ابن أبي الحقيق ليلاً ، فلم يدعوا بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهله ، وكان أبو رافع في عليّة له إليها عجلة^(٨) فأسندوا^(٩) فيها حتى قاموا على بابه ، فاستأذنوا عليه ، فخرجت امرأته فقالت : من أنتم ؟ قالوا : ناس من العرب نلتس الميرة^(١٠) ، قالت : ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه - وقيل : إنهم قدّموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن^(١١) باليهودية ، فاستفتح وقال : جئت أبا رافع بهديّة ، ففتحت له امرأته ، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح ، فأشاروا إليها بالسيف فسكتت ، قال عبد الله : وجعل الرجل منّا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نبي رسول الله ﷺ فيكفّ يده ، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل - فلما دخلوا عليه ما عرفوه إلا ببياضه كأنه قبطيّة ، فعلموه بأسياهم ، ثم تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه ، وهو يقول : قطني قطني ؛ أي : حسبي حسبي ، ثم خرجوا ، وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سيء البصر فوقع من الدرجة فوثقت يده^(١٢) وثناً شديداً ، ويقال رجله ، فحملوه حتى أتوا به منهر^(١٣) من عيونهم فاختموا فيه . وأوقد اليهود النيران واشتدوا في كل وجه يطلبونهم ، حتى إذا يسوا رجعوا إلى صاحبهم أبي رافع فاكتفوه وهو يقضي^(١٤) بينهم ، فقالوا : كيف لنا بأن نعلم

- (١) الوتد : ما رز في الحائط أو الأرض من الخشب ، وثبت (لسان العرب : ج ٤٧٥٧/٦) .
- (٢) الأقاليد : جمع إقليد ، وهو المفتاح (الوسيط : ج ٧٦٠/٢) .
- (٣) العلالي : جمع عليّة ، وهي العروة في الطابق الثاني من الدار وما فوقه . وقد تقدم .
- (٤) أثخنته الجراحة : أوهنته (لسان العرب : ج ٤٧٢/١) .
- (٥) طبة السيف : حدة (الوسيط : ج ٥٨١/٢) .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٤/٢) ، وعمون الأثر (ج ٨١/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١١٧/٥) كتاب المغازي - باب قتل أبي رافع .
- (٧) قيل : كان مقتله في ذي الحجة سنة خمس أو سنة أربع للهجرة ، وقيل : في جادى الآخرة من سنة ثلاث . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٩١/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٤٩٢/٢ ، ٤٩٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٦٥/٢) .
- (٨) العجالة : مثل الدرّج ، وأصل العجل خشبة معترضة على البئر (النهاية : ج ١٨٦/٣) .
- (٩) أسند : رقيّ وضعه وقد تقدم .
- (١٠) الميرة : جلب الطعام ، وقد تقدم .
- (١١) يرطن : يتكلم (الوسيط : ج ٣٥٢/١) .
- (١٢) وثقت يده : أصابها وهن دون الخلع والكسر (النهاية : ج ١٠٥/٥) .
- (١٣) المنهر : خرّق في الحصن نافذ يدخل فيه الماء (النهاية : ج ٣٦٦/٤) .
- (١٤) يقال : قضى فلان : مات (الوسيط : ج ٧٤٩/٢) .

بأن عدو الله قد مات ؟ فقال رجل منهم : أنا أذهب فأنظر لكم ، فانطلق حتى دخل في الناس فوجد امرأته ورجال يهود حوله ، وفي يدها المصباح تنظر في وجهه وتحديثهم وتقول : أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسي وقلت : أتى ابن عتيك بهذه البلاد ؟ ثم أبلت عليه تنظر في وجهه ثم قالت : فاطم^(١) وإله يهود ، قال : فإسمعت كلمة كانت ألد إلى نفسي منها ، ثم جاء أصحابه فأخبرهم الخبر ، فاحتلوا عبد الله بن عتيك ، قال عبد الله بن أنيس : فكنا نسير الليل ونكن النهار ، فإذا كنا النهار أقعدنا ناطوراً ينظر لنا ، حتى إذا اقتربنا من المدينة وكنا بالبيداء كنت أنا ناطورهم ، فأشرت إليهم فخرجوا سراعاً ، ثم أدركتهم حتى بلغنا المدينة ، فقال لي أصحابي : هل رأيت شيئاً ؟ فقلت : لا ؛ ولكن رأيت ما أدرككم من العناء فأحببت أن يحملكم الفزع ، فقدموا على رسول الله ﷺ فقال : « أَفَلَحَتِ الْوَجُوهُ » ، فقالوا : أفلح وجهك يا رسول الله ، فأخبروه بقتل عدو الله ، واختلفوا عنده في قتله ، كلهم يدعيه ، فأخذ رسول الله ﷺ أسيافهم فنظر فيها ، فقال لسيف عبد الله بن أنيس . « هَذَا قَتْلَةٌ أَرَى فِيهِ أَثْرَ الطَّعَامِ »^(٢) .

سريّة عبد الله بن رَوَاحَةَ رضي الله عنه لقتل البُسَيْرِ بن رِزَام :

وكان سببها أنه لما قُتِلَ سَلَامٌ بن أَبِي الْحَقِيقِ أَمَرَت يهود عليهم يُسَيِّرُ ويقال أُسَيِّرُ ، فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ﷺ ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوجّه عبد الله بن رَوَاحَةَ ، رضي الله عنه ، في ثلاثة نفر ، في شهر رمضان سنة ست للهجرة ، سراً ، فسأل عن خبره وعِزَّتِهِ ، فأخبر بذلك ، فقدم على رسول الله ﷺ فأخبره ، فندب رسول الله ﷺ الناس ، فانتدب له ثلاثون رجلاً فيهم عبد الله بن أنيس ، وأمر عليهم عبد الله بن رَوَاحَةَ .

فخرجوا إلى خيبر وذلك في شهر شوال سنة ست ، فقدموا على أُسَيِّرِ فقالوا : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟ قال : نعم ، ولي منكم مثل ذلك ؟ فقالوا : نعم ، فقالوا : إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك ، فطمع في ذلك فخرج - وفي رواية : فلما قدموا عليه كلّموه وقرّبوا له وقالوا : إنك إن قدمت على رسول الله ﷺ استعملك وأكرمك ، فلم يزلوا به حتى خرج معهم - وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود ، فحمله عبد الله بن أنيس على بعيره حتى إذا كانوا بقرقرة ثيار^(٣) ندم أُسَيِّرُ على مسيره إلى رسول الله ﷺ ففطن له عبد الله بن أنيس وهو يريد السيف ، فدفع بعيره وقال له : غدراً أيّ عدو الله ! فعل ذلك مرتين ، قال عبد الله : فنزلت فسقت بالقوم حتى انفردي أُسَيِّرُ فضرته بالسيف فأندرت^(٤) عامّة فخذة وساقه ، وسقط أُسَيِّرُ عن بعيره ويده مخرش^(٥) من شَوْحَطِ^(٦) فضرب عبد الله فأمّه^(٧) ، ومال كل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على صاحبه من يهود فقتله ، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجله ، ولم يقتل من المسلمين أحد ، ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : « قَدْ نَجَاكُمْ اللَّهُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » ، ودعا عبد الله بن أنيس فتغل على شجته ، فلم تقيح ولم تؤذ^(٨) .

سريّة كُرْز بن جابر رضي الله عنه إلى العَرَنِيِّين :

وكانت في شوال سنة ست للهجرة ، وسببها أن نفرأ من عُكْلٍ وعُرَيْنَةَ ثمانية قدموا المدينة على رسول الله ﷺ ، فبايعوه على

(١) فاطم : مات (لسان العرب : ج ٣٥٠٢/٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٤/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩١/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ١٩٧/٦) .

(٣) قرقرة ثيار : موضع على ستة أميال من خيبر (معجم البلدان : ج ٥/٣) .

(٤) يقال : ضرب يده بالسيف فأندرتها : أي : أسقطها .

(٥) المخرش : عصا معوجة الرأس كالصولجان (الوسيط : ج ٢٢٥/١) .

(٦) الشَوْحَط : ضرب من شجر جبال السراة تتخذ منه القسي (الوسيط : ج ٤٧٧/١) .

(٧) أمّه : أصاب أم رأسه ، وأم الرأس : الدماغ (الوسيط : ج ٢٧/١) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٢/٢) .

الإسلام ، وقد وقع بالمدينة الموم وهو البرسام^(١) ، فاستوخموا المدينة^(٢) وسقمت أجسامهم وطجلوا^(٣) - وفي رواية : أنهم جاؤوا وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم - فقالوا : يا نبي الله ! إنا كنا أهل صرع ولم نكن أهل ريف ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « لو خرّجتم إلى لِقَاح^(٤) لنا فشرّبتم من ألبانها وأبوالها » ، وكانت اللقاح ترعى في ناحية الجماء^(٥) ، وقيل : بنى الجدر ناحية قباء على ستة أميال من المدينة ، فيها مولى لرسول الله ﷺ يدعى يساراً ، فخرجوا إليها ، فشرّبوا من ألبانها وأبوالها ، فلما صحّوا ، وانطوت بطونهم ، وسبّوا ، كفروا بعد إسلامهم واستاقوا اللقاح ، فأدركهم يسار فقاتلهم ، فقطعوا يده ورجله ، وغرزوا الشوك في لسانه وعينه حتى مات . وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فقال : « اللهم ! عَطَشُ مَنْ عَطَشَ آلَ مُحَمَّدٍ اللَّيْلَةَ » ، وبعث في آثارهم عشرين فارساً ، واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهري ، وأرسل معهم قائفاً^(٦) ودعا على العرتيين فقال : « اللهم ! أغمر عليهم الطريق واجعله عليهم أضيّق من مسك^(٧) جمل . فعسى الله عليهم السبيل ، فا ارتفع النهار حتى أدركهم فأحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، وكان رسول الله ﷺ بالغابة^(٨) ، فخرجوا بهم نحوه فلقوه بالزغابة بجمع السيول ، فأمرهم رسول الله ﷺ فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسر أعينهم - وفي لفظ : وسمل أعينهم^(٩) - فصلبوا هناك ، ثم نبذهم في الشمس حتى ماتوا على حالهم - وفي رواية : فأمر بسامير فأحميت فكحلهم بها ولم يحسمهم ؛ أي : لم يكو مواضع القطع بالنار فينحسم الدم بل تركه ينزف ، ثم ألقوا في الحرة يستسقون فما سقوا حتى ماتوا - وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك بهم جزاء وقصاصاً بما فعلوا ، فقد ارتدوا عن الإسلام ، وسرقوا ، وقتلوا راعي رسول الله ﷺ يساراً ومثلوا به وسملوا عينيه .

وكانت اللقاح خمس عشرة لفة غزاراً فردوها إلى المدينة إلا واحدة نحرها وكانت تدعى الحناء . وأنزل على رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّا جَزَاءَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ .. ﴾^(١٠)

فلم يسمل رسول الله ﷺ بعد ذلك عيناً ، وكان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة^(١١).

روي عن أبي الزناد أن رسول الله ﷺ لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار ، عاتبه الله تعالى في ذلك : فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَزَاءَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾ الآية^(١٢).

☆ ☆ ☆

- (١) البرسام : ذات الجنب ، وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة (الوسيط : ج ٤٨/١) ، وفي صحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٥٦/١) : هو نوع من اختلال العقل ، ويطلق على ورم الرأس والصدر . وهو معرب وأصل اللفظة سريانية .
- (٢) أي : استنقلوها ، ولم يوافق هواؤها أبدانهم (النهاية : ج ١٦٤/٥) .
- (٣) طحل : عظم طخاله ؛ والطخال : داء يصيب الطحال (الوسيط : ج ٥٥٨/٢) .
- (٤) اللقاح : جمع لفة ، وهي الناقة القرية العهد بالنتاج ، وناقاة لقوح إذا كانت غزيرة اللبن ، واللقاح : ذوات الألبان (النهاية : ج ٢٦٢/٤) .
- (٥) الجماء : جبل من المدينة على ثلاثة أميال من ناحية العقيق إلى الجرف (معجم البلدان : ج ١٢٢/٣) .
- (٦) الفائت : من يخس معرفة الأثر وتتبعه (الوسيط : ج ٧٧٢/٢) .
- (٧) المسك : الجلد (الوسيط : ج ٨٧٧/٢) .
- (٨) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال أهل المدينة (معجم البلدان : ج ٢٦٠/٦) .
- (٩) سمل عينة : كتبها : فقاها بشوك أو حديدة مخمأة . انظر : (لسان العرب : ج ٤٥٥٧/٦) .
- (١٠) المائة : ٢٣ .

- (١١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٨/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٦٤/٥) كتاب للغازي - باب قصة عكل وعرينة ، و (ج ٢٠٢/٨) كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة - باب لم يسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا ، و (ج ١٢/٩) كتاب الديات - باب القسامة ، وصحيح مسلم (ج ١٢٩٨/٣) كتاب القسامة - باب حكم المحاربين والمتردين ح ١٣ ، ح ١٤ ، و سنن النسائي (ج ١٨٧/٧) كتاب تحريم الدم - باب تأويل قول الله عز وجل ﴿ إِنَّا جَزَاءَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، وجمع الزوائد (ج ٢٩٤/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٢/٢) .
- (١٢) سنن أبي داود (ج ٥٣٥/٤) كتاب الحدود - باب ما جاء في الحاربة ح ٤٣٧ .

صَلْحُ الْحَدَيْبِيَّةِ (١)

وفي أواخر سنة ست للهجرة أخبر النبي ﷺ أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة ، وأنه أرى في منامه أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين مخلقين رؤوسهم ومقصرين ، فما إن سمعوا بذلك حتى أسرعوا وتهيؤوا للخروج معه ، وفرحوا وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك (٢) .

استنصار المسالمين ومسيرهم إلى مكة :

واستنفر رسول الله ﷺ العرب من البوادي ومن حوله من الأعراب ممن أسلم ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يتعرضوا له مجرب أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب .

واغتسل رسول الله ﷺ ولبس ثوبين وركب ناقته القصواء ، واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ، ويقال ابن أم مكتوم (٣) ، وخرج ﷺ منها يوم الاثنين هلال ذي القعدة سنة ست للهجرة ، وأخرج معه زوجته أم سلمة ، رضي الله عنها ، في ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، ولم يخرج معه بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف في القرب (٤) ، وساق معه الهدى سبعين بدنة (٥) فيها جل لأبي جهل في أنفه بزة (٦) من فضة يغيظ بذلك المشركين .

فلما أتى ﷺ ذا الحليفة صلى الظهر ، ثم دعا بالمهدي فجعله (٧) ، ثم أشعره (٨) في الشق الأيمن وقلده (٩) ، وأشعر أصحابه أيضاً وهنّ موجهات إلى القبلة ، وأحرم بالعمرة ولبي ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له . وبعث عيناً له من خزاعة هو بشر ويقال : بشر بن سفيان الكعبي يخبره عن قريش ، وفي رواية : أنه قدم عباد بن بشر أمامه طليعة في عشرين فارساً من خيل المسلمين وفيهم رجال من المهاجرين والأنصار .

وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إن قريشاً جمعوا لك جمعوا ، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلون وصادوك عن البيت ومانعوك من دخول مكة - وفي رواية أنه قال له : يا رسول الله ! هذه قريش قد سمعت

(١) الحديبية : هي بئر أو شجرة سُمي المكان بها ، وهي قرية ليست بكبيرة ، بعضها في الحِلِّ وبعضها في الحَرَمِ ، بينها وبين مكة مرخلة . انظر : معجم البلدان (ج ٢٣٤/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٧٩/٢) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٩٥/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٧٩/٢) .

(٣) ويحتمل أنه استخلف الاثنين : ابن أم مكتوم على الصلاة ، ونميلة على المصالح .

(٤) القرب : جمع قراب وهو غنم السيف (الوسيط : ج ٧٣٠/٢) .

(٥) البدنة : ناقة أو بقرة ، تُنَحَّرُ بمكة قرباناً ، وكانوا يُسَمُّونَهَا لذلك . والجمع : بُدْنٌ وِبُدْنٌ . (الوسيط : ج ٤٤/١) .

(٦) البزة : حلفة تُجْعَلُ في لحم الأنف ورُبَّمَا كانت من شعر (النهاية : ج ١٢٢/١) .

(٧) التجليل : أن تلبس الجل ، وجل الدابة : الذي تلبسه لئلا يتصان به (لسان العرب : ج ٦٦٤/١) .

(٨) أشعر البدنة : أعلمها ، وهو أن يشق جلدها أو يطعنهما في أسمئتهما في أحد الجانبين ببضع أو نحوه حتى يظهر الدَّمُ ويُعْرَفَ أنها هدي . وقد تقدم .

(٩) تقليد البدن : أن يجعل في عنقها شعار فيعلم به أنها هدي . وقد تقدم .

بسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل^(١) قد لبسوا جلود النور وقد نزلوا بندي طوى ، ويقال : يبلدح^(٢) ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في مائتي فارس فيهم عكرمة بن أبي جهل قد قدموم إلى كراع العميم - فقال رسول الله ﷺ : « يا وَيْحَ قَرِيْشِ !! لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ ، ماذا عَلَيْهِمْ لو خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ ، فَإِنَّهُمْ أَصَابُونِي كَمَا كَانَ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا ، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَأَفْرَيْنَ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ ، فَمَا تَطْنُ قَرِيْشٌ فَوَاللَّهِ لَا أزالُ أَجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفِرَ هَذِهِ السَّالِفَةُ^(٣) » .

واستشار النبي ﷺ أصحابه فقال : « أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَتَرُونَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذُرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوْنَا عَنِ النَّبِيِّ فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْأَتْرُكُنَا هُمْ مَحْرُوبِينَ^(٤) » - وفي رواية أنه قال : « أَتَرُونَ أَنْ نَمِيلَ إِلَى ذُرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعَانُوهُمْ » - أي الأحابيش - « فَصَيَّبَهُمْ ، فَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَوْتُورِينَ مَحْرُوبِينَ ، وَإِنْ يَجِيئُوا تَكُنْ عُنُقًا قَطَعَهَا اللَّهُ ، أَمْ تَرُونَ أَنْ نَوْمُ النَّبِيِّ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَا ؟ » - فقال أبو بكر رضي الله عنه : الله ورسوله أعلم ، يا نبي الله ! إنا جئنا معتمرين ولم نجيء نقاتل أحداً ، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : « امضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ »^(٥) .

محاولة خالد بن الوليد الإغارة على المسلمين وصلاة الخوف :

ولما كان رسول الله ﷺ بعسفان دنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى المسلمين ، وصف خيله بينهم وبين القبلة ، فأمر رسول الله ﷺ عباد بن بشر ، رضي الله عنه ، فتقدم في خيله فأقام بإزاء خالد ، وصف ﷺ أصحابه وحانت صلاة الظهر ، فصلّاها رسول الله ﷺ بهم أمام المشركين ، فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أنبائهم وأنفسهم - وهي العصر - فأجمعوا أمرهم فليلوا عليهم ميلاً واحدة ، فنزل جبريل ، عليه السلام ، بين الظهر والعصر بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾^(٦) الآية ، وحضرت العصر ، فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف على ما ذكره الله تعالى ، فلما جعل المسلمون يسجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر إلى المشركين ، قال خالد : لقد أطلع - أي النبي ﷺ - على ما في أنفسنا من الهم به^(٧) .

انحراف النبي ﷺ عن طريق المشركين ونزوله بالحدديبية :

ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « إِنَّ عَيَّسُونَ الْمُشْرِكِينَ الْآنَ بِمَرِّ الظُّهْرَانِ وَبِضَجْنَانَ ، فَأَيُّكُمْ يَعْرِفُ طَرِيقَ ذَاتِ الْحَنْظَلِ ؟ » ، أو قال : « مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقِ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا ؟ » ، فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله ، يقال

- (١) معهم العوذ المطافيل : أي الإبل مع أولادها ، والعوذ : الإبل التي وصعت أولادها حديثاً ، ويقال : أطفلت فهي مطفلة ومطفلة ، يريد أنهم جاؤوا بأجمعهم كبارهم وصغارهم (لسان العرب : ج ٢٦٨٢/٤) .
- (٢) بلدح : واد قبيل مكة من جهة المغرب (معجم البلدان : ج ٢٦٤/٢) .
- (٣) السالفة : صفحة العنق ، وهما سالفتان من جانبيه . وكنتي بأفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت . وقيل : أراة حتى يفارق بين رأسي وجسدي (النهاية : ج ٣٩٠/٢) .
- (٤) أي : مشكوبين منهوبين ، الحرب : نهب مال الإنسان وتركه لشيء له (النهاية : ج ٣٥٨/١) .
- (٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٥٠/٣ - ٣٥٦ ، ٢٩٦) ، وصحيح البخاري (ج ١٥٧/٥ ، ١٦١) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٢٥٧/١) و (ج ٢٢٨/٤) وطبقات ابن سعد (ج ٩٥/٢) .
- (٦) النساء : ١٠٢ .
- (٧) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٥٩/٤) ، وسنن الترمذي (ج ٢٤٢/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة النساء ح ٣٠٣٥ ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٥/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٦٦/٣) .

إنه عمرو بن عبد نهم أو ناجية بن جندب الأسلمي، فسلك بهم طريقاً وعرّاً أجزل^(١) بين شعاب، فلما خرجوا منه - وقد شق ذلك على المسلمين - وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، قال رسول الله ﷺ للناس: « قُولُوا نَسْتَعْفِرُ اللَّهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ »، فقالوا ذلك، فقال: « والله إنها للْحِطَّةُ التي عَرَضْتُ على بني إِسْرَائِيلَ فلم يَقُولُوهَا ». ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال: « اسْلُكُوا ذَاتَ الْيَمِينِ » بين ظهري الحِمَضِ، في طريق تُخْرِجُهُمْ على ثنية المِرَارِ مهبط الحَدِيثِيَّةِ من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأى خالد قَتْرَةَ الجيش^(٢) قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيراً لقريش^(٣).

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان في ثنية المَرَارِ؛ الثنية التي يهبط على قريش منها، بركت به راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ^(٤)، فألحَّتْ، فقالوا: حَلَّاتُ^(٥) القَصْوَاءِ، حَلَّاتُ القَصْوَاءِ، فقال النبي ﷺ: « مَا حَلَّاتُ القَصْوَاءِ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بَخْلَقِي، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفَيْلِ »، ثم قال: « والذي نفسي بيده لا يسألوني حِطَّةً^(٦) يُعْظَمُونَ فيها حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا ». وفي رواية: « فيها صِلَةٌ الرَّحْمِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا » - ثم زجرها فوثبت، فولى راجعاً، ثم قال للناس: « أنزلوا »، فقالوا: يارسول الله! ما بالوادي ماء نزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه ناجية بن جندب أو البراء بن عازب، رضي الله عنهم، فنزل به في قليب^(٧) من تلك القلب، ففرزه في جوفه فجاش بالرواء^(٨) حتى ضرب الناس عنه بَعَطُنَ^(٩). (انظر مصور غزوة الحديبية).

وفي رواية أنه ﷺ عدل عنهم حتى نزل بأقصى الحَدِيثِيَّةِ على ثَمَدَ^(١٠) قليل الماء يتبرّضه الناس تبرّضاً^(١١)، فلم يلبثه الناس حتى نَزَحَوْهُ^(١٢)، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش - وكان الحر شديداً - فاتترع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه^(١٣).

وروى البخاري بسنده عن البراء بن عازب، رضي الله عنه، قال: كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم مضى ودعا، ثم صبّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا^(١٤).

فلعل الأمرين قد وقعا معاً كما جاء في رواية عند البيهقي في الدلائل بسنده عن عروة أن النبي ﷺ دعا بدلو من ماء فتوضأ في

(١) الجَزَلُ: الحَشِينُ مِنَ الْأَرْضِ الْكَثِيرِ الْحِجَازَةِ (لسان العرب: ج ٦٠٢/١).

(٢) أي غَبَرَتَهُ.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٣٥٧/٣)، وصحيح البخاري (ج ٢٥٢/٣) كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وجمع الزوائد (ج ١٤٤/٦)، وطبقات ابن سعد (ج ٦٥/٢) و (ج ٣١٨/٤)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٥٢٧/٢).

(٤) حَلَّحَلٌ بِالْإِبِلِ: قَالَ لَهَا حَلْ حَلْ، وَحَلْ: زَجَرَ النَّاقَةَ إِذَا حَثَّيْتَهَا عَلَى السَّيْرِ (لسان العرب: ج ٩٧٧/٢).

(٥) حَلَّاتٌ: حَثَرَتْ (الوسيط: ج ٢٤٧/١).

(٦) الْحِطَّةُ: الْحَالُ وَالْأَمْرُ وَالْحَطْبُ (النهاية: ج ٤٨/٢).

(٧) الْقَلِيبُ: الْبَيْتُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ.

(٨) جَاشَ الْمَاءُ: تَدَفَّقَ وَجَرَى، وَالرَّوَاءُ: الْمَاءُ الْكَثِيرُ (الوسيط: ج ١٥٠/١، ٣٨٥).

(٩) أَي رَوَيْتُ إِبْلَهُمْ حَتَّى بَرَكَتْ وَأَقَامَتْ مَكَانَهَا. وَالْعَطْنُ: مَبْرَكُ الْإِبِلِ حَوْلَ الْمَاءِ (النهاية: ج ٨٠/٣، ٢٥٨).

(١٠) الثَّمَدُ: الْمَاءُ الْقَلِيلُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَدَدٌ، وَالْمَكَانُ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْمَاءُ (الوسيط: ج ١٠٠/١).

(١١) أَي: يَأْخُذُونَهُ قَلِيلًا قَلِيلًا (النهاية: ج ١١٩/١).

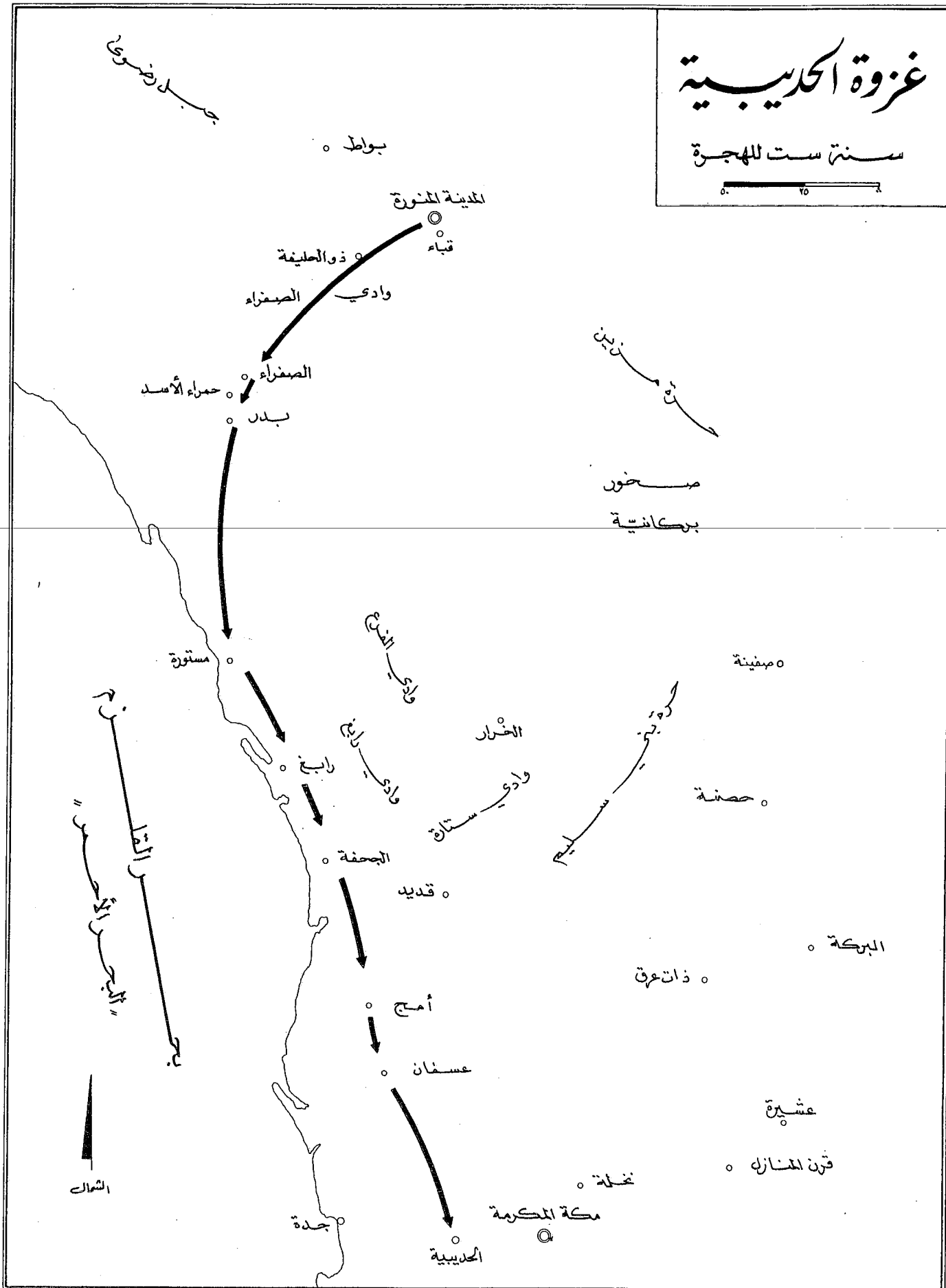
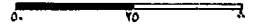
(١٢) نَزَحَ الْبَيْتُ: فَرَّغَهَا حَتَّى قَلَّ مَائُوهَا أَوْ نَفِدَ. وَالْمَرَادُ هُنَا: أَنَّهُمْ لَمْ يَبْقُوا مِنَ الْمَاءِ شَيْئًا. انظر: (الوسيط: ج ٩٢٠/٢)، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٨٥/٢).

(١٣) صَدَرُوا عَنْهُ: أَي رَجَعُوا رِوَاءً بَعْدَ وُجُودِهِمْ انظر: (لسان العرب: ج ٢٤١٢/٣). انظر: سيرة ابن هشام (ج ٣٥٧/٣ - ٣٥٨)، وصحيح البخاري (ج ٢٥٢/٣، ٢٥٣) كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة، وطبقات ابن سعد (ج ٩٦/٢).

(١٤) صحيح البخاري (ج ١٥٦/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية.

غزوة الحديبية

سنة ست للهجرة



الدلو ، ومضض فاه ثم مَجَّ به ، وأمر أن يُصَبَّ في البئر ، ونزع سهماً من كنانته فألقاه في البئر ، ودعا الله ، تبارك وتعالى ، فسارت بالماء ، حتى جعلوا يغترفون بأيديهم (١) .

وهذه القصة غير القصة التي في حديث جابر ، رضي الله عنه ، قال : عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله ﷺ بين يديه رَكْوَةٌ (٢) فتوضأ منها ، ثم أقبل الناس نحوه ، فقال رسول الله ﷺ : « مالكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ! ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في رَكْوَتِكَ ، قال : فوضع النبي ﷺ يده في الرَكْوَةَ ، فجعل الماء يَفُور من بين أصابعه كأمثال العيون ، قال : فشربنا وتوضأنا ، فقلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : لو كننا مائة ألف لكاننا ، كنا خمس عشرة مائة (٣) .

وعنه أيضاً قال : قد رأيتني مع النبي ﷺ وقد حضرت العصر وليس معنا ماء غير فضلة ، فجعل في إناء فأتي النبي ﷺ به ، فأدخل يده فيه وفرج أصابعه ، ثم قال : « حيَّ على أهل الوضوء (٤) ، البركة من الله » ، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ، فتوضأ الناس وشربوا ، فجعلت لألو (٥) ما جعلت في بطني منه ، فعلمت أنه بركة ، قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفاً وأربعمائة (٦) . وهذه من معجزات النبي ﷺ التي أجزاها الله تعالى على يديه .

قال الزرقاني : وجمع ابن حبان بينهما بأن ذلك وقع في وقتين ، وكان ذلك قبل قصة البئر ، ثم قال : ويحتمل أن الماء لما تفجر من أصابعه ﷺ ويده في الرَكْوَةَ وتوضؤوا كلهم وشربوا أمر حينئذ بصب الماء الباقي في الرَكْوَةَ في البئر ، فتكاثر الماء فيها (٧) .

وأصاب المسالمين مطر بالحديبية ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يصلوا في رحاهم (٨) ، روى البخاري بسنده عن زيد بن خالد رضي الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية فأصابنا مطر ذات ليلة ، فصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح ، ثم أقبل علينا فقال : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال : « قال الله : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي ، فأمأ من قال مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن بي ، كافر بالكوكب ، وأمأ من قال مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكوكب كافر بي » (٩) .

وساطة بُدَيْل بن وَرْقَاء بين النبي ﷺ وقريش :

ولما اطمان رسول الله ﷺ في منزله أتاه بُدَيْل بن وَرْقَاء الحزاعي في رجال من خزاعة - وكانت خزاعة عيية نصح لرسول الله ﷺ مسلمها ومشركها لا يخفون عنه شيئاً كان بكفة - فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية (١٠) ومعهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكننا جئنا مُعْتَمِرِينَ ، وإن قُرَيْشاً قد نهكتهم الحرب (١١) ، وأضرت بهم ، فإن شأؤوا ماددتهم مدَّة ويحلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهروا فإن شأؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فقلوا ، وإلا فقد جموا (١٢) ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي ، ولينفذن الله أمره » . قال : بُدَيْل : سأبلغهم ما تقول .

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١١٢/٤) .

(٢) الرَكْوَةُ : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء (النهاية : ج ٢٦١/٢) .

(٣) صحيح البخاري (ج ١٥٦/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية .

(٤) وفي رواية : حيَّ على الوضوء : أي هلموا إليه وأقبلوا وتعالوا مشرعين . انظر : (النهاية : ج ٤٧٢/١) .

(٥) لألو : لأفصر (الوسيط : ج ٢٥/١) .

(٦) صحيح البخاري (ج ١٤٨/٧) كتاب الأشربة - باب شرب البركة والماء المبارك .

(٧) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٨٦/٢) .

(٨) انظر : سنن ابن ماجه (ج ٣٠٢/١) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب الجماعة في الليلة المطيرة ح ٩٣٦ .

(٩) صحيح البخاري (ج ١٥٥/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية .

(١٠) أي : ذوات المادة ، كالعيون والآبار . وللماء العذ الذي لا تقطع مادته ، وجمعه أعداد (النهاية : ج ١٨٩/٣) .

(١١) أي أضرتهم . انظر : (لسان العرب : ج ٤٥٦١/٦) .

(١٢) أي استراخوا وكثروا (النهاية : ج ٣٠١/١) .

وكان في النفر عمرو بن سالم الحزاعي، فأهدى للنبي ﷺ غنماً وجزوراً، فقال رسول الله ﷺ: «بَارَكَ اللهُ فِي عَمْرٍو». ثم انطلقوا حتى أتوا قريشاً، فقال بُدَيْلُ: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ وقال لهم: يا معشر قريش! إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت. فاتهموه وجبهوه^(١) وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة^(٢) أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب^(٣).

السفارات بين النبي ﷺ وبين قريش:

ثم بعثت إليه قريش مكرز بن حفص أخا بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «هذا رجل غادر» أو قال: «فاجر»، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه، قال له ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة، وكان يومئذ سيد الأحابيش، وهو أحد بني كنانة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون»^(٤) - وفي رواية: «يعظمون البذن» - «فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه»، فبعثوها له، واستقبله الناس يلبنون، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي^(٥) في فلاة، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله^(٦)، وسمع التلبية، قال: سبحان الله! ما ينبغي هؤلاء أن يصدوا عن البيت، فرجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظماً لذلك، فقال لهم: رأيت البذن قد قلدت وأشمرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر قريش! والله ما على هذا حالنا، ولا على هذا عاقدنا، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له، والذي نفس الحليس بيده لتتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لا نفرن^(٧) بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مه! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

فقام عند ذلك عروة بن مسعود الثقفي فقال: يا معشر قريش! إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتوه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد^(٨) وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم بأهلي وولدي حتى آسيتكم بنفسي، قالوا: صدقت؛ ما أنت عندنا بمتهم، قال: فإن هذا قد عرض لكم خطبة رُشد^(٩) إقبولها، ودعوني آتته، فقالوا: آتته، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة: يا محمد! أجمعت أو شاب^(١٠) الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك^(١١) لتفضها^(١٢) بهم؟ - وفي رواية: أي محمد! أرايت إن استأصلت أمر

(١) جبة الرجل: ردة عن حاجته واستقبلته بما يكره. وقد تقدم.

(٢) أي: قهراً وغلبة (النهاية: ج ٣/١٥٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢/٥٩٧)، وصحيح البخاري (ج ٢/٢٥٢) كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة، وطبقات ابن سعد (ج ٤/٢٩٣).

(٤) تأله: تنسك وتعبد (الوسيط: ج ٤/٢٤).

(٥) أي يجري ويتدفق من جانب الوادي (الوسيط: ج ١/٤٧١).

(٦) محل الهدى: موضعه الذي يُنخر فيه من الحرم (الوسيط: ج ١/١٩٣).

(٧) نفر الناس إلى العدو: أشرعوا في الخروج لقتاله (الوسيط: ج ٢/٩٤٨).

(٨) أي: أنكم حي قد ولدوني بالجلمة لكون أمي منكم، وأمه هي سبيعة بنت عبد شمس. انظر: فتح الباري (ج ٥/٣٣٩).

(٩) أي أشرأ وازحاً في الهدى والاستقامة (النهاية: ج ٢/٤٨).

(١٠) الأوشاب: الأخطأ من الناس والزجاج (النهاية: ج ٥/١٨٧).

(١١) بيضة الرجل: أهله وعشيرته (النهاية: ج ١/١٧٢).

(١٢) أي: تكبيرها (النهاية: ج ٣/٤٥٢).

قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجْتِاحَ (١) أهله قبلك ؟ - إنها قريش قد خرجت معها العوذ المَطَافِيلُ قد لبسوا جلود النور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عَنَوَةٌ أبداً ، وإيم الله لكأني بهؤلاء قد اُنْكَشَفُوا (٢) عنك غداً - وفي رواية : فإني والله لأرى وجوهاً (٣) ، وإني لأرى أشواباً (٤) من الناس خَلِيقاً (٥) أن يَفِرُّوا ويدعوك - فقال أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وكان جالساً خلف رسول الله ﷺ : امصص بظُر اللات (٦) أنحن نفر عنه وندعه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟ قال : « هذا ابنُ أَبِي قُحَافَةَ » قال : أما والله لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك (٧) ، ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، والمُعَيَّرَةُ بنُ شُعْبَةَ ، رضي الله عنه ، واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد وعليه المغفر ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله ﷺ بنغل السيف ويقول : اكفف يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لاتصل إليك ، فيقول عروة : ويحك ! ما أفضلك وأغلظك !! فتبسم رسول الله ﷺ ، فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : « هذا ابنُ أَخِيكَ الْمُعَيَّرَةُ بنُ شُعْبَةَ » ، قال : أيُّ غَدْرٍ (٩) ! ألسنتُ في غَدْرَتِكَ أو هل غسلت سواتك إلا بالأمس (١٠) ؟

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه وعلاقتهم به ، فقام من عند رسول الله ﷺ وقد بهرته ما رأى من صنع أصحابه به ، فرجع إلى قريش فقال : أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمداً ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلّك بها وجهه وجلده ، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه (١١) ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له ، والله لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فرأوا ربكم ، وقد عرض عليكم خطّة رشداً فاقبلوها . فقالوا : نردّه عن البيت في عامنا هذا ، ويرجع من قابل فيدخل مكّة ويطوف بالبيت ، فقال عروة : ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة ، ثم انصرف هو ومن معه إلى الطائف (١٢) .

(١) اجْتِاحَ : أي : أهلك واستأصل . انظر : (الوسيط : ج ١٤٥/١) .

(٢) أي : أنهزمو . انظر : (لسان العرب : ج ٢٨٨٢/٥) .

(٣) يعني بهم قريشاً .

(٤) الأشوابُ : الأخطأ ، يعني بهم أصحاب النبي ﷺ . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٩٠/٢) .

(٥) أي حقيقاً .

(٦) تُطلق العرب هذا اللفظ في معرض النّم . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٩٠/٢) .

(٧) واليد التي كانت لأبي بكر ، رضي الله عنه ، عند عروة ؛ أن عروة استعان في حمل دية ، فأعانه الرجل بالواحد من الإبل والرجل بالاثنتين وأعانه أبو بكر الصديق بعشر فلائص . انظر : السيرة الحلبية (ج ١٤/٢) .

(٨) كانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه ولا سيما عند الملاطفة ، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير ، فربما رأى عروة لعظمته في قومه أنه نظير لمصطفى ﷺ ، وما علم حينئذ أنه لا نظير له فاللائق منعه ، لكن كان النبي ﷺ يفضي لعروة استمالة وتأليفاً ، والمغيرة يمنعها إجلالاً للنبي ﷺ وتعظيماً . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٩١/٢) .

(٩) كلمة تُستعمل في الشتم ، وغَدْرٌ معدول عن غادرٍ للمبالغة (لسان العرب : ج ٢٢١٧/٤) .

(١٠) أراد عروة بذلك أنه الذي ستر غدر المغيرة بالأمس ، لأن المغيرة قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف كان وفد هو وإيَّام مصر على المقوقس ، فأحسن إليهم وأعطاهم وقصر بالمغيرة ، فحصلت له المغيرة منهم ، فلما كانوا بالطريق شربوا الخمر ، فلما سكرُوا وناموا وثب عليهم المغيرة فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم قدم المدينة فأسلم ، فقال له النبي ﷺ : « أمّا الإسلامُ فأقبل ، وأمّا المالُ فلستُ منه في شيء » ، وبلغ ذلك ثقيفاً فتهايج الحبان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦١/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢٥٢/٣) كتاب الشروط ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨٥/٤) .

(١١) ابْتَدَرُوا القَوْمَ الشّيءَ : تسارعوا إليه (الوسيط : ج ٤٢/١) .

(١٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦١/٢ ، ٣٦٠/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٢٥٥ ، ٢٥٢/٣) كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٦/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٨٦/٩) .

مبعوث النبي ﷺ إلى قريش :

ودعا رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي ، رضي الله عنه ، فبعثه إلى قريش ، وحمله على بعير له يقال له التُّغْلَب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، ففَعَرُوا به (١) جل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله ، فنعته الأحابيش ، وقيل : منعه قومه ، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ وأخبره بما لقي .

ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ليعبثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول الله ! إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إيها ، وغلظتي عليها ، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله ﷺ عثمان فقال له : « اذهب إلى قريش فادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أننا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته ، معنا الهدى ننحرة ونصرف » ، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويشرحهم بالفتح ويخبرهم أن الله ، عز وجل ، وشيك أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

فانطلق عثمان ، رضي الله عنه ، فرعى قريش بئلدح ، فقالوا : أين ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ لأدعوكم إلى الله ، جل ثناؤه ، وإلى الإسلام ، ويخبركم أننا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا عمّاراً ، فقالوا : قد سمعنا ماتقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص (٢) ، فرحب به وأسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس ، فأجاره وأردفه حتى جاء مكة ، فأقى أبا سفيان وعظاء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا : لا كان هذا أبداً ولا يدخلها علينا العام !

فلما فرغ عثمان ، رضي الله عنه ، من تبليغ رسالة رسول الله ﷺ قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، وإنا لانضع شيئاً حتى يصنع صاحبنا وتتبع أثره .

وقال المسلمون وهم بالحديبية قبل أن يرجع عثمان إليهم : هنيئاً لعثمان ، خالص من بيننا إلى البيت فطاف به آمناً ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أظنُّه طاف بالبيت ونحن محصورون ، لو مكث كذا وكذا ما طاف بالبيت حتى أطوف » ، قالوا : وما يمنعك يا رسول الله وقد خالص ؟ قال : « ذلك ظنِّي به أن لا يطوف بالكعبة حتى يطوف معنا » . فلما رجع إليهم عثمان بعد ذلك قالوا له : اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ؟ فقال عثمان : بئس ما ظننتم بي ، فوالذي نفسي بيده لو مكثت بها مقيماً سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ، ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت ، فقالوا : رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله وأحسننا ظناً (٣) .

إشاعة مقتل عثمان رضي الله عنه وبيعة الرضوان :

واحتبست قريش عثمان ، رضي الله عنه ، عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تبرح حتى نناجز (٤) القوم » ، ثم دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة .

قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه : بينما نحن جلوس إذ نادى منادي النبي ﷺ : أيها الناس ! البيعة ، البيعة . فثاروا إلى رسول الله ﷺ ، وهو تحت شجرة سمر (٥) ، فبايعوه وعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أخذ بيده ، ومعتل بن يسار ، رضي الله عنه ،

(١) يُقَالُ : عَفَرْتُ بِهِ : إِذَا قَتَلْتَ مَرْكُوبَةً وَجَعَلْتَهُ رَاجِلاً (النهاية : ج ٢٧١/٢) .

(٢) هو ابن عم عثمان بن عفان ، أسلم بعد ذلك .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٣/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٦١/١) و (ج ٩٦٢/٢ ، ٩٧) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٣٢/٤) ، وجمع الزوائد (ج ٨٤/٩) .

(٤) نَاجَزُ : نَقَاتِلُ (الوسيط : ج ٩١٠/٢) .

(٥) السَّمْرَةُ : وَاحِدَةُ السَّمْرِ ، ضَرَبَ مِنْ شَجَرِ الطَّلْحِ (النهاية : ج ٣٩٩/٢) .

أخذ بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ ، فبايعه الناس على أن لا يفروا ، وبايعه جماعة على الموت ، منهم سلمة بن الأكوع وابن عمر رضي الله عنهم^(١) .

روي عن عبد الله بن أبي بكر ، رضي الله عنها ، قال : كان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على أن لا نفر^(٢) .

وعن سلمة بن الأكوع ، رضي الله عنه ، قال : بايعت النبي ﷺ فذكر الحديث وفيه أنه سئل : على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت^(٣) .

وكان أول من بايع النبي ﷺ سنان بن أبي سنان الأسدي ، وقيل : أبو سنان^(٤) ، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات ، في أول الناس ووسطهم وآخرهم .

روى مسلم بسنده عن سلمة بن الأكوع ، رضي الله عنه ، فذكر الحديث وفيه : ثم إن رسول الله ﷺ دعانا للبيعة في أصل الشجرة ، قال : فبايعته أول الناس ، ثم بايع وبايع ، حتى إذا كان في وسط من الناس قال : « بايع يا سلمة » ، قال : قلت : قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس ، قال : « وأيضاً » ، قال : ورأيت رسول الله ﷺ عزلاً - يعني ليس معه سلاح - قال : فأعطاني رسول الله ﷺ حجة أو ذرة ، ثم بايع ، حتى إذا كان في آخر الناس قال : « ألا تبايعني ؟ يا سلمة ! » قال : قلت : قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس ، وفي وسط الناس ، قال : « وأيضاً » ، قال : فبايعته الثالثة ، ثم قال لي : « يا سلمة ! أبايع حجتك أو ذرتك التي أعطيتك ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ! لقيني عمي عامر عزلاً فأعطيته إياها ، قال : فضحك رسول الله ﷺ وقال : « إنك كالذي قال الأول : اللهم ! أئبني حبيباً هو أحب إلي من نفسي »^(٥) .

ثم بايع رسول الله ﷺ عن عثمان ، رضي الله عنه ، فأخذ بيده اليمنى فضرب بها على يده اليسرى وقال : « هذه لعثمان ، فإنه في حاجة الله وحاجة رسوله » ، قال أنس : فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم . ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل ، ولما تمت البيعة جاء عثمان ، رضي الله عنه ، فبايعه .

ولم يتخلف عن هذه البيعة أحد من المسلمين حضرها ، إلا الجدة بن قيس أخو بني سلمة ، فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقاً يابط ناقتة قد ضباً^(٦) إليها يستتر بها من الناس^(٧) .

وكان الجدة يرمى بالنفاق ، فعن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من يصعد الثنية ، ثنية المرار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » ، قال : فكان أول من صعدا خيلنا خيل بني الحزرج ، ثم تتام الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « وكلكم مغفور له إلا صاحب الجمال الأحمر » ، فأتيناها فقلنا له : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ ، فقال : والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، قال : وكان رجل ينشد ضالته له^(٨) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣ / ٣٦٤) ، وتاريخ الطبري (ج ٢ / ٦٢٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤ / ١٣٤) ، وصحيح مسلم (ج ٣ / ١٤٨٢ ، ١٤٨٥) كتاب الإمارة - باب استحباب مبايعة الجيش ح ٦٧ ، ح ٧٦ ، والمستدرک (ج ٣ / ٥٦٠) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٣ / ٣٦٤) .

(٣) صحيح البخاري (ج ٤ / ٦١) كتاب الجهاد والسير - باب البيعة في الحرب .

(٤) تقدم أن أبا سنان ، رضي الله عنه ، توفي في حصار بني قريظة قبل الحديبية . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢ / ١٠٠) ، والسيرة الحلبية (ج ٣ / ١٨٧) .

(٥) صحيح مسلم (ج ٣ / ١٤٣٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة ذي قرد وغيرها ح ١٢٢ .

(٦) ضباً : لصيق بالأرض ، وقيل : استخفى (لسان العرب : ج ٤ / ٢٥٤٢) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣ / ٣٦٤ ، ٣٦٥) ، وصحيح البخاري (ج ٥ / ١٢٦) كتاب المغازي - باب قول الله تعالى ﴿ إن الذين تولوا ﴾ ، وسنن

الترمذي (ج ٥ / ٦٢٦) كتاب المناقب - باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ح ٣٧٠١ ، والسيرة الحلبية (ج ٣ / ١٧٧) .

(٨) صحيح مسلم (ج ٤ / ٢١٤٤) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ح ١٢ .

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال : « لَيْدُخْلَنُ الْجِنَّةُ مَنْ بَاعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ » (١) .

وقد روي في فضل أصحاب بيعة الرضوان أحاديث كثيرة ، منها ما رواه مسلم بسنده عن أم مبشر ، رضي الله عنها ، أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا » ، قالت : بلى يا رسول الله ، فانتهرها ، فقالت حفصة : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (٢) ، فقال النبي ﷺ : « قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴾ (٣) » (٤) .

وروى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : « أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ » (٥) .

وقد ذكر الله سبحانه هذه البيعة في سورة الفتح وأثنى على أصحابها فقال : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُواكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (٦) الآية ، وإنما سميت بيعة الرضوان لذلك .

أما الشجرة فكان الناس يأتونها فيصلون عندها ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه - في خلافته - فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت (٧) .

سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ :

ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا ، ورغب أهل الرأي فيهم بالصلح ، بينما رأى بعضهم اللجوء إلى الحرب فقرروا أن يتسللوا ليلاً إلى معسكر المسلمين ويحدثوا أحداثاً تشعل نار الحرب ، فخرج ثمانون رجلاً منهم متسلحين ، ويقال : أربعون أو خمسون ، فيهم ميكرز بن حفص ، فهبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم ، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين ليصيبوا منهم أحداً ، أو يجدوا منهم غزاةً ، فأخذهم المسلمون جميعاً ، فأتي بهم النبي ﷺ ، فنظر إليهم وقال : « دَعَوْهُمْ يَكْفُرُ لَهُمْ بَدَأُ الْفُجُورِ وَتِنْبَاهُ (٨) » ، فغصا عنهم رسول الله ﷺ وخلقى سبيلهم ، وقد كانوا رموا في عسكر المسلمين بالحجارة والتبيل ، وقتلوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له ابن زئيم ، ففي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٩) .

المصالحة بين النبي ﷺ وقريش :

وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو وقالوا له : ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً .

فأتاه سهيل بن عمرو ومعه ميكرز بن حفص وحويظب بن عبد العزى ، فلما رآهم رسول الله ﷺ فيهم سهيل بن عمرو قال لأصحابه : « لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ، أَرَادَ الْقَوْمُ الصَّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ » ، فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ جلس بين

(١) سنن الترمذي (ج ٦٩٧/٥) كتاب المناقب - باب ٥٩/ح ٣٨٦٣ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) مريم : ٧١ .

(٣) مريم : ٧٢ .

(٤) صحيح مسلم (ج ١٩٤٢/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أهل بدر ح ١٦٣ .

(٥) صحيح البخاري (ج ١٥٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية .

(٦) الفتح : ١٨ .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٠٠/٢) .

(٨) أي أوله وأخره (النهاية : ج ٢٢٥/١) .

(٩) الفتح : ٢٤ . وانظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٣/٣ ، ٣٧٠) ، وصحيح مسلم (ج ١٤٤٢/٣) كتاب الجهاد والسير - باب قول الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ ح ١٢٣ ، و (ج ١٤٣٤/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة ذي قرد وغيرها ح ١٢٢ .

يديه وتكلم فأطال الكلام ، ثم تراجعاً ، ومن جملة ما تراجعاً به أن النبي ﷺ قال له : « تَخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفَ بِهِ » ، فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً^(١) ، ولكن ذلك من العام المقبل ، ثم جرى بينهما الصلح .

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ليكتب الكتاب ، فقال : « اُكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ، فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب^(٢) ، فقال المسلمون : والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي ﷺ : « اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ » ، فكتبها ، ثم قال : « اُكْتُبْ هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ سَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو » ، فقال سهيل : والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، وفي رواية ولا تبعناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النبي ﷺ : « وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي » ، ثم قال لعلي : « امْحُ رَسُولُ اللَّهِ » ، فقال علي : والله لا أحمأه أبداً ، قال : « فَأَرِنِيهِ » ، فأراه إيَّاه فحاه النبي ﷺ بيده وقال : « اُكْتُبْ هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ سَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو » ، فجعل علي يتلأأه ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله ، فقال له النبي ﷺ : « اُكْتُبْ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَهَا تُعْطِيهَا وَأَنْتَ مُضْطَهَّدٌ »^(٣) ، فكتب : « هَذَا مَا صَلَّحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ سَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، اضْطَلَحْنَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَنِ النَّاسِ عَشْرَ سَنِينَ ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ ، وَيَكْفُ بُغْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، عَلَى أَنَّهُ مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَإِلَيْهِ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِنْ مَعِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ » .

فكره المسلمون ذلك وامْتَعَصُوا منه^(٤) ، وأبى سهيل إلا ذلك ، فقال المسلمون : يا رسول الله ! أنكتب هذا ؟ قال : « نَعَمْ ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ قَرْجًا وَمَخْرَجًا » .

ثم كتب علي ، رضي الله عنه ، بقية شروط الصلح : « وَأَنَّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ ، وَأَنَّ بَيْنَنَا عَيْبَةٌ مَكْفُوفَةٌ^(٥) ، وَأَنَّ لَنَا إِسْلَاحًا وَإِغْلَاقًا^(٦) » .

قال سهيل : وأنتك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها باصحابك ، فأقتت بها ثلاثاً ، معك سلاح الرأكب السيوف في القرب لا تدخلها غيرها ، ولا تدعو منهم أحداً .

ويروى أنه كان في شروط الصلح : أنه من قدم مكة من أصحاب رسول الله ﷺ حاجاً أو معتمراً ، أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر والشام يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله .

وكتبت نسخة أخرى من هذا العقد ، لأن سهيلاً قال : يكون هذا الكتاب عندي ، وقال رسول الله ﷺ : « بَلْ عِنْدِي » ، فأخذه رسول الله ﷺ ثم كتب لسهيل نسخة أخرى جعلها عنده ، قيل : كتبها محمد بن مسلمة رضي الله عنه .

(١) أَخَذْنَا ضُغْطَةً : أَي بِالشَّدَّةِ وَالْإِكْرَاهِ . انظر : (لسان العرب : ج ٢٥٩١/٤) .

(٢) روى ابن سعد في الطبقات (ج ٢٦٢/١) بسنده عن الشعبي قال : كان رسول الله ﷺ يكتب كما تكتب قريش باسمك اللهم حتى نزلت عليه ﴿ اذْكُرُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ ، فكتب : بسم الله ، حتى نزلت عليه : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ ، فكتب بسم الله الرحمن ، حتى نزلت عليه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

(٣) يشير النبي ﷺ إلى ما سيقع بين علي ومعاوية ، رضي الله عنهما ، فإنها في حرب صفيين وقعت بينهما المصالحة على ترك القتال إلى رأس الحول ، فلما كتب الكاتب في الصلح : هذا ما صلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، قال عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، وكان أحد الحكيمين يومئذ : اكتب اسمه واسم أبيه ، وأرسل معاوية إلى عمرو أن لا يكتب أن علياً أمير المؤمنين وقال : لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين ما قاتلته ، فأمر علي رضي الله عنه الكاتب بمحو أمير المؤمنين ، فكان كما أخبره النبي ﷺ . انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٠/٣) .

(٤) أَي شَقَّ عَلَيْهِمْ وَعَظَمَ . يُقَالُ : مِعِصَ مِنْ شَيْءٍ سَمِعَهُ ، وَامْتَعَصَ : إِذَا غَضِبَ وَشَقَّ عَلَيْهِ (النهاية : ج ٣٤٢/٤) .

(٥) أَي : بَيْنَهُمْ صَدْرٌ تَقِي مِنَ الْغُلِّ وَالْحِدَاعِ ، مَطْوِيٌّ عَلَى الْوَفَاءِ بِالصُّلْحِ . وَالْمَكْفُوفَةُ : الْمَشْرَجَةُ الْمَشْدُودَةُ . وقيل : أراد أن يبتهم مؤادعة ومكافة عن الحرب ، تجريان مجرى المؤدة التي تكون بين المتصافين الذين يتوق بعضهم إلى بعض (النهاية : ج ٣٢٧/٣) . وقيل : معناه صدور منظوية على ما فيها لا تبدي عداوة ، إشارة إلى ترك المؤاخذه بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها . انظر : الروض الأنف (ج ٣١/٤) .

(٦) الْإِسْلَاحُ : السَّرِقَةُ ، وَالْإِغْلَاقُ : الْحَيْثَانَةُ ، (لسان العرب : ج ٢٢٨١/٤) .

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة ويقال محمود بن مسلمة ، ورجال من المشركين : مكرز بن حفص ، وحويطب بن عبد العزى .

ولما تم الصلح دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده ، وقد كانوا حلفاء بني هاشم منذ الجاهلية ، كما أشرنا من قبل ، فكان دخولهم في هذا العهد تأكيداً لذلك الحلف القديم ، ودخلت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقد قريش وعهدهم . وكتب رسول الله ﷺ لخزاعة بذلك^(١) .

ردّ أبي جندل :

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرُسِّف^(٢) في قيوده متوشحاً سيفه ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه^(٣) ، ثم قال : يا محمد ! هذا أول ما أفاضيك عليه على أن ترده إليّ ، فقال النبي ﷺ : « إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ » ، قال : فوالله إذا لم أصلحك على شيء أبداً ، قال النبي ﷺ : « فَأَجْزُهُ لِي^(٤) » ، قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال : « بَلَى فَاَفْعَلْ » ، قال : ما أنا بفاعل ، قال مكرز : بل قد أجزناه لك - وفي رواية : قال سهيل : يا محمد ! قد لَجَّت^(٥) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : « صَدَقْتَ » - وجعل سهيل ينتر^(٦) أبا جندل بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وأخذ أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ! أُرِّدْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتَنُونَنِي فِي دِينِي ؟! ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله ، فقال النبي ﷺ : « يَا أَبَا جَنْدَلِ ! اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً ، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحاً ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّا لَا نَعْدِرُ بِهِمْ » .

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل ، رضي الله عنهما ، يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويُدني قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضنّ الرجل بأبيه ، ونفذت القضية^(٧) .

حزن المسلمين وموقف عمر رضي الله عنه من شروط الصلح :

لم يكن أحد من المسلمين راضياً بجميع ما رضي به النبي ﷺ في مصالحته قريشاً ، غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ودخلت إلى نفوسهم الشكوك والوساوس ، وغلب عليهم الحزن والكآبة ، فإنهم كانوا خرجوا وهم لا يشكّون في دخولهم مكة وطوافهم بالبيت للرؤيا التي رآها النبي ﷺ ، فلما رأوا مارأوا من الصلح والرجوع وما تحمّل عليه رسول الله ﷺ في نفسه ، دخل عليهم من ذلك أمر

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٥/٣ - ٣٦٨) ، وصحيح البخاري (ج ٢٤٦/٣ ، ٢٥٥) كتاب الشروط - باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة ، و (ج ١٢٦/٤) كتاب الجهاد والسير - باب المصالحة على ثلاثة أيام أو وقت معلوم ، وصحيح مسلم (ج ١٤١١/٣) كتاب الجهاد والسير - باب صلح الحديبية ح ٩٣ ، والمستدرک (ج ٤٦٠/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٩٧/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٦٣٠/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ١٧٢/٨) ، وكنز العمال (ج ٤٧٩/١٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤٧/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٢١/٣) ، وفتح الباري (ج ٣٤٣/٥) .

(٢) الرُسْفُ والرُسَيْفُ : مَشَى الْمَقِيدَ إِذَا جَاءَ يَتَحَامَلُ بِرِجْلِهِ مَعَ الْقَيْدِ (النهاية : ج ٢٢٢/٢) .

(٣) يُقَالُ : أَخَذْتُ بِتَلْبِيْبِ فُلَانٍ ، إِذَا جَمَعْتَ عَلَيْهِ ثَوْبَهُ الَّذِي هُوَ لَابِسُهُ وَقَبَضْتَ عَلَيْهِ تَجَرُّهُ (النهاية : ج ٢٢٣/٤) .

(٤) أَجْزُهُ لِي : أَعْطَيْهِ لِي (لسان العرب : ج ٧٢٥/١) .

(٥) لَجَّتْ : وَجَبَتْ (النهاية : ج ٢٣٣/٤) .

(٦) تَرَّةٌ : جَذْبَةٌ أَوْ قَذْفَةٌ فِي شِدَّةِ (الوسيط : ج ٩٠٦/٢) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٧/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٢٥٦/٣) كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة ، والسيرة الحلبية (ج ٢١/٣) .

عظيم حتى كادوا يهلكون ، خصوصاً من اشتراط أن يُردَّ إلى المشركين من جاءهم مسلماً . قال عمر : لقد صالح رسول الله ﷺ أهل مكة على صلح وأعطاهم شيئاً ، لو أن نبي الله أمر عليّ أميراً فصنع الذي صنع نبي الله ما سمعت له ولا أطعت ، وقال سهل بن حنيف : لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أُرَدَّ على رسول الله ﷺ أمره لرددت .

وكان أشدَّ المسلمين استياء وحرزاً عمر ، رضي الله عنه ، فقد روي أنه لما التأم الأمر على الصلح ولم يبق إلا الكتاب جاء عمر إلى النبي ﷺ : وقال : أُلست نبي الله حقاً ؟ فقال : « بلى » ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : « بلى » ، قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : « بلى » ، قال : أولسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » ، قال : أليس قتلنا في الجنة وقتلام في النار ؟ قال : « بلى » ، قال : فعلام نعطي الدِّينَةَ^(١) في ديننا ؟ أنرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟! فقال : « ابنِ الحطَّابِ ! إنِّي رَسولُ اللهِ ولَسْتُ أَعْصِيه وهو ناصري ، ولَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أبداً » ، قال : أو ليس كنت تحدِّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « بلى » ، فأخبرْتُكَ أَنَا نَأْتِيهِ العام ؟ قال : لا ، قال : « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمَطُوفٌ بِهِ » . وفي رواية أنه قال لأصحابه ، وقد سألوه : ألم تقل يا رسول الله إنك تدخل مكة آمناً ، قال : « بلى » ، أفقلت لكم من عامي هذا ؟ قالوا : لا ، قال : « فهو كما قال لي جبريل عليه السَّلام » .

فانطلق عمر إلى أبي بكر الصديق ، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ ، وردَّ عليه أبو بكر كما ردَّ عليه رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : يا عمر ! الزُّمُّ غَرَزُهُ^(٢) أو استمسك بغرزه فوالله إنه على الحقِّ ، وإني أشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله^(٣) .

فلما نزلت سورة الفتح ، أرسل النبي ﷺ إلى عمر فقرأها عليه ، فقال عمر : يا رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال : « نعم » ، فطابت نفسه .

فكان عمر ، رضي الله عنه ، يقول : ما زلت أتصدِّق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون خيراً^(٤) .

تحلل النَّبِيِّ ﷺ من الإحرام وأمره المسلمين به :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال لأصحابه : « قَوْمُوا فَنَاحِرُوا ثُمَّ احْلِقُوا » ، قال ذلك ثلاث مرات فلم يبق منهم أحد ، فدخل على أمِّ سَلَمَةَ ، رضي الله عنها ، وهو شديد الغضب ، فقالت له : مالك يا رسول الله ؟ فذكر لها ما لقي من الناس وقال : « هَلِكُ الْمُسْلِمُونَ أَمْرُهُمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا » ، فقالت أمُّ سَلَمَةَ : يا نبي الله ! لا تلهم ، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح ، ثم قالت : أتحب أن يفعلوا ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بَدَنَكَ وتدعو حائلتك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بَدَنَهُ ، ودعا حائلته خراش بن أمية فحلق رأسه ، فلما رأى الناس ذلك تواثبوا ينحرون ويحلقون ، وجعل بعضهم يخلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا ، وكانوا نحروا البَدَنَةَ عن سبعة والبقرة عن سبعة ، ونحر رسول الله ﷺ سبعين بَدَنَةَ قسم لحومها على الفقراء ، وكان فيها جمل لأبي جهل ، قد كان رسول الله ﷺ غنمه يوم بدر ، فلم يزل عنده يضرب عليه في إبله^(٥) ويغزو عليه حتى ساقه في هدي الحديبية ، فسأله المشركون يومئذ الجمل بمائة بعير فقال : « لولا أَنَا سَمِينَةٌ فِي الْهَدْيِ لَفَعَلْنَا » . وأرسل الله سبحانه وتعالى ريحاً عاصفاً احتملت شعورهم فألقتهما في الحرم ، فاستبشروا بقبول عمرتهم .

(١) الدِّينَةُ : النَّقِيبَةُ (الوسيط : ج ٢٩٨/١) -

(٢) الْغَرَزُ : الرَّكَابُ ، وَالزُّمُّ غَرَزُهُ : أَي أَمْسِكُهُ وَأَتَّبِعْ قَوْلَهُ وَفِعْلُهُ وَلَا تَخَالِفُهُ ، فَاسْتَعَارَ لَهُ الْغَرَزُ كَالَّذِي يُمَسِّكُ بِرِكَابِ الرَّكَابِ وَيَسِيرُ بِسَيْرِهِ (النهاية : ج ٣٥٩/٣) .

(٣) وفي رواية ابن إسحاق عكس ما هنا ، أي : أن عمر قال ما ذكر لأبي بكر أولاً ثم لرسول الله ﷺ ثانياً .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٥/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٢٥٦/٣) كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، و (ج ١٢٥/٤) كتاب الجهاد والسير - باب إثم من عاهد ثم غدر ، و (ج ١٦٤/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية .

(٥) يقال : ضربَ الْجَمَلُ النَّاقَةَ يَضْرِبُهَا ، إِذَا نَزَا عَلَيْهَا ، وَأَضْرَبَ فَلَانَ نَاقَةً : أَي أَنْزَى الْفَحْلَ عَلَيْهَا (النهاية : ج ٧٩/٣) .

ودعا رسول الله ﷺ للمحلّفين ثلاثاً وللمقصرين مرة ، فقال : « يُرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّفِينَ » ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ فقال : « يُرْحَمُ اللَّهُ الْمُحَلِّفِينَ » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « والمقصرين » ، فقالوا : يا رسول الله ! فلم تظهر الترحيم للمحلّفين دون المقصرين ؟ قال : « لم يَشْكُوا » .

ويروى أنه استغفر للمحلّفين ثلاث مرات وللمقصرين مرة^(١) .

- وفي هذا السفر أنزل الله تعالى آية الفديّة في شأن كعب بن عُجْرَةَ ، رضي الله عنه ، وكان قد أذاه هوام رأسه ، فأمره رسول الله ﷺ أن يخلق رأسه ، فحلقه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾^(٢) ، فقال له رسول الله ﷺ : « صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ ، أَوْ أَنْسُكْ مَا تَيْسَّرُ »^(٣) .

رجوع النَّبِيِّ ﷺ ونزول سورة الفتح :

ثم انصرف رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة ، بعد أن أقام بالحديبية نحو عشرين يوماً ، ويقال : أقام شهراً ونصفاً ، فلما كان بكرع الغيم بين مكة والمدينة ، وقيل : بضجنان ، نزلت سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوْرًا عَظِيمًا ﴾^(٤) ، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، - كما ذكرنا آنفاً - فقال له : « لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ اللَّيْلَةَ سُورَةً لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » ، أو قال : « هي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا » ، ثم جمع رسول الله ﷺ الناس وبه من السرور ما شاء الله ، فقرأ عليهم ما أنزل عليه ، فقالوا له : هنيئاً مريئاً ؟ فما لنا ؟ فأنزل الله : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ﴾^(٥) .

وقد اختلف الناس في المراد من الفتح ، فقال جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وأنس والبراء رضي الله عنهم : الفتح هنا الحديبية ووقوع الصلح ، بعد أن كان المنافقون يظنون أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الفتح ، بل يفتنون كلهم^(٦) .

قال الحافظ ابن حجر : فإن الفتح في اللغة فتح المغلق ، والصلح كان مغلقاً حتى فتحه الله ، وكان من أسباب فتحه صدّ المسلمين عن البيت ، فكانت الصورة الظاهرة ضيقاً للمسلمين والباطنة عزاً لهم ، فإن الناس للأمن الذي وقع فيهم اختلط بعضهم ببعض من غير تكبر ، وأسمع المسلمون المشركين القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمين ، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية ، فظهر من كان يخفي إسلامه ، فذلّ المشركون من حيث أرادوا العزة ، وقهروا من حيث أرادوا الغلبة^(٧) .

وقال الزُّهْرِيُّ : فما فتَحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٦٣٦) ، وصحيح البخاري (ج ٢/٢١٣) كتاب الحج - باب الحلق والتقصير عند الإحلال ، و (ج ٢/٢٥٦) كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، وصحيح مسلم (ج ٢/٩٥٥) كتاب الحج - باب الاشتراك في الهدي ح ٣٥٠ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١/٢١٤) و (ج ٣/٨٩٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/١٠٤) و (ج ٨/٢٩٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٣/٢٣) .

(٢) البقرة : ١٩٦ .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٥/١٥٨) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية ، وصحيح مسلم (ج ٢/٨٦٠) كتاب الحج - باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى .. ح ٨٢ .

(٤) الفتح : ١ - ٥ .

(٥) الفتح : ٥ .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٣٦٩) ، وصحيح البخاري (ج ٥/١٥٦ ، ١٦٠) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية و (ج ٦/١٦٨) كتاب التفسير - باب سورة الفتح ، وصحيح مسلم (ج ٣/١٤١٢) كتاب الجهاد والسير - باب صلح الحديبية ح ٩٧ ، وسنن أبي داود (ج ٣/١٧٤) كتاب الجهاد - باب فيمن أسهم له سهماً ح ٢٣٦ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/٩٨) و (ج ٤/٣٧٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٤/١٥٥) ، وعيون الأثر (ج ٣/١٢٣) .

(٧) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢/٢١٠) .

الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السننتين^(١) مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج عام فتح مكة ، بعد ذلك بستين ، في عشرة آلاف^(٢) .

وقيل : هو فتح مكة ، فنزلت سورة الفتح عند مرجعه ﷺ من الحديبية عدة له بفتحها ، وعبر فيه بالماضي لتحقق وقوعه .

قال الزرقاني : والتحقيق أنه يختلف باختلاف المراد من الآيات ، فالمراد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ فتح الحديبية ، لما ترتب على الصلح من الأمن ورفع الحرب وتمكن من كان يحشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة منه . وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنآبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾^(٣) فالمراد به فتح خيبر على الصحيح ، لأنها هي التي وقعت فيها المغام الكثيرة للمسلمين وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾^(٤) .

فالراجح أن الفتح المقصود بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ هو فتح الحديبية ، لأن هذه الآية نزلت بعد انصرافه منها ، وهذا الفتح كان مقدمة لفتح مكة ، وقد روي عن مجمّع بن جارية أن رسول الله ﷺ لما قرأها على الناس ، قال رجل : يا رسول الله ! أفتح هو ؟ قال : « نعم ، والذي نفس محمد بيده إنه لفتح »^(٥) . وقد تقدّم مثل هذا القول عن عمر ، رضي الله عنه ، وقال له ﷺ كما قال لهذا الرجل .

وعن عروة أن بعض الصحابة قال : ما هذا بفتح ، لقد صدّدنا عن البيت وصدّد هدينا ، فبلغ رسول الله ﷺ قولهم ، فقال : « بئس الكلام ! هنا أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفّعوك بالراح عن بلادهم ، ويسألونكم القضية ، ويرغبون إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وقد أظفركم الله ، عز وجل ، عليهم ، وردّكم سالمين غانمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلونون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاعت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ؟ » فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، هو أعظم الفتح ، والله يانبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله ، عز وجل ، وبالأمر منّا^(٦) .

وكان أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، يقول : ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون ، والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله ، لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو في حجة^(٧) قائماً عند المنحر يقرب إلى رسول الله ﷺ بدنه ، ورسول الله ﷺ ينحرفها بيده ، ودعا الحلاق فحلق رأسه ، وأنظر إلى سهيل يلتقط من شعره ، وأراه يضعه على عينيه ، وأذكر إياه أن يقرب يوم الحديبية بأن يكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويأبى أن يكتب : أن محمداً رسول الله ، فحمدت الله الذي هداه للإسلام ، وصلوات الله وبركاته على نبي الرحمة الذي هدانا به وأتقنا به من المهلكة^(٨) .

وهكذا يتبين أن صلح الحديبية كان فتحاً عظيماً للمسلمين لما ترتب عليه من النتائج والثمرات الباهرة التي ذكرنا والتي علمها النبي ﷺ وخفيت على أصحابه ، فحمله ذلك على موافقة المشركين .

(١) أي بين صلح الحديبية وفتح مكة المكرمة .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٣ / ٢٧٢)

(٣) الفتح : ١٨ .

(٤) الفتح : ١٩ . وانظر : طبقات ابن سعد (ج ٢ / ١١٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢ / ٢١٠) .

(٥) سنن أبي داود (ج ٣ / ١٧٤) كتاب الجهاد - باب فين أسهم له سهياً ح ٢٧٣٦ .

(٦) دلائل النبوة البيهقي (ج ٤ / ١٦٠) .

(٧) سيأتي خبر إسلام سهيل بن عمرو في أحداث السنة الثامنة للهجرة في سياق الحديث عن غزوة فتح مكة المكرمة .

(٨) انظر : السيرة الحلبية (ج ٣ / ٢٨) .

أحداث جرت في الطريق إلى المدينة :

روي أنه لما أقبل المسلمون مع رسول الله ﷺ زمن الحديبية قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَكُلُونَا ؟ » فقال بلال : أنا ، فناموا حتى طلعت الشمس ، فاستيقظ النبي ﷺ فصنع كما كان يصنع من الوضوء وركعتي الفجر ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : ثم صلى بنا الصبح ، فلما انصرف قال : « إِنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، لَوْ أَرَادَ أَنْ لَا تَنَامُوا لَمْ تَنَامُوا ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ تَكُونُوا لِمَنْ بَعْدَكُمْ ، فَهَكَذَا لِمَنْ نَامَ أَوْ نَسِيَ » (١) .

- وفقدت ناقته النبي ﷺ في ذلك السفر ، فتفرق الناس في طلبها ، فلم يجدها ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن مسعود : « خُذْ هَهْنَا » ، قال عبد الله : فأخذت حيث قال لي فوجدت زمامها قد التوى على شجرة ما كانت لتتحلها إلا يد ، قال : فجئت بها النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق نبياً لقد وجدت زمامها ملتويًا على شجرة ما كانت لتتحلها إلا يد ، قال : ونزلت على رسول الله ﷺ سورة الفتح (٢) .

- وحصل للناس مجاعة وأصابهم جهد حتى هموا أن ينحروا بعض ظهورهم ، فاستأذنوا النبي ﷺ فأذن لهم ، فلقبهم عمر فأخبروه ، فقال : ما بقاءكم بعد إيلكم ؟ فدخل عمر على النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! ما بقاءهم بعد إيلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَادِي فِي النَّاسِ يَأْتُونَ بِفَضْلِ أَرْوَادِهِمْ » ، فجمعوا أزوادهم على نطع فإذا هي كقدر رَيْبَةِ الْعَنْزِ (٣) ، فدعا رسول الله ﷺ وبرك فيها ، ثم دعا الناس بأوعيتهم فاحتشوا حتى فرغوا ، أو أكلوا حتى شبعوا جميعاً ثم حشوا جُرْبَهُمْ (٤) ، فقال رسول الله ﷺ : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ » . ثم قال : « هَلْ مِنْ وَضُوءٍ ؟ » فجاء رجل يداوئها فيها نَطْفَةَ (٥) فأفرغها في قوح ، فتوضأنا كلنا نَدَغْفَقُهُ دَغْفَقَةً (٦) أربع عشرة مائة ، ثم جاء بعد ذلك ثمانية فقالوا : هل من ظهور ؟ فقال رسول الله ﷺ : « فَرَعَ الْوَضُوءَ » (٧) .

أمر المهاجرات بعد الصلح :

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاء إليه المؤمنات مهاجرات ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط (٨) أول من خرج إليه في تلك المدة ، خرجت من مكة وحدها وصاحبت رجلاً من خزاعة حتى قدمت المدينة ، فخرج في إثرها أخوها عمارة والوليد ابنا عقبة فقالا : يا محمد ! أوف لنا بما عاهدتنا عليه ، فلم يفعل النبي ﷺ ، أبي الله ذلك ، وكانت أم كلثوم قالت للنبي ﷺ : يا رسول الله ! أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فتردني إلى الكفار يفتنونني في ديني ولا صبر لي ؟ فنزل القرآن بنقض ذلك العهد بالنسبة للنساء لكن بشرط امتحانهن ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ .. وَلَا تُنْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ (٩) .

وكان الامتحان أن تستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشئة ولا هاجرت إلا لله ورسوله . قال ابن عباس ، رضي الله عنها ، في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ .. ﴾ قال : كانت المرأة ! إذا جاءت النبي ﷺ حلفتها عمر بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت التماس الدنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله .

(١) انظر : سنن أبي داود (ج ٢١٠/١) كتاب الصلاة - باب في من نام عن الصلاة أو نسيها ح ٤٤٧ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٩١/١) .

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٣٩١/١) .

(٣) كَرْبِيبَةُ الْعَنْزِ : أي كل موضع الذي تريض فيه إذا بركت (النهاية : ج ١٨٤/٢) .

(٤) الْجُرْبُ : جمع جراب وهو وعاء يُحْفَظُ فِيهِ الزَّادُ (الوسيط : ج ١١٤/١) .

(٥) أَرَادَ بِالنُّطْفَةِ هَاهُنَا : الماء القليل (النهاية : ج ٧٥/٥) .

(٦) دَغْفَقَ الْمَاءَ : إِذَا دَغْفَقَهُ وَصَبَّهُ صَبًّا كَثِيرًا وَاسِعًا (النهاية : ج ١٢٣/٢) .

(٧) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٦/٤) كتاب الجهاد والسير - باب حل الزاد في الغزو ، وصحيح مسلم (ج ١٣٥٤/٣) كتاب اللقطة - باب استحباب خلط الأزواد ح ١٩ .

(٨) هي أخت عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، لأمته .

(٩) المتحنة : ١٠ .

فن أقرت بهذا الشرط منهنّ قال لها رسول الله ﷺ : « قَدْ بَايَعْتِكِ » كلاماً يكلمها به ، ولم يكن النبي ﷺ يسّ يد امرأة قط ، ثم لم يكن يردّه . فامتحن رسول الله ﷺ أمّ كلثوم فلم يردّها مع أخويها ، وأخبرها بأن النساء المؤمنات لا يرجعن وأن الشرط في الرجال فقط ، فرجعا إلى مكة وأخبرا قريشاً بذلك فرضوا .

ولم يكن لأمّ كلثوم زوج بمكة ، فلما قدمت المدينة تزوّجها زيد بن حارثة ، فقتل عنها يوم مؤتة ، فتزوّجها الزبير بن العوام ، فولدت له زينب ، فطلقها ، ثم تزوّجها عبد الرحمن بن عوف فولدت له إبراهيم وحُمَيْدًا ومات عنها ، فتزوّجها عمرو بن العاص فمات عنه .

وطلق الصحابة زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ حتى إن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان له امرأتان فطلقهما يومئذ ، فتزوّج إحداها وهي قُرَيْبَةُ بنت أبي أمية بن المغيرة معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى وهي أمّ كلثوم بنت جَزُولِ أمّ عبّيد الله بن عمر الخُزَاعِيَّةِ تزوّجها صفوان بن أمية ويقال أبو جهّم بن حُدَيْفَةَ بن غانم^(١) .

وقد كان خرج إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية قبل الصلح عُبدان من أهل مكة فأسلموا ، فكتب إليه مواليتهم فقالوا : يا محمد ! والله ما خرجوا إليك رغبة في دينك ، وإنما خرجوا هرباً من الرّق ، وليس لهم فقه في الدين ، فارددهم إلينا ، فأبى رسول الله ﷺ أن يردّهم وقال : « هُمْ عَتَقَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِقْهٌ فِي الدِّينِ سَنَفَقَّهُهُمْ ، مَا أَرَاكُمْ تَنْتَهُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ يَضْرِبُ رِقَابَكُمْ عَلَى هَذَا »^(٢) .

أمر أبي بصير رضي الله عنه :

وخرج إلى النبي ﷺ أبو بصير عُتْبَةُ بن أُسَيْدِ بن جَارِيَةَ الثَّقَفِيّ ، وكان ممن حُبِسَ بمكة وعُدّبَ على إسلامه ، فلما قدم على رسول الله ﷺ كتب في ردّه أُوَزَيْرُ بن عوف والأخنس بن شريق كتاباً وبعثا به رجلاً من بني عامر بن نُؤَيِّ ومعه مولى لهم ، فقدم على رسول الله ﷺ بالكتاب ، فلما قرأه قال رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا بَصِيرِ ! إِنَّا قَدْ أُعْطِينَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْتَ وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْعَدْرُ ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجاً وَمَخْرَجاً ، فَأَنْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ » ، قال : يا رسول الله ! أتردّني إلى المشركين يفتونني في ديني ؟ قال : « يَا أَبَا بَصِيرِ ! أَنْطَلِقْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ قَرْجاً وَمَخْرَجاً » . فانطلق معها حتى إذا كان بذى الحليفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحباها يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير : أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ قال : نعم ، قال : أنظر إليه ؟ قال : انظر إن شئت ، فاستلّه أبو بصير ثم علاه به حتى قتله ، وفرّ المولى حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ، فلما رآه رسول الله ﷺ طالماً قال : « لَقَدْ رَأَى هَذَا دُغْرًا » ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له : « وَيْحَكَ ! مَالِكَ ! » قال : قتل صاحبكم صاحبي ، واستغاث برسول الله ﷺ ، فابرح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! وَتَمَّتْ أَدَى اللَّهِ عَنْكَ أَسْمَتِي بِيَدِ الْقَوْمِ ، وَقَدْ ائْتَمَعْتُ بِدِينِي أَنْ أَفْتَنَ فِيهِ أَوْ يَعْثَبَ بِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَيْلٌ أُمَّهُ^(٣) ! مِحْشٌ حَرْبٍ^(٤) لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ » أو قال : « لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ » ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر^(٥) - وفي رواية : أن أبا بصير قال : يا رسول الله ! هذا سلب العامري الذي

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٧٥/٣ - ٣٧٧) ، وصحيح البخاري (ج ٢٤٧/٣ ، ٢٥٧) كتاب الشروط - باب ما يجوز من الشروط في الإسلام ... ، باب الشروط في الجهاد ، والمستدرک (ج ٦٦/٤) ، وسنن الترمذي (ج ٤١٢/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة المتحنه ح ٣٣٨ ، ومجمع الزوائد (ج ١٢٢/٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٣٠/٨) .

(٢) انظر : سنن الترمذي (ج ٦٢٤/٥) كتاب المناقب - باب مناقب علي بن أبي طالب ح ٣٧١٥ ، وسنن أبي داود (ج ١٤٨/٣) كتاب الجهاد - باب في عبادة المشركين يلحقون بالمسلمين فيسلمون ح ٢٧٠٠ .

(٣) الوَيْلُ : هنا بمعنى التَّعَجُّبِ ، قال له ذلك تَعَجُّباً مِنْ شَجَاعَتِهِ وَجُرْأَتِهِ وَإِقْدَامِهِ . انظر : (النهاية : ج ٢٣٦/٥) .

(٤) مِحْشٌ حَرْبٍ : حَشٌّ الْحَرْبِ : أَسْعَرَهَا وَهَيَّجَهَا ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلرَّجُلِ الشُّجَاعِ : نَمَّ مِحْشٌ الْكُتَيْبَةِ (النهاية : ج ٢٨٩/١) .

(٥) أي ساحله .

قتلته فخمسه ، فقال رسول الله ﷺ : « إني إذا خمسته لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه ، ولكن شأناك بستك صاحبك ، وأذهب حيث شئت » .

ولما بلغ سهيل بن عمرو قتل أبي بصير صاحبهم العامري أسند ظهره إلى الكعبة وقال : والله لا أؤخر ظهري عن الكعبة حتى يؤدى هذا الرجل ، فقال أبو سفيان بن حرب : والله إن هذا هو السفة ، والله لا يؤدى ثلاثاً .

وصار المسلمون الذين كانوا حُبسوا بمكة يتسألون إلى أبي بصير بالعيص على ساحل البحر لما بلغهم قول رسول الله ﷺ له : « ويُل أمه ! مِحش حُرْب لو كَانَ مَعَهُ رِجَال » ، وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو فلحق به أيضاً ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة قريب من سبعين رجلاً ، وانضم إليهم ناس من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل ، فأقاموا بين العيص وذي المزوة من أرض جهينة مما يلي سيف البحر على طريق عيرات^(١) قريش ، فجعلوا لا يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوا أصحابها وأخذوا أموالهم ، حتى كتبت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرَّحْم لما أرسل إليهم فأوامهم فلا حاجة لهم بهم - ويقال : إن قريشاً أرسلت أبا سفيان بن حرب في ذلك وأن قريشاً قالوا : إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط فمن خرج منا إليك فأمسكه غير حرج أنت فيه ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره .

فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير ، رضي الله عنهما ، يأمرهما أن يقدما عليه ، ويأمر من معها ممن أتبعها من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم ولا يتعرضوا لأحد من بهم من قريش وعيراتها . فقدم كتاب رسول الله ﷺ عليهما وأبو بصير يموت . فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرؤه ، فدفنه أصحابه مكانه وجعلوا عند قبره مسجداً ، وقدم أبو جندل ، رضي الله عنه ، على رسول الله ﷺ مع ناس من أصحابه وهم سبعون رجلاً ، ورجع باقيهم إلى أهليهم ، وأمنت قريش على عيراتها ، وتحقق قول رسول الله ﷺ يوم الحديبية لأبي جندل : « اصْبِرْ واحْتَسِبْ ، فإنَّ اللهَ جاعِلٌ لكَ ، ولِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجاً ومَخْرَجاً » . وعلم الصحابة الذين كان شق عليهم رد أبي جندل إلى قريش يوم صلح الحديبية أن طاعة رسول الله ﷺ خير لهم فيما أحبوا وفيما كرهوا ، وأن رأيه ﷺ أفضل من رأيهم^(٢) .

☆ ☆ ☆

(١) عيرات : جمع عير ، يريد إبلهم ودوابهم التي كانوا يتاجرون عليها (النهاية : ج ٢٢٩/٣) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٧٢/٣ - ٣٧٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٥٧/٣) كتاب الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٧٢/٤ - ١٧٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٤/٤) ، ومغازي الواقدي (ج ٦٢٥/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٨/٣) .

السنة السابعة للهجرة

كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء :

ولما استقر الأمر للنبي ﷺ بعد صلح الحديبية وجد فرصة للدعوة إلى الله خارج نطاق الجزيرة العربية ، فأرسل الرسل إلى ملوك العرب والعجم وكتب معهم كتباً يدعوهم إلى الإسلام .

ولاشك أن في ذلك قوة عجيبة وشجاعة عظيمة ، لأن رسول الله ﷺ وإن كان قد عقد الصلح مع مكة لكنه لم يكن قد تم له فتحها ولم يسلم أهلها ، وهذه الكتب ليس من السهل إرسالها إلى هؤلاء الملوك ، ولا سيما إلى هرقل وكسرى والمقوقس يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ولو كان غير رسول الله لحشي عاقبة ذلك ، فإن هؤلاء ملوك أقوياء على تخوم بلاده ، وكان إرساله الرسل سابقاً لأوانه ، إلا أن رسول الله ﷺ لما كان واثقاً من قوة رسالته ونصر الله سبحانه وتعالى أقدم على إرسال رسله بقلب ثابت وعزم صادق ، فكانت النتيجة أن علا شأن الإسلام وصارت له مكانة دينية وسياسية بين الدول وذلك قبل فتح مكة .

فلما رجع النبي ﷺ من الحديبية وأراد أن يكتب إلى الملوك والأمراء ، قيل له إنهم لا يقبلون كتاباً إلا عليه خاتم ، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضة نقشه : محمد رسول الله ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، رسول سطر ، والله سطر ، والأسطر الثلاثة تقرأ من الأسفل إلى الأعلى . فكان الخاتم في يد النبي ﷺ ثم في يد أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ، رضي الله عنهم ، حتى وقع من عثمان في بئر أريس في السنة التي توفي فيها عثمان رضي الله عنه (١) .

وعندما عزم النبي ﷺ على إرسال الكتب واختار الرسل من الذين سبق أن رحلوا إلى البلاد التي يريد دعوة ملوكها إلى الإسلام ممن يعرفون عاداتهم ، خرج عليهم فقال لهم : « إن الله بعثني رحمة وكافة ، فأدوا عني ، يرحمكم الله ، وأنصحو الله في عبادته ، فإنه من اشترعي شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرّم الله عليه الجنة ، أنطلقوا ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم ، قالوا : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ قال : « دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من بعثة مبعثاً قريباً قرصي وسلّم ، وأما من بعثة مبعثاً بعيداً فكرة وأبى ، فشكا ذلك عيسى ، عليه السلام ، منهم إلى الله ، فأصبحوا وكلّ رجلٍ منهم يتكلم بلغته القوم الذين وُجّه إليهم » ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : نحن يا رسول الله نؤذي عنك ، ولا نختلف عليك أبداً على شيء ، فرنا وابعثنا حيث شئت (٢) .

وفيما يلي ذكر للكتب التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء في الحرم سنة سبع للهجرة وردود فعل هؤلاء تجاه النبي ﷺ والدعوة الإسلامية . (انظر : مصور كتب الرسول الأعظم ﷺ إلى الملوك والأمراء) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٨/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠١٧ ، ٢٠٢) كتاب اللباس - باب خاتم الفضة ، باب نقش الخاتم ، و (ج ١٠٧/٤)

كتاب الجهاد والسير - باب ما ذكر من درع النبي ﷺ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٥٨/١) ، وكتاب : محمد رسول الله / لحمد رضا (ص : ٣٤٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٨/٤ - ٢٧٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٦٤/١) ، وجمع الزوائد (ج ٢٠٥/٥) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٨٨/٤) ،

والروض الأنف (ج ٦٧/٤ ، ٦٨) .

١ - كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة :

بعث النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري ، رضي الله عنه ، إلى النجاشي ، وكان أول رسول بعثه ، وكتب معه إليه كتابين يأمره في أحدهما أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب^(١) ، وأن يبعث إليه من قبله من المسلمين ، وفي الآخر يدعوهم إلى الإسلام وهذا نصه : « هذا كتاب من النبي محمد ﷺ إلى النجاشي الأصحح عظيم الحبس : سلام على من أتبع الهدى وأمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله ، فيأتي أنا رسول الله فأسلم تسلم ۞ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ۞ الآية^(٢) ، فإن آيبت فعليكم إثم النصارى^(٣) .

وقد أورد ابن القيم نص هذا الكتاب دون ذكر اسم النجاشي كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فيأتي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة ، فحملت بعيسى ، فخلق الله من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاته على طاعته ، وأن تتبعني ، وتؤمن بالذي جاءني ، فيأتي رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ، عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من أتبع الهدى^(٤) .

فلما وصل الكتاب إلى النجاشي وقرأه عليه ، أخذه فوضعه على عينيه ، ونزل عن سريره فجلس على الأرض تواضعاً ، ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال : لو كنت أستطيع أن آتية لأتيت ، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه وهذا نص الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى محمد رسول الله ، من النجاشي الأصحح بن أبحر ، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو ، الذي هداني إلى الإسلام . أما بعد ! فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فربب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت تفروقاً^(٥) ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قرئنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتكم وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك يا بني أرها بن الأصحح بن أبحر ؛ فياني لا أملك إلا نفسي ، وإن شئت أن آتيك ففعلت يا رسول الله ، فياني أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يا رسول الله .

قال ابن إسحاق : وذكر لي أن النجاشي بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة ، فإذا كانوا في وسط من البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا^(٦) .

فلما بلغ كتابه النبي ﷺ قال : « أنركوا الحبشة ما تركوكم^(٧) » . وأهدى النجاشي إلى النبي ﷺ خفين أسودين ، ونعلاين سبئيين^(٨) ، وثلاث عنزات^(٩) ، فأمسك النبي ﷺ واحدة لنفسه ، وأعطى علي بن أبي طالب واحدة ، وأعطى عمر بن الخطاب

(١) سيأتي خبر زواج النبي ﷺ من أم حبيبة ، رضي الله عنها ، بعد أحداث غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٥٨/١) ، والمستدرک (ج ٢٢٢/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٣٠٧/٢) .

(٤) زاد المعاد (ج ٦٨٩/٣) . وقد روى الطبري في تاريخه (ج ٦٥٢/٢) نص الكتاب بنحو ما رواه ابن القيم ، ولكن ورد في آخر الكتاب ذكر جعفر وأصحابه رضي الله عنهم : « وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفراً معة من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر » . مما يدل على أنه كتاب آخر بعثه النبي ﷺ مع جعفر رضي الله عنه حين خرج هو وأصحابه إلى الحبشة مهاجرين في بداية البعثة .

(٥) التفروق : قمع الثمرة (الوسيط : ج ٩٧/١) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٥٨/١) ، وتاريخ الطبري (ج ٦٥٢/٢) .

(٧) انظر : سنن سعيد بن منصور (ج ١٨٩/٢) .

(٨) النعال السبئية : هي المدبوغة بالقرظ ، كأنها ممتت سبئية لأن شعرها قد سبت عنها ، أي حلق وأزيل بعلاج من الدباغ ، وقيل : لأنها استبتت بالدباغ أي لانت (لسان العرب : ج ١٩١١/٣) .

(٩) العنزات : جمع عنزة ، وهي عصا في قدر يصف الرمح وقد تقدم .

واحدة ، فكان بلال يمشي بتلك العنزّة التي أمسكها رسول الله ﷺ لنفسه بين يديه ﷺ في العيدين يوم الفطر ويوم الأضحى حتى يأتي للصلى فيركزها بين يديه فيصلّي إليها .

وأهدى له خلقة فيها خاتم ذهب ، فيه فصّ حبشيّ ، فأخذه رسول الله ﷺ بعود وإنه لمعرض عنه ، أو ببعض أصحابه ، ثم دعا بابنة ابنته أمانة بنت أبي العاص ، فقال : « تحلّي بهذا ، يا بنية »^(١) .

وقد كان النبي ﷺ أهدى إلى النجاشي أيضاً أواقاً من مسك وحنّة ، روي عن جابر ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أهدى إليه راهب من الشام حبة من سنّس ، فلبسها النبي ﷺ ثم أتى البيت فوضعها ، وأخبر بوفد يأتيه ، فأمره عمر بن الخطاب أن يلبس الحبة لقدوم الوفد ، فقال النبي ﷺ : « لا يصلح لنا لباسها في الدنيا ، ويصلح لنا لباسها في الآخرة ، ولكن خذها يا عمر » ، فقال : أتكرهها وأخذها ؟ فقال النبي ﷺ : « إني لا أمرك أن تلبسها ، ولكن ترسل بها إلى أرض فارس فتصيب بها مالا » ، فأبى عمر ، فأرسل بها النبي ﷺ إلى النجاشي ، وكان قد أحسن إلى من فرّ إليه من أصحاب محمد ﷺ^(٢) .

توفي النجاشي الأصحح بن أبجر في رجب من السنة التاسعة للهجرة ، ونعاه النبي ﷺ إلى أصحابه يوم وفاته فقال : « مات اليوم رجل صالح ، فقوموا فصلّوا على أخيكم أضحمة واستغفروا له » . فصلّى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب ، فلما انصرف قال المنافقون : انظروا إلى هذا خرج فصلّى على عليّ^(٣) نصراني لم يره قط ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾^(٤) إلى آخر الآية . قالت عائشة رضي الله عنها : لما مات النجاشي كان يتحدّث أنه لا يزال يرى على قبره نور^(٥) .

وخلفه على عرش الحبشة نجاشي آخر كتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً آخر ، وهو غير النجاشي الذي آمن به وأكرم أصحابه وصلّى عليه النبي ﷺ^(٦) ، وفي صحيح مسلم ما يوافق ذلك ، فعن أنس ، رضي الله عنه ، أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى ، وليس بالنجاشي الذي صلّى عليه النبي ﷺ^(٧) .

٢ - كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم :

وبعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي ، رضي الله عنه ، إلى هرقل ملك الروم يدعوهم إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً ، وأمره أن يدفعه إلى قيصر^(٨) ، وقيل : أمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث بن أبي شمر ملك غسان ليدفعه إلى هرقل .

وكان هرقل قد نذر إن ظهرت الروم على فارس أن يمشي حافياً من القسطنطينية إلى بيت المقدس ، فخرج هرقل من بلاده يمشي على قدميه متشكراً لله حين ردّ عليه ماردة ليصلّي في بيت المقدس ، فلما انتهى إلى إيلياء^(٩) وقضى فيها صلاته ومعه بطارقه

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٣٥/٢) ، وسنن ابن ماجه (ج ١٢٠٢/٢) كتاب اللباس - باب النهي عن خاتم الذهب ح ٣٦٤٤ .

(٢) مسند الإمام أحمد (ج ٢٤٧/٣) .

(٣) العليج : الرجل من كفار العجم وغيرهم . (النهاية : ج ٢٨٦/٣) .

(٤) آل عمران : ١٩٩ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٦٣/١) ، وصحيح البخاري (ج ١١٢/٢) كتاب الجنائز - باب التكبير على الجنائز أربعا ، و (ج ٦٤/٥ ، ٦٥) كتاب المناقب - باب موت النجاشي ، ومسند الإمام أحمد (ج ٧/٤) ، وسنن أبي داود (ج ٣٤/٣) كتاب الجهاد - باب النور يرى عند قبر الشهيد

ح ٢٥٢٢ ، وجمع الزوائد (ج ٢٨/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ١٢٢/٣) .

(٦) انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٤٩/٣) .

(٧) صحيح مسلم (ج ١٢٩٧/٣) كتاب الجهاد والسير - باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل ح ٧٥ .

(٨) قيصر : لقب لكل من ملك الروم .

(٩) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس (معجم البلدان : ج ٣٩٢/١) .

وأشرف الروم أصبح يوماً خبيث النفس مهموماً ، فقال بعض بطارقه : قد استنكرنا هيئتك - وكان هرقل حَزَاءً^(١) ينظر في النجوم - فقال لهم حين سألوه : إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الحِتان قد ظهر ، فمن يختن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختن إلا اليهود فلا يمسك شأنهم ، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ ، وكانت الملوك تهذى الأخبار بينها ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا اختن هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختن ، وسأله عن العرب فقال : هم يختنون ، فقال هرقل : هذا والله الذي أريت ، ثم كتب هرقل إلى صاحب له بروميّة ، وكان نظيره في العلم ، يسأله عما عنده بشأن النبي ﷺ .

ولم يلبث هرقل أن أتاه رسول عظيم بصرى فدفع إليه كتاب النبي ﷺ وهذا نصه : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . أَمَا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلِمُ تَسْلِمُ يُوْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ^(٢) ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . »

فلما قرىء الكتاب على هرقل قال : هذا كتاب لم أسمع به بعد سليمان النبي - عليه السلام - ثم دعا صاحب شرطته فقال له : انظر لنا من قومه أحداً نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة زمن هدنة الحديبية ، قال أبو سفيان : فاتانا رسول قيصر فانطلق بنا حتى قدمنا عليه في بيت المقدس ، فإذا هو جالس وحوله عطاء الروم ، فقال لترجمانه : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سألت هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبت فكذبوه ، قال أبو سفيان : لقد عرفت أن لو كذبت مارذوا عليّ ، ولكنني كنت امرأة سيّداً أتكرّم وأستحي من الكذب ، وعرفت أن أدنى ما يكون في ذلك أن يرووه عني ثم يتحدثوا به عني بمكة ، فلم أكذبه ، قال : فقال هرقل : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج فيكم ، فقال أبو سفيان : هو ساحر كذاب ، فزهدت له شأنه وصغرت له من أمره ، قال : فوالله ما التفت إلى ذلك مني وقال : إني لا أريد شته ولكن أخبرني عما أسألك عنه من أمره ، قال أبو سفيان ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفائهم ؟ قلت : بل ضعفائهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : كيف عقله ورأيه ؟ قلت : لم نعب له عقلاً قط ولا رأياً قط ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، أو هل كان حلاًفاً كذاباً مخادعاً في أمره ؟ قلت : لا والله ما كان كذلك ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ، قال أبو سفيان : ولم تُمكِّنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة - أي ينتقصه بها - قال : فهل قاتلتوه ؟ قلت : نعم ، قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه - وفي رواية : قال أبو سفيان : لم يغلبنا إلا مرة واحدة وأنا يومئذ غائب وهو يوم بدر ، ثم غزوته مرتين في بيوتهم بنقر البطون ونجدع الأذان والأنوف والفروج - قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا ، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أشرف الناس أتبعوه أم ضعفائهم فذكرت أن ضعفائهم أتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل يغدر

(١) الحَزَاءُ : الكاهن (الوسيط : ج ١/١٧١) .

(٢) هُمُ الحَتَمُ والحَتُولُ (النهاية : ج ١/٣٨١) .

فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك هل قاتلتوه فقلت نعم وأن حربكم وحره تكون دولاً ، يدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى ، وكذلك الرسل تبلى وتكون لها العاقبة ، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقول حقاً فسلمك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت^(١) لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابي : لقد أمر^(٢) أمر ابن أبي كَبْشَةَ^(٣) ، إنه يخافه ملك بني الأصفر ، فزالتم موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام .

وفي رواية : قال أبو سفيان : إن أول يوم رعبت فيه من محمد ﷺ ليوم قال قيصر في ملكه وسلطانه وحضرته : لو علمت أنه هو لمشيت إليه حتى أقبل رأسه وأغسل قدميه ، قال أبو سفيان : وحضرته يتحادر جبينه عرقاً من كُرب الصحيفة التي كتب إليه النبي ﷺ ، قال : فزالتم مرعوباً من محمد ﷺ حتى أسلمت .

وسار هرقل إلى حمص ، فلم يرم^(٤) حصص حتى أتاه كتاب من صاحب رومية ، الذي كان قد كتب إليه بشأن النبي ﷺ ، يوافق رأيه على خروج النبي ﷺ وأنه نبي ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة^(٥) له بمجمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم أطلع فقال : يا معشر الروم ! هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حَيْضَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ^(٦) إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه ، قال : ردوهم عليّ ، فقال : إني قلت مقالتي أنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت منكم الذي أحب ، فسجدوا له ورضوا عنه .

فدعا هرقل دحية وقال له : والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل ، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعتهم . فكان ذلك آخر شأن هرقل .

وأكرم هرقل كتاب النبي ﷺ فوضعه في مسك واحتفظ به عنده ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : « ثَبَتَ مُلْكُهُ » .

ويقال إنه كتب إلى النبي ﷺ كتاباً يقول فيه إنه مسلم ، وأرسله مع دحية بعد أن أجازره بمال وكسوة ، وحمله دنانير وهدايا للنبي ﷺ ، فلما قرىء الكتاب على رسول الله ﷺ قال : « كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ وَهُوَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ » . وقبل هديته ، وقسم الدنانير بين المسلمين .

وكان مما أهدى هرقل إلى النبي ﷺ مُسْتَقَّةً مِنْ سُنْدُسٍ^(٧) ، فدفعها رسول الله ﷺ إلى جعفر بن أبي طالب^(٨) فلبسها ، ثم جاءه ، فقال النبي ﷺ : « إِنِّي لَمْ أُعْطِكُمَا لِتَلْبَسَهَا » قال : فما أصنع بها ؟ قال : « أُرْسِلُ بِهَا إِلَى أَخِيكَ النَّجَاشِيِّ »^(٩) .

(١) تَجَشَّمَ الْأَمْرُ : تَكَلَّفَهُ عَلَى مَشَقَّةٍ . وقد تقدم .

(٢) أَمْرٌ : كَثُرَ وَازْتَفَعَ شَأْنُهُ (النهاية : ج ٦٥/١) .

(٣) كان النبي ﷺ يلقبونه بابن أبي كبشة نسبة لأحد أجداده لأمه ، أو نسبة لأبيه من الرضاع . انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٤٥/٣) .

(٤) لم يرم مكانة : أي لم يبرحها . وقد تقدم .

(٥) الدسكرة : بناء كالمقصر حوله يَبُوتٌ للأعاجيم ، فيها الشراب والملاهي يَكُونُ لِلْمُلُوكِ (الوسيط : ج ٢٨٢/١) .

(٦) حاصوا : أي نفرّوا ، وشبههم بالوَحْشِ لِأَنَّ نَفْرَتَهَا أَشَدُّ مِنْ نَفْرَةِ الْبَهَائِمِ ، وَشَبَّهَهُمُ بِالْحُمُرِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْوَحْشِ لِتَنَاسُبَةِ الْجَهْلِ وَعَدَمِ الْفِطْنَةِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ (فتح الباري : ج ٤٢/١) .

(٧) المُسْتَقَّةُ : فَرَوْ طَوِيلُ الْكَمِينِ ، وَقَوْلُهُ : مِنْ سُنْدُسٍ يُشْبِهُ أَنَّهَا كَانَتْ مَكْفُفَةً بِالسُّنْدُسِ وَهُوَ الرَّفِيعُ مِنَ الْحَرِيرِ وَالذَّبَّاجِ (النهاية : ج ٢٢٦/٤) .

(٨) وكان جعفر ، رضي الله عنه ، قد قدم من الحبشة .

(٩) انظر : صحيح البخاري (ج ٥/١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، ومجمع الزوائد (ج ٣٠٧/٥) ، وسنن ابن منصور (ج ١٨٩/٢) ،

وسنن أبي داود (ج ٢٢٢/٤) كتاب اللباس - باب كره لبس الحرير ٤٠٤٧ ، وسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٧٧/٩) ، ودلائله (ج ٢٨٢/٤ ، ٢٨٤) ،

وطبقات ابن سعد (ج ٢٥٩/١) ، وتاريخ الطبري (ج ٦٤٦/٢ ، ٦٥٠) ، ومغازي الواقدي (ج ٥٥٥/٢) ، وزاد المعاد (ج ١٢١/١) .

٣ - كتاب النبي ﷺ إلى كِسْرَى ملك الفرس :

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن خَدَافَةَ السَّهْمِيَّ (١) ، رضي الله عنه ، إلى كِسْرَى بن هِرْمِز ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين المنذر بن ساوَى ، ليدفعه عظيم البحرين إلى كِسْرَى . وهذا نص الكتاب :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَدْعُوكَ بِدَعَاءِ اللَّهِ ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِأَنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، فَأَسْلِمُ تَسْلِمًا ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ إِثْمَ الْمَجُوسِ عَلَيْكَ » .

فلما قرىء الكتاب على كِسْرَى أخذه فزقه وقال : يكتب إليّ هنا وهو عبدي ! ولما بلغ ذلك النبي ﷺ دعا عليهم أن يمزقوا كل ممزق فقال : « اللَّهُمَّ ! مَزَّقْ مُلْكَهُ ! » .

ويقال إن كِسْرَى لما أذن لحامل كتاب رسول الله ﷺ أن يدخل عليه ، أمر أن يقبض منه الكتاب ، فقال : لاحقى أدفعه أنا كما أمرني رسول الله ﷺ ، فقال كِسْرَى : ادنه ، فدنا فنأوله الكتاب ، ثم دعا كاتباً له من أهل الحيرة فقرأه ، فإذا فيه : « مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ » ، فأغضبه حين بدأ رسول الله ﷺ بنفسه وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه ، وأمر بإخراج حامل ذلك الكتاب ، فأخرج ، فلما رأى ذلك قعد على راحلته وقال : والله ما أبالي على أي الطريقين أكون إذا أدت كتاب رسول الله ﷺ ثم سار ، فلما قدم على النبي ﷺ وأخبره بما كان من أمر كِسْرَى قال : « مَزَّقَ كِسْرَى مُلْكَهُ » ، وفي رواية : « مَزَّقَ وَمَزَّقَتْ أُمَّتُهُ » .

وقد كان كما قال رسول الله ﷺ ، فقد كتب كِسْرَى إلى باذان عامله على اليمين : إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فسير إليه فقل له فليَكْفَ عن ذلك ، وإلا فابعث إليه برجلين من عندك جُلْدَيْنِ فليأتياني به ، أو لأبعثنَّ إليه من يقتله ويقتل قومه .

فبعث باذان قَهْرْمَانَهُ (٢) وهو بابوَيْه ، وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له خَرْتُخْسَرَه ، وكتب معها كتاباً إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معها إلى كِسْرَى ، فخرجا حتى قدما الطائِفَ فوجدوا رجلاً من قريش بنخب من أرض الطائِفَ فسألاه عنهما ، فقالوا : هو بالمدينة ، واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم لبعض : أبشروا فقد نَصَبَ (٣) له كِسْرَى ملك الملوك ، كُفَيْتُمُ الرَّجُلَ ! فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ المدينة ، فدفعوا كتاب باذان إليه وقال له بابوَيْه : إن شاهانشاه ملك الملوك كِسْرَى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنتقل معي ، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفكك ويكفنه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت ! فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرَّب بلادك ، فتبسم رسول الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام وكانا على زبي الفرس من حلق لحام وإعفاء شواربهم ، فكره رسول الله ﷺ النظر إليهما ، ثم أقبل عليهما فقال : « وَيُكَلِّمُ ! مَنْ أَمَرَكَمَ بِهَذَا ؟ » قالوا : رَبَّنَا - يعنينا كِسْرَى - فقال رسول الله ﷺ : « لَكِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي بِإِعْفَاءِ لِحَيْتِي وَقَصِّ شَارِبِي » ، ثم قال لهما : « أَرْجِعَا عَنِّي يَوْمَكُمْ هَذَا حَتَّى تَأْتِيَانِي الْعَدَا فَاخْبِرْكُمْ بِمَا أُرِيدُ » .

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء أن الله قد سلط على كِسْرَى ابنه شَيْرَوَيْه يقتله ، فلما كان الغد دعاها رسول الله ﷺ وأخبرها الخبر ، وكتب رسول الله ﷺ إلى باذان : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَنِي أَنْ يَقْتُلَ كِسْرَى فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَكَذَا » . فلما أتى باذان الكتاب توقف لينظر وقال : إن كان نبياً فسيكون ما قال ، فقتل الله كِسْرَى في الوقت الذي قال رسول الله ﷺ .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال لهما : « أُنْبِئَا صَاحِبِكُمَا أَنَّ رَبِّي قَدْ قَتَلَ رَبِّي كِسْرَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لِسَعِّ سَاعَاتٍ مَضَتْ مِنْهَا - وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع - وَأَنَّ اللَّهَ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، سَلَطَ عَلَيْهِ إِثْمَهُ شَيْرَوَيْه فقتله » ، فقالا :

(١) يقال : إنه بعث شجاع بن وهب رضي الله عنه .

(٢) القَهْرْمَانُ : أمين الملك ووكيله ، الخاص بتدبير دخله وخروجه (الوسيط : ج ٧٧٠/٢) .

(٣) يقال : نَصَبَ فلان لفلان نصباً : إذا قصد له وعاداه وتجرده له (لسان العرب : ج ٤٤٣٦/٦) .

هل تدري ما تقول؟ إننا قد تقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك؟! قال: «نعم أخبرناه ذلك عني، وقولاً له: إن ديني وسُلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي إلى منتهى الحنف والحافر، وقولاً له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك قومك من الأبناء»، ثم أعطى خرخرسه منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك. فخرجنا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبره الخبر وقال له: ما رأينا ملكاً أهيب منه، لا يخاف شيئاً، أمناً لا يحرس، ولا يرفع أصحابه أصواتهم عنده، فقال: والله ما هذا بملك، وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول، ولننظرن ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً ما فيه كلام إنه لنبي مرسل، وإن لم يكن فسرى فيه رأينا، فلم ينشأ باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد! فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجميرهم^(١) في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذلي الطاعة من قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه، فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس، من كان منهم بالين، فكانت حمير تقول لخرخرسه: ذو المعجزة^(٢)، للمنطقة التي أعطاه إياها رسول الله ﷺ، والمنطقة بلسان حمير المعجزة، فبنوه اليوم ينسبون إليها خرخرسه ذو المعجزة.

ولما أسلم باذان بعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه وإسلام من معه، فاستعمله رسول الله ﷺ على اليمن، فلم يزل عليها حتى مات بعد حجة الوداع، ففرق رسول الله ﷺ عليها بين جماعة من أصحابه^(٣).

وملك الله المسلمين ملك كسرى وخزائنهم في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ومزقههم الله كل ممزق تحقيقاً لدعوة النبي ﷺ فيهم وبشارته لأصحابه، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزها في سبيل الله»^(٤).

وعن جابر بن سمرة، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتفتحن عصاة من المسلمين أو من المؤمنين كنز آل كسرى الذي في الأبيض»^(٥).

٤ - كتاب النبي إلى المقوقس^(٦) ملك الإسكندرية :

وبعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة، رضي الله عنه، إلى المقوقس عظيم القبط صاحب الإسكندرية يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من أتبع الهدى. أما بعد، فأني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتيك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون».

فلما انتهى الكتاب إلى المقوقس أخذه فقبله ثم قرأه، وأكرم حاطباً وأحسن نزله، ثم بعث إليه وقد جمع بطارقه فقال: إني سأكلك بكلام وأحب أن تفهمه مني، قال حاطب: هلم، فقال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟ قال: بلى، هو رسول الله، فقال: فإله حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال حاطب: ألسنت تشهد أن عيسى ابن مريم

(١) التجمير: جمع الجيش في الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهلهم (النهاية: ج ٢٩٢/١).

(٢) سميت بالمعجزة، لأنها تلي عجز المنتطق بها (النهاية: ج ١٨٦/٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٧٢/١)، وصحيح البخاري (ج ١٠/٦) كتاب المغازي - باب كتاب النبي ﷺ إلى كبرى وقصر، وسنن ابن منصور

(ج ١٨٩/٢)، وجمع الزوائد (ج ٢٨٧/٨)، وطبقات ابن سعد (ج ٢٥٩/١ - ٢٦٠)، وتاريخ الطبري (ج ٦٥٤/٢ - ٦٥٥)، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ٤٤٩/٢)، ودلائل البيهقي (ج ٣٨٨/٤).

(٤) صحيح البخاري (ج ١٦٠/٨) كتاب الأيمان والنذور - باب كيف كانت بين النبي ﷺ.

(٥) صحيح مسلم (ج ٢٢٣٧/٤) كتاب الفتن وأشرط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى ير الرجل بقر الرجل .. ج ٧٨.

(٦) المقوقس: لقب لكل من ملك مصر، وكان اسم هذا المقوقس: جريج بن ميناء. انظر: عيون الأثر (ج ٢٦٦/٢).

رسول الله ، فإله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله ، عز وجل ، حتى رفعه الله إليه في السماء الدنيا ؟ فقال المقوقس : أنت حكيم جاء من عند حكيم . ثم قال له حاطب رضي الله عنه : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى - يعني فرعون - فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك ، فقال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه ، فقال حاطب : ندعوك إلى دين الله ، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ماسواه ، إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارته موسى ببعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، ومادعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً منهم من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبي ، ولسنا ننهك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به ، فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الحباء والإخبار بالنجوى ، وسأنظر ، وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق^(١) من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى النبي ﷺ : قد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم ، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها وهي دلدل .

ولم يزد على هذا ولم يُسلم ، وقال لحاطب : القبط لا يطاوعوني في أتباعه ، ولا أحب أن تعلم بمحاوري إياك ، وأنا أضن بملكي أن أفارقه ، وسيظهر على البلاد وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده ، فارجع إلى صاحبك فقد أمرت له بهدايا ، وارجل من عندي ولا تسع منك القبط حرفاً واحداً ، وأرسل معه حراساً حتى يصل إلى مأمته . قال حاطب رضي الله عنه : فرحلت من عنده وقد كان لي مكراً في الضيافة وقلة اللبث ببابه ، ما أقمت عنده إلا خمسة أيام ، وإن وفود العجم ببابه منذ شهر وأكثر .

قال حاطب رضي الله عنه : فذكرت قوله لرسول الله ﷺ فقال : « ضن الحبيث بملكه ، ولا تبأ لمملكه » ، وقبل رسول الله ﷺ هديته ، وأخذ الجاريتين وهما ماريّة وأختها سيرين ، ويقال : إنه بعث له بألف مثقال ذهباً ، وعشرين ثوباً من قباطي مصر ، وطيب وعود^(٢) ومسك ، وقدح من قوارير فكان ﷺ يشرب فيه ، ومكحلة من عيّدان^(٣) شامية ، ومراة ، ومشط ، وأهدى له من عسل بنّها^(٤) فأعجب به النبي ﷺ ودعا في عسل بنّها بالبركة .

ويقال أهدى له أيضاً فرساً يدعى اللزاز ، وحماراً يدعى يعفوراً ، وجارية ثالثة معها خصي يقال له مأبور ، شيخ كبير كان أخا مارية ويقال ابن عمها .

وكان حاطب ، رضي الله عنه ، عرض على ماريّة الإسلام ورغبها فيه فأسلمت قبل أن تصل إلى المدينة ، وأسلمت أختها ، ثم أسلم الخصي بعد في المدينة . ويقال : إن رسول الله ﷺ هو الذي عرض عليها الإسلام لما قدمت المدينة فأسلمت فاتخذ النبي ﷺ ماريّة سرّيّة له ، وحوّلها إلى مال له بالعالية ، كان من أموال بني النضير ، فكانت فيه في الصيف وفي خرافة النخل^(٥) ، فكان يأتيها هناك وكانت حسنة الدين ، وهي التي ولدت له إبراهيم^(٦) . وتوفيت ماريّة في المحرم سنة ست عشرة من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ودفنت بالبقيع ، وكان عمر يجمع الناس بنفسه لشهود جنازتها وصلّى عليها .

أما أختها سيرين فوهبها النبي ﷺ لحسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، فولدت له عبد الرحمن ، ويقال : وهب إحدى الجاريتين لأبي جهّم بن حذيفة أو لجهم بن قيس فهي أم زكريّا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر .

(١) الحق : وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرها (الوسيط : ج ١٨٧/١) .

(٢) العود : ضرب من الطيب يتبخّر به (الوسيط : ج ٦٤١/٢) .

(٣) العيّدان : الطوال من النخل ، الواحدة : عيّدانة (لسان العرب : ج ٢١٦٢/٤) .

(٤) بنّها : قرية في مصر على النيل .

(٥) خرافة النخل : ما خرف منه ، أي : ما اجتنبي من تمره في الحريف . انظر : (لسان العرب : ج ١١٣٧/٢) .

(٦) سيأتي خبر ولادة إبراهيم ابن النبي ﷺ فيما بعد .

وقد بشر النبي ﷺ أصحابه بفتح مصر وأوصى عند وفاته في أهلها فقال : « الله الله في قِبْطِ مِصْرَ ، فَإِنَّكُمْ سَتَظْهَرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَكُونُونَ لَكُمْ عِدَّةً وَأَعْوَاناً فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (١) .

وعن عمر مولى غُفْرَةَ أن رسول الله ، ﷺ ، قال : « الله الله في أهلِ الذِّمَّةِ ، أهلِ المَدِينَةِ (٢) السُّوداءِ السُّحْمِ (٣) الجِعَادِ ، فَإِنَّ لَهُمْ نَسَباً وَصِهراً » . قال عمر مولى غُفْرَةَ : نسبهم أن أم إسماعيل النبي ﷺ منهم ، وصهرهم أن رسول الله ﷺ تَسَرَّرَ (٤) فيهم (٥) .

٥ - كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق :

وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي ، رضي الله عنه ، إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً هذا نصه : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، وَأَمَّنَ بِهِ ، إِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحَدَّةَ لَأَشْرِيكَ لَهَ ، يَبْقَى لَكَ مُلْكُكَ » .

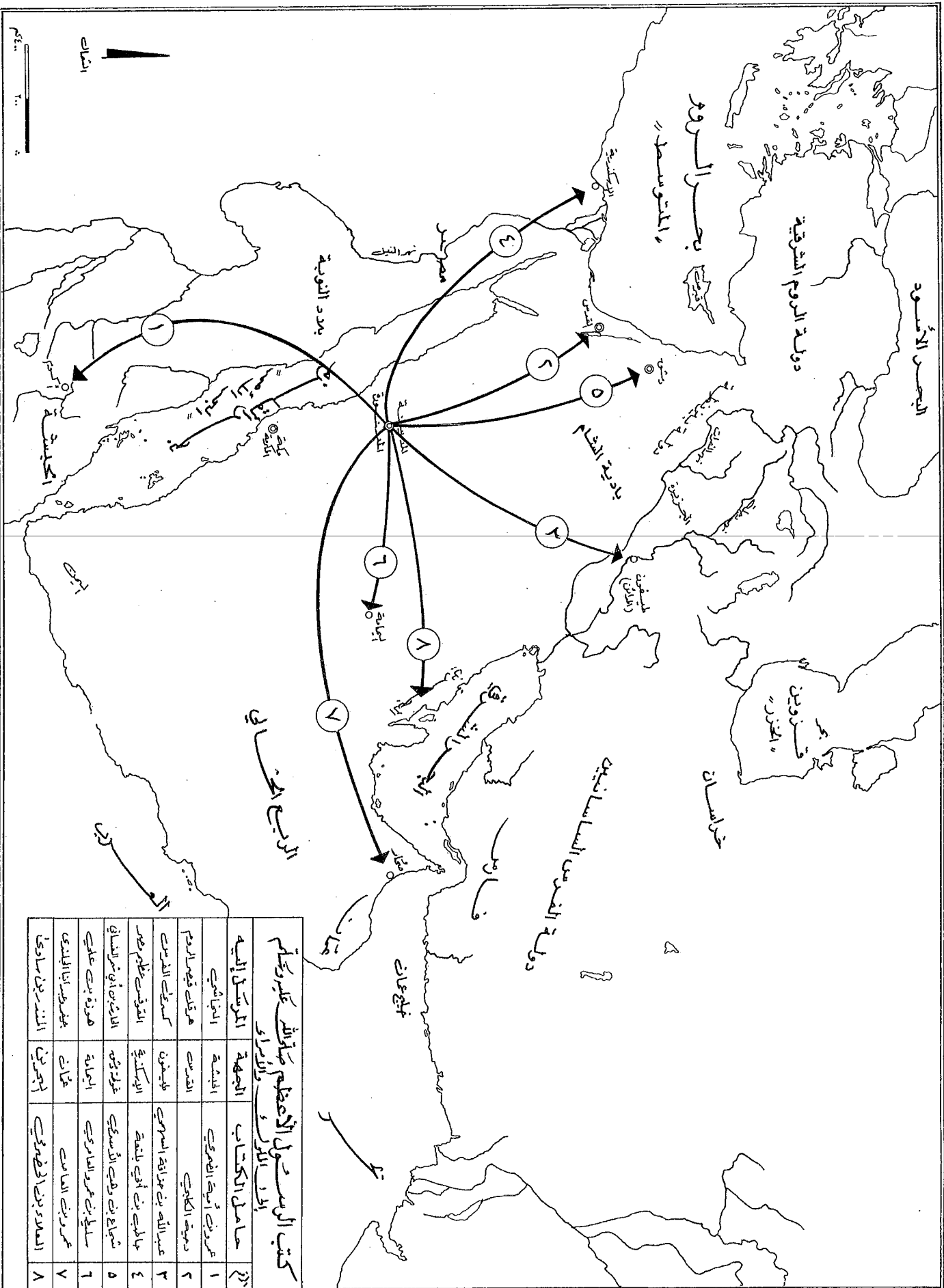
قال شجاع رضي الله عنه : فخرجت حتى انتهيت إليه فوجدته مشغولاً بتهيئة الضيافة لقيصر وقد جاء من حمص إلى إيلياء شكراً لله تعالى حيث أظهر الله تعالى الروم على فارس ، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إني رسول رسول الله ﷺ إليه ، فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا ، وجعل حاجبه - وكان رومياً - اسمه مري - يسألني عن رسول الله ﷺ ، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه فيرقّ حتى يغلبه البكاء ويقول : إني قد قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي بعينه ، فأنا أومن به وأصدقّه ، وأخاف من الحارث أن يقتلني . قال شجاع : فكان هذا الحاجب يكرمني ويحسن ضيافتي ، فخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على رأسه ، فأذن لي عليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه ثم رمى به وقال : من ينتزع مني ملكي ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جنته ، علي بالناس ! فلم يزل يَفْرِضُ (٦) حتى قام ، وأمر بالخيول تُنْعَلُ (٧) ، ثم قال : أخبر صاحبك ماتري ، وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر : أن لا تسر إليه وآله عنه (٨) ووافني بإيلياء ، فلما جاء جواب كتابه دعاني فقال : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ فقلت : غداً ، فأمر لي بمائة مثقال ذهب . ووصلني مري ، وأمر لي بنفقة وكسوة ، وقال : أقرىء رسول الله ﷺ مني السلام .

فقدمت على النبي ﷺ فأخبرته ، فقال : « بَادَ مُلْكُكَ ! » وأقرأته من مري السلام وأخبرته بما قال ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَ » . ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح (٩) .

٦ - كتاب النبي ﷺ إلى هُوْدَةَ بن علي ملك اليمامة :

وبعث رسول الله ﷺ سَلِيْطَ بن عمرو العامري ، رضي الله عنه ، إلى هُوْدَةَ بن علي الحنفي صاحب اليمامة (١٠) يدعوه إلى الإسلام

- (١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣٤/١ ، ٢٦٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩١) و (ج ٢١٢/٨ ، ٢١٦) ، وجمع الزوائد (ج ١٥٢/٤) و (ج ٧٧/٥) و (ج ٦٢/١٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٩٥/٤ ، ٣٩٦) ، وعيون الأثر (ج ٢٦٦/٢) ، وزاد المعاد (ج ٦٩١/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٥٠/٣) .
- (٢) المَدِينَةُ : القرية المبنية بالطين واللبن ، أو المدينة الضخمة (لسان العرب : ج ٤١٦٠/٦) .
- (٣) السُّحْمُ : السود (لسان العرب : ج ١٩٥٩/٣) .
- (٤) تَسَرَّرَ : اتَّخَذَ سَرِيَّةً ، وهي الجارية ، نسبت إلى السَّرِّ وهو النكاح (لأن الإنسان يستترها عن حُرَّتِهِ) . وقيل : إلى السَّرِّ وهو السُّرُورُ (لأنها موضع سُرُورِ الرَّجُلِ) (لسان العرب : ج ١٩٩٠/٣) .
- (٥) سيرة ابن هشام (ج ٤/١) .
- (٦) الْفَرَضُ : العَطِيَّةُ الْمُرْسُومَةُ ، وَفَرَضَ لَهُ فَرِيضَةً : إِذَا جَعَلَ لَهُ فَرِيضَةً (لسان العرب : ج ٢٣٨٧/٥) .
- (٧) نَعَلَ الدَّابَّةَ : كَسَا حَافِزَهَا أَوْ حَفَهَا مَا يَبْقِيهِ (الوسيط : ج ٩٤٢/٢) ، أي أمر أن تجعل للخيول نعال وذلك للتهيؤ للغزو .
- (٨) أي أتركه وأعرض عنه (لسان العرب : ج ٤٠٩٠/٥) .
- (٩) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٦١/١) ، وتاريخ الطبري (ج ٦٥٢/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٥٥/٣) .
- (١٠) في سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/٤) أنه ﷺ بعثه إلى ثمامة بن أثال وهُوْدَةَ بن علي ملكي اليمامة .



كتب الرسائل الأربعة التي كتبها القسطنطين الأول إلى الإمبراطور البيزنطي

الوجهة	حامل الكتاب
البيزنطية	عمرو بن أمية القزويني
الجمهورية	دمية الكلبجي
مملكة قيساريون	عبدالله بن جراحة السمرقندي
كسرى ملك الفرس	علي بن ابي طالب
الفرس في عظيم مصر	شجاع بن وهب الأسدي
الارمن في ارض الساسانيين	سلطان بن عمرو العامري
هرون بن عيسى	عمرو بن العاصم
مخضرم بن ابي العلاء	السندي بن ابي نصر
المنصور بن سادق	أبو جعفر

- وكان يدين بالنصارينة - وكتب معه كتاباً هذا نصه : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هُوْدَةَ بْنِ عَلِيٍّ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، وَاعْلَمُوا أَنَّ دِينِي سَيَطْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخَفِّ وَالْحَافِرِ ، فَأَسْلِمُوا تَسْلِمًا ، وَأَجْعَلْ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ » .

فلما قدم سليط ، رضي الله عنه ، إلى هُوْدَةَ أَنْزَلَهُ وَحَبَاهُ ، وَقَرَأَ كِتَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ رَدًّا دُونَ رَدِّ ، فَقَالَ لَهُ سَلِيطٌ : يَا هُوْدَةَ ! إِنَّكَ سَوْدَتُكَ أَعْظَمُ حَائِلَةً ، وَأَرْوَاحُ فِي النَّارِ ، وَإِنَّمَا السَّيِّدُ مِنْ مَنَعٍ بِالْإِيمَانِ ، ثُمَّ زُوِّدَ التَّقْوَى ، وَإِنْ قَوْمًا سَعِدُوا بِرَأْيِكَ فَلَا تَشَقُّ بِهِ ، وَإِنِّي أَمْرُكَ بِيَجْرٍ مَأْمُورٌ بِهِ ، وَأَنْهَاكَ عَنْ شَرِّ مَنَهَيْ عَنْهُ ، أَمْرُكَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ ، وَأَنْهَاكَ عَنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ ، فَإِنَّ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ الْجَنَّةَ وَفِي عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ النَّارَ ، فَإِنْ قَبِلْتَ نِلْتَ مَارْجُوتَ ، وَأَمِنْتَ مَا خِفْتَ ، وَإِنْ أَيْبَيْتَ فَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كَشْفُ الْغَطَاءِ وَهَوْلُ الْمَطْلَعِ . فَقَالَ هُوْدَةُ : يَا سَلِيطُ ! سَوْدَنِي مَنْ لَوْ سَوْدَكَ شَرَّفَتْ بِهِ - وَكَانَ كَسْرِي قَدْ تَوَجَّهَ - وَقَدْ كَانَ لِي رَأْيٌ أَخْتَرُ بِهِ الْأُمُورَ فَفَقَدْتَهُ فَوَضَعَهُ مِنْ قَلْبِي هَوَاءً ، فَاجْعَلْ لِي فُسْحَةً يَرْجِعُ إِلَيَّ رَأْيِي فَأَجِيبَكَ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثم إن هُوْدَةَ كَتَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ جَوَابَ كِتَابِهِ وَقَالَ فِيهِ : مَا أَحْسَنَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ وَأَجْمَلَ ، وَأَنَا شَاعِرٌ قَوْمِي وَخَطِيبُهُمْ ، وَالْعَرَبُ تَهَابُ مَكَانِي ، فَاجْعَلْ لِي بَعْضَ الْأُمْرِ أَتْبِعُكَ . وَيَذْكُرُ أَنَّهُ حِينَ كَتَبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا كَتَبَ كَانَ عِنْدَهُ أُرْكُونٌ (١) دِمَشْقَ ، عَظِيمٌ مِنْ عِظَاهِ النَّصَارَى ، فَسَأَلَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : جَاءَنِي كِتَابُهُ يَدْعُونِي إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ أَجِبْهُ ، قَالَ الْأُرْكُونُ : لِمَ لَا تَجِيبُهُ ؟ قَالَ : ضَنْنْتُ بِدِينِي وَأَنَا مَلِكٌ قَوْمِي ، وَإِنْ تَبِعْتَهُ لَمْ أَمْلِكْ ، قَالَ : بَلَى وَاللَّهِ ، لَأَنْ تَبِعْتَهُ لَيَمْلِكَنَّكَ ، فَإِنَّ الْخَيْرَةَ لَكَ فِي اتِّبَاعِهِ ، وَإِنَّهُ لِلنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ عِنْدَنَا فِي الْإِنْجِيلِ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ .

وأجاز هُوْدَةَ سَلِيطُ بْنُ عَمْرٍو ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، بِجَائِزَةٍ وَكَسَاهُ أَثْوَابًا مِنْ نَسِجِ هَجَرَ (٢) ، فَقَدِمَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَخْبَرَهُ عَنْهُ بِمَا قَالَ ، وَقَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ كِتَابَهُ فَقَالَ : « لَوْ سَأَلَنِي سَيَابَةُ (٣) مِنَ الْأَرْضِ مَا قَعَلْتُ ، بَادَ وَبَادَ مَا فِي يَدَيْهِ » - وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ قَالَ : « لَا ، وَلَا كَرَامَةً ، اللَّهُمَّ ! اكْفِنِيهِ » .

فلما انصرف رسول الله ﷺ من فتح مكة ، جاءه جبريل ، عليه السلام ، فأخبره أن هُوْدَةَ قد مات ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه ثم قال : « أَمَا إِنَّ الْيَمَامَةَ سَيَخْرُجُ بِهَا كَذَابٌ يَتَنَبَّأُ ، يُقْتَلُ بَعْدِي » ، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه - وكان قد أسلم - : يارسول الله ! من يقتله ؟ فقال : « أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ » ، فكان كذلك (٤) .

تلك الكتب الستة التي بعث النبي ﷺ بها رسله في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع للهجرة ، وقد كتب رسول الله ﷺ كتباً أخرى بعث بها إلى ملوك عُمان والبحرين واليمن سنأتي على ذكرها في حينها إن شاء الله تعالى .

- ويذكر أيضاً أن رسول الله ﷺ بعث شجاع بن وهب ، رضي الله عنه ، إلى جَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ مَلِكِ غَسَّانَ (٥) ، وكتب إليه يدعوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَسْلَمَ وَكَتَبَ بِإِسْلَامِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً ، وَلَمْ يَزَلْ مُسَلِّمًا حَتَّى كَانَ فِي زَمَانِ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي سُوقِ دِمَشْقَ إِذْ وَطِئَ رَجُلًا مِنْ مَرْيَتَةَ ، فَوَثَبَ الْمَرْيَتِيُّ فَلَطَمَهُ ، فَأَخَذَ وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى أَبِي عَبِيدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، فَقَالُوا : هَذَا لَطَمَ جَبَلَةَ ، قَالَ : فَلْيَلطِمْهُ ، قَالُوا : وَمَا يَقْتُلُ ؟ قَالَ : لَا ، قَالُوا : فَا تَقْطَعُ يَدَهُ ؟ قَالَ : لَا ، إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ ،

(١) الْأُرْكُونُ : الْعَظِيمُ مِنَ الدَّهَاقِينِ ، أَوْ رَئِيسُ الْقَرْيَةِ ، وَهُوَ أَفْعُولٌ مِنَ الرُّكُونِ : السُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ وَالْمِيلُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ أَهْلَهَا يُرْكَنُونَ إِلَيْهِ ، أَي : يَسْكُنُونَ وَيَمِيلُونَ (لسان العرب : ج ١٧٢٢/٣) .

(٢) هَجَرَ : قَصَبَةُ بِلَادِ الْبَحْرَيْنِ (معجم البلدان : ج ٤٤٦/٨) .

(٣) السَّيَابَةُ : الْبَلْحَةُ (النهاية : ج ٤٣٧/٢) ، وَفِي السَّيْرَةِ الْحَلِيبِيَّةِ (ج ٢٥٤/٣) السَّيَابَةُ : قِطْعَةٌ مِنَ الْأَرْضِ .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٦٢/١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٥٤/٣) ، وفتوح البلدان (ص : ٩٧) ، وزاد المعاد (ج ٦٩٧/٣) ، والروض الأنف (ج ٦٨/٤) .

(٥) لم يتبين لنا زمن بعث شجاع ، رضي الله عنه ، إلى ملك غسان ، ولعل ذلك كان بعد غزوة تبوك بزمان أي في أواخر السنة التاسعة أو في السنة العاشرة للهجرة .

تبارك وتعالى ، بالقَوْد^(١) ، قال جَبَلَة : أوترون أني جاعل وجهي نِداً لوجه جَدِّي جاء من عَمَق^(٢) ؟ بس الدين هذا ! ثم ارتد نصرانياً وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم^(٣) .

☆ ☆ ☆

إسلام قُرَوَة بن عمرو الجذامي :

كان قُرَوَة بن عمرو الجذامي عاملاً لقيصر الروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله مَعَان^(٤) وماحولها من أرض الشام ، وقيل : كان عامله على عَمَان من أرض البَلْقَاء^(٥) ، فلم يكتب إليه رسول الله ﷺ كما كتب إلى الملوك والأمراء ، فأسلم وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه وبعث به مع رجل من قومه يقال له مسعود بن سعد ، وأهدى له بغلة بيضاء يقال لها فِضَّة ، وفرساً يدعى الظَّرب ، وحراراً يدعى عَفِيرًا ، وأثواب لين ، وقبَاء^(٦) سُدَس مَخَوَص بالذهب^(٧) .

فقرأ رسول الله ﷺ كتابه ، وقبل هديته ، وكتب إليه جواب كتابه : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى قُرَوَة بْنِ عَمْرٍو ، أَمَا بَعْدُ ، فَقَدْ قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُكَ ، وَبَلَغَ مَا أُرْسَلْتَ بِهِ ، وَخَبَّرَ عَمَّنْ قَبْلَكَمْ ، وَأَتَانَا بِإِسْلَامِكَ وَأَنَّ اللَّهَ هَدَاكَ بِهَدَاةِ إِنْ أَصْلَحْتَ وَأَطَعْتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَقَمْتَ الصَّلَاةَ وَآتَيْتَ الزَّكَاةَ » ، وأمر بلالاً ، رضي الله عنه ، فأعطى رسوله مسعود بن سعد اثنتي عشرة أوقية ونشأ .

فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم ، وقالوا له : ارجع عن دينك نملكك ، قال : لأفارق دين محمد ، وقال للملكهم : وإنك تعلم أن عيسى قد بشر به ، ولكنك تظن بملكك . فأمر به أن يقتل ، فأخرجوه ليصلبوه على ماء لهم يقال له عَفْرَى بِفَلَسْطِينَ ، فلما قدموه ليقتلوه قال :

بَلِّغْ سَرَاةَ الْمَسَامِينِ بِأَنِّي سَلِمْتُ لِرَبِّي أَعْظَمِي وَمَقَامِي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء رحمه الله تعالى ورضي عنه^(٨) .

إسلام رِفَاعَة بن زيد الجذامي :

وقدم على رسول الله ﷺ في هُدنة الحُدَيْبِيَّة قبل خَيْبَر رِفَاعَة بن زيد الجذامي ثم الضَّبِّي ، فأهدى لرسول الله ﷺ غلاماً يدعى مِدْعَمًا ، وأسلم فحسن إسلامه ، وكتب له النبي ﷺ كتاباً إلى قومه : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِرِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ ، إِنِّي بَعَثْتُهُ إِلَى قَوْمِهِ عَامَّةً وَمَنْ دَخَلَ فِيهِمْ ، يَنْدَعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ، فَمَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ فَمِنْ حِزْبِ اللَّهِ وَحِزْبِ رَسُولِهِ ، وَمَنْ أَدْبَرَ فَلَهُ أَمَانٌ شَهْرَيْنِ » .

فلما قدم رِفَاعَة على قومه أجابوا وأسلموا ، ثم ساروا إلى الحَرَّة حَرَّة الرَّجْلَاء^(٩) ونزلوها^(١٠) .

(١) القَوْد : القِصَاص . وقد تقدم .

(٢) عَمَق : مَوْضِعٌ قُرْبَ الْمَدِينَةِ ، وَهُوَ مِنْ بِلَادِ مَرْيَنَةَ (معجم البلدان : ج ٢٢٢/٦) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٦٥/١) .

(٤) مَعَان : مَدِينَةٌ فِي طَرَفِ بَادِيَةِ الشَّامِ تَلْقَاءَ الْحِجَازِ مِنْ نَوَاحِي الْبَلْقَاءِ ، وَالْمَحْدَثُونَ يَرَوْنَهَا بِضَمِّ الْمِيمِ : مَعَان (معجم البلدان : ج ٩٢/٨) .

(٥) الْبَلْقَاءُ : كَوْرَةٌ مِنْ أَعْمَالِ بَمَشَقَ بَيْنِ الشَّامِ وَوَادِي الْقُرَى ، قُبَّتْهَا عَعَانُ ، وَفِيهَا قُرَى كَثِيرَةٌ وَمَزَارِعٌ وَاسِعَةٌ (معجم البلدان : ج ٢٧٧/٢) .

(٦) الْقَبَاءُ : ثَوْبٌ يُلْبَسُ فَوْقَ الثِّيَابِ أَوْ الْقَمِيصِ وَيَتَمَنَّهُ عَلَيْهِ (الوسيط : ج ٧٢/٢) .

(٧) مَخَوَصٌ بِالذَّهَبِ : أَي عَلَيْهِ صَفَائِحُ الذَّهَبِ مِثْلُ خَوْصِ النَّخْلِ ، وَهُوَ وَرَقَةٌ (النهاية : ج ٨٧/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦١/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٦٢/١) ، (٢٨١) .

(٩) الْحَرَّةُ الرَّجْلَاءُ : الصَّلْبَةُ الشَّدِيدَةُ ، وَهُوَ عَلَمٌ لِحَرَّةِ بَيْنِ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ (معجم البلدان : ج ٢٥٧/٢) .

(١٠) سيرة ابن هشام (ج ٢٦٧/٤) .

سريّة زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى حسّمي (١) :

وسببها أن دحيّة بن خليفة ، رضي الله عنه ، لما أقبل من عند هرقل - حين بعثه رسول الله ﷺ إليه بكتابه يدعو إلى الإسلام - وقد أجازته وكساه ومعه تجارة له ، لقيه الهنيد بن عارض وابنه عارض بن الهنيد - ويقال ابن عوص فيها بدل عارض - الضلعيان (٢) في ناس من جذام بحسّمي ، أو بوادي سنار (٣) ، فقطعوا عليه الطريق فأصابوا كل شيء كان معه ، فلم يتركوا عليه إلا سمل ثوب (٤) ، فسمع بذلك نفر من بني الضبب رهط رفاة بن زيد الجذامي من كان أسلم وأجاب ، فنفروا إليهم فاقتتلوا ، فاستنقذوا لدحيّة متاعه فردّوه عليه .

فخرج دحيّة ، رضي الله عنه ، حتى قدم المدينة فلم يدخل بيته حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك واستسقاء دم الهنيد وابنه ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، إلى حسّمي في خمسمائة رجل وردّ معه دحيّة ، فكان زيد يسير الليل ويكن النهار ، ومعه دليل من بني عذرة ، فأقبل بهم حتى هجموا مع الصبح على القوم فأغاروا عليهم ، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً ، وقتلوا الهنيد وابنه ، وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم ونسائهم ، فأخذوا من النعم ألف بعير ، ومن الشاء خمسة آلاف شاة ، ومن السبي مائة من النساء والصبيان .

فلما سمع بنو الضبب بما صنع زيد بن حارثة ركب نفر منهم : حسّان بن ملة وأنيث بن ملة وأبو زيد بن عمرو ، فلما وقفوا على زيد بن حارثة قال حسّان : إنا قوم مسلمون ، فقال له زيد : فاقرا أم الكتاب ، فقرأها حسّان ، فقال زيد : نادوا في الجيش : إن الله قد حرّم علينا ثغرة القوم التي جاؤوا منها إلا من ختر (٥) ، وكانت أخت حسّان في الأسارى ، فقال له زيد : خذها ، فقالت امرأة : أنتظلقون بيناتكم وتذرون أمهاتكم ؟ فقال زيد لأخت حسّان : اجلسي مع بنات عمك حتى يحكم الله فيكنّ حكمه ، ونهى الجيش أن يهبطوا إلى واديهم الذي جاؤوا منه .

ورجع حسّان ومن معه فأمسوا في أهلهم ، فلما شربوا عتّمهم (٦) ركبوا إلى رفاة بن زيد حتى صبحوه بكراع ريّة بظهر حرة الرجلاء ، فقال له حسّان : إنك جالس تحلب المعزى ونساء جذام أسارى قد غرّها كتابك الذي جئت به ، فدعا رفاة بن زيد بجمل له ، فشدّ عليه رخله وخرج ، وخرج معه نفر من قومه ، فساروا ثلاث ليال حتى قدموا المدينة وانتهوا إلى المسجد ، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ ورآهم ألاح إليهم بيده أن تعالوا من وراء الناس ، فاستفتح رفاة المنطق ، فقام رجل من الناس فقال : يا رسول الله ! إن هؤلاء قوم سحرة (٧) ، فردّدها مرتين ، فقال رفاة : رحم الله من لم يخذنا في يومنا هذا إلا خيراً (٨) ، ثم دفع رفاة إلى رسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتب له ولقومه لياي قدم عليه فأسلم ، وقال له : دونك يا رسول الله قدياً كتابه حديثاً غدرة ، فقال رسول الله ﷺ : « اقرأه يا غلام وأعلن » ، فلما قرأ كتابه استخبرهم ، فأخبروه الخبر ، فقال النبي ﷺ : « كيف أصنع بالقتلى ؟ » ثلاث مرار ، فقال رفاة : أنت يا رسول الله أعلم ، لا نحرّم عليك حلالاً ولا نحلّ لك حراماً ، فقال أبو زيد بن عمرو : أطلق لنا

(١) حسّمي : موضع من أرض جذام ببادية الشام ، وهي وراء وادي القرى . انظر : (معجم البلدان : ج ٢٧٦/٣) . وقد ذكر ابن سعد هذه السرية في الطبقات (ج ٨٨/٢) قبل الحديبية ، فجعلها في جمادى الآخرة سنة ست ، والصحيح أنها بعد الحديبية ، لأن هذه السرية كان سببها - كما سنذكر - إغارة قوم من جذام على دحيّة الكلب ، رضي الله عنه ، منصرفه من عند قيصر ، وبعث دحيّة إليه إما كان بعد الحديبية بلا شك .

(٢) الضلعيّ : بطن من جذام ، وكذلك الضبب .

(٣) سنار : واد بالشّام ، ويقال أيضاً شنان (معجم البلدان : ج ٢٩٩/٥) .

(٤) السمل : الحلق من الثياب (النهاية : ج ٤٠٣/٢) .

(٥) ختر : غدر (النهاية : ج ٩/٢) .

(٦) العتّم هنا : الحلاب ، وهم يسعون الحلاب عتّم باسم الوقت ، والعتّم : ثلث الليل الأول بعد غيوبة الشفق (لسان العرب : ج ٢٨٠/٢ - ٢٨٠/٣) .

(٧) أي عندهم فصاحة لسان وبيان . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٩٠/٢) .

(٨) الحديّة : العطيّة (لسان العرب : ج ٨١٥/٢) . يريد : لم يُعطينا من كلامه ومشوّره إلا خيراً .

يارسول الله من كان حياً ، ومن قُتل فهو تحت قدمي هاتين ، فقال له رسول الله ﷺ : « صدق أبو زيد ، اركب معهم يا علي » فأمره أن يأتي زيد بن حارثة ليأمره أن يحلّي بين القوم وبين حرّمهم وأمواهم ، فقال علي رضي الله عنه : إن زيدا لن يطيعني يارسول الله ، قال : « فخذ سيفي هذا » ، فأعطاه سيفه ، فقال علي : ليس لي يارسول الله راحلة أركبها ، فحملوه على بعير وخرجوا ، فإذا رافع بن مكّيث الجهني رسول زيد بن حارثة على ناقة من إبلهم ، فأنزلوه عنها ، فقال : يا علي ! ماشأني ؟ فقال : ماألهم عرفوه فأخذوه ، ثم ساروا فوجدوا زيد بن حارثة بفيفاء الفحلّتين ، وهي بين المدينة وذي المروة ، فأبلغه علي أمر رسول الله ﷺ ، فقال زيد : علامة من رسول الله ! فقال علي : هذا سيفه ! فعرفه زيد ، فنزل وصاح بالناس فاجتمعوا ، فقال : من كان بيده شيء من سبي أو مال فليرده فهذا رسول رسول الله ﷺ ، فردّ إلى القوم كل ما كان أخذ لهم^(١) . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

ما أصاب النبي ﷺ من سحر يهود^(٢) :

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة ودخل الحرم جاءت رؤساء اليهود الذين بقوا بالمدينة ممن يظهر الإسلام وهو منافق إلى كبيد بن الأعصم اليهودي ، وكان حليفاً في بني زريق ، وكان ساحراً قد علمت ذلك يهود أنه أعلمهم بالسحر ، فقالوا له : يا أبا الأعصم ! أنت أسحر منا ، وقد سحرنا محمداً فسحره منا الرجال والنساء فلم نضع شيئاً ، وأنت ترى أثره فينا وخلافه ديننا ومن قتل منا وأجلى ، ونحن نجعل لك على ذلك جُعلاً^(٣) على أن تسحره لنا سحراً ينكوه^(٤) ، فجعلوا له ثلاثة دنانير على أن يسحر رسول الله ﷺ ، فعمد إلى مشط ومشاطة^(٥) فعقد فيه عقداً وتفل فيه تفلأ ، وجعله في جب^(٦) طلقة ذكر ، ثم انتهى به حتى جعله تحت أرغوفة البئر^(٧) ، فوجد رسول الله ﷺ أمراً أنكره حتى يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله^(٨) ، وحتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن^(٩) ، وهذا أشد ما يكون من السحر .

ويروى أن رسول الله ﷺ مرض مرضاً شديداً ، وأخذ عن النساء وعن الطعام والشراب ، فكان يذوب ولا يدري ماوجعه ، حتى التبس بصره وعاده أصحابه ، واحتجم بقرن^(١٠) على ذؤابتيه .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٥/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٨٧٢) ، ومغازي الواقدي (ج ٥٥٥/٢ ، ٥٥٩) .

(٢) السحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز طرؤه على الأنبياء كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدر في نبوتهم . وسيتبين لنا من مضمون الروايات التي سنوردها فيما أصابه ﷺ من السحر أن السحر إنما تسلط على ظاهره وجوارحه ، لا على قلبه واعتقاده وعقله ، وأنه إنما أثر في بصره وحسه عن نسائه وطعامه ، وأضعف جسمه وأمراضه . فليس في إصابة السحر له ﷺ وتأثيره فيه ما يدخل كبساً في أمره أو شرعه . انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى / للقاضي عياض (ج ٤١٢/٢ - ٤١٥) .

(٣) الجعل : ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة . وقد تقدّم .

(٤) ينكأ : يقتل (الوسيط : ج ٩٥٧/٢) .

(٥) المشاطة : ما يخرج من الشعر إذا مشط .

(٦) الجب والحف : وعاء طلع النخل (النهاية : ج ٢٣٤/١) .

(٧) أرغوفة البئر وراغوفتها : هي صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت تكون نائمة هناك ، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس النبي عليها ، وقيل : هي حجر يكون على رأس البئر يقوم المستقي عليها (النهاية : ج ٢٣٥/٢) .

(٨) قيل إن هذا بسبب ما اختل من بصره ﷺ فيظن أنه رأى شخصاً من بعض أزواجه ، أو شاهد فعلاً من غيره ، ولم يكن على ما يخيل إليه لما أصابه في بصره وضعف نظره لالشيء طراً عليه في تمييزه . انظر : الشفا (ج ٤١٥/٢) .

(٩) قيل إن معنى هذا أنه كان يظهر له من نشاطه ومقدّم عاداته القدرة على النساء ، فإذا دنا منهن أصابته أخذة السحر فلم يقدر على إتيانهن . (المصدر السابق) .

(١٠) القرن : اسم مؤنث ، فأما هو المليات أو غيره ، وقيل : هو قرن ثور كالمجتمعة ، وهي الآلة التي يجتمع فيها دم الحجامّة عند المص (النهاية : ج ٥٤/٤ ، ج ٢٤٧/١) .

ويقال إن بنات أعصم أخوات كبيد تولين السحر وكنن أسحر منه وأخبث ، وكان كبيد هو الذي ذهب به فأدخله تحت أرعوفة البئر ، فلما عقدت تلك العقد أنكر رسول الله ﷺ بصره ، ودرس بنات أعصم إحداهن فدخلت على عائشة ، رضي الله عنها ، فخبرتها عائشة أو سمعتها تذكر ما أنكر رسول الله ﷺ من بصره ، ثم خرجت إلى أخواتها وإلى كبيد فأخبرتهم ، فقالت إحداهن : إن يكن نبياً فسيخبر ، وإن يكن غير ذلك فسوف يدهمه (١) . هذا السحر حتى يذهب عقله فيكون بما نالنا من قومنا وأهل ديننا .

فلبث رسول الله ﷺ ستة أشهر ، ويقال سنة ، حتى دلّه الله عليه ، قالت عائشة : حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة عندي دعا الله ، ثم دعا ، ثم دعا ، ثم قال : « يا عائشة ! أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيتني فيه ؟ أتاني ملكان - هما جبريل وميكائيل - فقعدا أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب (٢) ، قال : من طببه ؟ قال : كبيد بن الأعصم ، قال : في أي شيء ؟ قال : في مشطٍ ومشاطية وجفّ طلع نخلة ذكر ، قال : وأين هو ؟ قال : في بئر ذروان (٣) . »

فلما أصبح رسول الله ﷺ بعث عمار بن ياسر ، أو علي بن أبي طالب ، أو جبير بن إياس الزرقي ، رضي الله عنهم ، في نفر فأمرهم أن يأتوا البئر ، فاستخرجوها فجيء بها ، فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عقال (٤) .

وفي رواية عند البخاري أن النبي ﷺ أتى البئر في ناس من أصحابه حتى استخرج السحر . ويمكن الجمع بين الروايات بأنه ﷺ وجه أصحابه أولاً إلى البئر ليستخرجوا السحر ، ثم توجه بنفسه فشاهداها ، فلما رجع جاء عائشة ، رضي الله عنها ، فقال : « يا عائشة ! هذه البئر التي أريتها ، كأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رؤوس الشياطين (٥) » ، فقالت عائشة : يا رسول الله ! أفلا تنشئت (٦) ؟ فقال : « أما الله فقد شفاني ، وأكّره أن أثير على أحد من الناس شراً . »

وفي رواية أخرى عند البخاري أنه ﷺ لم يستخرج السحر ، فقالت له عائشة : يا رسول الله ! أفلا استخرجته ؟ قال : « قد غافاني الله فكريهت أن أتور على الناس فيه شراً » ، فأمر بالبئر فدفت (٧) .

روى البيهقي بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، في قصة السحر أنهم وجدوا في السحر الذي استخرجوه وترأ فيه إحدى عشرة عقدة ، فأنزلت عليه سورة الفلق والناس ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة (٨) .

وفي حديث عن عائشة ، رضي الله عنها ، عند البيهقي أيضاً : فنزل رجل فاستخرج جفّ طلعة من تحت الراعوفة ، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ ومن مرآطة (٩) رأسه ، وإذا تمثال من شمع ، تمثال رسول الله ﷺ ، وإذا فيها إبر مغرزة ، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة ، فأتاه جبريل ، عليه السلام ، بالمعوذتين ، فقال : يا محمد ! ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وحل عقدة ، ﴿ من شر ما خلق ﴾

(١) دلة الرجل : حبر ، والمذلة الذي لا يحفظ ما فعل ولا ما فعل به (لسان العرب : ج ١٤١٧٢) .

(٢) رجل مطبوب : أي مسحور (النهاية : ج ١١٠٧٣) .

(٣) بئر ذروان : هي بئر في بني زريق (معجم البلدان : ج ٤/٢) .

(٤) أي حل : والمقال : الحبل . انظر : (النهاية : ج ٥٧/٥ ، ج ٢٨٠/٣) .

(٥) أي في كراهتها وقبح منظرها ، ويحتمل أنه يريد رؤوس الحيات ، فالعرب تسمي بعض الحيات شيطانا . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٠١/٧) .

(٦) النشرة : ضرب من الرقية والعلاج ، سميت نشرة لأنه يشتر بها عنه ما خامرة من الداء ، أي : يكشف ويرأ (النهاية : ج ٥٤/٥) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٣٨/٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٧٧٧ ، ١٧٧ ، ١٧٨) كتاب الطب - باب السحر ، باب هل يستخرج السحر ، ومسند الإمام أحمد (ج ٦٣/٦) ، وسنن النسائي (ج ١١٣/٧) كتاب تحريم الدم - سحرة أهل الكتاب ، وجمع الزوائد (ج ٢٨١/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٩٦/٢ - ١٩٧ ، ٢٠١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٨/٦) ، والروض الأنف (ج ٢٩٠/٢) .

(٨) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٨/٦) . قال الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية (ج ١٠٢/٧) بعد أن ذكر حديث البيهقي : في سياقه نكارة ومخالفة لحديث الصحيحين ظاهرة ، وقال القسطلاني : إسناده ضعيف لأن فيه الكلي عن أبي صالح وهما ضعيفان .

(٩) المرآطة : ما سقط من الشعر في التشريح أو التنف (الوسيط : ج ٨٧١/٢) .

وحلّ عقدة ، حتى فرغ منها ، ثم قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ وحلّ عقدة حتى فرغ منها ، وحلّ العقد كلها ، وجعل لا ينزع إبرة إلاّ وجد لها ألماً ، ثم يجد بعد ذلك راحة . فقيل : يا رسول الله ! لو قتلت اليهودي ، فقال رسول الله ﷺ : « قَدْ عَاقَبَانِي اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَشَدُّ »^(١) . فما ذكره رسول الله ﷺ لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط^(٢) .

ويقال إن رسول الله ﷺ أرسل إلى لبيد بن الأعصم فقال : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ، فَقَدْ دَلَّنِي اللَّهُ عَلَى سِحْرِكَ وَأَخْبَرَنِي مَا صَنَعْتَ ؟ » فقال : حبّ الدنانير يا أبا القاسم ! فلم يأمر بقتله وعفا عنه ، فكان الرجل بعد يدخل على النبي ﷺ فلا يذكر له شيئاً منه ولا يعاتبه^(٣) .

☆ ☆ ☆

غزوة ذي قرد أو الغابة^(٤) :

وكانت قبل غزوة خيبر بثلاثة أيام كما ورد في الصحيحين^(٥) ، وأجمع أصحاب السير أنها كانت قبل الحديبية ، ولكن ما في الصحيحين أصح ، وصرح ابن القيم بأن ما ذكره أصحاب السير وهم^(٦) . (انظر : مصور السرايا والغزوات بين غزوتي الخندق والحديبية) .

وسببها أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون لفحة ترعى بالغابة ، وكان أبو ذرّ ، رضي الله عنه ، فيها وابنه وامراته ، فأغار عليهم عَيْبَةَ بن حِصْنِ الْفَزَارِيِّ - ويقال : ابنه عبد الرحمن ، ويقال : بل كان مسعدة بن حكمة الفزاريّ رئيس القوم - في أربعين فارساً من غَطَفَانَ ، فاستاقوا اللقاح ، وقتلوا ابن أبي ذرّ ، وأسروا المرأة .

وكان أبو ذرّ ، رضي الله عنه ، استأذن رسول الله ﷺ إلى لقاحه ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ ، وَنَحْنُ لَا نَأْمَنُ عَيْبَةَ وَذَوِيهِ أَنْ يُعِيرُوا عَلَيْكَ » ، فألح عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « لَكَأَنِّي بِكَ قَدْ قَتَلْتُ ابْنَكَ وَأَخَذْتُ امْرَأَتَكَ ، وَجِئْتُ تَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاكَ » . فكان أبو ذرّ يقول : عجباً لي ! إن رسول الله ﷺ يقول : « لَكَأَنِّي بِكَ » وأنا ألح عليه ! فكان والله ما قال .

- وكان أوّل من نذر بهم سلامة بن الأكوخ ، رضي الله عنه ، فإنه خرج هو ورباح غلام النبي ﷺ قبل أن يؤذن لصلاة الصبح نحو الغابة متوشحاً قوسه وتبليه ، ومعه فرس لطلحة بن عبيد الله يقوده ، فلقيه غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال : أخذت لقاح رسول الله ﷺ ، قال : من أخذها ؟ فقال : غَطَفَانَ ، قال سلامة : فقلت : يا رباح ! خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله ، وأخبر رسول الله ﷺ أن المشركين قد أغاروا على سرّحه .

(١) دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٢/٧) .

(٢) انظر : سنن النسائي (ج ١١٣/٧) كتاب تحريم الدم - سحرة أهل الكتاب .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٢٢/٤) كتاب الجهاد والسير - باب هل يعفى عن الذي إذا سحر ، والمستدرك (ج ٣٦٠/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٧/٢) .

(٤) الغابة : موضّع على بريد من المدينة في طريق الشام ، أضيفت إليها الغزوة لأنّ اللقاح التي أُغِيرَ عليها كانت بها ، كما تُعرف الغزوة بذوي قرد ، لأنّ النبي ﷺ وصل إليها وصلّى بها . وذو قرد : ماء على لَيْبَتَيْنِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، بينها وبين خيبر ، انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٤٨/٢) ، ومعجم البلدان (ج ٢٦٠/٦) و (ج ٥٠/٧) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٥/٥) كتاب المغازي - باب غزوة ذات القرد ، وصحيح مسلم (ج ١٣٥/٢) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة ذي قرد وغيرها ح ١٣٢ .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٠/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٤٨/٢) .

وقام سلمة على أكمة^(١) من ناحية سلع فاستقبل المدينة وصرخ بأعلى صوته ثلاث صرخات : يا صباحاه^(٢) ! فسمع ما بين لاتبتي المدينة^(٣) . ثم انطلق يشتد في آثار القوم على رجله كالمسح حتى لحق بهم وقد أخذوا يستقون من الماء ، فجعل يرميهم ببئله - وكان رامياً - ويرتجز يقول :

أنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع^(٤)

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً ، ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمي رمى وهكذا يفعل ، قال : فوالله ما زلت أرميهم وأعقرهم^(٥) ، فإذا رجح إلي فارس أتيت شجرة فجلست في أصلها ثم رميته فعقرت به ، حتى إذا دخلوا في تضاييق الجبل علوته ، فجعلت أردد^(٦) بالحجارة ، فما زلت كذلك أتبعهم حتى استنقذت اللقاح منهم ، ثم أتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رجماً يتخفقون بها ، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه أراماً^(٧) من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى أتوا متضايقاً من ثنية^(٨) فجلسوا يتغنون ، وجلست على رأس قرن^(٩) ، فقال عبيثة : من هذا ؟ قالوا : لقينا من هنا البرح^(١٠) ، والله ما فارقنا منذ غلس يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا ، فقال عبيثة : لولا أنه يرى وراءه طلباً لتركم ، ليقيم إليه نفر منكم أربعة ، قال سلمة : فصعد إلي منهم أربعة في الجبل ، فقلت لهم : هل تعرفوني ؟ قالوا : لا ، ومن أنت ؟ قلت : أنا سلمة بن الأكوع ، والذي كرم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني ، فرجعوا عنه^(١١) .

- خروج النبي ﷺ في طلب القوم :

ولما بلغ رسول الله ﷺ صباح ابن الأكوع ، رضي الله عنه ، صرخ بالمدينة : الفرع الفرع ، ونودي في الناس : يا خيل الله ! اركبي - وكان أول ما نودي بها^(١٢) فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ ، وكان أول من انتهى إليه من الفرسان المقداد بن عمرو ، وهو الذي يقال له ابن الأسود ، حليف بني زهرة ، ثم عباد بن بشر أحد بني عبد الأشهل ، وسعد بن زيد أحد بني كعب بن عبد الأشهل ، وأسيد بن ظهير أخو بني حارثة بن الحارث ، وعكاشة بن محصن أخو بني أسد بن خزيمية ، ومخرز بن فضلة أخو بني أسد بن خزيمية ، وأبو قتادة الحارث بن ربيعة أخو بني سلمة ، وأبو عياش عبيد بن زيد بن الصاميت أخو بني زريق ، رضي الله عنهم ، فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمر عليهم سعد بن زيد الأشهلي ، وقيل المقداد بن عمرو^(١٣) ، وعقد له لواء في رمحه ، ثم قال : « اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس » .

(١) الأكمة : التل . وقد تقدم .

(٢) يا صباحاه : هذه كلمة يقولها المستغيث ، وأصلها إذا صاحوا للغارة ، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، فكان القائل يا صباحاه يقول قد غشينا العدو (النهاية : ج ٦٧٣) .

(٣) سمع ما بين لاتبتي المدينة - وها حرابها - أي : لسعة صوته ، أو أن ذلك وقع خرقاً للمعادة . انظر : السيرة الحلبية (ج ٤٢) .

(٤) الرضع : جمع راضع وهو اللب ، والمعنى : خذ الرمي مني واليوم يوم هلاك اللئام (النهاية : ج ٢٣٠/٢) .

(٥) أعقر بهم : أي أقتل متركوبهم . وقد تقدم .

(٦) أردد بهم : أي أرميهم بالحجارة الثقيلة (النهاية : ج ٢١٧/٢) .

(٧) الأرام : الأغلام ، وهي حجارة تجتمع وتنصب في المفازة يهتدى بها ، واحدها إرم (النهاية : ج ٤٠/١) .

(٨) الثنية في الجبل : كالعقبة فيه أو الطريق العالي فيه ، أو أعلى المسيل في رأسه .

(٩) القرن من الأكمة والجبل : رأسها وأغلاها (الوسيط : ج ٧٢٧/٢) .

(١٠) البرح : الشدة (النهاية : ج ١١٢/١) .

(١١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٦٥/٥) كتاب المغازي - باب غزوة ذات القرد ، وصحيح مسلم (ج ١٤٣٥/٢ - ١٤٣٦) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة ذي قرد وغيرها ح ١٣٢ ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٠/٢ - ٨٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩٠/٤) ، ومغازي الواقدي (ج ٥٢٨/٢) .

(١٢) وقيل : أول ما نودي بها في بني قريظة (السيرة الحلبية : ج ٤٢/٣) .

(١٣) قال ابن سعد : والثبت عندنا أن رسول الله ﷺ أمر على هذه السرية سعد بن زيد ، ولكن الناس نسبوا إلى المقداد لقول حسان بن ثابت : غداة =

وقد قال رسول الله ﷺ لأبي عبيد: « يا أبا عبيد! لو أعطيت هذا الفرس رجلاً هو أفرس منك فلحق بالقوم » ، قال أبو عبيد: فقلت: يا رسول الله! أنا أفرس الناس، ثم ضربت الفرس، فوالله ما جرى بي خمسين ذراعاً حتى طرحني، فعجبت أن رسول الله ﷺ يقول: « لو أعطيت أفرس منك » وأنا أقول: أنا أفرس الناس، فزعم رجال من بني زريق أن رسول الله ﷺ أعطى فرس أبي عبيد معاذ بن معيص أو عائذ بن معيص الزرقى .

وركب رسول الله ﷺ ، وخلف سعد بن عباد في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة ، واستعمل عليها ابن أم مكتوم .

وخرج الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا بهم ، وأول فارس لحق بهم مخزب بن نضلة ويقال له الأخرم الأسدي ويقال له قمير . يروى أن الفرع لما كان جال فرس^(١) لمحمد بن مسلمة في الحائط^(٢) - حين سمع صاهلة الخيل - وكان فرساً صنيعاً^(٣) جاماً^(٤) ، فقال نساء من نساء بني عبد الأشهل - حين رأين الفرس يجول في الحائط مجذع نخل هو مربوط فيه - يا قمير! هل لك في أن تترك هذا الفرس فإنه كما ترى ، ثم تلحق برسول الله ﷺ وبالمسلمين ؟ قال : نعم ، فأعطينه إياه ، فخرج عليه ، فلم يلبث أن بد الخيل^(٥) بجماه^(٦) حتى أدرك القوم فوقف لهم بين أيديهم ، ثم قال : قفوا يا معشر بني اللكيعة^(٧) حتى يلحق بكم من وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار ، فحمل عليه رجل منهم يقال له أوبار أو مسعدة بن حكمة فقتله ، وجال الفرس فلم يقدر عليه حتى وقف على آرية^(٨) في بني عبد الأشهل .

وفي حديث عن سلمة بن الأكوع ، رضي الله عنه ، قال : فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ ينخلون الشجر ، فإذا أولهم الأخرم الأسدي ، على إثره أبو قتادة الأنصاري ، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكندي ، قال : فنزلت من الجبل فأخذت بعنان فرس الأخرم وقلت له : يا أخرم ! احذر القوم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال : يا سلمة ! إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلم أن الجنة حق والنار حق ، فلا تلح بيني وبين الشهادة ، قال : فخليتي ، فالتقى هو وعبد الرحمن بن عبيدة ، فعقر فرس عبد الرحمن ، وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول على فرسه ، فلحق عبد الرحمن أبو قتادة ، رضي الله عنه ، فعقر عبد الرحمن فرس أبي قتادة فطعنه أبو قتادة فقتله ، وتحول على فرس الأخرم^(٩) .

ولم يقتل من المسلمين غير مخزب بن نضلة ، وكان قد رأى قبل ذلك بيوم أن سماء الدنيا أفرجت له وما بعدها حتى دخلها وانتهى إلى السماء السابعة ، ثم انتهى إلى سيرة المنتهى ، فقيل له : هذا منزلك ، فعرضها على أبي بكر الصديق ، وكان أعب الناس ، فقال له : أبشر بالشهادة ! فقتل .

وقيل : قتل مع مخزب يومئذ وثاقب بن مجزز المدلجي فيما ذكر غير واحد من أهل العلم .

وقتل عكاشة بن محصن ، رضي الله عنه ، أوباراً ويقال : أثاراً وابنه عمراً وهما على بعير واحد فانتظمها بالرمح فقتلها جميعاً .

فوارس المقداد ، فعاتبه سعد بن زيد ، فقال : اضطرني الزوي إلى المقداد (طبقات ابن سعد : ج ٨٠/٢) . وقال حسان أبياتاً يرضي بها سعداً فلم يقبل منه ولم يغن شيئاً (سيرة ابن هشام : ج ٣٣٠/٣) .

(١) جال الفرس : دار وقد تقدم .

(٢) الحائط : هو الحديقة وقد تقدم .

(٣) يقال : صنع الفرس : إذا تههده وأحسن القيام عليه ، فهو صنيع (الوسيط : ج ٥٢٧/١) .

(٤) جم الفرس : استراح فعادت إليه قوته فهو جام (الوسيط : ج ١٣٧/١) .

(٥) بد الخيل : عابها وسبقها (النهاية : ج ١١٠/١) .

(٦) أي بنشاطه : انظر : لسان العرب (ج ٦٨٧/١) .

(٧) اللكيعة : اللئيمة (الوسيط : ج ٨٤٢/٢) .

(٨) الآري : مخسب الثأب (لسان العرب : ج ٦٨/١) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٢٤/٣ - ٣٢٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٠/٢ ، ٨١) ، و (ج ٩٦/٣) ، وصحيح مسلم (ج ١٤٣٧/٣) كتاب الجهاد

والسير - باب غزوة ذي قرد .. ح ١٣٢ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٥٢/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩٠/٤) .

وقتل أبو قتادة ، رضي الله عنه ، حبيب بن عيينة بن حصن وغشاه برده ، ثم مضى في أثر العدو مع الفرسان ، فأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين فإذا حبيب مسجى ببرد أبي قتادة ، فاسترحج الناس وقالوا : قتل أبو قتادة ، فقال رسول الله ﷺ : « ليس بأبي قتادة ولكن قتيلاً لأبي قتادة وضع عليه برده ليتعرفوا أنه صاحبته فتحلوا عن قتيله وسلبه » .

وقد تقدم أن أبا قتادة قتل عبد الرحمن بن عيينة فيحتمل أن له اسمين عبد الرحمن وحبيباً ، وقيل : إن قاتل حبيب المقداد قتله هو وقرقة بن مالك بن حذيفة^(١) ، وإن أبا قتادة قتل مسعدة بن حكمة رئيس المشركين يومئذ ، فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه . ففي رواية عند البيهقي أن أبا قتادة ، رضي الله عنه ، اشترى فرساً فلقبه مسعدة بن حكمة الفزاري فتفاوض معه ، فقال له أبو قتادة : أما إني أسأل الله ، عز وجل ، أن ألقينك وأنا عليها ، قال : أمين . فلما أخذت اللقاح ركب أبو قتادة تلك الفرس وسار فلقي النبي ﷺ فقال له : « امض يا أبا قتادة صحبك الله » قال أبو قتادة : فسرت حتى هجمت على العسكر فرميت بسهم في جبهتي فنزعت قدحه^(٢) وأنا أظن أني قد نزعت الحديدية ، ومضيت على وجهي ، فلم أنشب أن طلع علي فارس وقال : لقد لقانك الله يا أبا قتادة ! وكشف عن وجهه ، فإذا هو مسعدة الفزاري فقال : أيما أحب إليك مجالدة أو مطاعنة أو مصارعة ؟ فقلت : ذاك إلى الله عز وجل ، وإليك ، فقال : صراع ، فنزل وعلق دابته وسلاحه إلى شيء ، ونزلت وعلقت دابتي وسلاحي إلى شيء ، ثم توثبنا فرزقني الله ، عز وجل ، الظفر عليه ، فإذا أنا على صدره وإذا شيء يمس رأسي ، فإذا سيف مسعدة قد وصلت إليه في المعالجة فضربت بيدي إلى سيفه ، فلما رأى أن السيف وقع بيدي قال : يا أبا قتادة ! استحييني ، قلت : لا والله أو ترد أمك الهاوية ، فقال : يا أبا قتادة ! فن للصبية ؟ قلت : النار ، ثم قتلته وأدرجته في بردي ، ثم أخذت ثيابه فلبستها واستويت على فرسه ، فإن فرسي نفرت حين تعالجتنا ورجعت إلى العسكر ففرقوها ، ثم مضيت على وجهي فأشرفت على ابن أخيه وهو في سبعة عشر فارساً فألحقت لهم فوقفوا ، فلما أن دنوت منهم حملت على ابن أخيه فطعنته طعنة دقت صلبه وانكشف من معه ، فحبست اللقاح برمحي ، قال : وأقبل النبي ﷺ ومن معه من أصحابه فلما نظر إليهم العسكر فرّوا ، حتى إذا انتهى المسلمون إلى الموضع الذي تعالجتنا فيه إذا هم بأبي قتادة - فيما يرون - سجي في ثيابه ، فقال رجل من المسلمين : يا رسول الله ! استشهد أبو قتادة ، فقال رسول الله ﷺ : « رحِمَ اللهُ أبا قتادة على آثار القوم يرتجز » ، فخرج عمر بن الخطاب أو أبو بكر الصديق يسمي حتى كشف الثوب ، فإذا هو مسعدة ، فقال : الله أكبر ، صدق الله ورسوله ، مسعدة يا رسول الله ! فكبر الناس ، ولم ينشب أن طلع عليهم أبو قتادة يسوق اللقاح^(٣) ، فقال النبي ﷺ : « أفلح وجهك يا أبا قتادة » ، قال أبو قتادة : ووجهك يا رسول الله ، فقال النبي ﷺ : « أبو قتادة سيد الفرسان ، بارك الله فيك يا أبا قتادة وفي ولدك ، وفي ولد ولدك ، وفي ولد ولدك ، ما هذا بوجهك يا أبا قتادة ؟ » قلت : بأبي وأمِّي سهم أصابني والذي أكرمك بما أكرمك ، لقد ظننت أني نزعته ، قال : « اذن مني يا أبا قتادة » ، فدنوت منه ، فنزع النصل نزعاً رقيقاً ، ثم بزق فيه ووضع راحته عليه ، فوالذي أكرم محمداً ﷺ بالنبوة ما ضرب^(٤) علي ساعة قط ولا قرح^(٥) .

وفي روايات أخرى عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال له : « قتلت مسعدة ؟ » ثم دعا لأبي قتادة فقال : « اللهم ! بارك له في شجره وبشره » . فأت أبو قتادة ، رضي الله عنه ، وهو ابن سبعين سنة وكانه ابن خمس عشرة سنة^(٦) .

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل الجبل من ذي قرد عشاء ، وتلاحق به أصحابه ، وكان سلمة بن الأكوع ، رضي الله عنه ، قد تبع القوم إلى قبيل غروب الشمس ، قال سلمة : فوالذي كرم وجه محمد ﷺ لتبعتهم أعدو على رجلي حتى ما أرى ورائي من أصحاب

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٥/٣ - ٢٢٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨٠/٢) و (ج ٩٦/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٥/٣) .

(٢) القُدْحُ : السَّهْمُ قَبْلَ أَنْ يُرَاشَ وَيَرْكَبَ نَصْلَهُ .

(٣) تقدم في حديث سلمة أنه رضي الله عنه قال إنه استنقذ جميع اللقاح ، فيحتمل أنه قال ذلك ظناً منه أنها جميع اللقاح التي أخذت ، ثم تحقق أن الذي استنقذه هو وأبو قتادة جملة منها . انظر : السيرة الحلبية (ج ٦/٣) .

(٤) ضَرَبَ الْجُرْحُ ضَرْبَانًا وَضَرْبَةً ، إِذَا أَلَمَتْ (لسان العرب : ج ٢٥٦٥/٤) .

(٥) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩١/٤) .

(٦) انظر : المستدرک (ج ٤٨٠/٣) ، وجمع الزوائد (ج ٣١٩/٩) ، والسيرة الحلبية (ج ٦/٣) .

محمد ﷺ ولا غبارهم شيئاً ، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له ذو قرد ، ليشربوا منه وهم عطاش فحلبتهم عنه - يعني أجلبتهم عنه - فما ذاقوا منه قطرة . ثم خرج القوم يشتدون وتركوا فرسين ، فجاء بها سلمة يسوقهما إلى رسول الله ﷺ ، وأتاه عمه عامر بابه ولين فتوضأ وشرب ، ثم أتى رسول الله ﷺ وهو على الماء الذي أجلى القوم عنه فإذا هو قد أخذ كل شيء استنقذه سلمة من المشركين ، ونحر له بلال ناقه من الإبل التي استنقذت وشوى له من كبدها وسنامها ، فقال سلمة : يا رسول الله ! خلني فأتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته - وفي رواية أنه قال : يا رسول الله ! إن القوم عطاش فلو سرحتني في مائة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذت بأعناق القوم ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « يا سلمة ! أتراك كنت فاعلاً ؟ » فقال : نعم والذي أكرمك ! فقال رسول الله ﷺ : « يا ابن الأكوح ملكت فأسحج^(١) ، إنهم الآن كيقرؤن^(٢) في أرض غطفان^(٣) » أو قال : « ليغيبون^(٤) في غطفان » - أي : إنهم فاتوا ووصلوا إلى بلاد قومهم فلا فائدة في البعث في الأثر - فجاء رجل من غطفان فقال : نحر لهم فلان جزوراً ، فلما كشفوا جلدها رأوا غباراً فتركوها وقالوا : أتاكم القوم ، فخرجوا هاربين ، فكان كما أخبر رسول الله ﷺ .

وكان الصريخ قد ذهب إلى بني عمرو بن عوف ، فجاءت الأمداد ، فلم تنزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ بندي قرد ، فاستنقذوا عشر لقائح وأفلت القوم بما بقي وهي عشر .

وصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بندي قرد ، فصف الناس خلفه صفين ، صفاً يوازي العدو وصفاً خلفه ، فصلى بالصف الذي يليه ركعة ، ثم نکص هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، وهؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، فصلى بهم ركعة أخرى .

وأقام رسول الله ﷺ بندي قرد يوماً وليلة يتحسس الخبر ، قال سلمة : فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ : « كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة » ، فأعطاني سهم الزاجل والفرس جميعاً .

وقسم رسول الله ﷺ في أصحابه في كل مائة رجل جزوراً ينحرونها ، وكانوا خمسمائة ويقال : سبعائة . وبعث إليه سعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، بأحمال تمر وبعشر جزائر ، فوافت رسول الله ﷺ بندي قرد^(٥) .

- رجوع النبي ﷺ إلى المدينة :

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد غاب خمس ليال مردفاً سلمة وراه على العضباء ناقته^(٦) ، قال سلمة : فبينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار لا يستيق شداً^(٧) ، فجعل يقول : ألا مسابقي إلى المدينة ؟ هل من مسابقي ؟ فجعل يعيد ذلك ، فلما سمعت كلامه قلت : أما تكريم كريماً ، ولا تهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله بأبي وأمي ! ذرني فلاسابق الرجل ، قال : « إن شئت » . فسابقه سلمة حتى سبقه إلى المدينة^(٨) .

(١) مَلَكْتَ فَاسْحِجْ : أي قَدَرْتُ فَسَهَّلُ وَأَحْسِنِ الْعَفْوَ ، وذلك لأنه قد حَصَلَتِ النَّكَايَةُ فِي الْعَدُوِّ فَهَرِمُوا وَقَتِلَ رُؤَسَاؤُهُمْ : ابن عيينة ومُسَعَّدَةُ فِي جَمَاعَةِ وَسَلِبَ مِنْهُمُ الرِّوَاحَ وَالْبَرْدَ . انظر : (النهاية : ج ٢٤٢/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٥٢/٢) .

(٢) قَرَى الضُّيْفَ : أَضَافَهُ وَأَكْرَمَهُ (الوسيط : ج ٧٢٨/٧) .

(٣) اغْتَبَقَ : شَرِبَ الْعَبُوقَ ، وَالْعَبُوقُ : مَا يُخْلَبُ أَوْ يُشْتَرَبُ فِي الْعَشِيِّ (الوسيط : ج ٦٤٩/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٦/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٤٥/٥ ، ١٦٦) كتاب المغازي - باب غزوة ذات الرقاع ، باب غزوة ذات القرد ، وصحيح مسلم (ج ١٤٣٩/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة ذي قرد .. ح ١٣٢ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ١٨٢/٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨١/٢) .

(٥) سِيَّانِي أَنَّ الْعَضْبَاءَ قَدْ أَصِيبَتْ مَعَ امْرَأَةٍ أَبِي ذَرٍّ حَتَّى أَفْلَتَتْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهَا ، فَلَعَلَّهَا وَصَلَتْ وَالنَّبِيُّ ﷺ بِنَدِيِّ قَرْدٍ ، فَرَكِبَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَرْدَفَ أَسَامَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، خَلْفَهُ .

(٦) أَي عَدُوًّا عَلَى الرَّجُلَيْنِ . انظر : (النهاية : ج ٤٥٢/٢) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٧/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٨١/٢) ، وصحيح مسلم (ج ١٤٣٩/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة ذي قرد

وأقبلت امرأة أبي ذرّ، رضي الله عنها، على ناقة رسول الله ﷺ العَضْبَاء، وكانت قد انفلتت ذات ليلة من الوثاق، فأتت الإبل، فجعلت إذا دنت من البعير رَغَاً^(١) فتتركه، حتى انتهت إلى العَضْبَاء، فلم تَرَعْ، فقعدت على عَجْزها ثم زجرتها فسانطلقت، وعلم بها القوم فطلبوها فأعجزتهم، ونذرت إن نجاها الله، عز وجلّ، عليها لتنحرنها، فلما قدمت على النبي ﷺ أخبرته الخبر وقالت: يا رسول الله! إني قد نذرت لله أن أُنحرها إن نجاها الله عليها، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ! بِئْسَ مَا جَزَيْتُهَا أَنْ حَمَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهَا وَنَجَّاكَ بِهَا ثُمَّ تَنْحَرِيْنَهَا، إِنَّهُ لَانذَرُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا فِئَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ، إِنَّا هِيَ نَاقَةٌ مِنْ إِبِلِي، فَارْجِعِي إِلَى أَهْلِكَ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ.»

وكانت العَضْبَاء في الأصل لرجل من بني عَقِيل، أسره أصحاب رسول الله ﷺ وأصابوا معه العَضْبَاء، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق فقال: يا محمد! قال: «ما شأنك؟» فقال: بهم أخذتني؟ وبهم أخذت سابقة الحاج^(٢)؟ فقال: «أخذتكَ بِجَرِيرَةٍ حَلْفَائِكَ تَمِيْفٍ» - وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ - ثم انصرف عنه، فناداه فقال: يا محمد! يا محمد! وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً، فرجع إليه فقال: «ما شأنك؟» قال: إني مسلم، فقال: «لو قَلَّتْهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفَلَحْتَ كُلَّ الْفَلَّاحِ»، ثم انصرف، فناداه فقال: يا محمد! يا محمد! فأتاه، فقال: «ما شأنك؟» قال: إني جائع فأطعمني وظمآن فاسقني، قال: «هذه حاجتُكَ». وفودي الرجل بعد بالرجلين من أصحاب النبي ﷺ، وحبس رسول الله ﷺ العَضْبَاء لرحله، فأغار المشركون على المدينة فذهبوا بالعَضْبَاء كما تقدّم^(٣).

☆ ☆ ☆

(١) الرُّغَاءُ: صوت الإبل (النهاية: ج ٢٤٠/٢).

(٢) يعني: العَضْبَاء، فإنها كانت لا تُسْبِقُ أو لا تَكَاذُ تُسْبِقُ.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢٢٧/٣)، وصحيح مسلم (ج ١٢٦٢/٣) كتاب النذر - باب لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما لا يملك العبد ح ٨، وسنن أبي داود (ج ٦٠٩/٣) كتاب الأيمان والنذور - باب في النذر فيما لا يملك ح ٣٣١٦.

غزوة خيبر

لبث رسول الله ﷺ بعد أن قدم من غزوة ذي قرد ثلاث ليال ثم خرج في بقية الحرم من السنة السابعة للهجرة إلى خيبر^(١) .
 وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، بينها وبين المدينة المنورة ثمانية برد ، وإليها لجأ يهود بني قينقاع والنضير بعد إجلائهم من المدينة ، وكان أهلها موصوفين بالمكر والخبث ، وهم الذين حزبوا الأحزاب ، وأثاروا غطفان ضد رسول الله ﷺ ، وكانوا هم أنفسهم يخططون لحرب رسول الله ﷺ فقد ذكرنا كيف سار اليُسَيْر بن رزام في غطفان وغيرهم من الأعراب يجمعهم لقتال رسول الله ﷺ ، مما اضطر النبي ﷺ أن يبعث إليه عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، فيقتله .
 وقد كان المسلمون منشغلين عن محاسبة هؤلاء الماكرين وتصفية الحساب معهم في مجابهة قوة أكبر وأعدى منهم وهي قريش ، فلما كانت هدنة الحديبية وانتهت هذه المجابهة تفرغ المسلمون لهم .

تجهيز المسامين للغزو وخروجهم :

فتجهز رسول الله ﷺ لغزو خيبر - وكان الله ، عز وجل ، قد وعده إيها عند انصرافه من الحديبية بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾^(٢) - وأمر أصحابه بالتهيؤ للغزو فقال : « تَجَهَّزُوا إِلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ ، عز وجل ، فَاتِحُهَا عَلَيْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعُنَا مُصْعَبٌ وَلَا مُضْعِفٌ^(٣) » ، فأتبعه أعرابي على بكر له صعب ، فَوَقَّصَهُ^(٤) ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر فأمر بلالاً ينادي : « أَلَا إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَحِلُّ لِعَاصٍ » .

وجاء رسول الله ﷺ المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنمة ، فلم يأذن لأحد منهم ، وذلك لقوله سبحانه : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَعَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا^(٥) » ، ثم أمر منادياً ينادي أن لا يخرج من معنا إلا راغب في الجهاد ، فلم يخرج معه إلا أصحاب شجرة الرضوان وهم ألف وأربعمائة ، وكان معهم يومئذ مائتا فرس ، وقيل : كانوا ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس .

وقال رسول الله ﷺ لأبي طلحة : « التمسُ غلاماً من غلمانكم يخدمني حتى أخرج إلى خيبر » ، قال أنس : فخرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم ، فكنيت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل ، فكنيت أسمعه كثيراً يقول : « اللهم ! إني أعوذ بك من الهَمِّ والحَزَنِ ، والعَجْزِ والكَسَلِ ، والبُخْلِ والجُبْنِ ، وضَلَعِ الدِّينِ^(٦) ، وغَلَبَةِ الرِّجَالِ » .

- (١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٧٨/٢) ، وصحيح مسلم (ج ١٤٤٠/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة ذي قرد وغيرها ح ١٢٢ . ويقال كانت غزوة خيبر في صفر أو في ربيع الأول ، ويقال في جمادى الأولى سنة سبع . انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٠٦/٢) ، ومغازي الواقدي (ج ٦٣٤/٢) .
- (٢) الفتح : ٢٠ .
- (٣) المصعب : مَنْ كَانَ بَعِيرَهُ صَعْبًا غَيْرَ مُنْقَادٍ وَلَا ذَلُولٍ ، وَالْمُضْعِفُ : مَنْ كَانَتْ دَابَّتُهُ ضَعِيفَةً (النهاية : ج ٢٩٣/٣ ، ٨٨) .
- (٤) الوَقَّصُ : كَثُرَ العَنَقُ (النهاية : ج ٢١٤/٥) .
- (٥) الفتح : ١٥ .
- (٦) ضَلَعُ الدِّينِ : نَقَلَهُ (النهاية : ج ٩٦/٣) .

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عُرْقُطَةَ الْغِفَارِيِّ ، ويقال نُمَيْلَةُ بن عبد الله اللَّيْثِيُّ ، والقول الأول أصح ، وأخرج معه أم سلمة رضي الله عنها^(١) .

قدوم أبي ثعلبة الحُشَنِيِّ :

وقدم المدينة على رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى خيبر أبو ثعلبة الحُشَنِيِّ فأسلم وخرج معه فشهد خيبر ، ثم قدم بعد ذلك سبعة نفر من حُشَيْنٍ فنزلوا على أبي ثعلبة ، فأسلموا وبايعوا وخرجوا إلى قومهم^(٢) .

كتاب النبي ﷺ إلى يهود خيبر :

وقد كان رسول الله ﷺ كتب إلى يهود خيبر كتاباً دعاهم فيه إلى تصديقه ، هذا نصه : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَاحِبِ مُوسَى وَأَخِيهِ ، وَالْمُصَدِّقِ لِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ قَالَ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ التَّوْرَةِ ، وَإِنَّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرُورٍ أُخْرِجَ شَطْرَهُ فَأَزْرَهُ ، فَاسْتَكَلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجَبُ الزَّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٣) ، وَإِنِّي أَنشُدُّكُمْ بِاللَّهِ ، وَأَنشُدُّكُمْ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ ، وَأَنشُدُّكُمْ بِالَّذِي أَطْعَمَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَشْبَاطِكُمْ اللَّيْلِ وَالسَّالْوَى ، وَأَنشُدُّكُمْ بِالَّذِي أَيْسَرَ الْبَحْرَ لِأَبَائِكُمْ حَتَّى أَتَجَاهَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ، إِلَّا أَخْبَرْتُمُونِي هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُوْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ فَلَا كُرَّةَ عَلَيْكُمْ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، فَادْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ »^(٤) .

طريق النبي ﷺ إلى خيبر وما جرى في الطريق :

وسلك رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر على عَصْرٍ ، جبل بين المدينة ووادي الفُرع ، فبني له فيها مسجد ، ثم سلك على الصُّهْبَاءِ^(٥) ، وكان عليه الصلاة والسلام يصلِّي في المسير وهو راكب حماره .

فلما كان رسول الله ﷺ في بعض مسيره قال لعامر بن الأكوع وهو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع : « أَنْزِلْ يَا ابْنَ الْأَكُوعِ فَخُذْ لَنَا مِنْ هَنَاتِكَ^(٦) » . وفي رواية : أن رجلاً من القوم قال لعامر : ألا تسمعنا من هَنَاتِكَ ؟ وكان عامر رجلاً شاعراً ، فنزل يحدو بالقوم يقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء^(٧) لك ما أبقينا^(٨) وثبت الأقدام إن لاقينا

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٨/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٦/٢ ، ١٠٧) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩٧/٤ ، ٢٢٨) ، وسنن سعيد بن منصور (ج ١٩٤/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٢٢/٤) و (ج ١٤٧/٦) ، والمستدرک (ج ٣٦٣) ، وصحيح البخاري (ج ٤٢/٤) كتاب الجهاد والسير - باب من غزا بصبي للخدمة ، وسنن أبي داود (ج ٤١٢/٣) كتاب الحجاج والإمارة والفيء - باب ما جاء في حكم أرض خيبر ح ٣٠١٥ ، والسيرة الحلبية (ج ٣١/٣) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٢٩/١) .

(٣) الفتح : ٢٩ .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ١٦٩/٢) .

(٥) الصُّهْبَاءُ : مَوْضِعٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَيْبَرَ رَوْحَةٌ (معجم البلدان : ج ٤٠١/٥) .

(٦) مِنْ هَنَاتِكَ : أَي كَلِمَاتِكَ أَوْ أَرَاغِيزِكَ ، وَفِي رِوَايَةٍ : مِنْ هَنَاتِكَ عَلَى التَّضْعِيرِ (لسان العرب : ج ٤٧١٢/٦) .

(٧) قال ابن حجر في فتح الباري (ج ٤٦٥/٧) : « وَقَدْ اسْتَشْكَلَ هَذَا الْكَلَامُ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ فِي حَقِّ اللَّهِ .. وَإِنَّمَا يُتَّصَرُّ الْفِدَاءُ لِمَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْفِتَاءُ ، وَأُجِيبَ فِي ذَلِكَ بِأَنَّهَا كَلِمَةٌ لَا يَرَادُ بِهَا ظَاهِرُهَا ، بَلْ الْمُرَادُ بِهَا الْحُبَّةُ وَالتَّعْظِيمُ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ ظَاهِرِ الْفِطْرِ . وَقِيلَ : الْخِطَابُ بِهَذَا الشَّعْرِ النَّبِيُّ ﷺ ، وَالْمَعْنَى : لَا تَوَاضَعْنَا بِتَقْصِيرِنَا فِي حَقِّكَ وَنَصْرِكَ » .

(٨) أَي مَا أَبْقَيْنَاهُ وَرَاءَنَا مِنَ الذُّنُوبِ فَلَمْ تَنْبَ مِنْهُ . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢١٨/٢) .

وَأَلْقَيْنُ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صَيَّحْنَا بِنَا أُتِينَا^(١)
وبالصياح عَوْلُوا عَلَيْنَا

وفي رواية أنه قال :

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينا
وأنزلن سكينتنا علينا

فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ هَذَا السَّائِقُ ؟ » قالوا : عامر بن الأكوع ، قال : « يَرْحَمَهُ اللَّهُ » ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وجبت والله يارسول الله ، لولا أُمَّتُنَّا به^(٢) - لأنهم كانوا يعلمون أن رسول الله ﷺ ما استغفر لإنسان يخصه إلا استشهد - فقتل عامر ، رضي الله عنه ، في هذه الغزاة .

ولما انتهى النبي ﷺ إلى الصَّهْبَاء ، وهي من أدنى خيبر ، صلى بها العصر ، ثم دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسَّوِيْق ، فأمر به فَرَّي^(٣) ، فأكل وأكل الناس ، ثم قام إلى المغرب فضض ومضض الناس ، ثم صلى ولم يتوضأ .

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كان قد استأجرهما ليسلكا به على طريق خيبر - وكنا مشركين من أشجع ، يقال لأحدهما حَسَيْلُ بن خَارِجَةَ أو ابن نُؤَيْرَةَ ، والآخر عبد الله بن نَعِيمٍ - فقال حَسَيْلُ : « امض أمانتنا حتى نأتي خَيْبَرَ مِنْ بَيْنِهَا وَبَيْنَ الشَّامِ » - أي من جهة الشمال - ليحول بينهم وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين حلفائهم من غطفان ، فضى حَسَيْلُ بهم ، فانتهى إلى موضع له طرق ، فقال : يارسول الله ! إن لها طرقاً يؤقى منها كلها ، فقال رسول الله ﷺ : « سَمَّهَا لِي » - وكان رسول الله ﷺ يحبُّ الفأل الحسن والاسم الحسن - فقال له : يارسول الله ! لها طريق يقال لها حزن ، قال : « لَا تَسْلُكُهَا » ، قال : لها طريق يقال لها شاش ، قال : « لَا تَسْلُكُهَا » ، قال : لها طريق يقال لها حاطب ، قال : « لَا تَسْلُكُهَا » ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما رأيت كالليلة أسماء أقبح ! سم لرسول الله ، قال : لها طريق واحدة لم يبق غيرها ، فقال عمر : سَمَّهَا ، قال : اسمها مَرْحَبٌ ، قال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ ، اسْلُكُهَا » فقال عمر : ألا سَمَّيت هذا الطريق أول مرة ؟!

ثم أقبل رسول الله ﷺ بجيشه حتى نزل بواد قرب خيبر يقال له الرَّجِيع ، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يَمِدَّوْا أهل خيبر . (انظر : مصور فتح خيبر) .

وقد كان عبد الله بن أبي ابن سَكُولٍ رأس المنافقين أرسل إلى يهود خيبر يخبرهم بأن محمداً - ﷺ - سائر إليكم ، فخذوا حذرکم ، وأدخلوا أموالكم حصونكم ، وإخرجوا لقتاله ولا تخافوا منه ، إن عددكم كثير وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزل لاسلح معهم إلا قليل . فلما علم ذلك يهود خيبر أرسلوا كنانة بن أبي الحَقِيقِ وهُوذَةَ بن قيس في أربعة عشر رجلاً إلى حلفائهم غطفان ليستمدوا بهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين ، فتهيأت عند ذلك غطفان ، وجمعوا لرسول الله ﷺ ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم في أمواهم وأهلبيهم حساً ، فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم ، فرجعوا على أعقابهم ، فأقاموا في أهلبيهم وأمواهم ، وحلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر^(٤) .

(١) أي إذا دعينا إلى غير الحق امتنعنا . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢١٨/٢) .

(٢) أي هلاً تَرَكْنَا نَتَمَتَّعَ بِهِ ، أو هلاً أَبْقَيْتَهُ لَنَا لِنَتَمَتَّعَ بِهِ ، أي : هَلَّا أَخْرَجْتَ الدُّعَاءَ لَكَ بِذَلِكَ إِلَى وَقْتِ آخِرٍ . انظر : (النهاية : ج ٢٩٢/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢/٣) .

(٣) تُرِّي : أي بَلَّ بِالْمَاءِ (النهاية : ج ٢١٠/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٨/١ ، ٢٨٠) ، وصحيح البخاري (ج ١٦٦/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، وصحيح مسلم (ج ٤٨٧/١) كتاب =

إغارة النبي ﷺ على خيبر :

ودنا رسول الله ﷺ من خيبر ليلاً ، فبات هو وأصحابه قريباً منها ، وكان إذا أتى قوماً بليل لم يُغفر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار ، فلما أصبح رسول الله ﷺ ولم يسمع أذاناً صلى الفجر بغلس^(١) ، ثم ركب وركب معه أصحابه ، فأتى خيبر ، فلما أشرف عليها قال لأصحابه : « قفوا » ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَمَا أَظْلَلْنَ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ ، وَرَبَّ الرِّيَّاحِ وَمَا أَدْرَيْنَ فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا ، أَقْدِمُوا بِسْمِ اللَّهِ » . وكان رسول الله ﷺ يقولها لكل قرية دخلها .

قال أنس رضي الله عنه : فأتيناهم حين بزغت الشمس وقد خرج عمال خيبر بمساحيهم ومكاتيلهم^(٢) ، وأخرجوا مواشيهم ، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش فرعوا وقالوا : محمد والحَمِيس^(٣) .

وقد كان أهل خيبر حين علموا بقصد النبي ﷺ لهم يخرجون في كل يوم عشرة آلاف مقاتل مسلحين مستعدين صفوفاً ، ثم يقولون : محمد يغزونا ! هيهات هيهات ، فلا يرون أحداً ، فلما كانت الليلة التي نزل رسول الله ﷺ بساحتهم فيها ناموا ولم يتحركوا ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس ، وأصبحوا وأفتدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم معهم المساحي والمكاتيل ، فوجدوا المسلمين ، فوآوا هاربين إلى حصونهم ، فقال النبي ﷺ حين رأى فرزهم : « اللَّهُ أَكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحَ الْمُنْذِرِينَ ! » قالها ثلاثاً .

ثم دعا رسول الله ﷺ الطَّقِيلُ بن الحارث الحزاعي ، فقال له : « أَنْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ وَاسْتَمِدَّهُمْ عَلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْغَالِيَةِ أَهْلِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، سَيَفْتَحُهَا عَلَيْكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فقال الطَّقِيلُ رضي الله عنه : يا رسول الله ! تبعدي منك ، فوالله لأن أموت وأنا يومئذ منك قريب أحب إلي من الحياة وأنا منك بعيد ، فقال النبي ﷺ : « إِنَّهُ لَا بَدَّ مِمَّا لَا بَدَّ مِنْهُ فَانْطَلِقْ » ، فقال : يا رسول الله ! لعلي لألقاك فرودني شيئاً أعيش به ، قال : « أَتَمْلِكُ لِسَانَكَ ؟ » قال : « فإ أملك إذا لم أملك لساني ؟ قال : « أَتَمْلِكُ يَدَكَ ؟ » قال : « فإ أملك إذا لم أملك يدي ؟ قال : « فَلَا تَقْلُ بِلِسَانِكَ إِلَّا مَعْرُوفاً ، وَلَا تَبْسُطْ يَدَكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ ، وَأَفْشِ السَّلَامَ ، وَابْذُلِ الطَّعَامَ ، وَاسْتَحْيِ اللَّهَ كَمَا تَسْتَحْيِ رَجُلًا مِنْ رَهْطِكَ ذَا تَقِيَّةٍ ، وَلِيُحْسِنَ خَلْقَكَ ، وَإِذَا أَسَاتَ فَأَحْسِنِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ »^(٤) .

افتتاح حصون خيبر :

ثم وعظ رسول الله ﷺ الناس ، وفرق بينهم الرايات - قيل ولم تكن الرايات إلا بخيبر وإنما كانت الألوية ، وكانت راية النبي ﷺ السوداء من برد لعائشة ، رضي الله عنها ، تدعى العقب ، ولواؤه أبيض - فدفع راية إلى الحَبَّاب بن المنذر ، وراية إلى سعد بن عبادَةَ ، وجعل شعارهم : يا منصور أُمِّت ، وابتدأ رسول الله ﷺ من حصونهم بحصون النُّطَاة .

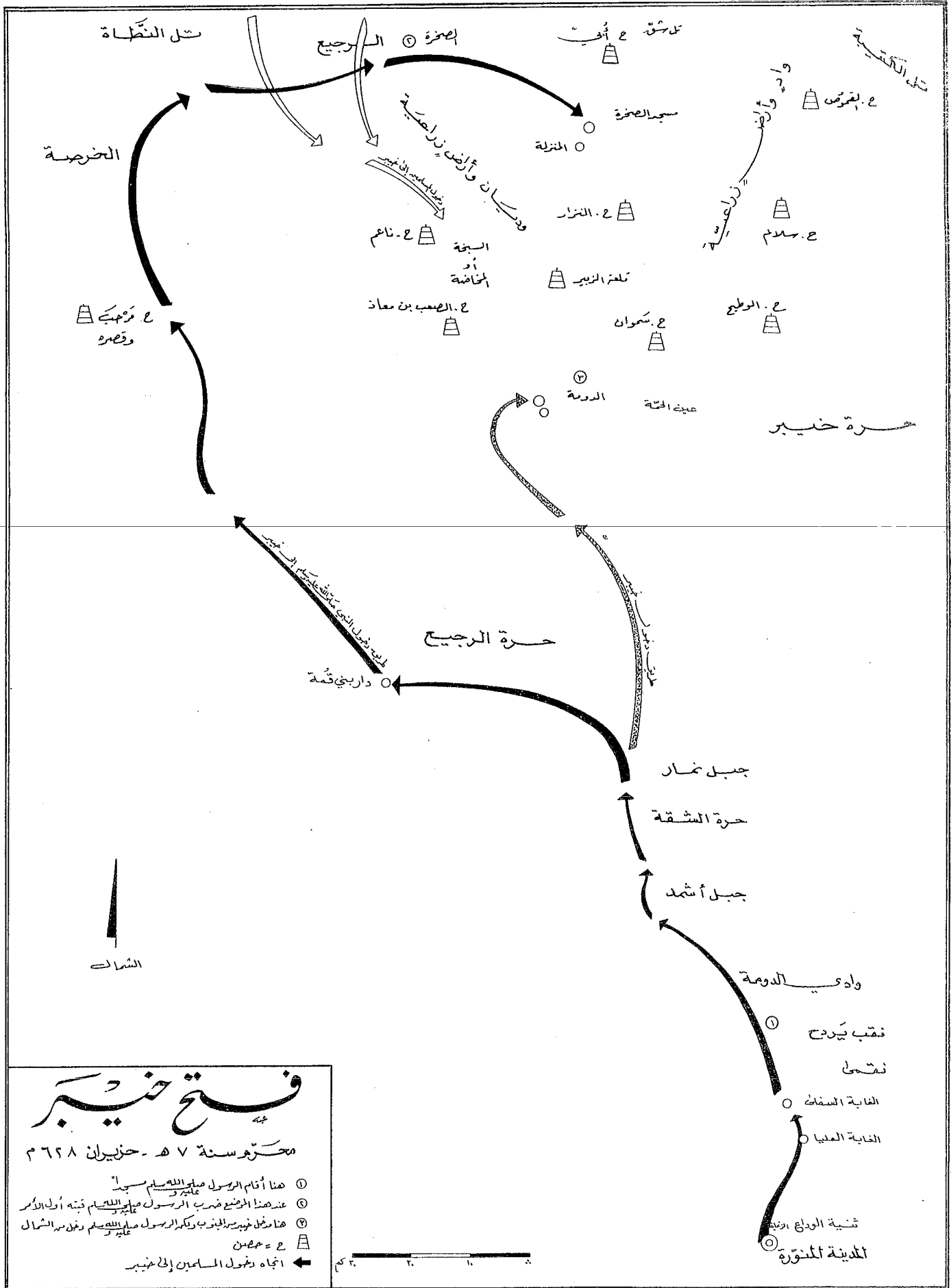
= صلاة المسافرين وقصرها - باب جواز صلاة النافلة على النابذة ح ٢٥ ، و (ج ١٤٤٠/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة ذي قرد وغيرها ح ١٢٢ ، وجمع الزوائد (ج ٢١٥٠/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨٠/٤) ، ومغازي الواقدي (ج ٦٢٨/٢ - ٦٢٩) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٣/٣ ، ٥١) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٢٠/٢) .

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح . وقد تقدم .

(٢) المساحي : جمع منسَخة ، وهي المخرقة من الحديد ، والمكاتيل : جمع مِكْتَلٍ ، وهو الزبيل الكبير ، قيل : إنه تسع خمسة عشر صاعاً (النهاية : ج ٢٢٨/٤ ، ١٥٠) .

(٣) الحميس : الجيش ، سمي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام : المقدمة ، والساقة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب . وقيل : لأنه تخمس فيه الفئائم (النهاية : ج ٧٩/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٠٣/١) كتاب الصلاة - باب ما يذكر في الفخذ ، و (ج ٥٨/٤) كتاب الجهاد والسير - باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة ، وصحيح مسلم (ج ١٤٢٧/٣) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة خيبر ح ١٢١ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٦/٢ ، ١٠٩) ، وجمع الزوائد (ج ١٤٨/٦) .



وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين : شطر فيه خمسة حصون : حصن ناعم ، وحصن الصُّعْب بن مُعَاذ ، وحصن قلعة الزُّبَيْر ، وحصن أُبَيٍّ ، وحصن النَّزَار . وتقع الحصون الثلاثة الأولى في منطقة يقال لها النَّطَاة ، وأما الحصنان الآخريان فيقعا في منطقة تسمى الشَّقَّ .

والشطرن الثاني يعرف بالكَيْبِيَّة ، وفيه ثلاثة حصون : حصن القَمْوص ، وحصن الوَطِيح ، وحصن السُّلَّام . (انظر : مصور فتح خيبر) .

وهناك حصون أخرى غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها^(١) .

فتح الشطر الأول من خيبر :

- فتح حصن ناعم :

وأول حصن افتتحه المسلمون من حصون خيبر هو حصن ناعم . وكان رسول الله ﷺ قد ضرب عسكره بالرجيع فيغدو كل يوم بالمسلمين على راياتهم متسلمين ، ويستخلف على العسكر عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، فيقاتل أهل ذلك الحصن يومه إلى الليل ، ثم إذا أمسى رجع إلى عسكره بالرجيع .

وكان رسول الله ﷺ ربما أخذته الشَّقِيَّة^(٢) فيلبث اليوم واليومين لا يخرج ، ولما نزل خيبر أخذته الشَّقِيَّة فلم يخرج إلى الناس ، فأرسل أبا بكر ، رضي الله عنه ، فأخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً ، ثم رجع ولم يك فتح وقد جهد . فلما كان الغد أرسل عمر ، رضي الله عنه ، فأخذ الراية فقاتل قتالاً أشد من قتال أبي بكر ، ثم رجع ولم يك فتح وقد جهد .

وفي ذلك اليوم قتل محمود بن مسلمة ، رضي الله عنه ، برحى ألقيت عليه من ذلك الحصن ، ألقاها عليه كنانة بن الربيع ، وقيل مرَّحَب ، فجاء أخوه محمد بن مسلمة ، رضي الله عنه ، إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! لم أر كالיום قط ، قتل محمود بن مسلمة ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُّوْا اللَّهُ الْعَاقِبَةَ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَبْذُرُونَ مَا تَبْتَلُونَ بِهِ مِنْهُمْ ، وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَقُولُوا : اللَّهُمَّ ! أَنْتَ رَبُّنَا وَرَبُّهُمْ ، وَتَوَاصِينَا وَتَوَاصِيهِمْ بِيَدِكَ ، وَإِنَّا تَقْتُلُهُمْ أَنْتَ ، ثُمَّ الزَّمُوا الْأَرْضَ جُلُوساً ، فَإِذَا غَشَوْكُمْ فَانْهَضُوا وَكَبَّرُوا » .

وذكر أن رسول الله ﷺ قال لمحمد بن مسلمة رضي الله عنه : « أَخْوَكَ لَهَ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ » ، ثم قال له : « لِأَعْظَمَيْنِ الرَّايَةَ غَدَا رَجُلًا يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، لَيْسَ بِفَرَارٍ ، فَيَمَكَّنَكَ مِنْ قَاتِلِ أَخِيكَ » . فبات الناس يَدْوُكُونَ^(٣) ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ، كلهم يرجو أن يعطاها ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما أحببت الإمارة إلا يومئذ ، فَنَسَاوَرْتُ لَهَا^(٤) رجاء أن أُدعى لها ، وقال بريدة رضي الله عنه : فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل ، حتى تطاولت أنا لها ، ورفعت رأسي لمنزلة كانت لي منه ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيْنَ عَلِيٌّ بِنَ أَبِي طَالِبٍ ؟ » فقالوا : هو يشتكي عينيه يا رسول الله ، قال : « فَأُرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأَتُونِي بِهِ » - وكان عليٌّ ، رضي الله عنه ، به رمد فتخلف في أول المسير لأجل ذلك ، ثم لم تطب نفسه أن يتخلف عن النبي ﷺ فلحق به - فأتي به وهو أرمد ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له وقال : « اللَّهُمَّ ! أَذْهَبُ عَنْهُ الْحَرَّ وَالْبُرْدَ » ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع . قال عليٌّ رضي الله عنه : فما رمدت ولا صدعت منذ نفل النبي ﷺ في عيني ، وكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف فلا يبالي ولا يجد حرّاً ولا برداً ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام .

ثم أعطاه رسول الله ﷺ اللواء أو الراية وقال له : « امْشِ وَلَا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ » ، فسار عليٌّ شيئاً ثم وقف ولم

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٣٧٨ ، ٣٨٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/١٠٦٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢/٢٢٨) .

(٢) الشَّقِيَّة : نوع من صداع يفرض في مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه (النهاية : ج ٢/٤٩٢) .

(٣) يَدْوُكُونَ : يَخْوَضُونَ وَيَمُوجُونَ (النهاية : ج ٢/١٤٠) .

(٤) نَسَاوَرْتُ لَهَا : أَي رَفَعْتُ لَهَا شَخْصَةً . انظر : (النهاية : ج ٢/٤٢٠) .

يلتفت ، فصرخ يارسول الله ! على ماذا أقاتل الناس ؟ قال : « قَاتِلُهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » .

وفي رواية : قال علي رضي الله عنه : يارسول الله ! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : « انْفُذْ عَلَى رَسُولِكَ (١) حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ » .

فانطلق علي ، رضي الله عنه ، يهول هرولة والناس خلفه يتبعون أثره ، حتى انتهى إلى الحصن ، فركز رايته في رَضْمٍ (٢) من حجارة تحت الحصن ، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا علي بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوتم وما أنزل على موسى . ثم خرج إليه أهل الحصن ومعهم ملكهم مَرْحَبٌ ، فبرزوا للمسلمين ونشب القتال .

وكان أول من خرج من الحصن مبارزاً الحارث أخو مَرْحَبٍ في عَادِيَتِهِ (٣) ، فقتله علي ، رضي الله عنه ، ورجعت عادية اليهود إلى الحصن .

ثم خرج ملكهم مَرْحَبٌ ، وعليه مِعْفَرٌ يمازي وحجر قد نقبه مثل البيضة على رأسه ، وهو يَخْطِرُ (٤) بسيفه ويرتجز ويقول :

قَدِّمْتُ عَلَيَّ خَيْرَ أُنِي مَرْحَبٌ شَاكِي السَّلَاحِ (٥) بَطْلٌ مُجَرَّبٌ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

قال سَلَمَةُ : فبرز له عَمِي عامر بن الأكوع ، فقال :

قَدِّمْتُ عَلَيَّ خَيْرَ أُنِي عَامَرٌ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مَغَامَرٌ

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مَرْحَبٍ في ترس عامر ، وذهب عامر يَسْفُلُ له (٦) ، وكان سيفه قصيراً ، فتناول به ساق مَرْحَبٍ ليضربه ، فبرجع دُباب سيفه (٧) على نفسه ، فأصاب عَيْنَ رُكْبَتِهِ (٨) فقطع أكلحه ، فمات منه . فلما قفل رسول الله ﷺ من خيبر أتاه سلمة وهو يبكي ، فقال : يارسول الله ! بطل عمل عامر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ ذَلِكَ ؟ » قال : ناس من أصحابك - وسمى منهم أُسَيْدُ بْنُ حَضْرِيٍّ - قالوا : حبط عمل عامر ، إنما قتله سلاحه ، فقال رسول الله ﷺ : « كَذَبُوا ، إِنَّهُ لَشَهِيدٌ ، مَاتَ جَاهِدًا مُجَاهِدًا (٩) ، قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ ، فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ » وجمع بين إصبعيه ، وصلى عليه رسول الله ﷺ فصلّى عليه المسلمون ، ودفن بالرَّجِيعِ مع محمود بن سَلَمَةَ في قبر في غار هناك رحما الله تعالى .

ثم دعا مَرْحَبٌ إلى البراز مرة أخرى ، وجعل يرتجز بقوله :

قَدِّمْتُ عَلَيَّ خَيْرَ أُنِي مَرْحَبٌ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجَرَّبٌ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

(١) أَي اثْبُتْ وَلَا تَعْجَلْ (النهاية : ج ٢٢٢/٢) .

(٢) الرَّضْمُ : صَخُورٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ (النهاية : ج ٢٢١/٢) .

(٣) الْعَادِيَّةُ هُنَا : الَّذِينَ يَغْدُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ (النهاية : ج ١٩٤/٣) .

(٤) خَطَرَ فِي مِشِيَّتِهِ : اهْتَزَّ وَتَبَخْتَرَ (الوسيط : ج ٢٤٢/١) .

(٥) شَاكِي السَّلَاحِ : تَامَ السَّلَاحَ كَامِلًا الْإِسْتِعْدَادَ (الوسيط : ج ٤٩٤/١) .

(٦) أَي : يَضْرِبُهُ مِنْ أَسْفَلِهِ . (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ١٨٤/١٢) .

(٧) طَرَفُهُ الْأَعْلَى ، وَقِيلَ : حَدُّهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٨) أَي طَرَفِ رُكْبَتِهِ الْأَعْلَى . (فتح الباري : ج ٤٦٧/٧) .

(٩) يُقَالُ : رَجُلٌ جَاهِدٌ : أَي جَادٌ فِي أَمْرِهِ . وَقِيلَ : الْجَاهِدُ : مَنْ يَرْكَبُ الْمَشَقَّةَ ، وَمُجَاهِدٌ : أَي لِأَعْدَاءِ اللَّهِ . انظر : فتح الباري (ج ٤٦٧/٧) .

فبرز له علي بن أبي طالب ، فقال :

أنا الذي سَمَّني أُمِّي حَيْدَرَهُ (١) كَلَيْثِ غَابَاتِ كَرِيهِهِ الْمُنْظَرِهِ
أَوْ فِيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلِ السُّنْدَرِهِ (٢)

فاختلف هو وعليّ ضربتين ، فضرب عليّ رأسه حتى عضّ السيف بأضراسه ، وسمع أهل العسكر صوت ضربته ، ففلق رأسه وقتله ، ثم جاء عليّ ، رضي الله عنه ، برأسه إلى النبي ﷺ وكان الفتح على يديه (٣) .

ويقال إن الذي قتل مَرْحَبًا هو محمد بن مَسْلَمَةَ ، وجزم به ابنُ إسحاق وابنُ عُقْبَةَ والواقدي ، وكذا روى الحاكم في المستدرک والإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن (٤) .

فمن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : خرج مَرْحَبُ اليهودي من حصنهم قد جمع سلاحه يرتجز وهو يقول :

قـــــــد علمت خير أبي مَرْحَبٍ شاكِي السلاح بطل مجرب .. إلخ

فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَهَذَا ؟ » قال محمد بن مَسْلَمَةَ : أنا له يارسول الله ! أنا والله للمؤتور الثائر (٥) ، قُتِلَ أَخِي بِالْأَمْسِ ، فقال : « فَقُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُمَّ ! أَعِنِّي عَلَيْهِ » . قال : فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عُمرِيَّة من شجر العُشْرِ (٦) ، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه ، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه مادونه منها ، حتى برز كل واحد منها لصاحبه ، وصارت بينهما كالرجل القائم ، ما فيها قَنَنٌ (٧) ، ثم حمل مَرْحَبُ على محمد بن مَسْلَمَةَ فضربه فأتقاه بدرقة فوقع سيفه فيها ، فعضت به فأمسكته ، وضربه محمد بن مَسْلَمَةَ حتى قتله (٨) .

وقيل : إن محمد بن مَسْلَمَةَ قطع ساق مَرْحَبٍ ثم تركه ، فقال له مَرْحَبُ : أجهز عليّ ، فقال محمد : ذُقْ ذُقِ الموت كما ذاقه أخي محمود ، وجاوزه ، ومر به عليّ بن أبي طالب فضرب عنقه (٩) .

ثم خرج بعد مَرْحَبٍ أخوه ياسر وهو يقول : مَنْ يبارز ؟ فخرج إليه الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، فقالت أمه صَفِيَّة بنت

(١) الحَيْدَرَةُ : الأسد (لسان العرب : ج ٨٠٢/١) . قيل : وكان عليّ ، رضي الله عنه ، قد سَمِيَ أسداً في أول ولادته ، وكان مَرْحَبُ قد رأى في المنام أن أسداً يقتله ، فذكره عليّ ، رضي الله عنه ، ليخيفه ويضعف نفسه . قالوا : وكانت أم عليّ سَمَّته أول ولادته أسداً باسم جدّه لأنه أسد بن هشام بن عبد مناف ، وكان أبو طالب غائباً ، فلما قدم سَمَّاه عليّاً . وسَمِيَ الأسد حَيْدَرَةً لغلظه . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٨٥/١٢) .

(٢) أي أقتل الأعداء قتلاً واسعاً ذريعاً . والسُّنْدَرَةُ : مِكْيَالٌ واسعٌ اتَّخِذَ مِنَ السُّنْدَرَةِ وهي شَجَرَةٌ يُعْمَلُ مِنْهَا النُّبُلُ والقَيْسِيُّ (النهاية : ج ٤٠٨/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٧٩/٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٥) ، وصحيح البخاري (ج ٢٢/٥ ، ٢٢) كتاب المناقب - باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، و (ج ١١٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، وصحيح مسلم (ج ١٤٢٩/٣ ، ١٤٤٠) كتاب الجهاد والسير - باب غزوة خيبر ح ١٢٤ ، باب غزوة ذي قرد وغيرها ح ١٣٢ ، و (ج ١٨٧١/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ح ٣٣ ، والمستدرک (ج ٣٨٣/٢ ، ٤٣٧) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٩٩/١ ، ١١١) ، و (ج ٣٥٨/٥) ، وجمع الزوائد (ج ١٥٥/٦) ، و (ج ١٢٣/٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٠/٤ - ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٦١) ، ومغازي الواقدي (ج ٦٤٥/٢) .

(٤) هناك اختلاف كبير بين المصادر فيمن قتل مَرْحَبًا ، والصحيح الذي عليه أهل السير والحديث كما قال ابن الأثير أن علياً كرم الله وجهه قاتله ، وبه جزم مسلم في صحيحه ، وما في الصحيح مقدم على ما سواه . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٢٤/٢) .

(٥) الْمُؤْتُورُ الثَّائِرُ : أي صاحبِ الوَثْرِ ، الطَّالِبُ الثَّائِرُ (النهاية : ج ١٤٨/٥) .

(٦) الشَّجَرَةُ العُمْرِيَّةُ : هي العَظِيَّةُ القَدِيمَةُ التي أتى عليها عُمُرٌ طَوِيلٌ ، وشَجَرُ العُنْشْرِ : هو شَجَرٌ لَهُ ضَعْفٌ يُقَالُ لَهُ : سَكَّرَ العُنْشَرَ ، وقيل : له ثَمَرٌ (النهاية : ج ٢٤١/٣ ، ٢٩٩) .

(٧) الفَنَنُ : الغُصْنُ (الوسيط : ج ٧١٠/٢) .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ٣٨٢/٣) .

(٩) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٦/٤) .

عبد المطلب : يقتل ابني يارسلو الله ؟ قال : « بَلِ ابْنُكَ يَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فقتله الزبير . فكان الزبير إذا قيل له : والله إن كان سيفك يومئذ لصارماً غضباً^(١) ، قال : والله ما كان صارماً ولكني أكرهته .

فلما قتل مرحب ويسر قال رسول الله ﷺ : « أَبْشِرُوا قَدْ تَرَحَّبْتُ خَيْبَرٌ وَتَيْسَّرَتْ ! »

ثم برز عامر ، وكان رجلاً طويلاً جسيماً ، فقال النبي ﷺ حين طلع : « أَتَرُونَهُ خَمْسَةَ أَذْرَعٍ ؟ » وهو يدعوا إلى البراز ، فبرز له عليّ ، فضربه ضربات ، كل ذلك لا يصنع شيئاً حتى ضرب ساقيه ، فبرك ، ثم دَفَفَ عليه وأخذ سلاحه .

وقد لاقى المسلمون في فتح حصن ناعم مقاومة شديدة ، قُتِلَ لأجله عدد منهم ، كما أصيب آخرون . ويقال إن القتال دام أياماً حتى انهارت مقاومة اليهود بعد مقتل مَرْحَبٍ وإخوته وكثير من أشرفهم ، ويأسوا من مقاومة المسلمين ، فانهمزوا إلى حصنهم وأغلقوا بابه . قال عليّ رضي الله عنه : فأتيت الباب ، فلم أزل أعالجه حتى فتحه الله عز وجل . وفي رواية : أنه حمل الباب حتى صعد المسلمون عنيه ودخلوا الحصن ، وأنه جَرَّبَ بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً^(٢) .

رُوي عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع عليّ بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنه ، حين بعثه رسول الله ﷺ برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله ، فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود ، فطرح نُرْسَه من يده ، فتناول عليّ ، عليه السلام ، باباً كان عند الحصن ، فترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقله^(٣) .

.. فتفتح حصن الصَّعْبِ بن مُعَاذِ :

وكان في هذا الحصن خمسمائة مقاتل ، وكان من سليم من يهود حصن ناعم قد تسلل إليه ، وكان حصناً منيعاً ، فأمر رسول الله ﷺ بفرض الحصار عليه ، ودفع اللواء إلى الحباب بن المنذر ، رضي الله عنه ، فأقام المسلمون على محاصرته يومين وقد أصابتهم مجاعة فجهدوا ، فلما كان اليوم الثالث أتى بنو سهم من أسلم رسول الله ﷺ ، فقالوا : والله يارسلو الله ، لقد جُهدنا وما بأيدينا من شيء ، فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ شيئاً يعطيهم إياه ، فقال : « اللَّهُمَّ ! إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ حَالَهُمْ ، وَأَنْ لَيْسَتْ بِهِمْ قُوَّةٌ ، وَأَنْ لَيْسَ بِيَدِي شَيْءٌ أُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ ، فَافْتَحْ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَهَا طَعَاماً وَوَدَّكَ^(٤) » .

فندب رسول الله ﷺ الناس ، فنهضوا ، وكانت أسلم أول من انتهى إلى حصن الصَّعْبِ بن مُعَاذِ ، فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتحه الله تعالى عليهم ، بعد أن دار عليه قتال شديد ، وما بخير حصن كان أكثر طعاماً وودَّكاً منه ، ووُجِدَ فيه بعض المُنْجَنِيْقَاتِ والدَّبَابَاتِ^(٥) ، فنادى منادي رسول الله ﷺ : كلوا واعلموا ولا تحملوا^(٦) . - أي لا تخرجوا به إلى بلادكم .

روي عن عبد الله بن مَعْقِلِ المَرْزَبِيِّ ، رضي الله عنه ، قال : أصبت من فيء خيبر جراب شحم ، فاحتملته على عاتقي إلى رَحْلي وأصحابي ، قال : فلقيني صاحب المغام الذي جعل عليها ، فأخذ بناحيته وقال : هَلُمَّ هذا حتى تقسمه بين المسلمين ، قال : قلت : لا والله ، لأعطيكمه ، قال : فجعل يجابني الجراب ، قال : فرأنا رسول الله ﷺ ونحن نصنع ذلك ، قال : فتبسّم رسول الله ﷺ

(١) أي : قاطعاً (الوسيط : ج ٦١٢/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٥/٣) ، ومجمع الزوائد (ج ١٥١/٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٢/٤ ، ٢١٧) ، ومغازي الواقدي (ج ٦٥٧/٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٦/٣) . قال صاحب السيرة الحلبية في (ج ٢٧/٣) من كتابه بعد أن ذكر الروايات المتعلقة بمحمل عليّ ، رضي الله عنه ، باب الحصن : قال بعضهم : وطرق حديث الباب كلها واهية ، وفي بعضها قال الذهبي إنه منكر .

(٤) الوَدَّكُ : دَسَمَ اللَّحْمَ وَدَهَنَهُ الذي يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ (النهاية : ج ١٦٧/٥) .

(٥) المُنْجَنِيْقُ : هو القَدَافُ التي تُرْمَى بِهَا الحِجَارَةُ (لسان العرب : ج ٤١٤٢/٦) . والدَّبَابَةُ : آلة تُنَحَّدُ مِنْ جُلُودٍ وَخَشَبٍ ، يَدْخُلُ فِيهَا الرِّجَالُ ، وَيَقْرَبُونَهَا مِنَ الحِصْنِ المُحَاصَرِ لِيَنْقُبُوهُ ، وَيَقِيهِمْ مَا يُرْمُونَ بِهِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، (لسان العرب : ج ١٣١٥/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢/٣) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٦٧/٩) ، ومغازي الواقدي (ج ٦٥٧/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٤٠٣/٣) .

ضاحكاً ، ثم قال لصاحب المغام : « لأبأ لك ، خَلَّ بَيْتَهُ وَبَيْتَهُ » ، قال : فأرسله ، قال : فانطلقت به إلى رَحْلي وأصحابي فأكلناه^(١) .
وعنه أيضاً قال : كنّا محاصرين قصر خيبر ، فرمى إنسان بجراب فيه شحم ، فنزوت^(٢) لآخذه ، فالتفت فإذا النبي ﷺ ، فاستحييت منه^(٣) .

- شأن أبي اليسر رضي الله عنه :

وكان أبو اليسر كعب بن عمرو ، رضي الله عنه ، يحدث أنهم حاصروا حصن الصعب بن معاذ ثلاثة أيام ، فبينما هم كذلك إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَجُلٌ يَطْعَمُنَا مِنْ هَذِهِ الْغَنَمِ ؟ » ، قال أبو اليسر : فقلت : أنا يارسول الله ، قال : « فَأَفْعَلْ » ، قال : فخرجت أشد^(٤) مثل الظليم^(٥) ، فلما نظر إلي رسول الله ﷺ موليأ قال : « اللَّهُمَّ أُمَّتُنَا بِهِ » ، قال : فأدركت الغنم ، وقد دخلت أولها الحصن ، فأخذت شاتين من أخراها ، فاحتضنتهما تحت يدي ، ثم أقبلت بهما أشد كانه ليس معي شيء حتى ألقيتها عند رسول الله ﷺ ، فذبحوهما فأكلوهما . فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله ﷺ هلاكاً ، فكان إذا حدث هذا الحديث بكى ، ثم قال : أُمَّتَعُوا بِي لِعَمْرِي حتى كنت من آخرهم هلكاً^(٦) .

- نهي النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية :

وكان المسلمون لما أصابهم الجوع ذبحوا حمرًا من حمر الإنس ، وأوقدوا النيران ، وطبخوا لحومها في القدور ، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك أمر منادياً فنادى : إن لحوم حمر الإنس لا تحل لمن شهد أي رسول الله ، فكف المسلمون القدور وهم جياع^(٧) .

فمن سلمة بن الأكوع ، رضي الله عنه ، قال : فأتينا خيبر فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة ، ثم إن الله تعالى فتحها عليهم ، فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم أوقدوا نيراناً كثيرة ، فقال النبي ﷺ : « مَا هَذِهِ النَّيرانُ ؟ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَوَقِدُونَ ؟ » قالوا : على لحم ، قال : « عَلَى أَيِّ لَحْمٍ ؟ » قالوا : لحم حمر الإنسية ، قال النبي ﷺ : « أَهْرِيْقُوهَا ، وَأَكْسِرُوهَا » ، فقال رجل : يارسول الله ! أو نهر يقها ونغسلها ؟ قال : « أَوْ ذَاكَ »^(٨) .

وعن البراء بن عازب ، رضي الله عنها ، قال : أمرنا النبي ﷺ في غزوة خيبر أن نلقي الحمر الأهلية نيئة ونضيجه ، ثم لم يأمرنا بأكله بعد^(٩) .

وروي عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، فذكر الحديث وفيه قال : فحرم رسول الله ﷺ يومئذ الحمر الإنسية ولحوم البغال ، وكل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطيور ، وحرم المَجْتَمَةَ^(١٠) والحُلْسَةَ^(١١) والنَّهْبَةَ^(١٢) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٩١) .

(٢) أي وثبت . وقد تقدم .

(٣) صحيح البخاري (ج ٤/١١٦) كتاب الجهاد والسير - باب ما يصيب من الطعام في أرض الحرب .

(٤) اشتد : أشرع وعدا (لسان العرب : ج ٣/٢٢١٥) .

(٥) الظليم : ذكر النعام (لسان العرب : ج ٤/٢٧٦٠) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٨٧) ، ومغازي الواقدي (ج ٢/٦٦٠) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٢٨١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤/١٩٤) .

(٨) صحيح البخاري (ج ٥/١٦٦) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

(٩) صحيح البخاري (ج ٥/١٧٣) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

(١٠) المَجْتَمَةُ : كل حيوان يُنْصَبَ وَيُرْمَى وَيُقْتَلُ (لسان العرب : ج ٨/٥٤٥) .

(١١) الحُلْسَةُ : هي ما يَسْتَحْلُصُ مِنَ السَّبْعِ فَيَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَدْكَى (النهاية : ج ٢/٦١) .

(١٢) مسند الإمام أحمد (ج ٣/٢٢٢) .

- فتح قلعة الزبير (١) :

ولما فتح حصن الصعب تحول اليهود الذين سلّموا من القتل إلى حصن الزبير ، وهو حصن منيع ، في رأس جبل ، فأقام المسلمون على محاصرتهم ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود يقال له غزال ، فقال : يا أبا القاسم ! تؤمّنتني على أن أدلك على ماتستريح من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشقّ ، فإن أهل الشقّ قد هلكوا رعباً منك ؟ فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله ، فقال اليهودي : إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، لهم دُبُول (٢) تحت الأرض ، يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشاربهم أضخروا (٣) لك ، فسار رسول الله ﷺ إلى دُبُولهم فقطعها ، فلما قطع عليهم مشاربهم خرجوا فقاتلوا أشدّ القتال ، وقتل من المسلمين يومئذ نفر ، وأصيب من يهود ذلك اليوم عشرة ، وافتتحه رسول الله ﷺ ، وكان هذا آخر حصون النطاة (٤) .

- فتح حصني الشقّ :

فلما فرغ رسول الله ﷺ من النطاة تحول إلى أهل الشقّ ، فكان أول حصن بدأ به حصن أبيّ ، فقاتل أهله قتالاً شديداً ، وخرج رجل منهم يدعو إلى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، رضي الله عنه ، فاختلفا ضربات ، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى نصف الذراع ، فبادر راجعاً منهزماً إلى الحصن ، فتبعه الحباب فقطع عرقوبه (٥) ، فوقع فدقّف عليه .

فخرج رجل آخر فصاح من يبارز ؟ فخرج له رجل من المسلمين ، فقتل ذلك الرجل ، وقام اليهودي مكانه يدعو للبراز ، فخرج له أبو دجّانة ، رضي الله عنه ، وقد عصب رأسه بعصابة حمراء ، فضربه فقطع رجله ثم دقّف عليه .

وعند ذلك أحجمت اليهود عن البراز ، فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه ، يتقدّمهم أبو دجّانة ، رضي الله عنه ، فوجدوا فيه أثنائاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً ، وهرب من كان فيه من المقاتلة وخطقوا بحصن النزار وهو الحصن الثاني من حصني الشقّ ، فتبعوا به أشدّ التبع ، وزحف رسول الله ﷺ إليهم في أصحابه فحاصرهم ، وكانوا أشدّ أهل الشقّ رُمياً للمسلمين بالنبل والحجارة ، حتى أصاب النبل ثياب رسول الله ﷺ وعلقت به ، فأخذ النبل فجمعها ، ثم أخذ لهم كفاً من حصباء فحصب به حصنهم ، فرجف بهم ، ثم أمر النبي ﷺ المسلمين بنصب المنجنيق - الذي وجدوه في حصن الصعب - عليهم ، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن ، واقتحموه ، فأخذوا من فيه أخذاً ذريعاً (٦) .

فتح الشطر الثاني من خيبر (حصون الكتيبة) :

ولما افتتح رسول الله ﷺ حصون النطاة والشقّ فر من بقي من يهود تلك الحصون إلى حصون الكتيبة وهي ثلاثة : القموص ، والوطيح ، والسّلام ، فتحصنوا مع أهلها أشدّ التحصن . فسار رسول الله ﷺ إليهم فحاصرهم أشدّ الحصار ، وكان أعظم حصون خيبر القموص ، وكان منيعاً ، حاصره المسلمون عشرين ليلة ، ثم فتحه الله على يد عليّ ، رضي الله عنه ، ومنه سيّبت صفيّة بنت حبيّ بن أخطب .

ثم انتهى المسلمون إلى حصار الوطيح ، والسّلام وهو حصن بني أبي الحقيق ، وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً ، ودام الحصار أربعة عشر يوماً ، فلم يخرج أحد منها ، فهم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح (٧) .

(١) كان اسمه حصن قلّة لكونه على رأس جبل ، ثم وقع بعد في سهم الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، فأصبح يعرف باسمه .

(٢) دُبُول : جدائل ماء ، واحدها دُبْل ، سمّيت به لأنها تُدبَل : أي : تُصَلِّح وتُتمرّ (النهاية : ج ٩٩/٢) .

(٣) أضخّر القوم : برزوا في الصخراء ، وقيل أضخّر القوم إذا برزوا إلى قضاء لا يواريهم شيء (لسان العرب : ج ٢٤٠/٢٣) .

(٤) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٤/٤) .

(٥) العرقوب : العصب الغليظ المؤتر فوق عقب الإنسان (لسان العرب : ج ٢٩٠/٧٤) .

(٦) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٤/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٤١/٣) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢/٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٥/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٤١/٣) .

مفاوضة أهل خيبر ومصالحتهم :

فأرسل كنانة بن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ : أنزل فأكلمك ؟ قال : « نعم » ، فنزل ابن أبي الحقيق ، فصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من مقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر بذرايرهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض ، وعلى الصفراء والبيضاء - أي الذهب والفضة - والكراع والحلقة^(١) ، وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : « وَبَرِّتْ مِنْكُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ إِنْ كَتَمْتُمُونِي شَيْئاً » ، فصالحوه على ذلك ، وتم تسليم الحصون إلى المسلمين .

ويقال : إنه صالحهم على أن يحقن دماءهم ولهم ما حملت ركابهم ، وللنبي ﷺ الصفراء والبيضاء والسلاح ويخرجهم^(٢) .

وقد اختلف أصحاب المغازي هل جرى هناك قتال في أي حصن من حصون الكتيبة أم لا ؟ فأشار ابن إسحاق في سياق ذكره لمحاصرة رسول الله ﷺ لحصني الوطيط والسلايم إلى أن حصن القموص تم فتحه بالقتال فقط .

وصرح بعضهم كالواقدي أن حصون الكتيبة الثلاث إنما فتحت صلحاً بعد المفاوضة . ويمكن أن تكون المفاوضة جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال ، وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال .

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يخرج أهل خيبر من أرضهم كما صالحوه ، سألوه أن يقرهم فيها على أن يعملوا على نصف ما خرج منها من الثمر والزرع ، فقالوا له : يا محمد ! ذعنا نكن في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم وأمرها . ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، فأعطاهم رسول الله ﷺ خيبر على أن يعتلوا من أموالهم ، وله شطر ما يخرج منها ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم . فأقروا حتى أجلاهم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في إمارته إلى تيماء وأريحا^(٣) .

نقض يهود العهد وقتل ابني أبي الحقيق :

تقدم أن كنانة بن أبي الحقيق اشترط لرسول الله ﷺ أن لا تكتمه اليهود شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، ومع ذلك فقد غيب بنو أبي الحقيق مسكاً^(٤) فيه مال وحلي حبي بن أخطب ، وقد كان قتل قبل خيبر ، وكان احتله معه إلى خيبر حين أجليت بنو النضير .

فقال رسول الله ﷺ لعم حبي سعية بن عمرو : « أَيْنَ مَسْكَ حَبِيِّ بْنِ أَخْطَبٍ ؟ » قال : أذهبته الحروب والنفقات ، فقال رسول الله ﷺ : « الْعَهْدُ قَرِيبٌ وَالْمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ » ، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، فسسه بعذاب ، فقال : رأيت حبيياً يطوف في خربة ههنا ، فذهبوا فطافوا ، فوجدوا المسك في الخربة ، فقتل النبي ﷺ ابني أبي الحقيق ، وسبى نساءهم وذرايرهم ، وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا .

ويقال : إن رسول الله ﷺ أتى بكنانة وأخيه الربيع ابني أبي الحقيق ، وكنانة عروس بصفية بنت حبي ، فقال لهما : « أَيْنَ آتَيْتَكُمَا الَّتِي كَانَتْ تُسْتَعَارُ بِالْمَدِينَةِ ؟ » فقالا : أخرجتنا وأجليتنا فأنفقناها ، قال : « أَنْظَرَا مَا تَقُولَانِ ، فَإِنَّكُمَا إِنْ كَتَمْتُمَانِي اسْتَحَلَلْتُ بِذَلِكَ دِمَاءَكُمَا وَذُرِّيَّتِكُمَا » ، فقالا : نعم . فأخبره الله تعالى بموضع تلك الآنية ، فدعا رجلاً من الأنصار وقال له : « اذْهَبْ إِلَى مَكَانِ

(١) الكراع : اسم لجميع الخيل ، والحلقة : السلاح . وقد تقدم .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١١٠/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٦/٤) ، وسنن أبي داود (ج ٤٠٨/٣) كتاب الخراج والإمارة والقيء - باب ما جاء في حكم أرض خيبر ح ٣٠٠٦ ، ومغازي الواقدي (ج ٦٧١/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢/٣ ، ٢٨٩ ، ٤١١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٥/٤) ، وسننه (ج ١١٤/٦) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٤/٣) كتاب الشركة - باب مشاركة الذمي والمشركون في الزراعة ، و (ج ١١٦/٤) كتاب الجهاد والسير ، وصحيح مسلم (ج ١١٨٧/٣) كتاب المساقاة - باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع ح ٤ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٦/٤) .

(٤) المسك : الجلد ، وقد تقدم .

كذا وكذا فأنظر نخيلة في رأسها رُقعة ، فأنزع تلك الرُقعة واستخرج تلك الآنية فأتت بها ، فانطلق حتى جاء بها ، فقدمها رسول الله ﷺ فضرب أعناقها وسبى أهلها^(١) .

وعند ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ أتى بكنانة بن الربيع ، وكان عنده كنز بني النضير ، فسأله عنه فوجد أن يكون يعرف مكانه ، فأتى رسول الله ﷺ رجل من اليهود يقال هو ابن عم كنانة ، فقال : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الحربة كل غداة ، فقال رسول الله ﷺ لكانة : « أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْنَاكَ عِنْدَكَ أَفْتَلَكُ ؟ » قال : نعم ، فأمر رسول الله ﷺ بالحربة فحفرت ، فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقي ، فأبى أن يؤديه ، فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال : « عَذْبَةٌ حَتَّى تَسْتَأْصِلَ مَا عِنْدَهُ » ، فكان الزبير يَقْدَحُ بَزْدٍ^(٢) في صدره ، حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة^(٣) .

قسمة الغنائم :

قسم رسول الله ﷺ خير على ستة وثلاثين سهماً ، جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستائة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك ، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد من المسلمين ، وعزل النصف الآخر وهو الكتيبة لنوائبه وحاجاته ولذوي القربى واليتامى والمساكين وما يتنزل به من أمور المسلمين .

وكان النبي ﷺ أمر بالغنائم فجُمعت ، واستعمل عليها قُرُوء بن عمرو البياضي ، ثم أخرج منها الخمس ، وأمر ببيع الأربعة الأخماس ، فباعها قُرُوء وقسم ذلك بين أصحابه .

وكان الذي ولي إحصاء الناس زيد بن ثابت فأحصاهم ألفاً وأربعمائة والحيل مائتي فرس ، وهو الذي ولي القسمة أيضاً مع جبار بن صخر لأنها كانا حاسبتين قاسمتين ، فأعطي لكل فرس سهان ولفارسه سهم ، ولكل راجل سهم .

وكانت مغام خيبر خاصة بأهل الحديبية من شهد منهم خيبر ومن غاب عنها ، لأن الله ، تبارك وتعالى ، كان وعدهم إيّاها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها .

ورضخ رسول الله ﷺ لنساء كنّ خرجن معه إلى خيبر يداوين الجرحى ويسقين الماء ، فيهن صفيّة عمته وأمّ سلمة وأمّ عطية الأنصارية وأمّ سنان الأسلمية ، ولم يضرب لهن بسهم^(٤) .

روي عن أمّ سنان الأسلمية ، رضي الله عنها ، قالت : لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر جئته فقلت : يا رسول الله ! أخرج معك في وجهك هذا أخزر السماء وأداوي المزيض والجريح - إن كانت جراح ولا تكون - وأبصر الرّجل ، فقال رسول الله ﷺ : « أَخْرَجِي عَلى بَرَكَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ لَكَ صَواحِبَ قَدْ كَلَمْنِي وَأَدْنَتْ لَهَنَّ مِنْ قَوْمِكَ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ، فَإِنْ شِئْتِ فَمَعَ قَوْمِكَ وَإِنْ شِئْتِ فَمَعْنَا » ، قلت : معك ، قال : « فَكُونِي مَعَ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَتِي » ، فقالت : فكننت معها^(٥) .

وروي عن أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بني غفار قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار ، فقلنا :

(١) انظر : سنن أبي داود (ج ٤٠٨/٢) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب ماجاء في حكم أرض خيبر ح ٣٠٠٦ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٠/٤) ، وعميون الأثر (ج ١٣٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٢/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٥٢/٦) .

(٢) الزند : العود الذي تقدح به النار (الوسيط : ج ٤٠٤/١) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٣٨٨/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٨٥/٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٧٤/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، وصحيح مسلم (ج ١٤٤٤/٣) كتاب الجهاد والسير - باب النساء الغازيات يرضخ لهن ولا يسهم ح ١٣٧ ، وسنن أبي داود (ج ١٦٩/٣ ، ١٧٠) كتاب الجهاد - باب في المرأة والعبد يخذيان من الغنيمة ح ٢٧٢٧ وح ٢٧٢٩ ، و (ج ٤١٢/٤) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب ماجاء في حكم أرض خيبر ح ٣٠١٢ وح ٣٠١٣ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٣٤/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٧/٢) و (ج ١٢١/٨) ، وعميون الأثر (ج ١٣٩/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٥٦/٢) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ٢٩٢/٨) .

يا رسول الله ! قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ، وهو يسير إلى خيبر ، فنداوي الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : « على بركة الله » ، قالت : فخرجنا معه ، وكنت جارية حدّثة ، فأردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رحله^(١) ، قالت : فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح وأناخ ، ونزلت عن حقيبة رحله ، وإذا بها دم منّي ، وكانت أول حيضة حِضتها ، قالت : فتقبّضت إلى الناقة واستحييت ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ، ورأى الدم ، قال : « مَا لَكَ لَعَلَّكَ نَفْسَتْ ؟ » قالت : قلت : نعم ، قال : « فَأُصْلِحِي مِنْ نَفْسِكَ ثُمَّ خَذِي إِنَاءً مِنْ مَاءِ فَاطْرَحِي فِيهِ مِلْحاً ثُمَّ اغْسِلِي بِهِ مَا أَصَابَ الْحَقِيْبَةَ مِنَ الدَّمِ ، ثُمَّ عَوْدِي لِمَرْكَبِكَ » .

قالت : فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر رضخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القِلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلّقها بيده في عنقي ، فوالله لا تفارقني أبداً ، قالت : فكانت في عنقها حتى ماتت ، ثم أوصت أن تدفن معها ، قالت : وكانت لا تظهر من حيضة إلا جعلت في طهورها ملحاً ، وأوصت به أن يجعل في عُسلها حين ماتت^(٢) .

ولما رجع المسلمون إلى المدينة ردّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوم إياها من النخيل حيث صار لهم بخير مال ونخيل ، وردّ النبي ﷺ إلى أمّ سلمة ، رضي الله عنها ، عذاقها ، وأعطى أمّ أيمن مكانهن من حائطه . وشيع المسلمون عندئذ كما روي عن ابن عمر ، رضي الله عنها ، قال : ماشعنا حتى فتحنا خيبر^(٣) .

قدوم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والأشعريين :

وقدم على رسول الله ﷺ وهو بخير بعد ما فتحها جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وأصحابه . وكان النبي ﷺ قد بعث إلى النجاشي بعد الحديبية عمرو بن أمية الضمري ، وكتب معه إليه أن يرسل من بقي عنده من أصحابه - كما تقدّم ذكره - ففعل النجاشي ، وحملهم في سفينتين ، وكانوا ستة عشر رجلاً ، وحمل معهم نساء من نساء من هلك في الحبشة من المسلمين ، وكان من قدم معهم أمّ حبيبة ، رضي الله عنها ، وسيأتي خبر زواج النبي ﷺ منها بعد غزوة خيبر .

ولما رأى جعفر رسول الله ﷺ حَجَلَ - أي مشى على رجل واحدة - إعظاماً منه لرسول الله ﷺ - وكان قد رأى أهل الحبشة يفعلون ذلك للتعظيم - فتلقاه رسول الله ﷺ وقام له ، فقبله بين عينيه والتزمه ، وقال : « مَا أَذْرِي بِأَيْهَا أَنَا أَسْرُ بِفَتْحِ خَيْبَرٍ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ ؟ »^(٤) .

روي عن جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قال : لما أتينا النجاشي فأردنا الخروج من عنده حملنا وزودنا وأعطانا ، ثم قال : أخبروا صاحبكم بما صنعت لكم ، وهذه رسلي معكم ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ﷺ ، فقل له يستغفر لي . قال جعفر : فخرجنا من عنده حتى أتينا المدينة ، فتلقاني النبي ﷺ فاعتنقني وقال : « مَا أَذْرِي أَنَا بِفَتْحِ خَيْبَرٍ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ ؟ » ، فقام رسول النجاشي فقال : هذا جعفر فسأله عما صنع به صاحبا ؟ فقال جعفر : قد فعل بنا وحملنا وزودنا وشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وقال لنا : قل له يستغفر لي ، فدعا ثلاث مرات : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِلنَّجَاشِيِّ » ، فقال المسلمون : آمين ، قال : فقلت للرسول : انطلق فأبلغ صاحبك ما رأيت من النبي ﷺ^(٥) .

وروي عن سلمان ، رضي الله عنه ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾^(٦) ،

(١) حَقِيْبَةُ الرَّحْلِ : هي الزِيَادَةُ التي تُجْعَلُ في مُؤَخَّرِ القَتَبِ ، والوَعاءُ الذي يَجْمَعُ الرَّجُلُ فِيهِ زَادَهُ (النهاية : ج ٤١٢/١) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٣٩٥/٣) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٢١٧/٣) كتاب الهبة وفضلها - باب فضل النيحة ، وصحيح مسلم (ج ١٣٩٢/٣) كتاب الجهاد والسير - باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم ح ٧٠ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤١٤/٣ ، ٤١٧) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٦/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٤٨٣) .

(٥) رواه الهيثمي في جمع الزوائد (ج ٤١٩/٩) وقال : رواه البزار وفيه أسد بن عمرو ومجالد بن سعيد وثقهما غير واحد وضعفها جماعة ، وبقية رجاله ثقات .

(٦) المائدة : ٨٣ .

قال : إنهم كانوا نَوَاتِين - يعني ملاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لَعَلَّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَرْضِكُمْ أَنْتَقَلْتُمْ عَنْ دِينِكُمْ ؟ » قالوا : لن نقلب عن ديننا ، فأنزل الله ذلك في قولهم (١) .

وقدم مع مهاجرة الحبشة الأشعريون ، وهم خمسون رجلاً ، فيهم أبو موسى رضي الله عنه .

روى البخاري بسنده عن أبي موسى ، رضي الله عنه ، قال : بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهما أبو بُرْدَةَ والآخر أبو رُؤْم ، إمّا قال : في بضع وإمّا قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ، فركبنا سفينة فألقننا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، ووافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده ، فقال جعفر : إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا وأمرنا بالإقامة ، فأقبوا معنا ، فأقنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر ، فأسهم لنا ، أو قال : فأعطانا منها ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً ، إلا لمن شهد معه إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم (٢) .

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه قبل قدوم الأشعريين : « سَيَقْدَمُ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ هُمْ أَرْقُ قُلُوباً لِلْإِسْلَامِ مِنْكُمْ » ، فقدم الأشعريون ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون : غداً نلقى الأحبة ، محمداً وحزبه . ثم لقوا رسول الله ﷺ بجزيرة فبايعوه ، فقال رسول الله ﷺ : « الأشعريون في الناس كَصَرَّةٍ فِيهَا مِسْكٌ » (٣) .

روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ أضعف قلوباً وأرق أفئدةً ، الفقه يمان والحكمة

يانية » (٤) .

ويروى أن الأشعريين لما قدموا المدينة صافحوا الناس بالسلام ، فكانوا هم أول من أحدث المصافحة (٥) ، فقال النبي ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدْ سَنَوْا لَكُمْ الْمَصَافَحَةَ » وقال : « مِنْ تَهَامِ مَحَبَّتِكُمُ الْمَصَافَحَةُ » (٦) .

وقد رويت أحاديث كثيرة في فضائلهم ، منها ما رواه مسلم بسنده عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا (٧) فِي الْغَزْوِ ، أَوْ قُلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسُّوْيَةِ ، فَهَمَّ مِنْي وَأَنَا مِنْهُمْ » (٨) .

- فضيل أصحاب السفينة :

روى البخاري بسنده عن أبي موسى ، رضي الله عنه ، قال : وكان أناس من الناس يقولون لنا - يعني لأهل السفينة - سبقناكم بالمهجرة ، ودخلت أسماء بنت عميس ، وهي ممن قدم معنا ، على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فبين هاجر ، فدخل عمر على حفصة ، وأساء عندها ، فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ، قال عمر : الحبشية هذه ، البحرية هذه ؟ قالت أسماء : نعم ، قال : سبقناكم بالمهجرة ، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم ، فغضبت وقالت : كلاً والله ، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا في دار ، أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ ،

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٧/٧) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وفيه العباس بن الفضل الأنصاري وهو ضعيف .

(٢) صحيح البخاري (ج ١١٠/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ومن الدليل على أن الخمس لنواب المسلمين .

(٣) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٢/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٨/١) .

(٤) صحيح البخاري (ج ٢٢٠/٥) كتاب المغازي - باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٢/٣) .

(٦) انظر : السيرة الحلبية (ج ٤٨٣) .

(٧) أرمكوا : تفقد زادتهم ، وأصله من الرمى ، كأنهم لصقوا بالرمل (النهاية : ج ٢٦٥/٢) .

(٨) صحيح مسلم (ج ١٩٤٤/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم ح ١٦٧ .

وايم الله لا أطمع طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ، ونحن كنا نؤذي ونخاف ، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ ، وأسأله والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه ، فلما جاء النبي ﷺ قالت : يانبي الله ! إن عمر قال كذا وكذا ، قال : « فَمَا قُلْتَ لَهُ ؟ » قالت : قلت له كذا وكذا ، قال : « لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ ، وَلَهُ وَأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلُ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ » . قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ . قال أبو بريدة : قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني (١) .

وروي أنه لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة الحبشة قال : « أَلَا تَحَدِّثُونِي بِأَعَجِيبٍ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » ، فقال فتية منهم : بلى يا رسول الله ، بينا نحن جلوس مررت بنا عجوز من عجائز رهايينهم تحمل على رأسها قلعة من ماء ، فررت بفتى منهم ، فجعل إحدى يديه بين كتفيها ، ثم دفعها فخرت على ركبتيها ، فانكسرت قلعتها ، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم يا غدر ! إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون ، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك ، عنده غداً ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقْتُ ، صَدَقْتُ ، كَيْفَ يَقْدَسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤَخِّدُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شِدِيدِهِمْ ؟ » (٢) .

وفد دؤس :

وقدم على رسول الله ﷺ أيضاً وهو بخيبر الدؤسيون ، فيهم الطفيل بن عمرو ، رضي الله عنه ، وكان الطفيل قد أسلم قديماً والنبي ﷺ بمكة ، فلما عاد إلى قومه دؤس جعل يدعوهم إلى الإسلام فأبطؤوا عليه ، ف جاء إلى النبي ﷺ بمكة فقال له : يانبي الله ! إن دؤساً قد هلك ، عصت وأبت ، وقد غلبني عليها الرنا (٣) ، فادع الله عليهم ، فقال : « اللَّهُمَّ ! اهْدِ دُؤْسًا وَأَثِّبْ بِهِمْ ، ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ وَارْفُقْ بِهِمْ » . فلم يزل الطفيل بأرض دؤس يدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأخذ والحنسدي ، ثم قدم على رسول الله ﷺ بن أسلم معه من قومه ، حتى نزل المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، فيهم أبو هريرة وعبد الله بن أزيهر ، فوافوا سباع بن عرفة - عامل النبي ﷺ على المدينة - في صلاة الصبح ، فصلوا خلفه ، فلما فرغ من صلاته أخبرهم أن النبي ﷺ بخيبر وزودهم شيئاً ، فساروا إليه ، فلحقوه هناك وقد افتتح خيبر ، فرأى رسول الله ﷺ أن لا يخب مسيرهم ، ولا يبطل سفرهم ، فكلم أصحابه فيهم أن يشركوهم في الغنية ، ففعلوا .

وباعوا النبي ﷺ على السبع والطاعة ، في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وأثرة عليهم ، ثم قدموا معه المدينة ، فقال الطفيل : يا رسول الله ! لا تفرق بيني وبين قومي ، فأنزلهم حرّة الدجاج .

وقال أبو هريرة ، رضي الله عنه ، في هجرته حين خرج من دار قومه :

باليلة من طولها وعنائها على أنهن من دارة الكفر نجت

قال : وأبى (٤) غلام لي في الطريق ، فلما قدمت على النبي ﷺ فبايعته ، فبينما أنا عنده إذ طلع الغلام ، فقال لي النبي ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ! هَذَا غَلَامُكَ » ، فقلت هو لوجه الله .

وقال عبد الله بن أزيهر رضي الله عنه : يا رسول الله ! إن لي من قومي سبطه (٥) ، فاجعلني عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا أَخَا دُؤْسِ ! إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا ، فَمَنْ صَدَّقَ اللَّهَ نَجَا ، وَمَنْ آلَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ هَلَكَ ، إِنَّ أَعْظَمَ قَوْمِكَ تَوَابًا أَعْظَمَهُمْ صِدْقًا ، وَيُوشِكُ الْحَقُّ أَنْ يَغْلِبَ الْبَاطِلَ » (٦) .

(١) صحيح البخاري (ج ١٧٤/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

(٢) سنن ابن ماجه (ج ١٣٢٩/٢) كتاب الفتن - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج ٤٠١٠ .

(٣) الرنا : هو لهو مع شغل قلب وبصر وغلبة هوى (المحيط ج ٣٣٧/٤) .

(٤) أبى : هرب (الوسيط : ج ٣/١) .

(٥) أي حسباً ونسباً .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٠٩/١) ، وصحيح البخاري (ج ٢٢٠/٥) كتاب المغازي - قصة دوس والطفيل بن عمرو الدوسي ، ومسنن الإمام أحمد

(ج ٢٤٥/٢ ، ٣٨١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٥٢/١) و (ج ١٠٨/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٦/٤) .

وكان مع الطفيل بن عمرو حين قدم على النبي ﷺ المدينة رجل من قومه ، فاجتأوا المدينة^(١) ، فرض ، فجزع ، فأخذ مشاقص^(٢) له فقطع بها براحمه^(٣) ، فشخت يده حتى مات ، فرأه الطفيل في منامه ، فرأه وهيئته حسنة ، ورأه مغطياً يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك ؟ فقال : غفر لي بهجريتي إلى نبيي ﷺ ، فقال : مالي أراك مغطياً يديك ؟ قال : قيل لي : لن نصلح منك ما أفسدت . فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ فقال : « اللَّهُمَّ ! وِلْيَدَيْهِ فَاغْفِرْ »^(٤) .

زواج النبي ﷺ من صفية بنت حبيبة :

ذكرنا عند مقتل ابني أبي الحقيق أن كنانة كان عروساً بصفية بنت حبيبة ، فلما قتل كنانة بنكته العهد وغدره جعلت صفية في السبايا ، وقيل : إنها سببت من حصن القموص قبل أن ينزل اليهود على الصلح كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

فلما أمر رسول الله ﷺ بالسبي فجمع ، جاء دحية بن خليفة ، رضي الله عنه ، فقال : يا نبي الله ! أعطني جارية من السبي ، فقال : « أَذْهَبُ فَخُدُّ جَارِيَةً » ، فأخذ صفية بنت حبي ، فأتى رجل النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ! أعطيت دحية صفية بنت حبي سيده بنت قريظة والنضير ؟ لا تصلح إلا لك ، وذكر له جمالها : قال : « اذعوه بها » ، فجاء ، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال : « خُدُّ جَارِيَةً مِنْ السَّبْيِ غَيْرَهَا » ، واصطفاها لنفسه . ويقال : عوضه عنها بابنتي عمها ، ويقال : بل اشتراها منه بسبعة أروس^(٥) .

وعند ابن إسحاق أن صفية لما سببت أتى بها بلال رسول الله ﷺ وبأخرى معها ، فر بها على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت^(٦) وجهها ، وحشت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله ﷺ قال : « أُغْرِبُوا^(٧) عَنِّي هَذِهِ الشَّيْطَانَةَ » ، ثم قال : « أَنْزَعْتُ مِنْكَ الرَّحْمَةَ يَا بِلَالُ حِينَ تَمُرُّ بِأَمْرَاتَيْنِ عَلَى قَتْلَى رِجَالِهِنَّ ! » . وأمر رسول الله ﷺ بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه^(٨) .

وعرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها . قالت صفية : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو من أبيض الناس إلي ، قتل زوجي وأبي وقومي ، فقال لي : « يَا صَفِيَّةُ ! أَمَا إِنِّي أَعْتَدُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعْتُ بِقَوْمِكَ ، إِنَّهُمْ قَالُوا لِي كَذَا ، وَإِنَّ أَبَاكَ أَلْبَّ عَلَيَّ الْعَرَبَ ، وَفَعَلَ وَفَعَلَ » ، قالت : فإزال يعتذر إلي حتى ذهب ذلك من نفسي .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال لها : « اخْتَارِي ، فَإِنِ اخْتَرْتِ الْإِسْلَامَ أَمْسَكْتُكَ لِنَفْسِي ، وَإِنِ اخْتَرْتِ الْيَهُودِيَّةَ فَعَسَى أَنْ أُشْتَقَّكَ فَتَلْحَقَنِي بِقَوْمِكَ » ، فقالت : يا رسول الله ! لقد هويت الإسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك ، ومالي في اليهودية أرب ، ومالي فيها والد ولا أخ ، وخيرتني الكفر والإسلام ، فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي ، فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه ، فلم يسمع النبي ﷺ ذاكراً أباهما بحرف مما تكره ، وكانت تحت سلام بن مشكم ففارقها ، فتزوجها كنانة فقتل عنها ، ولم تكن ولدت لأحد منها .

(١) أي : أصابهم الجوى ، وهو المرض وذاك الجوف إذا تطاول ، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها . وقد تقدم .

(٢) المشاقص : جمع مشقص ، وهو نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض (النهاية : ج ٤٩٠/٢) .

(٣) التراجيم : جمع ترجمة ، وهي مفصل الإصبع (الوسيط : ج ٤٧١) .

(٤) انظر : صحيح مسلم (ج ١٠٨/١) كتاب الإيمان - باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر ح ١٨٤ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨١/٢ ، ٢٨٨) ، وصحيح البخاري (ج ١٠٤/١) كتاب الصلاة - باب ما يذكر في الفخذ ، و (ج ١٧١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، وصحيح مسلم (ج ١٠٤٥/٢) كتاب النكاح - باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها ح ٨٧ . ولعل المقصود بالشراء في الحديث العوض على سبيل الجاز ، فإنه لما عوضه بابنتي عمها لم تطب نفسه فأعطاه من جملة السبي زيادة على ذلك . انظر : فتح الباري (ج ٤٢٠/٧) .

(٦) الضرب الشديد بالشيء العريض ، وقيل : هو الضرب عامة بأي شيء كان (لسان العرب : ج ٢٤٧٤/٤) .

(٧) أغربوا : أبعثوا (النهاية : ج ٢٢٧/٣) .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٨/٢) .

وكانت صفيية ، رضي الله عنها ، قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قرأ وقع في حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها ، فقال : ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً ، فلطم وجهها لطمه خضر عينها منها ، فأتى بها رسول الله ﷺ وبها أثر منه ، فسألها ما هو ؟ فأخبرته هذا الخبر .

ولما قفل رسول الله ﷺ من خيبر خرج بصفية معه ، قال أنس رضي الله عنه : حتى إذا بلغنا سدّ الصّهباء حلّت (١) ، فدفعها النبي ﷺ إلى أمّ سَلِيمٍ تَصَنَعَهَا لَهُ وَتَهَيَّئَهَا ، فمَشَطْتَهَا أُمُّ سَلِيمٍ وَعَطَّرْتَهَا ، وأهدتها للنبي ﷺ من الليل ، فأصبح عروساً بها .

وبأت تلك الليلة أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، رضي الله عنه ، متوشحاً سيفه ، يجرس رسول الله ﷺ ويُطِيفُ بِقَبْتِهِ ، حتى أصبح رسول الله ﷺ ، فلما رأى مكانه قال : « مَالِكٌ يَا أَبَا أَيُّوبَ ؟ » قال : يا رسول الله ! خِفتُ عليك من هذه المرأة ، قتلت أباهَا وزوجها وقومها ، وهي حديثة عهد بكفر ، فقلت أكون قريباً من رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « يَرُحِمُكَ اللَّهُ أَبَا أَيُّوبَ » ثلاث مرات « اللَّهُمَّ ! احْفَظْ أَبَا أَيُّوبَ كَمَا بَاتَ يَحْفَظُنِي » .

وأقام رسول الله ﷺ بالصّهباء ثلاثة أيام ، وأولم على صفيية ، رضي الله عنها ، هناك ، وليمة ما كان فيها من خبز ولا لحم . قال أنس رضي الله عنه : لما أصبح رسول الله ﷺ عروساً قال : « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيُجِئْ بِهِ » ، وبسط نطعاً ، فجعل الرجل يجيء بالتمر ، وجعل الرجل يجيء بالسمن ، والرجل يجيء بالسويق ، فحاسوا حيساً (٢) ، فكانت وليمة رسول الله ﷺ .

قال أنس رضي الله عنه : فقال المسلمون : إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه ؟ فقالوا : إن حجبتها فهي إحدى أمهات المؤمنين وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه ، فلما ارتحل رسول الله ﷺ وطأ لها خلفه ومدّ الحجاب ، فعرفوا أنه قد تزوجها ، فلما أرادت أن تتركب أدنى رسول الله ﷺ فخذها منها لتركب عليها ، فأجلته أن تضع قدمها على فخذها ، فوضعت ركبتهَا على فخذها ثم ركبته .

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة سمع نساء المهاجرين والأنصار بصفية ، قالت عائشة رضي الله عنها : فتنكرت وتقمّبت (٣) فذهبت ، فنظر رسول الله ﷺ إلى عيني فعرّفني ، قالت : فالتفت فأسرعت المشي ، فأدركني فاحتضني ، فقال : « كَيْفَ رَأَيْتِ ؟ » قلت : أرسل ، يهودية وسط يهوديات ، فقال : « لَا تَقُولِي هَذَا يَا عَائِشَةُ ! فَإِنَّهَا قَدْ أَسْلَمَتْ وَحَسَنَ إِسْلَامُهَا » (٤) .

روي عن صفيية ، رضي الله عنها ، قالت : دخل عليّ رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنا أبكي ، فقال : « يَا بِنْتَ حَبِيٍّ مَا يُبْكِيكِ ؟ » قلت : بلغني أن حفصة وعائشة ينالان مني ويقولان نحن خير منها ، نحن بنات عم رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وأزواجه ، قال : « أَلَا قُلْتِ كَيْفَ تَكُونُونَ خَيْراً مِنِّي وَأَبِي هَارُونَ وَعَمِّي مُوسَى وَرُؤُوسِي مُحَمَّدٌ ؟ » صلوات الله وسلامه عليهم (٥) .

وكان عمر صفيية ، رضي الله عنها ، حين تزوجها رسول الله ﷺ سبع عشرة سنة ، وتوفيت سنة اثنين وخمسين ، ويقال سنة خمسين في زمن معاوية ، رضي الله عنه ، ودفنت بالبقيع رحمة الله تعالى (٦) .

(١) يعني طهرت من الحيض .

(٢) حاسوا : خلطوا ، والحيس : هو الأقط والنمن والتمر يخلط ويغجن (الوسيط : ج ٢١٠/١) .

(٣) تنقبت المرأة : شدت النقاب على وجهها (الوسيط : ج ٥٩٢/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٨/٢ ، ٣٩٢) و (ج ٢٢٤/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٠٤/١) كتاب الصلاة - باب ما يذكر في الفخذ ، و (ج ١٧١/٥) ،

(١٧٢) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، وصحيح مسلم (ج ١٠٤٦/٢) كتاب النكاح - باب فضيلة إعتاقه أمته ح ٨٧ ، والمستدرک (ج ٢٨/٤) ،

وسان ابن ماجه (ج ٦٣٧/١) كتاب النكاح - باب حسن معاشره النساء ح ١٩٨٠ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٢٨/٩) ، ومجمع الزوائد (ج ١٥٢/٦)

و (ج ١٥/٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٦/٢) و (ج ١٢١/٨ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢١٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٢/٤) .

(٥) المستدرک (ج ٢٩/٤) .

(٦) انظر : المستدرک (ج ٢٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٨/٨) .

أمر الشاة المسمومة :

وفي هذه الغزوة ستمت زينب بنت الحارث اليهودية ، امرأة سلام بن مشكم ، الشاة للنبي ﷺ وأهدتها إليه ، انتقاماً لقتل أبيها وزوجها وأخيها أو عمها مرحب .

فلما اطمان رسول الله ﷺ بعد ما فتحت خيبر أهدت له زينب بنت الحارث شاة مصلية^(١) ، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها الذراع ، فأكثر فيها من السم ، ثم ستمت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « ادنوا » فقعدها ، وتناول رسول الله ﷺ الذراع فلاك منها مضعفة فلم يسغها^(٢) ، وبسط أصحابه أيديهم ، فبهم بشر بن البراء بن معرور ، رضي الله عنها ، فأخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ ، فأما بشر فأسأغها ، وأما رسول الله ﷺ فللفظها ، ثم قال لأصحابه : « أمسكوا ، إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم » . وقيل : إنه طرح منها لكلب فمات .

وفي رواية : أن اليهودية أهدت الشاة لصفية ، فدخل رسول الله ﷺ ومعه بشر بن البراء بن معرور وطائفة من أصحابه ، فقدمت إليهم تلك الشاة ، فتناول رسول الله ﷺ الكتف فانتهش منها ، وتناول بشر بن البراء عظماً فانتهش منه ، فلما استرط^(٣) رسول الله ﷺ لقمته استرط بشر ما في فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « ارفعوا أيديكم ، فإن كنتم هذه الشاة يخبرني أن قد بعيت فيها » ، فقال بشر : والذي أكرمك ، لقد وجدت ذلك في أكتي التي أكلت ، فما منعي أن ألفظها إلا أني أعظمت أن أنقصك^(٤) طعامك ، فلما أسغت ما في فيك ، لم أكن أرغب بنفسي عن نفسك ، ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها بغي ، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه مثل الطيلسان^(٥) ، وماطله وجعه حتى كان لا يتحول إلا ما حول .

ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى تلك اليهودية ، فقال : « أسمت هذه الشاة ؟ » فقالت : من أخبرك ؟ قال : « أخبرتني هذه التي في يدي » مشيراً للذراع ، قالت : نعم ، قال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : أردت لأقتلك ، فقال : « ما كان الله ليستطك على ذلك » ، قالت : قتلت أبي وعمي وزوجي ونلت من قومي ما لا يخفى عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحنا منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، أو فلن يضره ، فعفا عنها رسول الله ﷺ أول الأمر ، فلما مات بشر بن البراء بن معرور ، رضي الله عنها ، من أكلته التي أكل أمر بها فقتلت قصاصاً ، قيل : وصئبت^(٦) .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم ، فقال النبي ﷺ : « اجتمعوا إلي من كان هاهنا من يهود » ، فجمعوا له ، فقال : « إني سألكم عن شيء فهل أنتم صادقون عنه ؟ » فقالوا : نعم ، قال لهم النبي ﷺ : « من أبوكم ؟ » قالوا : فلان ، فقال : « كذبتم بل أبوكم فلان » ، قالوا : صدقت ، قال : « فهل أنتم صادقون عن شيء إن سألت عنه ؟ » فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أيينا ، فقال لهم : « من أهل النار ؟ » قالوا : نكون فيها يسيراً ، ثم تخلفونا فيها ، فقال النبي ﷺ : « اخسؤوا فيها ، والله لا تخالفكم فيها أبداً » ، ثم قال : « هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : « هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً ؟ » قالوا : نعم ، قال : « ما حملكم على ذلك ؟ » قالوا : أردنا إن كنت كاذباً نستريح ، وإن كنت نبياً لم يضرك^(٧) .

(١) مصلية : مشوية (النهاية : ج ٥٠٣) .

(٢) أسأغ الطعام أو الشراب : ابتلعه واستمرأه واستطابه (الوسيط : ج ٤٦٧) .

(٣) استرط : ابتلع (لسان العرب : ج ١٩٩٢/٣) .

(٤) نقص : لم تيم له هاءته ، والنقص : كندر العيش (لسان العرب : ج ٤٤٨٨/٦) .

(٥) الطيلسان : ضرب من الأكنسية أسود اللون (لسان العرب : ج ٢٦٨٩/٤) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٩/٢) ، وصحيح مسلم (ج ١٧٢١/٤) كتاب السلام - باب السم ح ٤٥ ، والمستدرک (ج ٢١٩/٣) و (ج ١٠٩/٤) ،

وسنن أبي داود (ج ٦٤٨/٤ ، ٦٥٠) كتاب السديات - باب فبين سقى رجلاً سماً أو أطعمه فمات ح ٤٥١٠ و ح ٤٥١٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي

(ج ٤٦٨ ، ٤٧) ، ودلائله (ج ٢٦٣/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٠٢/٢) .

(٧) صحيح البخاري (ج ١٢١/٤) كتاب الجهاد والسير - باب إذا غدر للمشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم .

واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله^(١) من أجل الذي أكل من الشاة ، أمره بذلك جبريل ، عليه السلام ، وحججه أبو هند مولى بني ثياضة بالقرن^(٢) والشفرة : وكان كلما وجد من ذلك شيئاً احتجم ، فكانت أم سلمة ، رضي الله عنها ، تقول له : يا رسول الله ! لا يزال يصيبك كل عام وجع من الشاة المسمومة التي أكلت ، فيقول : « ما أصابني شيء منها إلا وهو مكتوب عليّ ، وأدم في طيبتيه » .
ثم كان رسول الله ﷺ لا يأكل من هديّة حتى يأمر صاحبها أن يأكل منها للشاة التي أهديت له بخيبر^(٣) .
ويروى أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي مات فيه : « ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر ، فهذا أوان قطعت أظفري »^(٤) .

قتلى اليهود في غزوة خيبر :

بلغ عدد قتلى اليهود في هذه الغزوة ثلاثة وتسعين رجلاً ، فيهم نفر من أشرافهم كابي أبي الحقيق ومرحب ملكهم^(٥) .

شهداء المسلمين ومن أصيب منهم :

واستشهد من المسلمين في غزوة خيبر بضعة عشر رجلاً ، أربعة من قریش ، وأحد عشر رجلاً من الأنصار ، وواحد من بني غفار ، وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خيبر وهو الأسود الراعي . وقيل : كان عدد الشهداء أكثر من ذلك^(٦) .

وكان الأسود الراعي ، واسمه أسلم ، أجيراً لرجل من اليهود يرضى غنمه ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ ، فوقع في نفسه ذكر النبي ﷺ ، فأقبل بغنمه حتى أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر خيبر ، فقال : يا رسول الله ! اعرض عليّ الإسلام - وكان رسول الله ﷺ لا يخفر أحداً أن يدعو إلى الإسلام ويعرضه عليه - فعرضه عليه ، فقال : فاذا لي إن أنا شهدت وأمنت بالله ؟ قال : « لك الجنة إن متّ على ذلك » ، فأسلم .

فلما أسلم قال : يا رسول الله ! إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم ، وهي أمانة عندي ، فكيف أصنع بها ؟ قال : « أضرب في وجوهها فإنها سترجع إلى ربّها » ، فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصباء ، فرمى بها في وجوهها وقال : ارجعي إلى صاحبك فوالله لا أصحبك أبداً ، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر أو سهم فقتله ، وما صلى لله صلاة قطّ ، فأتي به رسول الله ﷺ ، فوضع خلفه وسجّى بشملة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، قد كان الإسلام من نفسه حقاً ، وإن معة الآن زوجتيه من الحور العين »^(٧) .

ومن جملة من قتل من المسلمين رجل من الأعراب جاء النبي ﷺ فأمن وأتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غم رسول الله ﷺ شيئاً ، فقسم وقسم له فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرضى ظهراً^(٨) ، فلما جاء دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك ، فأخذه فجاء به النبي ﷺ فقال : ما هذا يا محمد ؟ قال : « قسم قسمته لك » ، فقال : ما على هذا أتبعتك ، ولكن أتبعتك على أن أرمى هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة ، فقال : « إن

(١) الكاهل من الإنسان : ما بين كتفيه ، أو مؤصل العنق في الصلب (الوسيط : ج ٨٠٧/٢) .

(٢) القرن : تقدم أنه هو قرن ثور كالمخجمة .

(٣) انظر : سنن أبي داود (ج ٦٤٨/٤) كتاب الدييات - باب فيمن سقى رجلاً سماً .. ح ٤٥١٠ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٠٥/١) ، وسنن ابن ماجه (ج ١١٧٤/١) كتاب الطب - باب السحر ح ٣٥٤٦ ، وجمع الزوائد (ج ٩٢/٥) و (ج ٢٩٦/٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٤٧/١) .

(٤) سنن أبي داود (ج ٦٥٠/٤) كتاب الدييات - باب فيمن سقى رجلاً سماً .. ح ٤٥١٢ .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٠٧/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٦/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٠٧/٢) ، والرحيق المختوم (ص : ٤٢٣) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٩٧/٣) ، والمستدرک (ج ١٣٦/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٠/٤) .

(٨) أي يلبهم .

تَصَدَّقَ اللَّهُ بِصِدْقِكَ ، « ثم نهضوا إلى قتال العدو ، فأتى به النبي ﷺ يُحْمَلُ وقد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي ﷺ : « هُوَ هُوَ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « صَدَقَ اللَّهُ فَصَدَقَهُ » ، فكفنه النبي ﷺ في جَبْتِهِ ، ثم قَدَّمَهُ وَصَلَى عَلَيْهِ ، فكان مما ظهر من صلاة النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ ! هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مَهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ قُتِلَ شَهِيدًا ، أَنَا عَلَيْهِ شَهِيدٌ » (١) .

وقُتِلَ أَيْضًا رَجُلٌ مِّنْ يَدَعِي الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ قَدْ قَاتَلَ أَشَدَّ الْقِتَالَ حَتَّى كَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحَةُ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالِ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَ الْقِتَالَ : « هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ » ، فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ يَرْتَابُ ، فَلَمَّا وَجَدَ الرَّجُلَ أَلَمَ الْجِرَاحَةُ لَمْ يَصْبِرْ ، فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا أَسْهًا فَنَحَرَ بِهَا نَفْسَهُ ، فَاشْتَدَّ رِجَالُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! صَدَقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ ، انْتَحَرَ فُلَانٌ فَاقْتُلْ نَفْسَهُ ، فَقَالَ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ » ، ثُمَّ أَمَرَ بِلَا فَنَادَى فِي النَّاسِ : « أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُّسْلِمَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » (٢) .

وروى البخاري بسنده عن سهل بن سعد الساعدي ، رضي الله عنه ، نحو هذه القصة بمعناها إلا أنه قال : فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلُ أَهْلِ النَّارِ ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » (٣) .

وأصيب في معارك خيبر بعض المسلمين بجراح ، فعن يزيد بن أبي عبيد قال : رأيت أثر ضربة في ساق سلمة ، فقلت : يا أبا مسلم ! ما هذه الضربة ؟ فقال : هذه ضربة أصابني يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة ، فأنت النبي ﷺ فنفت فيه ثلاث نفثات ، فما اشتكىتها حتى الساعة (٤) .

وعن عائذ بن عمر ، رضي الله عنه ، قال : أصابني رمية وأنا أقاتل بين يدي رسول الله ﷺ يوم خيبر في وجهي ، فلما سالت الدماء على وجهي وصدري إلى تَنَدُّوْتِي (٥) وضع النبي ﷺ يده ، ثم دعا لي . فلما توفي عائذ بعد ذلك وغسله أصحابه نظروا إلى ما كان يصف لهم من أثر يد رسول الله ﷺ على صدره ، فإذا عَرَّةٌ سَائِلَةٌ (٦) كَعَرَّةِ الْفَرَسِ (٧) .

ما نهى عنه النَّبِيُّ ﷺ يوم خيبر :

وفي هذه الغزوة حرم النبي ﷺ لحوم الحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ، كما سبق أن ذكرنا ، ونهى أيضاً عن أمور سمّاها لهم ، فقد روى ابن إسحاق بسنده عن حنش الصنعاني قال : غزونا مع رُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ الْمَغْرِبِ ، فَافْتَتَحَ قَرْيَةً مِنْ قَرْيِ الْمَغْرِبِ يُقَالُ لَهَا جَرْبَةُ ، فَقَامَ فِينَا خَطِيْبًا ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنِّي لَا أَقُولُ فَيْكُمْ إِلَّا مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُهُ فِينَا يَوْمَ خَيْبَرَ ، قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « لَا يَجِلُّ لِأَمْرِيءِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْتَبْرَأَ مِائَةَ زَرْعٍ غَيْرِهِ - يَعْنِي إِتْيَانَ الْحَبَالِ مِنَ السَّبَايَا - حَتَّى يَسْتَبْرَأَهَا ، وَلَا يَجِلُّ لِأَمْرِيءِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُصِيبَ امْرَأَةً مِنَ السَّبْبِ حَتَّى يَسْتَبْرَأَهَا ، وَلَا يَجِلُّ لِأَمْرِيءِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَبِيعَ مَعْنًا حَتَّى يُقَسَمَ ، وَلَا يَجِلُّ لِأَمْرِيءِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَرْكَبَ دَابَّةً مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَعْجَفَهَا رَدَّهَا فِيهِ ، وَلَا يَجِلُّ لِأَمْرِيءِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَلْبَسَ ثَوْبًا مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى إِذَا أَخْلَقَهُ (٨) رَدَّهُ فِيهِ » (٩) .

(١) انظر : السنن الكبرى للبيهقي (ج ١٥/٤) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٨٨/٤) كتاب الجهاد والسير - باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ، و (ج ١٦٦/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٠٩/٢) . وقد رويت مثل هذه القصة في قزمان الذي قتل في غزوة أحد وقد مضى ذكرها هناك .

(٣) صحيح البخاري (ج ١٦٨/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٧٠/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

(٥) التَّنَدُّوتَانِ لِلرَّجُلِ كَالْتَّنَدِيِّينَ لِلْمَرْأَةِ (النهاية : ج ٢٢٣/١) .

(٦) أي ملساء .

(٧) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٤١٢/٩) وقال : رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم .

(٨) أَخْلَقَ الشَّيْءُ : أَيْلَاةٌ (الوسيط : ج ٢٥١/١) .

(٩) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢/٣) .

وروى بسنده عن عبادة بن الصّاميت ، رضي الله عنه ، قال : نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تَبْرَ (١) الذهب بالذهب العَيْن ، وتَبْرَ الفِضَّة بالوَرِق العَيْن ، وقال : « اِبْتَاعُوا تَبْرَ الذَّهَبِ بِالوَرِقِ العَيْنِ وَتَبْرَ الفِضَّةِ بِالذَّهَبِ العَيْنِ » (٢) .

ونهى النبي ﷺ يومئذ عن الاعتداء على أموال المعاهدين إلا بحَقِّها ، فعن العرياض بن سارية السلمي قال : نزلنا مع النبي ﷺ خيبر ومعه من معه من أصحابه ، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً (٣) مُنْكَراً ، فأقبل إلى النبي ﷺ فقال : يا عمِّد ! ألكم أن تذبجوا حَمْرنا ، وتأكلوا ثمرنا ، وتضربوا نساءنا ؟! فغضب - يعني النبي ﷺ - وقال : « يا ابنِ عَوْفِ ! اِرْكَبْ فَرَسَكَ ثم ناد : أَلَا إِنَّ الحِنَّةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِلمُؤْمِنِ ، وَأَنْ اجْتَمِعُوا للصَّلَاةِ » ، قال : فاجتمعوا ، ثم صلى بهم النبي ﷺ ، ثم قام فقال : « أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ ، مُتَكِباً على أَرِيكَتِهِ ، قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَمْ يَحْرَمْ شَيْئاً إِلَّا مَا فِي هَذَا القُرْآنِ ، أَلَا وَإِنِّي وَاللهَ قَدْ وَعَظْتُ وَأَمَرْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ ، إِنَّهَا لَمِثْلُ القُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ ، وَإِنَّ اللهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، لَمْ يَحِلِّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا بِإِذْنِ ، وَلَا ضَرْبِ نِسَائِهِمْ ، وَلَا أَكْلِ ثِيَابِهِمْ ، إِذَا أَعْطَوْكُمْ الذي عَلَيْهِمْ » (٤) .

ونهى عن قتل الذرية ، فعن الأسود بن سريع ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بعث سرية يوم خيبر ، فقاتلوا المشركين ، فأفضى بهم القتل إلى الذرية ، فلما جاؤوا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « مَا حَمَلَكُمْ على قَتْلِ الذَّرِيَّةِ ؟ » فقالوا : يا رسول الله ! إنما كنا أولاد المشركين ، قال : « وهل خياركم إلا أولاد المشركين ؟ والذي نفس محمد بيده ما من نَسَمَةٍ تُولَدُ إِلَّا على الفِطْرَةِ حتى يُعْرَبَ عنها لِسَانُهَا » (٥) .

ونهاهم عن أكل البصل والكراث فغلبتهم الحاجة فأكلوا منها أكلاً شديداً ، ثم راحوا إلى المسجد ، فوجد رسول الله ﷺ الريح فقال : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ المُنْتَنَةِ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَأْذِي مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ الإِنْسُ » فقال الناس : حرمت حرمت ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّهُ كَيْسَ بِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ لِي ، وَلِكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهَ رِيحَهَا » (٦) .

إصابة المسلمين بالحمى :

لما قدم رسول الله ﷺ خيبر قدم والثره خَصْرَة ، فلما فتحها الله عليهم أسرع الناس في الأكل منها وأكثروا ، فأصابتهم الحمى ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ الحَمَى رائِدُ المَوْتِ ، وَهِيَ سِجْنُ اللهِ في الأَرْضِ ، فَبَرِّدُوا بِهَا المَاءَ في الشَّنَانِ (٧) ، وَصُبُّهُ عَلَيْكُمْ فيما بَيْنَ الأَدَانَيْنِ ، أَدَانِ المَغْرِبِ وَأَدَانِ العِشَاءِ » - وفي رواية : أمرهم أن يصبوه عليهم بين أذاني الفجر ويذكروا اسم الله عليه - ففعلوا ، فذهبت عنهم ، فأتوا رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك ، فقال : « إِنَّهُ لا وِعَاءَ إِذَا مَلِيَءَ شَرٌّ مِنْ بَطْنِ ، فَإِنْ كُنْتُمْ لا بَدَأَ فاعِلِينَ ، فَاجْعَلُوهَا ثَلْثاً لِلطَّعَامِ ، وَثَلْثاً للشَّرَابِ ، وَثَلْثاً للريِّحِ أَوْ النَّفْسِ » (٨) .

شأن عيينة بن حصن :

ذكرنا أن غطفان ورئيسهم عيينة بن حصن خرجوا ليعينوا يهود خيبر على النبي ﷺ ، فلما ساروا قليلاً سمعوا خلفهم حساً ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ووطنوا أن المسلمين أغاروا على أهلهم ، فرجعوا إلى ديارهم .

ويذكر أن رسول الله ﷺ أرسل إليهم ألا يعينوا يهود على أن يعطيهم من خيبر شيئاً ستمه لهم ، فأبوا عليه . فلما فتح الله على

(١) التَّبْرُ : هو الذَّهَبُ والفِضَّةُ قبل أَنْ يُضْرَبَا ذَنَابِيرَ وَدَرَاهِمَ ، فَإِذَا ضُرِبَا كَانَا عَيْنًا (النهاية : ج ١٧٩/١) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢/٣) .

(٣) المَارِدُ مِنَ الرِّجَالِ : الغَاقِي الشَّدِيدُ (لسان العرب : ج ٤١٧٢/٦) .

(٤) سنن أبي داود (ج ٤٣٦٣) كتاب الحراج والإمارة والفيء - باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا في التجارات ح ٣٠٥٠ .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١٢٢/٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٦) انظر : صحيح مسلم (ج ٣٩٤/١ ، ٣٩٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً ح ٧٢ وح ٧٦ .

(٧) الشَّنَانُ : الأَسْقِيَّةُ الحَلَقَةُ ، وإِحْدَاهَا شَنْ وَشَنَّةٌ ، وَهِيَ أَشَدُّ تَبْرِيداً للمَاءِ مِنَ الجَدِيدِ (النهاية : ج ٥٠٦/٢) .

(٨) انظر : جمع الزوائد (ج ٩٤/٥) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٢/٤) .

رسوله ﷺ خير قدمت عليه غطفان ، فقال عيينة بن حصن : أعطنا الذي وعدتنا ، مما غنمت من حلفائي ، فإني انصرفت عنك وعن قتالك ، فقال له رسول الله ﷺ : « كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّ الصَّيَاحَ الَّذِي سَمِعْتَ أَنْفَرَكَ إِلَى أَهْلِكَ » ، قال : أجزئي (١) يا محمد ، فقال : « لَكَ ذُو الرُّقَيْبَةِ » ، قال عيينة : وما ذو الرُّقَيْبَةِ ؟ قال : « الْجَيْلُ الَّذِي رَأَيْتَ فِي النَّوْمِ أَنَّكَ أَخَذْتَهُ » . فإن عيينة لما سمع الصوت وعاد إلى أهله ولم يجد شيئاً رجع بعد ذلك بمن معه إلى خيبر ، فلما كانوا دون خيبر عرسوا من الليل ، فنام عيينة وانتبه ، فقال لقومه : أبشروا ، فإني رأيت الليلة في النوم أني أعطيت ذا الرُّقَيْبَةِ جبلاً بخيبر ، قد والله أخذت برقبة محمد . فلما قدم خيبر وجد رسول الله ﷺ قد افتتحها (٢) .

قدوم أبان بن سعيد رضي الله عنه من نجد :

كان رسول الله ﷺ لما توجه إلى خيبر بعث من المدينة أبان بن سعيد بن العاص ، رضي الله عنه ، على سرية قبيل نجد ، فقدم أبان وأصحابه على النبي ﷺ بخيبر بعدما افتتحها ، فسأل رسول الله ﷺ أن يقسم لهم ، فلم يفعل .

قال ابن حجر : لم أعرف حال هذه السرية ، فلعل النبي ﷺ بعث هذه السرية إلى نجد لإرهاب الأعراب هناك ، فإنهم كانوا يطلبون غزوة المسلمين للإغارة على المدينة والقيام بالتهب والسلب (٣) .

أمر فدك :

ذكر أنه لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر ودنا منها بعث مَحِيصَةَ بن مسعود ، رضي الله عنه ، في رجال معه إلى أهل فدك - ويقال إنه بعثه لما انصرف منها - يدعوهم إلى الإسلام ، ورئيسهم رجل منهم يقال له يوشع بن نون ، فأبطأوا عليه . فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوبهم ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما صالح عليه أهل خيبر ، فقبل ذلك منهم .

فكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب ، فكان رسول الله ﷺ ينفق منها ، ويعود منها على صغير بني هاشم ، ويزوج منها أئمتهم (٤) ، وسألته فاطمة ابنته ، رضي الله عنها ، أن يهبها لها ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليها ، فلم يطمع فيها طامع ، ثم توفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك (٥) .

حصار وادي القرى (١) :

ولما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر وأتى الصُّهْبَاءَ سلك على برمة (٦) حتى انتهى إلى وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، فنزل بها أصيلاً مع مغرب الشمس ، وكان معه غلام له يدعى مِدْعَةً أهداه له رفاعة بن زيد الجذامي ، فبينما هو يضع رَحْلَ رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر (٨) فأصابه فقتله ، فقال الناس : هنيئاً له الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « كَلَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّ السَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ ، لَمْ تَصِبْهَا الْمَقَاسِمُ ، لَتَشْتَعِلَ عَلَيْهِ نَارًا » ، فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو

(١) أجزئي : أعطني ، الجائزة : العطيّة .

(٢) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٨/٤ ، ٢٤٩) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧٦/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، وفتح الباري (ج ٤٩١/٧) .

(٤) الأئمة في الأصل : التي لا زوج لها ، بكرة كانت أو نبيياً ، مطلقاً كانت أو متوقى عنها (النهاية : ج ٨٥/١) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٨٩/٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨) ، وسنن أبي داود (ج ٣٧٨/٣) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال ح ٢٩٧٢ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨٨/٥) ، وفتوح البلدان (ص : ٤٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٥٠/٣) .

(٦) وادي القرى : وادٍ بين المدينة والشام ، كثير القرى . وقد تقدم .

(٧) برمة : من أغراض المدينة ، بين خيبر وادي القرى . معجم البلدان (ج ١٥٤/٢) .

(٨) سهم عائر : هو الذي لا يذرى من رماة (النهاية : ج ٢٢٨/٣) .

بشراكين ، فقال : هذا شيء كنت أصبته ، فقال رسول الله ﷺ : « شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنَ نَارٍ » - وفي لفظ : « يَمْدُ (١) لَكَ مِثْلَهُمَا مِنَ النَّارِ » .

ثم عبى رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله .

فبرز لهم رجل منهم ، فخرج إليه الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه علي ، رضي الله عنه ، فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة ، رضي الله عنه ، فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام . ولقد كانت الصلاة تحضر يومئذ فيصلي بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أسما ، وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنم الله أموالهم ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً .

فأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه هناك ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر ، وولاه رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص رضي الله عنه (٢) .

أمر تَيْمَاء :

ولما بلغ يهود تَيْمَاء ما فعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر وفدك ووادي القرى صالحوه على الجزية ، وأقاموا ببلادهم ، وأرضهم في أيديهم ، وولاهم يزيد بن أبي سفيان ، رضي الله عنه ، وكان إسلامه يوم فتحها . وكتب لهم رسول الله ﷺ بذلك كتاباً : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هَذَا كِتَابٌ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِبَنِي عَادِيَا ، أَنْ لَهُمُ الذَّمَّةُ ، وَعَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ ، وَلَا عِدَاءَ وَلَا جَلَاءَ ، اللَّيْلُ مَدَّ وَالنَّهَارُ شَدَّ (٣) » وكتب خالد بن سعيد (٤) .

العودة إلى المدينة :

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة منصوراً مؤيداً ، وكانت مدة غيبته نحواً من شهر (٥) . فلما أشرف الناس على واد رفعوا أصواتهم بالتكبير : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « ارْبَعُوا (٦) عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيحًا قَرِيْبًا وَهُوَ مَعَكُمْ » ، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ ، فسمعتي وأنا أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال لي : « يا عَبْدُ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ ! » قلت : لبيك رسول الله ، قال : « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ! فذاك أبي وأمي ، قال : « لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » (٧) .

ولما كانوا ببعض الطريق قال رسول الله ﷺ لأصحابه من آخر الليل وقد ساروا ليلة : « مَنْ رَجُلٌ يَحْفَظُ عَلَيْنَا الْفَجْرَ لَعَلْنَا نَنَامُ ؟ » فقال بلال رضي الله عنه : أنا يا رسول الله أحفظه عليك .

- (١) القَدْ : قَطَعَ الْجُلْدَ وَشَقَّ الثَّوْبَ وَنَحْوَ ذَلِكَ (لسان العرب : ج ٣٥٤٢/٥) .
- (٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٩١/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٧٦/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٠/٤) ، وفتوح البلدان (ص : ٤٨) .
- (٣) أي : يمه الليل ويشده النهار لا ينقضي بشيء (طبقات ابن سعد : ج ٢٧٨/١) .
- (٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٧٨/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٠/٤) ، وفتوح البلدان (ص : ٤٨) .
- (٥) تقدم أن خروج النبي ﷺ إلى خيبر كان في الحرم ، ثم إنه حاصرها بضع عشرة ليلة حتى فتحها في صفر ، ثم خرج إلى الصهباء وأقام حين بنى بصفية ، رضي الله عنها ، ثلاثة أيام ، ثم توجه إلى وادي القرى فأقام أربعة أيام ، ومدة الذهاب والإياب ثمانية أيام ، فغاية المدة نحو شهر ، فيكون رجوعه إلى المدينة في أواخر صفر أو أول ربيع الأول . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٤٧/٢) .
- (٦) ارْبَعُوا : ارْتَقُوا انظر : (النهاية : ج ١٨٧/٢) .
- (٧) انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٩/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

وفي رواية : أن النبي ﷺ أسرع السير حين انصرف ، وكان يفعل ذلك لقلّة الزاد ، فقال له قائل : يا رسول الله ! قد انقطع الناس وراءك ، فقال لهم : « هل لكم أن نهجع هجعة ؟ » أو قال له قائل : لو عرّست بنا يا رسول الله ، فقال : « أخاف أن تناموا عن الصلاة » ، فقال بلال : أنا أوقظكم .

فنزّل رسول الله ﷺ ونزل الناس ، فناموا ، وقام بلال ، رضي الله عنه ، يصلي ، فصلّى ما شاء الله ، عزّ وجلّ ، أن يصلي ، فلما تقارب الفجر استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه ، فغلبته عيناه فنام ، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من الصحابة حتى ضربتهم الشمس ، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً ، ففزع رسول الله ﷺ فقال : « ماذا صنّعت بنا يا بلال ؟ » قال : يا رسول الله ! أخذ بنفسني الذي أخذ بنفسك ، قال : « صدقت » ، وشكى إليه الناس الذي أصابهم ، فقال : « لا يصير أو لا يصير ، إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردّها عليكم حين شاء ، ازتحلوا » ، ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير ، حتى ارتفعت الشمس وابتاضت ، ثم أناخ فتوضأ ، وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلّى بهم رسول الله ﷺ الصبح ، فلما قضى الصلاة قال : « من سيّئ الصلاة فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله يقول : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (١) » (٢) .

ثم انطلقوا ، فلما دنوا من المدينة أوضع (٣) الناس وأوضع رسول الله ﷺ ، وكذلك كانوا يصنعون ، قال أنس رضي الله عنه : حتى إذا رأينا جدر (٤) المدينة هشيئنا إليها (٥) فرعنا مطيئنا (٦) ورفع رسول الله ﷺ مطيئنه - وصفيّة خلفه قد أردفها رسول الله ﷺ - فعترت ناقته (٧) ، فصرع وصرعت ، قال أنس : فافتحم أبو طلحة فقال : يا رسول الله ! جعلني الله فداءك ، قال : « عليك المرأة ، إنها أمكم » ، فقلب أبو طلحة ثوباً على وجهه وأناها فألقاه عليها ، وأصلح لها مركبها فركبا ، واكتنفنا رسول الله ﷺ .

وفي رواية : قال أنس : فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها ، حتى قام رسول الله ﷺ فسترها ، وقد أشرفت النساء فقلن : أبعث الله اليهودية ، قال : فأتيناه فقال : « لم نضر » .

ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا بدا له أحد قال : « الله أكبر ، هذا جبل يحبسنا ونحبّه » ، فلما أشرف على المدينة قال : « اللهم ! إني أحرّم ما بين جبلتيها مثل ما حرّم به إبراهيم مكّة ، اللهم ! بارك لهم في مدّهم وصاعهم » ، ثم قال : « أيّون تائبون ، عابدون لربنا حامدون » فلم يزل يقول ذلك حتى دخل المدينة . فخرج جوارى نسائه يتراءين صفيّة ويشتمن بصرعته (٨) .

أمر الحجاج بن علاط السلمي رضي الله عنه :

وكان الحجاج بن علاط السلمي ثم البهزي أسلم وشهد مع رسول الله ﷺ فتح خيبر ، وكانت تحته أم شيبّة بنت أبي طلحة من بني عبد الدار ، وكان مكثراً من المال .

- (١) طه : ١٤ . وقيل : كان فوات صلاة الفجر في مرجعهم من الحديبية كما ذكرنا هناك ، وقيل في مرجعهم من تبوك كما سيأتي .
- (٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٩٢/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٩٣/١) كتاب التيمم - باب الصعيد الطيب وضوء المسلم ، و (ج ١٥٤/١) كتاب مواقيت الصلاة - باب الأذان بعد ذهاب الوقت ، وصحيح مسلم (ج ٤٧١/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب قضاء الصلاة الفائتة .. ح ٣٠٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٩٠/٤) .
- (٣) وَضَعَ التَّبَعِيرُ يَضَعُ وَضْعاً ، وَأَوْضَعَهُ رَاكِبَهُ إِضَاعاً ؛ إِذَا حَمَلَهُ عَلَى سُرْعَةِ السَّيْرِ (النهاية : ج ١٩٦/٥) .
- (٤) الْجُدْرُ : جَمْعُ جِدَارٍ ، وَهُوَ الْحَائِطُ (الوسيط : ج ١١٠/١) .
- (٥) هَشَى لِهَذَا الْأَمْرِ يَهْشُ هَشَانَةً ؛ إِذَا فَرِحَ بِهِ وَاسْتَبَشَّرَ وَارْتَحَ لَهُ وَخَفَ (النهاية : ج ٢٦٤/٥) .
- (٦) الْمَطْيِيُّ : جَمْعُ مَطْيِيَةٍ ؛ وَهِيَ النَّاقَةُ يُرْكَبُ مَطَاها أَيْ ظَهْرها . وَمَعْنَى رَفَعْنَا مَطْيِيَنَا : أَيْ كَأَفْنَاهَا الْمَرْفُوعَ مِنَ السَّيْرِ ، وَهُوَ فَوْقَ الْمَوْضُوعِ وَدُونَ الْعَدُوِّ ، يُقَالُ : ارْفَعْ دَابَّتَكَ ؛ أَيْ : أَسْرِعْ بِهَا (النهاية : ج ٢٤٠/٤ ، ج ٢٤٤/٢) .
- (٧) عَتَرَ : كَبَى ، وَيُقَالُ : عَتَرَ بِهِ فَرَسُهُ فَسَقَطَ (لسان العرب : ج ٢٨٠/٥) .
- (٨) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٣/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ما يقول إذا رجع من الغزو ، و (ج ٩٩/٧) كتاب الأطعمة - باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم وأسفارهم ، و (ج ٢١٨/٧) كتاب اللباس - باب إرداف المرأة خلف الرجل ، وصحيح مسلم (ج ١٠٤٧/٢ ، ج ١٠٤٧) كتاب النكاح - باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها ح ٨٧ و ٨٨ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٢٣/٣) ، ومجمع الزوائد (ج ١٢/٤) .

فأما فتحت خيبر كرم رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن لي بمكة مالا عند صاحبي ، ومال متفرق في تجار أهل مكة ، فأذن لي يا رسول الله أن آتي مكة لأخذ مالي قبل أن يعملوا بإسلامي فلا أقدر على أخذ شيء منه ، فأذن له ، فقال : إنه لا بد لي يا رسول الله من أن أقول ، فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئا ؟ قال : « قل » .

قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بشية البيضاء رجالاً من قريش يتسمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً ، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان ، وكان قد وقع بينهم تراهن عظيم في أن النبي ﷺ يغلب على أهل خيبر أم لا ؟ قال الحجاج : فلما رأوني قالوا : الحجاج عنده والله الخبر - ولم يكونوا علموا بإسلامي - أخبرنا يا أبا محمد ؛ فإنه قد بلغنا أن القاطع - يعنون رسول الله ﷺ - قد سار إلى خيبر وهي بلد يهود وريف الحجاز ، فقلت : قد بلغني ذلك ، وعندي من الخبر ما يسركم ، فالتبّطوا^(١) بخبئي ناقتي يقولون : إيه يا حجاج ، فقلت لهم : هزم هزيمة لم تسمعوا بمثله قط ، وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط ، وأسر محمد أسراً وقالوا : لا تقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بين كان أصاب من رجالهم .

فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا : قد جاءكم الخبر ، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم ، قال الحجاج : فقلت لهم : أعينوني على جمع مالي بمكة ، وعلى غرمائي ، فإني أريد أن أقدم خيبر فأشتري من غنائم محمد - ﷺ - وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك .

قال : فجمعوا لي مالي كأحث جمع سمعت به ، وجمت امرأتي فقلت لها : أخفي علي واجمعي لي ما كان عندك لعلي الحق بخيبر فأصيب من غنائم محمد وأصحابه ؛ فإنهم قد استبيحوا وأصببت أموالهم . ففشا ذلك في مكة ، وأظهر المشركون الفرح والسرور ، وانتمتع من كان بمكة من المسلمين .

وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، فعقر^(٢) ، وجعل لا يستطيع أن يقوم ، ثم أرسل غلاماً له إلى الحجاج بن علاط : أن ويلك ما جمعت به وماذا تقول ؟ فما وعد الله خير مما جمعت به ، فقال له الحجاج : اقرأ على أبي الفضل السلام وقل له : فليخُل لي في بعض بيوته لآتيه فإن الخبر على ما يسره ، فجاء الغلام فلما بلغ باب الدار قال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس فرحاً حتى قبّل بين عينيه ، فأخبره ما قال الحجاج ، فأعتقه .

ويقال إن العباس أتى الحجاج وهو في خيمة من خيام التجار ، فقال له : يا حجاج ! ما هذا الخبر الذي جمعت به ؟ قال الحجاج : وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟ فقال : نعم ، قال : فاستأخر عني حتى ألقاك على خلاء ؛ فإني في جمع مالي كما ترى ، فانصرف عني حتى أفرغ .

فلما فرغ الحجاج من جمع كل شيء كان له بمكة وأجمع الخروج أتى العباس فقال له : احفظ علي حديثي يا أبا الفضل ؛ فإني أخشى الطلب ثلاثاً ، ثم قل ماشئت ، فقال : أفعل . فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر ، وغنم أموالهم ، وجرت سهام الله ، عز وجل ، فيها ، وتركته عروساً على بنت ملكهم حبي بن أخطب ، فقال العباس : ما تقول يا حجاج ؟ قال : إي والله فاكم عني ، ولقد أسلمت وما جمت إلا لأخذ مالي فرقاً من أن أغلب عليه ، وإني استأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي أن أقول ماشئت ، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك واذكر ما بدا لك ، فهو والله على ما تحب .

فلما كان بعد ثلاث أتى العباس ، رضي الله عنه ، امرأة الحجاج فقال : ما فعل زوجك ؟ فأخبرته أنه قد ذهب يوم كذا وكذا ، وقالت : لا يجزيك الله يا أبا الفضل ! أو لا يجزئك ، لقد شق علينا الذي بلغك ، فقال : أجل لا يجزيني الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببت ، فتح الله خيبر على رسوله ﷺ وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله ﷺ صفيّة بنت حبي لنفسه ، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به ، قالت : أظنك والله صادقاً ، قال : فإني والله صادق ، والأمر على ما أخبرتك .

(١) التَّبَطُّ القومُ به : أطافوا به ولزموه (الوسيط : ج ١٩٧/٢) .

(٢) العقر : أن تسلّم الرجل قوائمه من الخوف . وقيل : هو أن يفجأه الرّوغ فيدهش ولا يستطيع أن يتقدم أو يتأخر (النهاية : ج ٢٧٢/٣) .

ثم ذهب العباس حتى أتى البيت وقد لبس حُلَّة له وتطيَّب وأخذ عصاه ، فطاف بالكعبة ، ثم أقبل يخاطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرَّ بهم : لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل ، هذا والله التجلُّد لحرِّ المصيبة ، فقال : كلا والله الذي حلفتم به لم يصبني إلا خير بحمد الله ، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خير قد فتحها الله على رسوله وجرت فيها سهام الله ، وتركه عروساً على بنت ملكهم ، ولقد دخل عليكم الحجاج مسلماً فأخذ ماله ، فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه ، فقال المشركون : يا لعلنا لو علمنا لكان لنا وله شأن .

ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك ، فسَرَ المسلمون الذين كانوا بمكة وأتوا العباس فهنؤوه بسلامة رسول الله ﷺ ، وردَّ الله ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين^(١) .

إجلاء يهود خيبر والجزيرة :

ذكرنا أن رسول الله ﷺ دفع لأهل خيبر الأرض أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها من تمر أو زرع ، حتى إذا طاب ثمرهم أتوا النبي ﷺ فقالوا له : إن تمرنا قد طاب فابعث خالصاً^(٢) يخرِّص بيننا وبينك ، فبعث النبي ﷺ عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، فطاف في نخلهم ، فخرصها جميعاً ، ثم ضَمَّ الشطر ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه ، وأرادوا أن يرشوه ، فقال : يا أعداء الله ! تطعموني السُّخْت^(٣) ، والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الناس إليَّ ولأنتم أبغض خلق الله إليَّ ، أو لأنتم أبغض إليَّ من عندكم من القردة والخنازير ، ولا يحملي بغضي إيتاكم وحبي إيتاه على أن لا أعدل ، أو على أن أحيف عليكم مثقال ذرة وأنا أعلمها ، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : بهذا قامت السموات والأرض وهذا يغلبونكم .

ويروى أنه لما قدم عليهم جعلوا يهدون له من الطعام ، فكره ابن رواحة ، رضي الله عنه ، أن يصيب منهم شيئاً وقال : إنما بعثني رسول الله ﷺ عدلاً بينه وبينكم فلا أرب لي في هديتكم .

وقد خرص عليهم ابن رواحة عاماً واحداً ، ثم أصيب بمؤتة يرحمه الله ، فكان جبار بن صخر ، رضي الله عنه ، هو الذي يخرص عليهم بعده .

فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأساً في معاملتهم حتى عدوا في عهد رسول الله ﷺ على عبد الله بن سهل أخي بني حارثة ، رضي الله عنه ، فقتلوه ، فاتهمهم رسول الله ﷺ والمسلمون عليه^(٤) .

وكان عبد الله بن سهل ، رضي الله عنه ، قد خرج إلى خيبر في أصحاب له يبتار منها تمراً ، فوجد في عين قد كسرت عنقه ثم طرح فيها ، فأخذها أصحابه فدفنوه ، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له شأنه ، فتقدَّم إليه أخوه عبد الرحمن بن سهل ، ومعه ابنا عمه حويصة ومحيصة ابنا مسعود ، فذهب عبد الرحمن ليتكلم وكان أحدثهم سنّاً ، وكان صاحب الدم ، وكان ذا قَدَم في القوم ، فقال له رسول الله ﷺ : « كَبُرَ كَبْرٌ » يريد السنُّ ، فسكت ، فتكلم حويصة ومحيصة ، ثم تكلم هو بعد ، فذكروا لرسول الله ﷺ قتل صاحبهم ، فقال رسول الله ﷺ : « إِمَّا أَنْ يَدُوا صَاحِبَكُمْ وَإِمَّا أَنْ يُؤَدُّنَا بِحَرْبٍ » .

فكتب رسول الله ﷺ إليهم به ، فكتبوا يملفون بالله ما قتلوه ولا يعلون له قاتلاً ، فقال رسول الله ﷺ لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن : « أَتَحْلِفُونَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ يَمِيناً » - وفي لفظ : قَسَامَةٌ^(٥) - « وَتَسْتَحِقُّونَ دَمَ صَاحِبِكُمْ ؟ » قالوا : لا ، وكيف نحلف ولم

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٣٩٨ - ٤٠٠) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣/١٢٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤/١٧) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤/٢٦٥ - ٢٦٧) .

(٢) الخَرَصُ : حَزْرٌ مَاعِلَى النَّخْلِ مِنَ الرُّطْبِ تَمْرًا (لسان العرب : ج ٢/١١٢٣) .

(٣) السُّخْتُ : الْحَرَامُ ، سُمِّيَ الرُّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ سَخْتًا (النهاية : ج ٢/٣٤٥) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٤٠٩) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣/٣٦٧) ، ومجمع الزوائد (ج ٤/١٢١ ، ١٢٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٤/١٢٢) و (ج ٦/١١٤) .

(٥) الْقَسَامَةُ : الْيَمِينُ ، وَهِيَ أَنْ يُقْسِمَ خَمْسُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدَّمِّ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِمْ دَمَ صَاحِبِهِمْ إِذَا وَجَدُوهُ قَتِيلًا بَيْنَ قَوْمٍ وَلَمْ يُعْرِفْ قَاتِلَهُ (النهاية : ج ٤/٦٢) .

شهد ولم نر ، فقال : « أَفَتَخْلَفَ لَكُمْ يَهُودُ حَمْسِينَ يَمِينًا مَا قَاتَلُوهُ وَلَا يَعْلَمُونَ لَهُ قَاتِلًا ، ثُمَّ يَبْرُؤُونَ مِنْ دَمِهِ ؟ » قالوا : كيف نأخذ أيمان قوم كفار ؟ أو ما كنا لتقبل أيمان يهود ، ما فيهم من الكفر أعظم من أن يخلفوا على إثم . فكره رسول الله ﷺ أن يبطل دمه ، فوداه من عنده مائة ناقة من إبل الصدقة . وقيل : إنه جعل ديتته على يهود لأنه وجد بين أظهرهم ، وقيل : إنه أعانهم بنصفها^(١) .

وظلت خيبر بيد أهلها حياة رسول الله ﷺ كلها ، فلما توفي الله نبيّه أقرّم أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، بعده على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله ﷺ ، ثم أقرّم عمر ، رضي الله عنه ، صدرًا من إمارته إلى أن خرج ابنه عبد الله هو والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ، رضي الله عنهم ، إلى أموالهم بخيبر يتعاهدونها ، فلما قدموها تفرقوا في أموالهم ، فعدي على عبد الله بن عمر تحت الليل ، ففدعت^(٢) يده ورجلاه ، فلما أصبح أتاه أصحابه فأصلحوا من يديه ، ثم قدما به على عمر ، رضي الله عنه ، فقال : هذا عمل يهود ، ثم قام في الناس خطيباً ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أموالهم وقال : تقرّم ما أقرّم الله ، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدوا عليه من الليل ففدعوا يديه ورجليه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصاري قبله ، لانشكّ أنهم أصحابه ، ليس لنا هناك عدو غيرهم ، هم عدونا وتهمتنا ، وقد رأيت إجلاءهم .

ثم بلغ عمر ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه : « لَا يَجْتَمِعَنَّ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ » ، فنحص عن ذلك حتى تيقنه وثلج صدره ، فأجمع على إخراجهم ، وقال للمسلمين : من كان له مال بخيبر فليحقق به ، فإني مخرج يهود ، وأرسل إلى أهل خيبر أن الله ، عز وجل ، قد أذن في جلائكم ، فقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَجْتَمِعَنَّ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ » ، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليتهجز للجلاء .

فأتاه أحد بني أبي الحقيق ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أخرجنا وقد أقرنا محمد - ﷺ - وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا ؟ فقال عمر : أظننت أني نسيت قول رسول الله ﷺ : « كَيْفَ بَكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ تَعْدُو بِكَ قُلُوبُكُمْ^(٣) لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ ؟ » فقال : كانت هذه هزيلة من أبي القاسم ، قال : كذبت يا عدو الله .

فأجلاه عمر ، رضي الله عنه ، إلى تيماء وأريحا ، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من التمر مالا وإبلًا وعروضاً^(٤) من أقتاب^(٥) وحبال وغير ذلك .

ثم ركب عمر ، رضي الله عنه ، في المهاجرين والأنصار ، وخرج معه بجبار بن صخر ، وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم ، وبزيد بن ثابت ، رضي الله عنه ، فقسم خيبر على أصحاب السهمان التي كانت عليها كما قسمت على عهد رسول الله ﷺ .

وخير عمر ، رضي الله عنه ، حينئذ أزواج النبي ﷺ أن يقطع لمن من الماء والأرض ، أو يضي لمن ما كان النبي ﷺ يعطيهم مائة وسق : ثمانين وسق تمر ، وعشرين وسق شعير . فمنهن من اختار الأرض ، ومنهن من اختار التوسق ، وكانت عائشة ، رضي الله عنها ، اختارت الأرض .

وأجلى عمر ، رضي الله عنه ، يهود فدك ونصاري نجران أيضاً ، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى لأنها من أرض الشام لا من الحجاز . غير أنه بقي في المدينة وغيرها من مدن الحجاز نفر من اليهود عاشوا فيها زماناً ، لأن عمر ، رضي الله عنه ، ومن جاء بعده لم

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤١٠/٢ ، ٤١١) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٢/٤) كتاب الجهاد والسير - باب المواعدة والمصالحة مع المشركين ، و (ج ١١٩) كتاب الدييات - باب القسامة ، و (ج ٩٢/٩) كتاب الأحكام - باب كتاب الحاكم إلى عماله والقاضي إلى أمنائه ، وسنن أبي داود (ج ٦٢٢/٤) كتاب الدييات - باب في ترك القود بالقسامة ح ٤٥٢٦ ، وسنن النسائي (ج ١٢/٨) كتاب القسامة ، وجمع الزوائد (ج ٢٩٠/٦) .

(٢) الفدغ : زَيْعٌ بَيْنَ الْقَتْمِ وَبَيْنَ عَظْمِ السَّاقِ وَكَذَلِكَ فِي الْيَدِ ، وَهُوَ أَنْ تَزُولَ الْمَفَاصِلُ عَنْ أَمَاكِنِهَا (النهاية : ج ٤٢٠/٣) .

(٣) الْقُلُوبُ : الثَّقَافَةُ الشَّابَّةُ (النهاية : ج ١٠٠/٤) .

(٤) الْعُرُوضُ : جَمْعُ عَرْضٍ ؛ وَهُوَ الْمَتَاعُ وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَى الدَّرَاهِمِ وَالِدِنَانِيْرِ (لسان العرب : ج ٢٨٨٧/٤) .

(٥) الْأَقْتَابُ : جَمْعُ قَتَبٍ ، وَهُوَ الرَّحْلُ الصَّغِيرُ عَلَى قَدَرِ سَنَامِ الْبَعِيرِ (الوسيط : ج ٧٢٠/٢) .

يطبقوا سياسة الإجماع على الأسر والأفراد ، وإنما على الجاليات التي كان يخشى من خطر بقائها في مقر الإسلام ومن احتمال عودة من هاجر منهم إلى أرضهم وتكتلهم من جديد وإثارتهن للفتن^(١) .

☆ ☆ ☆

زواج النَّبِيِّ ﷺ من أم حَبِيبَةَ رضي الله عنها :

وأم حَبِيبَةَ هي رَمْلَةٌ بنت أبي سفيان بن حرب ، رضي الله عنها ، كانت هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عُبَيْدُ الله بن جحش ، فولدت له هناك حَبِيبَةَ ، فنصَّرَ عبِيدُ الله ومات بالحبشة نصرانياً ، وبقيت أم حَبِيبَةَ وحدها غريبة في أرض الحبشة .

فبعث رسول الله ﷺ فيها إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري ، ليزوجه إياها ويبعث بها إليه مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه .

وكانت أم حَبِيبَةَ ، رضي الله عنها ، رأت في النوم حين توفي زوجها كأن آتياً يقول لها : يا أم المؤمنين ، ففزعت وأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجها . قالت أم حَبِيبَةَ : فما هو إلا أن انقضت عِدَّتِي ، فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن ، فإذا جارية له يقال لها أُبْرَهَةَ ، كانت تقوم على ثيابه وذُهنه ، فدخلت عليّ فقالت : إن الملك يقول لك : إن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجه ، فقلت : بشرك الله بخير ، وقالت : يقول لك الملك : وكلي من يزوجه . فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص^(٢) فوكلته ، وأعطت أُبْرَهَةَ سَوَارِينَ من فضة وخدَمَتَيْنِ كانتا في رجليها وخواتيم فضة كانت في أصابع رجليها سروراً بما بشرتها به ، فلما كان العشيّ أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا ، فخطب النجاشي ، فقال : الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهين العزيز الجبار ، الحمد لله حقّ حمده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام . أما بعد ؛ فإن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوجه أم حَبِيبَةَ بنت أبي سفيان ، فأجبت إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ ، وقد أصدقتها أربعمئة دينار . فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد ؛ فقد أجبت إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ وزوجه أم حَبِيبَةَ بنت أبي سفيان ، فبارك الله لرسوله . فدفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها ، ثم أرادوا أن يقوموا ، فقال : اجلسوا ، فإن سنة الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، إذا تزوجوا أن يؤكل الطعام على الزويج ، فدعا بطعام ، فأكلوا ، ثم تفرقوا .

قالت أم حَبِيبَةَ رضي الله عنها : فلما وصل إليّ المال أرسلت إلى أُبْرَهَةَ التي بشرتني ، فقلت لها : إني كنت أعطيتك ما أعطيتك يومئذ ولا مال بيدي ، وهذه خمسون مثقالاً فخذها فاستعيني بها ، فأخرجت إليّ حَقَّةً^(٣) فيها جميع ما أعطيتها فردته إليّ وقالت : عزم عليّ الملك أن لا أزرك^(٤) شيئاً ، وأنا التي أقوم على ثيابه وذُهنه ، وقد أتبعته دين رسول الله ﷺ وأسلمت لله ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر ، فلما كان الغد جاءني بعود وورس^(٥) وعتبر وزياد^(٦) كثير ، وقدمت بذلك كله على

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤١١/٣ - ٤١٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٧/٣) كتاب المزارعة - باب المزارعة بالشرط ونحوه ، و (ج ٢٥٢/٣) كتاب الشروط - باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك ، والموطأ (ص : ٦٤٤) ما جاء في إجماع اليهود من المدينة ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٠١/٩) ، والمفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام / د . جواد علي (ج ٦٢٠/٦) فما بعدها .

(٢) هو ابن عم أبيها ، فإنها أم حَبِيبَةَ بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية ، والعاص هو ابن أمية .

(٣) الحَقَّةُ كالحَقِّ : وهو وعاء صغير ذو غطاء يُتَّخَذُ من عاج أو غيرها . وقد تقدم .

(٤) رزؤه ماله : أصاب منه شيئاً فنقصه .

(٥) الورس : نبت أصفر يصنع به (النهاية : ج ١٧٣/٥) .

(٦) الزباد : نبت مغروف ، يأكله الناس . والزباد أيضاً : مثل السنور الصغير ، يحتلب شيئاً شبيهاً بالزبد ، وله رائحة طيبة ، وهو يقع في الطيب (لسان العرب : ج ١٨٠٢/٣ ، ١٨٠٤) .

رسول الله ﷺ وكان يراه عليّ وعندي فلا ينكر ، ثم قالت أبرهة : فحاجني إليك أن تقرئي رسول الله ﷺ مني السلام وتعلميه أني قد أتيت دينه . قالت : ثم لطفت بي ، وكانت هي التي جهرتني ، وكانت كلما دخلت عليّ تقول : لا تنسي حاجتي إليك .

قالت : فخرجنا في سفينتين حتى قدمنا الجار (١) ، ثم ركبنا الظهر إلى المدينة ، فوجدنا رسول الله ﷺ بخيبر ، فخرج من خرج إليه ، وأقت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ وذلك في ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة .

فدخلت عليه أم حبيبة ، رضي الله عنها ، وأخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلت بها أبرهة ، فتبسم رسول الله ﷺ وأقرأته منها السلام ، فقال : « وعليها السلام ورحمة الله وبركاته » .

وقد أراد رسول الله ﷺ بزواج أم حبيبة أن يستميل أباها أبا سفيان بن حرب زعيم مكة وأن يقضي على العداوة المستحكمة في قلبه . قال ابن عباس ، رضي الله عنها ، في قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً ﴾ (٢) ، قال : حين تزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ويذكر أنه لما بلغ أبا سفيان خبر الزواج لم يملك نفسه أن قال : ذلك الفحل لا يفرج أنفه (٣) .

ويقال : إن الذي وكلته أم حبيبة لعقد النكاح عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، من أجل أن أم حبيبة أمها صفية بنت أبي العاص ، وصفية عمه عثمان . والذي قدم بها على رسول الله ﷺ من الحبشة شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه .

وكان لما يوم قدم بها المدينة بضع وثلاثون سنة ، وتوفيت سنة أربع وأربعين للهجرة في خلافة أخيها معاوية رضي الله عنها . قالت عائشة رضي الله عنها : دعيت أم حبيبة زوج النبي ﷺ عند موتها ، فقالت : قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك ، فقلت : غفر الله لك ذلك كله وتجاوز ، وحللتك من ذلك ، فقالت : سررتني سرّك الله ، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك ، ثم توفيت رحها الله تعالى (٤) .

☆ ☆ ☆

السرايا فيما بين غزوة خيبر وعمرة القضاء :

فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة أقام بها إلى شوال من السنة السابعة ، وبعث في خلال ذلك عدة سرايا (٥) (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) هي :
سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تربة (٦) :

بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في شعبان سنة سبع للهجرة إلى عَجْرَ هَوَازِنَ (٧) بتربة ، في ثلاثين راكبا ، فخرج عمر ومعه دليل من بني هلال ، فكانوا يسرون الليل ويكنون النهار ، فأتى الخبر هوازين فهربوا ، وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق

(١) الجَارُ : مَدِينَةٌ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ - أَي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ حَالِيًا - بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ وَكَيْلَةَ (معجم البلدان : ج ٣/٢٤) .

(٢) الممتحنة : ٧ .

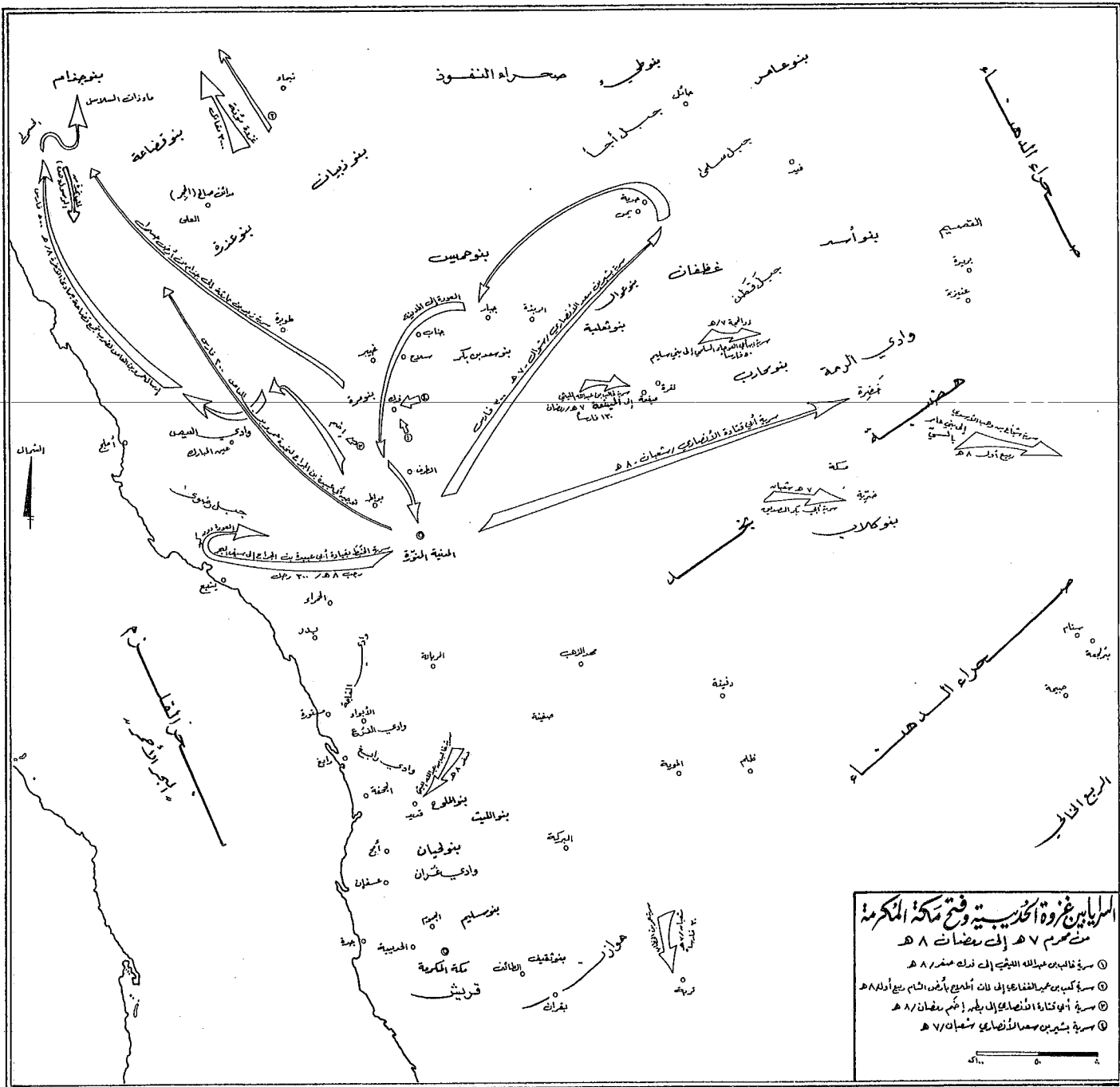
(٣) أَي أَنَّهُ كَفَّاءٌ كَرِيمٌ لَا يَزِيدُ (النهاية : ج ٤/٤٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١/٢٤٢) ، والمستدرک (ج ٤/٢١) ، وسان النسائي (ج ٦/١١٩) كتاب النكاح - القسط في الأصدقة ، وطبقات ابن سعد (ج ٨/٩٩ ، ١٠٠) ، وتاريخ الطبري (ج ٢/٦٥٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧/٢٨٥) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣/٤٢٤) .

(٦) تَرْبَةٌ : وادٍ بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَّةَ عَلَى مَسَافَةِ يَوْمَيْنِ مِنْهَا (معجم البلدان : ج ٢/٣٧٤) ، وفي طبقات ابن سعد (ج ٢/١١٧) : هي بناحية العَبْلَاءِ عَلَى أَرْبَعِ كِيَالٍ مِنْ مَكَّةَ طَرِيقَ صَنْعَاءَ وَنَجْرَانَ .

(٧) عَجْرَ هَوَازِنَ : بَنُو نَضْرٍ بَنِ مَعَاوِيَةَ وَبَنُو جَشْمِ بْنِ بَكْرِ ، كَانَهُ أَخْرَجَهُمْ (لسان العرب : ج ٤/٢٨١٩) .



السر بالبرق غزوة الخديسية فتح مكة المكرمة
 من محرم ٧ هـ إلى رمضان ٨ هـ

١ سرية خالدين عبدالله الذي فتح مكة من محرم ٨ هـ
 ٢ سرية كعب بن عجرة الفخاري إلى مكة في ربيع الأول ٨ هـ
 ٣ سرية أبي قتادة الأنصاري إلى مكة في ربيع الثاني ٨ هـ
 ٤ سرية بشر بن معمر الأنصاري إلى مكة في ربيع الثالث ٨ هـ

٥
 ٥
 ٥

منهم أحداً ، فانصرف راجعاً إلى المدينة ، فلما كان بالجدد^(١) قال له الدليل : هل لك في جمع آخر من خثعم جاؤوا سائرين قد أجدبت بلادهم ، فقال له عمر : ما أمرني رسول الله ﷺ بهم ، إنا أمرني أن أصمد لقتال هوازن بتربة ، فانصرف عمر راجعاً إلى المدينة^(٢) .

سريّة بشير بن سعد رضي الله عنه إلى بني مرة :

وفي شعبان أيضاً بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد ، رضي الله عنه ، في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بفدك ، فخرج فلقي رعاء الشاء ، فسأل عن الناس ، فقيل : في بوادهم ، فاستاق النعم والشاء وانحدر إلى المدينة . فخرج الصريخ فأخبرهم ، فأدركه الطلب عند الليل ، فباتوا يترامون بالنبل ، حتى فنيت نبل أصحاب بشير ، فلما أصبحوا حملوا على بشير وأصحابه ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وولى من ولى منهم ، وقاتل بشير ، رضي الله عنه ، قتالاً شديداً حتى ارتث وضرب كعبه فلم يتحرك فقيلاً قد مات ، فرجعوا بنعمهم وشأنهم .

وقدم عتبة بن زيد الحارثي ، رضي الله عنه ، بخبرهم على رسول الله ﷺ ، ثم قدم من بعده بشير ، رضي الله عنه ، فإنه لما أصيب تحامل حتى انتهى إلى فدك^(٣) ، فأقام عند يهودي حتى برأت جراحه فرجع إلى المدينة^(٤) .

سريّة غالب بن عبد الله رضي الله عنه إلى الميصة :

وفي شهر رمضان سنة سبع للهجرة بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي ، رضي الله عنه ، في مائة وثلاثين رجلاً إلى بني عوال وبني عبد بن ثعلبة وهم بالمصفة ، وهي وراء بطن نخل إلى النقرة قليلاً بناحية نجد وبينها وبين المدينة ثمانية برد . وقيل : بعثه إلى أرض بني مرة ، ودليلهم يسار مولى رسول الله ﷺ ، فهجموا عليهم جميعاً ، ووقعوا وسط محالهم ، فقتلوا من أشرف لهم ، واستاقوا نعاماً وشاء ، فحذروه إلى المدينة ، ولم يأسروا أحداً .

وفي هذه السريّة قتل أسامة بن زيد ، رضي الله عنها ، الرجل الذي قال لا إله إلا الله ، وهو مرداس بن نهيك حليف لبني مرة من الحرقّة من جهينة . قال أسامة : أدركته أنا ورجل من الأنصار ، فلما شهننا عليه السلاح قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، قال : فلم نزع عنه حتى قتلناه ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبره ، فقال : « يا أسامة ! من لك بلا إله إلا الله ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ! إنه إنما قالها تعوداً بها من القتل ، قال : « ألا شققت قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب ؟ فمن لك بها يا أسامة ؟ » قال : فوالذي بعثه بالحق ما زال يرددها عليّ حتى لو ددت أن ماضى من إسلامي لم يكن ، وأني كنت أسلمت يومئذ ، وأني لم أقتله ، قال : قلت : أنظرنني يا رسول الله ، إني أعاهد الله أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً ، قال : « تقول بعدي يا أسامة ؟ » قلت : بعدي^(٥) .

ويروى أن ذلك إنما كان في سريّة أخرى إلى الحرقّة بطن من جهينة^(٦) ، فقد روى البخاري بسنده عن أسامة بن زيد ، رضي الله عنها ، قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقّة ، فصحبنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناها قال : لا إله إلا الله ، فكف الأنصاري ، فطعنته برمح حتى قتلته^(٧) . وذكر الحديث بنحو ما سبق .

(١) الجدد : موضع في بلاد بني هذيل (معجم البلدان : ج ٦٦/٣) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١١٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٢/٤) .

(٣) قال صاحب السيرة الحلبية في (ج ١٨٦/٣) من كتابه : وهذا يدل على أن بني مرة الذين توجه إليهم بشير لم يكونوا بفدك بل بالقرب منها ، فيكون قوله أولاً لبني مرة بفدك فيه تسميح ، وأن بشيراً حصلت له هذه الحالة مرتين فليتامل .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١١٨/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٥/٤) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٨/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٧/٢) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٩/٤) .

(٧) صحيح البخاري (ج ١٨٢/٥) كتاب المغازي - باب بعث النبي ﷺ إلى الحرقات من جهينة .

سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى يمن وجبار (١) :

وكانت في شوال سنة سبع للهجرة ، وسبها أن جمعاً من غطفان بالجَناب قد واعدتم عَيْبَةَ بن حِصْن للإغارة على المدينة أو على أطرافها ، فلما بلغ خبرهم رسول الله ﷺ دعا بشير بن سعد ، رضي الله عنه ، فعمد له لواء ، وبعث معه ثلاثمائة رجل ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكنوا النهار ، وخرج معهم حَسَيْل بن تُوَيْرَةَ الأشجعيّ دليلاً - وهو الذي قدم بخبر تجمع غطفان - فساروا الليل وكنوا النهار ، حتى أتوا إلى يَمَن وجَبَّار وهي نحو الجَناب ، فنزلوا بسلاح أسفل خيبر ، ثم خرجوا حتى دنوا من القوم ، فأصابوا لهم نَعْمًا كثيراً ، وتفرّق الرّعاء ، وذهبوا إلى القوم وأخبروهم ، فتفرّقوا ولحقوا بعلياء بلادهم ، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتى محالهم ، فلم يظفر بأحد منهم ، إلا رجلين أسرها ، فرجع بالنعم والرجلين إلى المدينة ، فأسما ، فأرسلها النبي ﷺ .

ويذكر أن الحارث بن عوف المُزَنِّي لقي عَيْبَةَ بن حِصْن منهزماً على فرس له يعدو به عدوياً سريعاً ، فاستوقفه الحارث ، فقال : لا ، ما أقدر ! خلفي الطلب أصحاب محمد وهو يركض ، فقال له الحارث : قد آن لك يا عَيْبَةَ أن تقصر عما ترى ، أو أما آن لك أن تبصر بعض ما أنت عليه ؟ إن محمداً قد وطىء البلاد وأنت موضع في غير شيء (٢) .

أسر ثَمَامَةَ بن أثال الحنفي وإسلامه :

روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن خيلاً لرسول الله ﷺ أخذت رجلاً ولا يشعرون من هو حتى أتوا به رسول الله ﷺ ، فقال : « أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثَمَامَةَ بن أثال الحنفي ، أحسنوا إسناره » (٣) .

وقيل إن ثَمَامَةَ كان قد جاء إلى رسول الله ﷺ رسولاً لمُسْتَلِمَةَ وأراد قتله ، فأهدر النبي ﷺ دمه ، ودعا ربه أن يَكْفَه منه ، فقدم ثَمَامَةَ مرة المدينة وهو يريد مكة للعمرة ، فتحير في طرق المدينة ، فأخذ وأتى به إلى رسول الله ﷺ (٤) .

فربط ثَمَامَةَ بسارية من سواري المسجد (٥) ، ورجع رسول الله ﷺ فقال لأهله : « اجتمعوا ما عندكم من طعام فابعدوا به إليه » ، وأمر بلقحته أن ينعدي عليه بها ويراح ، فجعل لا يقع من ثَمَامَةَ موقعاً ، ويأتيه رسول الله ﷺ فيقول : « أسلم يا ثَمَامَةَ » ، أو « ما عندك يا ثَمَامَةَ ؟ » فيقول : عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم (٦) ، وإن تنعم تنعم على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت ، قال أبو هريرة : فجعلنا المساكين نقول بيننا : مانضع بدم ثَمَامَةَ ؟ والله لأكلمه من جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثَمَامَةَ . فترك حتى كان الغد ، ثم قال له رسول الله ﷺ : « ما عندك يا ثَمَامَةَ ؟ » قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكرك ، فتركه حتى كان بعد الغد فقال : « ما عندك يا ثَمَامَةَ ؟ » فقال : عندي ما قلت لك ، فقال : « أطلقوا ثَمَامَةَ » ، فانطلق إلى نجل (٧) قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم دخل المسجد ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، يا محمد ! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليّ ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ .

فلما أمسى ثَمَامَةَ جيء له بما كان يأتيه من الطعام فلم ينل منه إلا قليلاً ، ولم يصب من حلاب اللقحة إلا يسيراً ، فعجب

(١) يثُنّ : ماءً ليطفان على الطريق بين تيماء وفَيْد ، وجَبَّار : ماءً لبني حُمَيْس من قُضَاعَةَ بين المَدِينَةِ وفَيْد . انظر : معجم البلدان (ج ٥٢٤/٨ ، ج ٤٢٣) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢٠/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٢٣/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٠١/٤) .

(٣) الخبر في سيرة ابن هشام (ج ٣١٥/٤) . والإسنار : ما يقيّد به الأسير (الوسيط : ج ١٧٨) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٥٠/٥) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧٩/٤) .

(٥) وإنما جعل بالمسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها ويرق قلبه . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٤٥/٢) .

(٦) أي : إن تقتل تقتل صاحبه دم لدمه موقع يشتفي بقتله قاتله ، ويُدْرِكُ به ثأرة لرياسته وقضيلته (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٨٧/١٢) .

وجاء في رواية لابن سعد في الطبقات (ج ٥٥٠/٥) : « إن تعاقب تعاقب ذا ذنب » وهو ما هم به من قتل النبي ﷺ .

(٧) النجل : الماء القليل . وقد تقدّم .

المسلمون من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « مِمَّ تَعْجَبُونَ ؟ أَمِنْ رَجُلٍ أَكَلَ أَوَّلَ النَّهَارِ فِي مَعَى كَافِرٍ ، وَأَكَلَ آخِرَ النَّهَارِ فِي مَعَى مُسْلِمٍ ؟ إِنَّ الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءَ ، وَإِنَّ الْمُسْلِمَ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ » .

ثم سأل ثُمَامَةَ رسول الله ﷺ في شأن عمرته ، فقال : إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فإذا ترى ؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم بطن مكة لبي ، فكان أول من دخل مكة ملتبساً من المسلمين ، فأخذته قريش فقالوا : لقد اجترأت علينا ، أصبوت يا ثُمَامُ ؟ قال : لا ، ولكن أسامت ، وأتبعته خير الدين دين محمد ﷺ ، ولا والله لا تأتيناكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ ، فقدّموه ليضربوا عنقه ، فقال قائل منهم : دعوه ، فإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم ، فخلّوه .

ثم خرج إلى اليمامة ، فنعمهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً ، حتى أضرّ بقريش الجوع وأكلوا العلهز^(١) ، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ : إنك تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد قطعت أرحامنا وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع .

ويقال : إن أبا سفيان بن حرب قدم على النبي ﷺ فقال : ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ قال : « بلى » ، قال : فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، فكتب رسول الله ﷺ إلى ثُمَامَةَ ، رضي الله عنه ، أن يخلي بينهم وبين الحمل إلى مكة ، ففعل . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾^(٢) .

وأصبح ثُمَامَةَ بن أنثال ، رضي الله عنه ، من فضلاء الصحابة ، وهدى الله به خلقاً كثيراً من قومه ، ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة حين تنبأ مسئلمة الكذاب^(٣) .

☆ ☆ ☆

(١) العلهز : شيء يتخذونه في سني المجاعة يخلطون اللحم بأوبار الإبل ثم يشؤونه بالنار ويأكلونه . وقيل : كانوا يخلطون فيه القردان ، ويقال للقراد الضخم علهز ، وقيل : العلهز : شيء ينبت ببلاد بني سليم له أصل كأصل البردي (النهاية : ج ٢٩٢/٣) .

(٢) المؤمنون : ٧٦ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٥/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢١٤/٥) كتاب المغازي - باب وفد بني حنيفة وحديث ثُمَامَةَ بن أنثال ، وسنن ابن منصور (ج ٢٣٤/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٨١/٤) .

عمرة القضاء

اختلف في سبب تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء ، فقول لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية ، وقيل بل لأنها وقعت حسب المقاضاة التي قاضى النبي ﷺ قريشاً عليها عام الحديبية - أي : صالحهم ، ولذلك يقال لها عمرة القضية وعمرة الصلح ، فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الصلح - لا لأنها قضاء عن العمرة التي صدّت عن البيت فيها ؛ فإنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها ، بل كانت عمرة تامة متقبلة . وهذا الخلاف مبني على الاختلاف في وجوب القضاء على من اعتمر فصّداً عن البيت .

وتسمّى هذه العمرة أيضاً عمرة القصاص ، لأن قريشاً صدّوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة عام الحديبية ، فاقترض رسول الله ﷺ منهم ، فاعتبر في الشهر الذي صدّوه فيه من العام القابل . قال السهيلي : وهذا الاسم أولى بها لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الشُّهُرُ الْحَرَامُ بِالشُّهُرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ (١) ، وهذه الآية فيها نزلت فهذا الاسم أولى بها (٢) .

خروج النبي ﷺ إلى العمرة وعدة أصحابه :

لما دخل هلال ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدّهم عنها المشركون ، وأن لا يتخلّف منهم أحد شهد الحديبية ، فخرجوا جميعهم إلّا من استشهد في خيبر ومن مات ، وخرج معهم آخرون عمّاراً أيضاً ، فكانوا ألفين سوى النساء والصبيان .

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة عوّيف بن الأَضْبَط السدّيّ ، ويقال أبا رَهْم كُنْثُوم بن الحُصَيْن الغِفاريّ . وساق ﷺ ستين بَدَنَةً ، وجعل عليها ناجية بن حُنْدَب الأسلميّ ، يسير بها أمامه يطلب الرعي في الشجر ، معه أربعة فتيان من أسلم ، وحمل رسول الله ﷺ السلاح والدروع والرماح ، وقاد مائة فرس ، خوفاً من غدر أهل مكة . فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدّم الحيل أمامه عليها محمد بن مسلمة ، وقدّم الملاح واستعمل عليه بشير بن سعد ، وأحرم رسول الله ﷺ من باب مسجد الحليفة وليّي والمسامون معه يلبتون .

ومضى محمد بن مسلمة ، رضي الله عنه ، في الحيل ، فلما كان بمَرِّ الظُّهْران - واد قرب مكة - وجد بها نفرأ من قريش ، فسألوه عن سبب مجيئه بالحيل ، فقال : هذا رسول الله ﷺ يَصْبَحُ هذا المنزل غداً إن شاء الله . ورأوا سلاحاً كثيراً مع بشير بن سعد ، رضي الله عنه ، فخرجوا سراعاً حتى أتوا مكة فأخبروا قريشاً ، ففزعوا وقالوا : والله ما أحدثنا حدثاً ، وإنا على كتابنا وهُدنتنا ، ففيم يغزونا محمد في أصحابه ؟

وأتى رسول الله ﷺ فنزل بمَرِّ الظُّهْران ، وقدّم السلاح إلى بطن يَأْجِج (٣) حيث ينظر إلى أنصاب الحرم (٤) . وبعثت قريش

(١) البقرة : ١٩٤ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٤/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٠/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢١٩/٥) ، والروض الألف (ج ٧٦/٤) ، وفتح الباري (ج ٥٠٠/٧) .

(٣) بَطْنُ يَأْجِج : مكانٌ من مكة على ثمانية أميال . وقد تقدّم .

(٤) أَنْصَابُ الْحَرَمِ : أي أعلامُ حُدُودِهِ . انظر : (لسان العرب : ج ٤٤٣٥/٦) .

مِكْرَزُ بنِ حَفْصٍ في نفر من قريش ، حتى لقيه ببطن يَأَجِجٍ وهو في أصحابه والمهدي والسلاح ، فقالوا : يا محمد ! ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ! تدخل بالسلاح في الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر السيوف في القرب ! فقال رسول الله ﷺ : « إني لأدخلك عليهم السلاح » ، فقال مِكْرَزُ : هذا الذي يعرف به البر والوفاء . ثم رجع سريعاً بأصحابه إلى مكة ، فقال : إن محمداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم .

ثم خرج رسول الله ﷺ من يَأَجِجٍ بعد أن وضع الأداة كلها الأحنف والحمان والرماح والنبيل ، وخلف عليها أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل ، وقدم المهدي أمامه فحبس بندي طوى .

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون^(١) ، وأصحابه مُحَدِقُونَ به قد توشحوا السيوف يلبون ، وهم يخافون عليه من أهل مكة أن يرميه أحد ، وعبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، أخذ بزمام راحلته ﷺ يرتجز يقول :

خَلُّوا بني الكَفَّار عن سبيله	خَلُّوا فكل الخير في رسولـه
يارب إني مؤمن بقبيله	أعرف حق الله في قبـوله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ^(٢)	ويذهل الخليل عن خليله

وفي رواية أنه قال :

خَلُّوا بني الكَفَّار عن سبيله	قد أنزل الرحمن في تنزيله
--------------------------------	--------------------------

بأن خير القتل في سبيله

فقال له عمر رضي الله عنه : يا ابن رواحة ! بين يدي رسول الله ﷺ ، وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال له النبي ﷺ : « خَلِّ عَنَّا يَا عَمْرُ ، فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ » .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال لما أنكر عمر على ابن رواحة : « يا عَمْرُ ! إني أسمعُ ، إياها يا ابن رَوَاحَةَ ! » ، فأسكت عمر ، ثم قال النبي ﷺ : « يا ابن رَوَاحَةَ ! قُلْ : لا إله إلا الله وَحْدَهُ ، نَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » ، فقالها ابن رواحة ، فقالها الناس كما قال .

وكان أشرف قريش لما سمعوا بقدوم النبي ﷺ خرجوا من مكة إلى رؤوس الجبال حتى لا يروه ﷺ يطوف بالبيت هو وأصحابه غيظاً وحنقاً ونفاسة وحسداً ، بينما قعد جمع من المشركين بجبل قَعَيْقِعَانَ^(٣) ليروا المسلمين ، وقد قالوا فيما بينهم : يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، أو قالوا : إن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة ، لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزل ، وكانوا يحسدونه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا ، فقال لأصحابه : « رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً أَرَاهُمْ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً » ، وأمرهم أن يرملوا^(٤) الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بين الركنين - ولم يمنعهم أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم - وإنما أمرهم بذلك ليرى المشركون قوتهم .

ولم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى دخل المسجد الحرام من باب بني شيبنة ، وقد صفت له قريش عند دار الندوة ، أو مما يلي

(١) الْحَجُونُ : جَبَلٌ بِأَعْلَى مَكَّةَ عِنْدَهُ مَدَافِنُ أَهْلِهَا .

(٢) يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ : الْهَامُ : جَمْعُ هَامَةٍ وَهِيَ أَعْلَى الرَّأْسِ ، وَمَقِيلُهُ : مَوْضِعُهُ ، مُسْتَعَارٌ مِنْ مَوْضِعِ الْقَائِلَةِ (النهاية : ج ١٣٤/٤) .

(٣) قَعَيْقِعَانَ : اسْمُ جَبَلٍ بِمَكَّةَ .

(٤) رَمَلُ : هَرْوَلُ (الوسيط : ج ٣٧٥/١) .

الحجر ، فاستلم رسول الله ﷺ الركن بِمِخْنَتِهِ^(١) مُضْطَبِعاً^(٢) بثوبه ، ثم انطلق يهرول^(٣) ويهرول أصحابه معه وقد اضطبعوا بشياهم كما أمرهم ، حتى إذا وراه البيت من المشركين واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هروا كذلك ثلاثة أشواط ومشى سائرهما . فلما رآهم المشركون قالوا : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم ، وأن بهم هزلاً ! ماضي هؤلاء بالمشي حتى سعوا سعياً ، هؤلاء أجلد من كذا وكذا .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ لما نزل مَرَّ الظُّهْرَانِ فِي عِمْرَتِهِ ، بَلَغَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ قَرِيشاً تَقُولُ : مَا يَتْبَاعُتُونَ مِنَ الْعَجْفِ ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ : لَوَاتِحْرْنَا مِنْ ظَهْرُنَا فَأَكَلْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَحَسَنُوا مِنْ مَرَقِهِ أَصْبَحْنَا غَدًا حِينَ نَدْخُلُ عَلَى الْقَوْمِ وَبِنَا جَمَامَةً^(٤) ، قَالَ : « لَا تَتَّعَلُوا ، وَلَكِنْ اجْمَعُوا لِي مِنْ أَرْوَادِكُمْ » فَجَمَعُوا لَهُ وَبَسَطُوا الْأَنْطَاعَ ، فَأَكَلُوا حَتَّى تَوَلَّوْا ، وَحَثَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي جِرَابِهِ . ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، وَقَعَدَتْ قَرِيشٌ نَحْوَ الْحِجْرِ ، فَاضْطَبِعَ بَرْدَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « لَا يَبْرَى الْقَوْمَ فِيكُمْ غَمِيْرَةٌ^(٥) » ، فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ حَتَّى إِذَا تَغَيَّبَ بِالرُّكْنِ الْبَاقِي مَشَى إِلَى الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ ، فَقَالَتْ قَرِيشٌ : مَا يَرْضُونَ بِالْمَشْيِ ؛ إِنْهُمْ لَيَنْفُزُونَ نَقْرَ الظُّبَاءِ ، ففعل ذلك ثلاثة أطواف ، فكانت سنة^(٦) .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الطواف صلى خلف المقام ركعتين ومعه من يستره من الناس ، ثم سعى ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته وأصحابه معه يسعون^(٧) . ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى ، رضي الله عنه ، قال : اعتمر رسول الله ﷺ واعتمرنا معه ، فلما دخل مكة طاف وطفنا معه ، وأتى الصفا والمروة وأتيناها معه ، وكنا نستتره من أهل مكة أن يرميه أحد^(٨) . وفي لفظ آخر عنه أيضاً في الصحيح : سترناه من غلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ^(٩) .

ثم دعا رسول الله ﷺ بالهدي ، وكان قد أمر بإحضاره من ذي طوى ، فوقف عند المروة وقال : « هَذَا الْمُنْحَرُ وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ مُنْحَرٌ » ، فنحر عند المروة وحلق هناك ؛ حلقه معمر بن عبد الله العدوي ، رضي الله عنه ، وكذلك فعل أصحابه .

ثم أمر رسول الله ﷺ ناساً من أصحابه أن يذهبوا إلى يَأْجِجَ فيقيموا على السلاح ، ويأتي الآخرون فيقضوا نسكهم ، ففعلوا . وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة ثلاثة أيام كما اشترطت عليه قريش في صلح الحديبية ، فلما أصبح من اليوم الرابع أتى المشركون علياً ، رضي الله عنه ، فقالوا : قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ، فخرج النبي ﷺ .

ويروى أنه لما تمت الثلاثة أيام ، جاء حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ وَمَعَهُ سَهْمِيلُ بْنُ عَمْرِو بْنِ النَّفَرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُونَهُ بِالْخُرُوجِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ مَكَّةَ ، وَقَالَ لَهُ حُوَيْطِبٌ : نَنَاشِدُكَ اللَّهَ وَالْعَقْدَ إِلَّا مَا خَرَجْتَ مِنْ أَرْضِنَا ، فَقَدْ مَضَتْ الثَّلَاثُ ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَذِبَتْ لَأْمٌ لَكَ ، لَيْسَتْ بِأَرْضِكَ وَلَا أَرْضَ آبَائِكَ ، وَاللَّهِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا طَائِعاً رَاضِياً ، فَضَحِكَ

(١) الْمِيخْنَةُ : عَصَا مُعَقَّفَةُ الرَّأْسِ كَالْمُؤَلَّجَانِ (النهاية : ج ٢٤٧/١) .

(٢) الْأَضْطَبَاعُ : هُوَ أَنْ يَأْخُذَ الْإِرَارَ أَوْ الْبُرْدَ فَيَجْعَلُ وَسْطَهُ تَحْتَ إِبْطِهِ الْأَيْمَنِ ، وَيُلْقِي طَرْفِيَهُ عَلَى كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ مِنْ جِهَتَيْ صَدْرِهِ وَظَهْرِهِ (النهاية : ج ٧٣/٣) .

(٣) هَرْوَلٌ : أَسْرَعَ بَيْنَ الْعَدُوِّ وَالْمَشِي . (الوسيط : ج ٩٩٢/٢) .

(٤) الْجَمَامَةُ : الرِّاحَةُ وَالشَّبِيْعُ وَالرَّيُّ . انظر : (النهاية : ج ٣٠١/١) .

(٥) الْغَمِيْرَةُ : الْعَيْبُ (لسان العرب : ج ٣٢٩٧/٥) .

(٦) مسند الإمام أحمد (ج ٣٠٥/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٤/٣ - ٤٢٥) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٤/٢) كتاب الحج - باب من لم يدخل الكعبة ، و (ج ١٨١/٥) كتاب المغازي - باب عمرة القضاء ، وصحيح مسلم (ج ٩٢١/٢ ، ٩٢٢) كتاب الحج - باب استحباب الرمل في الطواف ح ٢٢٧ وح ٢٤٠ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٠٥/١ ، ٣٥٦) ، وسنن الترمذي (ج ١٣٩/٥) كتاب الأدب - باب ماجاء في إنشاد الشعر ح ٢٨٤٧ ، وجمع الزوائد (ج ١٢٠/٨) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٧٢/٥) ، ودلائله (ج ٣١٤/٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٠/٢ - ١٢١) .

(٨) صحيح البخاري (ج ٧٣/٣) أبواب العمرة - باب متى يحل المعتمر .

(٩) صحيح البخاري (ج ١٨١/٥) كتاب المغازي - باب عمرة القضاء .

رسول الله ﷺ وقال لسعد : « لا تُؤذ قوماً زارونا في رحالنا » ، ثم قال لهم : « ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم (١) ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟ » فقالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فأخرج عنا ، فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع فنادى بالرحيل وقال : « لا يمسين بها أحدٌ من المسلمين » .

وكان رسول الله ﷺ لم ينزل بيتاً إنما ضربت له قبة من أديم بالأبطح ، فكان فيها حتى خرج من مكة ، ونزل بطن سرف ، فأقام بها ومعه المسلمون (٢) .

قضاء النبي ﷺ في ابنة حمزة رضي الله عنهما :

ولما أراد النبي ﷺ الخروج من مكة تبعته ابنة حمزة أمانة ، ويقال عمارة ، تنادي : يا عم يا عم ! فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك احلبها . فاختم فيها علي وزيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنهم ، حتى ارتفعت أصواتهم ، فقال النبي ﷺ : « هلموا أقض بينكم فيها وفي غيرها » ، فقال علي رضي الله عنه : أنا أخذتها ، وهي ابنة عمي وعندني ابنة رسول الله ﷺ وهي أحق بها ، وقال جعفر رضي الله عنه : ابنة عمي وخالتها - أسماء بنت عميس (٣) - تحتي ، وقال زيد رضي الله عنه : ابنة أخي - وكان النبي ﷺ أخى بينه وبين حمزة ، رضي الله عنهما ، حين أخى بين المهاجرين - فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر لأن خالتها عنده ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم » ، ثم قال لعلي : « أنت مني وأنا منك » ، وقال لجعفر : « أشبهت خلقي وخلقي » ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » . فقام جعفر ، رضي الله عنه ، فحجّل حول النبي ﷺ - دار عليه - فقال له النبي ﷺ : « ما هذا ؟ » قال : شيء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم ؛ كان النجاشي إذا أرضى أحداً قام فحجّل حوله .

فلم تزل أمانة عند جعفر حتى قُتل ، فأوصى بها إلى علي ، فكشفت عنده حتى بلغت ، فعرضها على رسول الله ﷺ ، فقال : « هي ابنة أخي من الرضاغة » ، فزوجها رسول الله ﷺ سلمة بن أبي سلمة ، رضي الله عنهما ، فكان النبي ﷺ يقول : « هل جزيت سلمة (٤) ؟ » (٥) .

زواج النبي ﷺ من ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها :

وفي هذه العمرة تزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية ، رضي الله عنها ، وكان اسمها برة فسماها النبي ﷺ ميمونة ، وهي أخت أم الفضل بنت الحارث زوج العباس ، رضي الله عنها ، وأخت عصاة كباية الصغرى بنت الحارث أم خالد بن الوليد ، وهي أيضاً أخت أسماء وسلمى ابنتي عميس لأمتها .

وكان رسول الله ﷺ قبل أن يدخل مكة بعث جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث ، فخطبها عليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، وكانت أختها تحته ، فزوجها إياه ، وأصدقها عن النبي ﷺ أربعمائة درهم . وكانت تزوجت في الجاهلية مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي ، ثم فارقتها ، فخلف عليها أبو رهم بن عبد العزى فتوفي عنها .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ بعث أبا رافع ورجلاً من الأنصار فزوجاه ميمونة ورسول الله ﷺ بالمدينة لم يخرج بعد .

(١) كان النبي ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها وأراد أن يبني بها قبل خروجه من مكة .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٣ / ٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٠ / ٥) كتاب المغازي - باب عمرة القضاء ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٢ / ٢) و (ج ١٣٩ / ٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٥ / ٤) .

(٣) أم عمارة هي سلمى بنت عيسى رضي الله عنها .

(٤) وذلك لأنه يقال إن سلمة هو الذي كان زوج رسول الله ﷺ من أمه أم سلمة رضي الله عنها . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٦١ / ٢) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨٠ / ٥) كتاب المغازي - باب عمرة القضاء ، وسنن أبي داود (ج ٧٠٩ / ٢) كتاب الطلاق - باب من أحق بالولد ج ٢٢٢٨ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٢ / ٢) و (ج ٢٥ / ٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٩ / ٤) .

وقيل : إنها وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وفيها نزل قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنَّهَا وهبتُ نفسها للنبيِّ إن أرادَ النبيُّ أن يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من أعمال العمرة أراد أن يبني بميونة ، رضي الله عنها ، بمكة فلم تمهله قريش ، فخرج إلى سرف وخلف أبا رافع مولاة لياثي له بميونة حين يمسي ، فخرج بها ، ولقيت ميونة ، رضي الله عنها ، غناء وأذى من سفهاء المشركين وصبيانهم ، حتى قدمت على رسول الله ﷺ بسرف ، فبنى بها هناك ، ثم أدلج (٢) فسار حتى قدم المدينة في ذي الحجة .

وكانت ميونة ، رضي الله عنها ، آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، وآخر من توفي من أزواجه ، وقدّر الله أن يكون موتها بسرف حيث بنى بها رسول الله ﷺ ، وذلك سنة ثلاث وستين أو إحدى وستين في خلافة يزيد بن معاوية ، وكان لها يوم توفيت ثمانون أو إحدى وثمانون سنة ، وصلى عليها ابن عباس ، ونزل في قبرها هو ويزيد بن الأصمّ وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعبيد الله الخولاني (٣) .

روي عن يزيد بن الأصمّ - وكانت ميونة خالته - قال : ثقلت ميونة زوج النبي ﷺ بمكة وليس عندها أحد من بني أخيها ، فقالت : أخرجوني من مكة ؛ فإني لأموت بها ، إن رسول الله ﷺ أخبرني أنني لأموت بمكة ، قال : فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها في موضع الفيئة ، قال : فماتت ، فلما وضعناها في لحدها أخذت رداي فوضعت تحت خدّها في اللحد ، فأخذها ابن عباس فرمى به (٤) .

وكانت عائشة ، رضي الله عنها ، تقول فيها : أما إنها كانت من أتقانا لله ، عز وجلّ ، وأوصلنا للرحم (٥) .

☆ ☆ ☆

سريّة ابن أبي العوّجاء رضي الله عنه إلى بني سُلَيْم :

لما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضية بعث ابن أبي العوّجاء السلمي ، رضي الله عنه ، في ذي الحجة سنة سبع للهجرة ، في خمسين رجلاً إلى بني سُلَيْم ليدعوهم إلى الإسلام ، فخرج إليهم ، وتقدّمه عين لهم كان معه فحذّروهم وأخبرهم بخروجه ، فجمعوا له جمعاً كثيراً ، فجاءهم ابن أبي العوّجاء وهم معدّون له ، فدعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى مادّعتنا إليه ، فتراموا بالنبل ساعة ، وجعلت الأمداد تأتيهم حتى أحرقوا بابن أبي العوّجاء وأصحابه من كل ناحية ، فقاتل القوم قتالاً شديداً ، حتى قُتل عامتهم ، وأصيب أميرهم ابن أبي العوّجاء جريحاً مع القتلى ، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ بالمدينة في أول يوم من صفر سنة ثمان للهجرة (٦) .

هذا عند ابن سعد ، أما ابن إسحاق فقد ذكر أنه قتل هو وأصحابه جميعاً (٧) .

☆ ☆ ☆

(١) الأحزاب : ٥٠ .

(٢) أدلج : سار من أوّل الليل (النهاية : ج ١٢٩/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٦/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٨١/٥) كتاب المغازي - باب عمرة القضاء ، وصحيح مسلم (ج ١٠٢٢/٢) كتاب النكاح - باب تحريم نكاح المحرم وكراهة خطبته ح ٤٨ ، وسنن الترمذي (ج ٢٠٠/٣) كتاب الحج - باب ما جاء في كراهة تزويج المحرم ح ٨٤١ ، والمستدرک (ج ٣٠/٤ - ٣٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٢/٨ ، ١٤٠) ، وللوسط (ص : ٢٣٩) نكاح المحرم ، وجمع الزوائد (ج ٢٤٩/٨) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٩/٤) ، ودلائله (ج ٣١٦/٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦) .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٤٩/٩) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

(٥) انظر : المستدرک (ج ٢٢/٤) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢٢/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٢/٤) .

(٧) سيرة ابن هشام (ج ٢٨٤/٤) .

السنة الثامنة للهجرة

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة :

وفي صفر من سنة ثمان للهجرة قدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة المدينة ليسلموا^(١) ، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « رَمَتُكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلاذِ كَيْبِهَا » .

ولنترك عمرو بن العاص رضي الله عنه يروي لنا خبر إسلامه ، قال عمرو : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأبي ، ويسمعون مني ، فقلت لهم : تعلموا والله إنني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنني لقد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ؛ فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا : إن هذا لرأي ، قلت : فاجمعو لنا ما تهدي به له - وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدم - فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إننا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري - وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه - فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أي قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

قال عمرو : فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، قال : مرحباً بصديقي ؛ أهديت إلي من بلادك شيئاً ؟ قلت : نعم أيها الملك ؛ قد أهديت إليك أدماً كثيراً ، ثم قرّبت به إليه ، فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك ! إنني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدوّ لنا ، فأعطينيه لأقتله ؛ فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ، فغضب ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه ، ثم قلت له : أيها الملك ! والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه ، قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ قلت : أيها الملك ! أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو !! أطعني وأتبعه ؛ فإنه والله لعل الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قلت : أفتبايعني له على الإسلام ، قال : نعم ، فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال^(٢) رأبي عما كان عليه ، وكتمت أصحابي إسلامي .

ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم ، فلقيت خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ، وذلك قبيل الفتح ، وهما مقبلان من مكة ، فقلت : أين يا أبنا سُلَيْمَانَ ؟ قال : والله لقد استقام المُتَمِّمُ^(٣) ، وإن الرجل لنبي ، أذهب والله فأسلم ، فحقي متى ؟ قال : قلت : والله ما جئت إلا لأسلم .

(١) وقيل كان إسلامهم في السنة السابعة للهجرة . انظر : المستدرک (ج ٢٩٧/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٦٥/٢) .

(٢) خَالَ : تَحَوَّلَ وَتَغَيَّرَ (الوسيط : ج ٢٠٧/١) .

(٣) أَي تَبَيَّنَ الطَّرِيقَ (النهاية : ج ٥٠/٥) .

قال عمرو: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، وكنت أسنّ منها فأردت أن أكيدها فقدمتها قبلي للبيعة، فبايعا واشترطا أن يغفر لهما ما تقدم من ذنبهما، فأضمرت في نفسي أن أبايع على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، فلما بايعت ذكرت ما تقدم من ذنبي وأنسيت أن أقول وما تأخر^(١).

ذكر الزبير بن بكار أن رجلاً قال لعمرو بن العاص: ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك؟ قال: كنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن يوازي حلومهم الجبال فلذنا بهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا، فإذا حق بين، فوقع في قلبي الإسلام.

توفي عمرو بن العاص، رضي الله عنه، سنة ثلاث وأربعين على الصحيح عن نحو تسعين سنة^(٢). روي عن ابن شماس المهريري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلاً، وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا ابتاه! أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعمة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إني قد كنت على أطباق ثلاث؛ لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني ولا أحب إليّ أن أكون قد استكنت منه فقتلته فلو متّ على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط بينك فلأبايعك، فبسط بينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشرط، قال: «تشرط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبلة، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبلة؟». وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالاً له - وفي رواية عند الإمام أحمد: ولا راجعته بما أريد حتى لحق بالله، عز وجل، حياء منه^(٣) - ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملاً عيني منه، ولو متّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا متّ فلا تصحبي نائحة ولا نار، فإذا دفنتوني فشنوا^(٤) عليّ التراب شنأ، ثم أقبوا حول قبري قدر ما تنحرجزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربّي^(٥).

وقد اكتسب الإسلام بإسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، رضي الله عنهما، قائدين عظيمين وبطلين كبيرين، قاما بدور مهمّ في تاريخ الفتح الإسلامي ونشر الدعوة.

روي عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال: ما عدل رسول الله ﷺ بي وبخالد بن الوليد أحداً منذ أسلمنا في حربته^(٦).

يحدثنا خالد بن الوليد، رضي الله عنه، عن سبب إسلامه فيقول: لما أراد الله، عز وجل، ما أراد بي من الخير، كذف في قلبي الإسلام وحضرتي رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمداً سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بمسلمان، فقممت بإزائه، وتعرضت له، فصلّى بأصحابه الظهر أمامنا فهمنا أن نغير عليهم، ثم لم يعزم لنا، وكانت فيه خيرة، فأطبع على ما في أنفسنا من الهمّ فصلّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً وقلت: الرجل ممنوع، فافترقنا، وعدل عن سنن^(٧) خيلنا، وأخذت ذات اليمين، فلما صالح قريشاً بالحديبية قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب؟

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٣١٨/٣)، وطبقات ابن سعد (ج ٣٤٢/٤)، والروض الأنف (ج ٣٠٤/٣).

(٢) انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٦٥/٢)، وطبقات ابن سعد (ج ٢٦١/٤).

(٣) مسند الإمام أحمد (ج ٢٠٤/٤).

(٤) أي رُشوا، والشن: الصب المنقبط (النهاية: ج ٥٠٧/٢).

(٥) صحيح مسلم (ج ١١٢/١) كتاب الإيمان - باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ح ١٩٢.

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٣٥٠/٩) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجاله ثقات.

(٧) أي عن جهته. انظر: (لسان العرب: ج ٢١٢٥/٣).

إلى النجاشي ، فقد أتبع محمداً ، وأصحابه عنده آمنون ، فأخرج إلى هرقل ، فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية فأقيم مع عجم تابعاً مع عيب ذلك ، أو أقيم في داري فين بقي ، فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضيّة ، فتغيّبت ولم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضيّة ، فطلبني فلم يجدني ، فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ! فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام يجعله أحد !؟ وقد سألت رسول الله ﷺ عنك ، فقال : « أين خالد ؟ » فقلت : يأتي الله به ، فقال : « ما مثله جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين كان خيراً له ولقد مناه على غيره » ، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك ، فقد فاتتك مواطن صالحة .

قال خالد : فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني زغبة في الإسلام وسترني مقالة رسول الله ﷺ ، ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة ، فقلت : إن هذه لرؤيا ، فلما قدمنا المدينة قلت : لأذكرها لأبي بكر ، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام ، والضيق الذي كنت فيه الشرك .

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصحابي إلى محمد ؟ فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت : يا أبا وهب ! أما ترى ما نحن فيه ، إنما نحن كأضراس^(١) وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد فأتبعناه فإن شرفه شرف لنا ، فأبى أشد الإباء وقال لي : لو لم يبق غيري ما أتبعته أبداً ، فافترقنا ، وقلت : هذا رجل قتل أخوه وأبوه بيد ، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان فقال لي مثل ما قال صفوان ، قلت : فاكمم ذكر ما قلت لك ، قال : لا أذكره ، فخرجت إلى منزلي ، فأمرت براحلتي تخرج إلى أن ألقى عثمان بن طلحة ، فقلت : إن هذا لي صديق ، فلو ذكرت له ما أرجو ، ثم ذكرت قتل أبيه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة - فإنهم قتلوا كلهم يوم أحد وكانوا حملة اللواء كما تقدم - فكرهت أن أذكر له ، ثم قلت : وما عليّ وأنا راحل من ساعتني ؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لوصب فيه ذنوب^(٢) من ماء خرج ، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبي ، فأسرع الإجابة ، وقال : إني غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفتح^(٣) مناخة ، قال : فأتعدت أنا وهو بيأجج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدأة^(٤) فوجد عمرو بن العاص بها ، فقال : مرحباً بالقوم ، فقلنا : وبك ، قال : أين مسيركم ؟ قلنا : ما أخرجكم ؟ فقال : ما أخرجكم في الإسلام وأتباع محمد ﷺ ، قال : وذلك الذي أقدمني ، قال خالد : فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة ، فأخذنا بظهر الحرة ركابنا ، فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسر بنا ، فلبست من صالح ثيابي ، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي فقال : أسرع ، فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسر بقدمك وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشي فاطلعت عليه ، فما زال يتبسّم إليّ حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة ، فردّ عليّ السلام بوجه طلق ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير » ، قلت : يا رسول الله ! قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق ، فادع الله يغفرها لي ، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يحب ما كان قبلة » ، قلت : يا رسول الله ! على ذلك ، قال : « اللهم ! اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك » . قال خالد : وتقدم عثمان وعمرو فأسألا وبايعا رسول الله ﷺ^(٥) .

ومنذ ذلك الوقت أصبح خالد ، رضي الله عنه ، سيفاً من سيوف الله صبه الله على الكفار ، كما روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نعم عبئد الله خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله »^(٦) .

وروي أن خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، فقد قلنسوة له يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها ، فلم يجدها ، ثم طلبوها فوجدوها

- (١) الأضراس : جمع ضرس ، يقال : فلان ضرس من الأضراس : أي داهية ، وهو في الأصل أحد الأسنان فاستعارة لذلك (لسان العرب : ج ٢٥٧٨/٤) .
- (٢) الذنوب : الدلو العظيمة ، ولا تسمى ذنوباً إلا إذا كان فيها ماء (النهاية : ج ١٧١/٢) .
- (٣) فتح : واد بمكة (معجم البلدان : ج ٣٤١/٦) .
- (٤) الهدأة : موضع بين حسفان ومكة . وقد تقدم .
- (٥) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٩٤/٧) .
- (٦) رواه الترمذي في سننه (ج ٦٨٨/٥) كتاب المناقب - باب مناقب خالد بن الوليد رضي الله عنه ح ٢٨٤٦ وقال : هذا حديث حسن غريب .

وإذا هي قَلَنْسُوءٌ خَلَقَتْ ، فقال خالد ، اعتر رسول الله ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره ، فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رَزَقْتُ النصر^(١) .

توفي خالد ، رضي الله عنه ، بمصر سنة إحدى وعشرين للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، روي أنه لما حضرته الوفاة قال : لقد طلبت القتل من مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي^(٢) .

سرية غالب بن عبد الله رضي الله عنه إلى بني الملوّح :

بعث رسول الله ﷺ في صفر سنة ثمان للهجرة غالب بن عبد الليثي ، رضي الله عنه ، في بضعة عشر رجلاً إلى بني الملوّح بالكديد^(٣) ، وهم من بني ليث ، وأمره أن يشن الغارة عليهم . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

فخرج المسلمون حتى إذا كانوا بقَدِيد^(٤) لقوا الحارث بن مالك ، وهو ابن البرصاء الليثي ، فأسروه ، فقال : إنما خرجت إلى رسول الله ﷺ أريد الإسلام ، فقالوا له : إن تك مسلماً فلن يضريك رباط يوم وليلة ، وإن تك على غير ذلك كنا قد استوثقنا منك ، فشده رباطاً ، وخلفوا عليه رجلاً أسود منهم ، وقالوا له : إن نازعك فاحتر رأسه ! وساروا حتى أتوا الكديد عند غروب الشمس ، فكنوا في ناحية الوادي ، قال جُنْدَب بن مكيث رضي الله عنه : وبعثني أصحابي ربيعة لهم ، فخرجت حتى أتيت تلاً مشرفاً على الحاضر ، فلما استويت على رأسه انبطحت عليه لأنظر ، إذ خرج رجل منهم من خبائه فقال لامرأته : إني أرى على هذا الجبل سواداً ما رأيته قبل ، فانظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرّت منها شيئاً ، فنظرت فقالت : لا والله ما أفقد من أوعيتي شيئاً ، فقال : ناوليني قوسي ونبلي ، فناولته قوسه وسهمين ، فأرسل سهماً ، فوالله ما أخطأ جنبي - وفي رواية : ما أخطأ بين عيني - فانزعته وثبت مكاني ، فأرسل آخر فوضعه في منكمي ، فانزعته وثبت مكاني ، فقال لامرأته : والله لو كان ربيعة لتحرك ! لقد خالطه سهاي لأبأ لك ! فإذا أصبحت فابتغيها فخذها لا تمضغها على الكلاب ، ثم دخل ، فلما اطمانوا وناموا وكان في وجه السحر شئنا عليهم الغارة ، فقتلنا منهم واستقنا النعم . قيل : وكان شعارهم أميت أميت .

قال جُنْدَب : وخرج صريخ القوم ، فجاءنا دَهْم^(٥) لا قبيل لنا به ، ومضينا بالنعم نغدرها ، حتى مرنا بابن البرصاء وصاحبه فاحتلناهما معنا ، وأدرنا القوم حتى قربوا منا ، فابينا وبينهم إلا وادي قَدِيد ، فأرسل الله الوادي بالسيل من حيث شاء تبارك وتعالى من غير سحابة نراها ولا مطر ، فجاء بشيء ليس لأحد به قوّة ، ولا يقدر أحد أن يجاوزه ، فوقفوا ينظرون إلينا وإننا لنسوق نعمهم ما يستطيع رجل منهم أن يجيز إلينا ونحن نخذلها^(٦) سراعاً حتى فتناهم ، فلم يقدرنا على طلبنا ، فقدمنا بها على رسول الله ﷺ^(٧) .

سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنهم :

ولما رجع غالب رضي الله عنه من الكديد مؤيداً منصوراً بعثه رسول الله ﷺ في صفر إلى حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد ، رضي الله عنهم ، وذلك في بني مرة ناحية فدك . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

وكان رسول الله ﷺ قبل قدوم غالب ، رضي الله عنه ، هياً الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، لذلك ، وهياً معه مائتي رجل ، وعقد له لواء ، وقال له : « سرّ حتى تنتهي إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد ، فإن أظفرك الله بهم فلا تبقّ فيهم » ، فلما قدم غالب ،

(١) انظر : المستدرك (ج ٢٩٧/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٢٤٩/٩) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٩٧/٧) ، والإصابة في تمييز الصحابة (ج ٤١٥/١) .

(٣) الكديد : موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة (معجم البلدان : ج ٢٢٤/٧) .

(٤) قَدِيدٌ : اسم موضع قرب مكة (معجم البلدان : ج ٢٨٧/٧) .

(٥) الدَهْمُ : العتد الكثير (النهاية : ج ١٤٥/٢) .

(٦) حدا الإبل : ساقها وحشها على السير (الوسيط : ج ١٦٢/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٤/٢) .

رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ للزبير : « اجلس » ، وبعث غالباً في مائتي رجل ، سمي ابن سعد منهم علب بن زيد ، وأبا مسعود عقبة بن عمرو ، وكعب بن عجرة ، وأسامة بن زيد ، وحويصة ، وأبا سعيد الخدري ، رضي الله عنهم ، فأغاروا عليهم مع الصبح ، وكان غالب ، رضي الله عنه ، قد أوصاهم بعدم مخالفتهم له ، وأخى بين القوم ، فأصابوا منهم نعباً وقتلوا منهم قتلى .

روي أنه لما دنا غالب ، رضي الله عنه ، من القوم بعث الطلائع ينظرون إلى محالهم ، ثم رجعوا فأخبروه ، فأقبل غالب يسير ، حتى إذا كان بمنظر العين منهم ليلاً وقد احتلبوا وهدؤوا ، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ؛ فيأني أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعوني ولا تعصوني ، ولا تخالفوا لي أمراً ، فإنه لا رأي لمن لا يطاع ، وإن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أطاع أميرى فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني » ، وإنكم متى ماتعصوني فإنكم تعصون نبيكم . ثم ألق رضي الله عنه بين القوم فقال : يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق رجل منكم زميله ، فيأيام أن يرجع الرجل منكم فأقول له : أين صاحبك ؟ فيقول لا أدري ، وإذا كبرت فكبروا وجرّدوا السيوف . فخرج الرجال فقاتلوا ساعة ووضع المسلمون فيهم السيوف ، وكان شعارهم أميت أميت ، وخرج أسامة بن زيد ، رضي الله عنه ، في أثر رجل منهم فأبعد فلم يأت إلا بعد ساعة من الليل ، فلامه غالب رضي الله عنه وقال : ألم تر إلى ما عهدت إليك ؟ فقال : خرجت في إثر رجل منهم حتى إذا دنوت منه وضربته بالسيوف قال : لا إله إلا الله ، فقال له غالب : بئسا فعلت وما جئت به تقتل امرأة يقول لا إله إلا الله ، فندم وسقط في يديه^(١) ، وساق المسلمون النعم والشاء والذرية ، وكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل أو عدلها من الغنم^(٢) .

سرية شجاع بن وهب رضي الله عنه إلى بني عامر بالسبي^(٣) :

وفي شهر ربيع الأول سنة ثمان للهجرة بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي ، رضي الله عنه ، في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن يقال لهم بنو عامر بالسبي ، وأمره ﷺ أن يغير عليهم ، فخرج ، فكان يسير الليل ويكن النهار حتى صبحهم وهم غافلون ، وقد نهى أصحابه قبل ذلك أن يمعنوا في الطلب ، فأصابوا نعباً كثيراً وشاء ، فاستاقوا ذلك كله حتى قدموا المدينة ، وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة ، وكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً لكل رجل منهم ، وعدلوا البعير بعشر من الغنم^(٤) . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

ويقال : إنهم أصابوا في ذلك الحاضر نسوة فاستاقوهن ، فكانت فيهن جارية وضيئة ، فقدموا بها المدينة ، ثم قدم وفدهم مسلمين ، فكلموا رسول الله ﷺ في السبي ، فكلم النبي ﷺ شجاعاً وأصحابه في ردّهن ، ففعلوا ، أما الجارية الوضيئة فكان شجاع أخذها لنفسه بثمن ، فأصابها ، فلما قدم الوفد خيرها فاخترت المقام عنده^(٥) .

سرية كعب بن عمير رضي الله عنه إلى ذات أطلاح :

وفي شهر ربيع الأول سنة ثمان للهجرة بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري ، رضي الله عنه ، إلى ذات أطلاح من ناحية الشام وراء وادي القرى ، في خمسة عشر رجلاً ، فسار فكان يكن النهار ويسير بالليل ، حتى إذا دنا منهم رآه عين لهم ، فأخبر قومه

(١) تقدّم خير قتل أسامة ، رضي الله عنه ، للرجل الذي قال لا إله إلا الله في سرية غالب إلى أرض بني مرة في شعبان سنة سبع . فإله أعلم في أي سرية كان ذلك .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٦/٤) .

(٣) السبي : ماء من ذات عرق إلى وجرّة على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة وخمس من المدينة . انظر : معجم البلدان (ج ٢٠٢/٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٦٧/٢) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٢٧/٢) .

(٥) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٣/٤) .

وكانوا من قضاة بقلّة المسلمين ، فجاؤوا على الخيل ، فلما انتهى المسلمون إلى ذات أطلاح وجدوا جمعاً كثيراً ، فدعّوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل ، فلما رأى ذلك المسلمون قاتلوهم أشدّ القتال حتى قتلوا عن آخرهم .

وقيل : أفلت منهم رجل جريح في القتلى ، يقال هو كعب ، فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فشقّ ذلك عليه ، وهم بالبعث إليهم ، فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم^(١) . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

☆ ☆ ☆

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج٤/٢٩٦) ، وطبقات ابن سعد (ج٢/١٢٧) ، وتاريخ الطبري (ج٣/٢٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج٤/٣٥٧) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج٢/٢٦٧) .

غزوة مؤتة (١)

مؤتة قرية من قرى البلقاء في حدود الشام على مرحلتين من بيت المقدس ، وكانت الغزوة في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة (٢) .

سببها :

وسبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي ، رضي الله عنه ، بكتابه إلى ملك بُضرى ، فلما نزل مؤتة عرض له شَرْحِبِيل بن عمرو الغساني ، وكان أميراً من أمراء قيصر على الشام ، فقال له : أين تريد ؟ فقال : الشام ، قال : فلعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم ، فأمر به ، فأوثق رباطاً ، ثم قدمه فضرب عنقه صبراً . ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره .

وكان قتل السفراء والرسول من أشنع الجرائم ، فقد جرت العادة والعرف بعدم قتلهم أو التعرض لهم ، فكانت هذه الحادثة بمثابة إعلان حالة الحرب على المسلمين ، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين بلغه الخبر ، ولم يكن أمامه بدّ من إرسال جيش لقتال الروم ، فندب الناس ، فتجهّزوا ثم تهيّؤوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب (٣) .

أمراء الجيش :

وأمر رسول الله ﷺ على هذا الجيش مولاه زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، وقال : « إن قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى النَّاسِ ، فَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ عَلَى النَّاسِ ، فَإِنْ قُتِلَ فَلْيُرْتَضِ الْمُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ رَجُلًا فَيَجْعَلُوهُ عَلَيْهِمْ » .

وجاء في رواية : فوثب جعفر ، رضي الله عنه ، فقال : بأي أنت وأمّي يا رسول الله ، ما كنت أرهب أن تستعمل عليّ زيدا ، قال : « أمضيه ، فإنك لا تدري أي ذلك خير » .

وقد حضر ذلك المجلس رجل من يهود اسمه النعمان ، فقال : يا أبا القاسم ! إن كنت نبياً فسميت من سميت قليلاً أو كثيراً أصيبوا جميعاً ، لأن الأنبياء من بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم فقالوا : إن أصيب فلان ففلان ، فلو سموا مائة أصيبوا جميعاً . ثم جعل اليهودي يقول لزيد : اعهد فلا ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً ، قال زيد : فأشهد أنه نبيّ صادق بارّ ﷺ .

وعقد لهم رسول الله ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ، رضي الله عنه ، ويدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله ، تبارك وتعالى ، وقاتلوهم . فأسرع الناس بالخروج وعسكروا بالجُرْف ؛ موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام (٤) .

- (١) وتسمى هذه الغزوة أيضاً غزوة جيش الأمراء ، وإنما سميت غزوة مع أن النبي ، لم يشهدا لكثرة جيش المسلمين فيها ، ولكونها أضخم حرب دامية خاضها الصحابة ، رضي الله عنهم ، في حياته ﷺ وواجهوا فيها قوة عظيمة من الروم . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٦٧/٢) .
- (٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٦/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٨/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٦٨/٢) ، ومعجم البلدان (ج ١٩٠/٨) .
- (٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٧/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٢/٤) .
- (٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٧/٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٠٠/٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٨/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٥٤/٨) ، ودلائله (ج ٣٦١/٤) ، ومعجم البلدان (ج ٨٧/٢) .

توديع الجيش ووصية النبي ﷺ إليه :

ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلّموا عليهم ، وحينئذ بكى عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، فقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ فقال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباة بكم ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ، عز وجل ، يذكر فيها النار : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (١) فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورد ؟ فقال المسلمون : صبيحكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ، فقال عبد الله بن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ (٢) تذف الزبدا
أو طعنة ييدي حزان مجهزة (٣) بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جسدي (٤) أرشده الله من غاز وقد رشدا

وأقى عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، رسول الله ﷺ فودّعه ثم قال :

فثبتت الله ما أتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصرا
إني تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيك الذي نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر

فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ قال له : « وَأَنْتَ فَتَبَّتَكَ اللَّهُ يَا ابْنَ رَوَاحَةَ » فثبتته الله حتى قتل شهيداً . وخرج رسول الله ﷺ مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف وودّعهم ، ثم قال لهم : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، أغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص (٥) فافلقوها بالسيف ، ولا تقتلوا امرأة ، ولا صغيراً صرعاً (٦) ، ولا كبيراً فانياً ، ولا تقطعن شجرة ، ولا تعقرن نخلاً (٧) ولا تهدموا بيتاً » .

فلما انصرف عنهم رسول الله ﷺ قال ابن رواحة رضي الله عنه :

خلف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مشيع وخليل

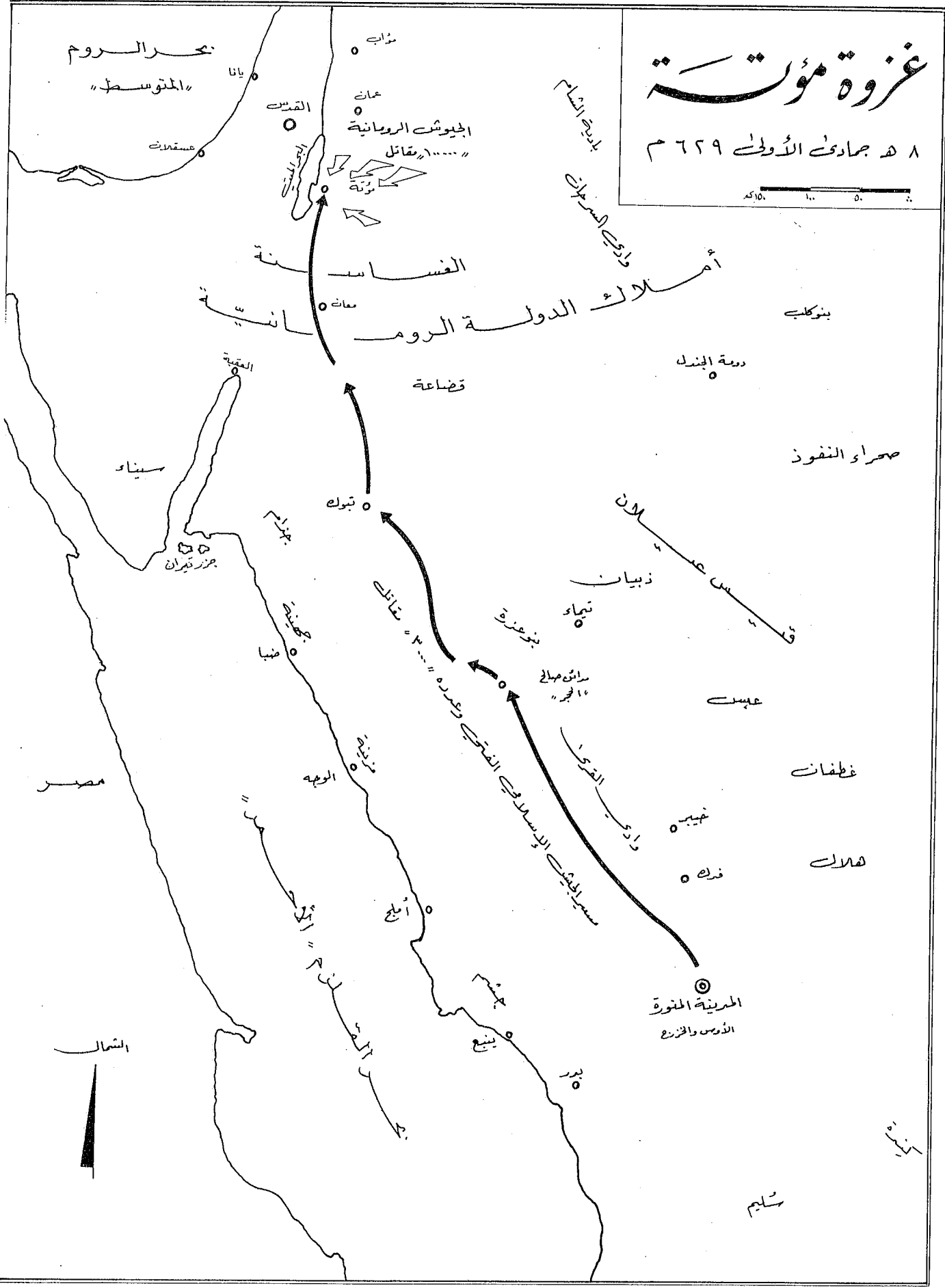
ويروي أن ابن رواحة تخلف عن الجيش حتى صلى الجمعة مع رسول الله ﷺ ، فلما انصرف من الصلاة رآه ، فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَعُدَّوْا مَعَ أَصْحَابِكَ ؟ » قال : أردت أن أصلي معك الجمعة ، ثم أحققهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لَعْدُوَّةٌ أَوْ رُوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَتَدْرِي بِكُمْ سَبَقَكَ أَصْحَابُكَ ؟ » قال : نعم ، سبقوني اليوم بغدوتهم ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ! لقد سبقوك بأبعد مما بين المشرقين والمغربيين في الفضيلة » - وفي رواية : « لَوَأْنَفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَدْرَكْتُ فَضْلَ غَدُوْتِهِمْ » (٨) .

- (١) مريم : ٧١ .
- (٢) أي واسعة يسيل دمه (الوسيط : ج ٦٩١/٢) .
- (٣) أي سريعة القتل (النهاية : ج ٢٢٢/١) .
- (٤) الجذث : القبر (النهاية : ج ٢٤٢/١) .
- (٥) أي إن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها ، لأن من كلامهم إذا وصفوا إنساناً بشدة الغي والأنهاك في الشر قالوا : قد فرخ الشيطان في رأسه وعشش في قلبه . ومفحص القطاة موضعها فيه من الأرض . انظر : (النهاية : ج ٤١٥/٣ - ٤١٦) .
- (٦) الضارع : النجيف الضاوي الجسم (النهاية : ج ٨٤/٣) .
- (٧) عقر النخل : قطعها من رأسها (الوسيط : ج ٦٢١/٢) .
- (٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٧/٣ - ٤٢٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٨/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٩١/٩) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٥٧/١) ، وسنن الترمذي (ج ٤٠٥/٢) أبواب الصلاة - باب ماجاء في السفر يوم الجمعة . ح ٥٢٧ ، وجمع الزوائد (ج ٢٨٤/٥) ، والبداية والنهاية (ج ٢٥٧/٤) ، ومغازي الواقدي (ج ٧٥٧/٢) .

غزوة مؤتة

٨ هـ جمادى الأولى ٦٢٩ م

١٥٠ ١٠٠ ٥٠



البحر المتوسط

مكة
المنى
البحر الأحمر

الدولة الرومانية

الدولة الساسانية

بنوكلب

دومة الجندل

صحراء النفوذ

البحر الأحمر

زبيان

نهماء

مؤتة

مراثة مراح

عيس

ظفان

البحر الأحمر

خيبر

هلاک

فکه

المدينة المنورة

الأوس والخزرج

بهنس

بنيع

بدر

سند

سليم

الشمال



نزول الجيش الإسلامي بمَعَانِ وَعِدَّةِ الْعَدُوِّ وَعَتَادِهِ :

ولما فصل الجيش الإسلامي من المدينة سمع العدوّ بسيرهم فجمعوا لهم ، وقام فيهم شَرْحِييل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف مقاتل وقدم الطلائع أمامه ، فلما نزل المسلمون مَعَانِ من أرض الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مَابَ من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لَحْمِ وَجَدَامِ وَالْقَيْنِ وَتَنُوخِ وَيَهْرَاءِ وَبَلِيٍّ مائة ألف منهم - وكانوا على النصرانية في الغالب ، لذلك كان هوامم إلى جانب الروم - عليهم رجل من بَلِيٍّ ثم من إِرَاشَةَ يقال له مالك بن زافَلَةَ - ولعلّ هؤلاء الذين جمعهم شَرْحِييل - ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين ، وكان المسلمون ثلاثة آلاف كما مرّ ، فلما بلغهم ذلك أقاموا في مَعَانِ ليلتين يفكرون في أمرهم ، وينظرون ويتشاورون هل يكتبون لرسول الله ﷺ يخبرونه بعدد عدوهم ؛ فيما أن يندم بالرجال أو يأمرهم بأمره فيضوا إليه ، فعارضهم ابن رواحة ، رضي الله عنه ، وشجّع الناس قائلاً : يا قوم ! والله إن التي تكروهون لتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما تقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة ، ماقاتلهم إلاّ بهذا الدّين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين ؛ إما ظهور وإما شهادة ، فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة .

وقد كانت كاهنة من حدّس ، وهم بطن من لَحْمِ ، حين سمعت بجيش رسول الله ﷺ مقبلاً قالت لقومها بنو غنم : أنذرکم قوماً خَزُرًا^(١) ، ينظرون شَزْرًا^(٢) ، ويقودون الخيل تَثْرًا^(٣) ، ويَهْرِيَقُونَ دَمًا عَكْرًا ، فأخذوا بقولها واعتزلوا من بين لَحْمِ ، فلم تنزل بعد من أثرى^(٤) حدّس ، وكان الذين صلّوا الحرب يومئذ بنو ثعلبة بطن من حدّس ، فلم يزالوا قليلاً بعد^(٥) .

لقاء العدو وتعبئة الجيش الإسلامي :

فرضى المسلمون إلى أرض العدوّ ، وفي الطريق سمع زيد بن أرقم ابن رواحة وهو يشد أرباعه هذه ، وكان مردفه على حقيبه رحله :

إذا أديتني وحملت رحلي	مسيرة أربع بعد الحساء ^(٦)
فشأنك أنعم وخلاك دم ^(٧)	ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني	بأرض الشام مشتهي الثواء ^(٨)
وردك كل ذي نسب قريب	إلى الرحمن منقطع الإخفاء
هنالك لأبالي طلع بعل ^(٩)	ولا نخل أسنافلها رواء

قال زيد : فلما سمعتهنّ منه بكيت ، فحفظني بالدّرة^(١٠) وقال : ما عليك يالكع^(١١) أن يرزقي الله الشهادة وترجع بين شعبي

الرحل ؟

- (١) الخَزْرُ : ضيق العين وصغرها . وَرَجَلٌ أَخْزَرٌ ، وَقَوْمٌ خَزْرٌ (النهاية : ج ٢٨٢) .
- (٢) الشَزْرُ : النّظَرُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ ، وَلَيْسَ بِمُسْتَقِيمِ الطَّرِيقَةِ . وَقِيلَ : هُوَ النَّظَرُ بِمُؤَخَّرِ الْعَيْنِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ النَّظَرُ الشَزْرُ فِي حَالِ الْغَضَبِ وَإِلَى الْأَعْدَاءِ (النهاية : ج ٤٧٠/٢) .
- (٣) تَثْرَى : مِنَ التَّوَاتُرِ ؛ أَيْ : التَّتَابُعِ ، وَهُوَ تَتَابُعُ الْخَيْلِ وَبَيْنَهَا قَتْرَاتٌ (لسان العرب : ج ٤٧٥٩/٦) .
- (٤) أَيْ أَكْثَرَ عَدَدًا وَمَالًا . انظر : (لسان العرب : ج ٤٧٩/١) .
- (٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٩/٣ ، ٤٣٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٨/٢) .
- (٦) الْحِسَاءُ : مِيَاةٌ لِبَنِي قُرَازَةَ بَيْنَ الرَّيْدَةِ وَتَخَلُّ يُقَالُ لِمَكَانِهَا دُو حِسَاءٍ (معجم البلدان : ج ٢٧٤/٣) .
- (٧) يُقَالُ : أَفْعَلُ كَذَا وَخَلَكَ دَمٌ ؛ أَيْ : أَغْدُرْتُ وَسَقَطَ عَنْكَ الدَّمُ (لسان العرب : ج ١٢٥٨/٢) .
- (٨) الثَّوَاءُ : طَوْلُ الْقَتَامِ ، الْإِقَامَةُ (لسان العرب : ج ٥٢٤/١) .
- (٩) الْبَعْلُ : هُوَ مَا سَرِبَ مِنَ النَّخِيلِ بِمَعْرُوقِهِ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ سَقْيٍ سَاءٍ وَلَا غَيْرِهَا (النهاية : ج ١٤١/١) .
- (١٠) حَفَقَةُ بِالذِّرَّةِ : أَيْ صَرَبَةٌ بِهَا ، وَالذِّرَّةُ : السُّوْطُ (الوسيط : ج ٢٤٧/١ ، ٢٧٩) .
- (١١) اللَّكْعُ : الْعَيْدُ ، اسْتَعْمِلَ فِي الْحَمَقِ وَالذَّمِّ (النهاية : ج ٢٦٨/٤) .

فلما كان الجيش يتخوم^(١) البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم ونصارى العرب بقرية يقال لها مشارف ، فجاء منهم ما لا يقبل لأحد به من العدد والسلاح والكرع^(٢) والديباج والحريير والذهب ، حتى قال أبو هريرة ، رضي الله عنه ، وكان في الجيش : فبرق بصري ، فقال له ثابت بن أقرم رضي الله عنه : مالك يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ قال : نعم ، قال : تشهدنا بيدر ! إننا لم نصر بالكثرة .

ثم دنا العدو فأنغاز المسلمون إلى مؤتة فمسكرروا هناك ، وتعبأوا للقتال ، فجعلوا على ميمنتهم قُطْبَةَ بن قنادة العُدْرِيّ ، وعلى ميسرتهم عَبَّايَةَ أو عَبَّادَةَ بن مالك الأنصاري ، ثم التقى الجمعان واقتتلوا . (انظر : مصور غزوة مؤتة) .

فقاتل الأمراء الثلاثة يومئذ على أرجلهم ، فأخذ اللواء زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرمح ، ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فقاتل به على فرسه ، حتى إذا أَلْحَمَهُ القتال^(٣) نزل عن فرسه فَعَقَّرَهَا^(٤) ، فكان جعفر أوّل رجل من المسلمين عقر في الإسلام ، وإنما عقرها خوفاً أن يأخذها الكفار فيقاتلوا عليها المسلمين ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

يا حنذا الجنة واقتراها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعميدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضرابها

يروى أن جعفرأ ، رضي الله عنه ، لما أخذ اللواء قاتل قتالاً شديداً فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بشماله ولم يزل بها حتى قطعت شماله فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، رضي الله عنه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة أو ابن إحدى وأربعين ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء ، ولذلك سمي بجعفر الطيّار .

ويقال : إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين ، فوجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحاً ، وفيما أقبل من بدنه اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح^(٥) .

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : كنت فيهم في تلك الغزوة فالتسنا جعفر بن أبي طالب ، فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية^(٦) .

وروى بسنده عنه أيضاً أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل ، قال : فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس فيها شيء في دبره ، يعني في ظهره^(٧) .

وروي عن سعيد بن أبي هلال أنه لما أخذ الراية جعفر بن أبي طالب وأتى بالفرس الذي كان عليها زيد بن حارثة ، قال له رجل : تعلم أنها الفرس التي قُتِلَ عليها الرجل ، فلما استوى عليها قال : أيها القوم ! إني مبتغ نفسي فابتنخوا لأنفسكم ، فقاتل حتى قُتِلَ^(٨) .

(١) التَّخُومُ : الفَصْلُ بين الأَرْضَيْنِ مِنَ الحُدُودِ والمَعَالِمِ (لسان العرب : ج ٤٢٢/١) .

(٢) الكِرَاعُ : الخَيْلُ ، وقد تقدّم .

(٣) يُقَالُ : أَلْحَمَ الرَّجُلُ واسْتَلْحَمَ ؛ إذا نَشِبَ في الحَرْبِ فلم يَجِدْ لَه مَخْلَصاً (النهاية : ج ٢٣٩/٤) .

(٤) أَصْلُ العَقْرِ : ضَرْبٌ قَوَائِمُ البَعِيرِ أو الشَّاةِ بالسَّيْفِ وهو قَائِمٌ (النهاية : ج ٢٧١/٣) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٣١/٣ ، ٤٣٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٨/٢ ، ١٢٩) ، والمستدرك (ج ٢٠٨/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي

(ج ٣٦٢/٤) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٧١/٢) .

(٦) صحيح البخاري (ج ١٨٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة من أرض الشام .

(٧) صحيح البخاري (ج ١٨١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة ..

(٨) سنن سعيد بن منصور (ج ٢٩٧/٢) .

ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، وتقدم به ، وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد في النزول عن فرسه بعض التردد ، ثم قال :

أقسمت يـانفس لتـنزلنـه
إن أجلب الناس^(١) وشدوا الرنـه^(٢)
قد طالما قد كنت مطمئنـه
هل أنت إلا نطفة في شئـه^(٣)
لتنزلين أو لتكزهنـه
مالي أراك تكرهين الجنـه

وقال أيضاً :

يـانفس إلا تقتلي تمـوقي
ومما تميت فقسد أعطيت
هنا حيام الموت قد صليت
إن تفعلي فعلها هـديت

يريد صاحبيه زيداً وجعفرأ ، ثم نزل ، فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق^(٤) من لحم ، فقال : شدّ بهذا صلّيك ، فإنك قد لقيت في أيّامك هذه مالقيت ، فأخذه من يده ، ثم أنتهس^(٥) منه نهسة ، ثم سمع الحطمة^(٦) في ناحية الناس ، فقال : وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قُتل^(٧) .

روى البخاري بسنده عن أنس ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَا يَسْرُهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا »^(٨) أي لما رأوا من فضل الشهادة . وقد روي أنهم دفنوا يومئذ زيداً وجعفرأ وابن رواحة في حفرة واحدة^(٩) .

تولية خالد رضي الله عنه الجيش ونهاية المعركة :

ثم أخذ اللواء ثابت بن أقرم ، رضي الله عنه ، وقال : يا معشر المسلمين ! اصطلحوا على رجل منكم ، فقالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وفي رواية أن المسلمين لما قتل ابن رواحة تفرقوا وانهمزوا حتى لم يَرِ اثنان جميعاً ، فتقدم ثابت بن أقرم ، رضي الله عنه ، فأخذ اللواء ثم سعى به ، حتى إذا كان أمام الناس ركزه ، ثم قال : إلي أيها الناس ، فاجتمعوا إليه ، حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، فقال له خالد : لا أخذه منك ، أنت أحقّ به ؛ لك سنّ وقد شهدت بدرأ ، قال ثابت : والله ما أخذته إلا لك ، أنت أعلم بالقتال مني ، ونادى ثابت الناس : اصطلحتم على خالد ؟ قالوا : نعم^(١٠) .

فلما أخذ خالد ، رضي الله عنه ، اللواء واجتمع المسلمون إليه قاتل العدو قتالاً شديداً ، روى البخاري بسنده عن خالد ، رضي الله عنه ، قال : لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية^(١١) .

(١) أجلب الناس : اجتمعوا وتألّبوا (النهاية : ج ٢٨٢/١) .

(٢) الرنّة : الصيحة ، وقيل : صوت في فرح أو حزن (لسان العرب : ج ١٧٤٦/٣) .

(٣) الشنة : الخلق من كل أئمة ، وقد تقدم .

(٤) العرق : العظم إذا أخذ منه معظم اللحم (النهاية : ج ٢٢٠/٣) .

(٥) أنتهس : بالغ في النهس ، والنهس : هو أن يأخذ اللحم بمقدم أسنانه وينتفه للأكل (الوسيط : ج ٩٦٧/٢) .

(٦) حطم الناس بعضهم بعضاً : تراحموا حتى أدى بعضهم بعضاً (الوسيط : ج ١٨٢/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٣٤/٣) .

(٨) صحيح البخاري (ج ٢١/٤) كتاب الجهاد والسير - باب تمّي الشهادة .

(٩) سنن سعيد بن منصور (ج ٢٩٧/٢) .

(١٠) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٣٥/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٩/٢ ، ١٣٠) ، و (ج ٢٥٢/٤) ، ومجم الزوائد (ج ١٥٧/٦) .

(١١) صحيح البخاري (ج ١٨٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة من أرض الشام .

واستطاع خالد ، رضي الله عنه ، أن يثبت أمام العدو طول النهار ، فلما أصبح جعل مقدمة الجيش ساقية ، وساقته مقدمة ، وميمنتها ميسرة ، وميسرته مينة ، فأنكر العدو حالهم وقالوا : جاءهم مدد ، فرعبوا ، فلما حمل خالد ، رضي الله عنه ، عليهم هزمهم الله أسوأ هزيمة ، وقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم ، ثم انحاز خالد بجيشه شيئاً فشيئاً وانحيز عنه ، حتى انصرف إلى المدينة (١) .

وقيل إنما انحازت كل طائفة عن الأخرى من غير هزيمة ، قال ابن إسحاق : وقد وقع كذلك في شعر لقيس بن المُسَخَّر ، رضي الله عنه ، فذكره ثم قال : فبين قيس أن القوم تحاجزوا وكرهوا الموت وحقَّق انحياز خالد بن معه . لكن قال ابن هشام : فأما الزهري فقال فيما بلغنا عنه : أمر المسلمون عليهم خالد بن الوليد ففتح الله عليهم (٢) ، وفي صحيح البخاري عن أنس ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِّنْ سَيُوفِ اللَّهِ حَتَّى قَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » (٣) .

وقد اختلف أهل النقل في المراد بقوله ﷺ : « حَتَّى قَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » هل كان هناك قتال فيه هزيمة للمشركين أو المراد بالفتح انحياز خالد بالمسلمين حتى رجعوا سالمين ؟ والأكثر على أن خالداً ، رضي الله عنه ، والمسلمين قاتلوا الكفار حتى هزموهم وأصابوا غنية ، ثم انحازوا عنهم . وأياً كان الأمر فإن ما وقع يوم مؤتة يسمى فتحاً ونصراً باعتبار ما كانوا فيه من إحاطة العدو بهم وتكاثرهم عليهم ، لأنهم كانوا أكثر من مائتي ألف والمسلمون ثلاثة آلاف ، وكان مقتضى العادة أن يقتلوا عن آخرهم ، لكن لم يقتل منهم إلا اثنا عشر رجلاً مع أنهم اقتتلوا مع المشركين سبعة أيام ، وفي هذا عناية من الله بالإسلام وأهله ومزيد إعزاز ونصر لهم (٤) .

نعي النبي ﷺ الأمرء الثلاثة :

وأطلع الله سبحانه رسوله ﷺ بما حدث في مؤتة ، إذ رُفعت الأرض له حتى نظر إلى معترك القوم ، فنعى لأهل المدينة أمراء الجيش الثلاثة قبل أن يأتيهم خبرهم .

فقد روي أن رسول الله ﷺ لما اطلع على ذلك نادى في الناس : الصلاة جامعة ، ثم قام فذكر شأنهم وعيناه تذرفان ، فقال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ جَيْشِكُمْ هَذَا الْغَازِي ، إِنَّهُمْ أَنْطَلَقُوا فَلَقُوا الْعَدُوَّ ، فَقَتِلَ زَيْدٌ شَهِيداً ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَشَدَّ عَلَى الْقَوْمِ حَتَّى قَتِلَ شَهِيداً ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأَثْبَتَ قَدَمَيْهِ حَتَّى قَتِلَ شَهِيداً ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَهُوَ أَمِيرٌ نَفْسِهِ ، » ثم رفع رسول الله ﷺ يديه فقال : « اللَّهُمَّ ! هُوَ سَيْفٌ مِّنْ سَيُوفِكَ فَأَنْصُرْهُ » . فن يومئذ سمي خالد سيف الله . وفي رواية أنه قال : « ثُمَّ أَخَذَهَا » - أي الراية - « خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ فَفَتِحَ لَهُ » .

ثم قال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ رَفِعُوا إِلَيَّ فِي الْجَنَّةِ فِيمَا بَرَى النَّاسُ عَلَى سُرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَرَأَيْتُ فِي سُرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ أُرْوِرَاراً عَنْ سُرِيرِي صَاحِبِيهِ ، فَقُلْتُ : عَمَّ هَذَا ؟ فَقِيلَ لِي : مَضِيهَا وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْضَ التَّرَدُّدِ ، ثُمَّ مَضَى » (٥) .

وفي رواية عن ابن المُسَيَّب قال : قال النبي ﷺ : « مَثَلُوا لِي فِي الْجَنَّةِ فِي خَيْمَةٍ مِنْ ذَرَّةٍ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سُرِيرٍ ، فَرَأَيْتُ زَيْدًا وَابْنَ رَوَاحَةَ فِي أَعْنَاقِهِمَا صَنْوَدًا ، فَسَأَلْتُ أَوْ قِيلَ لِي : إِنَّهُمَا حِينَ غَشِيَهُمَا الْمَوْتُ كَانَتْهُمَا أَعْرَاضًا أَوْ كَانَتْهُمَا صَدًا يُوْجُوهُمَا ، وَأَمَّا جَعْفَرٌ فَإِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ » . قال ابن عيينة : فذاك حين يقول ابن رواحة :

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٥/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٠/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٧/٤) ، وجمع الزوائد (ج ١٦٠/٦) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٩/٣) .

(٣) صحيح البخاري (ج ١٨٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة من أرض الشام .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٤٧/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٧٢/٢) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٣٥/٣ ، ٤٣٦) ، وصحيح البخاري (ج ٢١/٤) كتاب الجهاد والسير - باب تمني الشهادة ، و (ج ١٨٢/٥) كتاب للمغازي -

باب غزوة مؤتة .. ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٠١/٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٩/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٧/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٦٧/٣) .

أقسمت بـانفس لتَنزِلنّه بطاعة منك أو لتُكْرهنّه
فطالما قد كنت مطمئنّه

وقال جعفر : ما أطيب ريح الجنة (١) .

وفي رواية عند البيهقي أنه عليه السلام قال : « دَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الْجَنَّةَ مُعْتَرِضاً ، فقيل : يا رسول الله ! ما اعتراضه ؟ قال :
« لَمَّا أَصَابَتْهُ الْجِرَاحَةُ نَكَلَ (٢) ، فَعَاتَبَ نَفْسَهُ فَتَشَجَّعَ فَاسْتَشْهَدَ (٣) » .

وروى البيهقي بسنده عن موسى بن عقبة أن يعلى بن مَنبَةَ ، رضي الله عنه ، قدم على رسول الله عليه السلام بخبر مؤتة (٤) ، فقال له
رسول الله عليه السلام : « إِنَّ شِئْتَ فَأَخْبِرْنِي ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَخْبِرْتِكَ » ، قال : أخبرني يا رسول الله لأزداد يقيناً ، فأخبره رسول الله عليه السلام خبرهم
كله ، فقال : والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً لم تذكره ، وإن أمرهم كما ذكرت ، فقال رسول الله عليه السلام : « إِنَّ اللَّهَ ،
تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، رَفَعَ لِي الْأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مُعْتَرِكَهُمْ (٥) » .

مواصلة رسول الله عليه السلام لآل جعفر رضي الله عنهم :

قالت أسماء بنت عميس رضي الله عنها : لما أصيب جعفر وأصحابه دخل عليّ رسول الله عليه السلام وقد دبغت أربعين مَنبِئَةً (٦) ،
وعجنت عجيني ، وغسلت بَيَّ ودهنتهم ونظفتمهم ، فقال : « أَتَيْتَنِي بِبَنِي جَعْفَرٍ » ، قالت : فأتيته بهم ، فشمتمهم ومسح على رؤوسهم
وذرفت عيناه حتى قطرت لحيته الشريفة ، فقلت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي ما يبكيك أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال :
« أَصِيبُوا هَذَا الْيَوْمَ » .

ويروى أنه لما دخل النبي عليه السلام على أسماء رضي الله عنها ، وضع عبد الله ومحمد ابني جعفر على فخذه ، ثم قال : « إِنَّ جِبْرِيلَ
أَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ اسْتَشْهَدَ جَعْفَرًا ، وَأَنَّ لَهُ جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهِمَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْجَنَّةِ » ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! إِنَّ جَعْفَرًا قَدْ قَدِمَ إِلَيْكَ إِلَى
أَحْسَنِ الثَّوَابِ ، فَاخْلُفْهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ - أَوْ قَالَ : فِي أَهْلِهِ - بِأَحْسَنِ ، أَوْ بِخَيْرٍ ، مَا خَلَفْتَ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ فِي ذُرِّيَّتِهِ - أَوْ فِي
أَهْلِهِ - » .

قالت أسماء : فقممت أصحيح ، واجتمع إليّ النساء ، فجعل رسول الله عليه السلام يقول : « يَا أَسْمَاءُ ! لَا تَقُولِي هَجْرًا (٧) ، وَلَا تَضْرِبِي
صَدْرًا » ، ثم دخل رسول الله عليه السلام على ابنته فاطمة ، رضي الله عنها ، وهي تقول : واعماه ! فقال : « عَلَى مِثْلِ جَعْفَرٍ فَلْتَبْكِي
الْبَاكِئَةَ » ، ثم خرج رسول الله عليه السلام إلى أهله (٨) .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : لما جاء قتل ابن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، رضي الله
عنهم ، جلس رسول الله عليه السلام يُعْرِفُ فِيهِ الْحُزْنَ ، قالت عائشة : وأنا أطلع من صائر الباب - تعني من شقّ الباب - فأتاه رجل فقال :
أي رسول الله ! إن نساء جعفر ، قال : وذكر بكاءهنّ ، فأمره أن ينهاهنّ ، قال : فذهب الرجل ، ثم أتى فقال : قد نهيتهنّ وذكر أنه لم

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٦٠/٦) وقال : رواه الطبراني وفيه علي بن زيد وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح ، إلا أنه مرسل .

(٢) نَكَلَ عَنِ الْأَمْرِ : جَبَنَ وَنَكَصَ (الوسيط : ج ٩٦٢/٢) .

(٣) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٦٩/٤) .

(٤) هو يَعْلَى بن مَنبَةَ ، وأمه مَنبَةُ وبها اشتهر وبأبيه معاً ، وهي أيضاً أمّ العوام والدة الزبير رضي الله عنه . انظر : (شرح الزرقاني على المواهب :
ج ٢٧٦/٢) . ويروى أن أبا عامر هو الذي أخبر النبي عليه السلام بمصاب القوم ، ولا مانع من أن كلاً منهما أخبره . انظر طبقات ابن سعد (ج ١٣٠/٢) .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٦٥/٤) .

(٦) الْمَنبِئَةُ : الْجِلْدُ أَوَّلُ مَا يَدْبَغُ (الوسيط : ج ٨٩٥/٢) .

(٧) أَي فُحْشًا . انظر : (النهاية : ج ٢٤٦/٥) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٣٦/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٩٤/٢) ، و (ج ٢٨٢/٨) ، ودلائل البيهقي (ج ٣٧١/٤) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٧٢/٩) .

يَطْبَعُهُ ، قال : فأمر أيضاً فذهب ، ثم أتى فقال : والله لقد غلبنا ، فرمعت أن رسول الله ﷺ قال : « فَاخْتُ فِي أَفْوَهِنَّ مِنَ التُّرَابِ » ، قالت عائشة : فقلت : أرغم الله أنفك ، فوالله ما أنت تفعل ، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء^(١) .

وفي لفظ : قالت عائشة : وربما ضرّ التكلف أهله ، وقلت في نفسي : أبعذك الله ، والله ما تركت نفسك ، وما أنت بطبع رسول الله ﷺ ، قالت : وعرفت أنه لا يقدر على أن يحثي في أفواههنّ التراب^(٢) .

وقد كان رسول الله ﷺ حين رجع إلى أهله قال لهم : « لَا تَنْفُلُوا آلَ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَاماً ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ شَغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ » . فعمدت سلمي خادمته إلى شعير فطحنته ونسفته ، ثم طبخته وأدمته^(٣) بزيت وجعلت عليه فلفلًا ، قال عبد الله بن جعفر رضي الله عنها : فتغديت أنا وأخي معه ، فأقمنا ثلاثة أيام في بيته ندور معه كما صار في بيت إحدى نسائه ، ثم رجعنا إلى بيتنا ، فأتانا رسول الله ﷺ فقال : « لَا تَبْكُوا عَلَيَّ أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ » - وكان عليه الصلاة والسلام أمهلهم ثلاثاً - ثم قال : « إِلَيَّ ابْنِي أَخِي » ، قال عبد الله : فجيء بنا كأننا أفرخ ، فدعا الحلاق فحلق رؤوسنا ، ثم قال : « أُمَّا مُحَمَّدًا فَشَبِيهَ عَمَّنَا أَبِي طَالِبٍ ، وَأُمَّا عَبْدَ اللَّهِ فَشَبِيهَ خَلْقِي وَخَلْقِي » ثم أخذ بيدي فأشأها^(٤) وقال : « اللَّهُمَّ ! اخْلَفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفَقَةِ يَمِينِهِ » قالها ثلاث مرات - فكان عبد الله بعد يقول : فما بعث شيئاً ولا اشتريت شيئاً إلا بورك لي فيه - قال : ثم جاءت أمتنا فذكرت له بيتنا ، وجعلت تُفْرِحُ له^(٥) ، فقال : « الْعَيْلَةُ^(٦) تَخَافِينَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا وَلِيَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؟ »^(٧) .

تلقي أهل المدينة جيش مؤتة :

ولما دنا الجيش من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون بالجُزْف ، ولقيهم الصبيان يشدون ، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة ، فقال : « خَدُّوا الصَّبِيَّانَ فَاحْمِلُوهُم وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرٍ » ، فأتي بعبد الله ، فأخذه وحمله بين يديه ، وقال له تسليمة وإسلاماً بتمام أبيه : « هَتَيْتَا لَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ ، أَبُوكَ يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ » . فكان عبد الله بن عمر ، رضي الله عنها ، إذا سلم على ابن جعفر قال : السلام عليك يا ابن ذي الجناحين .

وفي هذه الغزوة فرّت طائفة من الجيش إلى المدينة لما رأوا من كثرة جموع الروم ، فجعل الناس يحثون عليهم التراب ويقولون : يا فَرَارَ ! فررت في سبيل الله ، ورسول الله ﷺ يقول لهم : « لَيْسُوا بِالْفَرَارِ ، وَلِكِنَّهُمْ الْكُرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى »^(٨) .

روي عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنها ، أنه كان في سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، قال : فحاص الناس حَيْصَةَ^(٩) ، فكنت فيهن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا : كيف نضع ، وقد فررنا من الزحف ، وَوَبُّنَا بِالْغَضَبِ ؟ فقلنا : ندخل المدينة ، فنتثبت فيها ، ونذهب ، ولا يرانا أحد ، قال : فدخلنا ، فقلنا : لوعرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة أقننا ، وإن كان غير

(١) صحيح البخاري (ج ١٨٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة مؤتة من أرض الشام .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٣٦/٣) .

(٣) أَدَمَّتُهُ : خَلَطَتْهُ (النهاية : ج ٣١/١) .

(٤) أَشَأَلَ : رَفَعَ (لسان العرب : ج ٢٣٦٢/٣) .

(٥) تُفْرِحُ لَهُ : مِنْ أَفْرَحِهِ ؛ إِذَا عَمَّهُ وَأَزَالَ عَنَهُ الْفَرَحَ . قال ابن الأثير : كأنها أرادت أن أباهم توفّي ولا عشيرة لهم ، فقال النبي ﷺ : « أَتَخَافِينَ الْعَيْلَةَ وَأَنَا وَلِيَّهُمْ » . (النهاية : ج ٤٢٤/٣) .

(٦) الْعَيْلَةُ : الْفَاقَةُ (لسان العرب : ج ٣١٩٤/٤) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٣٦/٣) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٠٤/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٧١/٤) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤٢٨/٣) ، وصحيح البخاري (ج ٢٥٠/٥) كتاب المناقب - باب مناقب جعفر بن أبي طالب ، وطبقات ابن سعد

(ج ١٢٩/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٢٧٢/٩) ، والبداية والنهاية (ج ٢٤٨/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٧٠/٣) .

(٩) حَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً : جَالُوا جَوْلَةً يَطْلُبُونَ الْفِرَارَ (النهاية : ج ٤٦٨/١) .

ذلك ذهبنا ، قال : فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر ، فلما خرج قننا إليه ، فقلنا : نحن الفرّارون ، فأقبل إلينا ، فقال : « لا ، بل أنتم العكّارون »^(١) ، قال : فدنونا فقبلنا يده ، فقال : « أنا فئة المسلمين »^(٢) .

وقد لقي هؤلاء من أهل المدينة شراً ، حتى إن نفرأ منهم جلسوا في بيوتهم استحياء ، كلما خرج واحد منهم صاحوا به ، فعن أم سلمة ، رضي الله عنها ، أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن العاص : مالي لأرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ؟ قالت : والله ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرّار فررت في سبيل الله ، حتى قعد في بيته فما يخرج^(٣) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : لقد كان بيني وبين ابن عمّ لي كلام ، فقال : إلا فرارك يوم مؤتة ، فما ذريت أي شيء أقول له^(٤) .

ما غنمه المسلمون يوم مؤتة :

قال عوف بن مالك الأشجعي : قتل رجل من حمير رجلاً من العدو فأراد سلبه ، فغنه خالد بن الوليد ، وكان والياً عليهم ، فأتى رسول الله ﷺ عوف بن مالك ، فأخبره ، فقال لخالد : « ما منعك أن تعطية سلبه ؟ » قال : استكثرته يا رسول الله ! قال : « اذفعه إليه » . وكان عوف كلف خالداً في دفع السلب لذلك الرجل قبيل أن يقدموا على رسول الله ﷺ فأبى ، فلما مرّ خالد به جرّ بردائه ، ثم قال : هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله ﷺ ؟ فسمعه رسول الله ﷺ فاستغضب ، فقال : « لا تعطيه يا خالد ، لا تعطيه يا خالد ! هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً أو غنماً فرعاها ، ثم تحين سقيها ، فأوردها حوضاً فشربت فيه ، فشربت صفوه وتركت كذرة ، فصفوه لكم وكذرة عليهم »^(٥) .^(٦)

وعن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنها ، قال : أصيب بها - يعني في غزوة مؤتة - ناس من المسلمين ، وغنم المسلمون بعض أمتعة المشركين ، فكان مما غنموا خاتم جاء به رجل إلى رسول الله ﷺ ، قال : قتلت صاحبه يومئذ ، فنقله رسول الله ﷺ إياه^(٧) .

وعن خزيمه بن ثابت ، رضي الله عنه ، قال : حضرت مؤتة فبارزني رجل منهم يومئذ ، فأصبتة وعليه بيضة له فيها ياقوتة ، فلم يكن همّي إلا الياقوتة ، فأخذتها ، فلما رجعت إلى المدينة أتيت رسول الله ﷺ بها فنقلنيها ، فبعتها زمن عثمان ، رضي الله عنه ، بمائة دينار ، فاشترت بها حديقة^(٨) .



(١) العكّارون : الكرّارون إلى الحرب . والعطّافون نحوها ، يقال للرجل يؤلّي عن الحرب ثمّ يكرّر راجعاً إليها : عكّر واغتكّر (النهاية : ج ٢٨٢/٣) .

(٢) سنن أبي داود (ج ١٠٧٣) كتاب الجهاد - باب في التولي يوم الزحف ح ٢٦٤٧ .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ٤٣٧/٢) .

(٤) المستدرک (ج ٤٢/٣) .

(٥) معنى الحديث أن الرعية يأخذون صفوة الأمور فتصلهم أعطياتهم بغير نكد ، وتبتلى الولاة بمقاساة الأمور وجمع الأموال وصرفها ، وحفظ الرعية والذنب عنهم وإنصاف بعضهم من بعض ، ثم متى وقع عتب في بعض ذلك توجه على الولاة دون الناس . انظر : (صحيح مسلم بشرح النووي : ج ٦٥/١٢) .

(٦) انظر : صحيح مسلم (ج ١٣٧٢/٣ ، ١٣٧٤) كتاب الجهاد والسير - باب استحقاق القاتل سلب القتيل ح ٤٣ و ٤٤ .

(٧) السنن الكبرى للبيهقي (ج ٣٠٨/٦) .

(٨) السنن الكبرى للبيهقي (ج ٣٠٩/٦) .

سريّة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى ذات السلاسل^(١) :

وكان سببها ما بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاة ، وهم بليّ وعذرة وبنو القين ، قد تجمعوا يريدون الإغارة على أطراف المدينة ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، فبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ثمان للهجرة . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

وقيل : بل أراد رسول الله ﷺ بعد غزوة مؤتة أن يستألف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام ، حتى لا تتجمع مثل تلك الجموع الكبيرة من أحرى مع الروم ضد المسلمين ، واختار لهذا الأمر عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، لأن أم أبيه العاص بن وائل كانت امرأة من بليّ . ويمكن أن يكون السببان اجتماعاً معاً .

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : بعث إليّ رسول الله ﷺ فأتيته ، فأمرني أن آخذ عليّ ثيابي وسلاحي ثم آتية ، قال : ففعلت ، ثم أتيت وهو يتوضأ فصعد في البصر ثم طأطأ ، ثم قال : « يا عمّرو ! إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك ، وأرغب لك رغبةً صالحةً من المال » ، قال : فقلت : يا رسول الله ! إني لم أسلم رغبة في المال ، ولكنني أسلمت رغبة في الإسلام ، وأن أكون مع رسول الله ﷺ ، فقال : « يا عمّرو ! نعماً بالمال الصالح للرجل الصالح » .

ثم عقد له رسول الله ﷺ لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرساً ، وأمره أن يستعين بمن يمر به ، فسار الليل وكمن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً ، فبعث رافع بن مكيت الجهنّي ، رضي الله عنه ، إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح ، رضي الله عنه ، في مائتين من المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، وأمره أن يلحق بعمرو ، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا .

فخرج أبو عبيدة فلحق بعمرو ، فأراد أبو عبيدة أن يؤمّ الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت عليّ مدداً وأنا الأمير ، قال أبو عبيدة : لا ، ولكنني عليّ ما أنا عليه ، وأنت عليّ ما أنت عليه ، فقال له عمرو : بل أنت مدد لي - وفي رواية : قال المهاجرون : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين ، فقال عمرو : إنما أنتم مدد لنا - فلما رأى ذلك أبو عبيدة ، وكان رجلاً حسن الخلق لين العريكة ، سهلاً ، هيناً عليه أمر الدنيا ، قال : لتعلم يا عمرو ! أن آخر شيء عهد إليّ رسول الله ﷺ أن قال : « إن قدمت على صاحبك فتطأوا عا ولا تختلفا » ، وإنك إن عصيتني لأطعنك ، قال عمرو : فيأني الأمير عليك وأنت مدد لي ، قال : فدونك ، فكان عمرو يصلي بالناس .

وسار حتى وطىء بلاد بليّ ودوّخها^(٢) ، حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وتلقين ، ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير ، فاقتتلوا ساعة وتراموا بالنبل ، ثم حمل المسلمون عليهم ، فهربوا وتفرقوا في البلاد .

وأقام عمرو هناك أياماً ، وكان يبعث الخيل ، فيأتون بالشاء والنعم ، فينحرون ويأكلون ، ولم يكن في ذلك غنائم تقسم . وقيل : بل قتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة وغنوا .

وفي هذه السريّة أمر عمرو بن العاص الناس أن لا يوقدوا ناراً ، فغضب عمر بن الخطاب وهمّ أن ينال منه ، فنهاه أبو بكر وقال له : دعه ، فإن رسول الله ﷺ لم يستعمله علينا إلا لعلمه بالحرب^(٣) ، فهذا عنه .

(١) ذات السلاسل : أرض تقع وراء وادي القرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام ، بها ماء يقال له السلاسل أو السلاسل . قيل : سمي المكان بها لأنه كان به زمّل بعضه على بعض كالتسليّة ، وقيل : لأنّ المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفرّوا . وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، نزل على ماء بأرض جنّام يقال له السلسل فسُميت السريّة به . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٧/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣١/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ١٩٠/٣) .

(٢) دَوّخ الرّجل : ذلك (لسان العرب : ج ١٤٤٩/٢) .

(٣) وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إني لأؤمّر الرّجل على القوم ، فيهم من هو خير مني ، لأنه أيقظ عينا وأبصر بالحرب » . انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٠٠/٤) :

وروي أن الناس سألوا عمراً أن يوقدوا ناراً ، فنعمهم ثلاثاً ، فشقّ عليهم ذلك لما هم فيه من شدة البرد ، فكلّموا أبا بكر ، فاتاه ليكلّمه في ذلك ، فقال عمرو : قد أرسلوك إليّ ، لا يوقد أحد ناراً إلا ألقىته فيها ، ثم إنهم لقوا العدو فهزموهم ، فأرادوا أن يتبعوهم ، فنههم .

فلما قفلوا راجعين إلى المدينة احتلم عمرو بن العاص في ليلة باردة كأشد ما يكون من البرد ، فقال لأصحابه : ماترون ؟ قد والله احتلمت ؛ فإن اغتسلت متّ ، فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ وضوءه للصلاة - وفي رواية : وتيمم - ثم قام فصلى بهم . ثم بعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله ﷺ يبشّره بانتصاره وأنه عزز نفوذ المسلمين على تخوم الشام ، ويخبره بقبول الجيش وسلامته .

وقد كان عوف بن مالك لقي قوماً يريدون أن ينحروا جزوراً لهم ، فقال لهم : أتعطونني منها عشيراً على أن أغرها لكم وأقسها بينكم ؟ وكان امرءاً لبقاً جازراً ، فقالوا : نعم ، ففعل ، وأعطوه منها جزءاً فحملة إلى أصحابه ، فطبخوه وأكلوه ، فسأله أبو بكر وعمرو رضي الله عنهما : أتى لك هذا اللحم يا عوف ؟ فلما أخبرها خبره ، قال : والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا ، ثم قاما يتقيان ما في بطونهما من ذلك - وفي رواية أنه أتى عمر بن الخطاب فسأله من أين هو ؟ فأخبره ، فقال : قد تعجّلت أجرك وأبى أن يأكله ، ثم أتى أبا عبيدة فأخبره ، فقال له مثلها ، وأبى أن يأكله ، فلما رأى ذلك عوف تركه .

قال عوف : فقدمت على رسول الله ﷺ في السحر وهو يصلي في بيته ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال : « أعوف بن مالك ؟ » قلت : نعم بأبي أنت وأمي ، فقال : « أصاحب الجزور ؟ » قلت : نعم ، ولم يزدني رسول الله ﷺ على هذا بعد ذلك شيئاً ، ولم يرد عليّ السلام ، ثم قال : « أخبرني » فأخبرته بما كان في مسيرنا ، وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وبين عمرو ومطاوعة أبي عبيدة ، فقال رسول الله ﷺ : « يزحّم الله أبا عبيدة بن الجراح » ، ثم أخبرته أن عمراً صلى بالناس وهو جنب ، فأسكت رسول الله ﷺ .

فلما قدم عمرو بن العاص على رسول الله ﷺ والمسلمون معه سألهم : « كيف وجدتم عمراً ؟ » فأثنوا عليه خيراً ، ثم شكوا إليه منع عمرو لهم من اتباع العدو وإيقاد النيران ، ومن صلاته بهم وهو جنب . فسأله رسول الله ﷺ ، فقال عمرو : نهيتهم أن يوقدوا ناراً خشية أن يرى العدو قتلهم ، وكرهت أن يطلبوا العدو ، فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم . فحمد رسول الله ﷺ أمره .

قال عمرو : وسألني عن صلاتي ، فقال : « يا عمرو ! صلّيت بأصحابك وأنت جنب ؟ » فقلت : والذي بعثك بالحق لو اغتسلت لمّت ، لم أجد برداً قطرة مثله ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (١) ، فضحك رسول الله ﷺ إلى عمرو ولم يقل له شيئاً .

وقد حدّثت عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، نفسه أن رسول الله ﷺ لم يبعثه على قوم فيهم أبو بكر وعمر إلا لمنزلة له عنده ، قال عمرو : فأتيته حتى قعدت بين يديه ، فقلت : يا رسول الله ! أي الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة » ، فقلت : من الرجال ؟ - وفي لفظ : إني لست أسألك عن أهلك - قال : « أبوها » ، فقلت : ثم من ؟ قال : « عمر » ، فعُدّ رجالاً ، قال عمرو : فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم ، وقلت في نفسي : لا أعود أسأل عن هذا (٢) .

- وفي هذه السرية صحب رافع بن أبي رافع الطائيّ أبا بكر ، رضي الله عنه ، قال رافع يحدث عن نفسه : كنت امرءاً نصرانياً ، وسبّيت سرّيس ، فكنت أدلّ الناس وأهداه هذا الرمل ، وكنت أدفن الماء في بيض النعام بنواحي الرمل في الجاهلية ، ثم أغير على إبل الناس ، فإذا أدخلتها الرمل غلبت عليها ، فلم يستطع أحد أن يطلبني فيه ، حتى أمرّ بذلك الماء الذي خبّأت في بيض النعام فأستخرجه

(١) النساء : ٢٩ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٨/٤ - ٣٠٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٨/٤ - ٤٠٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٧٧/٢) ، ومصحيح البخاري (ج ٢٠٩/٥) كتاب المغازي - غزوة ذات السلاسل ، والمستدرک (ج ١٧٧/١) و (ج ٢٢/٢) و (ج ٤٢/٣) ، وجمع الزوائد (ج ٢١٩/٥) و (ج ٣٥٢/٩) ، وسنن الترمذي (ج ٧٠٦/٥) كتاب المناقب - باب فضل عائشة رضي الله عنها ح ٢٨٨٥ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٢٠/٦) .

وإل - فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال : يا رسول الله ! اكتب بيننا وبين بني تميم بالدهناء^(١) أن لا يجاوزها إلينا منهم أحد إلا مسافر أو مجاور ، فقال : « اكتب لَه يا غلام بالدهناء » ، فلما رأيته قد أمر له بها شخص بي^(٢) وهي وطني وداري ، فقلت : يا رسول الله ! إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هي هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ومرعى الغنم ، ونساء بني تميم وأبناؤها وراء ذلك ، فقال : « أمسك يا غلام ، صدقت المسكينة ، المسلم أخو المسلم يسعها الماء والشجر ، ويتعاونان على الفتان^(٣) »^(٤) .

وقد كان رسول الله ﷺ كتب إلى بكر بن وائل مع ظبيان بن مرثد السدوسي فلم يجدوا له كاتباً يقرؤه عليهم ، حتى قرأه رجل من بني ضبيعة : « من رسول الله ﷺ إلى بكر بن وائل أن أسلموا تسلموا »^(٥) .

أما وفد شيبان فكان فيهم قبيلة بنت مخزومة^(٦) التي تقدمت الرواية عنها آنفاً ، وحزمنة بن عبد الله ، وعلي بن شيبان .

روي عن صفية بنت عليبة ودحيبة بنت عليبة أن حزملة خرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، وكان عنده حتى عرفه رسول الله ﷺ ثم ارتحل ، قال : فلمت نفسي فقلت : والله لا أذهب حتى أزداد من العلم عند رسول الله ﷺ ، فأقبلت حتى قت فقلت : يا رسول الله ! مات أمرني أعمل ؟ فقال : « يا حزملة ! أنت المعروف واجتنب المنكر » ، وانصرفت حتى أتيت راحلتي ، ثم رجعت حتى قت مقامي أو قريباً منه ، ثم قلت : يا رسول الله ! مات أمرني أعمل ؟ فقال : « يا حزملة ! أنت المعروف واجتنب المنكر ، وأنظر الذي تحب أدنك إذا قمت من عند القوم أن يقولوا لك فأتبه ، والذي تكره أن يقولوا لك إذا قمت من عندهم فاجتنبه »^(٧) .

وعن علي بن شيبان قال : صلينا خلف رسول الله ﷺ ، فلمح بمؤخر عينه إلى رجل لا يقيم صلبه في الركوع والسجود ، فلما قضى صلاته قال : « يا معشر المسلمين ! لا صلاة لأمرىء لا يقيم صلبه في الركوع والسجود »^(٨)

☆ ☆ ☆

سرية أبي عبيدة رضي الله عنه إلى سيف البحر :

بعث رسول الله ﷺ في شهر رجب سنة ثمان للهجرة^(٩) أبا عبيدة بن الجراح ، رضي الله عنه ، في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار ، وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ليلقي عبراً لقريش . ويقال : لمحاربة حي من جهينة بالقبليّة مما يلي ساحل البحر ، وبينها وبين المدينة خمس ليال . وزودهم رسول الله ﷺ جراباً من تمر ، لم يجد لهم غيره ، فجعل أبو عبيدة ، رضي الله عنه ، يقوتهم ليلياً ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان مزود ي تمر ، فكان يقوتهم كل يوم قليل قليل ، إلى أن صار يعدّه عليهم عدداً حتى نفذ ، فلم يكن يعطي كل رجل منهم إلا ثمرة ثمرة ، فكانوا يمتصونها كما يمتص الصبي ، ثم يشربون عليها الماء فتكفيهم يومهم إلى الليل .

- (١) الدهناء : منزل بطريق مكة من البصرة ، أو هي سبعة أجبل من الرمل (معجم البلدان : ج ١١٥/٤) .
- (٢) يقال : شخص به ؛ أي : أتى إليه أمر ثقيل (لسان العرب : ج ٢٢١٢/٣) .
- (٣) الفتان : يروى بضم الفاء وفتحها ، فالضم جمع فاتين ؛ أي : يعاين أخذها الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق ويفتنونهم . وبالفتح هو الشيطان لأنه يفتن الناس عن الدين (النهاية : ج ٤١٠/٣) .
- (٤) سنن أبي داود (ج ٤٥١٣) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب في إقطاع الأرضين ح ٣٠٧٠ .
- (٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٦٨/٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨١/١) .
- (٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣١٧/١) .
- (٧) طبقات ابن سعد (ج ٢٢٠/١) .
- (٨) طبقات ابن سعد (ج ٥٥١/٥) .
- (٩) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣٢/٢) ، والسيرة الدحلانية على هامش السيرة الحلبية (ج ٢٣٢/٢) . ورجح بعضهم أنها كانت قبل هدنة الحديبية ، لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد الهدنة . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٨٠/٢ - ٢٨١) .

سئل جابر ، رضي الله عنه ، وكان في السرية : ما تغني عنكم تمرة ؟ فقال : لقد وجدنا فقدها حين فنيت .

ثم أكلوا الخَبْطَ^(١) حين فنيت أزوادهم ، فكانوا يضربون الخَبْطَ بعصيهم ، ثم يبلونه بالماء ، فيأكلونه حتى تقرحت أشداقهم . قال جابر بن عبد الله رضي الله عنها : أقننا بالساحل نصف شهر ، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخَبْطَ ، فسُمِّي ذلك الجيش جيش الخَبْطَ^(٢) . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

ولما رأى قيس بن سعد بن عبادة ، رضي الله عنها ، ما بالمسامين من الجهد ، قال : من يشتري مني تمرأ بالمدينة بجُزْر هنا ، فقال له رجل من جهينة : من أنت ؟ قال : أنا ابن سعد بن عبادة بن ذئيب ، فقال الجُهني : ما عرفني بنسبك ، إن بيني وبين سعد خَلَّة ، فابتاع منه خمس جزائر ، كل جَزور يوسق من تمر ، وأشهد له نفرأ من الصحابة ، وامتنع عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وقال : ما أشهد ، هذا يدين ولا مال له ، وإنما المال لأبيه ، فقال الجهني : والله ما كان سعد ليخني^(٣) بابه ، وأرى وجهأ حسناً وفعلاً شريفاً . فكان بين قيس وعمر كلام حتى أغلظ له قيس الكلام ، وأخذ قيس الجُزْر ، فنحر لهم ثلاثة ؛ كل يوم جزوراً ، فلما كان اليوم الرابع نهاء أميره وقال له : عزمت عليك أن لا تنحر ، أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟ فقال له قيس : يا أبا عبيدة ! أتري أبا ثابت يقضي ديون الناس ، ويحمل الكَلَّ^(٤) ، ويطعم في المجاعة ، لا يقضي عني سقَّة^(٥) من تمر لقوم مجاهدين في سبيل الله ؟ فكاد أبو عبيدة يلين له ، وجعل عمر يقول : اعزم ، فعزم عليه ، فبقيت جزوران ، فقدم بها قيس المدينة ظهراً يتعاقبون عليها ، وبلغ سعدأ ما أصاب القوم من المجاعة فقال : إن يك قيس كما أعرف فسينحر للقوم . وفي صحيح البخاري أن قيسأ ، رضي الله عنه ، نحر لهم تسع جزائر ؛ كل يوم ثلاثاً ، ثم نهاء أبو عبيدة رضي الله عنه^(٦) .

ثم إن الله سبحانه أخرج لهم دابة هائلة من البحر ، يقال لها العنبر ، وفي لفظ : فإذا حوت مثل الظرب^(٧) ، وفي رواية عن جابر : فرفع لنا على ساحل البحر كهية الكتيب الضخم ، فأتيناه ، فإذا هي دابة تدعى العنبر ، فقال أبو عبيدة : مئمة ، ثم قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله ﷺ ، وفي سبيل الله ، وقد اضطررتم فكلوا .

فأقاموا عليه شهراً أو ثمان عشرة ليلة يأكلون منه حتى سمنوا وصحت أجسامهم ، قال جابر : ولقد رأيتنا نغترف من وُقْب^(٨) عينيه الدهن بالليل ، ونقتطع منه الفدر^(٩) كقندر الثور ، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وُقْب عينه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فنصبه ، ثم أمر بأجسم بعير فحمل عليه أطول رجل منا ، فر من تحته وما مست رأسه ، وتزودنا من لحمه وشائق^(١٠) .

ثم انصرفوا إلى المدينة ولم يلقوا كيداً ، فلما أتوا رسول الله ﷺ ذكروا ذلك له ، فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء فقطعمونا ؟ » قال جابر : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله .

(١) الخَبْطُ : ما سقط من ورق الشجر بالخبط والنفض . انظر : (النهاية : ج ٧/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٠٩/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢١٠/٥ ، ٢١١) كتاب المغازي - باب غزوة سيف البحر ، وصحيح مسلم (ج ١٥٣٥/٣) ، (١٥٣٧) كتاب الصيد والذبائح - باب إباحة ميتات البحر ١٧ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٢/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٧٢/٣) .

(٣) يخني : أي : يخفر ذمته ويُسَلِّمُهُ (النهاية : ج ٨٦/٢) .

(٤) الكَلُّ : الثقل من كل ما يتكلف ، والكَلُّ : العيال . وقد تقدم .

(٥) السقَّة : جمع وسق وهو ستون صاعاً عند أهل الحجاز (النهاية : ج ١٨٥/٥) .

(٦) انظر : عيون الأثر (ج ١٥٩/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢١١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة سيف البحر . ويمكن الجمع بين الخبرين بأن قيسأ نحر أولاً سبأ مما معه من الظهر ، ثم اشترى خمساً نحر منها ثلاثاً ، فانتصر من قال ثلاثاً على ما نحره مما اشتراه ، ومن قال تسعاً ذكر جملة ما نحره . انظر : شرح الزرقاني على الواهب (ج ٢٨٢/٢ - ٢٨٣) .

(٧) الظرب : الجبل الصغير . انظر : (النهاية : ج ١٥٦/٣) .

(٨) الوُقْب : النقرة التي تكون فيها العين (النهاية : ج ٢١٢/٥) .

(٩) الفدر : جمع فدرية : وهي القطعة من كل شيء انظر : (النهاية : ج ٤٢٠/٣) .

(١٠) الوشائق : جمع وشيقة ، والوشيقة : أن يؤخذ اللحم فيغلى قليلاً ولا ينضج ويحتمل في الأسفار ، وقيل : هي القدي (النهاية : ج ١٨٨/٥) .

ولما قدم قيس ولقيه سعد قال له : ما صنعت في مجاعة القوم ؟ قال : نخرت ، قال : أصبت ، قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم نخرت ، قال : أصبت ، قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم نُهيت ، قال : ومن نَهَكَ ؟ قال : أبو عبيدة أميري ، قال : ولم ؟ قال : زعم أنه لامال لي ، وإنما المال لأبيك ، فقلت : أبي يقضي عن الأباعد ، ويحمل الكَلَّ ، ويطعم في المجاعة ، ولا يصنع هنا بي ؟ قال : فلك أربع حوائط ؛ أدناها حائط تَجْدُ (١) منه خمسين وسقاً . وقدم الجهني مع قيس ، فأوفاه وسقه وحمله وكساه . فبلغ النبي ﷺ فعل قيس ، فقال : « إِنَّهُ فِي قَلْبِ جُودٍ » أو قال : « إِنَّ الْجُودَ مِنْ شِيْمَةِ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ » (٢) .

سرية أبي قتادة رضي الله عنه إلى خَضِرَةَ :

بعث رسول الله ﷺ في شعبان سنة ثمان للهجرة أبا قتادة الحارث بن رُبَيْعٍ ، رضي الله عنه ، في خمسة عشر رجلاً إلى خَضِرَةَ ، وهي أرض مُحَارِبٍ بنجد ، وذلك لأن عَطْفَانَ كانوا يتحشدون هناك ، وأمره أن يشنَّ عليهم الغارة ، فسار الليل وكمن النهار ، فهجم على حاضر منهم عظيم ، فأحاط به ، وقتل منهم رجال ، وقتلوا مَنْ أشرف لهم ، واستاقوا النعم ، فكانت الإبل مائتي بعير والغنم ألفي شاة ، وسبوا سبياً كثيراً ، فنقلهم أميرهم بعيراً لكل رجل ، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فقسم بينهم غنيمتهم بعد إخراج الخمس ، فأصاب كل رجل منهم اثنا عشر بعيراً ، وعدل البعير بعشر من الغنم . وغابوا في هذه السرية خمس عشرة ليلة . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

وكان في السبي جارية وضيئة وقعت في سهم أبي قتادة ، فجاء مَحْمِيَةَ بن جَزْء فقال : يا رسول الله ! إن أبا قتادة قد أصاب في وجهه هذا جارية ، وقد كنت وعدتني جارية من أول فيء يفيء الله عليك ، فأرسل رسول الله ﷺ فاستوهبه الجارية ، فوهبها له ، فدفعها رسول الله ﷺ لمحمية بن جَزْء (٣) .

سرية عبد الله بن أبي حَدَرْدٍ رضي الله عنه إلى الغابة :

وكان سببها أن رجلاً من بني جُشَمٍ يقال له رِفَاعَةُ بن قيس أو قيس بن رِفَاعَةَ قد نزل في جمع عظيم من قومه بالغابة يريد أن يجمع قيساً على حرب رسول الله ﷺ ، وكان ذا اسم في قومه وشرف . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره بعث عبد الله بن أبي حَدَرْدٍ الأسلمي ، رضي الله عنه ، إليه .

وكان عبد الله قد طلب من رسول الله ﷺ أن يعينه في مهر زوجته ، فسأله رسول الله ﷺ : « وَكَمْ أُصِدِّقْتَ ؟ » فقال : مائتي درهم يا رسول الله ، قال : « سُبْحَانَ اللَّهِ !! لَوْ كُنْتُمْ تَأْخُذُونَ الدَّرَاهِمَ مِنْ بَطْنِ وَاِدٍ مَا زِدْتُمْ ، وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا أَعِينُكَ بِهِ » . قال عبد الله : فلبثت أياماً ، ثم دعاني رسول الله ﷺ ورجلين من المسلمين ، فقال : « أَخْرَجُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى تَأْتُونِي مِنْهُ بِخَبْرٍ وَعِلْمٍ » ، وقدّم لنا شارباً (٤) عجفاء وقال : « تَبَلَّغُوا عَلَيْهَا وَاعْتَقِبُوهَا » ، فركبها أحدنا ، فوالله ما قامت به ضعفاً حتى دَعَمَهَا (٥) الرجال من خلفها بأيديهم حتى استقلت وما كادت . وفي رواية : فلم يرم إلا قليلاً حتى بركت فأعيتهم أن تنبعث ، فجاء عبد الله إلى النبي ﷺ وهو مستلق في المسجد ، فقام عند رأسه كراهية أن يوقظه ، فانتبه رسول الله ﷺ ، فقال : يانبي الله ! إن الذي أعطيتنا أحببنا أن تبعثه ، فناوله النبي ﷺ يمينه وأخذ رداءه بشماله فوضعه على عاتقه ، وانطلق يمشي حتى أتاها ، فضرها بباطن قدمه ، فانبعثت تجري . قال عبد الله : فخرجنا ومعنا سلاحنا النبل والسيوف ، حتى إذا جئنا قريباً من القوم عند غروب الشمس كنت في ناحية ،

(١) جَدُّ النَّخْلِ يَجِدُهُ : قَطَعَ تَمْرَهُ (الوسيط : ج ١٠٩/١) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠٩/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢١١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة سيف البحر ، وصحيح مسلم (ج ١٥٢٥/٣) كتاب

الصيد والذبائح - باب إباحة ميتات البحر ج ١٧ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٢/٢) ، وعيون الأثر (ج ١٦٠/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٣٢/٣) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣٢/٢) ، وسنن أبي داود (ج ١٧٩/٣) كتاب الجهاد - باب في نفل السرية تخرج من المسكرح ٢٧٤٣ ، ومغازي

الواقدي (ج ٧٨٠/٢) .

(٤) الشَّارِبُ : النَّاقَةُ الْمُسَبَّةُ (النهاية : ج ٤٦٢/٢) .

(٥) أَي أَسْتَدْنَاهَا (النهاية : ج ١٢٠/٢) .

وأمرت صاحبي فكننا في ناحية أخرى وقلت لها : إذا سمعتاني قد كبرت وشدت في ناحية العسكر فكبري وشدًا معي ، فوالله إنا لكذلك ننتظر غرة القوم أو نصيب منهم شيئاً ، إلا ورفاعة بن قيس خرج في طلب راع لهم أبطأ عليهم ، وتحوّفوا عليه فقال له نفر من قومه : نحن نكفيك ولا تذهب أنت ، فقال : والله لا يذهب إلا أنا ، قالوا : فنحن معك ، فقال : والله لا يتبعني أحد منكم ، وخرج حتى مرّ بي ، فلما أمكنني نفّحته (١) بسهم فوضعت في فؤاده ، قال : فوالله ما تكلم ، ووثبت إليه فاحتزرت رأسه ، وشدت في ناحية العسكر وكبرت ، وشدّ أصحابي وكبري ، فهرب القوم بنسائهم وأبنائهم وما خفت معهم من أموالهم ، واستقنا إبلاً وغنماً كثيرة ، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ ، وجئت برأسه أحمله معي ، فأعاني رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيراً في صداقي ، فجمعت إليّ أهلي (٢) .

وقد جعل بعضهم هذه السرية وسرية أبي قتادة السابقة إلى نجد واحدة ، لأنه جاء في بعض الروايات أنه لما أتى ابن أبي حذرد ، رضي الله عنه ، رسول الله ﷺ يستعينه في مهرة ، قال له : « ما عندنا شيء ، ولكن سنبتعك في بعث وأنا أُرجو أن تصيب خيراً » ، فبعثه في سرية وجهها نحو نجد (٣) ، وهي التي كان عليها أبو قتادة ، رضي الله عنه ، كما تقدّم .

سرية أبي قتادة أو ابن أبي حذرد رضي الله عنها إلى بطن إضم :

لما هم رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة - بعد أن نقضت العهد (٤) - بعث أبا قتادة بن ربعي ، رضي الله عنه ، في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم ، وهو وادٍ فيها بين ذي خشب وذي المروة ، على ثلاثة برد من المدينة ، وذلك في أول شهر رمضان سنة ثمان للهجرة ، ليظنّ ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ، ولأن تذهب بذلك الأخبار فلا تستعدّ قريش لحربه ويدخل عليهم على حين غفلة . (انظر : مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة) .

فخرج أبو قتادة ، رضي الله عنه ، بأصحابه ، حتى إذا كانوا ببطن إضم مرّ بهم عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود (٥) له ، ومعه مئبج (٦) له ووطب من لبن ، فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فأمسك عنه القوم ، وحمل عليه محلم بن جثامة ، واسمه زيد بن قيس ، فقتله لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومئبجه ، ثم انصرفوا ولم يلقوا جمعاً ، فلما انتهوا إلى ذي خشب بلغهم أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى مكة ، فأخذوا على يمين حتى لحقوا النبي ﷺ بالسقي فآخبروه الخبر ، فقال رسول الله ﷺ لمحلم : « أقتلتني بعد ما قال إني مسلم » ، قال : إنما قالها متعوذاً ، فقال : « فهلاً شققت عن بطنه فقلمت ما في قلبه ؟ » قال : يا رسول الله ! لوشققت بطنه لكنت أعلم ما في قلبه ؟ قال : « فلا أنت قبيلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما في قلبه » ، فقال : استغفر لي يا رسول الله ، قال : « لا عفر الله لك » ، وأنزل الله تعالى فيه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبئوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ (٧) إلى آخر الآية (٨) . فلم يلبث محلم إلا يسيراً حتى مات (٩) .

ونسب ابن إسحاق هذه السرية التي نسبها ابن سعد وغيره لأبي قتادة لابن أبي حذرد ، وساق فيها خبر قتل عامر بن الأضبط وما نزل فيه ، ثم ذكر في خبر محلم أن النبي ﷺ صلى الظهر بخين ، ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها ، فقام إليه الأقرع بن

(١) النّفْحُ : الضُّربُ والرُّمِي (النهاية : ج ٨٩/٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٥/٤) ، والمستدرک (ج ١٧٧/٢) .

(٣) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١١/٦) ، والمستدرک (ج ١٧٧/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٨٨/٢) .

(٤) سيأتي أن قريشاً نقضت العهد في شعبان سنة ثمان للهجرة .

(٥) القَعُودُ مِنَ الْإِبِلِ : مَا أُمْكَنَ أَنْ يُرَكَبَ ، وَأَدْنَاهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ سِتْنَانٍ (النهاية : ج ٨٧/٤) .

(٦) الْمُنْبَجُ : تَصْغِيرُ مَتَاعٍ .

(٧) النِّسَاءُ : ٩٤ .

(٨) مرّ في سرية غالب بن عبد الله الليثي ، رضي الله عنه ، أن الآية نزلت في قتل أسامة بن زيد ، رضي الله عنه ، مرداس بن نهيك ، وجاء في بعض الروايات أنها نزلت في المقداد بن الأسود ، ولا مانع أن تنزل الآية أكثر من مرة . انظر : مجمع الزوائد (ج ٨٧) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٠٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٣/٢) ، وسنن الترمذي (ج ٢٤٠/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة النساء ج ٣٠٣ ، وسنن ابن ماجه (ج ١٢٩٦/٢) كتاب الفتن - باب الكف عن قال لا إله إلا الله ح ٣٩٣٠ .

حابس وَعَيْبَةَ بنِ حِصْنٍ (١) يَحْتَصِمَانِ فِي عَامِرِ بْنِ الْأَضْبَطِ ، عَيْبَةَ بنِ حِصْنٍ يَطْلُبُ دَمَهُ - وَهُوَ يَوْمُئِذٍ رَئِيسُ غَطَفَانَ - وَيَقُولُ : وَاللَّهِ يَارَسُولَ اللَّهِ لَا أَدْعُهُ حَتَّى أَذِيقَ نِسَاءَهُ مِنَ الْحُرْقَةِ مِثْلَ مَا أَذِيقُ نِسَائِي ، وَالْأَفْرَعُ يَدْفَعُ عَنْ مُحَلِّمِ بْنِ جَثَامَةَ لِمَكَانِهِ مِنْ خِنْدِيفٍ ، فَتَدَاوَلَا الْخِصُومَةَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى ارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِعَيْبَةَ وَمَنْ مَعَهُ : « بَلُّ تَأْخُذُونَ الدِّيَةَ خَمْسِينَ فِي سَفَرِنَا هَذَا وَخَمْسِينَ إِذَا رَجَعْنَا » وَهُوَ يَأْبَى عَلَيْهِ ، إِذْ قَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ ، يُقَالُ لَهُ مَكْيِثٌ أَوْ مَكْيِثِلٌ ، قَصِيرٌ مَجْمُوعٌ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ يَارَسُولَ اللَّهِ مَا وَجَدْتُ لِهَذَا الْقَتِيلِ شَبْهًا فِي عَرَّةِ الْإِسْلَامِ إِلَّا كَعَنَمٍ وَرَدَّتْ فَرَمِيَتْ أَوْلَاهَا فَانْفَرَتْ أَخْرَاهَا ، اسْتُنَّ الْيَوْمَ وَغَيْرَ غَدَا (٢) ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ ، فَقَالَ : « بَلُّ تَأْخُذُونَ الدِّيَةَ خَمْسِينَ فِي سَفَرِنَا هَذَا وَخَمْسِينَ إِذَا رَجَعْنَا » ، فَقَبِلُوا الدِّيَةَ .

وَيُرْوَى أَنَّ الْأَفْرَعَ بْنَ حَابِسٍ قَالَ لِعَيْبَةَ بنِ حِصْنٍ وَمَنْ مَعَهُ : يَا مَعْشَرَ قَيْسِ ! مَنْعَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتِيلًا يَسْتَصْلِحُ بِهِ النَّاسُ ، أَفَأَمْنَتُمْ أَنْ يَلْعَنَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَلْعَنَكُمْ اللَّهُ بِلْعَنَتِهِ ؟ أَوْ أَنْ يَغْضِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِغَضَبِهِ ؟ وَاللَّهِ الَّذِي نَفَسَ الْأَفْرَعُ بِيَدِهِ لَتَسْلَمَنَّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْيَصْنَعَنَّ فِيهِ مَا أَرَادَ ، أَوْ لَاتَيْنَ بِخَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَيْمٍ يَشْهَدُونَ بِاللَّهِ كُلَّهُمْ لَقَتِلَ صَاحِبَكُمْ كَافِرًا ، مَا صَلَى قَطُّ فَلَأَطْلُنَّ (٣) دَمَهُ ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ قَبِلُوا الدِّيَةَ .

ثُمَّ قَالُوا : أَيْنَ صَاحِبِكُمْ هَذَا يَسْتَغْفِرُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ فَصَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ قَوْمِهِ صَوْمًا طَوِيلًا ، عَلَيْهِ حُلَّةٌ لَهُ قَدْ كَانَ تَهَيَّأَ فِيهَا لِلْقَتْلِ ، حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ : مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : أَنَا مُحَلِّمُ بْنُ جَثَامَةَ ، فَقَالَ : « أَمْنَتُهُ بِاللَّهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ ؟ » ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ ! لَا تَغْفِرْ لِمُحَلِّمِ بْنِ جَثَامَةَ » قَالَهَا ثَلَاثًا بِصَوْتٍ عَالٍ ، فَصَامَ وَهُوَ يَتَلَقَّى دَمْعَهُ بِفَضْلِ رِدَائِهِ . وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُونَ : إِنَّا لَنَرُجُو أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَغْفَرَ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ أَظْهَرَ مَا أَظْهَرَ لِيَدْعَ النَّاسَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ .

فَمَا مَكَثَ مُحَلِّمٌ إِلَّا سَبْعًا حَتَّى مَاتَ ، فَلَفِظَتْهُ الْأَرْضُ ، ثُمَّ عَادُوا لَهُ ، فَلَفِظَتْهُ الْأَرْضُ ، ثُمَّ عَادُوا لَهُ ، فَلَفِظَتْهُ الْأَرْضُ ، فَلَمَّا غَلَبَ قَوْمُهُ عَمَدُوا إِلَى صُدَيْنَ (٥) فَسَطَّحُوهُ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ رَضُوا عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ حَتَّى وَارَوْهُ . فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « وَاللَّهِ إِنَّ الْأَرْضَ لَتَنْطَابِقُ عَلَيَّ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَعْظِمَ فِي حُرْمِ مَا بَيْنَكُمْ بِمَا أَرَاكُمْ مِنِّي » أَوْ قَالَ : « أَمَّا إِنَّ الْأَرْضَ تَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي وَلَكِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُرِيَكُمْ عِظَمَ الدَّمِ عِنْدَهُ » . وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ : « وَلَكِنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ مَوْعِظَةً لَكُمْ لِكَيْلَا يُقَدِّمَ رَجُلٌ مِنْكُمْ عَلَى قَتْلِ مَنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَوْ يَقُولُ إِنِّي مُسْلِمٌ » (٦) .

☆ ☆ ☆

- (١) سِيَأْتِي أَنَّهَا شَهِدَا حَتِينًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ .
(٢) أَي : اِعْمَلْ بِسُنَّتِكَ الَّتِي سَنَّتَهَا فِي الْقِصَاصِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا شِئْتَ أَنْ تَغَيِّرَ فَعَيِّرْ ؛ أَي : تَغَيِّرْ مَا سَنَّتَ . وَقِيلَ : تَغَيَّرَ مِنْ أَخْذِ الْغَيْرِ وَهِيَ الدِّيَةُ (النهاية : ج ٤١٠/٢) .
(٣) أَطْلُ دَمَهُ : أَهْدَرَهُ وَأَبْطَلَهُ (النهاية : ج ١٣٦/٢) .
(٤) الضَّرْبُ مِنَ الرِّجَالِ : الْخَفِيفُ اللَّحْمِ الْمُشْوَقُ الْمُسْتَدِيقُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .
(٥) الصُّوُّ وَالصُّدُ : الْجَبَلُ (لسان العرب : ج ٢٤١٠/٣) .
(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٠٢/٤ - ٣٠٥) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١١٢/٥) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣١٠/٤) ، وجمع الزوائد (ج ٢٩٤/٧) .

غزوة فتح مكة

سبب الغزوة :

وكان سبب غزوة الفتح أنه لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيه أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه ، فدخلت بنو بكر بن عبد مناة في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده ، كما سبق أن ذكرنا .

وقد كان بين القبيلتين حروب وقتلى في الجاهلية ، وذلك أن مالك بن عباد من بني الحضرمي خرج تاجراً ، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله ، وكان حليفاً للأسود بن رزن الدبلي ، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة ، فقتلوه حمية للأسود ، فعدت خزاعة على بني الأسود سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم ، وكان قوم الأسود يؤدون ديتين ديتين لفضلهم في بني بكر وباقيهم دية دية ، فبينما هم كذلك حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به . فلما كانت الهدنة اغتبتها بنو الدبيل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم القديم . ويقال إن شخصاً من بني نفاثة ، وهم بطن من بني بكر ، هجا رسول الله ﷺ وصار يتغنى به ، فسمعه غلام من خزاعة ، فضربه فشجّه ، فثار الشر بين القبيلتين مما كان بينهما من العداوة . فطلبت بنو نفاثة من أشرف قريش أن يعينهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، ففعلوا ، وكان ذلك في شهر شعبان من السنة الثامنة للهجرة .

فخرج نوفل بن معاوية النفاثي ثم الدبيلي في بني الدبيل ، وهو يومئذ قائدهم ، وليس كل بني بكر تابعه ، حتى بيّت^(١) خزاعة ليلاً وهم آمنون ، على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوثير ، فأصاب منهم رجلاً يقال له منبّه ، وكان رجلاً مقووداً^(٢) ، خرج هو ورجل من قومه يقال له تميم بن أسد ، فقال له منبّه : يا تميم ! انج بنفسك ، فوالله إني لميت قتلوني أو تركوني ؛ لقد انبت فؤادي ، فأفلت تميم ، وأدركوا منبّهاً فقتلوه ، وتنهت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوفل ! إنا قد دخلنا الحرم ، إهلك ، إهلك ، فقال كلمة عظيمة : لا إله له اليوم ، يا بني بكر ! أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ فقتلوا منهم عشرين رجلاً ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفياً ، منهم صفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ومكزز بن حفص وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو .

ولما دخلت خزاعة مكة لجؤوا إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم يقال له رافع ، ودخلت رؤساء قريش منازلهم وهم يظنون أنهم لا يعرفون ، وأن هذا لا يبلغ رسول الله ﷺ .

ثم ندمت قريش على ما صنعت ، وعلموا أن هذا نقض للمدة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وجاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان بن حرب وأخبره بما فعل القوم ، فقال : هذا أمر لم أشهده ولم أعب عنه ، وإنه لشر ، والله ليغزونا محمد^(٣) .

(١) أي جاءهم ليلاً بغتة ، وقد تقدّم .

(٢) المقوود : الذي أصيب فؤاده بوجع (النهاية : ج ٤٠٥/٣) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٤ - ٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٤/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٤٤/٣) ، وفتوح البلدان (ص : ٤٩) ، والسيرة الحلبية (ج ٧١/٣) .

خزاعة تستنجد بالنبي ﷺ :

ولما انقضى القتال خرج عمرو بن سالم الخزاعي ، ثم أحد بني كعب ، في أربعين راكباً من خزاعة ، فيهم بُدَيْل بن وَرْقَاء ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بالذي أصابهم واستنصروه ، فقال رسول الله ﷺ : « لَأَنْصُرْتَ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ بَنِي كَعْبٍ مِمَّا أَنْصُرَ مِنْهُ نَفْسِي » . ثم قام عمرو بن سالم فقال والنبي ﷺ جالس في المسجد بين ظهراي الناس :

يا رب إني ناشد محمداً	حلف أبيننا وأبيه الأثكلا ^(١)
قد كنتم ولداً وكننا والداً ^(٢)	ثمت أساننا فلم نزرع يدا
فانصر هداك الله نصرأ أعتدا ^(٣)	وادع عباد الله يأتوا مـدداً
فيهم رسول الله قد تجردا	إن سيم خسفاً وجهه ترربدا ^(٤)
في قبليق ^(٥) كالبحر يجري مزيـدا	إن قريشاً أخلفوك الموعدا
وتقصوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كداء ^(٦) رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا	وهم أذل وأقل عـددا
هم يبتوننا بالسوتير هجدا ^(٧)	وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ : « نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ » ، ثم مرت سحابة في السماء ، فقال ﷺ : « إِنْ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْتَهْلُ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ » ، ثم قال لهم : « ارْجِعُوا وَتَفَرَّقُوا فِي الْأُودِيَةِ » وذلك ليخفى محيئهم إليه ، فذهبت فرقة إلى الساحل وفيهم عمرو بن سالم ، وفرقة فيهم بُدَيْل بن وَرْقَاء لزم الطريق .

وقد كان رسول الله ﷺ قال لعائشة ، رضي الله عنها ، صبيحة الواقعة وقبل قدوم عمرو بن سالم عليه : « لَقَدْ حَدَّثَ فِي خُزَاعَةَ حَدَّثٌ » ، فقالت عائشة : يا رسول الله ! أترى قريشاً يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم ؟ فقال : « يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ لِأَمْرِ يُرِيدُهُ اللَّهُ » ، فقالت عائشة : خير ، قال : « خَيْرٌ »^(٨) .

وروي عن ميمونة بنت الحارث ، رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ بات عندها في ليلة ، فقام يتوضأ للصلاة ، قالت : فسمعتة يقول في متوضئه : « لَبِيكَ لَبِيكَ » ثلاثاً ، « نُصِرْتَ نُصِرْتَ » ثلاثاً ، فلما خرج قلت : يا رسول الله ! سمعتك تقول في متوضئك : « لَبِيكَ لَبِيكَ » ثلاثاً ، « نُصِرْتَ نُصِرْتَ » ثلاثاً ، كأنك تكلم إنساناً ، وهل كان معك أحد ؟ قال : « هذا راجز بني كعب يَسْتَنْصِرُخِنِي ، وَيَزْعَمُ أَنَّ قُرَيْشاً أَعَانَتْ عَلَيْهِمْ بَكْرَ بْنَ عَبْدِ مَنَاةَ » . قالت ميمونة فأقننا ثلاثاً ، ثم صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فسمعت الراجز يقول : يا رب إني ناشد محمداً .. الحديث^(٩) .

(١) الأثكلا : القديم (الوسيط : ج ٨٦/١) .

(٢) يريد أن بني عبد مناف أمهم من خزاعة وهي حبي زوجة قصي بن كلاب . انظر : (الروض الأنف : ج ٩٧/٤) .

(٣) أي حاضراً . انظر : (الوسيط : ج ٥٨٨/٢) .

(٤) ترربد : تعبس (الوسيط : ج ٣٢٢/١) .

(٥) القبليق : الكتيبة العظيمة من الجيش (النهاية : ج ٤٧٢/٣) .

(٦) كداء : الثيئة العليا بكة مما يلي المقابر وهو المَعْلَا (النهاية : ج ١٥٦/٤) .

(٧) هجدا : صلى بالليل فهو هاجداً ؛ أجمع هجداً (الوسيط : ج ٩٨٢/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٠/٤ ، ١٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٤/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٠/٥) ، والسيرة الحلبية (ج ٧١/٣ - ٧٢) .

(٩) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٦٣/٦) وقال : رواه الطبراني في الصغير والكبير وفيه يحيى بن سليمان بن فضلة وهو ضعيف .

قريش تبعث أبا سفيان ليجدد الصلح :

ولما ندمت قريش على نقضهم العهد وتخوفوا سوء ضنيهم ، أرسلوا أبا سفيان ليشدّ العقد ويزيد في المدة ، وقد كان رسول الله ﷺ أخبر أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرهم ، قال : « كَأَنَّكُمْ بَأبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ لِيَشُدَّ الْعَقْدَ وَيَزِيدَ فِي الْمُدَّةِ » .

وخرج أبو سفيان من مكة ، فلما كان بعسفان لقي بديلاً بن ورقاء وأصحابه وهم راجعون من المدينة ، فقال له : من أين أقبلت يا بديل ؟ - وطن أنه أتى النبي ﷺ - فقال : تسيّرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي ، قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا ، فلما راح بديل إلى مكة ، قال أبو سفيان : لأن كان جاء بديل المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ، ففتّه ، فرأى فيه النوى فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة ، رضي الله عنها ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنيّة ! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ، قال : والله لقد أصابك يا بنيّة بعدي شر . ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! أشدّ العقد وزدنا في المدة ، فقال رسول الله ﷺ : « وَلِذَلِكَ قَدِمْتُ ! هَلْ كَانَ مِنْ حَدِيثٍ قَبْلَكَمْ ؟ » قال : معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغيّر ولا نبذل ، فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه أن يكلمه له رسول الله ﷺ فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به - وفي رواية : أنه أتى أبا بكر فقال : جدد العقد وزدنا في المدة ، فقال أبو بكر : جوارى في جوار رسول الله ﷺ ، والله لو وجدت الذرّ تقاتلكم لأعنتها عليكم ، ثم خرج فأتى عمر بن الخطاب ، فكلمه ، فقال عمر : ما كان من حلفنا جديداً فأخلفه الله ، وما كان منه مثبتاً فقطعه الله ، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله ، فقال له أبو سفيان : جزيت من ذي رحم سوءاً ، ثم دخل على عثمان فكلمه ، فقال عثمان : جوارى في جوار رسول الله ﷺ - ثم خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وعندها حسن بن عليّ غلام يديب بين يديها ، فقال : يا عليّ ! إنك أمسّ القوم بي رحماً ، وإني قد جئتكم في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ويحك يا أبا سفيان !! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ! هل لك أن تأمري نبيّك هذا فيجبر بين الناس ، فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ نبيّ ذلك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر أحد على رسول الله ﷺ ، قال : يا أبا الحسن ! إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً ، ولكنك سيّد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ، قال : أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال : لا والله ، ما أظنّه ، ولكني لأجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان إلى المسجد فقال : يا أيّها الناس ! إني قد أجرت بين الناس ، ثم دخل على النبي ﷺ فقال : يا محمد ! قد أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظنّ أن يخفرنني أحد ولا يردّ جوارى ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أبا حَنْظَلَةَ ! » . ثم ركب بعيره وانطلق إلى مكة .

فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟ قال : لا والله ، لقد أبي عليّ وقد تتبعت أصحابه ، فما رأيت يوماً مملوك عليهم أطوع منهم له ؛ فجئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت عليّاً فوجدته ألين القوم ، وقد أشار عليّ بشيء صنعتّه ؛ فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجبر بين الناس وقال لي : لِمَ تلتس جوار الناس على محمد ولا تجبر أنت عليه وعلى قومك وأنت سيّد قريش وأكبرها وأحقّها أن لا يخفر جواره ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ، وإنما قال : « أَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أبا حَنْظَلَةَ » ، قالوا : ويلك !! إن زاد الرجل على أن لعب بك ، لقد رضيت بغير رضا ، وجئتنا بما لا يغني عنّا ولا عنك شيئاً ، لعمر الله ما جوارك بجائر ، وإن إخفارك عليهم لهين ، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك . ثم دخل على امرأته هند بنت عتبة ، فحدثها الحديث ، فقالت : قبّح الله من وافد قوم ، فما جئت بخير^(١) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢/٤ - ١٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٤/٢) ، ودلائل النبوة للمبيهقي (ج ١٠/٥ - ١١) .

روي عن عكرمة أن رسول الله ﷺ قد كان قال : « إن أبا سُفْيَانَ قَدْ أَقْبَلَ وَسَيَرْجِعُ رَاضِياً بِغَيْرِ قَضَاءِ حَاجَةٍ » ، فلما رجع إلى أهل مكة أخبرهم الخبر ، فقالوا : تالله ما رأينا أحق منك ، ما جئتنا بحرب فنحذر ولا بسلام فنأمن^(١) .

تَهَيُّؤُ النَّبِيِّ ﷺ لِلغَزْوِ وَكُتْمَانِهِ الْأَمْرُ :

ولما أراد رسول الله ﷺ غزو مكة أمر الناس بالجهاز ، وكنهم مخرجه ، وأمر عائشة ، رضي الله عنها ، أن تجهزه ولا تعلم أحداً ، فدخل أبو بكر ، رضي الله عنه ، على ابنته عائشة وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ ، فقال : أي بُنْيَةِ ! أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فتجهز ، قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : والله ما أدري ، فقال : لعله يريد بني الأصفر - وهم الروم - فذكر من ذلك أمراً فيه منهم بعض المكروه في ذلك الزمان ، فصمتت ، قال : فلعله يريد قريشاً وإن لهم مدة ؟ فصمتت ، فدخل رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! أتريد أن تخرج مخرجاً ؟ قال : « نعم » ، قال : لعلك تريد بني الأصفر ؟ قال : « لا » ، قال : أفتريد أهل نجد ؟ قال : « لا » ، قال : فليعلمك تريد قريشاً ؟ قال : « نعم » ، قال أبو بكر : يا رسول الله ! أليس بينك وبينهم مدة ؟ قال : « ألم يبلغكم ما صنعوا ببني كعب ؟ »^(٢) .

ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ ، وذلك بعد أن استشار أبا بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، في السير إليها . فقد روي أن رسول الله ﷺ خرج من بعض حجره فجلس عند بابها ، وكان إذا جلس وحده لم يأتها أحد حتى يدعوه ، فدعا أبا بكر ، فجلس بين يديه ، فناجاه طويلاً ، ثم أمره فجلس عن يمينه ، ثم دعا عمر ، فجاء فجلس ، فناجاه طويلاً ، فرفع عمر صوته ، فقال : يا رسول الله ! هم رأس الكفر ، هم الذين زعموا أنك ساحر وأنت كاهن وأنت كذاب ، وأنت مفتر ، ولم يدع شيئاً مما كان أهل مكة يقولونه إلا ذكره ، فأمره فجلس عن شماله ، ثم دعا الناس ، فقال : « أَلَا أَحَدْتُكُمْ بِمَثَلِ صَاحِبَيْكُمْ هَذَيْنِ ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، فأقبل بوجهه الكريم على أبي بكر فقال : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَلَيْنَ فِي اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّهْنِ فِي اللَّبَنِ » ، ثم أقبل على عمر فقال : « إِنَّ نُوحًا كَانَ أَشَدَّ فِي اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْحَجَرِ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ عَمَرَ ، فَتَجَهَّزُوا » . فقاموا فتنبعوا أبا بكر ، فقالوا : إننا كرهنا أن نسأل عمر ما هذا الذي ناجاك به رسول الله ﷺ ؟ قال : قال لي : « كَيْفَ تَأْمُرُنِي فِي غَزْوِ مَكَّةَ ؟ » قلت : يا رسول الله ! هم قومك ، حتى رأيت أنه سيطيعني ، ثم دعا عمر ، فقال عمر : إنهم لرأس الكفر حتى ذكر كل سوء كانوا يقولونه ، وإيم الله لا تذلل العرب حتى تذلل أهل مكة ، فأمركم بالجهاز لتغزوا مكة^(٣) .

فتجهز الناس ، وأرسل رسول الله ﷺ إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين في كل ناحية يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، فمنهم من وافاه بالمدينة ، ومنهم من لحقه بالطريق كبنو سُلَيْمِ . فن قبائل العرب التي قدمت عليه المدينة أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، فاجتمع معه نحو عشرة آلاف رجل ، وسأل ربه أن يعمي على قريش خبره ، فقال : « اللَّهُمَّ ! خِدِ الْعَيْونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى تَبُغَّتْهَا فِي بِلَادِهَا » - وفي لفظ : « اللَّهُمَّ ! خُدْ عَلَى أَبْصَارِهِمْ فَلَا يَرَوْنِي إِلَّا بَغْتَةً » . وأخذ بالأتقاب^(٤) ، فأوقف على كل نقب جماعة وقال لهم : « لَا تَدْعُوا أَحَدًا يَمُرُّ بِكُمْ تُنْكِرُونَهُ إِلَّا رَدَدْتُمُوهُ »^(٥) .

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية أبي قتادة ، رضي الله عنه ، إلى بطن إصم ، ليظن ظاناً أنه توجه إلى هناك كما سبق ذكره في تلك السرية .

(١) فتوح البلدان (ص : ٥٠) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧/٥ ، ١١) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة . انظر : كنز العمال (ج ٥٢٩/١٠) .

(٤) الأتقاب : الطُّرُق ، جَمْعُ نَقْبٍ وَهُوَ الطَّرِيقُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ . وقد تقدم .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٤/٢) و (ج ٢٧١/٤ ، ٢٧٩ ، ٢٢٢ ، ٢٤٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧/٥) ،

والسيرة الحلبية (ج ٧٤/٣) .

كتاب حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى أهل مكة :

ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس ، كتب حاطب بن أبي بلتعة ، رضي الله عنه ، كتاباً إلى قريش يخبرهم بذلك ، ثم أعطاه امرأة من مزيّنة ، وجعل لها جُعلًا على أن تبلغه قريشاً ، وقال لها : أخفيه ما استطعت ، ولا تمري على الطريق فإن عليه حرساً . فجعلت الكتاب في قرون رأسها ، ثم خرجت به .

ويقال : إن تلك المرأة هي سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب أتت المدينة في حاجة ، فدفع إليها حاطب بن أبي بلتعة الكتاب .

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليّاً والزبير والمقداد ، وقيل : أبا مرثد بدل المقداد ، فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (١) ، فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يحذّرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم ، فخذوه منها » . فانطلقوا تعادى (٢) بهم خيلهم ، حتى أدركوها تسير على جبل لها حيث قال لهم رسول الله ﷺ ، فقالوا لها : أخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب ، فاستنزلوها ، فالتسوا في رحلها فلم يجدوا شيئاً ، فقال لها عليّ : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ، ولتخرجن الكتاب أو لتجردنك ، فلما رأته الجدة منه ، قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتوا به رسول الله ﷺ ، فقرأ عليه ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين (وهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل) . أما بعد : يا معشر قريش ! فإن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله تعالى عليكم ، فإنه منجز له ما وعده ، فانظروا لأنفسكم والسلام .

فدعا رسول الله ﷺ حاطباً ، فقال له : « أتعرف هذا الكتاب ؟ » قال : نعم ، فقال : « ما حملك على هذا ؟ » قال : لا تعجل عليّ يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، ولكني كنت امرأة مُلصقاً في قريش ، لست من أنفسهم ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، وليس لي فيهم أصل ولا عشيرة ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن آخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله غشاً يا رسول الله ولا نفاقاً قد علمت أن الله مظهر رسوله ، ومتم له أمره ، فكتبت كتاباً لا يضر الله ورسوله شيئاً ، وعسى أن يكون فيه منفعة لأهلي . فقال رسول الله ﷺ : « أما إنه قد صدقكم ، فلا تقولوا له إلا خيراً » ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قاتلك الله ! ترى رسول الله ﷺ يأخذ بالأنساب وتكتب إلى قريش تحذّرهم ؟ دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق (٣) فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فقال رسول الله ﷺ : « فإنه قد شهد بذرّاً ، وما يُدريك يا عمر ، لعل الله قد اطّلع على أهل بذرٍ فقال : اغمّلوا ما شئتم فقد غفرت لكم » أو « فقد وجبت لكم الجنة » ، فدمعت عينها عمر ، رضي الله عنه ، وقال : الله ورسوله أعلم . فأنزل الله ، عز وجل ، في حاطب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ (٤) إلى آخر القصة (٥) .

(١) روضة خاخ : موضع بين الحزمين ، بقرب حمراء الأسد من المدينة (معجم البلدان : ج ٣/٢٨٤) .

(٢) أي تجري ، يقال : تعادى القوم : تبارزوا في العدو ؛ أي : الجزي . انظر : (لسان العرب : ج ٤/٢٨٤٥) .

(٣) قيل : إننا قال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق مع تصديق رسول الله ﷺ لحاطب فيما اعتذر به ، ونهيه أن يقال له إلا خيراً ، لما عند عمر ، رضي الله عنه ، من الشدة في الدين وبعض المنافقين ، فظن أن من خالف ما أمر به النبي ﷺ ، من إخفاء مسيره عن قريش وحرصه على عدم وصول خبره إليهم ، استحق القتل لكنه لم يجزم بذلك ، فاستأذن النبي ﷺ في قتله . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٢/٢٩٧) .

(٤) الممتحنة : ١ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/١٦٤) ، وصحيح البخاري (ج ٥/١٨٤) كتاب المغازي - باب غزوة الفتح في رمضان ، و (ج ٨/٧١٨) كتاب الاستئذان - باب من نظر في كتاب من يجر على المسلمين ليستبين أمره ، والمستدرك (ج ٤/٧٧) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣/٣٥٠٣) ، ومجمع الزوائد (ج ٦/١٦٢) ، ومغازي الواقدي (ج ٢/٧٩٨) ، والسيرة الحلبية (ج ٣/٧٦٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢/٢٩٨) ، والروض الأنف (ج ٤/٩٧) .

خروج النَّبِيِّ ﷺ من المدينة :

ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره ، واستخلف على المدينة أبا رَهمَ كلثوم بن الحُصَيْن الغفاري ، ويقال ابن أم مكتوم ، وخرج ﷺ لعشر ليالٍ مضين من شهر رمضان بعد العصر ، وقيل : ليلتين خلتا أو لست خلون منه ، ومعه عشرة آلاف من المسلمين ، ولم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار ، ومعه امرأتان من نسائه إحداهما أم سلمة ، رضي الله عنها ، وأمر ﷺ مناديه فنادى : من أحب أن يفطر فليفطر ، ومن أحب أن يصوم فليصم . فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه^(١) .

إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية :

ولما كان رسول الله ﷺ بالأبواء ، وقيل : بنبق العقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، لقيه أبو سفيان بن الحارث ابن عمه عليه الصلاة والسلام ، وأخوه من الرضاع من حليمة السعدية ، وعبد الله بن أبي أمية ابن عنته عاتكة بنت عبد المطلب ، وأخو أم سلمة لأبيها ، وكان من أشد الناس إيناء للنبي ﷺ . وكان أبو سفيان يألف رسول الله ﷺ ولا يفارقه قبل النبوة ، فلما بُعث عاداه وهجاء وهجا أصحابه ، فلما لقيه أعرض عنها رسول الله ﷺ لما كان يلقي منها من شدة الأذى والهجو ، فالتسا الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة ، رضي الله عنها ، فيها فقالت : يا رسول الله ! لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، قال : « لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي فهتاك عريضي ، وأما ابن عمي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال^(٢) » . فلما خرج الخبر إليها قال أبو سفيان ومعه ابن له : والله ليأذنن لي أو لأخذن بيد ابني هذا ، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لها ، ثم أذن لها ، وقال علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، لأبي سفيان : أتت رسول الله ﷺ من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف عليه السلام : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِبِينَ ﴾^(٣) ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(٤) ، فأسلم أبو سفيان وعبد الله بن أبي أمية ، وقبل رسول الله ﷺ منها إسلامهما . ثم أنشده أبو سفيان معتذراً إليه مما كان مضى منه فقال :

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالندلج الحيران أظلم ليلته فهذا أواني حين أهدي وأهتدي
هدائي هاد غير نفسي ونالني مسمع الله من طردت كل مطرد

وقال أبياتاً أخرى ، فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله : ونالني مع الله من طردت كل مطرد ، ضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال : « أنت طردتني كل مطرد » .

وكان أبو سفيان ، رضي الله عنه ، بعد ذلك من حسن إسلامه ، فيروى أنه مارتع رأسه إلى رسول الله ﷺ حياء منه ، لأنه عاداه نحو عشرين سنة بهجوه ، ولم يتخلف عن قتاله . وكان ﷺ يحبه ويشهد له بالجنة ويقول : « أُرْجُو أَنْ يَكُونَ خَلْفاً مِنْ حَمْرَةَ » ، وكان يقول أيضاً : « أَبُو سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ خَيْرٌ أَهْلِي »^(٥) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٥/٢ ، ١٤٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٥/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الفتح ،

ومسند الإمام أحمد (ج ٨٧/٢) ، ومغازي الواقدي (ج ٨٢٨/٢) .

(٢) يعني قوله له : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك . انظر :

سيرة ابن هشام (ج ٢١٧/١) .

(٣) يوسف : ٩١ .

(٤) يوسف : ٩٢ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٩/٤) ، والمستدرک (ج ٢٥٥/٣) ، وعيون الأثر (ج ١٦٧/٢ ، ١٦٨) .

هجرة العباس عم النبي ﷺ :

ثم لما كان رسول الله ﷺ بالجحفة أو بالسقياء لقيه العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، مهاجراً بأهله وعباله ، وكان قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، كما ذكر ابن سعد ، وأقام على سقايته بمكة^(١) ولم يهاجر ، ورسول الله ﷺ عنه راض^(٢) .

قدوم بني سُلَيْم وعقد الألوية :

ثم سار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بقَدِيد لقيته بنو سُلَيْم وهم تسعمائة ، ويقال ألف ، فيهم العباس بن مُرداس ، وأنس بن عبياض ، وراشد بن عبد ربّه ، فأسلموا ، وقالوا : اجعلنا في مقدّمك ، واجعل لواءنا أحمر ، وشعارنا مقدّماً ، ففعل ذلك بهم . فشهدوا معه الفتح وحنيناً والطائف .

وكان قد قدم على رسول الله ﷺ المدينة رجل منهم يقال له قيس بن نُسيبة ، فسمع كلامه ، وسأله عن أشياء فأجابته ، ودعاها رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فأسلم ، فلما رجع إلى قومه بني سُلَيْم قال : قد سمعت ترجمة الروم وهيئمة^(٣) فارس ، وأشعار العرب ، وكهانة الكاهن ، وكلام مقاول^(٤) حمير ، فما يشبه كلام محمد شيئاً من كلامهم ، فأطبعوني وخذوا بنصيبكم منه . فلما كان عام الفتح خرجت بنو سُلَيْم إلى رسول الله ﷺ ، فلقوه بقَدِيد ، فأسلموا وكتب رسول الله ﷺ لنصر منهم كتباً أعطاهم فيها بعض النواحي^(٥) .

وذكر ابن هشام في سبب إسلام عباس بن مُرداس أنه كان لأبيه مُرداس وثن يعبده ، وهو حجر يقال له صَمَار ، فلما خُصِر مُرداس قال لعباس : أي بني ! اعبد صَمَار ، فإنه ينفعلك ويضرك ، فبينما عباس يوماً عند صَمَار إذ سمع من جوف صَمَار منادياً يقول :

قل للقبائل من سُلَيْم كلها	أودى صَمَار وعاش أهل المسجد
إن الذي ورث النبوة والهدي	بعد ابن مريم من قریش مهتد
أودى صَمَار وكان يعبد مرة	قبل الكتاب إلى النبي محمد

فحزق عباس صَمَار ، ولقى بالنبي ﷺ فأسلم^(٦) .

وفي قَدِيد عقد رسول الله ﷺ الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل ؛ لبني سُلَيْم لواء وراية ، ولبني غفار راية ، ولأسلم لواءين ، ولبني كعب من خزاعة راية ، ولزينة ثلاثة ألوية ، ولجيهينة أربعة ألوية ، ولأشجع لواءين^(٧) .

إفطار النبي ﷺ ونزوله بمَرِّ الظُّهْران :

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم والناس صيام معه ، وقد صبَّ ﷺ في بعض أيام سيره الماء على رأسه ووجهه من شدة العطش ، حتى إذا كان بالكديد ، وهو ماء بين قَدِيد وَعُسْفَان ، أفطر ، لأنه بلغه أن الناس شقَّ عليهم الصيام ، وقيل له : إنما ينظرون فيما فعلت ، فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا ياناء من ماء ، فوضعه على راحلته ليراه الناس ، فشرب ، فقيل له : إن بعض الناس قد صام ، فقال : « أُولَئِكَ الْعَصَاةُ ، أُولَئِكَ الْعَصَاةُ »^(٨) .

(١) كانت إقامته ، رضي الله عنه ، بمكة لخوفه على ماله وعباله ، ولأنه كان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ ، وكان يثق به ، كما كان ينفع المستضعفين بمكة وبه يثقون . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٠١/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣١/٤) ، وتاريخ الطبري (ج ٥٢/٣) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٥/٩) .

(٣) الهيئمة : هي الكلام الخفي لا يفهم ، وقد تقدم .

(٤) المقول والقيل : المليك من ملوك حمير يقول ما شاء ، والجمع مقاول (لسان العرب : ج ٣٧٧/٥) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٧٢/١ ، ٣٠٧) .

(٦) سيرة ابن هشام (ج ٥١/٤) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣٥/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٠٢/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٤/٣) كتاب الصوم - باب من أفطر في السفر ليراه الناس ، و (ج ١٨٥/٥) كتاب =

روي عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : سافرنا مع رسول الله ﷺ إلى مكة ونحن صيام ، قال : فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ » ، فكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر ، فقال : « إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ فَأَفْطِرُوا » وكانت عزيمة ، فأفطرنا (١) .

وفي رواية عنه قال : حتى إذا بلغ أدنى منزل تلقاء العدو أمرنا بالفطر ، فأفطرنا أجمعين (٢) . وذلك ليقفوا على مقاتلة العدو . ثم لم يزل رسول الله ﷺ مفطراً رفقاً بالمسلمين حتى انسلخ الشهر (٣) .

ثم تابع رسول الله ﷺ سيره حتى نزل مَرَّ الظَّهْرَانِ عشاء ، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ، واستعمل على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فلما رأى ذلك العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، قال : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر ، فركب بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وخرج يلتمس بعض الخطابة أو صاحب ابن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبر قريشاً بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة (٤) .

تحسس قريش الأخبار وإسلام أبي سفيان بن حرب :

وكان الله ، عز وجل ، قد عمى الأخبار عن قريش ، فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ ، ولا يدرون ما هو فاعل ، وهم مغتمون خائفون من غزوه إيَّاهم ، فبعثوا أبا سفيان بن حرب يتحسس الأخبار وقالوا : إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً .

فخرج أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبدئيل بن ورقاء ، يلتمسون الأخبار عن رسول الله ﷺ - وكان النبي ﷺ قد قال ليلة قربه من مكة : « إِنَّ بِمَكَّةَ لَأَرْبَعَةَ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ أُرِبَاءٌ بِهِمْ (٥) عَنِ الشُّرْكِ ، وَأُرْعَبَ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ » ، قيل : من هم يارسول الله ؟ قال : « عَنَابُ بْنُ أُسَيْدٍ ، وَجَبِيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ ، وَحَكِيْمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَسَهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو » - فأقبلوا يسرون حتى أتوا مَرَّ الظَّهْرَانِ ، فإذا هم بنيران ، ففزعوا ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً ، لكانها نيران عرفة ، فقال بدئيل : هذه والله خزاعة حششتها (٦) الحرب ، فقال أبو سفيان : خزاعة أدل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، فأرهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأخذوهم ، فأتوا بهم رسول الله ﷺ .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ كان قد بعث بين يديه خيلاً تتقبض العيون ، وخزاعة على الطريق لا يتركون أحداً يمضي ، فلما دخل أبو سفيان وصاحبه عسكر المسلمين أخذتهم الخيل تحت الليل ، فسألوه : من أنتم ؟ قالوا : هذا رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقال أبو سفيان : هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم ؟ فجاءوا بهم إلى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لأنه كان على الحرس ، فقال : احبسوهم ، فحبسوهم حتى أصبحوا ، فغدوا بهم إلى رسول الله ﷺ .

ويقال : إن أبا بكر ، رضي الله عنه ، قال يومئذ لرسول الله ﷺ : أراني في المنام وأراك دنونا من مكة ، فخرجت إلينا كلبة

= للغازي - باب غزوة الفتح في رمضان ، وصحيح مسلم (ج ٧٨٥/٢ ، ٧٨٦) كتاب الصيام - باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر .. ح ٩٠ و ح ٩١ ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٢٦٦/١) ، و (ج ٢٧٦/٥) .

(١) صحيح مسلم (ج ٧٨٦/٢) كتاب الصيام - باب أجز الفطر في السفر إذا تولى العمل ح ١٠٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد (ج ٨٧/٢) .

(٣) انظر : السيرة الحلبية (ج ٧٧/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٥/٢) .

(٥) يقال : إنِّي لأُرِبَاءٌ بِكَ عَنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ ؛ أَي : أَرْفَعُكَ عَنْهُ (لسان العرب : ج ١٥٤٦/٢) .

(٦) أَي جَمَعْتَهَا . انظر : (الوسيط : ج ١٩٦/١) .

تَهَرَّ (١) ، فلما دنونا منها استلقت على ظهرها فإذا هي تشخب (٢) لينا ، فقال : « ذَهَبَ كَلْبُهُمْ (٣) ، وَأَقْبَلَ دَرُهم ، وَهم سَائِلُوكم بِأَرْحَامِكُمْ ، وَإِنكُمْ لَأَقُونَ بَعْضَهُم ، فَإِنْ لَقَيْتُمْ أَبَا سَفِيَانَ فَلَا تَقْتُلُوهُ » (٤) .

وعند ابن إسحاق أن العباس ، رضي الله عنه ، لما خرج ليلاً يلتمس من يخبر قريشاً بأمر النبي ﷺ ، لقي أبا سفيان فحمله معه على البغلة . قال العباس رضي الله عنه : فوالله إني لأسير على بغلة رسول الله ﷺ وألتس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبُذِلَ بن وَرْقَاءَ وهما يتراجعا ، فعرفت صوت أبي سفيان ، فقلت : يا أبا حنظلة ! فعرف صوتي ، فقال : أبو الفضل ؟ فقلت : نعم ، قال : مالك فذاك أبي وأمي ، قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله ﷺ في الناس ، واصباح قريش والله !! قال : فا الحيلة فذاك أبي وأمي ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك ، قال : فركب خلفي ، ورجع أصحابه .

فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلي ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عرف فقال : يا رسول الله ! هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلاضرب عنقه ، قلت : يا رسول الله ! إني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة دوني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلاً يا عمر ! فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف ، فقال : مهلاً يا عباس ! فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله ﷺ : « اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ ، فَإِذَا أَصْحَحْتَ قَاتِنِي بِهِ » ، فذهبت به إلى رحلي ، فبات عندي ، فلما نودي بصلاة الصبح ثار الناس ، ففزع أبو سفيان وقال : ماذا يريدون ؟ قلت : الصلاة ، فلما أبصر أبو سفيان المسلمين يتبدرون وضوء رسول الله ﷺ ، وأبصرهم في صلاتهم يركعون إذا ركع ويسجدون إذا سجد ، قال : يا عباس ! ما أمرهم بشيء إلا فعلوه ؟ فقلت : لونهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه ، فقال : ما رأيت ملكاً قط كالليلة ولا ملك كسرى ولا ملك قيصر ، ثم قال : كلمه في قومك هل عنده من عفو عنهم ؟

فانطلق العباس ، رضي الله عنه ، بأبي سفيان حتى أدخله على رسول الله ﷺ ، فلما رآه قال له : « وَيْحَكَ يَا أبا سَفِيَانَ ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ » قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !!! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد ، قال : « وَيْحَكَ يَا أبا سَفِيَانَ ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ » قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !!! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً ، فقال له العباس : ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق فأسلم .

وفي رواية : أن أبا سفيان وحكيم بن حزام وبُذِلَ بن وَرْقَاءَ لما دخل بهم العسكر لقيهم العباس ، رضي الله عنه ، فأجارهم ، فدخلوا على رسول الله ﷺ ، فأسلم حكيم وبديل ، وتأخر أبو سفيان بإسلامه حتى أصبح . وقال أبو سفيان وحكيم : يا رسول الله ! أجيئت بأوباش الناس ؛ من يعرف ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هُم أَطْلَمُ وَأَفْجَرُ ، قَدْ غَدَرْتُمْ بَعْدِي الْخُدَيْيَةَ ، وَظَاهَرْتُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالْعَدُوَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ وَأَمْنِهِ » ، فقال بديل : قد صدقت يا رسول الله ، فقد غدروا بنا ، والله

(١) هَرَّ الْكَلْبُ : إِذَا نَبَحَ وَكَثَّرَ عَن أَنْبَاءِهِ ، وَقِيلَ : هُوَ صَوْتُهُ دُونَ نَبَاحِهِ (النهاية : ج ٢٥٩/٥) .

(٢) شَخِبَ اللَّبَنُ : خَرَجَ مِنَ الضَّرْعِ مَشْبُوعاً صَوْتُهُ (الوسيط : ج ٤٧٧/١) .

(٣) أَي : أَذَاهُمْ وَشَرُّهُمْ . انظر : (الوسيط : ج ٨٠٠/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٦/٥) كتاب المغازي - باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ، والمستدرک

(ج ٥٩٥/٣) ، وجمع الزوائد (ج ١٦٤/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٥/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٦/٥ ، ٣٩ ، ٤٨) .

لأن قريشاً خلّوا بيننا وبين عدونا ما نالوا منا الذي نالوا ، فقال أبو سفيان وحكيم : قد كنت يا رسول الله حقيقاً أن تجعل عدتكم وكيدك لهوازن ؛ فإنهم أبعد رجياً وأشدّ عداوة ، فقال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن يجمعهما لي ربي ؛ فتح مكة وإغراز المسلمين بها ، وهزيمة هوازن وغنيمه أموالهم وذرايرهم » ، فقال أبو سفيان وحكيم : يا رسول الله ! ادع لنا بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آمنون هم ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم ، من كف يده وأغلق دارة فهو آمن » ، قال العباس : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم فهو آمن » . ودار أبي سفيان بأعلى مكة ، ودار حكيم بأسفلها^(١) .

مغادرة النبي ﷺ مَرَّ الظُّهْران إلى مكة :

ثم غادر رسول الله ﷺ مَرَّ الظُّهْران ، وأمر العباس ، رضي الله عنه ، أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل^(٢) حتى تمر به جنود الله فيراها ، فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ .

وفي رواية : أن العباس ، رضي الله عنه ، قال للنبي ﷺ : يا رسول الله ! إني لأمن أبا سفيان أن يرجع عن إسلامه فيكفر ، فأردده حتى تقفه فيرى جنود الله معك . فأدركه العباس فحبسه ، فقال أبو سفيان : أعدراً يا بني هاشم ؟ قال العباس : ستعلم أنا لسنا نغدر ولكن لي إليك حاجة ، فأصبح حتى تنظر إلى جنود الله وإلى ما أعد الله للمشركين ، فحبسه بالمضيق مع حكيم وبديل .

وكان رسول الله ﷺ قد أمر منادياً فنادى : لتصبح كل قبيلة عند راية صاحبها وتظهر مامعها من الأداة والعدة ، فأصبح الناس على ظهر ، وجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان ، كلما مرت قبيلة قال : يا عباس ! من هذه ؟ فيقول : سئيم ، فيقول : مالي وسئيم ؟ ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس ! من هذه ؟ فيقول : هذه غفار ، فيقول : مالي ولغفار ؟ ثم مرت أسلم ثم مزيئة ثم جهينة ثم سعد بن هذيم وهم من قضاة ، ثم أشجع حتى نفذت القبائل ، ماتمر به قبيلة إلا يسأل العباس عنها ، فإذا أخبره قال : مالي ولبي فلان ؟ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء^(٣) ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، ورسول الله ﷺ على ناقته القصواء ، ورايته مع الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، وراية الأنصار مع سعد بن عباد ، رضي الله عنه ، فقال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟ فقال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد هؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال العباس : ويحك يا أبا سفيان ! إنها النبوة ، قال : فنعم إذن - وفي رواية : قال العباس : هذه كتيبة النبي ﷺ ، مع هذه الموت الأحمر ، هؤلاء المهاجرون والأنصار ، فقال : امض يا عباس ، فلم أر كاليوم جنوداً قط ولا جماعة .

ثم قال له العباس : النجاء^(٤) إلى قومك ، فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة ، وصرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبيل لكم به ، فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الخميث^(٥) الدسيم الأحمس^(٦) ، قُبِح من طليعة قوم !! وقيل : إنها أخذت بلحيته ونادت يا آل غالب ! اقتلوا هذا الشيخ الأحق ، هلاً

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠/٤ - ٢١) ، وجمع الزوائد (ج ١٦٦/٦) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٦/٥ ، ٣٩) .

(٢) الخَطْمُ والخَطْمَةُ : زعنُ الجَبَل ، وهو الأنفُ النَّادِرُ منه ، ورؤي حَطْمُ الجَبَل : وهو الموضع الذي حَطَمَ منه ؛ أي : ثلِمَ فبقي مُتَقَطِعاً ، ويحتلُّ أن يُريدَ عندَ مضيقِ الجَبَلِ حيثُ يَرُحَمُ بعضهم بعضاً (النهاية : ج ٤٠٢/١) .

(٣) يُقالُ : كَتَيْبَةٌ خَضْرَاءُ ؛ إذا غَلَبَ عليها لُبْسُ الحديدِ ، شُبَّهَ سَوَادُهُ بالخَضْرَاءِ . والعَرَبُ تُطَلِّقُ الخَضْرَاءَ على السَّوَادِ (النهاية : ج ٤٢/٢) .

(٤) النَجَاءُ : السَّرْعَةُ (النهاية : ج ٢٥/٥) .

(٥) الخَمِيثُ : السَّرْقُ الذي يكون فيه السُّنُّ والرُّبُّ ، فأرادتُ أن تُتَسَبَّهَ إلى الصَّخَمِ والسَّمَنِ . انظر : (النهاية : ج ٤٣٦/١) ، والروض الأنف (ج ٩٩/٤) .

(٦) الدَّسِيمُ : الأسودُ اللَّبِّيُّ ، والأحمسُ هنا : الذي لا خيرَ عندهُ ، من قولهم : عامٌ أحْمَسُ إذا لم يكن فيه مطرٌ . انظر : (لسان العرب : ج ١٣٧/٢) ، والروض الأنف (ج ٩٩/٤) .

قاتلتهم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟ فقال لها : ويلك ! جاء بالحق ؛ فاسكتي وادخلي بيتك ، وأقسم بالله إن لم تُسلمي لتضربن عنقك ، ثم التفت إلى قومه وقال : ويلكم ! لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ! وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه وكف يده فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فترق الناس إلى دورهم وإلى المسجد^(١) .

نزع النبي ﷺ الراية من سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه :

تقدّم أن راية الأنصار كانت مع سعد بن عبادَةَ ، رضي الله عنه ، فلما مرّ بها على أبي سفيان وهو محبوس بالمضيّق ، قال له سعد : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحُرمة أو الكعبة ، اليوم أذلّ الله قريشاً ، فقال أبو سفيان للعَبَّاس : حبّذا يوم الدُّمار^(٢) ، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان ناداه : يا رسول الله ! أمرت بقتل قومك ؟ فقال : « لا » ، قال : ألم تعلم ما قال سعد بن عبادَةَ ؟ قال : « ما قال ؟ » قال : قال كذا وكذا ، وإني أنشدك الله في قومك ، فأنت أبرّ الناس وأرحمهم وأوصلهم ، فقال رسول الله ﷺ : « اليوم يوم المَرَحمة ، اليوم أعزّ الله فيه قريشاً » أو قال : « كدّب سعد ، ولكن هذا يوم يعظّم الله فيه الكعبة ، ويوم تُكسى فيه الكعبة » ، وقال عثمان بن عفّان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما : يا رسول الله ! والله ما نأمن سعداً أن تكون له في قريش صولة ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادَةَ فنزع اللواء من يده وجعله بيد قيس ابنه ، ورأى رسول الله ﷺ أن اللواء لم يخرج منه إذ صار إلى ابنه قيس ، ويقال : بل قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « أدركه فخذ الرّاية منه ، فكن أنت الذي تدخل بها »^(٣) .

نزول النبي ﷺ بذي طوى وتنظيمه الجيش :

ومضى رسول الله ﷺ في سيره حتى إذا انتهى إلى ذي طوى فرّق جيشه ، فجعل خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، على المُجَنَّبَة^(٤) اليمن وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب ، وأمره أن يدخل مكة من أسفلها من كدى ، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وجعل الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، على المُجَنَّبَة اليسرى وفيها المهاجرين - وكانت معه راية رسول الله ﷺ - وأمره أن يدخل مكة من أعلاها من كداء ، وأن يغرز رايته بالْحَجُون^(٥) ، ولا يبرح حتى يأتيه ، وجعل على مقدّمته قيس بن سعد بن عبادَةَ ، رضي الله عنهما ، في كتيبة الأنصار ومعه الراية ، وجعل أبا عبيدة بن الجراح ، رضي الله عنه ، على الرّجال والحُسُر ، وأمره أن يأخذ بطن الوادي حتى ينصبّ لمكة بين يدي رسول الله ﷺ . (انظر : مصور فتح مكة المكرمة) .

وقيل : إنه أمر قيساً أن يدخل من كداء ، والزبير من كدى ، وخالد بن الوليد من اللّيط ، ودخل هو ﷺ من أواخر .

وعهد رسول الله ﷺ لأمرائه أن لا يقاتلوا إلاّ من قاتلهم ، ونهاهم عن قتل النساء والصبيان ، وأن لا يجهزوا على جريح ، ولا يتبعوا مدبراً .

واستثنى رسول الله ﷺ نفرأ من المشركين من الدخول في الأمان ، وأمر بقتلهم وإن وجدوا متعلّقين بأستار الكعبة .

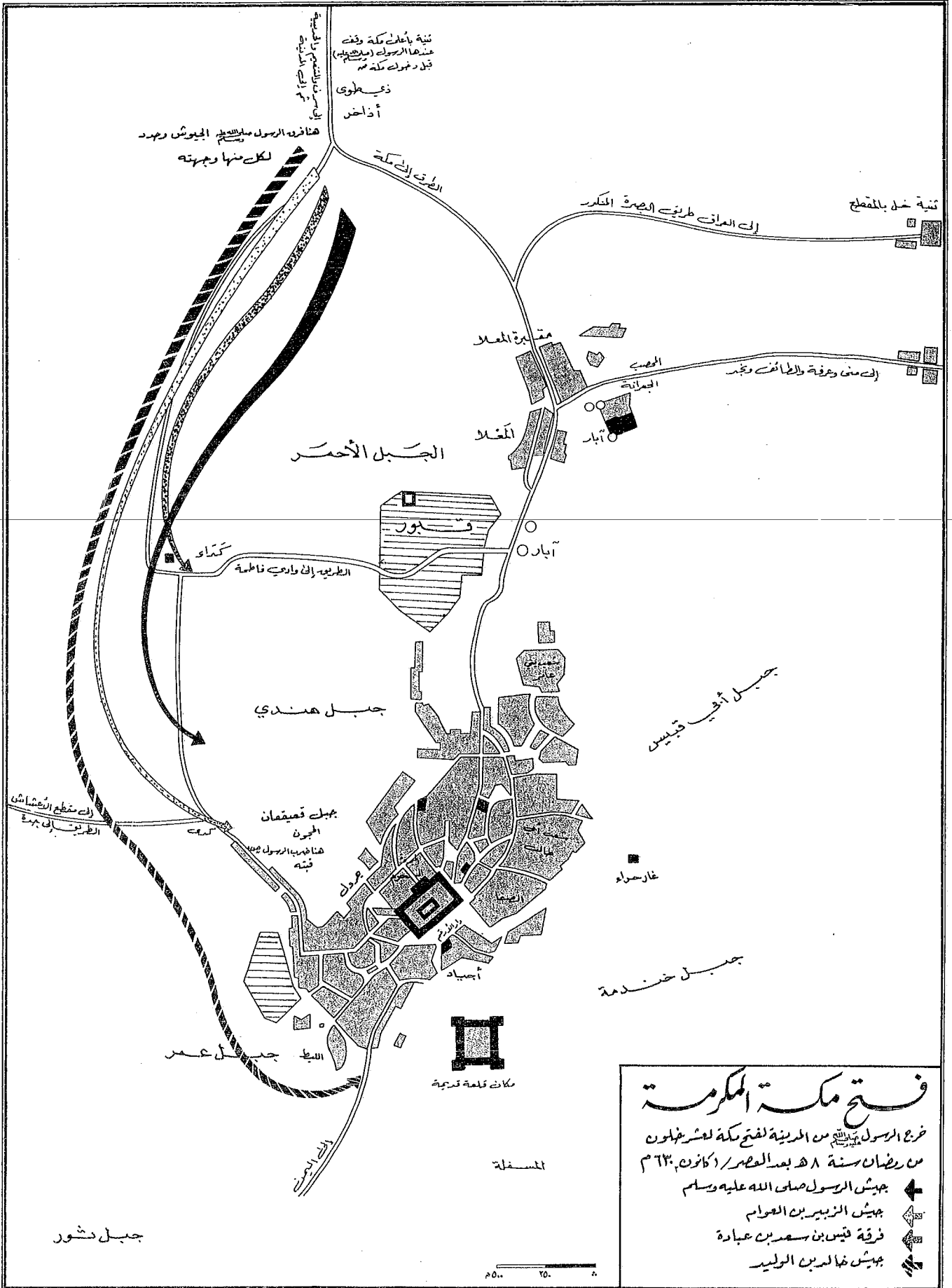
(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢/٤ - ٢٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٦/٥) كتاب المغازي - باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ، وجمع الزوائد (ج ١٧٢/٦ - ١٧٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٥/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤١/٥ ، ٤٤) .

(٢) الدُّمار : يريد الحرب ؛ لأنّ الإنسان يُقاتل على ما يلزمه حفظه . قال الخطابي : تمنى أبو سفيان أن يكون له يد فيحمي قومه ويدفع عنهم ، وقيل : المراد هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم لمن قدر عليه . انظر : (النهاية : ج ١٦٧/٢) ، وفتح الباري (ج ٨/٨) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٧/٥) كتاب المغازي - باب أين ركز ... ، وعيون الأثر (ج ١٧١/٢) .

(٤) المُجَنَّبَتان من الجيش : المُيَمِّنة والمُيَمِّنة (لسان العرب : ج ٦٩١/١) .

(٥) وفي ذلك المكان بني مسجد يقال له مسجد الراية . انظر : السيرة الحلبية (ج ٨٢/٣) .



ثنية بأعلى مكة وقد
عندها الرسول (صلى الله عليه وسلم)
قبل دخوله مكة ثم
ذبي طوى
أذخر

هنا فيه الرسول صلى الله عليه وسلم
لكن منها وجهته

ثنية خلد بالمقطع

لك العاقبة طريقه الصخر المتكسر

مقبرة المعلا

الوصف
الجميلة

لك منى وعرفة والطائف ويحدها

الجبل الأحمر

قصور

آبار

الطريق الى وادي فاطمة
سماوي

جبل هندي

جبل أشيب قبيس

جبل قمیقمان
المجون
هنا فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم)
ثنته

غار حراء

جبل خندامة

الطريق الى جبل عمر

مكة قلعة قديمة

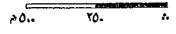
المسافة

فتح مكة المكرمة

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة لفتح مكة لعشر فلبان
من رمضان سنة ٨ هـ بعد العصر / كانون ٢٣ ٣٦٣

- ← جيش الرسول صلى الله عليه وسلم
- ← جيش الزبير بن العوام
- ← فرقة قيس بن سعد بن عبادة
- ← جيش خالد بن الوليد

جبل دشور



وكان العباس ، رضي الله عنه ، استأذن رسول الله ﷺ أن يأتي أهل مكة فيدعوهم إلى الإسلام ، فلما انطلق بعث في أثره وقال : « رُدُّوا عَلَيَّ عَمِّي لَا تَقْتُلُوهُ الْمُشْرِكُونَ » ، فأبى أن يرجع حتى أتى مكة ، فقال : أي قوم ! أسلموا تسلموا ، أتيتم أتيتم ، واستبطنتم بأشهب بازل^(١) ، هذا خالد بأسفل مكة ، وهذا الزبير بأعلى مكة ، وهذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار وخزاعة .

وَوَبَّشَتْ قَرِيشَ أُوبَاشًا^(٢) لها وأتباعاً من بني بكر وبني الحارث ابني عبد مناة وهذيل ، وأمرتهم أن يكونوا بأسفل مكة ، وقالوا : نقدّم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم ، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا ، فلما علم بهم رسول الله ﷺ نادى أبا هريرة فقال : « اذْعَ لِي الْأَنْصَارَ » ، فدعاهم ، فجاءوا يهرولون ، فقال : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ! هَلْ تَرَوْنَ أُوبَاشَ قَرِيشٍ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أَنْظَرُوا إِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ غَدًا أَنْ تَحْصِدَهُمْ وَهُمْ حَصْدًا حَتَّى تَوَافُونِي بِالصَّفَا »^(٣) .

دخول المسلمين مكة وشأن أهل الخندمة^(٤) :

ومضت كل كتبية من الجيش الإسلامي على الطريق التي أمرت الدخول منها ، ولم تلق أي مقاومة ، إلا خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، فقد اندفع حتى دخل من أسفل مكة ، فلقيه صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل بالخندمة ، في جمع من أوباش قريش وأتباعها ، فنعوه من الدخول ، وشهروا السلاح ، ورموه بالنبل ، وقالوا : لا تدخلها عنوة ، فصاح خالد في أصحابه وقتالهم ، فقتل قريباً من عشرين رجلاً من بني بكر ، وأربعة من هذيل ، وانهمزوا أقيح الانهزام ، واستمر خالد ، رضي الله عنه ، يدفعهم إلى أن وصل بهم إلى الحزونة ، حتى انتهى بهم القتل إلى باب المسجد ، وصاح أبو سفيان : من أغلق بابيه وكفّ يده فهو آمن ، فجمعوا يقتحمون الدور ويغلقون أبوابها ، وصعدت طائفة منهم على الجبال فتبعهم المسلمون بالسيوف يقتلونهم .

وكان فيمن انهزم حِمَاسُ بن قيس رجل من بني بكر ، وقد كان قبل دخول المسلمين يُعدّ سلاحاً ويصلح منه لقتالهم ، فقالت له امرأته : لماذا تعدّ ما أرى ؟ قال : لحمّد وأصحابه ، قالت : والله ما أرى أنه يقوم لحمّد وأصحابه شيء ، قال : والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم ، فلما رجع حِمَاسُ منهزماً ودخل بيته قال لامرأته : أغلقتي عليّ يا بني ، قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إذ قرّ صفوان وفرّ عكرمة	إنك لو شهدت يوم الخندمة
واستقبلتهم بالسيوف المسلمة	وأبو يزيد ^(٥) قائم كالمؤتمّة ^(٦)
ضرباً فلا يسمع إلا غغمه	يقطعن كل ساعد وجممه
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه	لهم نهيت ^(٧) خلفنا وهممه

وكان شعار المهاجرين يوم الفتح وحنين والطائف : يا بني عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يا بني عبد الله ، والأوس : يا بني عبّيد الله .

وقتل من خيل خالد يومئذ رجلان شداً عنه ، فسلكا طريقاً غير طريقه ، فقتلا جميعاً ، وهما كُرُز بن جابر الفهري ،

(١) أي رميتهم بأمرٍ صعبٍ شديدٍ لاطاقة لكم به . يُقال : يَوْمَ أَشْهَبَ وَجَيْشَ أَشْهَبَ ؛ أي : قويٌّ شديدٌ ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّدَّةِ وَالْكَرَاهَةِ ، وَجَعَلَهُ بَازِلًا لِأَنَّ بَزُولَ الْبَعِيرِ نِهَائِيَّةٌ فِي الْقُوَّةِ (النهاية : ج ٥١٢/٢) .

(٢) أي : جمعت له جموعاً من قبائل شتى (النهاية : ج ١٤٦/٥) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥/٤ ، ٢٦ ، ٢٨) ، وصحيح مسلم (ج ١٤٠٥/٣ ، ١٤٠٧) كتاب الجهاد والسير - باب فتح مكة ح ٨٤ وح ٨٦ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١١٥/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٥/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤١/٥) ، وفتوح البلدان (ص : ٥١ ، ٥٢) .

(٤) الخندمة : جبل بمكة .

(٥) هو سهيل بن عمرو .

(٦) يُقال : أُيْتِمَّتِ الْمَرْأَةُ فِيهِ مُؤْتِمٌّ وَمُؤْتِمَّةٌ إِذَا كَانَ أَوْلَادُهَا أُيْتِمَامًا (النهاية : ج ٢٩٢/٥) .

(٧) النَّهْيُ : صَوْتٌ يَخْرُجُ مِنَ الصَّدْرِ شَبِيهًا بِالزَّجْرِ (النهاية : ج ١٣٤/٥) .

رضي الله عنه ، وحَبِيش بن خالد ، ويقال حَنيس بن خالد - وخالد يدعى الأشعر - وهو أخو معبد ، رضي الله عنه ، وأصيب من خيله أيضاً سَلَمَة بن المَيْلَاء الجَهَنِي رضي الله عنه .

وأقبل رسول الله ﷺ في المهاجرين ، فلما علا نثية أذاخِر رأى البارِقَة (١) على الجبل مع فَضْض (٢) المشركين ، فقال : « مَا هَذَا ؟ وَقَدْ نَهَيْتُ عَنْ الْقِتَالِ ؟ » فقالوا : نَظُنُّ أَنَّ خَالِدًا قَتَلَ وَبَدِءَ بِالْقِتَالِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَدٌّ مِنْ أَنْ يِقَاتِلَ مِنْ قَاتِلِهِ ، وَمَا كَانَ يَرْسُولُ اللَّهَ لِيُعْصِيكَ وَلَا يَخَالَفَ أَمْرَكَ .

وجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ! أبيحت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَلْقَى السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ » . ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى خالد يأمره أن يرفع يده من القتل ، فلما قدم خالد عليه لأمه رسول الله ﷺ وقال له : « لِمَ قَاتَلْتَ وَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنِ الْقِتَالِ ؟ » فقال : هم بدؤونا بالقتال ، ووضعوا فينا السلاح ، وأشعرونا بالنبل ، وقد كفت يدي ما استطعت ، فقال رسول الله ﷺ : « قَضَاءُ اللَّهِ خَيْرٌ » ، ثم قال : « كَفُّوا عَنِ السَّلَاحِ إِلَّا خِرَاعَةَ عَن بَنِي بَكْرِ » فأذن لهم إلى صَلَاةِ الْعَصْرِ .

وهبط رسول الله ﷺ من أذاخِر حتى نزل على الْحَجُّونَ بأعلى مكة ، فوقف وقال : « إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَوْلَمْ أُخْرِجْ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ » . وكان الزبير بن العوام ، رضي الله عنه ، قد تقدّمه إليها بأمره ، ونصب عندها رايته ، فما برح حتى أتاه رسول الله ﷺ ، وضربت له هناك قُبَّةً مِنْ أَدَمِ .

يروى أن رسول الله ﷺ لما نظر إلى موضع قُبَّتِهِ قال : « هَذَا مَنْزِلُنَا يَا جَابِرَ حَيْثُ تَقَاتَمَتْ عَلَيْنَا قُرَيْشٌ فِي كُفْرِهَا (٣) » ، قال جابر : فذكرت حديثاً كنت أسمعُه منه ﷺ قبل ذلك بالمدينة : « مَنْزِلُنَا غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا مَكَّةَ فِي الْخَيْفِ حَيْثُ تَقَاتَمُوا عَلَى الْكُفْرِ » ، فقيل له : ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ قال : « فَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مَنْزِلًا ؟ » - وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة - فقيل له : فانزل في بعض بيوت مكة في غير منازلك ! فأبى رسول الله ﷺ وقال : « لَا أُدْخِلُ الْبُيُوتَ » ، فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً حتى خرج من مكة (٤) .

ثم نهض رسول الله ﷺ حتى دخل مكة من كداء في كتيبه الخضراء ، بين أبي بكر وأسيّد بن خضير ، رضي الله عنهما ، وذلك بكرة يوم الجمعة لعشر ليالٍ بقين من رمضان ، وهو راكب على ناقته القصواء مردفاً أسامة بن زيد ، رضي الله عنهما ، خلفه ، معتجراً بشقّة بُرْدِ حَبْرَةَ حِمْرَاءَ - وقيل : على رأسه المغفر ، وقيل : عليه عمامة سوداء - واضعاً رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عُثْنُونَهُ (٥) ليكاد يَمَسُّ واسطة الرُّحْلِ ، وهو يقرأ سورة الفتح يُرْجِعُ (٦) فيها صوته . وعبد الله بن أم مكتوم ، رضي الله عنه ، بين يديه وهو يقول :

يَا حَبِّبًا نَا مَكَّةَ مِنْ وَادِي أَرْضِ هَاهُنَا أَهْلِي وَعُوْدَايِ
أَرْضِ هَاهُنَا أَمْشِي بِلَا هَادِي أَرْضِ هَاهُنَا تَرَسَخَ أَوْ تَادِي

(١) الْبَارِقَةُ : اللَّامِعَةُ ، صِفَةٌ لِمُخْدَوْفٍ ؛ أَيْ السُّيُوفِ . انظر : (النهاية : ج ١٢٠/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢١٠/٢) .

(٢) فَضْضٌ : تَفَرُّقٌ مُتَقَرِّفُونَ (لسان العرب : ج ٣٤٢٧/٥) .

(٣) وذلك أن قريشاً وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ ليقتلوه كما مر معنا في أول السيرة . وانظر : صحيح البخاري (ج ١٨١/٢) كتاب الحج - باب نزول النبي ﷺ مكة .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٤ - ٢٧) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٧/٥) كتاب المغازي - باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ، وصحيح مسلم (ج ١٤٠٥/٣ ، ١٤٠٧) كتاب الجهاد والسير - باب فتح مكة ح ٨٤ وح ٨٦ ، وجمع الزوائد (ج ٢٨٤/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٦/٢ ، ١٣٧) ، ودلائل البيهقي (ج ٤٤/٥) ، ومغازي الواقدي (ج ٨٢٨/٢ ، ٨٢٩) .

(٥) الْعُثْنُونُ : اللَّحْيَةُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٦) التَّرْجِيْعُ : تَرْجِيْدُ الْقِرَاءَةِ ، وَمِنْهُ تَرْجِيْعُ الْأَذَانِ ، وَقِيلَ : هُوَ تَقَارُبُ الْحَرَكَاتِ فِي الصَّوْتِ (النهاية : ج ٢٠٢/٢) .

يروى أنه لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر^(١) ، فتبسم إلى أبي بكر وقال :
« يَا أَبَا بَكْرٍ ! كَيْفَ قَالَ حَسَّانُ ؟ » فأشده قوله :

عَسِدِمَتِ بَنِيَّيَ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
تَثِيرُ النَّعْمَ مَوْعِدَهَا كَدَاءَ
يَنَازِعُنَ الْأَعْنَةَ مُسَرَّجَاتٍ
يَلْطَمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءَ

فقال رسول الله ﷺ : « اذْخُلُوهَا مِنْ حَيْثُ قَالَ حَسَّانُ »^(٢) .

اغْتَسَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَلَاتِهِ فِي دَارِ أُمِّ هَانِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :

ولما ارتفع النهار أتى النبي ﷺ دار أم هانئة بنت أبي طالب ، رضي الله عنها ، فاغتسل ، ثم صلى ثماني ركعات في بيتها وذلك
ضحى . قالت أم هانئة : لم أره ﷺ صلى صلاة أخفت منها ، غير أنه يتم الركوع والسجود .

وتُعرف هذه الصلاة عند أهل العلم بصلاة الفتح ، وكان الأمراء يصلونها إذا افتتحوا بلدًا^(٣) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال لأُمِّ هَانِيَةَ يوم الفتح وكان جائعاً : « هَلْ عِنْدَكَ مِنْ طَعَامٍ
تَأْكُلُهُ ؟ » فقالت : ليس عندي إلا كَبِيرٌ يَابِسَةٌ ، وإني لأَسْتَحِي أن أقدِّمها إليك ، فقال : « هَلَمْ يَبِئْسَ » ، فكسَّرهن في ماء ، وجاءت
بملح ، فقال : « هَلْ مِنْ إِدَامٍ ؟ » فقالت : ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خلٍّ ، فقال : « هَلَمْ يَبِئْسَ فَصَبِّبِي عَلَى الطَّعَامِ » ، فأكل منه ،
ثم حمد الله ، ثم قال : « نَعَمْ الإِدَامُ الْخَلُّ يَا أُمَّ هَانِيَةَ ، لَا يَفْقُرُ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ »^(٤) .

إِجَارَةُ أُمِّ هَانِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَرِيبِينَ لَهَا :

وأجارت أم هانئة ، رضي الله عنها ، حمّوين لها من بني مخزوم كانا فرّا إليها ، فقال النبي ﷺ : « قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرَتْ
يَا أُمَّ هَانِيَةَ ، وَأَمَّا مَنْ أَمَّنْتَ » . والرجلان هما الحارث بن هشام بن المغيرة ، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة - وقيل : عبد الله بن
أبي ربيعة - وقد كان أخوها علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، أراد أن يقتلها ، فأغلقت عليها باب بيتها ، وذهبت إلى النبي ﷺ ،
فرحّب بها وأمضى جوارها . قال الحارث بن هشام : وجعلت أستحي أن يراني رسول الله ﷺ ، وأذكر رؤيته إيّاي في كل موطن من
المشركين ، ثم أذكر برّه ورحمته ، فألقاه وهو داخل المسجد فتلقاني بالبشر ، ووقف حتى جئته ، فسلمت عليه وشهدت شهادة الحق ،
فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ ، مَا كَانَ مِثْلَكَ يَجْهَلُ الْإِسْلَامَ » ، قال الحارث : فوالله ما رأيت مثل الإسلام جهل^(٥) .

طَوَافُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْبَيْتِ وَتَطْهِيرُهُ الْمَسْجِدَ مِنَ الْأَصْنَامِ :

ثم أتى رسول الله ﷺ المسجد ، وأصحابه بين يديه وخلفه وحوله يهللون ويكبرون ، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه بمخجن
في يده ، ثم طاف بالبيت سبعا على راحلته ، وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم مشدودة بالرصاص ، فجعل كلما دنا من صنم يطعنها

(١) الخمر : جمع خمار ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها (لسان العرب : ج ١٢٦١/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤/٤ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٦٥) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٨/٥ ، ١٨٩) كتاب المغازي - باب أين ركز النبي ﷺ الراية ...
باب دخول النبي ﷺ من أعلى مكة ، و (ج ١٩٢/٩) كتاب التوحيد - باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربّه ، وصحيح مسلم (ج ٩٩٠/٢) كتاب
الحج - باب جواز دخول مكة بغير إحرام ح ٤٥١ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٥/٢ ، ١٣٧ ، ١٤١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٦٦/٥ ، ٦٨ ،
١٠٣) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨٩/٥) كتاب المغازي - باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح ، وصحيح مسلم (ج ٤٩٨/١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها -
باب استحباب صلاة الضحى ح ٨١ ، والروض الأنف (ج ١٠٣/٤) .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٧٥/٦) وقال : رواه الطبراني في الصغير وفيه سمنان بن الوليد ولم أعرفه .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٠٠/١) كتاب الصلاة - باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفاً به ، وللمستدرك
(ج ٢٧٧/٣) .

بحجته ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١) ، ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُهُ ﴾ (٢) ، فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم إلا وقع . ويروى أنه لما أتى على إساف ونائلة ، وهما عند المقام ، قال : « عَفَّرُوهُمَا » ، فألقاهما للمسلمون ، قال : « قُولُوا » ، قالوا : ما نقول يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا : صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحَدَّهُ » ، وأمر بهبل فكسر وكان وجاه الكعبة ، فقال الزبير بن العوام لأبي سفيان : يا أبا سفيان ! قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور ، حين تزعم أنه قد أنعم ، فقال أبو سفيان : دع هذا عنك يا ابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان !

فلما فرغ رسول الله ﷺ من طوافه نزل عن راحلته ، ثم انتهى إلى المقام وهو لاصق بالكعبة - فأخبره رسول الله ﷺ إلى مكانه اليوم - فصلى ركعتين ، ثم انصرف إلى زمزم وقال : « لَوْلَا أَنْ تُغْلَبَ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَنَزَعْتُ مِنْهَا دَلْوًا (٣) » ، فنزع له العباس ، رضي الله عنه ، دلوا فشرب منه وتوضأ ، والمسلمون يبتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم ، والمشركون ينظرون إليهم ويعجبون ويقولون : ما رأينا ملكاً قط بلغ هذا ولا سمعنا به .

ثم أتى رسول الله ﷺ الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت ، ورفع يديه ، فجعل يحمد الله ويدعو ماشاء أن يدعو ، ولم يسح بين الصفا والمروة لأنه لم يكن محرماً يومئذ ، فاقتصر على الطواف بالبيت (٤) .

تخوف الأنصار من بقاء النبي ﷺ بمكة :

ولما قام رسول الله ﷺ على الصفا يدعو ، قالت الأنصار بعضهم لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ، ورأفة بعشيرته ، أترونها إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فنزل الوحي على النبي ﷺ بما ذكر القوم ، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ! » قالوا : لبيك يا رسول الله ! قال : « قُلْتُمْ : أَمَّا الرَّجُلُ فَأُدْرِكْتَهُ رَغْبَةٌ فِي قَرِيَّتِهِ » ، قالوا : قد كان ذلك ، فقال : « كَلَّا ، إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ (٥) » ، هاجرت إلى الله وإليك ، والمخنياً محيياًكم ، والمماتاً مماتكم .

وفي رواية : أنه لما فرغ ﷺ من دعائه قال لهم : « ماذا قُلْتُمْ ؟ » قالوا : لاشيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال : « مَعَادَ اللَّهِ ، الْمَخْيَا مَحْيَاكُمْ ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ » .

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن (٦) بالله وبرسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيُعْذِرَانِكُمْ » (٧) .

دخول النبي ﷺ الكعبة وتطهيرها من الصور :

ثم جلس رسول الله ﷺ في ناحية المسجد ، ودعا عثمان بن طلحة حاجب الكعبة ، فقال له : « أئنتي بالمفتاح » ، فذهب إلى أمه ، فأبت أن تعطيه ، فقال : والله لتعطينيه أو ليخرجن هذا السيف من صلي ، فأعطته إياه ، فجاء به إلى النبي ﷺ فدفعه إليه ،

(١) الإسراء : ٨١ .

(٢) سبأ : ٤٩ .

(٣) نَزَعْتُ الدَّلْوُ أَنْزَعْتُهَا نَزْعًا : إِذَا أَخْرَجْتَهَا . وَأَصْلُ النَّزْعِ : الْجَذْبُ وَالْقَلْعُ (النهاية : ج ٤١/٥) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١/٤ ، ٢٧) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٨/٥) كتاب للغازي - باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ، وصحيح مسلم (ج ١٤٠٦/٣) كتاب الجهاد والسير - باب فتح مكة ح ٨٤ ، وكنز العمال (ج ٥٢٠/١٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٦/٢) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٦٦٦/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٤٥/٥ ، ١٠٣) ، ومغازي الواقدي (ج ٨٢٢/٢) .

(٥) أي إن فعلت ذلك كيف أسمى وأوصف بأبي عبد الله ورسوله ؟ كلاً لأفعل ذلك إني عبد الله ورسوله ، فمن كان هذا وصفه لا يفعل ذلك . انظر : السيرة الحلبية (ج ٩٠/٣) .

(٦) الضَّنُّ : الْبُخْلُ وَالشُّحُّ ، والمعنى أي : بُخْلًا وَشَحًّا أَنْ يُشَارِكَنَا فِيهِ غَيْرِنَا (النهاية : ج ١٠٤/٣) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧/٤) ، وصحيح مسلم (ج ١٤٠٦/٣) كتاب الجهاد والسير - باب فتح مكة ح ٨٤ .

ففتح الباب ودخل الكعبة ، فرأى فيها صور الملائكة وغيرها ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ، في أيديهما الأزام يستقسمان بها ، فقال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ، لَقَدْ عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمُوا بِهَا قَطُّ » . ووجد في الكعبة حمامة من عيدان فكسرها بيده ، ثم طرحها ، وأمر بتلك الصور كلها فحيت .

ثم أغلق رسول الله ﷺ عليه الباب ، ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، رضي الله عنهم ، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب ، حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عموماً عن يساره وعمودين عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى هناك ركعتين وجلس ، فدعا الله ، عز وجل ، ساعة واستغفره ، ثم قام فدار في البيت وكبّر في نواحيه كلها ، ووحد الله وسبّحه واستغفره وسأله ، ثم خرج (١) .

ويروى أنه ﷺ صلى ركعتين بعدما خرج في قُبُل الكعبة وقال : « هَذِهِ الْقِبْلَةُ » (٢) ، ويروى أيضاً أنه لما خرج استلم البيت ووضع خده عليه ، فعن عبد الرحمن بن صفوان قال : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، قلت : لأبسن ثيابي ، وكان داري على الطريق ، فلأنظرن ما يصنع رسول الله ﷺ ، فانطلقت فوافقت رسول الله ﷺ قد خرج من الكعبة ، وأصحابه قد استلموا البيت من الباب إلى الحطيم ، وقد وضعوا خدودهم على البيت ورسول الله ﷺ وسطهم ، فقلت لعمر : كيف صنع رسول الله ﷺ حين دخل الكعبة ؟ قال : صلى ركعتين (٣) .

خطبة النبي ﷺ على باب الكعبة وعفوه عن أهل مكة :

ثم وقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة وقد استكف له الناس (٤) ينتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضادي الباب وهم تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قلمي هاتين ، إلا سيادة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والخصا فيه الدية مغلظة ؛ مائة من الإبل أربعون منها في بطنها أولادها . يامعشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالأبء ، فالناس رجلان : برّ تقى كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، والناس من آدم وآدم من تراب » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٥) .

ثم قال : « يامعشر قريش ! ماترون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، أو قالوا : ابن أخ وابن عم حلیم رحيم ، قال لهم ذلك ثلاثاً ، وردوا عليه بمثل ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ : ﴿ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٦) ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » . فخرجوا كأنما نثروا (٧) من القبور ، فدخلوا في الإسلام (٨) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١/٤ ، ٣٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٣٤/١) كتاب الصلاة - باب الصلاة بين السواري في غير جماعة ، و (ج ١٨٤/٢) كتاب الحج - باب الصلاة في الكعبة ، و (ج ١٨٨/٥) كتاب المغازي - باب أين ركز النبي ﷺ الراية ... ، وصحيح مسلم (ج ١٦٦/٢) كتاب الحج - باب استحباب دخول الكعبة ... ح ٣٩٠ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢١٠/٥) و (ج ١٣٦/١) .

(٢) صحيح البخاري (ج ١١٠/١٦) كتاب الصلاة - باب قول الله تعالى ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

(٣) مسند الإمام أحمد (ج ٤٣١/٢) .

(٤) استكف له الناس : أحاطوا به واجتمعوا له (النهاية : ج ١٩٠/٤) .

(٥) الحجرات : ١٣ .

(٦) يوسف : ٩٢ .

(٧) يقال : نثر الميت ينثر نثوراً ، إذا عاش بعد الموت (النهاية : ج ٥٤/٥) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١/٤ ، ٣٢) ، وسنن الترمذي (ج ٢٨٩/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الحجرات ح ٣٢٧٠ ، ودلائل البيهقي

(ج ٥٨/٥) .

دفع النبي ﷺ مفتاح الكعبة إلى أهله :

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ومفتاح الكعبة في يده ، فقام إليه علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ! اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، أو قال : يا رسول الله ! لئن كنا أوتينا النبوة وأعطينا السقاية وأعطينا الحجابة ما قوم بأعظم نصيباً منا .

ويقال : إن الذي قال ذلك هو العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، وقد تناول يومئذ لأخذ المفتاح في رجال من بني هاشم . فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال له : « هَاكَ مِفْتَاحُكَ يَا عَثْمَانُ ! الْيَوْمَ يَوْمٌ يَرُّ وَوَفَاءٌ ، خَذُوهَا يَا بَنِي طَلْحَةَ تَالِدَةَ خَالِدَةَ ، لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ظَالِمٌ . يَا عَثْمَانُ ! إِنَّ اللَّهَ اسْتَأْمَنَكُمْ عَلَى بَيْتِهِ ، فَكُلُوا مِمَّا يَصِلُ إِلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ بِالْمَعْرُوفِ » .

قال عثمان : فلما وليت ناداني رسول الله ﷺ ، فرجعت إليه ، فقال : « أَلَمْ يَكُنْ الَّذِي قُلْتُ لَكَ ؟ » قال عثمان : فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة وقد أراد ﷺ أن يدخل الكعبة ، وكنا نفتحها في الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فلما أقبل ليدخلها أغلظت عليه ونلت منه ، وحلم علي ، ثم قال لي : « يَا عَثْمَانُ ! لَعَلَّكَ سَتَرَى هَذَا الْمِفْتَاحَ يَوْمًا بِيَدِي أَوْضَعَهُ حَيْثُ شِئْتُ » ، فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ ، فقال النبي ﷺ : « بَلْ عَمَرْتُ وَعَزَّتْ يَوْمئِذٍ » ، قال عثمان : فوقعت كلمته مني موقعاً ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال . فلما قال لي يوم الفتح ذلك ، قلت : بلى ، أشهد أنك رسول الله .

ويقال إن هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾^(١) نزلت في شأن عثمان بن طلحة ودفع المفتاح إليه^(٢) .

وذكر أن رسول الله ﷺ قال لعلي حين كلمه في المفتاح : « إِنَّا أُعْطِينَا مَاتَرَزُؤُونَ لَا مَاتَرَزُؤُونَ^(٣) » ، ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه^(٤) .

يلال رضي الله عنه يؤذن على ظهر الكعبة :

وحانت صلاة الظهر ، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن فوق ظهر الكعبة ، ففعل ، وكان أبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه ، فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه لمحق لا تتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ؛ لوتكلمت لأخبرت عني هذه الحصة . وقال غير هؤلاء من كفار قريش : لقد أكرم الله فلاناً أبي إذ قبضه قبل أن يرى هذا العبد على ظهر الكعبة يقول ما يقول . فخرج عليهم النبي ﷺ فقال : « قَدْ عَلِمْتُ الَّذِي قُلْتُمْ » ، ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطَّلَعُ على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك^(٥) .

روي عن ابن أبي مليكة قال : أمر رسول الله ﷺ بلالاً يوم الفتح فأذن فوق الكعبة ، فقال رجل من قريش للحارث بن هشام : ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟ فقال : دعاه ؛ فإن يكن الله يكرهه فسيغيره^(٦) .

(١) النساء : ٥٨ .

(٢) ولم يزل عثمان ، رضي الله عنه ، يلي فتح البيت إلى أن أشرف على الموت في خلافة معاوية ، رضي الله عنه ، فدفع المفتاح إلى ابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة ، فبقيت الحجابة في ولد شيبه . انظر : السيرة الحلبية (ج ١٠٧٣) .

(٣) أي إننا أعطيناكم ما تبدلون فيه أموالكم للناس وهو السقاية لا ماتأخذون فيه من الناس أموالهم وهي الحجابة لشرافكم وعلو مقامكم يقال : رجُلٌ مَرَزًا : أي : كريمٌ يصاب منه كثيراً . انظر : (لسان العرب : ج ١٦٣٤/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ١٠٧٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٧/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٧٧/٦) ، وكنز العمال (ج ٢٨٢/٢) ، وعيون الأثر (ج ١٧٨/٢ ، ١٧٩) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧٧/٥) .

(٦) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٧٧/٥) .

إسلام أبي قحافة :

ولما جلس رسول الله ﷺ في المسجد خرج أبو بكر، رضي الله عنه، وجاء بأبيه يقوده، وقد كان كُفَّ بصره، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: « هَلَا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ فِيهِ » وذلك تكريمة لأبي بكر، فقال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قال: « إِنَّا لَنَحْفَظُهُ لِأَيْدِيِ ابْنِهِ عِنْدَنَا »، فأجلسه رسول الله ﷺ بين يديه، ثم مسح صدره وقال له: « أَسْلِمَ تَسْلَمُ »، فأسلم، فهنا رسول الله ﷺ أبا بكر بإسلام أبيه، فقال أبو بكر: لأننا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحاً مني بإسلام أبي، ألمتس بذلك قرّة عينك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: « صَدَقْتَ ».

وكان رأس أبي قحافة ولحيته يوم فتح مكة كالشعامة^(١) بياضاً، فقال رسول الله ﷺ: « عَبَّرُوا هَذَا بِشَيْءٍ وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ ».

وكان لأبي بكر، رضي الله عنه، أخت صغيرة^(٢) في عنقها طوق من فضة، فلما دخلت خيل المسامين مكة يوم الفتح اقتلعه رجل من عنقها، فأخذ أبو بكر، رضي الله عنه، بيد أخته وقال: أنشد الله والإسلام طوق أختي، فلم يجبه أحد، فقال: أي أختية! احتسبي طوقك، فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل^(٣).

إسلام فضالة بن عمير :

روي أن فضالة بن عمير بن الملوّح اللبّيثي حدّث نفسه بقتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه رسول الله ﷺ قال: « أَفْضَالَةُ ؟ » قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: « مَاذَا كُنْتَ تَحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ ؟ » قال: لاشيء كنت أذكر الله، عز وجل، فضحك النبي ﷺ ثم قال: « اسْتَغْفِرِ اللَّهَ »، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فررت بامرأة كنت أهدّث إليها، فقالت: هلّم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة

يقول :

قالت هلّم إلى الحديث فقلت لا
لوما رأيت محمداً وقبيله
لرأيت دين الله أضحى بيدي
ياأبي عليك الله والإسلام
بالفتح يوم تكسر الأصنام
والشرك يغشى وجهه الإظلام^(٤)

إسلام السائب بن أبي السائب :

جاء إلى النبي ﷺ يوم الفتح بالسائب بن أبي السائب، وكان شريكاً له ﷺ في الجاهلية، فرحب به رسول الله ﷺ، وجعل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وآخرون يثنون عليه، فقال لهم ﷺ: « لَا تَعْلَمُونِي بِهِ، قَدْ كَانَ صَاحِبِي وَشْرِيكِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، كَانَ لَا يُدَارِي وَلَا يُبَارِي »، قال السائب: نعم يا رسول الله، فنيتم الصاحب كنت، قال: « يَا سَائِبُ! أَنْظِرْ أَخْلَاقَكَ الَّتِي كُنْتَ تَصْنَعُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَاجْعَلْهَا فِي الْإِسْلَامِ، أَقْرَ الضَّيْفِ، وَأَكْرَمَ الْيَتِيمِ، وَأَحْسِنُ إِلَى جَارِكَ »^(٥).

(١) الثَّغَامَةُ: نُبْتُ أبيضُ الزُّهْرِ والثَّمَرِ يُشَبَّهُ بِهِ الشَّيْبُ (النهاية: ج ١/٢١٤).

(٢) يقال: إنه لا يُعرف لأبي قحافة بنت إلا التي أنكحها أبو بكر، رضي الله عنه، من الأشعث بن قيس، وكانت قبله تحت تمم الداري، ويقال: كانت له بنت أخرى تسمى عربية فيحتمل أن تكون هي المذكورة هنا. انظر: السيرة الحلبية (ج ١/٨٩٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٤/٢٤)، وصحيح مسلم (ج ٣/١٦٦٣) كتاب اللباس - باب استحباب خضاب الشيب بصفرة أو حمرة ح ٧٩، والمستدرک (ج ٣/٢٤٤)، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٢/١٦٠)، ومجمع الزوائد (ج ٥/٣٠٥) و (ج ٦/١٧٤).

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٤/٣٧).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٢/٣٦٠)، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٣/٤٢٥).

إهدار النبي ﷺ دماء نفر من المشركين :

تقدّم أن رسول الله ﷺ لما كان بندي طوّى عهداً إلى أمرائه أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، وأمن الناس كلهم إلا نفرأ أهدر يومئذ دماءهم ، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، وهم ستة رجال وأربع نسوة :

عبد الله بن سعد بن أبي السرح العامري ، وعبد الله بن خطل الأذرمي ، والحوثير بن تقيذ ، ومقيس بن صبابة الليثي ، وهبار بن الأسود ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، وسارة مولاة لبعث بن عبد المطلب ، وقينتان^(١) لابن خطل .

فأما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فإنه كان أسلم قبل الفتح ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي ، فأزله الشيطان ، فارتدّ مشركاً ولحق بمكة ، فلما كان يوم الفتح ، وعلم بإهدار النبي ﷺ دمه فرّ إلى عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، وكان أخاه للرضاعة ، حتى إذا هدا الناس واطمأنوا استأمن له عثمان النبي ﷺ ، ثم أتى به إليه ، فقال : يا رسول الله ! بايع عبد الله ، فرجع رسول الله ﷺ رأسه فنظر إليه ثلاثاً ، كل ذلك يأبى ، فبايعه بعد ثلاث . فلما انصرف عثمان وعبد الله أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأي كفت يدي عن بيعته فيقتله » ، فقالوا : وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ، هلاً أو مات إلينا بعينك ؟ قال : « إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين » .

وفي رواية : أن رجلاً من الأنصار كان نذر إن رأى عبد الله قتله ، فلما أتى به عثمان إلى رسول الله ﷺ يستشفع له ، بصر به الأنصاري فاشتغل على سيفه ، ثم خرج في طلبه ، فوجده في حلقة رسول الله ﷺ ، فهاب قتله وكره أن يقدم عليه ، فلما بايعه رسول الله ﷺ وانصرف قال للأنصاري : « قد انتظرتك أن تفي بنذرك » ، فقال : يا رسول الله ! هبتك ، أفلا أوّمت^(٢) إليّ ؟ قال : « إنه ليس لنبي أن يؤمض » أو قال : « إن النبي لا يقتل بالإشارة » .

وكان عبد الله بعد ذلك من حسن إسلامه ، فولاه عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بعض أعماله ، ثم ولاه عثمان ، رضي الله عنه ، بعده .

- وأما عبد الله بن خطل فإنه كان من قدم المدينة وأسلم ، وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وبعثه لأخذ الصدقة ، وبعث معه رجلاً من الأنصار ، وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً ، فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً ، ونام ، ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئاً ، فعدا عليه فقتله ، ثم ارتدّ مشركاً . فلما كان يوم الفتح ورأى خيل المسلمين دخله الرعب ، فانطلق إلى الكعبة ، فجاء رجل فأخبر النبي ﷺ وقال : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة ، فقال : « اقتله ؛ فإن الكعبة لا تميم عاصياً ، ولا تمنع من إقامة حد واجب » ، فقتله سعيد بن حريث الخزومي وأبو برة الأسلمي اشتركا في دمه ، ويقال : قتله الزبير بن العوام .

- وأما الحوثير بن تقيذ فقد أهدر النبي ﷺ دمه لأنه كان يؤذيه بمكة ، ويعظم القول في أذيته ، وينشد الهجاء فيه ، وكان العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، حمل فاطمة وأم كلثوم بنتي رسول الله ﷺ من مكة يريد بها المدينة فنحس الحوثير البعير الحامل لها فرمى به الأرض . فقتله علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، يوم الفتح .

- وأما مقيس بن صبابة فإنه كان قد أسلم وأتى النبي ﷺ يطلب دية أخيه هشام بن صبابة ، رضي الله عنه ، الذي قتله رجل من الأنصار في غزوة ذي قرد خطأ ، فلما دفع له النبي ﷺ دية أخيه عدا على الأنصاري قاتل أخيه فقتله ، ثم لحق بمكة مرتدداً . فقتله يوم الفتح نميكة بن عبد الله الليثي رجل من قومه .

- وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة ،

(١) القينة : المغنية . وقد تقدم .

(٢) أي : هلاً أشرت إلي إشارة خفية ، يقال : أوّمت البقرة ؛ إذا لمع لئماً خفياً ولم يمتريض (النهاية) ج ٢٣٠/٥ .

فنخس بها بعيرها حتى سقطت على صخرة ، وكانت حاملاً فألقت ما في بطنها وأهراقت الدماء ، فأهدر رسول الله ﷺ دمه ، فهرب يوم الفتح فلم يقدر عليه ، ثم قدم المدينة على النبي ﷺ فأسلم ، فجعل الناس يسبونه ويقولون : أنت الذي فعلت وفعلت ، فنهى رسول الله ﷺ عن سبه والتعريض له وقال : « يَا هَبَّارُ ! سَبُّ مَنْ سَبَّكَ » ، فانتهوا عنه .

- وأما عكرمة بن أبي جهل فقد أمر النبي ﷺ بقتله لأنه كان أشدَّ الناس هو وأبوه أذية له ﷺ ، وكان أشدَّ الناس على المسلمين ، ولما بلغه أن رسول الله ﷺ أهدر دمه هرب إلى اليمن ، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام أسلمت قبله ، فاستأمنت له رسول الله ﷺ فأمنه ، وأمرها برده ، فخرجت في طلبه ، فأدركته قبل أن يركب السفينة ، فقالت له : جئتك من عند أوصل الناس ، وأبّر الناس ، وخير الناس ، وقد استأمنت لك فأمنك ، فرجع معها .

وفي رواية : أن عكرمة ركب البحر ، فأصابتهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة : أخلصوا فإن ألهتكم لاتغني عنكم شيئاً ههنا ، فقال عكرمة : والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره ، اللهم ! إن لك عليّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً - ﷺ - حتى أضع يدي في يده فلاجدنه عفواً كريماً .

فلما دنا عكرمة من مكة ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « يَا تَيْبِكُمْ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا ، فَلَا تَسَبُّوا أَبَاهُ ؛ فَإِنَّ سَبَّ النَّبِيِّ يُؤْذِي الْحَيَّ وَلَا يُبَلِّغُ الْمَيِّتَ » ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قام إليه عليه الصلاة والسلام فرحاً به فاعتنقه وقال له : « مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ ، مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ ، مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ » .

فأسلم عكرمة وبايع النبي ﷺ ، ثم قال وهو مطأطء رأسه استحياء : يا رسول الله ! استغفر لي كل عداوة عاديتكها أو موكب أوضعت فيه أريد فيه إظهار الشرك ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِعِكْرَمَةَ كُلِّ عِدَاوَةٍ عَادَانِيهَا أَوْ مَوْكِبٍ أَوْضَعُ فِيهِ يُرِيدُ أَنْ يَصَدَّ عَنْ سَبِيلِكَ » ، قال عكرمة : يا رسول الله ! مرني بخير ما تعلم فأعلمه ، فقال : « قُلْ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَتُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ » ، قال عكرمة : أما والله يا رسول الله ، لا أدع نفقة كنت أنفقها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقمت ضعفها في سبيل الله ، ولا قاتلت قتالاً في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله . ثم اجتهد في القتال حتى قتل يوم أجنادين شهيداً في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ويروى أن رسول الله ﷺ كان قد رأى في منامه أن أبا جهل أتاه فبايعه - وقيل : إنه رأى عذقاً في الجنة لأبي جهل - فلما أسلم خالد بن الوليد ، قيل لرسول الله ﷺ : قد صدق الله رؤياك ، هذا كان إسلام خالد ، فقال : « لَيْكُونَنَّ غَيْرَهُ » . فلما أسلم عكرمة بن أبي جهل ، قال لأم سلمة رضي الله عنها : « هذا هو » . قالت أم سلمة : وكان عكرمة إذا مر بالمدينة قيل له : هذا ابن عدو الله أبي جهل ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقام خطيباً فقال : « إِنَّ النَّاسَ مَعَادِنٌ ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَهَمُوا ، لَا تَوَدُّوا مُسْلِمًا بِكَافِرٍ » .

- وأما هند بنت عتبة زوج أبي سفيان فقد أهدر رسول الله ﷺ دمه لأنها مثلت بعمه حمزة ، رضي الله عنه ، يوم أحد ، فلما كان يوم الفتح اختفت في بيتها ، ثم أسلمت (١) .

- وأما سارة مولاة بعض بني عبد المطلب فهي التي وجد معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة ، رضي الله عنه ، إلى أهل مكة ، وكانت أنت رسول الله ﷺ قبل الفتح ، فشكت إليه الحاجة ، فأعطها شيئاً ، فلما رجعت إلى قريش كان ابن خطل يلقي عليها هجاء رسول الله ﷺ فتغنى به ، فاختمت يوم الفتح حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ ، فجاءته وأسامت ، ثم بقيت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً في زمن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بالأبطح فقتلها .

- وأما القَيْتَانِ واسمها فَرْتَنَى وَقَرَيْبَةُ فكانتا لعبد الله بن خطل ، وكانتا تغنيان هجاء رسول الله ﷺ ، فأمر النبي ﷺ بقتلها

(١) سيأتي خبر إسلامها عند ذكر بيعة أهل مكة .

معه ، فقتلت إحداهما ، وهربت الأخرى ، حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ بعد فأمنها فأسلمت ، وعاشت حتى كُسرت لها ضلع أيام عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، فمات (١) .

- وذكر بعضهم فين أهدر دمه سوى ماتقدم : عبد الله بن الزبير ، والحارث بن طلائع الخزاعي ، وأسيّد بن أبي إياس ، وكعب بن زهير بن أبي سلمى ، ووحشي بن حرب .

فأما عبد الله بن الزبير فلم يقدر عليه ، لأنه لما دخل رسول الله ﷺ مكة هرب إلى نجران هو وهبيّة بن أبي وهب الخزومي ، فرمى حسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، ابن الزبير وهو بنجران ببيت واحد ما زاد عليه :

لا تَعْدَمَنَّ رجلاً أَحَلَّكَ بَعْضُهُ نجران في عيشٍ أَحَدًا لِمِمْ (٢)
فلما بلغ ذلك ابن الزبير خرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم وقال أبياتاً في إسلامه واعتذاره ، منها قوله :

يا رسول المليك إن لساني
إذ أباري الشيطان في سنن ال
إني لمعتذر إليك من الذي
فاليوم آمن بالنبي محمّد
مضت العداوة وانقطعت أسبابها
فاغفر فيدي لك والسدي كلاهما
راتق ما فتقت إذ أنا بُور
غني ومن مال ميله مثير
أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
قلبي ومخطيء هـ هذه محروم
ودعت أواصر بيننا وحلوم
زلي فإنك راحم مرحوم

وأقام هبيّة زوج أم هاني بنت أبي طالب ، رضي الله عنها ، بنجران حتى مات كافراً .

وأما الحارث بن طلائع الخزاعي فقتله علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه .

- وأما أسيّد بن أبي إياس فهرب إلى الطائف ، ثم إنه أتى النبي ﷺ ، فجلس بين يديه وقال : يا محمد ! أنذرت دم أسيّد ؟ قال : « نعم » ، قال : أفقبل منه إن جاءك مؤمناً ؟ قال : « نعم » ، فوضع يده في يد النبي ﷺ فقال : يا محمد ! هذه يدي في يدك ، أشهد أنك رسول الله ، وأن لا إله إلا الله ، فأمر رسول الله ﷺ رجلاً يصرخ أن أسيّد بن أبي إياس قد آمن ، وقد آمنه رسول الله ﷺ . ومسح رسول الله ﷺ وجهه وألقى يده إلى صدره ، فيقال : إن أسيّدًا كان يدخل البيت المظلم فيضيء .

- وأما كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر ابن الشاعر فكان هجاء رسول الله ﷺ ، فلم يقدر عليه ، ثم جاء بعد تائباً فأسلم (٣) .

- وأما وحشي بن حرب فهو قاتل حمزة ، رضي الله عنه ، وقد صح عنه أنه لما قتله بأحد قال : فأقت بمكة حتى إذا افتتحها رسول الله ﷺ هربت إلى الطائف ، فكثت بها ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسأموا - وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة - تعيبت عليّ المذاهب ، فقلت ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد ، فوالله إني لفي ذلك من همّي إذ قال لي رجل : ويحك !! إنه لا يهيج الرسل (٤) ، قال : فخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ ، فلما رأي قال : « أنت وحشي ؟ » قلت : نعم ، قال : « أنت

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨/٤ - ٣٠) ، وصحيح البخاري (ج ١٨٨/٥) كتاب المغازي - باب أين ركز النبي ﷺ الراية .. والمستدرک (ج ٢٤١/٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣) ، وسنن النسائي (ج ١٠٥/٧ ، ١٠٦ ، ١٠٧) كتاب تحريم الدم - الحكم في المرتد ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢١٢/٩) ، ومجمع الزوائد (ج ١٦٧/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٧/٢) ، وفتوح البلدان (ص : ٥٣) ، ومغازي الواقدي (ج ٨٥٧/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٣١٤/٢ - ٣١٦) .

(٢) عيشٌ أخذٌ : أي سريخ الإذّبار ، مُنْقَطِعٌ (لسان العرب : ج ٨٠٨/٢) .

(٣) ستأتي قصة إسلامه مفصلة بعد غزوة الطائف .

(٤) أي : لا يتعرض لهم ولا يقتلهم .

قَتَلْتِ حَمْرَةَ ؟ « قلت : قد كان من الأمر ما بلغك ، قال : « أَقْعُدُ فَحَدَّثْتَنِي كَيْفَ قَتَلْتِ حَمْرَةَ ؟ » ، فحدَّثته فلما فرغت من حديثي . قال : « فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَغَيِّبَ وَجْهَكَ عَنِّي ؟ » .

ثم أسلم وخشي وشهد شهادة الحق ، قال : فكنت أتتكب^(١) رسول الله ﷺ حيث كان لكلاً يراني - وذلك حياء من رسول الله ﷺ - حتى قبضه الله ﷺ ، فلما خرج المسلمون إلى مسيئمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حُرْبِي التي قتلت بها حمزة ، فلما التقى الناس رأيت مسيئمة الكذاب قائماً في يده السيف ، وما أعرفه ، فتهيأت له وتهيأت له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى ، كلانا يريد ، فهزرت حربي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعت فيه ، وشد عليه الأنصاري فضربه بالسيف ، فربك أعلم أيّنا قتله ؛ فإذا كنت قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ ، وقد قتلت شر الناس ، وأرجو أن تكون هذه بشك^(٢) .

روي عن مطيع بن الأسود ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ حين أمر بقتل هؤلاء الرهط بمكة يقول : « لا تغزى مكة بعد هذا العام أبداً ، ولا يقتل رجل من قريش بعد العام صبراً أبداً^(٣) »^(٤) .

بيعة أهل مكة :

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ ، فجلس لهم على الصفا وعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، تحته أسفل من مجلسه يأخذ على الناس ، فجاءه الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، فبايعوه على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعلى السمع والطاعة فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعته لمن بايع رسول الله ﷺ من الناس على الإسلام^(٥) .

وأقى يثمل بن أمية ، رضي الله عنه ، بأبيه إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : يا رسول الله ! بايع أبي على الهجرة ، فقال : « بل أبايعة على الجهاد ، وقد انقطعت الهجرة » .

وأقى مجاشع النبي ﷺ بأخيه مجالد فقال : يا رسول الله ! جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة ، قال : « ذهب أهل الهجرة بما فيها » ، فقال : على أي شيء تبايعه ؟ قال : « أبايعة على الإسلام والإيمان والجهاد^(٦) » .

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية^(٧) ، وإذا استنفرتم فأنفروا^(٨) » .

وروى بسنده عن عطاء بن أبي رباح قال : زرت عائشة مع عبيد بن عمير ، فسألها عن الهجرة ، فقالت : لا هجرة اليوم ، كان

(١) أي : أتتكى وأعرض عنه انظر : (النهاية : ج ١١٢/٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧/٣) و (ج ٣٩/٤ - ٤١) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٩/٥) كتاب المغازي - باب قتل حمزة رضي الله عنه ، وكنز العمال (ج ٢٨٢/١٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٩٩/٥) ، وفتوح البلدان (ص : ٥٤) ، وفتح الباري (ج ١١٨/٨) .

(٣) قال العلماء : معناه الإعلام بأن قريشاً يسلمون كلهم ولا يرتد أحد منهم كما ارتد غيرهم بعنه ﷺ من حورب وقتل صبراً ، وليس المراد أنهم لا يقتلون ظلماً صبراً ، انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٣٤/١٢) .

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٤١٢/٣) .

(٥) انظر : المستدرک (ج ٢٩٦/٣) ، وتاريخ الطبري (ج ٦١/٣) .

(٦) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٣/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٩٣/٥) كتاب المغازي - باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح ، وفتح الباري (ج ٢٦/٨) .

(٧) أي أن الهجرة التي هي مفارقة الوطن والخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام والتي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت ، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية ، وكذلك المفارقة بسبب نية صلحة كالفرار من دار الكفر ، والخروج في طلب العلم ، والفرار بالدين من الفتن . انظر : فتح الباري (ج ٣٩/٦) . وقال ابن الأثير : المراد بالنية إخلاص العمل لله تعالى ؛ أي إنه لم يبق بعد فتح مكة هجرة ، لأنها قد صارت دار إسلام ، وإنما هو الإخلاص في الجهاد وقتال الكفار (النهاية : ج ٣١٩/١) .

(٨) صحيح البخاري (ج ١٧/٤) كتاب الجهاد والسير .

المؤمن يفرّ أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، فالؤمن يعبد ربّه حيث شاء ، ولكن جهاد ونية^(١) .

وجاء رسول الله ﷺ رجل لبياعه فأخذته الرعدة ، فقال له رسول الله ﷺ : « هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ »^(٢) .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من بيعه الرجال بايع النساء ، وهو على الصفا ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش ، فبهنّ هند بنت عتبة متنقبة متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، فلما دنون منه ﷺ قال لمن : « تَبَايَعْتَنِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُنَ بِاللَّهِ شَيْئاً ؟ » فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسؤوتيكه ، قال : « وَلَا تُشْرِقَنَ » ، فقالت هند : والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة^(٣) والهنة وما أدري أكان ذلك حلالاً لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان وكان شاهداً : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حلّ ، فقال رسول الله ﷺ : « وَإِنَّكَ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ ! » فقالت : نعم ؛ فاعف عما سلف عفا الله عنك ! فقال : « وَلَا تَزْنَيْنِ » ، قالت : يا رسول الله ! هل تزني الحرة ؟ قال : « وَلَا تَقْتُلَنَّ أَوْلَادَكَ » ، قالت : قد زريناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم ! فضحك عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، من قولها حتى استغرب^(٤) ، فتبسم رسول الله ﷺ ، قال : « وَلَا تَأْتَيْنِ بَهْتَانِ »^(٥) تفتريته بين أيديكن وأرجلكن » ، قالت : والله إن إنيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل ، وإنك ما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، قال : « وَلَا تُعْصِبْنِي فِي مَعْرُوفٍ » ، قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : « تَبَايَعْتَنِ » ، واستغفرهن رسول الله ﷺ ، فبايعهن عمر رضي الله عنه ، فقالت هند من بين النساء : يا رسول الله ! نصافحك ؟ فقال : « إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّ قَوْلِي لِأَيِّ امْرَأَةٍ مِثْلُ قَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ » . فلما رجعت هند إلى بيتها عمدت إلى صنم كان عندها فجعلت تكسره وتقول : كنا منك في غرور .

وفي رواية : أن هند بنت عتبة أتت رسول الله ﷺ متنقبة وهو بالأبطح ، فقالت له : يا رسول الله ! الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه ، لتنفعي رحمتك ، يا محمد ! إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله ، ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَرْحَبًا بِكَ » ، فقالت : يا رسول الله ! ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يظهروا من أهل خبائك ، فقال رسول الله ﷺ : « وَأَيْضاً وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ » ، ثم قالت : يا رسول الله ! إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ، فقال : « خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ »^(٦) .

إسلام صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى :

لم يكن هؤلاء من أهدر رسول الله ﷺ دماءهم ، ولكنهم كانوا من كبار زعماء قريش فخافوا على أنفسهم القتل ، فهربوا واختفوا .

فأما صفوان بن أمية فخرج يريد جدّة ليركب منها إلى اليمن ، فاستأمن له عمير بن وهب ، رضي الله عنه ، رسول الله ﷺ ، فقال له : يا نبي الله ! إن صفوان بن أمية سيّد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمنه صلى الله عليك وسلم ، فإنك

(١) صحيح البخاري (ج ١٩٢/٥) كتاب المغازي - باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح .

(٢) انظر : المستدرک (ج ٤٦٦/٢) .

(٣) الهنة : الحاجة (النهاية : ج ٢٧٩/٥) .

(٤) استغرب : بالغ في الضحك ، وقيل : هو القهقهة (النهاية : ج ٢٥٢/٣) .

(٥) البهتان : هو الباطل الذي يتخبر منه ، وهو من البهت : التخبر ، والمعنى لا يأتيين بولد من غير أزواجهن فينسبته إليهم (النهاية : ج ١٦٥/١) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٤٩٧/٥) كتاب المناقب - باب ذكر هند بنت عتبة ، و (ج ٨٥/٧) كتاب النفقات - باب إذا لم ينفق الرجل ، وطبقات

ابن سعد (ج ٢٣٦/٨) ، وتاريخ الطبري (ج ٦١/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٩٦/٣) .

قد أمنت الأحمر والأسود ، فقال رسول الله ﷺ : « أذرك ابن عمك فهو آمن » ، فقال : أعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل بها مكة - وفي رواية أن عمراً أدرك صفوان وطلب منه العود فأبى إلا أن يرى علامة بأمان يعرفها من النبي ﷺ ، فعاد عمير إلى رسول الله ﷺ وقال له : إن صفوان أبى أن يوقن لي حتى يرى منك آية يعرفها ، فانتزع رسول الله ﷺ برد حبرة كان معتجراً بها فدفعه إلى عمير - فخرج عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : يا صفوان ! فداك أبي وأمي ، الله الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتكم به ، قال : ويحك !! اغرب عني فلا تكلمني ، فقال : أي صفوان ! فداك أبي وأمي ، جئتكم من عند أفضل الناس ، وأبّر الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، وهو ابن عمك عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، قال : إني أخافه على نفسي ، فقال : هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع معه ، حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال : إن هذا يزعم أنك أمنتني ، قال : « صدق » ، فقال : فاجعلني فيه بالخيار شهرين ، قال : « أنت بالخيار فيه أربعة أشهر ، لعل الله أن يهديك » .

ثم أسلم صفوان بعد ذلك ، كما سيأتي في غزوة حنين ، وقد كانت امرأته فاختة بنت الوليد ، رضي الله عنها ، قد أسلمت قبله ، فأقرهما رسول الله ﷺ على النكاح الأول ، كما أقر عكرمة بن أبي جهل وامرأته أم حكيم بنت الحارث على النكاح الأول أيضاً (١) .

- وأما سهيل بن عمرو فإنه لما دخل رسول الله ﷺ مكة اقتحم بيته وأعلق عليه بابه ، وأرسل إلى ابنه عبد الله : أن خذ لي أماناً من محمد - ﷺ - فإني لا آمن أن أقتل ، فذهب عبد الله إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! أي تؤمنه ؟ قال : « نعم ، هو آمن بأمان الله فليظهر » ، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله : « من لقي سهيل بن عمرو فلا يحذ إليه النظر فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل جهل الإسلام » . فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال سهيل : كان والله براً صغيراً وكبيراً ، فكان سهيل يقبل ويدبر أماناً ، وخرج إلى حنين مع رسول الله ﷺ وهو مشرك حتى أسلم بالجعرانة (٢) .

- وأما حويط بن عبد العزى فإنه لما دخل رسول الله ﷺ مكة خاف خوفاً شديداً ، فخرج من بيته ، وفرق عياله في مواضع يأمنون فيها ، قال حويط : فانتهيت إلى حائط فكنت فيه ، فإذا أنا بأبي ذر الغفاري ، وكانت بيني وبينه خلّة ، والخلّة أبدأ مانعة ، فلما رأيته هربت منه ، فقال : أبا محمد ! فقلت : ليبيك ، قال : مالك ؟ قلت : الخوف ، قال : لا خوف عليك ، أنت آمن بأمان الله ، عز وجل ، فرجعت إليه فسلمت عليه ، فقال : اذهب إلى منزلك ، قلت : هل لي سبيل إلى منزلي ؟ والله ما أراني أصل إلى بيتي حياً حتى ألقى فأقتل أو يدخل علي منزلي فأقتل ، وإن عيالي لفي مواضع شتى ، قال : فاجمع عيالك في موضع وأنا أبلغ معك إلى منزلك ، فبلغ معي وجعل ينادي على أن حويطاً أمين فلا يهجم ، ثم انصرف أبو ذر إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « أوليس قد آمن الناس كلهم إلا من أمرت يقتلهم ؟ » قال : فاطمأنت ورددت عيالي إلى منازلهم ، وعاد إلي أبو ذر فقال لي : يا أبا محمد ! حتى متى وإلى متى ، قد سبقت في المواطن كلها ، وفاتك خير كثير ، وبقي خير كثير ، فأت رسول الله ﷺ فأسلم تسلم ، ورسول الله ﷺ أبر الناس وأوصل الناس ، وأحلم الناس ، شرفه شرفك ، وعزه عزك ، قلت : فأنا أخرج معك فأتيه ، فخرجت معه حتى أتيت رسول الله ﷺ بالبطحاء وعنده أبو بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، فوقفت على رأسه وسألت أبا ذر كيف يقال إذا سلم عليه ؟ قال : قل : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فقلت ، فقال : « وعليك السلام ، حويط ؟ » فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي هدانا لهذا » . قال : وسر رسول الله ﷺ بإسلامي ، واستقرضني مالاً فأقرضته أربعين ألف درهم ، وشهدت معه حنيناً والطائف ، وأعطاني من غنائم حنين مائة بعير (٣) .

- وكان عتبة ومعتب ابنا أبي لهب قد خافا على أنفسهما ففررا لما قدم رسول الله ﷺ مكة ، فسأل عنها رسول الله ﷺ العباس ، فقال : « يا عباس ! أين ابنا أخيك عتبة ومعتب لا أراهما ؟ » قال : يا رسول الله ! تنحيا فين تنحى من مشركي قريش ، فقال له :

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٦/٥) .

(٢) انظر : المستدرک (ج ٢٨١/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ١٠٢/٣) .

(٣) انظر : المستدرک (ج ٤٩٢/٣) .

« أَذْهَبَ إِلَيْهَا وَأَتَيْتَنِي بِهَا » ، فانطلق العباس إليهما بعزّة فألقى بها ، فدعاها رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فأسلما وبايعا ، ثم قام رسول الله ﷺ فأخذ بأيديهما وانطلق بهما يعيش بينهما حتى أتى بها الملتزم - وهو ما بين الكعبة والحجر الأسود - فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يرى في وجهه ، فقال له العباس : سرّك الله يا رسول الله ، فأني أرى في وجهك السرور ، فقال : « نعم ، إنني استوهبتُ ابْنِي عَمِّي هَذَيْنِ رَبِّي قَوْهَبَهُمَا لِي » (١) .

خطبة النبي ﷺ غداة يوم الفتح :

ولما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل مشرك من هذيل ، ويقال : من ليث ، فقتلوه بقتيل لهم في الجاهلية يقال له أحر بأسا ، وكان رجلاً شجاعاً ، وكان إذا نام غط غطيظاً منكراً لا يخفى مكانه ، فكان إذا بات في حيّه بات مُعْتَنِزاً (٢) ، فإذا بيّت الحيّ صرخوا : يا أحر ! فيثور مثل الأسد لا يقوم لسبيله شيء ، فأقبل نفر من بني هذيل يريدون الإغارة على حاضره ، حتى إذا دنوا من الحاضر قال ابن الأثوخ المذلي : لا تمجلوا عليّ حتى أنظر ، فإن كان في الحاضر أحر فلا سبيل إليهم ، فإن له غطيظاً لا يخفى ، فاستمع ، فلما سمع غطيظه مشى إليه حتى وضع السيف في صدره ، ثم تحامل عليه حتى قتله ، ثم أغاروا على الحاضر ، فصرخوا : يا أحر ! ولا أحر لهم . فلما فتحت مكة قال رسول الله ﷺ : « كَفُّوا عَنِ السَّلَاحِ إِلَّا خِزَاعَةَ عَن بَنِي بَكْرٍ » فأذن لهم إلى صلاة العصر ، ثم قال : « كَفُّوا عَنِ السَّلَاحِ » ، فلما كان الغد من يوم الفتح أتى ابن الأثوخ المذلي حتى دخل مكة ينظر ويسأل عن أمر الناس ، وهو على شركه ، فرأته خزاعة فعرفوه ، فأحاطوا به ، وهو إلى جنب جدار من جدّ مكة ، وقيل : بالمزدلفة ، يقولون : أنت قاتل أحر ؟ قال : نعم أنا قاتل أحر فمة (٣) ؟ فأقبل خراش بن أمية مشتماً على السيف ، فقال : هكذا عن الرجل ، فظننت خزاعة أنه يريد أن يفرج الناس عنه ، فلما انفرجوا عنه حمل عليه فطعنه بالسيف في بطنه فمات .

فلما بلغ رسول الله ﷺ ما صنع خراش بن أمية غضب غضباً شديداً وقال : « إِنَّ خِرَاشًا لَقَتَّالٌ » ، وقال : « لَوْ كُنْتُ قَاتِلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ لَقَتَّالَةٌ » ، ثم قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً ، مسنداً ظهره الشريف إلى الكعبة ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِيءٍ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكُوا فِيهَا دَمًا ، وَلَا يَعْصِدُوا فِيهَا شَجَرًا ، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي ، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي ، وَلَا تَحِلُّ لِي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةُ غَضِبًا عَلَى أَهْلِهَا ، أَلَا تَمُّ قَدْ رَجَعَتْ كَحَرَمِهَا بِالْأَمْسِ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدَ مِنْكُمْ الْغَائِبَ ، فَمَنْ قَالَ لَكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتِلٌ فِيهَا فَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّهَا لِرَسُولِهِ وَلَا يَحِلُّهَا لَكُمْ . وَإِنْ أَعْتَى النَّاسَ عَلَى اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، ثَلَاثَةَ رَجُلٍ قَتَلَ فِيهَا ، وَرَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ ، وَرَجُلٌ طَلَبَ بِذُحُولٍ (٤) الْجَاهِلِيَّةِ ، يَأْمَعُشَرُ خِزَاعَةَ ! ارْزُقُوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْقَتْلِ فَلَقَدْ كَثُرَ الْقَتْلُ إِنْ نَفَعَ ، لَقَدْ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا لِأَدِينَةٍ ، فَمَنْ قَتَلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِنْ شَاؤُوا فَدَمَ قَاتِلِهِ ، وَإِنْ شَاؤُوا فَعَقَلَهُ » .

فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه ، فقال : اكتب لي يا رسول الله (٥) ، فقال رسول الله ﷺ : « اكتبوا لأبي شاه » .

ثم قام العباس ، رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ! إلا الإذخرَ فإنما نجعله في بيوتنا وقبورنا ، فقال رسول الله ﷺ : « إلا الإذخرَ » . ثم ودّى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذي قتله خزاعة (٦) .

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٦٠/٤) .

(٢) اغتنز : ائتمد (الوسيط : ج ٦٣٧/٢) .

(٣) مة : ما للاستفهام ، وإهاء للسكوت ، والمراد رجزهم ، أي اكفؤوا عني ، أو تكون للتعجب ؛ أي : فما الذي تريدون أن تصنعوه (لسان العرب : ج ٤٢٩٣/٦) .

(٤) الذحول : جمع ذحل وهو الثأر (الوسيط : ج ٣٠٩/١) .

(٥) أي الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ . انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٥/٣) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣/٤ - ٢٥) ، وصحيح البخاري (ج ٢٧/١) كتاب العلم - باب ليبلغ الشاهد الغائب ، و (ج ٦٩) كتاب الدييات - باب من قتل له قتيلا فهو بخير النظرين ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٩٩/٢) و (ج ٢١/٤) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٩٨) .

وروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ خطب الناس عام الفتح على درجة الكعبة ، فكان فيما قال بعد أن أثنى على الله أن قال : « يا أيها الناس ! كل حلف كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شدة ، ولا حلف في الإسلام ، ولا هجرة بعد الفتح ، يد المسلمين واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماءهم ، ولا يُقتل مؤمن بكاfer ، ودية الكافر كنيف دية المسلم ، ألا ولا شغار^(١) في الإسلام ، ولا جنب^(٢) ، ولا جلب^(٣) ، وتؤخذ صدقاتهم في ديارهم ، يجير على المسلمين أذناهم ، ويرد على المسلمين أفصاهم^(٤) » ، ثم نزل^(٥) .

إقامة النبي ﷺ بمكة وأعماله فيها :

أقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً ، ويقال : سبع عشرة أو خمس عشرة ليلة ، يقصر الصلاة ويقول : « يا أهل البلد ! صلوا أربعا فإنا قوم سفر » .

وخلال هذه الأيام رسخ رسول الله ﷺ عقيدة التوحيد وفقهه الناس بأحكام الدين عن طريق خطبه وفتاواه في أمور سئل عنها ، وجدد معالم الإسلام .

فبعث تميم بن أسد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم ، وأمر مناديه فنادى بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنأ إلا كسره ، كما أمر صارخاً يصرخ في بطن مكة يأمر بصدقة الفطر ويقول : « هي حق واجب على كل مسلم ذكر أو أنثى ، صغير أو كبير ، حر أو عبد ، حاضر أو باد ، مدان من قمح أو صاع مما سوى ذلك من الطعام » .

كما بث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأصنام التي كانت حول مكة فكسرت كلها ؛ منها العزى ومناة وسواع . (انظر : مصور سرايا تحطيم الأصنام) ، وبعث سرايا للدعوة إلى الإسلام فيما حول مكة المكرمة^(٦) .

وفيما يلي شيء من التفصيل في هذه السرايا والأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ .

١ - سرية سعد بن زيد رضي الله عنه إلى مناة :

بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي ، رضي الله عنه ، لست ليال بقين من شهر رمضان ، في عشرين فارساً إلى مناة ليهدها ، وكانت بالمشكل^(٧) ، للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب .

فلما انتهى سعد إليها قال له سادتها : ما تريد ؟ قال : هدم مناة ! قال : أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشي إليها ، فخرجت إليه امرأة غريانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعو بالويل ، وتضرب صدرها ، فقال السدان : مناة دونك بعض عصاتك ! فضرها سعد ،

(١) الشغار : نكاح معروف في الجاهلية ؛ كان الرجل يقول للرجل : شاغري ؛ أي : زوجي أختك أو بنتك أو من تلي أمرها حتى أزوجه أختي أو بنتي أو من ألي أمرها ، ولا يكون بينهما مهر ، وقيل له شغار لا تضاع المهر بينهما من شعر الكلب إذا رفع إحدى رجله ليبول ، وقيل : الشعر : البغد ، وقيل : الاتساع (النهاية : ج ٤٨٢/٢) .

(٢) الجنب في الزكاة : أن ينزل العامل بأفض مواضع أصحاب الصدقة ، ثم يأمر بالأموال أن تجنب إليه ؛ أي : تحضر ، فنهوا عن ذلك (النهاية : ج ٢٠٢/١) .

(٣) الجلب : هو أن يقدم المصدق على أهل الزكاة فينزل موضعاً ثم يرسل من يجلب إليه الأموال من أماكنها ليأخذ صدقتها ، فنهى عن ذلك (النهاية : ج ٢٨١/١) .

(٤) يرد على المسلمين أفصاهم : أي أبعدهم ، وذلك في الغزو ، إذا دخل العسكر أرض الحزب فوجه الإمام منه السرايا ، فما غنمت من شيء أخذت منه ما سمي لها ورد ما بقي على العسكر ؛ لأنهم وإن لم يشهدوا الغنمة رده للسرايا وظهر يرجعون إليه (النهاية : ج ٧٤/٤) .

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٢١٥/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٢/٤ ، ٦٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٩١/٥) كتاب المغازي - باب مقام النبي ﷺ زمن الفتح ، وسنن أبي داود

(ج ٢٢/٢) كتاب الصلاة - باب متى يتم للمسافر ١٢٢٩ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٧/٢) .

(٧) المشكل : جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر (معجم البلدان : ج ٦٧/٨) .

رضي الله عنه ، فقتلها ، وأقبل إلى بيتها مع أصحابه فهدموه ولم يجدوا في خزانته شيئاً ، وانصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ .
ويقال : إن رسول الله ﷺ بعث إليها أبا سفيان بن حرب فهدمها ، ويقال : علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١) .

٢ - سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى العزى :

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، في ثلاثين فارساً من أصحابه إلى العزى ليهدمها ، وذلك خمس ليال بقين من شهر رمضان ، وكانت بنخلّة ، وكانت لقريش وجميع بني كنانة ، وهي أعظم أصنامهم ، وكان سدنتها وحجّابها بني شيبان من بني سُلَيْم حلفاء بني هاشم ، فلما سمع سادنها بمسير خالد إليها علّق عليها سيفه ، وأسند في الجبل (٢) الذي هي فيه وهو يقول :

أيا عَزَّ شَدِّي شَدَّةَ لاشَوَى (٣) لها على خالد ألقى القنّاع وشمري
يا عَزَّ إن لم تقتلي المرء خالداً فبؤئي بسائم عاجل أو تنصري

فلما انتهوا إليها ، وكانت بيتاً على ثلاث سترات ، قطع خالد ، رضي الله عنه ، السرات وهدم ذلك البيت ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « هل رأيت شيئاً ؟ » قال : لا ، قال : « فإنك لم تهديها ، فأرجع إليها فاهدمها » ، فرجع خالد وهو متعظ ، فجرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة عزيّانة سوداء ، ناشرة شعرها ، تحنو التراب على رأسها ، فجعل السادين يصيح بها وهو يقول : يا عَزَّى حَبْلِيه ، يا عَزَّى عَوْرِيه ، وإلا فوطني برغم ، فضرها خالد ، رضي الله عنه ، فقطعها نصفين وهو يقول :

يا عَزَّ كفرانك لاسبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « نعم ، تلك العزى وقد يئست أن تُعبَدَ بيلاذكم أبداً » (٤) .

٣ - سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى سِوَاع :

ثم بعث رسول الله ﷺ في الشهر نفسه عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، إلى سِوَاع صنم هذيل ليهدمه ، وكان برهاط من أرض يثرب على ثلاثة أميال من مكة .

قال عمرو : فانتهيت إليه وعنده السادين ، فقال : ما تريد ؟ قلت : « أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قلت : لِمَ ؟ قال : تمنع ! قلت : حتى الآن أنت في الباطل ، ويحك ! وهل يسمع أو يبصر ؟ قال : فدنوت منه فكسرتة ، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئاً ، ثم قلت للسادين : كيف رأيت ؟ قال : أسامت لله (٥) .

٤ - سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني جَدْيِمة :

ذكرنا أن رسول الله ﷺ بعث فيها حول مكة السرايا تدعو إلى الله ، عز وجل ، ولم يأمرهم بقتال ، وكان ممن بعث خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، إلى بني جَدْيِمة من كنانة ، وكانوا بأسفل مكة على ليلة ناحية يَلْمَلَم ، في شوال سنة ثمان ، يدعوهم إلى الله ، عز وجل ، ولم يأمرهم بمقاتلتهم . (انظر : مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة رمضان ٨ هـ - ربيع الآخر ٩ هـ) .

فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سُلَيْم وبني مُدَلِج ، وكانت بنو جَدْيِمة قد أصابوا في الجاهلية الفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد ، وعوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، وكانا أقبلتا تاجرّين من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوها وأخذوا أموالها . فلما نزل خالد ، رضي الله عنه ، بالمسامين على الغميصاء ، وهي ماء من مياه بني جَدْيِمة ، وعلمت به

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٠/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤٦/٢) .

(٢) أسند في الجبل : رقيي وصعيد . وقد تقدّم .

(٣) الشوى : إخطاء المقتل (لسان العرب : ج ٢٣٦٨/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤٥/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٧٧/٥) ، والسيرة الحلبية (ج ١٩٦/٢) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٤٦/٢) ، والأصنام / لابن الكلبي (ص : ١٠) .

بنو جَذِيمَةَ خافوه ، فلبسوا السلاح ، فلما انتهى خالد إليهم دعاهم إلى الإسلام ، فلم يُحسنوا أن يقولوا أسأنا ، فجمعوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر .

وفي رواية : قال لهم خالد : ما أنتم ؟ قالوا : مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد ، وبنينا المساجد في ساحاتنا وأذننا فيها ، قال : فما بال السلاح عليكم ؟ فقالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة ففخنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح ! قال : فضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا ، فقال رجل منهم يقال له جَحْدَم : ويلكم يا بني جَذِيمَةَ ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإِسار ، وما بعد الإِسار إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحي أبداً ، فأخذه رجال من قومه فقالوا : يا جَحْدَم ! أتريد أن تسفك دماءنا ، إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس ، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول خالد رضي الله عنه .

فلما وضعوا السلاح قال لهم : استأسروا ، فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم فكثف بعضاً ، وفرقهم في أصحابه ، فقال جَحْدَم وقد رأى ما يصنع خالد : يا بني جَذِيمَةَ ! ضاع الضرب ، قد كنت حذرتكم ما وقعت فيه . فلما كان في السحر نادى خالد : من كان معه أسير فليؤدبه ، والمُدافاة : الإجهاز عليه بالسيف ، فأما بنو سُلَيْم فقتلوا من كان في أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسارهم .

وانفلت رجل من القوم فأتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل أنكر عليه أحد ؟ » قال : نعم ، قد أنكر عليه رجل أبيض رُبْعَة ، فنَهَمَهُ (١) خالد فسكت ، وأنكر عليه رجل آخر طويل مُضْطَرِب (٢) ، فراجعته ، فاشتدت مراجعتها ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أما الأول يارسول الله فابني عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبي حذيفة ، فرفع النبي ﷺ يديه إلى السماء فقال : « اللَّهُمَّ ! إني أبرأ إليك مما صنع خالد » قال ذلك مرتين .

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فقال : « يا علي ! اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » . ودفع إليه رسول الله ﷺ مالا يدي به قتلاهم ، ويعطيهم منه عوض ما ذهب لهم من أموالهم . وكان رسول الله ﷺ قد استقرض من ثلاثة نفر من قريش : من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم ، ومن عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم ، ومن حوَيْطِب بن عبد العزى أربعين ألف درهم ، فقسها رسول الله ﷺ بين أصحابه من أهل الضعف ، ومن ذلك المال بعث إلى بني جَذِيمَةَ .

فخرج علي ، رضي الله عنه ، حتى جاءهم فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدي لهم مئيلة (٣) الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وده قال لهم : هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فياني أعطيكم ما بقي معي من المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فقال : « أصبّت وأحسنت » ، ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه يقول : « اللَّهُمَّ ! إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » ثلاث مرات .

وذكر أن رسول الله ﷺ كان قد رأى رؤيا ، فقال لأصحابه : « رأيت كئني لقيت لُقْمَةَ من خيس فالتذذت طعمها ؛ فاعترض في حلقبي منها شيء حين ابتلعها ، فأدخل علي يده فنزعه » ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله ! هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب ، ويكون في بعضها اعتراض فتبعث علياً فيسأله .

وقد قال بعض من يعذر خالداً : إنه قال : ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي وقال : إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام . إذ قالوا لما أتاهم خالد : صبأنا صبأنا ولم يحسنوا أن يقولوا أسأنا .

(١) نَهَمَهُ : زَجَرَهُ (النهاية : ج ١٢٨/٥) .

(٢) مُضْطَرِبٌ : هو مُثْتَلٍ مِنَ الضَّرْبِ ، والضَّرْبُ مِنَ الرِّجَالِ هو الخفيف اللحم الممشوق المَسْدِيقُ (النهاية : ج ٧٨٢) .

(٣) المِئْلَةُ : هي الإناء الذي يُلْعَقُ فيه الكلبُ ، يعني أعطاهم قيمة كل ما ذهب لهم حتى قيمة المئيلة (النهاية : ج ٢٢٧/٥) .

ووقع بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنها ، شرّ بسبب ذلك ، فقال له عبد الرحمن : عملت بأمر الجاهلية في الإسلام ، فقال خالد له : إنما تأرت بأبيك ، فقال عبد الرحمن : كذبت قد قتلت قاتل أبي ، ولكنك تأرت بعمك الفاكه بن المغيرة . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « مهلاً يا خالد ! دَعُ عَنْكَ أَصْحَابِي ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ لَكَ أَحَدٌ ذَهَبًا تَمَّ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا أَدْرَكْتَ عَدُوَّةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي وَلَا رَوْحَتَهُ » .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ أعرض عن خالد وقال : « يا خالد ! لا تَسُبَّ أَصْحَابِي ، لَوْ كَانَ لَكَ أَحَدٌ ذَهَبًا فَأَنْفَقْتَهُ قِيرَاطًا قِيرَاطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ تَدْرِكْ عَدُوَّةَ أَوْ رَوْحَةَ مِنْ عَدُوَاتِ أَوْ رَوْحَاتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ » .

وأخبر النبي ﷺ أنه كان في القوم رجل قال لهم : إني لست من هؤلاء ولكنني عشقت امرأة فلحقتها ، فدعوني أنظر إليها ، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم ، وأشار إلى نسوة مجتمعات غير بعيد منه ، قال ابن أبي حنّظرد رضي الله عنه : والله ليسير ما طلبت ، فأخذت برؤمته^(١) فقدته بها حتى أوقفته عليهن ، فقال : اسلمي حبّيش على نَفْدٍ من العيش وأنشد أبياتاً ، فقالت له : نعم ، فديتلك ، قال ابن أبي حنّظرد : ثم انصرفت به ، فقدموه فضربت عنقه ، فقامت إليه المرأة فأكبت عليه ، فشبهت شهقة أو شهقتين ثم ماتت ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَحِيمٌ ؟ »^(٢) .

بعض ما حكم به النبي ﷺ في مكة :

وأفتى رسول الله ﷺ وهو بمكة في بعض المسائل والأحكام وأرشد الناس إلى الهدى والتقى . فمن ذلك .

- حكمه في ابن وليدة زُمعة :

روي أن سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، أخذ بيد ابن وليدة زُمعة ، وأقبل به إلى رسول الله ﷺ ، وأقبل معه عبد بن زُمعة ، فقال سعد : يا رسول الله ! هذا ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إليّ أن أقبضه وقال لي : إنه ابني ، فقال عبد بن زُمعة : يا رسول الله ! هذا أخي ، هذا ابن زُمعة وُلِدَ علي فراشه . فنظر رسول الله ﷺ إلى ذلك الولد ، فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص ، فقال لعبد بن زُمعة : « هو لك ، هو أخوك يا عبد بن زُمعة - من أجل أنه وُلِدَ علي فراشه - الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرِ^(٣) » ، وقال رسول الله ﷺ لزوجه سودة بنت زُمعة رضي الله عنها : « احْتَجِبِي مِنِّي يَا سَوْدَةُ » لما رأى من شبه عتبة بن أبي وقاص^(٤) .

- حكمه في المرأة السارقة :

وروي أن امرأة من قريش^(٥) سرقت في غزوة الفتح ، فأراد رسول الله ﷺ قطع يدها ، ففرغ قومها إلى أسامة بن زيد ، رضي الله عنها ، يستشفعونه ، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ وقال : « أَتَكَلَّمُنِي فِي حَدِّ مَنْ حُدِّدَ اللَّهُ ؟ » قال أسامة : استغفر لي يا رسول الله ، ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أَمَا بَعْدُ ! فَإِنِذَا أَهْلَكَ النَّاسَ »

(١) الرُّمَّةُ : قِطْعَةٌ حَبْلٌ يُشَدُّ بِهَا الْأَسِيرُ . وقد تقدّم .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٥٢/٤ - ٦١) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٢/٥) كتاب المغازي - باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، ومجمع الزوائد (ج ٢٢٤/٥) و (ج ٢٠٩/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤٧/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٦٦/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩٧/٥) .

(٣) العاهر : الزاني ، والحجر هنا : الخيئة . يعني أن الولد لصاحب الفراش من الزوج أو السيد ، وللزاني الخيئة والحرامان كقولك : مالك عندي شيء غير التراب وما بيدك غير الحجر (النهاية : ج ٢٤٢/١) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٠/٣ ، ١٠٦) كتاب البيوع - باب تفسير الشبهات ، باب شراء المملوك من الحربي ، و (ج ١٩٢/٥) كتاب المغازي - باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح .

(٥) يقال هي امرأة من بني مخزوم ، ويقال هي فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد بنت أخي أبي سلمة رضي الله عنه . انظر : المستدرک (ج ٣٧٩/٤) ، وفتح الباري (ج ٨٨/١٢) .

قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا . ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها اليمنى ، فقالت المرأة : هل لي من توبة يا رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ ، أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكَ كَيَوْمِ وُلِدْتِ أُمُّكِ » . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ (١) . فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت ، وكانت تأتي بعد ذلك إلى عائشة ، رضي الله عنها ، فترفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ فيرجعها ويصلها (٢) .

- تحريمه بيع الخمر والميتة وغيرها :

ونهى رسول الله ﷺ وهو بمكة عن بيع الخمر وأمر بإهراقه وكسر جواره ، فأفرغت بالبطحاء . ونهى عن بيع الأصنام والميتة ، كما نهى عن لحوم الجلالة (٣) وألبانها وعن النهبة (٤) .

روى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة : « إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنزِيرِ وَالْأَصْنَامِ » ، فقيل : يا رسول الله ! رأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ، ويدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس (٥) ؟ فقال : « لا ، هُوَ حَرَامٌ » ، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : « قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ شَحُومَهَا جَمَلُوهُ (٦) ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ » (٧) .

- تحريمه نكاح الممتعة :

وفي هذه الغزوة حلل رسول الله ﷺ نكاح المتعة ، ثم بعد ثلاثة أيام حرّمها (٨) .

☆ ☆ ☆

(١) المائدة : ٣٩ .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٩٢/٥) كتاب المغازي - باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٧٧/٢) .

(٣) الجلالة من الإبل : التي تأكل الحيلة والعذرة وتتبع النجاسات (لسان العرب : ج ٦٦٤/١) .

(٤) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٣٠/١) ، و (ج ٢٤٠/٣) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٣٣٢/١) .

(٥) أي يشعلون بها سرجهم (النهاية : ج ٧/٣) .

(٦) جملت الشحم وأجملته : إذا أذنته واستخرجت دهنه . وجملت أفصح من أجملت (النهاية : ج ٢٩٨/١) .

(٧) صحيح البخاري (ج ١١٠/٣) كتاب البيوع - باب بيع الميتة والأصنام .

(٨) انظر : صحيح مسلم (ج ١٠٢٢/٢ ، ١٠٢٥) كتاب النكاح - باب نكاح المتعة .. ح ١٨ وح ٢٢ .

غزوة حنين (١)

ويقال لها غزوة أُوطاس^(٢) باسم الموضع الذي كانت به الوقعة في آخر الأمر ، ويقال لها غزوة هوازن أيضاً ، وهوازن قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون ينسبون إلى هوازن بن منصور بن عكرمة ، سميت الغزوة بها لأنهم هم الذين أتوا لقتاله ﷺ وجمعوا لحربه^(٣) .

سببها :

وسبب الغزوة أن رسول الله ﷺ لما فتح الله تعالى عليه مكة وخضعت له قريش ، خافت أشراف هوازن وثقيف أن يغزوه رسول الله ﷺ ، فحشدوا وبعثوا وعزموا على قتاله .

ويقال إنهم كانوا يستعدون للقتال قبل ذلك حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ من المدينة وهم يظنون أنه إنما يريدهم .

واجتمعت إلى هوازن وثقيف جموع كثيرة من القبائل وهم : نصر ، وجشم ، وسعد بن بكر - وهم الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعاً فيهم - وناس من بني هلال ، وكلها من قيس عيلان . وفي بني جشم دُرَيْدُ بن الصمة شيخ كبير قد عمي ، ليس فيه شيء إلا التين برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً . وفي ثقيف سيّدان لهم ؛ في الأحلاف : قارب بن الأسود ، وفي بني مالك : ذو الحجار سبيح بن الحارث ، وأخوه أحر بن الحارث . وكان جماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النضري ، وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة . فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ أمر الناس أن يسوقوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فسار بهم حتى نزلوا بأوطاس^(٤) .

نصيحة دُرَيْدُ بن الصمة وتنظيم مالك جيشه :

ولما نزل مالك بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة ، فقال دريد للناس : بأي واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، فقال : نعم مجال الخيل ، لا حزن^(٥) ضرس^(٦) ، ولا سهل^(٧) دهنس^(٨) ، مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويُغار الشاء ؟ قالوا :

(١) حنين : واد إلى جنب ذي المجاز ، قريب من الطائف ، بينة وبين مكة ثلاث ليال . انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٤٩/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٧٠/٣) .

(٢) أُوطاس : واد في ديار هوازن ، وهو موضع قرب حنين ، وهناك عسكرت هوازن هم وثقيف ثم التقوا بحنين . انظر : فتح الباري (ج ٢٧/٨ ، ٤٢) .

(٣) انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٥/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦٥/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤٩/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ٧٠/٣) .

(٥) الحزن : ما غلظ من الأرض في ارتفاع (لسان العرب : ج ٨٦٢/٢) .

(٦) الضرس : ما خشن من الأكام (لسان العرب : ج ٢٥٧٨/٤) .

(٧) السهل من الأرض : تقيض الحزن (لسان العرب : ج ٢١٣٤/٣) .

(٨) الدهنس : الأرض السهلة يتقل فيها القشي ، وقيل : هو المكان السهل اللين لا يبلغ أن يكون زملاً ، وليس هو بتراب ولا طين (لسان العرب : ج ١٤٤١/٢) .

ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبنائهم ، قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ، ودُعي له ، فقال : يامالك ! إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رُغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير ويَمار الشاء ؟ قال : سقت مع الناس أموالهم وأبنائهم ونساءهم ، قال : ولم ذاك ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، فأنتقض به دَرِيدٌ^(١) ، ثم قال : راعي ضأن والله ، وهل يرده المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضحت في أهلِكَ ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ - وهما بطنان من هوازن - قالوا : لم يشهدا منها أحد ، قال : غاب الحَدَّ والجِدَّ^(٢) ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولو ددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، فن شهدا منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ، قال : ذانك الجَدَعان^(٣) من عامر لا ينفعان ولا يضران ، يامالك ! إنك لم تصنع بتقديم البيضة^(٤) بيضة هوازن إلى نُحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى مَتَمَع بلادهم وعُليا قومهم ، ثم الق الصِّبَاء^(٥) على مُتون الخيل ؛ فإن كانت لك لحق بك من ورائك ، وإن كانت عليك أُلْفاك ذلك وقد أحرزت أهلِكَ ومالك ، قال : لا والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لَتطْبِعُنِّي يامعشر هوازن أو لَأُكَيِّنَ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكره أن يكون لدريد بن الصمة فيها ذكر أو رأي ، قالوا : أطعناك ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني .

ثم أمر مالك بالخيال فصفت ، ثم صفت المقاتلة ، ثم صفت النساء من وراء ذلك ، ثم صفت الغنم ، ثم صفت النعم . وذلك كيلا يفرّوا ويقاتلوا عن أموالهم ونسائهم ، ثم قال للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا عليهم شدة رجل واحد^(٦) .

استكشاف النبي ﷺ خبر هوازن :

ولما سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم بعث إليهم عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي ، رضي الله عنه ، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق ابن أبي حذرد فدخل فيهم ، فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ ، فأخبره الخبر ، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فأخبره الخبر ، فقال عمر : كذب ابن أبي حذرد ، فقال ابن أبي حذرد : إن كذبتني فربما كذبت بالحق يا عمر ، فقد كذبت من هو خير مني ، فقال عمر : يارسول الله ! ألا تسمع ما يقول ابن أبي حذرد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قَدْ كُنْتَ ضالاً فَهَذَاكَ اللهُ يَا عُمَرُ »^(٧) .

خروج النبي ﷺ إلى حنين :

فأجمع رسول الله ﷺ الخروج للقاء هوازن ، وذكر له أن عند صفوان بن أمية - ولم يكن أسلم يومئذ - أدراعاً وسلاحاً ، فأرسل إليه فقال : « يا أبا أمية ! أعزنا سلاحك هذا نلق عدونا غداً » ، فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : « بَلْ عَارِيَّةٌ مَضُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ » ، قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه صفوان مائة درع بما يكفيها من السلاح ، قيل : وسأله رسول الله ﷺ أن يكفيهم حملها ، ففعل . وروي أن بعض تلك الأدرع فُقد ، فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضمنها له ، فقال : لا يارسول الله ؛ لأن في قلبي اليوم ما لم يكن يومئذ ، وأنا اليوم في الإسلام أرغب .

واستعار رسول الله ﷺ من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فقال له : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رِمَاحِكَ يَا أَبَا الْحَارِثِ تَقْصِفُ فِي أَصْلَابِ الْمُشْرِكِينَ » .

(١) أي نقر بلسانه في فيه ، كما يُرَجَرُ الحِمَارُ ، فَعَلَةٌ اسْتِجْهَالًا (النهاية : ج ١٠٧/٥) .

(٢) الحَدُّ : يَرِيدُ الشَّجَاعَةَ والحِدَّةُ : أي الصَّلَابَةُ . والحِدَّةُ : صِدَّ المُرُلِ . انظر (النهاية : ج ٢٤٥/١ ، ٣٥٣) .

(٣) الجَدَعُ : الصُّغَيْرُ السِّنِّ (لسان العرب : ج ٥٧٦/١) .

(٤) بَيْضَةُ القَوْمِ : جَمَاعَتُهُمْ وَأَصْلُهُمْ .

(٥) الصِّبَاءُ : جَمْعُ صَابِيَةٍ ، وَكَانَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا اسْلَمَ قَدْ صَبَأَ .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦٧٠/٤) ، و صحيح مسلم (ج ٧٣٦/٢) كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام ح ١٣٦ .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦٨/٤) .

واستسلف من عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي ثلاثين أو أربعين ألفاً ، فلما انصرف قضاء إياه ، ثم قال : « بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلْفِ الْوَفَاءُ وَالْحَمْدُ ، مَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » (١) .

وفي يوم السبت لست ليال خلون من شهر شوال سنة ثمان للهجرة خرج رسول الله ﷺ من مكة في اثني عشر ألفاً من المسلمين : عشرة آلاف الذين جاؤوا معه من المدينة لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة وهم الطلقاء وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام ، وخرج معه ناس كثير من المشركين منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو . وقيل : خرج معه أهل مكة لم يغادر منهم أحداً ركبانياً ومشاة حتى خرج معه النساء يمشين على غير دين نظاراً ينظرون ويرجون الغنائم ولا يكرهون مع ذلك أن تكون الصدمة برسول الله ﷺ وأصحابه .

واستعمل على مكة عتّاب بن أسيد يصلي بمن تخلف عنه من الناس ، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه .

وفي الطريق إلى حنين رأوا شجرة خضراء عظيمة يقال لها ذات أنواط ، كان كفّار قريش ومن سواهم من العرب يأتونها كل سنة فيعلّقون أسلحتهم عليها ويدجّون عندها ويعكفون عليها يوماً ، فقال بعض الناس بمن هم حديثو عهد بالجاهلية : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهُ أَكْبَرُ قَلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمٌ مُوسَى لِمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، إِنَّهَا السَّنَنُ ، لَتُرَكِّبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » .

وجاء رسول الله ﷺ رجل فارس فقال : يا رسول الله ! إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت على جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشأنهم اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تِلْكَ غَنِيْمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ » ، ثم قال : « مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ ؟ » فقال أنس بن أبي مرثد الغنوي : أنا يا رسول الله ، قال : « فَارْكَبْ » ، فركب فرساً له ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : « اسْتَقْبِلْ هَذَا الشَّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلَاهُ وَلَا تُغْرَبَنَّ مِنْ قِبَلِكِ اللَّيْلَةَ » ، فلما أصبحوا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاّه ، فركع ركعتين ، ثم قال : « هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ ؟ » قالوا : يا رسول الله ما أحسنناه ، فثوّب بالصلاة ، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته وسلّم قال : « أُبَشِّرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسَكُمْ » ، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب ، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ فسلم فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ ، فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحداً ، فقال له رسول الله ﷺ : « هَلْ نَزَلَتْ اللَّيْلَةُ ؟ » قال : لا ، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ : « قَدْ أُوجِبْتَ فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَهَا » .

ثم مضى رسول الله ﷺ بالجيش حتى انتهى إلى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال (٢) .

عيون مالك بن عوف يأتونه بغير المسلمين وتعبثته الجيوش :

وبعث مالك بن عوف رئيس المشركين ثلاثة نفر من رجاله يأتونه بغير أصحاب رسول الله ﷺ ، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم (٣) من الرعب ، فقال مالك : ويلكم !! ما شأنكم ؟ فقالوا : رأينا رجالاً يبضاً على خيل بلقي ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ماترى ، فقال : أف لكم ، بل أنتم أجبن أهل العسكر ، ولم يرده ذلك عن وجهه ، ومضى على ما يريد .

ولما كان ثلث الليل عمد مالك إلى أصحابه فعبّأهم في وادي حنين ، وكان قد سبق المسلمين إليه ، وهو واد ذو خُطوط وشعباب ومضايق ، وفرّق الناس فيها ، وأوعز إليهم أن يرشقوا المسلمين بالنبل أول ما يظلعوا ، ثم يحملوا عليهم حملة واحدة (٤) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦٨/٤) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٦/٤) ، وسنن أبي داود (ج ٨٢٢/٣) كتاب البيوع والإجازات - باب في تضيئ العارية ح ٣٥٦٣ ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٧/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٩٧/٥) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦٨/٤ - ٧٠) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠١/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٧/٢ ، ١٥٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٣٠/٥) .

(٣) الأوصال : جنع وصل ؛ وهو التفصيل أو مجتمّع العظام (الوسيط : ج ١٠٤٩/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٦٧/٤ ، ٧١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٠/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٠/٣) .

تعبئة النبي ﷺ أصحابه :

وفي السحر عبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفهم صفوفاً ، وجعل مينة وميسرة ، ودفع الألووية والرايات إلى أهلها ؛ فلواء المهاجرين أعطاه علياً ، رضي الله عنه ، وأعطى سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، راية ، وأعطى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، راية ، ولواء الخزرج أعطاه الحباب بن المنذر ، رضي الله عنه ، ويقال : لواء الخزرج الآخر مع سعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، ولواء الأوس أعطاه أسيد بن حضير رضي الله عنه . وفي كل بطن من الأوس والخزرج لواء أو راية يحملها رجل منهم مسمى ، وكذلك قبائل العرب فيها الألووية والرايات يحملها رجال منهم مسمون . وركب رسول الله ﷺ بغلته البيضاء ، ولبس درعين والمغفر والبيضة ، واستقبل الصفوف ، وطاف عليهم بعضاً خلف بعض ، فأمرهم وحضهم على القتال وبشرهم بالفتح إن صبروا وصدقوا .

وكان رسول الله ﷺ قد ضمّ بني سليم إلى الضحاک بن سفيان الكلابي ، رضي الله عنه ، فكانوا إليه ومعهم ، ويقال : إنه قدّم سُلَيْمًا من يوم خرج من مكة ، واستعمل عليهم خالد بن الوليد فلم يزل على مقدّمته حتى ورد الجعرانة ، وفي الصحيح أن خالدًا ، رضي الله عنه ، كان على مَجَنَّبَةِ الخيل يومئذ (١) .

هزيمة المسلمين وثبات النبي ﷺ :

وشرع المسلمون ينحدرون في وادي حنين ، وذلك في عمّاية الصبح (٢) ، وهم لا يدرون بوجود كئنا العدو في مضائق هذا الوادي وأخنائهم (٣) وشعباه ، فما راعهم وهم ينحطون إلا الكنائب قد شدوا عليهم شدة رجل واحد ، وانكشفت خيل بني سليم مولية ، وتبعهم أهل مكة ، ثم انشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد ، وكان بعض المسلمين قد قال : لن نغلب اليوم عن قلة ، فما هو إلا أن لقوا عدوهم فانهمزوا .

وفي صحيح البخاري : أن هوازن كانوا قومًا رماة ، وأنه لما لقيهم المسلمون حملوا عليهم فانهمزوا ، فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلوهم بالسهم فرشقوهم رشقاً ما يكاد يسقط لهم سهم ، فولّوا حينئذ مدبرين .

فلما رأى أبو سفيان بن حرب هزيمة المسلمين - وكان قد اعتزل هو وصفوان بن أمية وحكيم بن حزام ورجال من أهل مكة وراء تل ينظرون لمن تكون الدبّرة (٤) - قال وهو حديث عهد بالإسلام : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وإن الألام لمعه في كئنايته ، وصرخ جبّكة أو كلكة بن حنبل : ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان : اسكت فضّ الله فاك (٥) ؛ فوالله لأن يرّبني (٦) رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يرّبني رجل من هوازن .

وانغاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ومعهم نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ والعبّاس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأمين بن أمّ أئمن وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم . وصار رسول الله ﷺ يقول : « أين أيها الناس ؟ هلّموا إليّ ، أنا رسولُ الله ، أنا محمّد بن عبد الله » ، فلم ينعطف إليه أحد .

وحينئذ طفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبيل المشركين وهو يقول : « أنا النبيُّ لا كذِب ، أنا ابنُ عبدِ المُطَلِّب » ، والعبّاس ، رضي الله عنه ، أخذ بِلِجَامِ بغلته ، وأبو سفيان أخذ بركابها يكفّانها إرادة أن لا تسرع . وهذا من فرط شجاعته ﷺ ، قال البراء رضي الله عنه : كنّا والله إذا احمرّ البأس نتقي به ، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به - يعني النبي ﷺ .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٦/٤) ، وصحيح مسلم (ج ٧٣٦/٢) كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام ح ١٣٦ ، وطبقات ابن سعد

(ج ١٥٠/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ١٣١/٥) .

(٢) عتابة الصبح : بقیة ظلمة الليل .

(٣) أخناء الوادي : مُتَعَرِّجَاتُهُ (لسان العرب : ج ١٠٣٢/٢) .

(٤) الدبّرة : الدوّلة والطفر والنصرة . وقد تقدّم .

(٥) فضّ الله فاك : أي كسّر أسنانك وأسقطها . انظر : (النهاية : ج ٤٥٣/٣) .

(٦) يرّبني : يعني أن يكون ربّاً فوقيّ وسيداً يتلکني (لسان العرب : ج ١٥٤٧/٢) .

ثم نزل رسول الله ﷺ عن بغلته ، فاستنصر ربه ودعا قائلاً : « اللَّهُمَّ ! نَزَلْ نَضْرَكَ ، اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَنْشُدُكَ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ ! لَا يَنْبَغِي لَهْمٌ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْنَا » (١) .

وعن صُهَيْب ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو أيام حَنْين : « اللَّهُمَّ ! بِكَ أَحَاوِلُ (٢) ، وَبِكَ أَصَاوِلُ (٣) ، وَبِكَ أَقَاتِلُ » (٤) .

شَيْبَةَ بنِ عَثَانَ يَمْتَلِ النَّبِيَّ ﷺ :

ولما رأى شَيْبَةُ بنِ عَثَانَ رسول الله ﷺ قد انهزم عنه أصحابه إلا نفرًا قليلاً منهم - وكان أبوه قتل يوم أُحُد - قال : اليوم أدرك ثأري من محمد .

وفي رواية : أنه خرج إلى حَنْين مع أهل مكة وهو يريد أن يصيب من النبي ﷺ غزاةً فيثأر منه ، وكان يقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا أتبع محمداً ما تبعته أبداً ، وكان مرصداً لما خرج له لا يزداد الأمر في نفسه إلا قوة .

فجاء النَّبِيُّ ﷺ عن يمينه ، فإذا هو بالعباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، فقال : عمه ولن يخذله ، ثم جاءه عن يساره فإذا هو بأبي سفيان بن الحارث ، رضي الله عنه ، فقال : ابن عمه ولن يخذله ، ثم جاءه من خلفه ، فما بقي إلا أن يضربه بالسيف إذ رفع له شواظاً (٥) من نار كالبرق كاد أن يحرقه ، فوضع يده على بصره ومشى القهقري - وفي رواية أنه أقبل شيء حتى تغشى فؤاده ، فلم يطق ذلك ، فعلم أنه ممنوع منه - والتفت رسول الله ﷺ وقال : « يَا شَيْبُ ! يَا شَيْبُ ! اذْنُ مِنِّي » ، فدننا ، فمسح صدره ثم قال : « اللَّهُمَّ ! أَذْهَبْ غَنَةَ الشَّيْطَانِ » ، قال شَيْبَةُ : فرفعت إليه بصري وهو أحب إلي من سمعي وبصري ونفسي ، وأذهب الله ما كان في ، فقال لي : « يَا شَيْبُ ! قَاتِلِ الْكُفَّارَ » ، قال شَيْبَةُ : فتقدمت أمامه أضرب بسيفي ، الله يعلم أني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء ، ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حياً لأوقعت به السيف ، فجعلت ألزمه فيه لزمه .

فلما انهزم المشركون ورجع رسول الله ﷺ إلى معسكره فدخل خيابه ، دخل عليه شَيْبَةُ حياً لرؤية وجهه ﷺ وسروراً به ، فقال له : « يَا شَيْبُ ! الذي أَرَادَ اللَّهُ بِكَ خَيْرٌ مِمَّا أَرَدْتَ بِنَفْسِكَ » . ثم حدثه بكل ما أضمره في نفسه مما لم يكن ذكره لأحد قط ، قال شَيْبَةُ : فقلت : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، ثم قلت له : استغفر لي ، فقال : غفر الله لك (٦) .

رجوع المسلمين وانهمام العدو :

ثم قال رسول الله ﷺ لعمه العباس ، رضي الله عنه ، وكان رجلاً صبيحاً (٧) : « يَا عَبَّاسُ ! اضْرَحْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، يَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ السُّمْرِ (٨) » - وفي رواية : « نَادِ يَا أَصْحَابَ السُّمْرِ ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ » - فلما سمع المسلمون نداء العباس أقبلوا وهم يقولون : لبيك لبيك ، ويذهب الرجل ليثني بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ،

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧١/٤ - ٧٢) ، وصحيح البخاري (ج ٣٧/٤ ، ٥٢) كتاب الجهاد والسير - باب من قاد دابة غيره في الحرب ، باب من صف أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر ، وصحيح مسلم (ج ١٣٩٨/٣ ، ١٤٠١) كتاب الجهاد والسير - باب في غزوة حنين ح ٧٦ وح ٧٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٥٣/١) ، ومجمع الزوائد (ج ١٧٨/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٣١/٥) .

(٢) أحاول : هو من المناغلة ، وقيل : المحاولة طلب الشيء بجيلة (النهاية : ج ٤٦٢/١) .

(٣) أصاول : أي أسطو وأقهر . والصولة : الحملة والوثبة (النهاية : ج ٦١/٣) .

(٤) سنن الدارمي (ج ٢١٦/٢) .

(٥) الشواظ : اللهب الذي لا دخان فيه (لسان العرب : ج ٢٣٦٠/٣) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٢/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤٥/٥) ، وعيون الأثر (ج ١٩٠/٢) .

(٧) أي شديد الصوت عالية (النهاية : ج ٦٤/٣) . قيل : كان صوته يُسمع من ثمانية أميال ، كان يقف على سلع وينادي غلانه آخر الليل وهم بالغابفة فيسمعهم ، وبين سلع والغابة ثمانية أميال (السيرة الحلبية : ج ١٠٨/٣) .

(٨) وهي الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان .

ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ، فيومّ الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ . قال العباس رضي الله عنه : فوالله لكانّ عظمتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فلرماحهم أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفار .

وكانت الدعوة أول ما كانت : يامعشر الأنصار ، يامعشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج وكانوا صبراً في الحرب ، وتراجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع إليهم منهم مائة قال لهم : « أقبِلُوا بِوُجُوهِكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ، فاستقبلوا المشركين فاقتتلوا .

وفي صحيح مسلم عن أنس ، رضي الله عنه ، قال : فنادى رسول الله ﷺ : « يَا آلَ الْمُهَاجِرِينَ ، يَا آلَ الْمُهَاجِرِينَ ! » ثم قال : « يَا آلَ الْأَنْصَارِ ، يَا آلَ الْأَنْصَارِ ! » .

وفي صحيح البخاري عنه أيضاً أنهم لما أدبروا عنه فبقي وحده ﷺ نادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما ، التفت عن يمينه فقال : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ! » قالوا : لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ! » قالوا : لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ، وهو على بغلة بيضاء ، فنزل فقال : « أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » .

وتجادل الفريقان مجالدة شديدة ، وكان شعار المسلمين كيوم فتح مكة ، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى الناس وهم يجتلدون ، فقال : « الْآنَ حَمِيَّ الْوَطَيْسِ ^(١) » ، ثم أخذ قبضة من تراب الأرض فرمى بها في وجوه المشركين وقال : « شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، حَمٍ لَا يَنْصُرُونَ » ، فخلق الله منهم إنساناً إلا ملاً عينيه تراباً من تلك القبضة وقال : « أَنْهَرْمُوا رَبِّ مُحَمَّدٍ » . وسمعوا صلصلة ^(٢) بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الحديد ، فولّوا مدبرين حتى قال بعضهم : ما خيل إلينا إلا أن كل حجر أو شجر فارس يطلبنا .

وحدث رجل كان من المشركين يوم حنين قال : لما التقينا نحن ورسول الله ﷺ والمسلمون لم يقوموا لنا حلب شاة ، فجننا نهش سيفنا ^(٣) بين يدي رسول الله ﷺ حتى إذا غشيناه ، فإذا بيننا وبينه رجال حسان الوجوه فقالوا : شاهت الوجوه فارجموا ، فهزمننا من ذلك الكلام .

وسئل رجل شهد حنيناً مع المشركين ، ثم أسلم بعد ، عن الرعب الذي ألقى الله ، عز وجل ، في قلوب المشركين يوم حنين كيف كان ؟ فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن ثم يقول : كنا نجد في أجوافنا مثل هذا .

وقال جبير بن مطعم : لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل الجهاد ^(٤) الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادي ، لم أشك أنها الملائكة ، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم .

وكان أمام المشركين رجل على جمل أحمر ، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل ، وهوازن خلفه ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاتته الناس رفع رمحه لمن وراه . فأتبعوه ، فبيننا ذلك الرجل يصنع ما يصنع إذ هوى له علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، ورجل من الأنصار يريدانه ، فأتاه علي من خلفه فضرب عنقه فوقع على عجزه ، ووثب الأنصاري عليه فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه ، فأنجعت ^(٥) عن رحله . قال جابر رضي الله عنه : فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ .

(١) الْوَطَيْسُ : هو الضراب في الحرب ، والوطيس في الأصل : التنور ، ولم يُسمع هذا الكلام من أحد قبيل النبي ﷺ ، عبّر به عن اشتباك الحرب وشديتها وقيامها على ساق . انظر (النهاية : ج ٢٠٤/٥) ، و (السيرة الحلبية : ج ١٠٩/٣) .

(٢) الصلصلة : صوت الحديد إذا حرك (النهاية : ج ٤٦٣) .

(٣) أي يصولون بها . انظر : (الوسيط : ج ٩٦٧/٢) .

(٤) الجهاد : الكساة ، أراد الملائكة الذين أيدهم الله بهم . وقد تقدّم .

(٥) جففة فأنجعت : صرعة وضرب به الأرض فأنصرع (لسان العرب : ج ٦٣٦/١) .

فلما انهزمت هوازن استَحَرَ^(١) القتل في بني مالك من ثقيف ، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم ، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة ، وكانت رايتهم مع ذي الحِمار ، فلما قُتل أخذها عثمان فقاتل بها حتى قُتل ، فلما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال : « أُبْعِدَ اللَّهُ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُبْعِضُ قُرَيْشًا » .

واستَحَرَ القتل في بني رِئَاب من بني نَصْر ، فأتى ابن العُوراء عبد الله بن قيس ، أحد بني رِئَاب ، رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! هلكت بنو رِئَاب ، فزعم أن رسول الله ﷺ قال : « اللَّهُمَّ ! اجْبُرْ مُصِيبَتَهُمْ » .

وكانت راية الأحلاف مع قارب بن الأسود ، فلما انهزم الناس أسند رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأحلاف ، فلم يُقتل من الأحلاف غير رجلين : رجل من بني غَيْرَةَ يقال له وَهْب ، وآخر من بني كُنَّة يقال له الْجَلاح ، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه قتل الْجَلاح : « قُتِلَ الْيَوْمَ سَيِّدُ شَبَابِ ثَقِيفٍ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ ابْنِ هُنَيْدَةَ » يعني الحارث بن أويس .

وهكذا انهزم العدو هزيمة منكرة ، وغنم الله المسلمين نساءهم وذرائعهم وشاءهم ، فلما رأى مالك بن عوف ما حلَّ بجيشه قصد نحو النبي ﷺ - وكان شديد الإقدام - ليصيبه ، فوافاه مرثد بن أبي مرثد العنوي فقاتله ، وحل مالك فرسه فلم يُقدم ، ثم أرادته وصاح به فلم يُقدم ، فولى مديراً وانهزم من حنين .

وأمر رسول الله ﷺ أن يُقتل من قُدر عليه من الكفار المنهزمين ، فحنق المسلمون عليهم ، فتبعوهم يقتلونهم حتى قتلوا الذرية ، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال لهم : « مَا حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ الذَّرِيَّةِ ؟ » قالوا : يا رسول الله ! إنما كنا أولاد المشركين ، قال : « وَهَلْ خِيَارُكُمْ إِلَّا أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ مَا مِنْ نَسَمَةٍ تَوْلَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرَبَ عَنْهَا لِسَانُهَا » . ومَرَّ النبي ﷺ يوماً بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد ، والناس مُتَقَصِّفُونَ^(٢) عليها ، فقال : « مَا هَذَا ؟ » فقالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد ، فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه : « أَذْرِكُ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ : إِنْ رَسُوْلَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَاكَ أَنْ تُقْتَلَ وَلِيْدًا أَوْ امْرَأَةً أَوْ عَسِيْفًا^(٣) » .

وظلَّ المسلمون يتبعون العدو حتى تفرقوا في كلِّ وجه لا يلوي أحد على أحد ، وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة لما رأوا من نصر الله ، عزَّ وجلَّ ، رسوله ﷺ ، وإعزاز دينه . وأنزل الله ، تبارك وتعالى ، في يوم حنين : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ، ثُمَّ وَلَيْتُمُ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾^(٤) .

وكان رسول الله ﷺ قد قال يومئذ : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلْبَةٌ » ، واستلب أبو طلحة زيد بن سهيل ، رضي الله عنه ، وحده في ذلك اليوم عشرين رجلاً .

وكانت أم سُلَيْمٍ مع زوجها أبي طلحة ، رضي الله عنها ، وهي حازمة وسطها يهرد لها ، وفي حزامها خنجر ، وكانت حاملاً بابنها عبد الله ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سُلَيْمٍ ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به ، فقال أبو طلحة : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سُلَيْمٍ الرُّمِيْضَاءُ ؟ فضحك رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ! اقتل الطلقاء ، انهزموا عنك ، فقال : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ » .

ونفَّل رسول الله ﷺ يومئذ أبا قتادة ، رضي الله عنه ، سَلْبَ رجل قتله ، قال أبو قتادة : رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان مساماً ومشركاً ، وإذا رجل من المشركين يريد أن يُعين صاحبه المشرك على المسلم ، فأثبته فضربت يده فقطعتها ، واعتنقني بيده الأخرى ، فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت ، وكاد يقتلني ، فلولا أن الدم نزفه لقتلني ، فسقط ، فضربته فقتلته ، وأجْهَضني عنه

(١) اسْتَحَرَ : اسْتَدَّ وَكَثُرَ (النهاية : ج ٣٦٤/١) .

(٢) مُرْدِحَمُونَ (النهاية : ج ٧٢/٤) .

(٣) العسيف : هو الأجير ، وقيل : هو الشيخ الفاني ، وقيل : هو العبد (النهاية : ج ٢٣٦/٣) .

(٤) التوبة : ٢٥ - ٢٦ .

القتال^(١) ، ومَرَّ به رجل من أهل مكة فسلبه ، فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم ، قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبَةٌ » ، فقلت : يا رسول الله ! والله لقد قتلت قتيلاً ذا سَلْبٍ فأجْهَضني عنه القتال ، فما أدري من استلبه ، فقال رجل من أهل مكة : صدق يا رسول الله ، وسَلَب ذلك القَتيل عندي ، فأرْضِه عني من سلبه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لا والله لا يُرضيه منه ، تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلبه ، ارْدُد عليه سلب قتيله ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَق ، ارْدُدْ عَلَيْهِ سَلْبَهُ » . قال أبو قتادة : فأخذته منه فبعته فاشترت بثمنه مَخْرَفًا^(٢) فإنه لأوَّل مال اعتقدته^(٣) .

مطاردة المشركين وسريّة أبي عامر رضي الله عنه إلى أوطاس :

ولما انهزم المشركون من حنين انتهى بعضهم إلى الطائف كمالك بن عوف في جماعة من قومه ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجّه بعضهم نحو نخلة وهم بنو غيرة من ثقيف .

وأمر رسول الله ﷺ بطلب العدو ، فانطلق المسلمون في آثارهم ، وكان مالك بن عوف لما انهزم وقف في فوارس من قومه على ثنية من الطريق وقال لأصحابه : قفوا حتى تمضي ضعفاؤكم ويلحق أحرآم ، فوقف هنالك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس . فبينما هم كذلك إذ طلعت خيل ، فقال مالك لأصحابه : ماذا ترون ؟ فقالوا : نرى قوماً واضعي رماحهم بين أذان خيلهم طويلة يوّادهم^(٤) ، فقال : هؤلاء بنو سَلِيم ، ولا بأس عليكم منهم ، فلما أتبلوا سلكوا بطن الوادي ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً عارضي رماحهم أغفالا^(٥) على خيلهم ، فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ، ولا بأس عليكم منهم ، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بني سَلِيم ، ثم طلع فارس ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارساً طويل الباد ، واضعاً رمحاً على عاتقه ، عاصباً رأسه بملاء حمراء ، فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللات ليُخالطنكم فائتوا له ، فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم فصمّدهم^(٦) ، فلم يزل يطاعنهم حتى أراحهم عنها . وهرب مالك إلى الطائف فدخل في حصن ثقيف ، ويقال تحصن في قصر بليّة على أميال من الطائف ، فتوجّه إليهم رسول الله ﷺ وغزاهم بنفسه كما سيأتي في غزوة الطائف .

وتبعته خيل المسلمين من سلك في نخلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الثنايا ، فأدرك ربيعة بن رُفيع ، ويقال له ابن السدغنة نسبة إلى أمّه ، دَرِيْدُ بن الصّمة فأخذ بخنجره وهو يظن أنه امرأة ، فإذا هو شيخ كبير ولا يعرفه الغلام ، فقال له دَرِيْدُ : ماذا تريد بي ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رُفيع السلمي ، ثم ضربه بسيفه ، فلم يُغن فيه شيئاً ، فقال : بس ما سلحتك أمك ، خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ، ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دَرِيْدُ بن الصّمة ، فربّ والله يوم قد منعت فيه نساءك ، فزعم بنو سَلِيم أن ربيعة قال : لما ضربته فوقع تكشّف فإذا عجاناه^(٧) وبطون فخذيه مثل القِرطاس من ركوب الخيل أغراء^(٨) . فلما رجع ربيعة إلى أمّه أخبرها بقتله

(١) أي أعجّلة . وقد تقدّم .

(٢) المَخْرَفُ : البُسْتَانُ مِنَ النَّخْلِ (النهاية : ج ٢٤/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧٢/٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ - ٨٠ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٢/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف ، وصحيح مسلم (ج ٢٣٧/٢) كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفات قلوبهم على الإسلام ح ١٣٦ ، و (ج ١٣٩٨/٣ - ١٣٩٩ ، ١٤٠٢ ، ١٤٤٢) كتاب الجهاد والسير - باب في غزوة حنين ح ٧٦ ، ح ٨١ - باب غزوة النساء مع الرجال ح ١٢٤ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ١٩٨/٣) و (ج ٢٨٦/٥) ، والمستدرك (ج ٤٨٨/٣) ، ومجمع الزوائد (ج ١٨١/٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٣٠/٩) ، ودلائله (ج ١٣١/٥ - ١٣٢ ، ١٤٣ - ١٤٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥١/٢) ، و (ج ١٩٧/٤) ، وتاريخ الطبري (ج ٧٨/٣) . واعتقد أرضاً : اشتراها (لسان العرب : ج ٣٠٢٣/٤) .

(٤) البوَادُ : جَمْعُ بَادٍ ، وهو لَحْمُ الفَخْدِ مِمَّا يَلِي السَّرْحَ (الوسيط : ج ٤٢/١) .

(٥) الأَغْفَالُ : جَمْعُ غَفْلٍ ، وهو مَالٌ عَلَامَةٌ فِيهِ (الوسيط : ج ٦٦٢/٢) . يريد أنهم لم يتخذوا لأنفسهم علامة يُعرفون بها .

(٦) صَمَدٌ لَهُ : قَصْدَةٌ . وقد تقدّم .

(٧) العِجَانُ : الدُّبُرُ ، وقيل : مَا بَيْنَ القَبْلِ والدُّبُرِ (النهاية : ج ١٨٨/٣) .

(٨) الأَغْرَاءُ : حَمَمٌ عَزِي ، وهو القَرَسُ الذي لا تُرَجَّعُ عَلَيْهِ ولا تُغَيَّرُ (النهاية : ج ٢٢٥/٣) .

إياه ، فقالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً ، ألا تكترمت عن قتله لما أخبرك بمنه علينا ؟ فقال : ما كنت لأتكرم عن رضا الله ورسوله ﷺ .

ويقال : إن الذي قتل دَرِيْدًا عبد الله بن قنيع ، ويقال الزبير بن العوام رضي الله عنه .

- وبعث رسول الله أبا عامر الأشعري وهو عمّ أبي موسى ، وقيل : ابن عمّه ، على جيش في آثار من توجه إلى أوطاس من المشركين ، وعقد له لواء ، فأدرك بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فقتل منهم أبو عامر تسعة إخوة مبارزة ، بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام ويقول : اللهم ! اشهد عليه ، ثم برز له العاشر فدعاه إلى الإسلام وقال : اللهم ! اشهد عليه ، فقال : اللهم ! لا تشهد عليّ ، فكفّ عنه أبو عامر فأفلت ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه ، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال : « هذا شَرِيْدُ أَبِي عَامِرٍ » .

ورمى أبا عامر ، رضي الله عنه ، ابنا الحارث بن جشم ، وهما الغلاء وأوفى ، فأصاب أحدهما قلبه والآخر ركبته فقتلاه ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، فحمل عليها فقتلها .

ويقال : إن سلمة بن ذرَيْدٍ هو الذي رمى أبا عامر ، رضي الله عنه ، بسهم فأصاب ركبته فقتله ، فعدل إليه أبو موسى ، رضي الله عنه ، فقتله ، ثم أتى أبا عامر وبه رمق فقال له : قتل الله صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم ، فنزعه ، فنزا منه الماء ، قال : يا ابن أخي ! أقرىء النبي ﷺ السلام وقل له : استغفر لي ، وادفع إليه فرسي وسلاحي . ثم استخلفه أبو عامر على الناس ، فكث يسيراً ثم مات .

فقاتل أبو موسى ، رضي الله عنه ، المشركين حتى فتح الله على يديه ، وهزمهم ، وظفر بالغنائم ، وأصاب لهم سبايا ، فرجع بالناس ، فلما رآه رسول الله ﷺ يحمل اللواء قال : « يا أبا موسى ! قتل أبو عامر ؟ » فقال : نعم يا رسول الله . وقال أبو موسى : فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وأنه طلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له ، فدعا النبي ﷺ بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِعَبِيدِ أَبِي عَامِرٍ » ، ورأيت بياض إبطيه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنْ النَّاسِ » - وفي لفظ قال : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِأَبِي عَامِرٍ واجْعَلْهُ مِنْ أَعْلَى أُمَّتِي فِي الْجَنَّةِ » - قال أبو موسى : فقلت له : ولي فاستغفر ، فقال : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ ذَنْبَةَ ، وأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَدْخَلًا كَرِيمًا »^(١) .

جمع الغنائم :

وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فجمعت ، واستعمل عليها مسعود بن عمرو الغفاري ، ويقال : بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءِ الْخِزَاعِيِّ أو غيره ، ثم أمر بها فحبست بالجحرانة ، ولم يقسمها حتى انصرف من غزوة الطائف .

وكان في السبايا الشَّيْءُ بنت الحارث أخت رسول الله ﷺ من الرضاة ، وذكر أن رسول الله ﷺ قال يومئذ : « إِنَّ قَدْرَتَهُمْ عَلَى بَجَائِدِ - رجل من بني سعد بن بكر - فَلَا يُفْلِتَنَّكُمْ » ، وكان قد أحدث حديثاً عظيماً أتاه مسلم فقطعه عضواً عضواً ، ثم أحرقه بالنار ، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله وساقوا معه الشَّيْءَ ، فَعَتَفُوا عَلَيْهَا فِي السِّيَاقِ ، فقالت للمسلمين : تعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاة ، فلم يصدقوها ، فلما انتهوا بها إلى رسول الله ﷺ قالت : يا رسول الله ! إني أختك ، أنا شَّيْءُ بنت الحارث ، قال : « وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ ؟ » قالت : عضّة عضضتنيها في ظهري وأنا مَمْرُوكَتُكَ^(٢) - وفي رواية : فقال لها : « إِنَّ تَكُونِي صَادِقَةً فَإِنَّ بِيكَ مِنِّي أَثَرًا لَنْ يَبْلُغِي » - فعرف رسول الله ﷺ العلامة ، فبسط لها رداءه ، فأجلسها عليه ورحب بها ، وذرفت عيناه حتى بلت دموعه لحيته ، فقال رجل من القوم : أتبيكي يا رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ لِرَجِيمِهَا وَمَا دَخَلَ عَلَيْهَا » ، ثم قال : « سَلِي تَعْطِي ، وَأَشْفَعِي تَشْفَعِي » وقال لها أيضاً : « إِنَّ أُحْبِبْتِ فَعِنْدِي مُحَبَّبَةٌ مَكْرَمَةٌ ، وَإِنْ أُحْبِبْتِ أَنْ أَمْتَعَكَ^(٣) وَتَرْجِعِي إِلَى قَوْمِكَ فَعَلْتُ » ، فقالت : بل تتمعني وتردني إلى

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨٤/٤ ، ٨٧ - ٨٩) ، وصحيح البخاري (ج ١٩٧/٥) كتاب المغازي - باب غزاة أوطاس ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٣٩٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٢/٢) و (ج ٣٥٧/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ١١٢/٣) .

(٢) أي : حاملته على وركها (النهاية : ج ١٧٧/٥) .

(٣) أي يعطيها متاعاً ، والمتاع : كُلُّ مَا يُسْتَفْعَى بِهِ مِنْ عَرُوضِ الدُّنْيَا (لسان العرب : ج ٤١٢٩/٦) .

قومي ، ففعل ﷺ ، فرزعت بنو سعد أنه أعطاهها غلاماً له ، يقال له : مَكْحُول ، وجارية ، فزوّجت أحدهما الأخرى ، فلم يزل فيهم من نسلها بقيّة (١) .

شهداء المسلمين :

واستشهد من المسلمين يوم حنين أربعة نفر ، وهم : أيمن بن عبّيد ابن أمّ أيمن ، ويزيد بن زَمْعَةَ الأسدي ، وسراقّة بن الحارث الأنصاري ، وأبو عامر الأشعري ، ويقال : رَقِيم بن ثعلبة بدل يزيد بن زمعة (٢) .

وجرح يومئذ خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، فأتاه رسول الله ﷺ ، فنفت في جرحه فلم يضرّه (٣) .

سريّة الطّفَيْل بن عمرو الدّؤيّبي رضي الله عنه إلى ذي الكفّين :

ولما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطّائِف بعث الطّفَيْل بن عمرو بن عمرو الدّؤيّبي ، رضي الله عنه ، إلى ذي الكفّين ، صنم عمرو بن حَمَمَةَ الدّؤيّبي يهدمه ، وذلك في شهر شوال سنة ثمان للهجرة ، وأمره أن يستدّ قومه ويوافيه بالطائف .

فخرج سريعاً إلى قومه فهدم ذا الكفّين ، وجعل يوقد عليه النار ويجرقه وهو يقول :

يا ذا الكفّين لست من عبّادك ميلادنا أقدم من ميلادك
إني حشوت النار في فؤادك

ثم رجع إلى رسول الله ﷺ ومعه أربعائة من قومه ، فوافوه بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام ، وقدم بدبابة ومنجنيق ، فقال لهم رسول الله ﷺ : يا مَعْشَرَ الأزد ! مَنْ يَحْمِلُ رَأْيَتَكُمْ ؟ « فقال الطّفَيْل : من كان يحملها في الجاهلية النعمان بن بازية اللّهبي ، قال : « أَصَبْتُمْ » (٤) .

- (١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩١/٤ ، ٩٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٢/٢ ، ١٥٥) و (ج ٢٩٤/٤) ، ودلائل البيهقي (ج ١٥٥/٥ ، ١٩٩) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٦/٣) .
- (٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٢/٢) .
- (٣) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٨٨/٤) .
- (٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤١٠/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٧/٢) .

غزوة الطائف^(١)

لما علم رسول الله ﷺ أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع رئيسهم مالك بن عوف سار إليهم بعد فراغه من حنين ، وذلك في شهر شوال سنة ثمان للهجرة ، وجعل خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، على مقدمته .

وقد كانت ثقيف لما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم ورموه^(٢) وأغلقوه عليهم بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم من الثوت لسنة وتبيؤوا للقتال . ولم يشهد حنيناً منهم ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة كنا يجرش (مدينة في اليمن) يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق^(٣) والضبور^(٤) .

طريق النبي ﷺ إلى الطائف :

مضى رسول الله ﷺ إلى الطائف فرز في طريقه على نخلة اليمانية^(٥) ، ثم على قرن^(٦) ، ثم على المليح^(٧) ، ثم على بحرة الرعاء لية وهي على أميال من الطائف ، فابتنى بها مسجداً فصلى فيه ، وأمر وهو بلية بحصن مالك بن عوف فهدم .

ثم واصل رسول الله ﷺ سيره فسلك في طريق يقال لها الضيقة ، فلما توجه فيها سأل عن اسمها ، فقيل له : الضيقة ، فقال : « بل هي اليسرى » ، ثم خرج على نجيب^(٨) حتى نزل تحت سيدة يقال لها الصادرة قريباً من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ : « إما أن تخرج ، وإما أن تحرب عليك حائطك » ، فأبى أن يخرج ، فأمر رسول الله ﷺ بإحراقه .

ومر رسول الله ﷺ في طريقه بقبر ، فقال : « هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود ، كان بهذا الحرم يدفع عنه ،

(١) الطائف : مدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من مكة ، وهي على عكس مكة أرض مرتفعة ذات جو طيب في الصيف ، فيها زرع وضرع ، وقد كان الطائف وما يزال مصيفاً طيباً يقصده أهل مكة فراراً من وهج الشمس وأغلب سكان الطائف ينتسبون إلى قبيلة ثقيف ، وهم حضر مستقرون متقدمون بالقياس إلى بقية أهل الحجاز ، فاقوا غيرهم في الزراعة ، وأحاطوا بمدينتهم بيساتين مثرة ، كما فاقوهم في البناء فيبيوتهم جيدة منظمة ، وكان لهم حذق ومهارة في الأمور العسكرية ، وكان رؤسائهم من الأغنياء الكبار لهم حصون يدافعون بها عن أنفسهم وأموالهم . ولحماية مدينتهم أقاموا حصوناً على مسافات منها ، وحوطوا مدينتهم بسور حصين عال يرد من يحاول دخولها ، وجمعوا عندهم كل وسائل المقاومة الممكنة التي كانت معروفة في زمانهم ، كما عملوا على تعلم الصناعة الحربية من أهل اليمن . انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١٤٢/٤ - ١٥٢) .

(٢) الرم : إصلاخ الشيء الذي فسدت بعضه (لسان العرب : ج ١٧٣٦/٣) .

(٣) المجانيق : جنح متجنيق ، وهو القذائف التي ترمى بها الحجارة ، وقد تقدم .

(٤) الضبور : الدبابات التي تقرب للحصون لتتقرب من تحيها ، الواحدة ضيرة (لسان العرب : ج ٢٥٤٨/٤) .

(٥) نخلة اليمانية : واد يصب فيه يدغان ، ويدغان واد به مسجد للنبي ﷺ (معجم البلدان : ج ٢٧٥/٨ ، ٥٠٢) .

(٦) قرن : قرية تبينها وبين مكة أحد وخمسون ميلاً ، وبينها وبين الطائف ذات اليمين ستة وثلاثون ميلاً (معجم البلدان : ج ٦٤/٧) .

(٧) المليح : واد بالطائف (معجم البلدان : ج ١٥٦/٨) .

(٨) نجيب : واد من الطائف على سافة (معجم البلدان : ج ٢٧٢/٨) .

فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النَّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا الْمَكَانِ ، فَدَفِنَ فِيهِ ، وَآيَةٌ ذَلِكَ أَنَّهُ دَفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِّنْ ذَهَبٍ إِنْ أَنْتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصْبَهُوهُ مَعَهُ . فابْتَدَرَهُ النَّاسُ فَاسْتَخْرَجُوا الْغُصْنَ (١) .

حصار الطائف وإصابة نفر من المسلمين :

ثم سار رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من حصن الطائف فحضره به عسكره ، وفرض الحصار على أهل الحصن ، وأشرفت ثقيف ، وأقاموا رمايتهم ، فرموا المسلمين بالحجارة وبالنبيل رميماً شديداً كأنه رجل جراد (٢) حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم بضعة رجال ، فاضطر النبي ﷺ إلى الارتفاع عن معسكره إلى موضع مسجد الطائف اليوم (الذي بناه عمرو بن أمية بن وهب لما أسلمت ثقيف في موضع مصلّى النبي ﷺ) فعسكر هناك . وكان مع رسول الله ﷺ من نسائه أم سلمة وزينب بنت جحش ، رضي الله عنها ، فضرب لها قبتين ، وكان عليه الصلاة والسلام يصلي بين القبتين الصلاة مقصورة مدة حصار الطائف (٣) وكانت ثمانية عشر يوماً (٤) .

ودخل رسول الله ﷺ قبة أم سلمة ، رضي الله عنها ، وعندها أخوها عبد الله بن أبي أمية ومُخَنَّثٌ يُدْعَى هَيْتاً ، فسمعه وهو يقول لعبد الله : يا عبد الله ! أرايت إن فتح الله عليكم الطائف غداً ، فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان (٥) ، فقال النبي ﷺ : « لَا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكَ » .

وفي رواية : أنه كان مع رسول الله ﷺ مولى لخالته فاخترت بنت عمرو بن عائذ مُخَنَّثٌ يقال له مَتَاعٌ ، يدخل على نساء رسول الله ﷺ ويكون في بيته ، ولا يرى رسول الله ﷺ أنه يفتن لشيء من أمر النساء مما يفتن إليه الرجال ، ولا يرى أن له في ذلك أرباً ، فسمعه وهو يقول لخالد بن الوليد : يا خالد ! إن افتتح رسول الله ﷺ الطائف فلا تفتن منك بأديبة بنت غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فقال رسول الله ﷺ حين سمع هذا منه : « لَا أَرَى هَذَا الْحَيْثُ يَفْطَنُ لِمَا أَسْمَعُ » ، ثم قال لنسائه : « لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ » ، فحجج عن بيت رسول الله ﷺ (٦) .

رمي النبي ﷺ أهل الطائف بالمنجنيق وأمره بقطع أعنانهم :

ونصب رسول الله ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، قيل هو أول منجنيق رمي به في الإسلام ، وكان قدم به الطقييل بن عمرو الدؤبي ، رضي الله عنه ، لما رجع من هدم ذي الكففين ، كما نثر الحسك (٧) سقبتين من عيدان (٨) حول الحصن .

ويقال : إن سلمان الفارسي ، رضي الله عنه ، أشار بالمنجنيق على رسول الله ﷺ ، فقال له : إنا كنا بأرض فارس فنصب المنجنيقات على الحصون وننصب علينا ، فنصيب من عدونا ويصيب منا ، فإن لم يكن منجنيق طال النواء ، فأمره رسول الله ﷺ

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٢/٤ ، ١٢٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٨/٢) ، وسنن أبي داود (ج ٤٦٤/٣) كتاب الحراج والإمارة والفيء - باب نش القبور العادية يكون فيها المال ح ٣٠٨٨ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٧/٦) .

(٢) يعني أن السهام لكثرتها صارت كجاعة الجراد المنتشر . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٣٠٧/٣) .

(٣) اختلفت الروايات في مدة حصار الطائف ؛ ففي صحيح مسلم أنهم حاصروا الطائف أربعين يوماً ، وفي مصادر أخرى ثلاثين ليلة ، وقيل : ثمانية عشر أو سبعة عشر أو خمسة عشر .. انظر : صحيح مسلم (ج ٧٢٧/٢) كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفلة قلوبهم على الإسلام ح ١٣٦ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٨٤/٩) ، ودلائله (ج ١٦٩/٥) ، وتاريخ الطبري (ج ٨٢/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٧/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٨/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٣٥/٣) .

(٥) يريد أن لها في بطنها أربع عكن فإذا أقبلت رؤيت مواضعها بارزة متكسراً بعضها على بعض ، وإذا أدبرت كانت أطراف هذه العكن الأربع عند منقطع جنبها ثمانية . وحاصله أنه وصفها بأنها مملوءة البدن بحيث يكون لبطنها عكن وذلك لا يكون إلا للسمنة من النساء . (فتح الباري : ج ٢٣٥/٩) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ١٩٨/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٦٠/٥) .

(٧) الحسك : نبات له قشرة خشنة ، والحسك من الحديد : ما يُعْمَلُ على مثال الحسك ، كان يُلْقَى حَوْلَ الْعَسْكَرِ (الوسيط : ج ١٧٣/١) .

(٨) السقبت : الطويل من كل شيء ، والعيدان : الطوال من النخل (لسان العرب : ج ٢٠٣٦/٣ ، ج ٣١٦٢/٤) .

فعمل منجنيقاً بيده فنصبه على حصن الطائف . ثم قذفت به القذائف حتى وقعت شذخة في جدار الحصن ، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابته^(١) - وكانت من جلود البقر - ثم زحفوا بها إلى جدار الحصن ليخرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سلك الحديد تحمّاه بالنار فأحرقت الدبابة ، فخرج المسلمون من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً .

فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف وتحريقها ، قيل : وأمر كل مسلم أن يقطع خمس نخلات وخمس حَبَلات^(٢) من كرومهم ، فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً يغيظونهم بذلك . ثم سأله ثقيف أن يدعها لله وللرحم^(٣) ، فقالوا له : لم تقطع أموالنا ؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا ، وإما أن تدعها لله والرحم ، فقال رسول الله ﷺ : « فَإِنِّي أَدْعُهَا لِلَّهِ وَلِلرَّحِمِ » .

ويقال : إن أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ناديا ثقيفاً أن أمّونا حتى نكلّمكم ، فأمنوهما ، فدعوا نساء من نساء قريش وبني كنانة ليخرجن إليهما ، وهما يخافان عليهن النساء ، فأبين . منهن أمّنة بنت أبي سفيان ، ويقال : ميمونة ، كانت عند عروة بن مسعود ، ويقال : عند مّرة بن عروة بن مسعود له منها داود ، والفراسيّة بنت سويد ، والفقيميّة أمية بنت النّاسيء بن قُلع ، فلما أبين عليهما قال لهما الأسود بن مسعود : ألا أدلكما على خير مما جئتماه ؟ إن مال بني الأسود بن مسعود حيث قد علمتما ؛ إنه ليس بالطائف مال أبعد ريشاء ولا أشدّ مؤونة ولا أبعد عيارة من مال بني الأسود ، وإن محمداً إن قطعه لم يعمر أبداً ، فكلماه فليأخذه لنفسه أو ليّدعه لله والرحم ؛ فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل . فكلماه ، فتركه رسول الله ﷺ لهم^(٤) .

نزول عبيد من حصن الطائف وإسلامهم :

ثم نادى منادي رسول الله ﷺ : أيّا عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرّ ! فخرج إليه ثلاثة وعشرون رجلاً ، فيهم أبو بكرّة بن مشرّوح ، ويقال : هو تقيع بن الحارث ، تسور حصن الطائف وتدلّى ببكرّة مستديرة يستقى عليها الماء ، فكناه رسول الله ﷺ أبا بكرّة ، وكان عبداً للحارث بن كلدّة . وفيهم المنبّعث وكان اسمه المضطجع فسماه رسول الله ﷺ المنبّعث . وفيهم أيضاً يُحنس ووردان ، فأعتق رسول الله ﷺ كل من نزل إليه من رقيق المشركين ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمّله ، وأمرهم ﷺ أن يقرؤهم القرآن ويعلموهم السنن .

فشقّ ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، ولما أسامت ثقيف - فيما بعد - تكلم نفر منهم في أولئك العبيد ، منهم الحارث بن كلدّة ، وقالوا : يا رسول الله ! ردّ علينا رقيقنا الذين أتوك ، فقال : « لا ، أولئك عتقاه الله عزّ وجلّ » ، وردّ على كل رجل ولاء عبده ، فجعله إليه^(٥) .

عبيّنة بن حصن يحرّض ثقيفاً على المسلمين :

واستأذن رسول الله ﷺ عبيّنة بن حصن في أن يأتي ثقيفاً ليدعوهم إلى الإسلام ، فأذن له في ذلك ، فانطلق حتى دخل عليهم الحصن ، فقال لهم : تمسكوا بمكانكم ، فوالله لنحن أدلّ من العبيد ، وأقسم بالله لأن حدث به حدّث لتملكنّ العرب عزّاً ومَنَعَةً ، فتمسكوا بحصنكم ، وإيّاكم أن تعطوا بأيديكم ، ولا يتكاثرنّ عليكم قطع هذا الشجر .

ثم رجع عبيّنة إلى رسول الله ﷺ فقال له : « ماذا قلت لهم يا عبيّنة ؟ » فقال : أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه ، وحدثتهم النار

(١) الدبابة : هي آلة من آلات الحرب تجعل من الجلود يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها ، وقد تقدّم .

(٢) الحبلّة : القضيّب من شجر الأعناب .

(٣) والرحم التي بين رسول الله ﷺ وبينهم أن أمه أمّة أمّة برة بنت عبد العزّي بن قصى ، وأمّ برة هذه أمّ حبيب بنت أسعد ، وأمها برة بنت عوف ، وأمها قلابة بنت الحارث ، وأمّ قلابة هند بنت يربوع من ثقيف . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٣١/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٨/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٨/٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٨٤/٩) ، ودلائله (ج ١٦١/٥) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٣٠/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٩٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف ، والمستدرک (ج ٧٩/٤) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٢٩/٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٥٧/٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٨/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٢/٣) ، وفتح

الباري (ج ٤٥/٨) .

ودللتهم على الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : « كَذَبْتَ ! بَلْ قُلْتَ لَهُمْ كَذَا وَكَذَا » وقصّ عليه رسول الله ﷺ حديثه ، فقال : صدقت يا رسول الله ، أتوب إلى الله ، عزّ وجلّ ، وإليك من ذلك . فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ! دَعْنِي أَقْدِمَهُ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ ، قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي » . ويقال : إن أبا بكر ، رضي الله عنه ، أغلظ له يومئذ وقال له : ويحك يا عَيْبَةَ ! إنما أنت توضع في الباطل ؛ كم لنا منك من يوم بني النضير وقرظنة وخيبر ؟ تُجَلِّبُ علينا وتقاتلنا بسيفك ، ثم أسلمت كما زعمت فتحرض علينا عدونا ! قال : أستغفر الله يا أبا بكر وأتوب إليه ، لا أعود أبداً .

وكان عَيْبَةَ لما أخذ الناس في القطع قال لِيَعْلَى بن مَرَّة : عليّ حرام أن أقطع حظي من الكرم ، فقال يعلى : إن شئت قطعت نصيبك فإذا ترى ؟ قال : أرى أن تدخل جهنم ، فكانت هذه ريبة من عَيْبَةَ في دينه ، وسمع بذلك رسول الله ﷺ فغضب منه وأوعده وقال : « أَنْتَ صَاحِبُ الْعَمَلِ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » (١) .

رؤيا النبي ﷺ ورحيل المسلمين :

ذُكِرَ أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وهو محاصر ثقيفاً : « يَا أَبَا بَكْرٍ ! إِنِّي رَأَيْتُ أَنِّي أُهْدَيْتُ لِي قَعْبَةَ (٢) مَمْلُوءَةٌ زُبْداً ، فَنَقَرَهَا دِينَكَ فَهَرَّاقَ مَا فِيهَا » ، فقال أبو بكر : ما أظنّ أن تُدرِكَ منهم يوماً هذا ما تريد ، فقال رسول الله ﷺ : « وَأَنَا لَا أَرَى ذَلِكَ » (٣) .

ولما طال الحصار ، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف ، استشار نوفل بن معاوية الديلمي فقال : « مَا تَرَى ؟ » قال : ثعلب في جحر إن أمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك .

ثم إن خَوْلَةَ بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون ، رضي الله عنها ، أتت رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله ! ما يمنعك أن تنهض إلى أهل الطائف ؟ قال : « لَمْ يُؤْذَنْ لَنَا حَتَّى الْآنَ فِيهِمْ ، وَمَا أَظُنُّ أَنْ نَفْتَحَهَا الْآنَ » .

وأتاه عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال : ألا تدعو على أهل الطائف فتنهض إليهم لعلّ الله ، عزّ وجلّ ، يفتحها فإن أصحابك كثير وقد شقّ عليهم الحبس ومنعهم معايشهم ، قال رسول الله ﷺ : « لَمْ يُؤْذَنْ لَنَا فِي قِتَالِهِمْ » ، فقال عمر : فكيف نُقتل في قوم لم يأذن الله فيهم ؟ قال : « فَارْتَحِلُوا » .

وفي رواية : أن خَوْلَةَ ، رضي الله عنها ، قالت : يا رسول الله ! أعطني إن فتح الله عليك الطائف حليّ بادية ابنة غَيْلَانَ ، أو حليّ الفارعة بنت عقيل ، وكناتنا من أحلى نساء ثقيف ، فقال لها رسول الله ﷺ : « وَإِنْ كَانَ لَمْ يُؤْذَنْ لِي فِي ثَقِيفٍ يَا خَوْلَةُ ! » ، فخرجت خَوْلَةَ فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فدخل على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! ما حديث حدثتني به خَوْلَةُ ، زعمت أنك قلتها ؟ قال : « قَدْ قُلْتُهُ » ، قال : أو ما أُذِنَ لك فيهم يا رسول الله ؟ قال : « لَا » ، قال : أفلا أُؤْذَنُ بالرحيل ؟ قال : « بَلَى » .

فأذن عمر ، رضي الله عنه ، في الناس بالرحيل ، فضجّ الناس من ذلك ، واستأذنوا رسول الله ﷺ في مناهضة الحصن ، فقال : « مَا أَرَى أَنْ نَفْتَحَهُ ، وَمَا أُذِنَ لَنَا فِيهِ الْآنَ » ، فثقل عليهم ذلك وقالوا : يا رسول الله ! نذهب ولا نفتحه ؟ فقال : « ائِدُوا عَلَى الْقِتَالِ » ، فعدّوا ، فأصابهم جراح ، فقالوا : يا رسول الله ! أخرجتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم ، قال : « اللَّهُمَّ ! اهْدِ ثَقِيفاً وَأُتِّ بِهَم » ، ثم قال : « إِنَّا قَافِلُونَ عَدَاؤُا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك .

ولما رأت ثقيف ارتحال الناس نادى رجل منهم : ألا إن الحيّ مقيم ، فقال عَيْبَةَ بن حصن : أجل مَجْدَةَ كراماً ، فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عَيْبَةَ !! أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ ، وقد جئت تنصر رسول الله ﷺ ؟ فقال : إني والله

(١) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٦٢/٥) .

(٢) الْقَعْبَةُ : قَدَحٌ ضَخْمٌ غَلِيظٌ (لسان العرب : ج ٣٦٨٥/٥) .

(٣) سيرة ابن هشام (ج ١٢٩/٤) .

ما جئت لأقاتل ثقيفاً ، ولكني أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب جارية أتطبخها لعلها تلد لي رجلاً ؛ فإن ثقيفاً قوم مناكير^(١) .

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه حين الارتحال : « قُولُوا لِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَرَمَ الْأَخْزَابَ وَحْدَهُ » ، فلما ارتحلوا واستقلوا^(٢) قال : « قُولُوا أَيُّونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » ، ودعا النبي ﷺ لما ركب قائلًا : « اللَّهُمَّ ! اهْدِهِمْ وَأَكْفِنَا مَوْتَنَهُمْ » . وقد استجاب له ربه تعالى ، فأتى بهم مسلمين في رمضان سنة تسع للهجرة كما سيأتي في الوفود إن شاء الله تعالى^(٣) .

عدة شهداء المسلمين :

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً : سبعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، وواحد من ليث . منهم عبد الله بن أمية الخزومي أخو أم سلمة ، رضي الله عنها ، وابن عمته ﷺ الذي أسلم في فتح مكة ، وعبد الله بن أبي بكر الصديق ، رضي الله عنها ، زمي يومئذ فاندمل الجرح ، ثم انتقض به بعد ذلك ، مات في خلافة أبيه رضي الله عنها .

وَفُقِّتْ عَيْنُ أَبِي سَفِيَانَ بْنِ حَرْبٍ يَوْمَئِذٍ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَذِهِ عَيْنِي أَصِيبَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ فَرَدَّتْ عَلَيْكَ ، وَإِنْ شِئْتَ فَالْجَنَّةُ » ، قال : فالجنة^(٤) .

إسلام سراقَةَ بن مالك :

غادر رسول الله ﷺ الطائف قافلاً إلى الجعرانة ، وفي الطريق لقيه سراقَةُ بن مالك فدخل في كتيبة من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعونه بالرمح ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ قال سراقَةُ : فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، والله لكأني أنظر إلى ساقه في عَرَزِهِ^(٥) كأنها جَمَّارَةٌ^(٦) ، قال : فرفعت يدي بالكتاب ، ثم قلت : يا رسول الله ! هذا كتابك لي ، أنا سراقَةُ بن مالك بن جَعْشَمٍ ، فقال رسول الله ﷺ : « يَوْمَ وَفَاءٍ وَبِرٍّ ، اذْنُهُ » ، قال : فدنوت منه ، فأسلمت ، ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما ذكره ، إلا أني قلت : يا رسول الله ! الضَّالَّةُ من الإبل تغشى حياضي وقد ملأها لإبلي ، هل لي من أجر في أن أسقيها ؟ قال : « نَعَمْ ، فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّى^(٧) أُجْرٌ » . قال : ثم رجعت إلى قومي فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي^(٨) .

قسمة الغنائم بالجعرانة :

قدم رسول الله ﷺ الجعرانة ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة ، فنزل بها فبين معه من الناس ، وأقام ثلاث عشرة ليلة لا يقسم الغنائم - وكان أمر بها لما كان بجنين فحبست بالجعرانة وتوجه هو إلى الطائف - ويتأني بها ، يبتغي أن يقدم عليه وفد هوازن مسلمين ، فيحزروا ما أصيب منهم . فلما لم يجئه أحد أمر بإحصاء الغنائم ، فكان السبي ستة آلاف بين غلام وامرأة ، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة . ثم بدأ بالأموال فقسمها^(٩) .

(١) مناكير : من النكر وهو الدهاء (النهاية : ج ١١٥/٥) .

(٢) أي : مضوا .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٩/٤ ، ١٣٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٩٨/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف ، وسنن الترمذي (ج ٧٢٩/٥) كتاب المناقب - باب مناقب في ثقيف وبني حنيفة ح ٣٩٤٢ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٩/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٥٧/٥ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٣١/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٨/٢) ، وكنز العمال (ج ٥٥٤/١٠) .

(٥) العَرَزُ : ركاب كُورِ الجمل إذا كان من جلد أو خشب ، وقيل : هو الركب مطلقاً (النهاية : ج ٣٥٩/٣) .

(٦) الجَمَّارَةُ : قلب النخلة وشحمتها ، شبه ساقه ببياضها (النهاية : ج ٢٩٤/١) .

(٧) كَبِدٌ حَرَّى : أي عطشى ، وقيل : أراد بالكبد الحرى حياة صاحبها ، لأنه إذا تكون كبده حرى إذا كان فيه حياة (النهاية : ج ٣٦٤/١) .

(٨) سيرة ابن هشام (ج ١٠٤/٢) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٣٤/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٢/٢) .

وقد كان رؤساء القبائل والأعراب قد استبطؤوا قسمة غنائم حنين حتى ألحوا على رسول الله ﷺ في ذلك ، فقد روى البخاري بسنده عن جبير بن مطعم ، رضي الله عنه ، أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس متقلبه من حنين فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمره فخطبت رداءه ، فوقف النبي ﷺ فقال : « أعطوني رداي ، لو كان لي عدد هذه العيضة نعماً لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً » (١) .

وروي أن النبي ﷺ صلى إلى بعير من المغنم ، فلما فرغ من صلاته أخذ وبرة من سنامه بين أصبعيه ثم رفعها ، ثم قال : « أيها الناس ! والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الحمس ، والحمس مردود عليكم ، فأدوا الحياط والمخيط (٢) ، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً (٣) يوم القيامة ، وجاهدوا الناس في الله القريب منهم والبعيد ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، وأفيوا حدود الله في السفر والحضر ، وعليكم بالجهاد فإنه باب من أبواب الجنة عظيم ينجي الله به من الهم والغم » . قال : فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ! أخذت هذه الكبة أحمل بها بردعة (٤) بعير لي دبر (٥) ، فقال : « أمّا تصيبي منها فلك » ، قال : أمّا إذ بلغت هذا ، فلا حاجة لي بها ، ثم طرحها من يده .

وذكر أن عقيل بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، دخل يوم حنين على امرأته فاطمة ابنة شيبه بن ربيعة وسيفه متلطح دماً ، فقالت : إني قد عرفت أنك قد قاتلت ، فإذا أصبت من غنائم المشركين ؟ فقال : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول : من أخذ شيئاً فليترده حتى الحياط والمخيط ، فرجع عقيل فقال : ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، فأخذها فألقاها في الغنم (٦) .

ولما بدأ رسول الله ﷺ بقسمة الغنائم أعطى المؤلف قلوبهم أول الناس ، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم (٧) ، فأعطى أول ما أعطى أبا سفيان بن حرب ، وقد كان قال لرسول الله ﷺ لما جمعت الغنائم بين يديه : يا رسول الله ! أصبحت أكثر قریش مالاً ، فتبسم رسول الله ﷺ ، فأعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل ، قال : ابني يزيد ، فأعطاه مثلها ، وقال : ابني معاوية ، فأعطاه مثلها ، فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ، لأنت كريم في الحرب وفي السلم ؛ لقد حاربتك فنعيم الحارب كنت ، وقد سالتك فنعيم المسالم أنت ، جزاك الله خيراً .

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها ، ثم سأله فأعطاه وقال له : « يا حكيم ! إن هذا المال خصّ حلو ، فمن أخذته بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذته بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العلى خير من اليد السفلى » ، فقال حكيم : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق لأرؤأ أحداً بعدك شيئاً ، حتى أفارق الدنيا . فكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، يدعو حكماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً ، ثم إن عمر ، رضي الله عنه ، دعاه ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل ، فقال : يا معشر المسلمين ! إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه ، فلم يرؤأ حكماً أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى توفي .

(١) صحيح البخاري (ج ٢٧/٤) كتاب الجهاد والسير - باب الشجاعة في الحرب والجهن .

(٢) الحياط : الخيط ، والمخيط : الإبرة (النهاية : ج ١٢/٢) .

(٣) الشنار : العيب والغار ، وقيل : هو العيب الذي فيه عار (النهاية : ج ٥٠٤/٢) .

(٤) البردعة : ما يوضع على الحمار أو البغل ليترك عليه (الوسيط : ج ٤٧/١) .

(٥) الدبر : الجرح الذي يكون في ظهر البعير . يقال : دبر يدبر دبراً . وقيل : هو أن يفرح خف البعير (النهاية : ج ٩٧/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٣٨/٤ - ١٣٩) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٠٤/٩) .

(٧) قيل : كانت المؤلف قلوبهم ثلاثة أصناف : صنف يتألفهم رسول الله ﷺ ليسلموا كصفوان بن أمية ، وصنف ليثبت إسلامهم كأي سفيان بن حرب ،

وصنف لدفع شرهم كعبيدة بن جصن والعباس بن مرداس والأقرع بن حابس . انظر : السيرة الحلبية (ج ١٢٠/٣) .

وأعطى الحارث بن الحارث بن كَلْدَةَ ، ويقال : النُّضَيْرُ بن الحارث مائة بعير^(١) ، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير ، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حَوَيْطِبَ بن عبد العَزَى مائة بعير ، وأعطى عَيْبَةَ بن حِصْن مائة بعير ، وأعطى الأقرع بن حابس مائة بعير ، وأعطى عَبَّاسَ بن مُرْدَاسَ دون ذلك ، ويقال : أعطاه أربعين من الإبل فسخطها وقال في ذلك أبياتاً يعاتب بها رسول الله ﷺ ، منها قوله :

أَجْمَعُ ل تَهْبِي (٢) وَتَهْبِي الْعَيْبَةَ (٣) بَيْنَ عَيْبَةَ وَالْأَقْرَعَ

فأعطاه رسول الله ﷺ تمام المائة ، وقيل : إنه ﷺ قال : « أَذْهَبُوا بِهِ فَأَقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَهُ » ، فأعطوه حتى رضي ، فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به رسول الله ﷺ .

وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ، ثم مائة ، ثم مائة ، قال صفوان : والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلي ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي . ويروى أن رسول الله ﷺ لما تفقد الغنائم بالجعرانة رأى صفوان بن أمية يرمق شعباً ملاناً نعباً وشاء ، فقال له : « أبا وَهْب ! يَعْجَبُكَ هَذَا الشَّعْبُ ؟ » قال : نعم ، فقال : « هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ » ، فقال صفوان : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ! وأسلم مكانه .

وأعطى رسول الله ﷺ رجالاً آخرين من أشرف قريش وغيرهم من رؤساء القبائل مائة مائة من الإبل ، وأعطى آخرين خمسين خمسين ، وأربعين أربعين - ويقال : إنه أعطى ذلك كله من الخمس - حتى شاع في الناس أن محمداً ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر^(٤) ، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال ، فعن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : لما قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين بالجعرانة ازدحوا عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ فَضَرَبُوهُ وَشَجَّوهُ ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ جَبْهَتِهِ وَيَقُولُ : رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . قال عبد الله : كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يمسح الدم عن جبهته يحكي الرجل ويقول : « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »^(٥) .

(١) وهو أخو النَّضْرِ بن الحارث الذي قتله علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، يوم بدر بالصفراء صبراً ، وكان النَّضِيرُ من أحلم الناس ، فكان يقول : الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام ومن علينا بمحمد ﷺ ولم نمت على مامات عليه الآباء وقتل عليه الإخوة وبنو العم . وكان يحدث عن إسلامه فيقول إنه خرج مع قومه من قريش إلى حنين ، وهم على دينهم بعد ، وهم يريدون إن كانت الهزيمة على محمد ﷺ أن يغيروا عليهم ، فلم يمكنهم ذلك ، فلما صار إلى الجعرانة وإنه لعل ما هو عليه ما شعر إلا برسول الله ﷺ يتلقاه فقال : « النَّضِيرُ ! » قال : فقلت : لبيك ، قال : « هذا خير مما أردت يوم حنينٍ مما حالَّ الله بينك وبينتة » ، قال : فأقبلت إليه سريعاً ، فقال : « قَدْ آتَى لَكَ أَنْ تُبْصِرَ مَا أَنْتَ فِيهِ تَوْضِيحٌ » ، فقال : قد أرى أنه لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئاً ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ! زِدْهُ ثَبَاتًا » ، قال النَّضِيرُ : فوالذي بعثه بالحق لكان قلبي حَجَرَ ثَبَاتًا في الدين وبصيرة بالحق ، فقال رسول الله ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا » . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤٤٨/٥) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٥/٥) .

(٢) وفي رواية : « فأصبح نبي » . وذكر بعض أهل العلم أن عَبَّاسَ بن مُرْدَاسَ أتى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَنْتَ الْقَائِلُ فَأَصْبِحَ تَهْبِي وَتَهْبِي الْعَيْبَةَ بَيْنَ الْأَقْرَعَ وَعَيْبَةَ ؟ » فقال أبو بكر الصديق : بين عيبنة والأقرع ، فقال رسول الله ﷺ : « هَمَّا وَاحِدٌ » ، فقال أبو بكر : أشهد أنك كما قال الله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْتَبِيحُ لَهُ ﴾ يس : ٦٩ - انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٠/٤ ، ١٤٢) .

(٣) الْعَيْبَةُ : اسمُ قَرَسِ الْعَبَّاسِ بنِ مُرْدَاسٍ (لسان العرب : ج ٢٧٨١/٤) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٩/٤ - ١٤٠ ، ١٤٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٢/٢ ، ١٥٣) ، و (ج ٢٤٦/٤) ، ودلائل البيهقي (ج ١٧٧/٥) ، وصحيح مسلم (ج ٢٣٧/٢) كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفات قلوبهم على الإسلام ... ح ١٣٧ ، و (ج ١٨٠٦/٤) كتاب الفضائل - باب مسائل رسول الله ﷺ شيئاً فقال لا .. ح ٥٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٧٦/١) ، ومغازي الواقدي (ج ٨٥٤/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ١١٧/٣) ، وعيون الأثر (ج ٢٢٩/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٤١/٣) .

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٤٥٦/١) .

وروى البخاري بسنده عن أبي موسى ، رضي الله عنه ، قال : كنت عند النبي ﷺ ، وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال ، فألقى النبي ﷺ أعرابي فقال : ألا تنجز لي ما وعدتني ؟ فقال له : « أَيْشُرُ » ، فقال : قد أكثرت عليّ من أبشر ، فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان ، فقال : « رَدَّ الْبُشْرَى ، فَأَقْبَلَا أَنْتَبَا » ، قالوا : قَبِلْنَا ، ثم دعا بقدح فيه ماء ، فغسل يديه ووجهه فيه ، ومجّ فيه ، ثم قال : « اشْتَرَا مِنْهُ ، وَأَفْرَعَا عَلَى وَجْهِكُمَا وَنَحْرِكُمَا وَأَبْشِرَا » ، فأخذوا القدح ففعلوا ، فنادت أمّ سلمة من وراء السّتر أن أفضيلاً لأمتكما ، فأفضيلاً لها منه طائفة^(١) .

- إحصاء ما بقي من الغنائم وتوزيعها على سائر المسلمين :

ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ، رضي الله عنه ، بإحصاء الناس والغنائم المتبقية ، ثم فضّها على الناس ، فكانت سهام كل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل وعشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم إلا لفرس واحد^(٢) .

يروى أن أبا رُهم ، رضي الله عنه ، أخذ يومئذ ثمانين نعجة ، وذلك أنه لما أقبل من الطائف إلى الجعرانة زحمت ناقته ناقة رسول الله ﷺ ، وفي رجله نعل غليظة فوقع حرفها على ساق النبي ﷺ ، فقال له : « أَوْجَعْتَنِي » وقرع رجله بالسوط . قال أبو رُهم : فبنت لِنَفْسِي لَأَمَّا أَقُولُ أَوْجَعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فبنت بليلة كما يعلم الله ، فلما أصبَحْنَا بِالْجِعْرَانَةِ خَرَجْتَ أَرعى الظهر ، وما هو يومي ، فَرَقَا أَنْ يَأْتِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ رَسُولٌ يَطْلُبُنِي ، فلما رَوَّحَتِ الرِّكَابَ سَأَلْتُ ، فقالوا : طَلَبَكَ النَّبِيُّ ﷺ ، فقلت : هذا والله الذي كان منّي بالأمس ، فانطلقت وأنا متخوّف ، فقال لي رسول الله ﷺ : « إِنَّكَ أَوْجَعْتَنِي بِرِجْلِكَ فَفَرَعْتُكَ بِالسُّوْطِ وَأَوْجَعْتُكَ ، فَهَذِهِ ثَمَانُونَ نَعْجَةً فَخُذْهَا بِهَا » ، قال أبو رُهم : فرضاه عني كان أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها^(٣) .

ولما فرّق رسول الله ﷺ السبايا بعد ذلك نادى مناديه : لا تُوطأ الحبل حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة^(٤) . روي عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : أصبنا سبايا يوم حنين فكنا نعزل عنهم نلتبس أن نفاذهم من أهلهم ، فقال بعضنا لبعض : تفعلون هذا وفيكم رسول الله ﷺ ؟ ائتوه فسألوه ، فأتيناه ، أو ذكرنا ذلك له ، قال : « مَا مِنْ كَلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ ، إِذَا قَضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ »^(٥) . وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس ، فلقوا عدواً ، فقاتلوهم فظهروا عليهم ، وأصابوا لهم سبايا ، فكان ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ تخرّجوا من غشيانهم من أجل أزواجهم من المشركين ، فأنزل الله ، عزّ وجلّ ، في ذلك : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾^(٦) أي فهنّ لكم حلال إذا انقضت عِدَّتُهُنَّ^(٧) .

شأن ذي الخويصرة التميمي :

روي عن عبد الله ، رضي الله عنه ، قال : لما كان يوم حنين أثار النبي ﷺ أناساً في القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة مثل ذلك ، وأعطى أناساً من أشرف العرب فأثرهم يومئذ في القسمة ، قال رجل : والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله ، فقلت : والله لأخبرن النبي ﷺ ، فأتيته فأخبرته ، فقال : « فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ »^(٨) .

(١) صحيح البخاري (ج ١٩٩/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٥٢/٢) .

(٣) انظر : سنن الدارمي (ج ٣٤/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٤/٤) .

(٤) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٨٧/٣) .

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٨٢/٣) .

(٦) النساء : ٢٤ .

(٧) صحيح مسلم (ج ١٠٧٩/٢) كتاب الرضاع - باب جواز وطء اللسبية بعد الاستبراء .. ح ٣٣ .

(٨) صحيح البخاري (ج ١١٥/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفه قلوبهم .

ويقال : إن قائل هذه المقالة ذو الحَوَيْصِرَةِ التَّمِيّ أَوْ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ ذِي الْحَوَيْصِرَةِ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ذَا الْحَوَيْصِرَةَ وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُعْطِي النَّاسَ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! قَدْ رَأَيْتَ مَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَجَلُ فَكَيْفَ رَأَيْتَ ؟ » فَقَالَ : لَمْ أَرَكَ عَدَلْتَ ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ : « وَبِذَلِكَ ، أَوْ وَيْحَكَ !! إِذَا لَمْ يَكُنِ الْعَدْلُ عِنْدِي فَعِنْدَ مَنْ يَكُونُ ؟ لَقَدْ خَبِثَ وَخَسِرَتْ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ » ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَلَا أَقْتُلُهُ ؟ فَقَالَ : « لَا ، ذَعُهُ ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَيْعَةٌ يَحْتَرُّ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ ، يَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَّةِ (١) » . وَنَزَلَتْ فِيهِ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (٢) .

وفي رواية : أن عمر ، رضي الله عنه ، قال : دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق ، فقال : « معاذ الله ! أن يتحدّث الناس أني أقتل أصحابي ، يوشك أن يأتي قوم مثل هذا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرميّة ، فإذا خرّجوا فأضربوا رقابهم ، آيتهم رجل إحدى يديه ، أو قال : تُدْيِيهِ مِثْلُ تُدْيِي الرّأَةِ ، أو قال : مِثْلُ البَضْعَةِ تَدْرُدَرُ (٣) يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ » . قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : أشهد أن علياً قتلهم وأنا معه ، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ (٤) .

عتب الأنصار وخطبة النبي ﷺ فيهم :

ووجدت (٥) الأنصار في أنفسهم لما أعطى رسول الله ﷺ من تلك العطايا ما أعطى في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن فيهم منها شيء وقالوا : يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، وكثرت منهم القالة (٦) حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله ﷺ قومه - وفي رواية أنهم قالوا : نحن أصحاب كل موطن شدة ، ثم أثر قومه علينا وقسم فيهم قسماً لم يقسمه لنا ، وما نراه فعل ذلك إلا وهو يريد الإقامة بين ظهرانيهم ، فقال رجل من الأنصار : أما والله لقد كنت أحدثكم أنه لو استقامت الأمور قد أثر عليكم غيركم ، فردوا عليه رداً عنيفاً - وانطلق سعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، فأق النبي ﷺ فدخل عليه فقال : يا رسول الله ! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفياء الذي أصبت ؛ قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ؛ ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء ، قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » فقال : يا رسول الله ! ما أنا إلا من قومي ، قال : « فأجمع لي قومك » ، فخرج سعد فجمع الأنصار في قبة من آدم ، فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فقال لهم : « أفياكم أحد من غيركم ؟ » فقالوا : لا ، إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن ابن أخت القوم منهم » ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « ما قالة بلغتني عنكم ؟ وجمدة وجدتموها علي في أنفسكم ؟ ألم أتكم ضللاً فهداكم الله بي ، وغالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » - وفي رواية : « ألم تكونوا أدلاء فأعزكم الله بي ؟ ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بي ؟ » - قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل ، قال : « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل ، فقال رسول الله ﷺ : « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتهم ولصدقتهم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأوتيناك ، وغائلاً فأسيناك (٧) » يعمد عليهم النبي ﷺ ، فجثوا على ركبهم وقالوا : أموالنا وأنفسنا لك ، فافعل ما شئت ؛ فأنت يا رسول الله في حل . فقال : « ما حديث بلغتني عنكم ؟ » فقال فقهاء

(١) الرميّة : الصيّد الذي ترميه وينفذ فيه سهمك (النهاية : ج ٢٦٧٢) .

(٢) التوبة : ٥٨ .

(٣) تدرّدُر : أي ترخرج نجية وتذهب (النهاية : ج ١١٢٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٤/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢١/٨) كتاب استنابة المرتدين والمعاندين .. باب من ترك قتال الجوارح للتألف ، وصحيح مسلم (ج ٧٤٠/٢) كتاب الزكاة - باب ذكر الجوارح وصفاتهم ح ١٤٢ ، والمستدرک (ج ١٤٥/٢) .

(٥) وَجَدَ فَلَانَ وَجِدًا : خزن ، وَوَجَدَ عَلَيْهِ : غضب (الوسيط : ج ١٠٢٤/٢) .

(٦) القالة : اثم للقول الفاسي بين الناس خيراً كان أو شراً (الوسيط : ج ٧٧٢/٢) .

(٧) المواتاة : المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق (النهاية : ج ٥٠/١) .

الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئا ، وأما ناس منا حديثه أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال النبي ﷺ : « إني لأعطي رجلا حديتي عهد بكفر أتألفهم » - وفي رواية : « إن قريشا حديث عهد بجاهلية ومصيبة وإنني أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أوجدتكم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاة^(١) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالله لمتا تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، والذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، الأنصار كرش^(٢) وأهل بيتي وعييتي^(٣) التي أوي إليها ، اللهم ! ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » - وفي رواية : « اللهم ! اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء الأبناء الأنصار ولأزواجهم وذرائعهم » - فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم^(٤) ، وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا ، فقال لهم النبي ﷺ : « ستجدون أثره^(٥) شديدة ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإنني على الحوض^(٦) » .

يقول الشيخ محمد الغزالي : كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة ، فإن في الدنيا أقواما كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم ، فكما تهدي الدواب إلى طريقها بجمرة برسيم تظلم تمد إليها فها حتى تدخل حظيرتها آمنة ، فكذلك هذه الأوصاف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتمش له^(٧) .

وقد خفيت هذه الحكمة أول الأمر على كثير من أصحاب النبي ﷺ حتى قالت الأنصار ما قالت ، وحتى قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : يا رسول الله ! أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقه الضمري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقه خير من طلاع الأرض^(٨) كلهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، ولكني تألفتها ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقه إلى إسلامه » - وفي رواية : قال : « إني لأعطي رجلا ، وأدع من هو أحب إلي منهم لأعطيهم شيئا ، مخافة أن يكتبوا في النار على وجوههم^(٩) » . فلما استبان لهم الأمر صاروا بالذي سعوا من رسول الله ﷺ أقر عيناً وأشد اغتباطاً منهم بالمال .

قدوم وفد هوازن :

وبعد ما قسمت الغنائم قدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ ، وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صرد ، وفيهم أبو برقان عم النبي ﷺ من الرضاة ، فبايعوا النبي ﷺ على الإسلام ، ثم سألوه أن يرده إليهم أموالهم وسبيهم فقال زهير بن صرد : يا رسول الله ! إننا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك ، إنما في هذه الحظائر عماتك

- (١) اللعاة : البقية البسيطة (النهاية : ج ٢٥٤/٤) .
- (٢) كرش الرجل : بطانته وخاصته (النهاية : ج ١٦٣/٤) .
- (٣) العيينة : موضع السر (النهاية : ج ٣٢٧/٣) .
- (٤) أخضلوا لحاهم : أي بلوها بالدموع .
- (٥) الأثر : الاسم من أثر يوتر إشاراً إذا أعطى ، أراد أنه يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفء ، والاستئثار : الانفراد بالشيء (النهاية : ج ٢٢١/١) .
- (٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٦/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٠/٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٢) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف ، وصحيح مسلم (ج ٢٣٥/٢) كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفه قلوبهم على الإسلام ح ١٣٣ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٨٩/٣) ، والمستدرک (ج ٧٩/٤) ، وجمع الزوائد (ج ٣٢١/١٠ ، ٤٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٨٠/٥) .
- (٧) فقه السيرة/لحمّد الغزالي (ص : ٤٢٧) .
- (٨) طلاع الأرض : ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل (النهاية : ج ١٢٣/٣) .
- (٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٣/٤) ، وسنن النسائي (ج ١٠٢/٨) كتاب الإيمان وشرائعه .

وخالاتك وحواضك اللاتي كن يكفلنك^(١)، ولو أننا ملحننا للحارث بن أبي شمر ملك الشام أو للنعمان بن المنذر ملك الحيرة^(٢) ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعادته ، وأنت خير المكفولين ولهذا اليوم اختبانك ، وأنشد أبياتاً يستعطفه بها ، منها :

أمنن علينا رسول الله في كرم
فإني إنك المرء نرجوه ونتنظر
أمنن على نسوة قد كنت ترضعها
إذ فوك مملوءة من مخصها الدرر^(٣)
إننا نؤمل عفواً منك تلبسه
هادي^(٤) البرية إذ تعفو وتنتصر

وفي رواية : قالوا : يا رسول الله ! إن فين أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والحالات وهن مخازي الأرقام ، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله ، وقال أبو بزرقان : يا رسول الله ! إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضك ، وقد حضنك في حجورنا وأرضعناك بثدينا ، ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك ، ورأيتك فطماً فما رأيت فطماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك ، فامنن من الله عليك !

فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن معي من تزون ، وأحب الحديث إلي أصدقته ، فاخترأوا إحدى الطائفتين ؛ إما السبي وإما المال ، وقد كنت استأثيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون » - وكان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف - « وقد وقعت المقاسم مواقعها ، فأبي الطائفتين أحب إليكم ؟ » فقالوا : يا رسول الله ! خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً ، أردد إلبنا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبنبي عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فأظهروا إسلامكم وقولوا : نحن إخوانكم في الدين ، ثم قولوا : إننا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبنبي عبد المطلب فهو لكم » ، فقال المهاجرون والأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عبيدة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سلمي فلا ، فقالت بنو سلمي : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال عباس بن مرداس : وهنتوني .

فقام رسول الله ﷺ فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ؛ فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين ، وإننا قد خيرناهم فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً ، فمن أحب منكم أن يطيب^(٥) ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على خطبه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل » - وفي رواية : « أما من تمسك منكم بحق من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه » - وفي رواية أخرى : « فمن أحب منكم أن يعطي غير مكره فليفعل ، ومن كره أن يعطي ويأخذ الفداء فعلي فدأؤهم » - فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال : « إننا لاندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن فأرجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم » . فرجع الناس فكلهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا ، فردوا عليهم جميع السبي وكان ستة آلاف إنسان لم يتخلف منهم أحد ، إلا عبيدة بن حصن فإنه أبا أن يرده عجزاً كبيرة كانت عنده وقال حين أخذها : أرى عجزاً ، إني لأحسب لها في الحي نسباً ، وعسى أن يعظم فدأؤها ، فقال له زهير : خذها عنك ، فوالله ما فوها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد ، ولا زوجها بواجد^(٦) ، ولا درها بماكيد^(٧) ، فردها عبيدة بست فرائض ، ويقال : إنه لم يأخذها عوضاً ،

(١) لأن مرضعته ﷺ حليمة السعدية كانت من هوازن .

(٢) أي : لو كنا أرضعنا لها (النهاية : ج ٣٥٤/٤) .

(٣) أي الدفعات الكثيرة من اللبن .

(٤) وفي رواية : هذي ، إشارة للنسوة التي طلب العفو عنهن . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٥/٤) .

(٥) يطيب : أي يحلل ويبيح ، وطابت نفسه بالشئ إذا سمحت به من غير كراهة ولا غضب (النهاية : ج ١٤٩/٣) .

(٦) أي حزين .

(٧) الماكيد : الدائم (النهاية : ج ٣٤٩/٤) .

وذلك أن رسول الله ﷺ دعا على من أبى أن يردّ من السبي شيئاً أن يبخرس ، فلما أمسكها عبيّنة لم يعرض لها أحد ، فتركها .
وكسى رسول الله ﷺ السبي قُبْطِيَّةً (١) وقيل : إنه أمر رجلاً أن يقدم مكة فيشتري للسبي ثياب المُعْتَقَد (٢) ، فلا يخرج
الحِرَّ منهم إلا كاسياً (٣) .

إسلام مالك بن عوف النَّصْرِيّ :

وقدم بعد ذلك مالك بن عوف رئيس هوازن فأسلم ، وقد كان رسول الله ﷺ سأل وفد هوازن عن مالك بن عوف ما فعل ؟
فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فأمر رسول الله ﷺ بحبس أهله عند عمتهم أم عبد الله بن أبي أمية بكّة ، فقال الوفد :
يا رسول الله ! أولئك سادتنا وأحبنا إلينا ، فقال : « إنما أريد بهم الحَيْرَ » ، ثم قال لهم : « أخبروا مالِكاً أَنَّهُ إنْ أتاني مُسْلِماً رَدَدْتُ إِلَيْهِ
أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَأَعْطَيْتُهُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ » . فأتي مالك بذلك ، فخرج إليه من الطائف ، وقد كان خاف ثقيفاً على نفسه أن يعملوا أن
رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه ، فأمر براحلته فبيّئت له ، وأمر بفرس له فأتي به إلى الطائف ، فخرج ليلاً ، فجلس على فرسه
فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس فركبها فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة ، أو بكّة ، فردّ عليه أهله وماله
وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه ، فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وتلك القبائل ثبالة وسلمة وفهم ، فكان
يقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم (٤) .

اعتماد النَّبِيِّ ﷺ من الجِعْرَانَةِ وانصرافه إلى المدينة :

ولما أراد رسول الله ﷺ الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ، فأمر ببقايا النبي (٥)
فحبس بمنجّنة ناحية مرّ الظّهْران ، وأحرم بعمره ، فدخل مكة ليلاً ، فطاف بالبيت فرمل واضطجع ، ثم سعى ، وقصر له معاوية بن
أبي سفيان عن رأسه عند المروة بمشقص (٦) ، ثم رجع إلى الجِعْرَانَةِ من ليلته فأصبح بها كبائت .

وجاءه أعرابيّ عليه جبة متضمخ بطيب ، فقال : يا رسول الله ! كيف ترى في رجل أحرم بعمره في جبة بعدما تضحخ بالطيب ؟
فسكت النبي ﷺ ساعة ، ثم نزل عليه الوحي . وكان يعلى بن أمية يقول : ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي ، فأشأر
إليه عمر بن الخطاب حينذاك أن تعال ، فأدخله على رسول الله ﷺ وهو يُوحى إليه ، فأراه محمّر الوجه يغطّ ، فلما سُرّي عنه قال :
« أَيْنَ الَّذِي يَسْأَلُنِي عَنِ الْعُمَرَةَ أَنْفَا ؟ » فالتمس الرجل فأتي به ، فقال : « أُمّ الطَّيِّبِ الَّذِي بَكَ فَاغْسِلُهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَأُمّ الْجُبَّةِ
فَأَنْزِعْهَا ، ثُمَّ اصْنَعْ فِي عُمُرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَبَّكَ » .

ثم غادر رسول الله ﷺ الجِعْرَانَةَ يوم الخميس بعد ما زالت الشمس قافلاً إلى المدينة ، فسلك في وادي الجِعْرَانَةِ حتى خرج على
سرف ، ثم أخذ الطريق إلى مرّ الظّهْران فأتبع ببقايا النبي ، ثم مضى إلى المدينة ، فقدمها لست ليال بقيت من ذي القعدة ، وقد غاب
عنها شهرين وبضعة عشر يوماً (٧) .

(١) القُبْطِيَّةُ : الثَّوبُ مِنْ ثِيَابِ مِصْرَ رَقِيْقَةً بَيْضَاءَ ، وَكَأَنَّهُ مُنْسَوْبٌ إِلَى الْقِبْطِ أَهْلِ مِصْرَ (النهاية : ج ٧٤) .

(٢) ثِيَابُ الْمُعْتَقِدِ : ضَرْبٌ مِنْ بُرُودِ هَجَرَ (النهاية : ج ٢٧١/٣) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٢٤/٤ - ١٢٦) ، وصحيح البخاري (ج ١٩٥/٥) كتاب المغازي - باب قول الله تعالى ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُهُمْ ﴾ ، وجمع الزوائد (ج ١٨٦/٦ ، ١٨٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ١١٤/١) ، و (ج ١٥٢/٢ ، ١٥٥) ، ودلائل البيهقي (ج ١٩١/٥ ، ١٩٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٤/٤ - ٥) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٣٧/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٩٢/٥) .

(٥) الظاهر أنه ﷺ إنما استبقى بعض المغنم ليتألف من يلقاه من الأعراب فيما بين مكة والمدينة . انظر : البداية والنهاية (ج ٣٦٧/٤) .

(٦) الْمِشْقَصُ : نَصْلُ السَّهْمِ إِذَا كَانَ طَوِيلًا غَيْرَ عَرِيضٍ .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٨/٤ ، ١٤٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٥٤/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢١٤/٢) كتاب الحج - باب الحلق والتقصير ، =

واستخلف رسول الله ﷺ قبل أن يرجع إلى المدينة عتّاب بن أسيد ، رضي الله عنه ، على مكة وعمره إحدى وعشرون سنة ، وفرض له عمالته أربعين أوقية من فضة في كل سنة . وقيل : جعل له كل يوم درهماً وقال له : « إني قد أمرتكَ على أهل الله ، عزّ وجلّ ، بتقوى الله ، عزّ وجلّ ، فاستَوْصِ بِهِمْ خَيْراً » . فقام عتّاب فخطب الناس فقال : أيها الناس ! أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد .

وخلف رسول الله ﷺ معه معاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن^(١) ، وأمر أبا مخذورة ، رضي الله عنه ، أن يؤذّن لأهل مكة بالصلاة .

ولتأديته قصة يرويها لنا أبو مخذورة فيقول : خرجت في نفر من قريش فلما كنّا ببعض الطريق مقفل رسول الله ﷺ من حين أذن بلال مؤذّن النبي ﷺ بالصلاة ، فسمعنا صوت المؤذّن ونحن عنه مُتَنَكِّبُونَ^(٢) ، فجعلنا نحكي صوت بلال ونهزأ به ، فلما رفعت صوتي بالأذان سمعه رسول الله ﷺ فأعجبه ، وقال : « قَدْ سَمِعْتُ فِي هَؤُلَاءِ تَأْذِينَ إِنْسَانٍ حَسَنَ الصَّوْتِ » ، فأرسل إلينا حتى وقفنا بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيُكُمُ الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ قَدْ ارْتَفَعَ ؟ » ، فأشار القوم إليّ وصدقوا ، فأرسلهم كلهم وحسبني ، فقال : « قُمْ فَأُذِّنْ بِالصَّلَاةِ » ، فقممت ، فألقى عليّ رسول الله ﷺ التّأذِينَ هو بنفسه ، ثم دعاني حين قضيت التّأذِينَ فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ، ثم وضع يده على ناصيتي ، ثم أمرها على وجهي ، ثم على ثديي ، ثم على كبدي ، حتى بلغت يده ﷺ سُرَّتِي ، ثم قال لي : « بَارَكَ اللَّهُ لَكَ وَبَارَكَ عَلَيْكَ » ، فقلت : يا رسول الله ! أُوذِّنُ لَكَ ؟ فقال : « أُذِّنُ » . فكان يؤذّن مع بلال ، رضي الله عنه ، وذهب كل شيء كان بنفسه لرسول الله ﷺ من كراهية وعاد ذلك كله محبة له ، وكان أبو مخذورة لا يجزّ ناصيته بعد ولا يفرّقها لأن رسول الله ﷺ مسح عليها .

فلما رجع النبي ﷺ إلى المدينة قال له : « أَذْهَبُ فَأُذِّنُ عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ » ، وكان عمره ست عشرة سنة ، فقدم على عتّاب بن أسيد بمكة فأذّن هناك بالصلاة ، وتوارث ولده ، وولد ولده الأذان بعد بمكة في المسجد الحرام^(٣) .

وحجّ الناس تلك السنة - سنة ثمان - على ما كانت العرب تحجّ عليه ، وحجّ بالمسلمين تلك السنة عتّاب بن أسيد ، رضي الله عنه ، ويقال : حجّ بالناس أبو بكر ، رضي الله عنه ، وكان رسول الله ﷺ ، خلفه بمكة لأجل ذلك وأمره أن يعلم الناس الإسلام ويؤمن من حجّ من العرب^(٤) .

☆ ☆ ☆

قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى وإسلامه :

ذكرنا فيما مضى أن كعب بن زهير المزيّني كان فيمن أهدر النبي ﷺ دمه لأنه كان يهجوّه بشعره ، وكان شاعراً من فحول الشعراء ، كما كان يعيّر أخاه بجيراً بإسلامه ، فلما بلغه أنه ﷺ أمر بقتله خاف ، ثم جاء المدينة فأسلم ومدح النبي ﷺ .

= (ج ١٩٩/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الطائف ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٢٧/٢) ، وسنن أبي داود (ج ٤٤٤/٢) كتاب المناسك - باب الاضطباع في الطواف ح ١٨٨٤ .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٨/٤ ، ١٤٩) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢١٣/٥) ، و (ج ٣٥٥/٦) ، والسيرة الحلبية (ج ١٠٤/٣) .

(٢) تَنَكَّبَ عَنْهُ : تَنَحَّى وَأَعْرَضَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٣) انظر : سنن النسائي (ج ٥/٢ ، ٧) كتاب الأذان - كيف الأذان ، الأذان في السفر ، وسنن ابن ماجه (ج ٢٣٤/١) كتاب الأذان والسنة فيها - باب الترجيع في الأذان ح ٧٠٨ ، وسنن الدارمي (ج ٢٧١/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٠٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٥٠/٥) ، والسيرة الحلبية (ج ١٠٢/٣) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٩/٤) ، وتاريخ الطبري (ج ٨٢/٣) .

وكان من قصته أنه خرج هو وأخوه بُجَيْرٌ من مكة حتى أتيا أُبْرُقَ العَرَّافِ (١) ، فقال بُجَيْرٌ لكعب : اثبت في غنمنا هنا حتى آتي هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - فأسمع ما يقول ، فأقام كعب ومضى بُجَيْرٌ ، فأقام رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام ، فأسلم ، فلما بلغ ذلك كعباً قال أبياتاً منها :

ألا أبلغا عني بُجيراً رسالته
فهبين لنا إن كنت لست بفاعل (٢)
على خلق لم تُلَفْ أمأً ولا أبأً
سقاك بها المأمون (٥) كُسا رويّة

فهل لك فيما قلت (٣) ويحك هل لك
على أي شيء غير ذلك - ذلك (٤)
عليه ولا تُلَفِي عليه أخأ لك
فأهلك المأمون منها وعكأ (٦)

وبعث بها إلى بُجَيْرٍ ، فلما أتت بُجيراً كره أن يكتبها رسول الله ﷺ ، فأشده إيَّاهَا ، فقال رسول الله ﷺ لما سمع سقاك بها المأمون : « صدق وإنه كذوبٌ ، أنا المأمونٌ » ، ولما سمع على خلقٍ لم تُلَفْ أمأً ولا أبأً عليه قال : « أجل لم يُلَفِ عليه أباءٌ ولا أمّةٌ » ، ثم قال : « من لقي كعباً فليقتله » .

فلما قدم رسول الله ﷺ من غزوة الطائف كتب بُجَيْرٌ إلى أخيه كعب بذلك ، وذكر له أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوهم ويؤذيه ، وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبَيْرِ وهَيْبَةُ بن أبي وهبٍ قد هربوا في كل وجه ، فإن كنت لك في نفسك حاجة فطير إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض ، وما أراك تفلت . ثم كتب إليه بعد ذلك بأبيات منها :

من مُبْلِغِ كعباً فهل لك في التي
إلى الله ، لا العزى ولا اللات ، وحده
لدى يوم لا ينجو وليس بمفليت

تلوم عليها باطلاً وهي أحمم (٧)
فتنجو إذا كان النجاء وتسلم (٨)
من الناس إلا طاهر القلب مسلم

وقال له : اعلم أن رسول الله ﷺ لا يأتيه أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا قبل ذلك ، فإذا جاءك كتابي هذا فأسلم وأقبل .

فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره (٩) من عدوه ، فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شيء بدأ أسلم وقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة ، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة ، فغدا به على رسول الله ﷺ حين صلى الصبح ، فصلى معه ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ وقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه ، فقام إليه حتى وضع يده في يده - وفي رواية : أنه أتى حتى أناخ راحلته بباب مسجد رسول الله ﷺ ، فعرف رسول الله ﷺ بالصفة ، فتخطى حتى جلس إليه - وكان النبي ﷺ لا يعرفه ، فقال :

(١) أُبْرُقُ العَرَّافِ : ماءٌ لبني أسدٍ ، وهو في طريق القاصد إلى المدينة من البصرة (معجم البلدان : ج ٧/١) .

(٢) أي : هل لك فيما قلت رأي أو إرادة ، أو قلت بلا قصد .

(٣) أي : لست بفاعل مرادنا من بقائك على دينك الأول .

(٤) أي : الطريق الذي ذلك عليه المخالف لدين آبائك .

(٥) يعني النبي ﷺ ، فقد كانت قريش تسميه بالمأمون والأمين .

(٦) النهل : أول الشرب ، والغل والغلل : الشربة الثانية ، وقيل : الشرب بعد الشرب تباعاً . والمعنى سقاك بها مرة بعد أخرى . انظر : (لسان

العرب : ج ٤٥٦٢/٦ ، ج ٤ / ٣٠٧٨) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٥٦٢) .

(٧) أي : هل لك انقياد ودخول في الخصلة التي تلوم أخاك عليها لوماً باطلاً وهي أصوب .

(٨) أي تنجو من العذاب وتسلم من النار .

(٩) أي الحبي ، وقد تقدم .

يا رسول الله ! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » ، قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير ، فوثب عليه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ! دعني وعدو الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعُهُ عَنكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ تَائِباً نَازِعاً عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ » ، فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم ، ثم أنشد رسول الله ﷺ قصيدته المشهورة « بانث سعاد » ومنها هذه الأبيات :

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول ^(١)	متيم إثرها لم يفد مكبول
تبت أن رسول الله أوعديني	والعضو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ	قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لاتأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذنب ولو كثرت في الأقاويل ^(٢)
إن الرسول لنور يستضاء به	مهتد من سيوف الله مسلول

فلما بلغ كعب قوله : إن الرسول لنور يستضاء به .. أشار رسول الله ﷺ بيده إلى الناس لسمعوا منه ، ورمى إليه بردة كانت عليه . يقال إن معاوية بن أبي سفيان بذل لكعب فيها عشرة آلاف درهم في زمن إمارته فقال كعب : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ الذي أعطانيه أحداً . فلما مات بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم ، وهي البردة التي كانت عند السلاطين وكانوا يلبسونها في الأعياد ، ولا وجود لها الآن ، والظاهر أنها فقدت في وقعة التتار .

ولما أتى كعب على قصيدته كلها ، وفيها عرض بالأنصار لما كان صنع به صاحبهم ، ومدح المهاجرين لأنه لم يتكلم فيه رجل منهم إلا بخير ، غضبت عليه الأنصار ، ويقال إن رسول الله ﷺ قال له : « لَوْلَا ذَكَرْتَ الْأَنْصَارَ بِخَيْرٍ ، فَإِنَّ الْأَنْصَارَ لِيَذَلُّكَ أَهْلٌ » .

فقال كعب بعد أن أسلم وحسن إسلامه قصيدة يمدح الأنصار فيها ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ وموضعهم من الين ، قال في تلك القصيدة :

مَنْ سَرَّهِ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزِلْ	فِي مِقْنَبٍ ^(٣) مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ
وَرِثُوا الْمَكَارِمَ كَبْرًا عَنْ كَبِيرِ	إِنْ الْخِيَارَ هُمْ بَنُو الْأَخْيَارِ ^(٤)

بعث قيس بن سعد رضي الله عنها إلى صُداء وقدوم وفدهم :

بعث رسول الله ﷺ قيس بن سعد بن عبادة ، رضي الله عنها ، إلى ناحية الين ، بعد انصرافه من الجعرانة سنة ثمان ، في أربعمائة فارس ، وأمره أن يبطأ صُداء وهم حي من الين ، فقدم رجل منهم ، وهو زياد بن الحارث ، فسأل عن ذلك البعث فأخبرهم ، فخرج سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : جئتكم وإفداً على من ورائي فارُدُّ الجيش وأنا لك بإسلام قومي وطاعتهم ، فقال له : « أَذْهَبُ فَرَدُّهُمْ » ، فقال : يا رسول الله ! إن راحلتي قد كَلَّتْ ، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فرُدُّهم من قناة وكانوا عسكروا هناك .

قال زياد : وكتبت إلى قومي كتاباً ، فقدم وفدهم بعد ذلك على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً ، فقال سعد بن عبادة رضي الله عنه : يا رسول الله ! دعهم ينزلوا عليّ ، فنزلوا عليه ، فحباهم وأكرمهم وكساهم ، ثم راح بهم إلى النبي ﷺ فبايعوه على الإسلام وقالوا له : نحن لك على من ورائنا من قومننا ، فرجعوا إلى بلادهم ، ففشا فيهم الإسلام ، فوافى النبي ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع .

(١) يُقَالُ : قَلْبٌ مَتْبُولٌ : إِذَا غَلَبَتْهُ الْحُبُّ وَهَيَّيْتَهُ (النهاية : ج ١٨٠/١) .

(٢) كَأَنَّ الْمَعْنَى : أَنْكَ عَرَفْتَ بِالصَّفْحِ وَمَنْ جَاءَكَ تَائِبًا لَا تَعِدْهُ مَذْنِبًا وَإِنْ أَذْنَبَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٥٨٢/٣) .

(٣) الْمُقْنَبُ : جَمَاعَةُ الْحَيْلِ وَالْفُرْسَانِ ، وَقِيلَ : هُوَ دُونَ الْمِائَةِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٩/٤ - ١٦٦) ، والمستدرک (ج ٥٧٩/٣ ، ٥٨٢ - ٥٨٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٥٥٣/٣ - ٦٠) ، والإصابة في

تمييز الصحابة / لابن حجر (ج ٢٩٦/٣) .

ويروى أن رسول الله ﷺ قال لزياد بن الحارث لما أسلم قومه: « يا أخا صُداي ! إنك لمطُاعٌ في قومك » ، فقال زياد : بل الله هداهم للإسلام ، قال : « أَفَلَا أُؤَمِّرُكَ عَلَيْهِمْ ؟ » فقال : بلى يا رسول الله . قال زياد : فكتب لي بذلك ، فقلت : يا رسول الله ! مر لي بشيء من صدقاتهم ، قال : « نَعَمْ » ، فكتب لي كتاباً آخر .

قال زياد : وكان ذلك في بعض أسفاره ، ونزل رسول الله ﷺ منزلاً ، فأتاه أهل ذلك المنزل يشكون عاملهم ويقولون : أخذنا بشيء كان بيننا وبين قومه في الجاهلية ، فقال نبي الله ﷺ : « أَوْ فَعَلَ ذَلِكَ ؟ » فقالوا : نعم ، فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه وأنا فيهم فقال : « لا خَيْرَ في الإِمَارَةِ لِرَجُلٍ مُؤْمِنٍ » ، فدخل قوله في نفسي ، ثم أتاه آخر فقال : يا رسول الله ! أعطني ، فقال نبي الله ﷺ : « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ عَن ظَهْرٍ غَنِيٍّ فَصَدَّاعٌ في الرَّأْسِ وِدَاءٌ في البَطْنِ » ، فقال السائل : فأعطني من الصدقة ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، لَمْ يَرْضَ فِيهَا بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ في الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ هُوَ فِيهَا ، فَجَزَأُهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاءِ أُعْطَيْتَكَ ، أَوْ أُعْطِيْنَاكَ حَقَّكَ » ، فدخل ذلك في نفسي أني سألته من الصدقات وأنا غني . ثم إن رسول الله ﷺ اغْتَشَى (١) من أول الليل فلزيمته ، وكنت قريباً ، وكان أصحابه ينقطعون عنه ويستأخرون حتى لم يبق معه أحد غيري ، فلما كان أولان صلاة الصبح أمرني فأذنت ، فجعلت أقول : أقيم يا رسول الله ؟ فجعل رسول الله ﷺ ينظر ناحية المشرق إلى الفجر ، فيقول : « لا » ، حتى إذا طلع الفجر نزل رسول الله ﷺ فتبرز ، ثم انصرف إلي فقال : « هَلْ مِنْ مَاءٍ يَا أَخَا صُداي ؟ » قلت : لا إلا شيء قليل لا يكفيك ، فقال النبي ﷺ : « اجْعَلْهُ في إِنَاءٍ ثُمَّ اثْنِي بِهِ » ، ففعلت ، فوضع كفه في الماء ، قال : فرأيت بين إصبعين من أصابعه عيناً تَفُورُ ، فقال لي رسول الله ﷺ : « لَوْلَا أَنِّي اسْتَحْيِي مِنْ رَبِّي ، عَزَّ وَجَلَّ ، لَسَقَيْتَنَا وَاسْتَقَيْتَنَا ، نَادِ أَصْحَابِي مَنْ لَهُ حَاجَةٌ في المَاءِ » ، ففعلت ، ثم قام رسول الله ﷺ إلى الصلاة ، فأراد بلال أن يقيم فقال له النبي ﷺ : « إِنَّ أَخَا صُداي هُوَ أَدْنَى فَهُوَ يُقِيمُ » ، فأقمت الصلاة ، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة أتيته بالكتابين ، فقلت : يانبي الله ! اعفني من هذين ، فقال النبي ﷺ : « مَا بَدَأَ لَكَ ؟ » فقلت : سمعتك يانبي الله تقول : « لا خَيْرَ في الإِمَارَةِ لِرَجُلٍ مُؤْمِنٍ » وأنا أوْمَنُ بالله وبرسوله ، وسمعتك تقول للسائل : « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ عَن ظَهْرٍ غَنِيٍّ فَهُوَ صَدَّاعٌ في الرَّأْسِ وِدَاءٌ في البَطْنِ » وسألتك وأنا غني ، فقال النبي ﷺ : « هُوَ ذَاكَ ، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْبَلْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَدَعُ » ، فقلت : أَدع ، فقال : « فَذَلِّني على رَجُلٍ أُؤَمِّرُهُ عَلَيْكُمْ » ، فدللته على رجل من الوفد الذين قدموا عليه فأمره . ثم قلت : يانبي الله ! إن لنا بئراً إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها ، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا ، وقد أسلمنا وكل من حولنا لنا عدو ، فداع الله لنا في بئرا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليها ولا تتفرق ، فدعا ﷺ بسبع حصيات فعركهن في يده ودعا فيهن ، ثم قال : « أَذْهَبُوا بِهَذِهِ الحَصِيَّاتِ ، فَإِذَا أَتَيْتُمُ البَيْرَ فَأَلْقُوا وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » . قال زياد : ففعلنا ما قال لنا ، فما استطعنا بعد أن ننظر إلى قعرها (٢) .

وفد ثعلبية :

وقدم على رسول الله ﷺ مرجعه من الجعرانة سنة ثمان وفد بني ثعلبية أربعة نفر ، فقالوا : نحن رسل من خلفنا من قومنا ، ونحن وهم مفرون بالإسلام ، فأنزلهم دار زملة بنت الحارث ، وأمرهم بضيافة ، فجاءهم بلال ، رضي الله عنه ، بجفنة من ثريد بلبن وسمن ، فأكلوا ، ثم شهدوا الظهر مع النبي ﷺ وقالوا له : إنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، فقال رسول الله ﷺ : « حَبِئْنَا كُنْتُمْ وَأَتَقَيْنُمُ اللَّهَ فَلَا يَضُرُّكُمْ » . وأقاموا أياماً ، ثم جاؤوا النبي ﷺ يودعون ، فقال بلال : « أَجْزَهُمْ كَمَا تَجِيزُ الوَفْدَ » فجاء بقر من فضة (٣) ، فأعطى كل رجل منهم خمس أواق وقال : ليس عندنا دراهم ، فانصرفوا إلى بلادهم (٤) .

(١) اغْتَشَى : سَارَ وَفَتَ العِشَاءَ (النهاية : ج ٢٤٢/٣) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٦/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٥/٥) .

(٣) البقر : جَمْعُ نُقْرَةٍ ، والنُقْرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ : هِيَ القِطْعَةُ المَذَابِغُ ، وقيل : السَّبِيكَةُ (لسان العرب : ج ٤٥١٩/٦) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٩٨/١) ، وعيون الأثر (ج ٢٤٨/٢) .

كتاب النبي ﷺ إلى ملك عُمان :

وفي ذي القعدة سنة ثمان للهجرة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، إلى جَيْفَر وَعَبْدُ (١) ابني الجَنْدِي ، وهما من الأزد ، والملك منها جَيْفَر ، يدعوها إلى الإسلام ، وكتب معه إليهما كتاباً هذا نصه : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى جَيْفَرٍ وَعَبْدِ ابْنِي الْجَنْدِي ، سَلَامٌ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . أَمَا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمَا بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلِمَا تَسْلِمًا ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لَأُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَإِنكُمَا إِنِ أَقْرَبْتُمَا بِالْإِسْلَامِ وَلَيْتَكُمَا ، وَإِن أُبَيِّنَا أَنْ تَقْرَأَ بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ مُلْكَكُمَا زَائِلٌ عَنْكُمَا ، وَخِيَلِي تَحُلُّ بِسَاخَتِكُمَا ، وَتَظْهَرُ نُبُوتِي عَلَى مُلْكِكُمَا » . وكتب أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، رضي الله عنه ، وختم رسول الله ﷺ الكتاب .

قال عمرو : ثم خرجت حتى انتهيت إلى عُمان ، فلما قدمتها عمدت إلى عبد ، وكان أحلم الرجلين وأسهلها خُلُقًا ، فقلت : إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي المقدم علي بالسُّنِّ والملك ، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال لي : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، قال : يا عمرو ! إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة ؟ فقلت : مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام ، قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريباً ، فسألني أين كان إسلامي ؟ فقلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ قلت : أقروه وأتبعوه ، قال : والأساقفة والرهبان أتبعوه ؟ قلت : نعم ، قال : انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من كذب ، قلت : ما كذبت وما نستحلّه في ديننا ، ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي ، قلت : بلى ، قال : بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خُرْجاً (٢) ، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال : لا والله لو سألتني درهما واحداً ما أعطيتته ، فبلغ هرقل قوله ، فقال له يَتَأَقُّ أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خُرْجاً ويدين ديناً محدثاً ؟ قال هرقل : رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضنُّ بملكي لصنعت كما صنع ، قال : انظر ما تقول يا عمرو ، قلت : والله صدقتك .

قال عبد : فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت : يأمر بطاعة الله ، عزّ وجلّ ، وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبرِّ وصلّة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنى وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . فقال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ، ونصدق به ، ولكن أخي أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً (٣) ، قلت : إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردّها على فقيرهم ، قال : إن هذا الخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهت إلى الإبل ، فقال : يا عمرو ! تؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجرة وترد المياه ؟ قلت : نعم ، فقال : والله ما أرى قومي في بُعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا .

قال عمرو : فكثت ببابه أياماً ، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري ، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه ، فأخذ أعوانه بضبعي (٤) ، فقال : دعوه ، فأرسلت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعوني لأجلس ، فنظرت إليه فقال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب محتوماً ، ففضّ خاتمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه ، فقرأ مثل قراءته ، إلا أنني رأيت أخاه أرقّ منه ، ثم قال : ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب في الدين ، وإما مهوور بالسيف ، قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرّجة (٥) ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ، ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك

(١) ويقال : إلى جَيْفَرٍ وعِيَاذَ ملكي عُمان . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٧/٤) .

(٢) الخُرْجُ : الإتاوة السنوية .

(٣) الأذُنَابُ : الأتباع ، جمعُ ذَنْبٍ (النهاية : ج ١٧٠/٢) .

(٤) الضُّبْعُ : ونَبَطُ العَصْدِ (النهاية : ج ٧٢/٢) .

(٥) الحرّجة : مُجْتَمَعٌ شَهْرٌ مُلْتَفٌ كَالغَيْضَةِ ، وقد تقدم .

الحليل والرجال . قال : دعني يومي هذا ، وارجع إليّ غداً ، فرجعت إلى أخيه ، فقال : يا عمرو ! إني لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه ، حتى إذا كان الغد أتيت إليه ، فأبى أن يأذن لي ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أي لم أصل إليه ، فأوصلني إليه ، فقال : إني فكّرت فيما دعوتني إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي ، وهو لا تبلغ خيله هاهنا ، وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لاقى . قلت : وأنا خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجي خلاه أخوه ، فقال : ما نحن فيما قد ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إليّ ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدّقا النبي ﷺ ، وخلّيا بيني وبين الصدقة ، وبينني وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لي عوناً على من خالفني . فأخذ عمرو الصدقة من أغنيائهم وردّها على فقرائهم ، ولم يزل بعّمان عندهم حتى توفي النبي ﷺ .

ويقال : إن جَيْفَرًا لما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ هديّة ، فقدمت الهدية وقد قبض رسول الله ﷺ ، فقسّمها أبو بكر ، رضي الله عنه ، بين فاطمة بنت النبي ﷺ وبين الناس (١) .

وذكر البلاذري أن رسول الله ﷺ بعث مع عمرو أبا زيد الأنصاري الخزرجي - وهو أحد من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ - وقال لها : « إن أجاب القوم إلى شهادة الحق ، وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الأمير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الإسلام على الناس وتعلّمهم القرآن والسُنن » . فلما أسلم جَيْفَرٌ وعبد دَعَوَا العرب هناك إلى الإسلام ، فأجابوا إليه ورغبوا فيه ، فلم يزل عمرو وأبو زيد بعّمان حتى قبض النبي ﷺ ، ويقال : إن أبا زيد قدم المدينة قبل ذلك (٢) .

كتاب النبي ﷺ إلى المُنذر بن ساوى ملك البحرين (٣) :

وبعث رسول الله ﷺ منصرفه من الجعرانة العلاء بن الحضرمي ، رضي الله عنه ، إلى المُنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين ، وكتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث معه نفرأ فيهم أبو هريرة ، رضي الله عنه ، وأوصاه به خيراً (٤) .

فلما قدم العلاء ، رضي الله عنه ، على المنذر بن ساوى قال له : يا مُنذر ! إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغر عن الآخرة ، إن هذه الجوسية شر دين ، ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، وتعبدون في الدنيا ناراً تأكلكم يوم القيامة . ولست بعدم عقل ولا رأي ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا تصدقه ، ولن لا يحون أن لا نأتمنه ، ولن لا يخلف أن لا نتق به ، فإن كان هذا هكذا ، فهذا هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به . فقال المنذر : قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فرأيتته للآخرة والدنيا ، فما يعني من قبول دين فيه أمنيّة الحياة وراحة الموت ؟ ولقد عجبت أمس من يقبله ، وعجبت اليوم ممن يردّه ، وإن من إعظام من جاء به أن يعظّم رسوله ، وسأنظر .

فأسلم المنذر ، وكتب إلى رسول الله ﷺ : أما بعد يا رسول الله ! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فنههم من أحبّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إليّ في ذلك أمرك .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٦٢/١) ، وعيون الأثر (ج ٢٦٧/٢) .

(٢) فتوح البلدان (ص : ٨٧) .

(٣) وكان سكان البحرين معظمهم من بني عبد القيس وبكر بن وائل وتميم ، بالإضافة إلى بعض العجم . وهم بين أهل شرك أو نصرانية ، وبين شراذم من يهود ومجوس ، وكان ملكها أيام ظهور رسول الله ﷺ المنذر بن ساوى ، وهو من بني تميم . انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ٢٠٢/٤) .

(٤) روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : لما بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ببعثة ، رأيت منه ثلاث خصال ، لأدري أيتهن أعجب ، انتهينا إلى ساحل البحر فقال : سؤوا الله وتقمّوا ، فسئنا وتقمّنا ، فعبرنا فابل الماء أسافل خفاف إبلنا ، فلما قفلنا صرنا معه بقلّة من الأرض ، وليس معنا ماء ، فشكونا إليه ، فقال : صلّوا ركعتين ، ثم دعا ، فإذا سحابة مثل الترس ، ثم أرخت غزاليها ، فسقيننا واستقينا ، فمات فدنفنا في الرمل ، فلما صرنا غير بعيد قلنا : يبيء سئع فإكله ، فرجعنا فلم نره . أخرج الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ١٧٦/٩) وقال : رواه الطبراني في الثلاثة وفيه إبراهيم بن معمر المزوي ولد إسماعيل ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات . والعزالي : جمّع غزلاء وهو قمّ المزايدة الأسفل ، فشيبة اتّساع المطر وأندفاقه بالذي يخرج من قمّ المزايدة (النهاية : ج ٣١٦/٣) .

فكتب إليه رسول الله ﷺ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ سِوَى ، سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . أَمَا بَعْدُ ، فَإِنِّي أذْكُرُكَ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحْ فَإِنَّا يَنْصَحْ لِنَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ مَنْ يُطِيعْ رُسُلِي وَيَتَّبِعْ أَمْرَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ نَصَحَ لَهُمْ فَقَدْ نَصَحَ لِي ، وَإِنْ رُسُلِي قَدْ أَتَوْا عَلَيْكَ خَيْرًا ، وَإِنِّي قَدْ شَفَعْتُكَ فِي قَوْمِكَ ، فَاتْرُكْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ ، وَعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ فاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَإِنَّكَ مَهْمَا تَصْلُحْ فَلَنْ نَعْرِضَكَ عَنْ عَمَلِكَ ، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ فَعَلَيْهِ الْجَزِيَّةُ » .

وروي أن رسول الله ﷺ كتب إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فمن أسلم قبل منه ، ومن أبي ضربت عليه الجزية على أن لا تؤكل لهم ذبيحة ولا تنكح لهم امرأة ، وأنه جاء في كتابه : « مَنْ صَلَّى صَلَاتِنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتِنَا فَذَاكَمُ الْمُسْلِمُ ، لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ الرَّسُولِ ﷺ » .

ويقال : إن رسول الله ﷺ كتب إلى المنذر بن ساوى كتاباً آخر : « أَمَا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ قَدَامَةَ وَأَبَا هَرِيرَةَ فَادْفَعْ إِلَيْهِمَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ جَزِيَّةِ أَرْضِكَ وَالسَّلَامِ » .

وكتب إلى العلاء بن الحضرمي أيضاً : « أَمَا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ بَعَثْتُ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى مَنْ يَقْبِضُ مِنْهُ مَا اجْتَمَعَ عِنْدَهُ مِنَ الْجَزِيَّةِ فَعَجَّلْهُ بِهَا ، وَابْعَثْ مَعَهَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْعُشُورِ وَالسَّلَامِ » . وكان رسول الله ﷺ كتب للعلاء ، رضي الله عنه ، قبل ذلك فرائض الإبل والبقر والغنم والثار والأموال ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس ويأخذ صدقاتهم .

ولم يزل العلاء ، رضي الله عنه ، عامل النبي ﷺ على البحرين حتى توفي ، عليه الصلاة والسلام ، ويقال : إنه عزله وبعث أبان بن سعيد عاملاً عليها^(١) .

وذكر البلاذري أن رسول الله ﷺ بعث العلاء إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية ، وكتب معه إلى المنذر بن ساوى وإلى مَرْزَبَانَ هَجَرَ^(٢) يدعوها إلى الإسلام أو الجزية ، فأسلما ، وأسلم معها جميع العرب هناك وبعض العجم . فأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء ، وكتب بينه وبينهم كتاباً نسخهته : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي أهل البحرين ، صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر ، فمن لم يف فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وأما جزية الرؤوس ، فإنه أخذها من كل حالم ديناراً^(٣) . (انظر : مصور كتب الرسول الأعظم ﷺ إلى الملوك والأمراء) .

زواج النبي ﷺ من الكلابية ومفارقته لها :

وتزوج رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة ثمان منصرفه من الجعرانة عمرة بنت يزيد بن عبيد الكلابية ، ويقال : هي فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابية^(٤) ، فلما قدمت على رسول الله ﷺ وكانت حديثه عهد بكفر قالت : إني لم أستأمر في نفسي ، إني أعوذ بالله منك ! فقال النبي ﷺ : « مَنِيحٌ عَائِدٌ إِلَيْهِ » ، فردها إلى أهلها . فكانت تدخل بعد على أزواج النبي ﷺ فتقول : أنا الشقية .

ويقال : إن التي استعازت منه أسماء بنت النعمان بن أبي الجؤن الكنديّة ، أو بنت عمّ لها ، وكان زواجه منها في شهر ربيع الأول سنة تسع للهجرة^(٥) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/٤ ، ٢٧٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٦٢/١ ، ٢٧٦) و (ج ٣٦٠/٤) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٩٢/٩)

و (ج ١٢٩/١٠) ، وجمع الزوائد (ج ٢٨/١) ، وعميون الأثر (ج ٢٦٧/٢) .

(٢) ويدعى سيخت ، وكان كسرى قد استعمله على هجر التي كانت تحت سيطرة فارس .

(٣) فتوح البلدان (ص : ٨٩) .

(٤) ويقال : هي العالية بنت ظبيان ، ويقال : سنا بنت سفيان ، فقد اختلف في اسمها كثيراً كما ذكر ابن سعد في الطبقات (ج ١٤١/٨) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٥/٤) ، والمستدرک (ج ٢٧/٤) ، وسنن النسائي (ج ١٥٠/٦) كتاب الطلاق - باب مواجهة الرجل المرأة بالطلاق ،

وطبقات ابن سعد (ج ٢١٨/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٨٧/٧ ، ٢٨٨) ، وتاريخ الطبري (ج ١٦٧/٣) .

وروى البخاري بسنده عن الأوزاعي قال : سألت الزهري : أي أزواج النبي ﷺ استعادت منه ؟ قال : أخبرني عروة عن عائشة ، رضي الله عنها ، أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله ﷺ ودنا منها قالت : أعوذ بالله منك ، فقال لها : « لقد عذت بعظيم ، ألحقي بأهلك » (١) .

وروى الحاكم بسنده عن أبي أسيد الساعدي ، وكان بدرياً ، قال : تزوج رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، أسماء بنت النعمان الجوثية ، فأرسلني فجئت بها ، فقالت حفصة لعائشة : اخضبيها أنت وأنا أمشطها ، ففعلتا ، ثم قالت لها إحداها : إن النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يعجبه من المرأة إذا دخلت عليه أن تقول : أعوذ بالله منك ، فلما دخلت عليه وأغلق الباب وأرخى الستر مد يده إليها ، فقالت : أعوذ بالله منك ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بكتمه على وجهه فاستتر به وقال : « عذت بمعاذ » ثلاث مرات . قال أبو أسيد : ثم خرج إلي فقال : « يا أبا أسيد ! ألحقتها بأهلها ، ومتعها براز قيين (٢) » (٣) .

ويروى أنه ذكر لرسول الله ﷺ من حملها على ما قالت ، فقال : « إنهن صواحب يوسف ، وكيدهن عظيم » (٤) .

ويقال : إن رسول الله ﷺ دعاها فقالت : إنا قوم نوثى ولانأتي ، فطلقتها رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بها (٥) . ويقال : إنما فارقتها - أي الكلابية أو الكندية - لبياض كان بها ، أو لأن أباهما وصفها له بأنها لم ترض قط ، فرغب عنها رسول الله ﷺ وقال له : « لا حاجة لنا في ابنتك تجئتنا تحمِلُ خطاياها ، لا خير في مال لا يرزأ منه ، وجسد لا يتال منه » (٦) .

ولادة إبراهيم ابن النبي ﷺ :

وفي ذي الحجة سنة ثمان للهجرة ولد إبراهيم ابن النبي ﷺ ، ولد بالعالية حيث أنزل رسول الله ﷺ أمه مازية القبطية . وقد ذكرنا فيما مضى أن النبي ﷺ كان يختلف إليها هناك ويطؤها بملك اليمن ، وضرب عليها مع ذلك الحجاب ، فلما حملت وضعت هناك ، وقبلتها سلمى مولاة رسول الله ﷺ ، فجاء أبو رافع (٧) زوج سلمى ببشر رسول الله ﷺ بإبراهيم ، فوهب له عبداً . ويقال : إن جبريل ، عليه السلام ، أتى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليك يا أبا إبراهيم ، إن الله تعالى وهب لك غلاماً من أم ولدك مازية ، وأمرك أن تسميه إبراهيم ، فبارك الله لك في إبراهيم ، وجعله قرة عين لك في الدنيا والآخرة .

وتنافس نساء الأنصار في إبراهيم أيتهن ترضعه (٨) ، وكانت أمه قليلة اللبن ، فدفعه رسول الله ﷺ إلى أم سيف ، فكانت ترضعه . ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ولدت لي اللبنة غلاماً فسَمَيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي ، إبراهيم » ، ثم دفعه إلى أم سيف امرأة قين (٩) يقال له أبو سيف (١٠) .

وروي عنه أيضاً قال : ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ ، قال : كان إبراهيم مُسْتَرْضِعاً له في عوالي المدينة ،

(١) صحيح البخاري (ج ٥٢/٧) كتاب الطلاق - باب من طلق ..

(٢) الرزاقية : ثياب كتان بيض (النهاية : ج ٢١٩/٢) .

(٣) المستدرک (ج ٢٧/٤) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٤٤/٨) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ٥٢/٧) كتاب الطلاق - باب من طلق .. وسيرة ابن هشام (ج ٢٢٥/٤ - ٢٢٦) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٥/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٤٩/٨) ، وتاريخ الطبري (ج ١٦٧/٢) .

(٧) أبو رافع مولى رسول الله ﷺ كان للعباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، فوهبه للنبي ﷺ ، ولما بشر النبي ﷺ بإسلام العباس أعتقه وزوجه مولاته سلمى رضي الله عنها . وقيل غير ذلك . انظر : السيرة الحلبية (ج ٣٠٩/٣) ، والإصابة في تمييز الصحابة (ج ٦٧/٤) .

(٨) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢١٢/٨) ، وتاريخ مدينة دمشق / لابن عساکر (ق ١١٠/١) .

(٩) القين : الحداد ، وقد تقدم .

(١٠) صحيح مسلم (ج ١٨٠٧/٤) كتاب الفضائل - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال .. ح ٦٢ .

فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه لَيُدَّخَن ، وكان ظُهُره^(١) قَيْنًا ، فيأخذه فيقبله ثم يرجع^(٢) .

ويقال : إن رسول الله ﷺ دفعه إلى أم بُرْدَة خَوْلَة بنت المنذر بن زيد ، وزوجها البراء بن أوس من بني النجار ، فكانت ترضعه ، وكان إبراهيم يكون عند أبيه في بني النجار ، ويأتي رسول الله ﷺ أم بُرْدَة فيقبل عندها ويؤتي إبراهيم .

وعق عنه رسول الله ﷺ بشاة يوم سابعة ، وحلق رأسه فتصدق بزينة شعره فضة على المساكين ، وأمر بشعره فدُفِن في الأرض .

وغار نساء رسول الله ﷺ ، واشتدَّ عليهنَّ حين رُزِق من مارية الولد ، قالت عائشة رضي الله عنها : دخل به علي رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال : « كَيْفَ تَرَيْنَ ؟ » قالت : فحملني ما يحمل النساء من العيرة أن قلت : ما أرى شَبَهًا . وكان كثر الكلام على مارية في ابن عم لها كان يزورها . فلما بلغ رسول الله ﷺ ما يقول الناس ، وقالت له عائشة ما قالت ، قال لعلي رضي الله عنه : « اذْهَبْ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ » . فأتاه علي ، رضي الله عنه ، فإذا هو في رَكِي^(٣) يتبرد فيها ، فقال له علي : اخرج ، فناوله يده فأخرجه ، فإذا هو مَجْبُوب ليس له ذكر ، فكفَّ علي عنه ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره^(٤) .

☆ ☆ ☆

(١) أي زَوْج مُرْضِعَة إبراهيم (النهاية : ج ١٥٤/٣) .

(٢) صحيح مسلم (ج ١٨٠٨/٤) كتاب الفضائل - باب رحمته ﷺ الصبيان .. ح ٦٢ .

(٣) الرَّكِيُّ : البَيْتُ (النهاية : ج ٢٦١/٢) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٣٥/١ ، ١٣٦) ، والمستدرک (ج ٣٩/٤) ، وصحيح مسلم (ج ٢١٣٩/٤) كتاب التوبة - باب براءة حرم النبي ﷺ من الريبة ح ٥٩ .

السنة التاسعة للهجرة

كان لفتح مكة أثر كبير في تعزيز الإسلام ، وتغيير موقف العرب منه كما قال عمرو بن سلمة الجرمي : كنا بقاء عمرّ الناس ، وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوحى إليه ، أو أوحى الله بكذا ، فكنت أحفظ ذلك الكلام ، وكأنا يُعزى في صدري^(١) ، وكانت العرب تلوّم^(٢) بإسلامهم الفتح فيقولون : اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق ، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، ويدرأى قومي بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتم والله من عند النبي ﷺ حقاً^(٣) .

فأقام رسول الله ﷺ طيلة السنة التاسعة بالمدينة المنورة يستقبل الوفود ، ويبعث العمّال ، ويبثّ الدعاة ، ولم يخرج منها إلا لغزوة تبوك كما سيأتي . (انظر : مصور انتشار عقيدة التوحيد في أرجاء الجزيرة - عام الوفود) .

وفد ثُمالة والحُدّان :

قدم على رسول الله ﷺ بعد الفتح عبد الله بن عَلس الثُمالي ومُسَلِّية بن هِزّان الحُدّاني في رهط من قومها ، فأسلموا وبايعوا النبي ﷺ على قومهم ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً بما فرض عليهم من الصدقة في أموالهم^(٤) .

وفد باهلة :

وقدم على رسول الله ﷺ مُطَرِّف بن الكاهن الباهلي بعد الفتح وافتداً لقومه بإسلامهم . وكان رسول الله ﷺ قد بعث إليهم أبا أمانة صدي بن عَجَلان الباهلي يدعوهم إلى الله ، تبارك وتعالى ، ويعرض عليهم شرائع الإسلام ، فأبوا عليه ، ثم إنهم أسلموا عن آخرهم .

فلما قدم مُطَرِّف على النبي ﷺ أخذ لقومه أماناً ، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً فيه فرائض الصدقات . ثم قدم نهشل ابن مالك الوائلي من باهلة وافتداً لقومه ، فأسلم ، وكتب له رسول الله ﷺ ولن أسلم من قومه كتاباً فيه شرائع الإسلام ، هذا نصه : « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِنَهْشَلِ بْنِ مَالِكٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي وَائِلٍ لِمَنْ أَسْلَمَ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَتَى الزَّكَاةَ ، وَأَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَأَعْطَى مِنَ الْمَغْنَمِ خُمْسَ اللَّهِ وَسَهْمَ النَّبِيِّ ، وَأَشْهَدَ عَلَى إِسْلَامِهِ ، وَفَارَقَ الْمُشْرِكِينَ ، فَإِنَّهُ آمِنٌ بِأَمَانِ اللَّهِ ، وَبِرِيءٌ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ مِنَ الظُّلْمِ كُلِّهِ ، وَأَنْ لَهُمْ أَنْ لَا يُحْشَرُوا وَلَا يُعْشَرُوا^(٥) ، وَعَامِلُهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » . وكتب عثمان بن عفّان رضي الله عنه^(٦) .

(١) يُعزى في صدري : أي يُلصقُ به ، كأنه ألصقَ بالغراء (النهاية : ج ٣/٣٦٤) .

(٢) أي تَنْتَظِرُ ، أراد : تَتَلَوَّمُ ، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً (النهاية : ج ٤/٢٧٨) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٩١/٥) كتاب المغازي - باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١/٣٥٢) .

(٥) لَا يُحْشَرُونَ : أي لَا يُتَدَبَّرُونَ إِلَى الْمَغَازِي ، وَلَا تُضْرَبُ عَلَيْهِمُ الْبُعُوثُ . وقيل : لَا يُحْشَرُونَ إِلَى عَامِلِ الزَّكَاةِ لِأَخَذِ صَدَقَةِ أَمْوَالِهِمْ ، بَلْ يَأْخُذُهَا فِي

أَمَاكِنِهِمْ (النهاية : ج ١/٢٨٩) . وَلَا يُعْشَرُونَ : أي لَا يُؤْخَذُ عَشْرُ أَمْوَالِهِمْ (النهاية : ج ٣/٢٣٩) .

(٦) انظر : المستدرک (ج ٣/٦٤١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١/٢٨٤ ، ٣٠٧) .

بعث النبي ﷺ عماله على الصدقات :

وكان رسول الله ﷺ لما استهلّ هلال المحرم من السنة التاسعة للهجرة بعث عماله على الصدقات^(١) إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان ، فبعث المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء فخرج عليه الأسود العنسي وهو بها ، وبعث زياد بن كبيد البياضي إلى حضرموت ، وبعث عدي بن حاتم إلى طيء وبنو أسد ، وبعث مالك بن نويرة اليربوعي إلى بني حنظلة ، وفرّق صدقة بني سعد على رجلين منهم ، فبعث الزبيرقان بن بدر على ناحية منها ، وقيس بن عاصم على ناحية ، وبعث عبيدة بن حصن إلى بني تميم ، وبعث الوليد بن عقبة إلى بني المضطليق ، وبعث بريرة بن الحصيبي إلى أسلم وغفار ، ويقال : كعب بن مالك ، وبعث ابن اللثبية الأزدي إلى بني سلم ، ويقال : بعث عباد بن بشر الأشهلي إلى سلم ومزينة ، وبعث ابن اللثبية إلى بني ذبيان ، وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة ، وبعث عمرو بن العاص إلى بني قزارة ، ويقال : عبيدة بن حصن ، وبعث الضحاک بن سفيان إلى بني كلاب ، وبعث بشر بن سفيان إلى بني كعب ، وبعث رجلاً من سعد هذلي على صدقاتهم ، ويقال : بعث أبي بن كعب إلى بني سعد بن هذلي من قضاة ، وبعث عكرمة بن أبي جهل إلى هوازن ، وبعث علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم .

وقد ذكرنا سابقاً أنه ﷺ بعث نفرًا من أصحابه إلى العلاء بن الحضرمي عامله على البحرين ليقبضوا ما اجتمع عنده من صدقة البحرين ، كما بعث أبا عبيدة بن الجراح ليأتي بجزيتها^(٢) . (انظر : مصور خروج العمال على الصدقات) .
وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن بعث هؤلاء المصدقين كلهم دفعة واحدة في الحرم من السنة التاسعة للهجرة ، بل تأخر بعث عدة منهم إلى وقت اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها ، ويؤيد ذلك ما جاء في رواية ابن إسحاق أن عدي بن حاتم ، رضي الله عنه ، كان من بين العمال الذي أرسلهم رسول الله ﷺ على صدقات قومهم ، وقد كان إسلام عدي بعد بعثه ﷺ علياً ، رضي الله عنه ، لهدم الفأس وذلك في ربيع الآخر من السنة التاسعة للهجرة .

وكان رسول الله ﷺ إذا بعث مصدقيه أمرهم أن يأخذوا صدقاتهم من حواشي أموالهم^(٣) ، ويتوقوا كرائمها . وكان يأمرهم بما أخذوا من الصدقات أن يجعل في ذوي قرابة من أحد منهم الأول فالأول ، فإن لم يكن له قرابة فلأولي العشيرة ثم لذوي الحاجة من الجيران وغيرهم^(٤) .

روي عن عبادة بن الصامت ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ بعثه على الصدقة ، فقال : « يا أبا الوليد ! اتق الله لاتأت يوم القيامة بغير تحميلة له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثغاء » ، فقال : يا رسول الله ! إن ذلك لكذلك ؟ قال : « إي والذي نفسي بيده » ، قال : فوالذي بعثك بالحق لا أعمل لك على شيء أبداً^(٥) .

وعن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بني سلم يدعى ابن اللثبية ، فلما جاء حاسبه قال : هذا مالك وهذا هدية ، فقال رسول الله ﷺ : « فهلاً جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً » ، ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله ، فيأتي فيقول هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته ، فلا عرف أحدًا منكم لقي الله يحمله بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر » ، ثم رفع يده حتى رؤي بياض إبطه يقول : « اللهم ! هل بلغت بصر عيني وسمع أذني »^(٦) .

(١) ذكر الطبري في تاريخه (ج ١٢٢/٣) أن الصدقات فرضت في السنة التاسعة وفيها فرّق رسول الله ﷺ عماله عليها ، وقيل : فرضت الصدقات قبل ذلك . راجع فرض صوم رمضان وزكاة الفطر في السنة الثانية للهجرة .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧١/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٠/٢ ، ١٦١) ، وصحيح البخاري (ج ١١٢/٨) كتاب الرقاق - باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، و (ج ٣٦٩) كتاب الحيل - باب احتيال العامل ليهدي له ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٤٢/٥) ، والمستدرک (ج ٢٤٢/٣) .

(٣) حواشي الأموال : هي صغار الإبل كالبني المخاض وابن اللبون ، وأحدها : حاشية ، وحاشية كل شيء : جأبه وطرفه (النهاية : ج ٣٩٢/١) .

(٤) انظر : مجمع الزوائد (ج ٨٧/٣) .

(٥) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٨٦/٣) وقال : رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

(٦) صحيح البخاري (ج ٣٦٩) كتاب الحيل - باب احتيال العامل ليهدي له .

- بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق :

بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط^(١) إلى بني المصطلق لأخذ صدقاتهم ، وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد^(٢) ، فلما سمعوا بدنوه ركب إليه عشرون رجلاً منهم يتلقونه فرحاً وسروراً بقدومه ، فلما رآهم هابهم - وكان بينهم وبينه شحنة في الجاهلية - وظن أنهم ساروا إليه ليقتلوه ، فولى راجعاً إلى المدينة ، فأخبر رسول الله ﷺ أن القوم لقوه بالسلاح وأرادوا قتله ومنعوه الصدقة .

فأكثر المسلمون في ذكر غزومهم ، حتى هم رسول الله ﷺ بأن يغزومهم ، فبينما هم على ذلك قدم وفدهم على رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ! سمعنا برسولك - حين بعثته إلينا - فخرجنا إليه لنكرمه ونؤذي إليه ما قبلنا من الصدقة ، فانشرب راجعاً ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله ، والله ما جئنا لذلك ، فأنزل الله تعالى فيه وفيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾^(٣) إلى آخر الآية .

ويروى أن النبي ﷺ بعث إليهم بعثاً لما أخبره الوليد بامتناعهم عن أداء الزكاة ، فلقبهم الحارث بن أبي ضرار ، وكان قد أقبل بأصحابه يريد المدينة لما رأى تأخر عامل النبي ﷺ عليهم - وكان رسول الله ﷺ وقتاً له وقتاً يرسل إليه عامله ليقبض صدقاتهم - فقال الحارث للبعث : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله ، قال : لا ، والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني ، فلما قدم الحارث على النبي ﷺ قال : « مَنْعَتَ الزَّكَاةَ وَأَرَدْتُ قَتْلَ رَسُولِي ؟ » قال : لا ، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ، عز وجل ، ورسوله ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ .. ﴾ إلى آخرها ، فقرأها عليهم رسول الله ﷺ ، وبعث معهم عباد بن بشر ، رضي الله عنه ، يأخذ صدقات أموالهم ويعلمهم شرائع الإسلام ويقرئهم القرآن ، فلم يعد ما أمره رسول الله ﷺ ولم يضيع حقاً ، وأقام عندهم عشرة ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ راضياً^(٤) .

سرية عيينة بن حصن إلى بني العنبر من تميم :

بعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني العنبر ، وكانوا فيما بين السقييا وأرض بني تميم ، وذلك في الحرم سنة تسع للهجرة . (انظر : مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة : رمضان ٨ هـ - ربيع الآخر ٩ هـ) .

وسبب هذه السرية أن رسول الله ﷺ بعث بشر^(٥) بن سفيان الكعبي ، ويقال : النحام العدوي ، إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم ، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر التميميون ، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة ، فاستكثر ذلك بنو تميم وشهروا السيوف ومنعوا بشراً من أخذ الصدقة .

فلما رأى بشر ، رضي الله عنه ، ذلك قدم على النبي ﷺ فأخبره ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ؟ » فانتدب عيينة بن حصن ، فبعثه النبي ﷺ في خمسين فارساً من العرب ، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري ، فكان يسير الليل ويكن النهار ، فهجم عليهم في صحراء ، فدخلوا وسرحوا مواشيهم ، فلما رأوا الجمع ولوا ، فأخذ عيينة منهم أحد عشر رجلاً ، ووجد في المحلة^(٦) إحدى

(١) أسلم الوليد يوم فتح مكة . انظر : الإصابة (ج ٢/٦٢٧) .

(٢) راجع غزوة بني المصطلق .

(٣) الحجرات : ٦ - ٧ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٢٤٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/١٦١) ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٤/٢٧٩) ، وجمع الزوائد (ج ٧/١١٠) .

(٥) ويقال : بشر .

(٦) أي مكان نزولهم .

عشرة امرأة وثلاثين صبياً فجلبهم إلى المدينة ، فأمر بهم رسول الله ﷺ فحسبوا في دار رُملة بنت الحارث (١) .

قدوم وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات :

فلما قدم بسبيهم على رسول الله ﷺ ركب فيه وفد عظيم من بني تميم ، يقال : كانوا تسعين أو ثمانين رجلاً حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، منهم عدة من رؤسائهم : عطاريد بن حاجب ، والزُّبُرْقَان بن بدر (٢) ، وقيس بن عاصم المُنْقَرِي (٣) ، وقيس بن الحارث ، والأقرع (٤) بن حابس ، وعمر بن الأهنم ، والقُعْقَاع بن مَعْبُد ، والحَيْحَاب ويقال الحُتَات بن يزيد (٥) . وقد كان الأقرع بن حابس شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحسيناً والطائف ، فلما قدم وفد بني تميم كان معهم ، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري ، فَعَجَلُوا ، فدخلوا المسجد وقد أذن بلال بالظهر والناس ينتظرون خروج النبي ﷺ ، فاستبطؤوه فجاؤوا بابه فنادوه من وراء الحجرات : أن اخرج إلينا يا محمد ! فأذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم ، فخرج إليهم ، وأقام بلال ، رضي الله عنه ، الصلاة ، وتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه في سبيهم ، فوقف معهم ، ثم قال الأقرع : يا محمد ! ائذن لي فوالله إن حمدي لَزَيْن وإن دمي لَشَيْن ، فقال له رسول الله ﷺ : « كَذَبْتَ ، ذَلِكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » ، ثم مضى النبي ﷺ فصلّى الظهر ، ثم جلس في صحن المسجد ، فقالوا له : يا محمد ! جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : « قَدْ أَذْنْتُ لِحَطِيبِكُمْ فَلْيُتْلُ » - وفي رواية قال : « إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ بِالشُّعْرِ ، وَلَمْ أَوْمَرْ بِالْفَخْرِ ، وَلَكِنْ هَاتُوا » ، فقام عطاريد بن حاجب فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ ، وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ، وهب لنا أموالاً عظيماً نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره عدّة ، فَمَن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم ؟ فن فاخرنا فليعدّد مثل ماعدنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشّمس أخي بني الحارث بن الخزرج : « قُمْ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ » ، فقام ثابت فقال : الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهنّ أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً ، وأصدقه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وأثمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمة ، أكرم الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوهاً وخير الناس فعلاً ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن ، فنحن أنصار الله ، ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

ثم قالوا : يا محمد ! ائذن لشاعرنا ، فأذن له ، فقام الزُّبُرْقَان بن بدر فقال أبياتاً منها :

نحن الكرام فلاحِي يعادِلنا منا الملوك وفتينا تنصب البيع

وبعث رسول الله ﷺ إلى حسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، وكان غائباً ، قال حسان : جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول ، فأنشد أبياتاً منها :

منعنا رسول الله إذ حلّ وسطننا على أنف راض من معـــــــدِّ وراغم

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٩٦/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢١٢/٥) كتاب للغازي - باب وفد بني تميم ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٩٢/١) ، و (ج ١٦٠/٢) .

(٢) واسم الزُّبُرْقَان حَصَيْن ، وكان شاعراً ، وكان يقال له قمر نجد لجماله . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٦٧) .

(٣) روي أن رسول الله ﷺ لما رآه قال : « هذا سيّد أهل التّوبِ » ، وكان عاقلاً حليماً ، وكان ممن حرّم الحمر على نفسه في الجاهلية ، ولما حضرته الوفاة أوصى بنبيه وقال : إياكم والسّالة فإنها آخر كسب للمرء . انظر : المستدرک (ج ٦١٢/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٨٨/٣) .

(٤) قيل : اسمه فراس ، وإنما قيل له الأقرع لقرع كان برأسه . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٤٤/٣) .

(٥) وهو الذي أخى رسول الله ﷺ بينه وبين معاوية بن أبي سفيان فيما قال ابن هشام . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٤) .

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وقال شاعر القوم ما قال ، قال رسول الله ﷺ له : « قُمْ يَا حَسَّانُ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِيمَا قَالَ » ، فقام حسان فأجابه بمثل شعره ، فكان مما قال :

إن الذوائب ^(١) من فيهر وإخوتهم	قد يتنوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته	تقوى الإله وكل الخير يصطنع
إن كان في الناس سباقون بعدم	فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم	إذا تقاوتت الأهواء والشيع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم	إن جد بالناس جد القول أو شمعوا ^(٢)

فقال الأقرع بن حابس : وأبي إن هذا الرجل لمؤق له^(٣) ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا .

فلما فرغ القوم أسلما ، وجوزم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم ، فأعطى كل واحد اثنتي عشرة أوقية ونشأ ، إلا عمرو بن الأهتم فإن القوم خلفوه في ظهورهم لأنه كان أصغرهم سناً ، فأعطاه خمس أواق . ويقال : إن رسول الله ﷺ قال : « أما بقي منكم أحد ؟ » فقال قيس بن عاصم وكان يبغض عمرو بن الأهتم : يا رسول الله ! إنه قد كان رجلاً منّا في رحالنا وهو غلام حدث وأزرى به ، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم ، وبلغ عمراً ما قال قيس في حقه فهجاه بأبيات .

ويروى أن الزبير بن بدر افتخر عند رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب فيهم ، أمنهم من الظلم فأخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذاك - يعني عمرو بن الأهتم - فقال عمرو : والله يا رسول الله إنه لشديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع في نأديه ، قال الزبيران : والله يا رسول الله ، لقد علم مني غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم به إلا الحسد ، قال عمرو : أنا أحسدك ؟ فوالله إنك لكئيم الخال ، حديث المال ، أحق الولد ، مضيع في العشيرة ، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً وما كذبت فيما قلت آخراً ، لكني رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، ورضيت فقلت أقبح ما وجدت ، والله لقد صدقت في الأمرين جميعاً ، فقال النبي ﷺ : « إن من البيان لسحراً ، إن من البيان لسحراً » .

ورد عليهم رسول الله ﷺ الأسرى والسبي ، ويقال إنه أعتق بعضاً وأفدى بعضاً^(٤) ، فقد روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ! إن علي رقبة من ولد إسماعيل ، فقال : « هذا سبي بني العنبر يقدم الآن فتعطيكم منهم إنساناً فتعتقينه »^(٥) .

وعن زبيب بن ثعلبة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان عليه رقبة من ولد إسماعيل فليعتق من بني العنبر »^(٦) .

وأُنزل الله تعالى فيهم من القرآن : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾^(٧) .

سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾^(٨) :

روي أنه لما قدم وفد بني تميم على النبي ﷺ وأسلموا سألو النبي ﷺ أن يؤمر عليهم أحدهم ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله

(١) الذوائب : الأشراف (النهاية : ج ١٥١/٢) .

(٢) شمع : مزج (الوسيط : ج ٤٩٦/١) .

(٣) أي مهياً ومسهلاً له طريقه (لسان العرب : ج ٢٢/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٤ ، ٢٩٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٩٤/١) ، والمستدرک (ج ٦١٢/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٠١/٣) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٢٩٦/٤) .

(٦) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٤٧/١٠) وقال : رواه الطبراني وفيه عبد الله بن زبيب وبقية رجال ثقات ..

(٧) الحجرات : ٤ .

(٨) الحجرات : ٢ .

عنه ، أمر عليهم القَعْقَاع بن مَعْبُد ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : بل أمر عليهم الأقرع بن حابس^(١) ، فقال أبو بكر له : ما أردت إلا خلافي ، قال عمر : ما أردت خلافاً ، فتأرياً حتى ارتفعت أصواتها ، فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(٢) حتى انقضت ، وأنزل أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ الآية ، فكان عمر ، رضي الله عنه ، لا يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، وأقسم أبو بكر ، رضي الله عنه ، لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار^(٣) .

وروي أنه لما نزلت هذه الآية جلس ثابت بن قيس ، رضي الله عنه ، خطيب النبي ﷺ في بيته منكساً رأسه ، وكان من أرفع الصحابة صوتاً ، فافتقده النبي ﷺ فقال : « مَنْ يَعْلَمُ لِي عِلْمَةً ؟ » فقال رجل : يا رسول الله ! أنا أعلم لك علمه فاتاه فقال له : ماشأذك ؟ فقال : أخشى أن أكون من أهل النار لأنني كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ ، فقد حبط علي ، فرجع الرجل إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » ، فجاء ثابت فقال له : « يَا ثَابِتُ ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيداً وَتُقْتَلَ شَهِيداً وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ ؟ » فقال : رضيت ببشرى الله ورسوله ، لا أرفع صوتي أبداً على رسول الله ﷺ ، فنزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ ﴾^(٤) الآية . فعاش حميداً وقتل شهيداً يوم مَسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ^(٥) .

سرية قطيبة بن عامر رضي الله عنه إلى خثعم :

بعث رسول الله ﷺ قطيبة بن عامر بن حديدة ، رضي الله عنه ، في عشرين فارساً إلى حيٍّ من خثعم بناحية تبالة ، بالقرب من تَرْبَةَ في صفر سنة تسع للهجرة ، وأمره أن يشن الغارة عليهم ، فخرجوا على عشرة أبعرة يعقبونها ، فأخذوا رجلاً فسألوه فاستعجم^(١) عليهم ، فجعل يصيح بال حاضر ويحذرهم ، فضربوا عنقه ، ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا عليهم الغارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً ، وقتل قطيبة بن عامر من قتل ، وساقوا النعم والشاة والنساء إلى المدينة ، وجاء سيل آتي فحال بينهم وبينه فما يجدون إليه سبيلاً ، وكانت سهائم أربعة أبعرة ، وأربعة أبعرة ، والبعير يعدل بعشر من الغنم بعد أن أخرج الخمس^(٧) . (انظر : مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة : رمضان ٨ هـ - ربيع الآخر ٩ هـ) .

روي عن جرير بن عبد الله ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود ، فأسرع فيهم

- (١) قيل : كان في القَعْقَاع بن مَعْبُد رقة فلما اختاره أبو بكر ، رضي الله عنه ، بينما اختار عمر ، رضي الله عنه ، الأقرع لشرفه في بني تميم وصلابته وحسن إسلامه ولقربانته من رسول الله ﷺ فإنه من خندف ثم من بني تميم . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٤٦٣) .
- (٢) الحجرات : ١ .
- (٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٢١٢/٥) كتاب المغازي - باب وفد بني تميم ، و (ج ١٧١/٦) كتاب التفسير - سورة الحجرات ، وجمع الزوائد (ج ١٠٨٧) . والسراي : المساررة : أي كصاحب السرار ، أو كمثل المساررة لخفض صوته (النهاية : ج ٣٦٠/٢) .
- (٤) الحجرات : ٢ .
- (٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧١/٦) كتاب التفسير - سورة الحجرات ، والمستدرك (ج ٢٤/٣) ، وجمع الزوائد (ج ٢٢١/٩) . روي أنه لما كان يوم اليمامة واستشهد ثابت ، رضي الله عنه ، رأى رجل من المسلمين في منامه فقال : إني لما قتلت انتزع درعي رجل من المسلمين وخبأه في أقصى العسكر وهو عنده ، وقد أكب على الدرع برمة ، وجعل على البرمة رخلأ ، فأتى خالد بن الوليد فأخبره ، وإياك أن تقول هذا حلم فتضيعة ، وإذا أتيت المدينة فقل لخليفة رسول الله ﷺ : إن علي من الذين كنا وكذا وغلامي فلان من رقيقي عتيق ، وإياك أن تقول هذا حلم فتضيعة ، فأتى خالداً فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأتى بها فوجد الأمر على ما أخبره ، وأتى أبا بكر فأخبره ، فأنفذ وصيته . فلا يعلم أحد أنفذت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه : انظر : المستدرك (ج ٢٣٥/٣) ، وجمع الزوائد (ج ٢٢٢/٩) .
- (٦) استعجم : سكت (لسان العرب : ج ٢٨٢٧/٤) .
- (٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٦٢/٢) ، والمستدرك (ج ٢٢٥/٣) .

القتل ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل وقال : « أنا بريء من كلِّ مُسْلِمٍ يَمِيمٍ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ » قالوا : يا رسول الله ! ولم ؟ قال : « لا تَرَايَا تَارَاهَا (١) » (٢) .

وفد بني عُدْرَةَ :

وفي صفر سنة تسع للهجرة قدم على رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً من بني عُدْرَةَ ، فيهم جُمْرَةُ بن النعمان ، وسَلْمُ وسعد ابنا مالك ، ومالك بن أبي رياح ، فنزلوا دار رَمْلَةَ بنت الحارث النجارية (٣) ، ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ فسَلِمُوا بِسَلَامِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وقالوا : نحن إخوة قُصَيِّ بن كلاب لأمه ، ونحن الذين أراحوا خزاعة وبني بكر عن مكة ، ولنا قرابات وأرحام ، فقال رسول الله ﷺ : « مَرْحَبًا بِكُمْ وَأَهْلًا ، مَا أَعْرَفَنِي بِكُمْ ، مَا مَنَعَكُمْ مِنَ تَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ؟ » قالوا : يا محمد ! كنا على ما كان عليه آبائنا فقدمنا مُرْتَادِينَ لأنفسنا ولقومنا . وسألوا النبي ﷺ عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم فيها ، فأسلموا وبشروهم رسول الله ﷺ بفتح الشام عليهم وهرب هرقل إلى تمتع بلاده ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها ، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية . فأقاموا أياماً ، ثم انصرفوا إلى أهلهم وقد أجازهم رسول الله ﷺ كما يجيز الوفد ، وكسا أحدهم برداً .

وذكر أنه أقطع جُمْرَةَ بن النعمان من وادي القرى ، وكان سيّد بني عُدْرَةَ ، وأول أهل الحجاز قدم على النبي ﷺ بصدقة بني عُدْرَةَ (٤) .

وفد بني أسد بن خُزَيْمَةَ :

وفي أول سنة تسع قدم على رسول الله ﷺ عشرة رهط من بني أسد بن خُزَيْمَةَ ، فيهم خُضْرَمِي بن عامر ، وضَرَار بن الأزور ، ووابِصَةَ بن مَعْبُد ، ونُقَادَةَ بن عبد الله ، وطَلِيحَةَ بن خُوَيْلِد (٥) ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد مع أصحابه ، فسَلِمُوا عَلَيْهِ وَتَكَلَّمُوا ، فقال خُضْرَمِي بن عامر : يا رسول الله ! إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له ، وأنت عبده ورسوله ، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ، ولم تقاتلك كما قاتلتك العرب ، ونحن على من وراءنا ، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا بِإِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦) .

وسألوا رسول الله ﷺ عما كانوا يفعلونه في الجاهلية من العيافة والكهانة وضرب الحصا ، فنهاهم عن ذلك كله ، فقالوا : يا رسول الله ! خصلة بقيت ، قال : « وما هي ؟ » قالوا : الخط (٧) ، فقال : « عَلِمْتَ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَمَنْ صَادَفَ مِثْلَ عِلْمِهِ عَلِمَ » .

وأقاموا أياماً يتعلمون الفرائض ، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ فودّعوه ، وأمر لهم بجوائز ، ثم انصرفوا إلى أهلهم . وكان معهم قوم من بني الزَيْنَةِ وهم بنو مالك ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « أَنْتُمْ بَنُو الرَّشْدَةِ » (٨) .

(١) في رواية أبي داود : « لا تَرَايَا تَارَاهَا » قال ابن الأثير : أي يَلْزَمُ الْمُسْلِمُ وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُبَاعِدَ مَنَزِلَهُ عَنِ مَنَزِلِ الْمُشْرِكِ ، وَلَا يَنْزِلُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي إِذَا أُوقِدَتْ فِيهِ نَارَةٌ تَلَوَّحُ وَتَظْهَرُ لِنَارِ الْمُشْرِكِ إِذَا أُوقِدَهَا فِي مَنَزِلِهِ ، وَلَكِنَّهُ يَنْزِلُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي دَارِهِمْ . وَإِنَّا كَرِهَ مُجَاوَزَةَ الْمُشْرِكِينَ لِأَنَّهُمْ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا أَمَانَ ، وَحَثَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْهِجْرَةِ . وَتَرَايَا لِي الشَّيْءُ : أَي ظَهَرَ حَتَّى رَأَيْتَهُ ، وَإِسْنَادُ التِّرَاثِيِّ إِلَى النَّارِئِينَ مُجَازٌ ، مِنْ قَوْلِهِمْ دَارِي تَنْظُرُ إِلَى دَارٍ فَلَانَ أَي تَقَابَلَهَا . يَقُولُ : تَارَاهَا مُخْتَلِفَتَانِ ، هَذِهِ تَدْعُو إِلَى اللَّهِ ، وَهَذِهِ تَدْعُو إِلَى الشَّيْطَانِ فَكَيْفَ يَتَّفِقَانِ (النهاية : ج ١٧٧/٢) .

(٢) سنن الترمذي (ج ١٥٥/٤) كتاب السير - باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين ح ١٦٠٤ .

(٣) وكانت دارها تُسَمَّى دَارَ الْأَضْيَافِ . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٦٧/٤) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٣١/١) ، وعيون الأثر (ج ١٤٤/٢ ، ٢٥١) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٣٥/٣) .

(٥) ارتد بعد ذلك طليحة وأدعى النبوة ثم تاب وعاد إلى الإسلام ، وسيأتي خبر ارتداده في آخر السنة العاشرة للهجرة .

(٦) الحجرات : ١٧ .

(٧) أي خَطَّ الرَّمْلِ وَمَعْرِفَةٌ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ . انظر (النهاية : ج ٤٧/٢) .

(٨) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٩٢/١) ، وعيون الأثر (ج ٢٥٠/٢) ، والسيرة الدحلانية على هامش السيرة الحلبية (ج ٣٨/٣) .

روي عن ضرار بن الأزور ، رضي الله عنه ، قال : أتيت النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلت له : امدد يدك أبيامك على الإسلام ، فبايعته ، ثم قلت :

تركت القُداحَ وعَزُفَ القِيامِ ن والحمرَ تصليمةً وابتهـالا
وكَرِي المَحَبَّرِ في عَمْرَةَ وحَمَلِي على المسلمين القَتـالا
فيـارب لا أُعْبِنُ بيعتي وقد بيعت أهلي ومالي ابتـانالا

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما عُبِنْتَ بِيَعَتِكَ يَا ضِرَارُ » (١) .

ويذكر أن رسول الله ﷺ كتب لبني أسد كتاباً فيه : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ إِلَى بَنِي أَسَدٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ فَإِنِّي أُحَمَّدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَا بَعْدُ ؛ فَلَاتَقْرُبُنَّ مِيَاءَ طَيِّبٍ وَأَرْضَهُمْ فَإِنَّهُ لَا تَحِلُّ لَكُمْ مِيَاهَهُمْ وَلَا يَلِجُنَّ أَرْضَهُمْ إِلَّا مَنْ أَدْلَجُوا ، وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ بَرِيئةٌ مِمَّنْ عَصَاةٌ وَلِيَقُمَ قَضَاعِي بَنِ عَمْرٍو . » وكتب خالد بن سعيد ، وقضاعي بن عمرو من بني عُذرة وكان عاملاً عليهم (٢) .

سرية الضحاك بن سفيان رضي الله عنه إلى بني كلاب :

بعث رسول الله ﷺ الضحاك بن سفيان الكلابي ، رضي الله عنه ، في جيش إلى القرطاء (٣) ، في شهر ربيع الأول سنة تسع للهجرة ، ليدعوهم إلى الإسلام ، ومعه الأسيدي بن سلمة بن قُرط ، فلقومهم بالزُجْ زَجْ لآوة (٤) ، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا ، فقاتلهم فهزموهم ، ولحق الأسيدي أباه سلمة ، وسلمة على فرس له في غدير بالزُجْ ، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان ، فسبّه وسبّ دينه ، فضرب الأسيدي عرقوبي فرس أبيه فوق ، فأمسك أباه إلى أن جاءه أحد المسلمين فقتله ولم يقتله ابنه . (انظر : مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة : رمضان ٨ هـ - ربيع الآخر ٩ هـ) .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ كتب إليهم كتاباً يدعوهم إلى الإسلام ، وبعث به مع عبد الله بن عوسجة العزبي ، فأخذوا الكتاب ففسلوا الخط منه ورقعوا به دلوهم ، وأبوا أن ينقادوا للإسلام ، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال : « مَالَهُمْ ؟ أَذْهَبَ اللَّهُ عَقُولَهُمْ » ، فصاروا أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط. وأهل سقه (٥) .

وفد بليي :

وقدم على رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول سنة تسع للهجرة وفد بليي ، وهم حي من قضاة ، فيهم أبو الضبيبي ، فأنزلهم رُوَيْفِعَ بن ثابت البلوي ، رضي الله عنه ، في منزله ببني جديلة ، ثم قدم بهم على رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه في بيته بالغداة ، فقال له : هؤلاء قومي ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَرَحِباً بِكَ وَبِقَوْمِكَ » فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيبي فجلس بين يدي رسول الله ﷺ فتكلم وأسلم القوم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ ، وَكُلُّ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ فِي النَّارِ » .

وقال له أبو الضبيبي : يا رسول الله ! إن لي رغبة في الضيافة ، فهل لي في ذلك أجر ؟ قال : « نَعَمْ ، وَكُلُّ مَعْرُوفٍ صَنَعْتَهُ إِلَى عَنِيٍّ أَوْ فَتِيرٍ فَهُوَ صَدَقَةٌ » ، قال : يا رسول الله ! ما وقت الضيافة ؟ قال : « ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، فَإِذَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ ، وَلَا يَحِلُّ لِلضَّبِيْبِ أَنْ يَقِيمَ عِنْدَكَ فَيُخْرِجَكَ » ، قال : يا رسول الله ! رأيت الضالّة من الغنم أجدتها في الفلاة من الأرض ؟ قال : « لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذَّبِّيِّ » ، قال : فالبعير ؟ قال : « مَالِكَ وَلَهُ ؟ دَعُهُ حَتَّى يَجِدَهُ صَاحِبَهُ » .

(١) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٢٠/٣) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٦٩/١) .

(٣) هم بطن من بني بكر واسمه عبید بن كلاب . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٤٩٧/٣) .

(٤) زَجْ لآوة : مَوْضِعٌ تَجْدِيٌّ (معجم البلدان) ج ٣٧٨/٤ .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٨٠/١) ، و (ج ١٦٢/٢) ، ومغازي الواقدي (ج ٩٨٢/٣) .

قال رُوَيْفِعُ : ثم قاموا فرجعوا إلى منزلي ، فإذا رسول الله ﷺ يأتي منزلي يحمل تمراً ، فقال : « اسْتَعْنُ بِهَذَا التَّمْرِ » ، فكانوا يأكلون منه ومن غيره ، فأقاموا ثلاثاً ، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ يودِّعونه ، فأمرهم بجوائز كما كان يُجيز مَنْ كان قبلهم ، ثم رجعوا إلى بلادهم .

ويذكر أن رسول الله ﷺ كتب لبني جَعِيلٍ من بَلِيٍّ أنهم رهط من قريش ، ثم من بني عبد مناف ، لهم مثل الذي لهم وعليهم مثل الذي عليهم ، وأنهم لا يُخْشَرُونَ ولا يُعْشَرُونَ^(١) ، وأن لهم ما أساموا عليه من أموالهم ، وأن لهم سِعَايَةَ^(٢) نَصْرٍ وسعد بن بكر وثبالة وهذيل ، وبايع رسول الله ﷺ على ذلك عاصم بن أبي صَيْفِيٍّ ، وعمرو بن أبي صَيْفِيٍّ ، والأعْجَمُ بن سفيان ، وعلي بن سعد . وشهد على ذلك العباس بن عبد المطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو سفيان بن حرب . قيل : وإنما جعل الشهود من بني عبد مناف لأنهم حلفاؤهم^(٣) .

سِرِّيَّةُ عَلْقَمَةَ بْنِ مُجَزَّرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

وسببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة تراهم أهل جَدَّةٍ قد اجتمعوا بالقرب من سواحلها ، فبعث إليهم عَلْقَمَةَ بن مُجَزَّرٍ المَدْلِجِيَّ ، رضي الله عنه ، في شهر ربيع الآخر سنة تسع للهجرة ، في ثلاثمائة ، فحاض بهم البحر حتى أتوا إلى جزيرة ، فلما سموا بسير المسلمين إليهم هربوا . (انظر : مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة : رمضان ٨ هـ - ربيع الآخر ٩ هـ) .

فلما رجع عَلْقَمَةُ هو وأصحابه ولم يلقوا كيداً ، تعجَّلت طائفة من الجيش إلى أهلهم ، فأذن لهم علقمة وأمر عليهم عبد الله بن خَدَافَةَ السُّهْمِيَّ ، وكانت فيه دُعَابَةٌ ، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يَصْطَلُونَ^(٤) عليها ويصطنعون ، فقال لهم عبد الله : أليس لي عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى ، قال : أفأنا أمركم بشيء إلا فعلتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلا توائبتم في هذه النار ! فقام بعض القوم فاحتجَزُوا^(٥) ، حتى ظنَّ أنهم واثبون فيها ، فقال لهم : اجلسوا ، وإنما كنت أضحك معكم ! فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « مَنْ أَمَرَكَم بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَطِيعُوهُ »^(٦) .

روى البخاري بسنده عن عليٍّ ، رضي الله عنه ، قال : بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه ، فغضب فقال : أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لي حطباً ، فجمعوا ، فقال : أوقدوا ناراً ، فأوقدوها ، فقال : ادخلوها ، فهمَّوا وجعل بعضهم يسك بعضاً ويقولون : فررنا إلى النبي ﷺ من النار ، فما زالوا حتى خمدت النار ، فسكن غضبه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(٧) ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ^(٨) .

سِرِّيَّةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْفُلُسِّ وَإِسْلَامِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ :

بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، إلى الفلُسِّ صنم طييء ليهدمه في شهر ربيع الآخر سنة تسع للهجرة ، في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً ، ومعه راية سوداء ولواء أبيض ، فشَنُوا الغارة على مَحَلَّةِ آلِ حَاتِمٍ مع الفجر ، فهدموا الفلُسَّ وخرَّبوه ، وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء ، وفي السبي سَفَانَةَ أخت عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ، وهرب عدي إلى

(١) قال ابن سعد : « لَا يُخْشَرُونَ » يعني من ماءٍ إلى ماءٍ ، « وَلَا يُعْشَرُونَ » يقول : في السنة إلا مرة .

(٢) السِعَايَةُ : الصَّدَقَةُ .

(٣) انظر : عيون الأثر (ج ٢٥٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧٠/١) .

(٤) أي يستدفنون بها ، وقد تقدّم .

(٥) اِحْتَجَزُوا بِالْإِزَارِ : شَدَّةٌ عَلَى وَسْطِهِ (الوسيط : ج ١٥٨/١) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٧/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٣/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٦٧/٣) .

(٧) قيل : المقصود من ذلك الزجر . انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٠٥/٣) .

(٨) صحيح البخاري (ج ٢٠٣/٥) كتاب المغازي - باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة .

الشام ، ووجد في خزانة الفُلس ثلاثة أسياف : رَسُوب والمِخْدَم وسيف يقال له الباني ، وثلاثة أدرع ، فلما نزلوا زَكَا(١) اقتسموا الغنائم بعد أن أخرجوا الحس ، وعزلوا للنبي ﷺ صَفِيًّا : رَسُوباً والمِخْدَم ، ثم صار له بعد السيف الآخر ، وعزلوا آل حاتم فلم يقسموه (٢) . (انظر : مصورسرايا تحطيم الأصنام) .

فلما قدموا المدينة من رسول الله ﷺ على أخت عدي بن حاتم ، فأطلقها ، فكان ذلك سبباً في إسلام أخيها عدي (٣) .

يحدثنا عدي بن حاتم عن قصة إسلامه ، كما رواها عنه ابن إسحاق وغيره ، فيقول : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني ، أما أنا فكنت امرأة شريفاً ، وكنت نصرانياً ، وكنت أسير في قومي بالمزبأع (٤) ، فكنت في نفسي على دين ، وكنت ملكاً في قومي لما كان يُصنع بي ، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته ، فقلت لغلام كان لي عربي وكان راعياً لإبلي : لا أبا لك ، أعيد لي من إبلي أجمالاً ذللاً سماناً فاحتبسها قريباً مني ، فإذا سمعت بجيش لعمد قد وطئ هذه البلاد فأذني ، ففعل ، ثم إنه أتاني ذات غداة ، فقال : يا عدي ! ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت رايات ، فسألت عنها فقالوا : هذه جيوش محمد ، فقلت : فقرب إلي أجمالي ، فقرّبها ، فاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : ألق بأهل ديني من النصرى بالشام ، فسلكت الجُوشية (٥) ، وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضر ، فلما قدمت الشام أقت بها ، وتخالفتني خيل لرسول الله ﷺ (٦) فتصيب ابنة حاتم فين أصابت ، فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طييء ، وقد بلغ رسول الله ﷺ هربي إلى الشام ، فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا تحبس فيها ، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت إليه ، وكانت امرأة جَزَلَة (٧) ، فقالت : يا محمد ! إن رأيت أن تخلي عتاً ولا تشمت بنا أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي ، وإن أبي كان يجمي الذمار (٨) ، ويفك العاني ، ويشيع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقرى الصيف ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولا يردّ طالب حاجة قط أنا ابنة حاتم طييء ، فقال النبي ﷺ : « يا جارية ! هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » . فقال أبو بريدة بن نيار رضي الله عنه : يا رسول الله ! الله ، عز وجل ، يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق » ، فدعت له سفانة فقالت : شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعرفتك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً لردّها عليه .

وفي رواية : أنها قالت : يا رسول الله ! هلك الوالد وغاب الوافد ، وأنا عجوز كبيرة ، ما بي من خدمة ، فامنن علي من الله عليك ، قال : « ومن وافدك ؟ » قالت : عدي بن حاتم ، قال : « الفأر من الله ورسوله ؟ » قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركتني ، حتى إذا كان من الغد مرّ بي ، فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ما قال بالأس ، قالت : حتى إذا كان بعد الغد مرّ بي وقد يئست منه ، فأشار إلي علي بن أبي طالب من خلفه : أن قومي فكلميه ، قالت : فقمتم إليه فكلمته ، فقال رسول الله ﷺ : « قد فعلت فلا تعجلني بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلّغك إلى بلادك ، ثم أذيني » .

قال عدي : وأقامت حتى قدم ركب من بلي أو قضاة ، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ! قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ ، قالت : فكساني رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقه ، فخرجت حتى قدمت الشام ، قال عدي : فوالله إني

(١) زَكَا : مَحَلَّةٌ مِنْ مَحَالِّ سَلْمَى ، أَحَدِ جَبَلَيْ طَيِّءٍ (معجم البلدان ج ٢٧٧/٤) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٤/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٥٢/٢) ، والروض الأتف (ج ٢٢٧/٤) .

(٣) ذكر ابن حجر في الإصابة (ج ٤٦٨/٢) أنه أسلم في سنة تسع ، وقيل : سنة عشر .

(٤) المِزْبَاعُ : رُبْعٌ مِنَ النَّبْتِ الَّذِي كَانَ يَأْخُذُهُ الرَّئِيسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ (النهاية ج ١٨٦/٢) .

(٥) الجُوشِيَّةُ : مَوْضِعٌ بَيْنَ نَجْدِ وَالشَّامِ (معجم البلدان ج ١٧١/٣) .

(٦) يُقَالُ : خَالَفَ إِلَى الشَّيْءِ : أَنَاهُ مِنْ خَلْفِهِ (الوسيط ج ٢٥٠/١) . أي أن الخيل أتت بعد أن هرب وخلف أخته .

(٧) أي : ذات كلام جَزَلٍ ، أي : قويّ شديد (النهاية ج ٢٧٠/١) .

(٨) الذَّمَارُ : مَا يُتَّبَعُ حَيَاتُهُ وَالذُّوْدُ عَتَةٌ ، كَالْأَهْلِ وَالْعُرْضِ .

لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة تؤمنا^(١)، فقلت: ابنة حاتم؟ فإذا هي هي، فلما وقفت عليّ أسحكت^(٢) تقول: القاطع الظالم، احتملت بأهلك وولدت وتركت بقيّة والدك عورتك، فقلت: أيّ أختيّة! لا تقولي إلاّ خيراً، فوالله مالي من عذر، لقد صنعت ما ذكرت.

ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تدلّ في عزّ الجن وأنت أنت - وفي رواية قالت: ائته راغباً أو راهباً - فقلت: والله إن هذا للرأيّ.

قال: فخرجت حتى جئت رسول الله ﷺ بالمدينة، بغير أمان ولا كتاب، فدخلت عليه وهو جالس في المسجد فقال القوم: هذا عدي بن حاتم، فلما دفعته إليه قام رسول الله ﷺ فأخذ بيدي - وكان قد قال قبل ذلك: «إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي» - وانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوففته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك، قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفاً، فقدونها إليّ، فقال: «اجلس على هذه»، قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «بل أنت»، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، وقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال لي: «يا عدي بن حاتم! ما أفرّك أن يقال لا إله إلاّ الله؟ فهل من إله إلاّ الله؟ ما أفرّك أن يقال الله أكبر، فهل من شيء أكبر من الله عزّ وجلّ؟» فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر.

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا عدي بن حاتم! أسلم تسلم» قالها ثلاثاً، قال عدي: فقلت: وما الإسلام؟ فقال: «تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، وتؤمن بالأقدار كلها خيرها وشرها، خلوها ومرها»، قلت: فإني على دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك»، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت: بلى، قال: «فإن هذا لا يحلّ لك في دينك»، فقلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل - وفي رواية: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، وكان ذلك أذهب بعض ما في نفسي - ثم قال: «لعلك يا عدي إننا يمتنعك من دخول في هذا الدّين ما ترى من حاجتهم، فوالله كيوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إننا يمتنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله كيوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف - وفي رواية: قال: «يا عدي! هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد أنبت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لترين الطعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلاّ الله»، فقلت في نفسي: أين دعار طييء الذين قد سعروا البلاد؟ - قال: «ولعلك إننا يمتنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله كيوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم»، قال: فأسلمت - وفي رواية قال: «ولئن طالت بك حياة لتفتحنّ كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً قبيلك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلاّ جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلاّ جهنم فاتقوا النار ولو بشقة تمر، فمن لم يجد شقة تمر فيكلمة طيبة - وكان عدي يقول بعد ذلك: قد مضت اثنتان وقيمت الثالثة، والله لتكونن، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وكنت حين افتتحها، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف إلاّ الله حتى تحجّ هذا البيت، وإيم الله لتكونن الثالثة، كيفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.

وأقام عدي بن حاتم في المدينة أياماً، كان يأتي فيها النبي ﷺ طرفي النهار يتعلم الصلاة وأمور الإسلام، فلما انصرف إلى بلاده

(١) أي تقصّدا . انظر: (النهاية: ج ٦٩/١).

(٢) سحلت بلسانيه: شتمه، ومينة قيل للسان مسحلت (لسان العرب: ج ١٩٥٧/٣).

استعمله رسول الله ﷺ على صدقات قومه ، وقد فشا فيهم الإسلام ، فأقام فيهم يدعوهم ويعلمهم حتى دخلوا جميعاً في الإسلام^(١) .
 روى مسلم بسنده عن عدي بن حاتم ، رضي الله عنه ، قال : أتيت عمر بن الخطاب فقال لي : إن أول صدقة بيّضت وجه رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه صدقة طيبىء ، جئت بها إلى رسول الله ﷺ^(٢) .
وفد طيبىء :

قدم على رسول الله ﷺ وفد طيبىء خمسة عشر رجلاً ، فيهم قبيصة بن الأسود ، وقعين بن خليف ، ورجل من بني بؤلان ، ورأسهم وسيدهم زيد الخيل^(٣) بن مهلهل من بني نبهان ، وكان شاعراً خطيباً ، بليغاً جواداً ، فدخلوا المدينة ورسول الله ﷺ في المسجد ، فعمدوا وواحلهم بفناء المسجد ، ثم دخلوا فدنوا من رسول الله ﷺ ، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ لزيد وهو لا يعرفه : « الحمد لله الذي أتى بك من سهلك وحزرك ، وسهل قلبك للإيمان » ، ثم قبض على يده فقال : « من أنت ؟ » فقال : أنا زيد الخيل بن مهلهل ، فقال له : « بل أنت زيد الخير ، ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتة دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه » . وأجاز رسول الله ﷺ كل رجل منهم بخمس أواق فضة ، وأعطى زيد الخيل اثنتي عشرة أوقية ونشأ ، وأقطعه قيّد^(٤) وأرضين معه ، وكتب له بذلك كتاباً . ولما خرج من عند رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه قال النبي ﷺ : « إن يتنج زيد من حمى المدينة فإنه » ، فلما انتهى إلى موضع يقال له الفرذة^(٥) أصابته الحمى به فمات ، فعمدت امرأته إلى كل ما كان رسول الله ﷺ كتب له فحرقته بالنار^(٦) .

وذكر أن رسول الله ﷺ كتب لبني معاوية بن جزول ولبني جوين ولبني معن الطائفتين أنهم آمنون بأمان الله ورسوله ، وأن لهم ما أسلموا عليه من بلادهم ومياهم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا الله ورسوله ، وفارقوا المشركين ، وأعطوا من المعام خمس الله وسهم النبي ﷺ^(٧) .

وفد بجيلة وأحمس^(٨) :

قدم جرير بن عبد الله البجلي المدينة ومعه من قومه مائة وخمسون رجلاً ، فلما دنا من المدينة عرض له رسول الله ﷺ في خطبته ، فقال : « يطلع عليكم من هذا الفج^(٩) من خير ذي يمن ، على وجهه مسحة مئلك » ، فبقي الناس كل رجل يرجو أن يكون من أهل بيته ، فإذا هم بجرير قد طلع من الثنية على راحلته ومعه قومه ، قال جرير : فأنخت راحلي ، ثم حللت عييتي^(١٠) ، ثم لبست خاتي ، ثم دخلت ، فإذا رسول الله ﷺ يخطب ، فرماني الناس بالحدق ، فقلت لجليسي : يا عبد الله ! ذكرني رسول الله ﷺ ؟ قال :

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٦/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٣٩/٤) كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٥٧/٤ ، ٢٧٨) ، وسنن الترمذي (ج ٢٠٢/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة فاتحة الكتاب ح ٢٩٥٣ ، وسنن ابن ماجه (ج ٢٤/١) المقدمة - باب في القدر ح ٨٧ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٤١/٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٥٢٣) .

(٢) صحيح مسلم (ج ١٩٥٧/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل غفار وأسلم و .. ح ١٩٦ .

(٣) ذكر ابن حجر في الإصابة (ج ٥٧٢/١) أنه وفد سنة تسع للهجرة ، أما الطبري فذكر في تاريخه (ج ١٤٥/٣) أنه قدم في السنة العاشرة .

(٤) قيّد : بليدة في نصف طريق مكة . وقد تقدم .

(٥) الفرذة : جبل في ديار طيبىء ، وقيل : ماء في ديار طيبىء (معجم البلدان : ج ٣٥٧/٦) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٥/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٧/١) ، والروض الأنف (ج ٢٢٧/٤) .

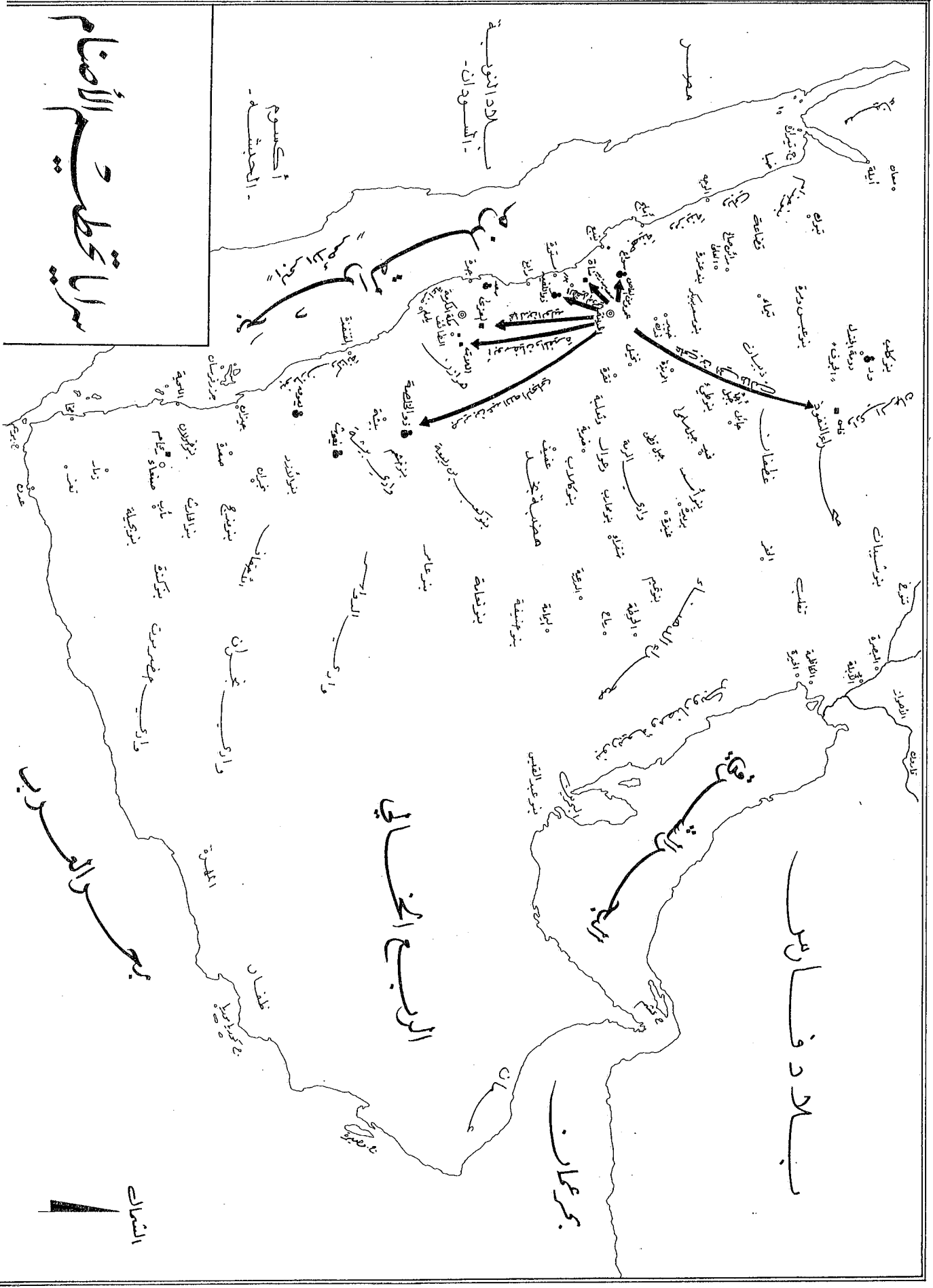
(٧) طبقات ابن سعد (ج ٢٦٩/١) .

(٨) ذكر ابن سعد في الطبقات (ج ٢٤٧/١) أنهم قدموا سنة عشر للهجرة ، ورد ابن حجر في الإصابة (ج ٢٣٢/١) هذا القول بالأدلة ، ورجح قدمهم

قبل وفاة النجاشي في رجب سنة تسع للهجرة .

(٩) الفج : الطريق الواسع (الوسيط : ج ٦٨١/٢) .

(١٠) العيئة : مستودع الثياب (النهاية : ج ٢٢٧/٣) .



سرايا تحط في الأضواء

ألكسوس -
الحبيشة -

الاد المنوية -
السودان -

الربيع الخفاني

بلاد فارس

بحر عمان

الشمال

بحر العرب

نعم ، ذكرك آنفاً بأحسن ذكر ، فأخبره ما قال . قال جرير : فحمدت الله ، عز وجل ، على ما أبلاني ، ثم جئت حتى سلّمت على النبي ﷺ وعلى أصحابه ، فبسط رسول الله ﷺ عرض رداؤه وقال : « على هذا يا جرير فاقعد » والتفت إلى أصحابه فقال : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرّموه » ، ثم أسلم جرير هو وقومه وبايعوا على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والسمع والطاعة ، والنصح لكل مسلم^(١) .

ويقال : إن جريراً بايعه على الهجرة ، فعن جرير قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ! أبايعك على الهجرة ، فبايعني رسول الله ﷺ ، واشترط عليّ : والنصح لكل مسلم ، فبايعته على هذا^(٢) .

قال جرير : فما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت ، ولا رأيتني إلا تبسم في وجهي^(٣) .

وقدم قيس بن عزة الأحمسيّ في مائتين وخمسين رجلاً من أحمس ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « من أنتم ؟ » فقالوا : نحن أحمس الله - وكان يقال لهم ذاك في الجاهلية - فقال لهم رسول الله ﷺ : « وأنتم اليوم لله » ، وقال رسول الله ﷺ لبلال : « أعط ركب بجيلة وأبدأ بالأحمسيين » ففعل .

وكان نزول جرير على فرّوة بن عمرو البياضيّ ، وكان رسول الله ﷺ يسأله عما وراءه ، فقال : يا رسول الله ! قد أظهر الله الإسلام ، وأظهر الأذان في مساجدهم وساحاتهم ، وهدمت القبائل أصنامها التي كانت تعبد ، قال : « فما فعل ذو الخلصة ؟ » قال : هو على حاله قد بقي ، والله مريح منه إن شاء الله^(٤) .

هدم ذي الخلصة :

وكان ذو الخلصة بيت باليمن يدّوس وخشم وبجيلة ومن كان بلادهم من العرب بتبالة ، فيه نصب تعبد ، يقال له الكعبة اليمانية والكعبة الشامية^(٥) ، فقال رسول الله ﷺ لجرير : « ألا تريجيني من ذي الخلصة ؟ » فقال : بلى ، فعقد له رسول الله ﷺ لواء ، فانطلق في خمسين ومائة فارس من أحمس ، وكانوا أصحاب خيل ، قال جرير : وكنت لا أثبت على الخيل ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال : « اللهم ! ثبته واجعله هادياً مهدياً » ، قال : فما وقعت عن فرس بعد .

فلما قدم جرير اليمن أتاه فجرّقتها بالنار وكسرها ، وقتل من صده عنها ، ثم بعث إلى النبي ﷺ رجلاً من أحمس ، يقال له أبو أرطاة حصين بن ربيعة ، يبشّره بهدما ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق ماجئت حتى تركتها كأنها جبل أجرب ، فبرك النبي ﷺ على خيل أحمس ورجلها خمس مرات ، ومالبت جرير ، رضي الله عنه ، أن رجع ، فدعا له رسول الله ﷺ ولأحمس^(٦) . (انظر : سرايا تحطيم الأصنام) .

ثم بعث رسول الله ﷺ جريراً إلى ذي الكلاع بن ناكور وإلى ذي عمرو يدعوها إلى الإسلام ، ويقال إلى ذي ظليم ، فأسلم ، وأسلمت امرأة ذي الكلاع ، وتوفّي رسول الله ﷺ وجرير عندهم^(٧) .

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤٧/١) ، وصحيح البخاري (ج ٩٤/٣) كتاب البيوع - باب هل يبيع حاضر لباد ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٥٩/٤) ،

ومجمع الزوائد (ج ٣٧٢/٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٤٧/٥) .

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٧٢/٩) وقال : رواه الطبراني بطرق ورجال بعضها رجال الصحيح .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٩/٤) كتاب الجهاد والسير - باب من لا يثبت على الخيل .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤٧/١) .

(٥) قيل : ستموه بذلك مضاهاة للكعبة ، وكان يقال له الكعبة اليمانية باعتبار كونه باليمن ، والشامية باعتبار أنهم جعلوا بابه مقابل الشام . انظر : فتح الباري (ج ٧١/٨) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٩١/١) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٨/٥ ، ٢٠٩) كتاب المغازي - باب غزوة ذي الخلصة ، ومجمع الزوائد (ج ٢٨٩/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٧/١) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٦٥/١) ، وكنز العمال (ج ٥٩١/١٠) .

وفد خثعم :

وبعد ما هدم جريز بن عبد الله ، رضي الله عنه ، ذا الخَلَصَة وقتل من قتل من خثعم ، قدم على رسول الله ﷺ وفد منهم ، فيهم أنس بن مذكّر ، وحصين بن مُشتم فقالوا : أماناً بالله ورسوله وما جاء من عند الله ، وبايعوه ببيعة الإسلام ، ثم قالوا له : اكتب لنا كتاباً تتبع ما فيه ، فكتب لهم كتاباً شهد فيه جريز ومن حضر (١) .

وفاة النجاشي :

وفي رجب من السنة التاسعة للهجرة توفي أصحمة النجاشي ملك الحبشة ، فنعاه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وخرج بهم فصلّى عليه صلاة الغائب (٢) .



هجر النبي ﷺ أزواجه :

وفي السنة التاسعة للهجرة وقبل غزوة تبوك هجر رسول الله ﷺ أزواجه وإلى منهن شهر (٣) ، فاعتزل عنهن في مشربة (٤) له ، فلما مضى تسع وعشرون أتاه جبريل ، عليه السلام ، فقال له : قد برت بينك وقد تم الشهر ، وأمره الله ، عز وجل ، بتخيير أزواجه بقوله جل وعلا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تَرْضُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِزْقَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرْضُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٥) . فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، فشكر الله لمن ذلك وأنزل على نبيه ﷺ : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْنَيْتُكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتُ يَمِينُكَ ﴾ (٦) .

وقد اختلف في السبب الذي هجر لأجله رسول الله ﷺ نساءه ، ففي صحيح البخاري عن عائشة ، رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب ابنة جحش ويشرب عندها عسلاً ، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغاير (٧) ، أكلت مغاير ؟ (وكان رسول الله ﷺ يشد عليه أن توجد منه الريح) - فدخل على إحداها فقالت له ذلك ، فقال : « لا ، بل شربت عسلاً عند زينب ابنة جحش ولن أعود له » ، فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ﴾ إلى ﴿ إِنَّ تَوْباً إِلَى اللَّهِ ﴾ لعائشة وحفصة ، ﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ ﴾ (٨) لقوله : « بَلْ شَرِبْتُ عَسلاً » (٩) .

وعنها أيضاً قالت : أهدى لي لحم ، فأمرني رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، أن أهدى منه لزينب ، فأهديت لها فردته ،

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١/٣٤٨) ، وكنز العمال (ج ١٠/٦٢٥) .

(٢) راجع خبر وفاته في أحداث السنة السابعة عند ذكر كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة .

(٣) ورد في رواية للبخاري لهذا الخبر أن الصحابة كانوا يتخوفون ملكاً من ملوك غسان ذكر لهم أنه يعد لغزوم ، وكان ذلك الإعداد والتهيؤ سبباً لغزوة تبوك ، مما يدل على أن هجر النبي ﷺ لأزواجه كان قبل غزوة تبوك . انظر : صحيح البخاري (ج ٣/٣٦٧) كتاب النكاح - باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها .

(٤) المشربة : العرقة ، وقيل : هي كالصفة بين يدي العرقة (لسان العرب : ج ٣/٢٢٢٣) .

(٥) الأحزاب : ٢٨ - ٢٩ .

(٦) الأحزاب : ٥٢ . وانظر : مسند الإمام أحمد (ج ١/٢٣٥) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٧/٥٣) .

(٧) المغاير : صنع يسيل من شجر العرقة ، حلو غير أن رائحته ليست بطيبة (لسان العرب : ج ٤/٣٢٧٥) .

(٨) التحريم : ٣ .

(٩) صحيح البخاري (ج ٧/٥٦٧) كتاب الطلاق - باب لم تحرم ما أحل الله لك .

فقال : « زِيدِيهَا » ، فزديتها فردته ، فقال : « أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا زِدْتِيهَا » ، فزديتها فردته ، فدخلتني غَيْرَةً ، فقلت : لقد أهانتك ، فقال : « أَنْتِ وَهِيَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَهِينَنِي مِنْكَ أَحَدٌ ، أُقْسِمُ لَا أُدْخِلُ عَلَيْكَ شَهْرًا » (١) .

وعن أنس ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ إلى آخر الآية (٢) .

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : كانت حفصة وعائشة ، رضي الله عنهما ، متحابتين وكانتا زوجتي النبي ﷺ ، فذهبت حفصة إلى أبيها تتحدث عنده ، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته فطلعت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة ، رضي الله عنها ، فرجعت حفصة فوجدتها في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها وغارت غَيْرَةً شديدة ، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته ، ودخلت حفصة فقالت : قد رأيت من كان عندك ، والله لقد سؤتني ، فقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ لَأَرْضِيَنَّكَ ، وَإِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فَاحْفَظِيهِ » فقال : « إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنْ سَرَّيْتِي هَذِهِ عَلَيَّ حَرَامٌ رِضًا لَكَ » . وكانت حفصة وعائشة تطاهرتا على نساء النبي ﷺ ، فانطلقت حفصة فأسرت إليها سراً وهو أن أشري أن يحدتني رسول الله ﷺ قد حرّم عليه فئاته ، فلما أخبرت بسر النبي ﷺ أظهر الله النبي ﷺ عليه ، فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إلى آخر الآية (٣) .

وعن جابر ، رضي الله عنه ، قال : تركنا رسول الله يوماً وليلة لم يخرج إلى الصلاة فأخذنا ما تقدم وما تأخر ، فاجتمعنا بيابه نتكلم ليسمع كلامنا ويعلم مكاننا ، فأطلقنا الوقوف ، فلم ياذن لنا ولم يخرج إلينا ، قال : فقلنا : قد علم رسول الله مكانكم ولو أراد أن ياذن لكم لأذن ، ففتفرقوا لا تؤذوه ، فتفرق الناس غير عمر بن الخطاب ينتحج ويتكلم ويستأذن حتى أذن له رسول الله . قال عمر : فدخلت عليه وهو واضع يده على خده أعرف به الكفاية ، فقلت : أي نبي الله ! بأي أنت وأمي ما الذي راكب ؟ وما لقي الناس بعدك من قديم لرؤيتك ! فقال : « يَا عَمْرُؤُ ! يَسْأَلُنِي أَوْلَاءَ مَا لَيْسَ عِنْدِي » - يعني نساءه - « فذالك الذي بَلَغَ مِنِّي مَا تَرَى » ، فقلت : يانبي الله ! قد صككت (٤) جميلة بنت ثابت صكة ألصقت خدها منها بالأرض ، لأنها سألتني ما لا أقدر عليه ، وأنت يا رسول الله على موعد من ربك ، وهو جاعل بعد العسر يسراً ، قال : فلم أزل أكلمه حتى رأيت رسول الله قد تحلّل عنه بعض ذلك ، قال : فخرجت فلقيت أبا بكر الصديق فحدثته الحديث ، فدخل أبو بكر على عائشة فقال : قد علمت أن رسول الله لا يدخر عنكن شيئاً فلا تسألنه ما لا يجد ، انظري حاجتك فاطلبها إليّ ، وانطلق عمر إلى حفصة فذكر لها مثل ذلك ، ثم أتبعها أمهات المؤمنين فجعلوا يذكران هن مثل ذلك ، حتى دخلا على أم سلمة فذكرتا لها مثل ذلك ، فقالت لهما أم سلمة : مالكما ولما هاهنا ؟ رسول الله ﷺ أعلى بأمرنا عيناً ولو أراد أن ينهانا لنهاننا ، فمن نسأل إذا لم نسأل رسول الله ؟ هل يدخل بينكما وبين أهليكما أحد ؟ فما نكلفكما هذا ، فخرجا من عندها ، فقال أزواج النبي ﷺ لأم سلمة : جزاك الله خيراً حين فعلت ما فعلت ، وما قدرنا أن نردّ عليها شيئاً (٥) .

وفما يلي تفصيل قصة هجر النبي ﷺ أزواجه كما رواها عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قال : كنت أنا وجاري من الأنصار في بني أمية بن زيد ، وهم من عوالي المدينة ، وكنا تتناوب النزول على النبي ﷺ فينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك ، وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فظفقت نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، فصخب على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني ، قالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ، فأفزعتني ذلك وقلت لها : قد خاب من فعل ذلك منهن ، ثم جمعت عليّ ثيابي ، فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها : أي حفصة ! أتغاضب إحداكن النبي ﷺ اليوم حتى الليل ؟

(١) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٠٢/٤) وقال : هنا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٤٩٢/٢) وقال : هنا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٣) السنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٥٢/٧) .

(٤) صَكَّةٌ : ضَرْبَةٌ ، وَصَكَّتْ وَجْهَهَا : لَطَمَتْهُ (الوسيط : ج ٥٢١/١) .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ١٧٩/٨) .

قالت : نعم ، فقلت : قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكي ؟ لا تستكثري النبي ﷺ ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه ، وسليني ما بدا لك ، ولا يعزتك أن كانت جارتك أوضاً منك وأحب إلى النبي ﷺ يريد عائشة . قال : ثم خرجت حتى دخلت على أم سامة لقرابتي منها ، فكلمتها فقالت : عجبا لك يا ابن الخطاب ، دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ؟ فأخذتني والله أخذاً كسررتني عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها ، وندمت على كلامي لنساء النبي ﷺ .

قال عمر : وكنا قد تحدثنا أن غسان تُنعل الخيل لغزونا^(١) ، فنزل صاحبي الأنصاري يوم تَوَبَّته ، فرجع إلينا عشاء ، فضرب بايي ضرباً شديداً وقال : أتم هو ؟ ففزعته فخرجت إليه ، فقال : قد حدث اليوم أمر عظيم ، قلت : ما هو ؟ آجاء غسان ؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأهول ، طلق النبي ﷺ نساءه ! فقلت : خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون ، فجمعت علي ثيابي ، فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ ، فدخل النبي ﷺ مشربة له فاعتزل فيها ، ودخلت على حفصة فإذا هي تبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟ ألم أكن حدرتك هذا ، أطلقكن النبي ﷺ ؟ قالت : لأدري ، ها هو ذا معتزل في المشربة - وفي رواية : قال : فدخلت على عائشة فقلت : يا بنت أبي بكر ! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ ؟ فقالت : مالي ولك يا ابن الخطاب ؟ عليك بعينيك^(٢) ، فدخلت على حفصة فقلت لها : يا حفصة ! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ ؟ والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ ، فبكت أشد البكاء - قال : فخرجت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم ، فجلست معهم قليلاً ، ثم غلبي ما أجد ، فجئت المشربة التي فيها النبي ﷺ ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعداً على أسكفة المشربة مدلل رجليه على تقير من خشب ، وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر ، فناديت : يا رباح ! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ ، فدخل ، فكلم النبي ﷺ ، ثم رجع فقال : كلمت النبي ﷺ وذكرتك له فصمت ، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر ، ثم غلبي ما أجد ، فجئت فقلت : يا رباح ! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ ، فدخل ثم رجع فقال : قد ذكرت لك له فصمت ، فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ، ثم غلبي ما أجد ، فجئت فقلت : يا رباح ! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ ، فإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أني جئت من أجل حفصة ، والله ! لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضرب عنقها ، ورفع صوتي ، فدخل ثم رجع إلي فقال : قد ذكرت لك له فصمت ، فلما وليت منصرفاً أوماً إلي رباح أن أرقه وقال : قد أذن لك النبي ﷺ ، فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير^(٣) ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من آدم حشوها ليف ، فسلمت عليه ، ثم قلت وأنا قائم : يا رسول الله ! أطلقت نساءك ؟ فرفع إلي بصره فقال : « لا » ، فقلت : الله أكبر ، ثم قلت وأنا قائم أستأنس : يا رسول الله ! لو رأيتني وكنا معاشر قریش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساءهم ، فتبسم النبي ﷺ ، ثم قلت : يا رسول الله ! لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لها : لا يعزتك أن كانت جارتك أوضاً منك وأحب إلى النبي ﷺ ، يريد عائشة ، فتبسم النبي ﷺ تبسمة أخرى ، فجلست حين رأيته تبسم ، فقلت : يا رسول الله ! إن كنت كرهت من حفصة شيئاً فطلقها فأنت والله أحب إلي من مالي وأهلي ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عمر ! لا يؤمن عبداً حتى أكون أحب إليه من نفسه » ، فقلت : والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي - وفي رواية : قال : ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب ، فقلت : يا رسول الله ! ما يشق عليك من شأن النساء ؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلنا تكلمت ، وأحمد الله ، بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول^(٤) ،

(١) أي يجعلون لخيولهم نعلاً لغزونا ، يعني يتهيأون لقتالنا . وقد تقدم .

(٢) أي اشتغل بأهلك ودغني (النهاية : ج ٢٢٧/٣) .

(٣) الرمال : ما رمل ، أي : نسج ، وقيل : الرمال جمع رمل بمعنى مرمول . والمراد أنه كان السير قد نسج وجهه بالسعف ، ولم يكن على السير وطاء سيوى الحصير (لسان العرب : ج ١٧٣٤/٣) .

(٤) روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر : وافقت الله في ثلاث ، أو وافقتي ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله ! لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى ، وقلت : يا رسول الله ! يدخل عليك البئر والفاجر فلو أمرت أمتهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني

ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَى رَبَّةٌ إِنْ طَلَّقَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ (١)، ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاةٌ وَجِبْرِيلُ وَمَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (٢). وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! أطلقتهم؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله! إني دخلت المسجد والمسلمون يَنْكُتُونَ بِالْحَصَى (٣)؛ يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهم؟ قال: «نعم إن شئت»، فلم أزل أخذته حتى تحسّر الغضب عن وجهه وحتى كثر فضحك، وكان من أحسن الناس ثغراً - قال عمر: فرفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت شيئاً يرده البصر غير أهبة (٤) ثلاثة، وإذا أنا بقبضة من شعر نحو الصاع ومثلها قرظاً (٥) في ناحية الغرفة، فقلت: يا رسول الله! ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارساً والروم قد وسّع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: «أو في هذا أنت يا ابن الخطاب! إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: يا رسول الله! استغفر لي - وفي رواية: فابتدرت عينا، فقال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقلت: يا نبي الله! ومالي لأبكي؟ وهذا الحصر قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك قيصر وكسرى في الثار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته، وهذه خزانتك، فقال: «يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟» قلت: بلى، فقال: «لا تبك يا عمر، فلو أشاء أن تسيّر الجبال ذهباً لسارت، ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح ذباب ما أعطى كافراً منها شيئاً» - قال عمر: ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلت أنشبت بالجذع، ونزل رسول الله ﷺ كما يمشي على الأرض ما يمسّه بيده، قال: واعتزل النبي ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة، وكان قال: «ما أنا بداخلٍ عليهنَّ شهراً» من شدة مؤجده عليهنَّ حين عاتبه الله.

فلما مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشة: يا رسول الله! إنك كنت قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدّها عدداً، فقال: «الشهر تسع وعشرون»، فكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة. قالت عائشة: ثم أنزل الله تعالى آية التخيير فبدأ بي أول امرأة من نساءه، فقال: «إني ذاكرك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمرني أبويك»، قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله جل ثناؤه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَرْضُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِضْنَهَا﴾ إلى ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾». قالت: فقلت: ففي أي هذا أستأمر أبوي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه كلهنَّ، فقلن مثل ما قالت عائشة (٦).

وجاء في روايات أخرى: أن عائشة، رضي الله عنها، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، فسّر بذلك النبي ﷺ وأعجبه وقال: «سأعرض على صواحيبك ما عرضت عليك»، قالت: فأسألك أن لا تخبرهن بالذي قلت، فقال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معتنساً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً» - وفي رواية أخرى

= معاتبه النبي ﷺ بعض نساءه فدخلت عليهن، قلت: إن انتهيتن أولئبدلان الله رسوله ﷺ خيراً منكن .. فأنزل الله: ﴿عَسَى رَبَّةٌ إِنْ طَلَّقَكَ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسَلِّمَاتٍ﴾. صحيح البخاري (ج ٢٤/٦) كتاب التفسير - سورة البقرة. وقد تقدم نحو هذا الخبر في غزوة بدر عند الحديث عن أمر الأسارى.

(١) التحريم: ٥.

(٢) التحريم: ٤.

(٣) أي يضربون به الأرض، فعل المفكر المموم (النهاية: ج ١١٢/٥).

(٤) الإهاب: الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدب، والجمع القليل: أهبة (لسان العرب: ج ١٦٢/١).

(٥) القرظ: ورق السلم يدب به. وقد تقدم.

(٦) انظر: صحيح البخاري (ج ١٤٧/٦، ١١٥) كتاب التفسير - سورة الأحزاب، سورة لم تحرم، و (ج ٢٦/٧) كتاب النكاح - باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، و (ج ٥٦/٧) كتاب الطلاق - باب لم تحرم ما أحل الله لك، و (ج ٢٤/٩) كتاب الحيل - باب ما يكره من احتيال المرأة على الزوج والضرائر، وصحيح مسلم (ج ١١٠/٢) كتاب الطلاق - باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخبيرهن ح ٣٠، وطبقات ابن سعد (ج ٤٦٦/١)، و (ج ١٨٧/٨).

قال : « بَلْ أُخْبِرُهُنَّ » - قالت عائشة : فكان يقول لهنّ كما قال لي ، ثم يقول : قد اختارت عائشة الله ورسوله والدار الآخرة ، قالت : ففعل أزواج النبي ﷺ جميعاً مثل ما فعلت (١) .

روي عن أبي رزّين قال : هم رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه ، فلما رأى ذلك جعله في حِلٍّ من أنفسهنّ يؤثر من يشاء على من يشاء ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ حتى بلغ : ﴿ تَرْجِيءُ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ (٢) .

قالت عائشة رضي الله عنها : فكان رسول الله ﷺ يستأذن في يوم المرأة منّا بعد أن أنزلت هذه الآية ، فقيل لها : ما كنت تقولين ؟ قالت : كنت أقول له : إن كان ذلك إليّ ، فيأني لأأريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً (٣) .

☆ ☆ ☆

-
- (١) انظر : صحيح مسلم (ج ١١٠٤/٢) . كتاب الطلاق - باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية ح ٢٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٨٥/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٩/٨) .
- (٢) الأحزاب : ٥٠ - ٥١ ، والخبر في طبقات ابن سعد (ج ١٩٦/٨) .
- (٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٤٧/٦) كتاب التفسير - سورة الأحزاب .

غزوة تبوك

تبوك موضع بين وادي القرى والشام ، بينه وبين المدينة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة ، وبينه وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة .

كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع للهجرة ، وهي آخر غزواته ﷺ ، وكان الوقت حين خروجه حرّاً شديداً وقحطاً شديداً ، مع قلة في الظهر وقلة في النفقة ، حتى كان الرجلان والثلاثة على بعير ، وحتى كانوا من شدة الحر ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء ، فسُميت غزوة العسرة مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوا فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ (١) ، أي : الشدة والضيق ، وذلك في الماء وفي الظهر وفي النفقة . ويقال لها الفاضحة لأنها أظهرت حال كثير من المنافقين بما نزل فيهم من الآيات الدالة على كذبهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ (٢) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَئِذْنُ لِي ﴾ (٣) ، وقوله جلّ وعلا : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَحْوَصُ وَنَلْعَبُ ﴾ (٤) .

سبب الغزوة :

اختلف في سبب هذه الغزوة ، فذكر بعضهم أنه بلغ رسول الله ﷺ من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت (٥) معه لحم وجذام وغاملة وغسان ، وقدّموا مقدّماتهم إلى البلقاء .

وذكر آخرون في سببها أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذي خرج يدّعي النبوة قد هلك ، وأصاب أصحابه سنون (٦) فهلكت أموالهم ، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن ، فبعث رجلاً من عطاء الروم وجّهه معه أربعين ألفاً .

فلما بلغ ذلك نبي الله ﷺ كتب إلى العرب يستنفرهم ، وكان يجلس كل يوم على المنبر فيدعو ويقول : « اللَّهُمَّ ! إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تَعْبُدَ فِي الْأَرْضِ » (٧) .

استنفر النبي ﷺ المسلمين للغزو :

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك في زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحرّ ، وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشحوص (٨) على الحال من الزمان الذي هم فيه ، وكان الوقت خريفاً ،

- (١) التوبة : ١١٧ .
- (٢) التوبة : ٨١ .
- (٣) التوبة : ٤٩ .
- (٤) التوبة : ٦٥ . وانظر : طبقات ابن سعد (ج ١٦٥/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ١٢٩/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٧/٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٦٢٣ - ٦٢٤) .
- (٥) أجلب القوم : اجتمعوا وتآلبوا (النهاية : ج ٢٨٢/١) .
- (٦) أي قحط .
- (٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٦٥/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٩١/٦) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٦٢٣/٣) .
- (٨) أي الخروج (النهاية : ج ٤٥٠/٢) .

وفوق ذلك كله كانت المسافة بعيدة والطريق وعرة صعبة ، وكان رسول الله ﷺ قلماً يخرج في غزوة إلا كنى عنها وورى غيرها ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة^(١) وشدة الزمان وكثرة العدو ، ليتأهب الناس لذلك أهتبه ، فأمر الناس بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم ، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم إلى غزو عدوهم .

فأسرع المسلمون يتجهزون للخروج ، وأخذت القبائل تقدم المدينة من كل صوب وناحية ، منها غفار وأسلم وجهينة وأشجع وبنو كعب من خزاعة .

وأبطأ بعض المسلمين وتثاقفوا عن الخروج وقالوا : الروم ولا طاقة لنا بهم ، فنزلت آيات من سورة براءة تستفزهم وتثيرهم على الجهاد وتحثهم عليه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ عَلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يَغْذِبَنَّ اللَّهُ عَنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُشَدِّدْ قَوْلَهُ غَيْرَ كُفْرًا وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ إلى قوله : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾^(٢) الآية .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أنزل الله : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ قال المسلمون : هذا أمر لا رخصة فيه لأحد . فلم يتخلف عن الغزو منهم إلا من حبسهم العذر ، أو الذين في قلوبهم مرض . كما كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ حتى تخلفوا عنه ، من غير شك ولا ارتياب ، منهم كعب بن مالك رضي الله عنه ، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم^(٣) .

- وقدم وإثله بن الأسقع الليثي على رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك ، فصلّى معه الصبح ، فقال له : « مَا أَنْتَ وَمَا جَاءَ بِكَ وَمَا حَاجَتُكَ ؟ » فأخبره عن نسبه وقال : أتيتك لأومن بالله ورسوله ، قال : « فَبَايِعْ عَلَى مَا أُحْبِبْتَ وَكْرِهْتَ » . فبايعه ، ورجع إلى أهله فأخبرهم ، فقال له أبوه : والله لا أكلمك كلمة أبداً ، وسمعت أخته كلامه فأسلمت وجهزته ، فخرج راجعاً إلى رسول الله ﷺ فوجده قد صار إلى تبوك ، فقال : من يحملني عقبة وله سهمي ؟ فحمله كعب بن عجرة حتى لحق برسول الله ﷺ وشهد معه تبوك ، وبعثه رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى أكيدر ، فغتم ، فجاء بسهمه إلى كعب بن عجرة ، فأبى أن يقبله وسوّغه^(٤) إياه وقال : إنما حملتك لله^(٥) .

حَضُّ النَّبِيِّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَلَى النَّفَقَةِ :

وأمر رسول الله ﷺ بالصدقة ، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله ، فتسابق المسلمون في الإنفاق ، فجاؤوا بصدقات كثيرة ، وحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا وقوا في سبيل الله .

وكان أول من جاء بصدقته أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، جاء بماله كله ، وجاء عمر ، رضي الله عنه ، بنصف ماله وقال : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَا أَتَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ » قال : مثله ، وسأل أبا بكر : « مَا أَتَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ » فقال : أتيت لهم الله ورسوله ، قال عمر : لا أسأبتك إلى شيء أبداً .

وجاء عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، بمائتي أوقية ، وأنفق عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فإنه تصدّق بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم جاء بألف دينار - ويقال : عشرة آلاف دينار - فنثرها في حجر النبي ﷺ ، فجعل عليه الصلاة والسلام يقبلها بين يديه ظهراً لبطن ويدعو له ويقول : « غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا عُثْمَانُ مَا أَسْرَرْتَ وَمَا أَعْلَنْتَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، مَا صَرَّ عُثْمَانُ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ » . ثم تصدّق عثمان ، رضي الله عنه ، وتصدّق حتى بلغ مقدار ما تصدّق به

(١) الشُّقَّةُ : السَّفَرُ الطَّوِيلُ ، وَقِيلَ : الْمَسَافَةُ الْبَعِيدَةُ (النهاية : ج ٤٩٢/٢) .

(٢) التوبة : ٢٨ - ٤١ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٦٩/٤ ، ١٧٣ ، ٢٠٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٥ /٢ ، ١٦٦) ، و (ج ٢٤٢/٤ ، ٢٤٤ ، ٢٧٩ ، ٢٩٤ ، ٣٤٦) ، ودلائل

النبوة للبيهقي (ج ٢٢٤/٥) ، وكنز العمال (ج ٤٢٩/٢) .

(٤) سَوْغَةٌ مَا أَصَابَ : تَرَكَّةٌ لَهُ خَالِصًا (لسان العرب : ج ٢١٥٢/٣) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٠٥/١) .

تسعمائة وخمسين ناقة وخمسين فرساً غير الألف دينار، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ! اَرْضْ عَن عُنْمَانَ فَإِنِّي عَنهُ رَاضٍ». وتتابع الناس بصدقاتهم قليلاً وكثيرها، فجاء العباس، رضي الله عنه، بمال كثير وكذا طلحة وسعد بن عباد رضي الله عنهم. وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن.

وتصدق عاصم بن عدي أخو بني العجلان بمائة وسق من تمر، فلزمه المنافقون، كما لمزوا عبد الرحمن بن عوف وقالوا: ما هذا إلا رياء.

وأتى أبو خَيْثَمَةَ ويقال أبو عَقِيل بصاع من تمر، لم يكن يستطيع غيرها، فأفرغها في الصدقة، فتضاحك به المنافقون وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عَقِيل. فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

البكَّاءون:

وجاء البكَّاءون وهم سبعة نفر يسألون رسول الله ﷺ أن يحملهم، وكلهم معسر ذو حاجة لا يجب التخلف عن الغزو معه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، وهم سالم بن عمير، وعُلبَةُ بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعمرو بن الحُصَّام بن الجموح، وعبد الله بن المغفل - ويقال: عبد الله بن عمرو المزني - وهرمي بن عبد الله - ويقال ابن عمرو - والعرباض بن سارية.

ويقال: كانوا أكثر من سبعة، فيهم عمرو بن عَنَمَةَ، وسَلَمَةَ بن صَخْر. ويقال: البكَّاءون بنو مُقَرَّن السبعة، وهم من مُزَيْنَةَ. وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾^(٢).

ولما خرج البكَّاءون من عند النبي ﷺ لقي ابن يامين بن عمير النَّضْرِي أبا ليلى وعبد الله بن المغفل وهما يبكيان فقال: ما يبكيكما؟ قال: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه، فأعطاهما ناضحاً له، وزودهما شيئاً من تمر، فخرجا مع رسول الله ﷺ.

وأما عُلبَةُ بن زيد فإنه قام فصلّى من ليلته ما شاء الله، ثم بكى وقال: اللهم! إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسول الله ﷺ، ولم تجعل في يد رسول الله ﷺ ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض. ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «أين المتصدق هذه الليلة؟» فلم يبق أحد، ثم قال: «أين المتصدق فليتم»، فقام إليه فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «أبشُرْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كَتَبْتَ فِي الزَّكَاةِ الْمَقْبَلَةِ»^(٣).

وروى البخاري بسنده عن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُمْلَانُ لهم، إذ هم معه في جيش العُسْرَةِ، وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله! إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم فقال: «والله لا أحملكم على شيء» - وفي رواية: «والله لا أحملكم وما عندي ما أحملكم»^(٤) - ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، ورجعت حزيناً من منع النبي ﷺ ومن

(١) التوبة: ٧٩. وانظر: سيرة ابن هشام (ج ١٧١/٤، ١٧٢، ٢٠٩)، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٥/٢)، وصحيح البخاري (ج ٨٤/٦) كتاب التفسير - سورة براءة، وصحيح مسلم (ج ٢١٢٢/٤) كتاب التوبة - باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ح ٥٢، وسنن الترمذي (ج ٦٢٥/٥، ٦٢٦) كتاب المناقب - باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ح ٣٧٠٠ و٣٧٠١، وسنن أبي داود (ج ٣١٢/٢) كتاب الزكاة - باب في الرخصة في الرجل يخرج من ماله ح ١٦٧٨، وكنز العمال (ج ٤٢٧/٢)، و(ج ٢٨/١٣، ٥٧)، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٦٤/٢).

(٢) التوبة: ٩٢.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج ١٧٢/٤)، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٥/٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٨/٥، ٢٢٤).

(٤) صحيح البخاري (ج ١٩٧/٩) كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾.

مخافة أن يكون النبي ﷺ وجد في نفسه عليّ ، فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي ﷺ فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي : أي عبد الله بن قيس ! فأجبت ، فقال : أجب رسول الله ﷺ يدعوك ، فلما أتيته قال : « خذْ هَذَيْنِ الْقَرِيْنَيْنِ (١) ، وهذَيْنِ الْقَرِيْنَيْنِ » لست أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد - فَأَنْطَلِقُ بِهِنَّ إِلَى أَصْحَابِكَ فَقُلْ : إِنَّ اللَّهَ ، « ، أو قال : « إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ فَارْكَبُوهُنَّ » فانطلقت إليهم بهنّ ، فقلت : إن النبي ﷺ يحملكم على هؤلاء ، ولكني والله لأدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ لا تظنوا أي حدثتكم شيئاً لم يقله رسول الله ﷺ ، فقالوا لي : إنك عندنا لمصدق ولنفعلن ما أحببت ، فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ منعه إياهم ثم إعطاءهم بعد ، فحدثوهم بمثل ما حدثتهم به أبو موسى (٢) .

وروى بسنده عن أبي موسى أيضاً فذكر الحديث بنحو ما تقدم وزاد : قلنا : ما صنعنا ؟ حلف رسول الله ﷺ لا يحملنا وما عنده ما يحملنا ثم حملنا ، تَغَفَّلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ (٣) والله لا نفلح أبداً ، فرجعنا إليه ، فقلنا له ، فقال : « لَسْتُ أَنَا أَحْمِلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَمَلَكُمْ ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أُحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنِّي وَتَحَلَّلْتُهَا » (٤) .

المعدّرون من الأعراب :

وجاء المعدّرون من الأعراب إلى رسول الله ﷺ ليؤذّن لهم في التخلف وتعلّوا بالجهد وكثرة العيال ، فأذن لهم ، ولكن لم يعذّرهم ، أي لم يقبل عذرهم لكنهم فيه ، وهم اثنان وثمانون رجلاً من بني غفار ، منهم خفاف بن أبياء بن رخصة . وقيل هم أسد وغطفان ، وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل (٥) .

تخلف المنافقين :

ولما جدّ رسول الله ﷺ في سفره ، وأمر الناس بالجهاز ، استأذنه ناس من المنافقين في التخلف من غير علة ، فأذن لهم . وهم بضعة وثمانون رجلاً ، كانوا حدثوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لا يرجع إليهم أبداً ، فاعتلّوا وطفقوا يشبّطون من أطاعه .

قال ابن إسحاق : منهم الجدي بن قيس ، وجلاس بن سويد ، وكانوا أشرافاً في قومهم ، فشبّطهم الله لعلمه أنهم إن يخرجوا معه يفسدوا عليه جنده ، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم ، فقال تعالى : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالظَّالِمِينَ ، لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل أن يستأذنوك ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أي : ليخذلوا عنك أصحابك ويردّوا عليك أمرك ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (٦) .

فقد قال قوم من المنافقين لبعض : لا تنفروا في الحرّ زهادة في الجهاد وشكاً في الحقّ وإرجافاً برسول الله ﷺ ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ، فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧) .

روي أن الجدي بن قيس أحد بني سلّمة أتى رسول الله ﷺ وهو في المسجد معه نفر ، فقال : يا رسول الله ! أئذن لي في القعود

(١) أي : الجمالين المشدودين أخذها إلى الآخر (النهاية : ج ٥٣/٤) .

(٢) صحيح البخاري (ج ٢/٦) كتاب المغازي - باب غزوة تبوك .

(٣) أي : جعلناه غافلاً عن يمينه بسبب سؤالنا (النهاية : ج ٣٧٥/٣) .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٩٧/٩) كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .. ﴾ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٢/٤ ، ٢١١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٥/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٦٩/٣) .

(٦) التوبة : ٤٧ - ٤٨ .

(٧) التوبة : ٨١ - ٨٢ .

فإني ذو ضَبْنَةٍ^(١) وعلة فيها عذر لي ، فقال رسول الله ﷺ : « تَجَهَّزْ فَإِنَّكَ مُوسِرٌ لَمَلِكٍ أَنْ تُحَقِّبَ^(٢) بَعْضَ بَنَاتِ بَنِي الْأَصْفَرِ » ، فقال : يارسول الله ! أئذن لي ولا تفتني .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم للجد بن قيس : « يا جَدُّ ! هَلْ لَكَ الْعَامَ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ ؟ » فقال : يارسول الله ! أوتأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لأصبر ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قَدْ أَذْنْتُ لَكَ » ، فأنزل الله فيه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾^(٣) . قال ابن إسحاق : أي إن كان إنما خشي الفتنة من نساء بني الأصفر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة أكبر بتخلفه عن رسول الله ﷺ ، والرغبة بنفسه عن نفسه ، يقول : وإن جهنم لمن ورائه .

وكان ممن تخلف من المنافقين غنمة بن وديعة من بني عمرو بن عوف ، فقبل له : ما خلفك عن رسول الله ﷺ وأنت موسر ؟ فقال : الخوض واللعب ، فأنزل الله فيه وفيمن تخلف من المنافقين : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾^(٤) ثلاث آيات متتابعات .

وذكر أن رهطاً من المنافقين فيهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مَخْشَنُ بن حَمِيرٍ قال بعضهم لبعض : أتحسبون جلال بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأننا بكم غداً مقرنين في الجبال ؛ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فقال مَخْشَنُ بن حَمِيرٍ : والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمفالتكم هذه . وقد قال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : « أَدْرِكِ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدْ اخْتَرَقُوا فَسَلُّهُمْ عَمَّا قَالُوا ، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ بَلَى قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا » ، فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت وهو أخذ بحق^(٥) ناقة رسول الله ﷺ : يا رسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعْدُبُ طَائِفَةً ﴾ . وقال مَخْشَنُ بن حَمِيرٍ : يا رسول الله ! قعد بي اسمي واسم أبي ، وكان الذي غفي عنه في هذه الآية مَخْشَنُ بن حَمِيرٍ ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بكانه ، فقتل يوم الهمامة ، فلم يوجد له أثر .

وقال الجلاس بن سويد بن الصاميت حين سمع ما أنزل الله ، عز وجل ، في المخلفين وهو قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٦) ، قال : والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير ، فقال له عامر بن قيس وهو ابن عمه : والله إن محمداً لصادق ، ولأنت شر من الحمير ، وقال له عمير بن سعد وكان في حجره - خلف الجلاس على أمه بعد أبيه - : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي ، وأحسنهم عندي يداً ، وأعزهم علي أن يصيبه شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحتك ، ولئن صحت عليها ليهلكن ديني ، وإلحادها أيسر علي من الأخرى ، ثم مشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال جلاس ، فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ لقد كذب علي عمير ، وما قلت ما قال عمير بن سعد ، فأنزل الله ، عز وجل ، فيه : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَسَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعَذَّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾^(٧) . فاستتيب الجلاس مما قال فتاب واعترف

(١) الضَبْنَةُ : الزمانة ، ورجل ضَبْنٌ : زَيْنٌ ، وقد أُضْبِنَةُ الداءُ : أزمته (لسان العرب : ج ٢٥٥٢/٤) .

(٢) أَحَقَّبَ فُلَانًا : أزدفه خلفه على حَقِيْبَةِ الرَّجُلِ (النهاية : ج ٤١٢/١) .

(٣) التوبة : ٤٩ .

(٤) التوبة : ٦٥ .

(٥) الْحَقْبُ : الحبل المشدود على حَقْوِ البعير (النهاية : ج ٤١١/١) .

(٦) التوبة : ٨١ - ٨٢ .

(٧) التوبة : ٧٤ .

بذنبه ، وحسنت حاله وتوبته ، ولم ينزع عن خير كان يصنعه إلى عمير ، وكان ذلك مما عرف به توبته^(١) .

- تحريق بيت مؤيّم اليهودي :

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت مؤيّم اليهودي ، وكان بيته عند جاسوم ، يشبّطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فبعث إليهم طلحة بن عبّيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت مؤيّم ففعل طلحة ، فاقتحم الضحّاك بن خليفة ، ويقال : الضحّاك بن ثابت الأشّهليّ ، من ظهر البيت ، فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا^(٢) .

خروج النبيّ ﷺ إلى تبوك :

فلما تجهز رسول الله ﷺ خرج بالناس ، وهم ثلاثون ألفاً ، والخيل عشرة آلاف فرس ، وذلك يوم الخميس ، وكان يجب أن يخرج يوم الخميس ، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، ويقال : سبّاع بن عرّفطة ، والأول أثبت ، واستخلف ابن أم مكتوم يوم الناس .

وخلف عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، على أهله وأمره بالإقامة فيهم ، فقال عليّ : أخلفني في الصبيان والنساء ؟ قال : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبيّ بعدي ؟ » . فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلفه إلا استئصالاً له وتخففاً منه ، فأخذ علي ، رضي الله عنه ، سلاحه ، ثم أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف^(٣) ، فقال : يا نبيّ الله ! زعم المنافقون أنك إنما خلقتني أنك استثقتني وتخففت مني ، فقال : « كذبوا ، ولكنني خلقتك لما تركت ورائي فأرجع فأخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي ؟ » فرجع عليّ ، رضي الله عنه ، إلى المدينة .

ومضى رسول الله ﷺ على سفره فضرب عسكره على ثنية الوداع ، واستخلف أبا بكر الصديق ، رضي الله عنه ، يصلي بالناس ، وضرب عبد الله بن أبي ابن سلول عسكره على حدة أسفل منه نحو ذباب جبل بالمدينة - وكان قد خرج في حلفائه من اليهود والمنافقين - فلما سار النبيّ ﷺ نحو تبوك تخلف عنه عبد الله فين تخلف من المنافقين وأهل الريب وقال : يغزو محمد بن الأصفر مع جهد الحال والحرّ والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به ، يحسب أن قتالهم معه اللعب ! والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين بالحبال ، إرجافاً برسول الله ﷺ وأصحابه . (انظر : مصور غزوة تبوك) .

وقيل أن يرتحل رسول الله ﷺ عن ثنية الوداع عقد الألوية والرايات ، ودفع رايته العظمى ، وكانت سوداء ، إلى أبي بكر ، ويقال : دفع لواء الأعظم إلى أبي بكر ، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام ، ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير ، وراية الخزرج إلى أبي دجّانة ، ويقال : إلى الحباب بن المنذر ، وأمر النبيّ ﷺ كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواء أو راية . وكانت راية بني مالك بن النجار مع عمارة بن حزم فأخذها رسول الله ﷺ منه ودفعها إلى زيد بن ثابت ، فقال عمارة : يا رسول الله ! بلغك عني شيء ؟ قال : « لا ، ولكن القرآن يتقدّم ، وكان زيد أكثر أخذاً منك للقرآن » .

وكان دليل النبيّ ﷺ إلى تبوك علقمة بن الفغواء الخزاعي^(٤) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤١/٢) ، و (ج ١٨٠/٤ ، ٢٠٨ - ٢٠٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٥/٢) ، و (ج ٣٧٥/٤ ، ٣٧٦) ، ودلائل النبوة

للبيهقي (ج ٢٢٤/٥ ، ٢٨١) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١٧١/٤) .

(٣) الجرف : موضّع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، وقد تقدّم .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٣/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٥/٢ ، ١٦٦) ، و (ج ١٧٥/٣ ، ٤٤٤) ، و (ج ٢٠٥/٤ ، ٢٩٥) ، وصحيح البخاري

(ج ٥٩/٤) كتاب الجهاد والسير - باب من أراد غزوة فوزى بغيرها ومن أحب الخروج يوم الخميس ، و (ج ٢/٦) كتاب المغازي - باب غزوة تبوك ،

والمستدرک (ج ٤٢١/٣) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٩/٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٧٢/٣) .

شأن أبي خَيْثَمَةَ وأبي ذَرٍّ رضي الله عنهما :

كان أبو خَيْثَمَةَ وأبو ذَرٍّ ، رضي الله عنهما ، ممن تخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، لكن لما أن سار النبي ﷺ أياماً دخل أبو خَيْثَمَةَ السَّالِمِيَّ على أهله في يوم حارٍّ ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه ، وقد رشّت كل واحدة منها عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيات له فيه طعاماً ، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأته وما صنعتا له ، فقال : رسول الله ﷺ في الضَّحِّ والريح والحَرِّ (١) وأبو خَيْثَمَةَ في ظلِّ باردٍ وطعامٍ مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟!! ما هذا بالنِّصْف ، ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيتا لي زاداً ، ففعلتا ، ثم قدّم ناضحه فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك . وقد كان أدرك أبا خَيْثَمَةَ عمير بن وهب الجَمَحِيَّ في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خَيْثَمَةَ لعمير : إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ، ففعل ، حتى إذا دنوا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « كُنْ أبا خَيْثَمَةَ » ، فقالوا : يا رسول الله ! هو والله أبو خَيْثَمَةَ ، فلما أناخ فسلم على رسول الله ﷺ بكى ، فقال له النبي ﷺ : « ما خلفك يا أبا خَيْثَمَةَ أُولَى لَكَ (٢) » ، قال أبو خَيْثَمَةَ : كِدت يانبي الله أن أهلك بتخلفي عنك ، وترينت لي الدنيا ، وترين لي مالي في عيني ، وكِدت أن أختاره على الجهاد ، فعزم الله على الخروج ، فاستغفر له رسول الله ﷺ ودعا له بالخير والبركة (٣) .

ولحق أبو ذَرٍّ ، رضي الله عنه ، بالنبي ﷺ أيضاً ، كما روى ابن إسحاق أنه لما سار رسول الله ﷺ جعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ! تخلف فلان ، فيقول : « دَعُوهُ ، فَإِنَّ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِكُمْ ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاخَكُمُ اللَّهُ مِنْهُ » ، حتى قيل : يا رسول الله ! قد تخلف أبو ذَرٍّ ، وأبطأ به بعيره ، فقال : « دَعُوهُ ، فَإِنَّ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللَّهُ بِكُمْ ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاخَكُمُ اللَّهُ مِنْهُ » . وتلوم (٤) أبو ذَرٍّ على بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحملة على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازلها ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ! إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : « كُنْ أبا ذَرٍّ ! » فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ! هو والله أبو ذَرٍّ ، فقال رسول الله ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ أبا ذَرٍّ يَمْشِي وَحْدَهُ وَيَمُوتُ وَحْدَهُ وَيُبعَثُ وَحْدَهُ » .

وقد تحقّق قول النبي ﷺ ، فإن عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، لما نفى أبا ذَرٍّ إلى الرَبَذَةِ ، وأصابه بها قدره ، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلماه ، فأوصاها أن اغسلاني وكفّناني ، ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فأول ركب يمرّ بكم فقولوا : هذا أبو ذَرٍّ صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق ، وأقبل عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، في رهط من أهل العراق عَمَّار ، فلم يرعهما إلا بالجنّازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطوؤها ، وقام إليهم الغلام ، فقال : هذا أبو ذَرٍّ صاحب رسول الله ﷺ ، فأعينونا على دفنه ، فاستهلّ عبد الله بن مسعود يبكي ، ويقول : صدق رسول الله ﷺ تمشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ، ثم نزل هو وأصحابه فواروه (٥) .

مرور النبي ﷺ بالحجر وإخباره عن هبوب ريح شديدة :

ولما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر ديار ثمود سجى ثوبه على رأسه ، واستحث (٦) راحلته ، وقال : « إذا مررتم على أرضٍ قد هلك أهلها فأغيدوا السَّيْرَ » ، وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلّموا إلا وأنتم بآكونَ خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم » . ثم نزل

(١) أي يكون بارزاً ليحتر الشمس وهبوب الرياح ، والضَّحِّ : ضوء الشمس ، إذا استمكن من الأرض (النهاية : ج ٧٥/٣) .

(٢) أُولَى لَكَ : معناه التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ ، أي : الشُّرُّ أَقْرَبُ إِلَيْكَ ، أو قَارَبَكَ مَا تَكْرَهُ ، أو دَنَوْتَ مِنَ التَّهْلُكَةِ (لسان العرب : ج ٤٩٢٣/٦) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٤/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٥/٥) .

(٤) تَلُومٌ : أنتظر . وقد تقدّم .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٨/٤) .

(٦) الحثُّ : الاستبجال (لسان العرب : ج ٧٧٢/١) .

رسول الله ﷺ هناك فقام فخطب الناس فقال : « يا أيها الناس ! لا تسألوا نبيكم عن الآيات ، فهؤلاء قوم صالح سألوها نبيهم أن يبعث لهم آية ، فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وريدها ويشربون من لبنها مثل ما كانوا يشربون من مائها ، فعنوا عن أمر ربهم فعتروها فوعدهم الله ثلاثة أيام ، وكان موعداً من الله غير مكذوب ، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان تحت مشارق السموات ومغاريبها منهم ، إلا رجلاً كان في حرم الله فنعته حرم الله من عذاب الله ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » ، قالوا : يا رسول الله ! من هو ؟ قال : « أبو رغال » .

واستقن الناس لما نزلوا من بئر الحجر واعتجنوا به ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : « لا تشربوا من مائها شيئاً ، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فأغلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً » ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت ترد ماء ناقة صالح عليه السلام .

ثم أخبر رسول الله ﷺ أصحابه أنها ستهب عليهم الليلة ريح شديدة^(١) ، وقال : « لا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له ، ومن كان معه بغير فليقبله » . ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا رجلين من بني ساعدة من الأنصار خرج أحدهما لحاجته والآخر في طلب بعيره ، فأما الذي خرج لحاجته فحقيق على مذهبه^(٢) ، وأما الذي خرج في طلب بعيره فاحتلته الريح حتى طرحته بجبل طييء ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : « ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه ؟ » ثم دعا رسول الله ﷺ للذي أصيب على مذهبه فسفي ، وأما الآخر فإن طيئاً أهده لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة .

وروي أن رسول الله ﷺ لما أتى وادي القرى إذا هو بامرأة في حديقة لها ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « اخزصوا » ، وخرص رسول الله ﷺ عشرة أوسق ، فقال لها : « أحصي ما يخرج منها » ومضى إلى تبوك ، فلما رجع إلى المدينة أتى وادي القرى فقال للمرأة : « كم جاء حديثك ؟ » قالت : عشرة أوسق خرص رسول الله ﷺ^(٣) .

مالاقاه المسلمون من شدة وما ظهر من معجزات للنبي ﷺ :

واشتدت في الطريق حاجة الناس إلى الماء ، وقد أصبحوا ولا ماء معهم ، وأصابهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم حتى حملهم ذلك على نحر إبلهم ليشقوا أكراشها ويشربوا ماءها^(٤) .

فمن عبد الله بن عباس ، رضي الله عنهما ، أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن ساعة العسرة ، فقال عمر : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر قرته فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ! إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع له ، فقال : « أتجيب ذلك ؟ » قال : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قالت^(٥) السماء فأطلت ثم سكبت ، فلوأوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر^(٦) .

وذكر أنه لما دعا النبي ﷺ فأرسل الله السحابة فأمرت حتى ارتوى الناس ، أقبل المسلمون على رجل معروف نفاقه فقالوا له :

(١) في صحيح البخاري أن إخباره لهم كان لما نزل بتبوك لابلحجر . انظر : صحيح البخاري (ج ١٥٥/٢) كتاب الزكاة - باب خرص التمر .

(٢) أي صرع ، والمذهب : هو الموضع الذي يتعوط فيه . شرح الزرقاني على المواهب (ج ٧٢/٣) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٦/٤ - ١٧٧) ، وصحيح البخاري (ج ١٥٥/٢) كتاب الزكاة - باب خرص التمر ، و (ج ١٨١/٤) كتاب الأنبياء - باب

قول الله تعالى ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ ، والمستدرک (ج ٢٤٠/٢) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٩٠/١٠) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٧/٥) .

(٥) العربة تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطليقة على غير الكلام واللسان ، فتقول : قال بيديه ، أي أخذ ، وقال برجله ، أي مشى ، وقال بتوبه ، أي رفته ، وكل ذلك على المجاز والانتساع . ويقال : قال بمعنى أقبل (النهاية) (ج ١٢٤/٤) .

(٦) رواه الحافظ في المستدرک (ج ١٥٩/١) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

ويحك !! هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مازة ، وقيل : إنه قال : إنما مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾^(١) .

وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى استأذنوا رسول الله ﷺ في نحر نواضحهم لياكلوا ويدهنوا ، فقال : « أفعلوا » ، فجاء عمر ، رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ! إن فعلت قلّ الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعلّ الله أن يجعل في ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « نعم » ، فدعا ينطع فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يجيء بكفّ ذرة ، ويجيء الآخر بكفّ تمر ، ويجيء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ، ثم قال : « خذوا في أوعيتكم » ، فأخذوا حتى ماتركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه ، فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة ، فقال رسول الله ﷺ : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة » ، أو قال : « إلا وقاه الله حرّ النار » .

ويروى أن العرّباض بن سارية وجعل بن سراقه وعبد الله بن مغلّ أتوا رسول الله ﷺ وهم جياع في غزوة تبوك ، فلم يجدوا عنده شيئاً ، فأمر بلالاً فنفض الأجرية جراباً جراباً ، فوقعت الترة والترا ، حتى اجتمع في يده سبع تمرات ، فوضعت في صحفة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده على التمرات ، فسمى الله وقال : « كلوا بسم الله » ، فأكل كل واحد منهم خمسين تمرة ، ثم رفعوا أيديهم والترا السبع كما هي ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال ! ارفعها ، فأبى لا يأكل منها أحد إلا نهّل منها شيئاً » . ثم إنه جاء عشرة نفر ، فأكلوا منها حتى شبعوا والترا كما هي ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا أنني أستحي من ربي لأكلنا من هذه التمرات حتى نرد المدينة من آخرنا » . فطلع عليهم غلام ، فدفع رسول الله ﷺ التمرات إليه^(٢) .

وعن حمزة بن عمرو الأسامي ، رضي الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك وكنت على النخعي^(٣) ذلك السفر ، فنظرت إلى نخعي السمن قد قلّ ما فيه ، وهيأت للنبي ﷺ طعاماً ، فوضعت النخعي في الشمس ونمت ، فانتبهت بجريير النخعي فقمتم فأخذت رأسه بيدي ، فقال رسول الله ﷺ ورآني : « لو تركتك لسأل الوادي سئناً »^(٤) .

فقدان ناقة النبي ﷺ وظهور النفاق :

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلّت ناقته^(٥) ، فقال زيد بن اللصيث - وكان يهودياً من بني قينقاع أسلم فنافق ، وكان فيه خبث اليهود وغشهم - : أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته !؟ فأنكر عليه نفر من الصحابة وقالوا : قاتلك الله نافقت ، فلم خرجت وهذا في نفسك ؟ فقال : خرجت لأصيب عرضاً من الدنيا ، فسبّوه وقالوا : والله ما نكون منك بسبيل ، ولو علمنا أن هذا في نفسك ما صحبتنا ساعة .

وكان زيد بن اللصيث في رحل عمارة بن حزم العقبي البديري ، فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده : « إن رجلاً قال : هذا محمدٌ يخبركم أنه نبيٌّ ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته ، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلّني الله عليها ، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها ، فأنطلقوا حتى تأتوني بها » . فذهبوا ، فوجدوها كذلك ، فجاؤوا بها ، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله ، فقال : والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ أنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه

(١) الواقعة : ٨٢ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/٤) ، وصحيح مسلم (ج ٥٦/١) كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ح ٤٥ ، وجمع الزوائد (ج ٢٠٤/٨) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٦٦٨/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ١٣٤/٣) .

(٣) النخعي : هو الزرق الذي يجعل فيه الشمن خاصة (لسان العرب : ج ٤٢٢٢/٦) .

(٤) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (ج ٥٦٠/٢) ، والهيثمي في جمع الزوائد (ج ١٩١/٦) وقال : رواه الطبراني من طريقين إحداهما في علامات النبوة ورجالها وثقوا .

(٥) تقدّم نظير هذا في غزوة بني المصطلق ، قال صاحب السيرة الحلبية : ولا بعد في تعدد الواقعة ، ويحتمل أن يكون من خلط بعض الرواة (السيرة الحلبية : ج ١٣٤/٣) .

بكذا وكذا ، للذي قال زيد بن لُصَيْتٍ ، فقال رجل من كان في رحل عُمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ : زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي ، فأقبل عُمارة على زيد بجأ^(١) في عنقه ويقول : إني عباد الله ، إن في رحلي لنداهية وما أشعر ، اخرج أي عدو الله من رحلي فلا تصحبي .

وفي رواية : أن زيدا لما قال ما قال قام وترك أصحابه فعمد لرسول الله ﷺ فسمعه يقول : « إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ كَذَا وَكَذَا » وذكر مقالته ، فأقبل زيد سريعا حتى أتى نفر الذين قال عندهم ما قال ، فإذا هم جلوس مكانهم ، لم يبق منهم أحد من مجلسه ، فقال : أنشدكم بالله ، هل أتى أحد منكم محمدا فأخبره بالذي قلت ؟ قالوا : اللهم لا ، ولا قننا من مجلسنا هذا بعد ، قال : فياني وجدت عند القوم حديثي ، وقال : والله لكأني لم أسلم إلا اليوم ، وإن كنت لفي شك من شأنه ، فأشهد أنه رسول الله ، قال أصحابه : فاذهب إلى رسول الله ﷺ فليستغفر لك ، فزعموا أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ فاعترف بذنبه ، واستغفر له رسول الله ﷺ ، وقال بعض الناس : لم يزل متهما بشر حتى هلك^(٢) .

ائتمام النبي ﷺ بعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

ولما كان رسول الله ﷺ فيما بين الحجر وتبوك ذهب لحاجته بعد الفجر ، وتبعه المغيرة بن شعبه ، رضي الله عنه ، بماء . قال المغيرة : فشى حتى توارى عني في سواد الليل ، ثم جاء فأفرغت عليه من الإداوة ، فغسل يديه فأحسن غسلها ، قال : وأشك ذلكها بتراب أم لا ؟ ثم غسل وجهه ، ثم ذهب يحس عن ذراعيه ، وعليه جبّة من صوف ضيقة الكمين ، فلم يستطع أن يخرج ذراعيه منها ، حتى أخرجها من أسفل الجبّة ، فغسل ذراعيه ، ثم مسح برأسه ومسح على العمامة ، ثم أهويت لأنزع خفيه فقال : « دَعَمَهَا فَيَأْتِي أُذْخَلْتَهَا طَاهِرَتَيْنِ » فمسح عليهما .

قال المغيرة : ثم أقبل رسول الله ﷺ ، فوجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، فصلّى لهم ركعة وهم في الثانية ، فذهبت أودنه ، فنهاني رسول الله ﷺ وصلى مع الناس الركعة الآخرة التي أدرك ، فلما سلم عبد الرحمن قام رسول الله ﷺ يتمّ صلاته ، فأفزع ذلك المسلمين فأكثروا التسبيح ، فلما قضى صلاته أقبل عليهم ، ثم قال : « أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ » يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها ، ثم قال رسول الله ﷺ : « مَا قَبِضَ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يُصَلِّيَ خَلْفَ رَجُلٍ صَالِحٍ مِنْ أُمَّتِهِ »^(٣) .

شأن أبي رُهم الغفاري رضي الله عنه :

روي عن أبي رُهم كَثُوم بن الحُصَيْن ، رضي الله عنه ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ الذين بايعوا تحت الشجرة ، قال : غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك ، فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر^(٤) قريبا من رسول الله ﷺ ، وألقى الله علينا النعاس ، فطفقت استتيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة رسول الله ﷺ فيفزعني ذنوها منه مخافة أن أصيب رجله في الغرز ، فطفقت أحوز راحلتي عنه ، حتى غلبتني عيني في بعض الطريق ونحن في بعض الليل ، فزاحمت راحلتي راحلة رسول الله ﷺ ورجله في الغرز ، فما استتيقظت إلا بقوله : « حَسَّ^(٥) » ، فقلت : يا رسول الله ! استغفر لي ، فقال : « سِرَّ » ، فجعل رسول الله ﷺ يسألني عن تخلف من بني غفار فأخبره به ، فقال وهو يسألني : « مَا فَعَلَ النَّفْرَ الْحُمْرُ الطُّوَالَ الشُّطَاطُ^(٦) ؟ » فحدثته بتخلفهم ، قال : « فَمَا فَعَلَ النَّفْرَ السُّوَدُ »

(١) وَجَأَ فَلَانًا : دَفَعَهُ بِجَمْعِ يَدِهِ فِي الصَّدْرِ أَوْ الْعُنُقِ (الوسيط : ج ١٠٢٣/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٧٧/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٥٩/٤) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨٦٧) كتاب اللباس - باب في جبة الصوف في الغزو ، وصحيح مسلم (ج ٣١٧/١) كتاب الصلاة - باب تقديم الجماعة من يصلي بهم إذا تأخر الإمام .. ج ١٠٥ ، وجمع الزوائد (ج ٢٥٧/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٢٨/٣) .

(٤) الْأَخْضَرُ : مَنَزَلٌ قُرْبَ تَبُوكَ ، بَيْنَ وَادِي الْقُرَى (معجم البلدان : ج ١٥٢/١) .

(٥) حَسَّ : كَلِمَةٌ يَقُولُهَا الْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَهُ مَامِضَةٌ وَأَخْرَقَتْهُ غَفْلَةٌ كَالْحُمْرَةِ وَالضَّرْبَةِ وَنَحْوَهُمَا (النهاية : ج ٢٨٥/١) .

(٦) الشُّطَاطُ : جَمْعُ نَطٍّ ، وَهُوَ الْقَلِيلُ شَعْرِ اللَّحْيَةِ وَالْحَاجَتَيْنِ . انظر : (لسان العرب : ج ٤٨١/١) .

الجِغَادُ الْقِصَارُ؟ « قال : قلت : والله ما أعرف هؤلاء منا ، قال : « بَلَى الَّذِينَ لَهُمْ نَعَمٌ بِشَبَكَةِ شَدَخٍ ^(١) » ، فتذكرتهم في بني غفار ، ولم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا ، فقلت : يا رسول الله ! أولئك رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا مَنَعَ أَحَدَ أَوْلِيكَ حِينَ تَخَلَّفَ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى بَعِيرٍ مِنْ إِبِلِهِ أَمْرًا نَشِيطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ إِنَّ أَعَزَّ أَهْلِي عَلَيَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنِّي الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارُ وَغِفَارٌ وَأَسْلَمٌ ^(٢) .

فوات صلاة الفجر وخبر الميضية :

وقبل قدوم المسلمين تبوك بليلة خطبهم رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّكُمْ تَسِيرُونَ عَشِيَّتَكُمْ وَلَيْلَتَكُمْ وَتَأْتُونَ الْمَاءَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، غَدًا » ، فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد .

قال أبو قتادة : فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى ابتهار الليل ^(٣) ، وأنا إلى جنبه ، فنعمس رسول الله ﷺ قال عن راحلته ، فأتيته فدعمته ^(٤) من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ، ثم سار حتى تهور الليل ^(٥) مال عن راحلته ، فدعته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ، ثم سار ، حتى إذا كان من آخر السحر مال مثيلة هي أشد من الميئين الأوليين حتى كاد ينجفل ^(٦) ، فأتيته فدعته ، فرفع رأسه فقال : « مَنْ هَذَا ؟ » قلت : أبو قتادة ، قال : « متى كان هذا مسيرك مني ؟ » قلت : ما زال هذا مسيري منذ الليلة ، قال : « حَفِظَكَ اللَّهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهَ » ، ثم قال : « هَلْ تَرَى مِنْ أَحَدٍ ؟ » قلت : هذا راكب ، ثم قلت : هذا راكب آخر ، حتى اجتمعنا فكننا سبعة ركب ، فقال رسول الله ﷺ عن الطريق فوضع رأسه ثم قال : « اخْفَظُوا عَلَيْنَا صَلَاتِنَا » ، أو قال : « يَا بِلَالُ ! اكْلَأْ لَنَا الْفَجْرَ » ، فغلب بلالاً ، رضي الله عنه ، النوم فرقد ، فناموا حتى طلعت الشمس ، فكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره ، فقمنا فرعين ، فقال رسول الله ﷺ : « اِرْكَبُوا » ، فركبنا ، فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل ، ثم دعا بميضية كانت معي فيها شيء من ماء ، فتوضأ منها وضوءاً ودون وضوء ، وبقي فيها شيء من ماء ، ثم قال لي : « اخْفَظْ عَلَيْنَا مِيضَاتَكَ فَسَيَكُونُ لَهَا نَبَأٌ » ، ثم أذن بلال بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ ركعتين ، ثم صلى الغداة فصنع كما كان يصنع كل يوم .

قال أبو قتادة : وركب رسول الله ﷺ وركبنا معه ، فجعل بعضنا يهيس إلى بعض : ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَمَا لَكُمْ فِي أَسْوَةِ ؟ » ثم قال : « أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ فِي النَّوْمِ تَفْرِيطٌ إِنَّمَا التَّفْرِيطُ عَلَى مَنْ لَمْ يُصَلِّ الصَّلَاةَ حَتَّى يَجِيءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ الْآخَرَى ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلْيُصَلِّهَا حِينَ يَنْتَبِهَ لَهَا ، فَإِذَا كَانَ الْغَدُ فَلْيُصَلِّهَا عِنْدَ وَقْتِهَا » ، ثم قال : « مَا تَرَوْنَ النَّاسَ صَنَعُوا ؟ » ثم قال : « أَصْبَحَ النَّاسُ فَقَدُوا نَبِيَّهُمْ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرٌ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَكُمْ ، لَمْ يَكُنْ لِيُخَلِّفَكُمْ ، وَقَالَ النَّاسُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ، فَإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ يَرْضَوْا » .

قال أبو قتادة : فانتبهنا إلى الناس حين امتد النهار وحمي كل شيء وهم يقولون : يا رسول الله ! هلكننا عطشنا ، فقال : « لَاهُلْكَ عَلَيْكُمْ » ، ثم قال : « أَطْلِقُوا لِي غَمْرِي ^(٧) » ، ودعا بالمِيضَةَ ، فجعل رسول الله ﷺ يَصْبُ وأنا أسقيهم ، فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضية تكاثروا عليها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَحْسِنُوا الْمَلَأَ ^(٨) ، كُلُّكُمْ سَيَرَوِي » ، ففعلوا ، فجعل رسول الله ﷺ يَصْبُ وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ ، ثم صب رسول الله ﷺ فقال لي : « اشْرَبْ » ، فقلت : لا أشرب حتى تشرب

(١) شَبَكَةُ شَدَخٍ : اسم ماء لأسلم من بني غفار (معجم البلدان : ج ٢٢٢/٥) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١٨٤/٤) .

(٣) ابتهار الليل : انتصف (النهاية : ج ١٦٥/١) .

(٤) دَعَمَةٌ : أسندة (النهاية : ج ١٢٠/٢) .

(٥) تَهَوَّرَ اللَّيْلُ : أي ذهب أكثره (النهاية : ج ٢٨١/٥) .

(٦) يَنْجِفُلُ : أي يتقلب ويستقط (النهاية : ج ٢٧٩/١) .

(٧) أي أئتوني به ، والغمر : القدح الصغير (النهاية : ج ٢٨٥/٣) .

(٨) الْمَلَأُ : الخلق (النهاية : ج ٣٥١/٤) .

يارسول الله ، قال : « إِنَّ سَاقِي الْقَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْبًا » ، فشربت وشرب رسول الله ﷺ . قال : فأتى الناس ماء تبوك جامين رواء (١) .

انبثاق الماء في عين تبوك :

ولما نزلوا تبوك وجدوا عينها قليلة الماء ، وكان رسول الله ﷺ قد قال لهم : « إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، عَيْنَ تَبُوكَ ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ ، فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلَا يَمَسُّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِيَ » ، فسبقه إليها رجلان فاستقيا مافيها ، فسبها رسول الله ﷺ لما بلغه ذلك ، وقال لها ما شاء الله أن يقول ، ثم إنهم غرفوا من تلك العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع شيء في شن ، فغسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه وممض ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير ، فاستقى الناس ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يَوْشِكُ يَا مُعَاذُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَهُنَا قَدْ مَلِيَءَ جَنَانًا » (٢) .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ لما قفل من تبوك ، وكان في الطريق ماء يخرج من وَشَل (٣) ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له وادى المَشَقَّق ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَبَقَنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي فَلَا يَسْتَقِينُ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَهُ » ، فسبقه إليه نفر من المناققين ، فاستقوا مافيها ، فلما أتاه رسول الله ﷺ فلم يرفيه شيئاً لعنهم ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوَشَل ، فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب ، ثم نضح به ، ومسح بيده ، ودعا بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق من الماء كما يقول مَنْ سمعه ما إن له حَسًّا كحَسِّ الصَّوَاغِ ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، فقال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ بَقِيَّتُهُمْ ، أَوْ مَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ ، لَتَسْمَعَنَّ بِهَذَا الْوَادِي وَهُوَ أَخْضَبُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا خَلْفَهُ » (٤) .

نزول النبي ﷺ بتبوك :

نزل رسول الله ﷺ بتبوك فعسكر هناك ، واستعمل على حرسه عباد بن بشر ، رضي الله عنه ، فكان يطوف في أصحابه على العسكر .

وقد كان دأب النبي ﷺ في الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، جمع التقديم وجمع التأخير كليهما . وسئل ابن عباس ، رضي الله عنهما ، ما حمله على ذلك ؟ فقال : أراد أن لا يخرج أمته .

فلما اطأ الناس قام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وخطب خطبة بليغة أتى فيها بجوامع الكلم ، وحض على خير الدنيا والآخرة ، وحذر وأذر ، فكان مما قال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! أَمَا بَعُدُّ ، فَإِنَّ أَسَدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَأَوْثَقُ الْعَرَى كَلِمَةُ التَّقْوَى ، وَخَيْرُ الْمَالِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ ، وَخَيْرُ السَّنَنِ سَنَةُ مُحَمَّدٍ ، وَأَشْرَفُ الْحَدِيثِ ذِكْرُ اللَّهِ ، وَأَحْسَنُ الْقَصَصِ هَذَا الْقُرْآنُ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ عَوَازِمُهَا ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا ، وَأَحْسَنُ الْهُدَى هُدَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَدَاءِ ، وَأَعْمَى الْعَمَى الضَّلَالَةُ بَعْدَ الْهُدَى ، وَخَيْرُ الْأَعْمَالِ مَا نَفَعَ ، وَخَيْرُ الْهُدَى مَا اتَّبَعَ ، وَشَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَمَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَى ، وَشَرُّ الْمَعْدِرَةِ حِينَ يَحْضُرُ الْمَوْتُ ، وَشَرُّ النَّدَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَأْتِي الْجَمْعَةَ إِلَّا دُبْرًا (٥) ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَذُكُرُ اللَّهَ إِلَّا هَجْرًا (٦) ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْخَطَايَا اللِّسَانَ الْكَذَّابَ ، وَخَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ ، وَخَيْرُ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَرَأْسُ الْحِكْمِ مَخَافَةُ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَيْرُ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ التَّيْقِينُ ، وَالْأَرْثَابُ مِنَ الْكُفْرِ ، وَالنِّيَاحَةُ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَالْغُلُولُ مِنْ حَتَاءِ (٧) جَهَنَّمَ ،

(١) انظر : صحيح مسلم (ج ٤٧٢/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها ح ٣١١ . ومعنى قوله : أتى الناس جامين رواء ، أي : مُسْتَرْجِحِينَ قَدْ رَوَوْا مِنَ الْمَاءِ (النهاية : ج ٢٠١/١) .

(٢) انظر : صحيح مسلم (ج ١٧٨٤/٤) كتاب الفضائل - باب في معجزات النبي ﷺ ح ١٠ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٦/٥) .

(٣) الوَشَل : الماء القليل يتحلَّب من جبل أو صخرة ، يَقَطُرُ مِنْهُ قَلِيلًا قَلِيلًا ، وَلَا يَتَّصِلُ قَطْرُهُ . وقد تقدم .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٢/٤) .

(٥) أي بَعُدُّ مَا يَفُوتُ وَقَتُّهَا (النهاية : ج ٩٧/٢) .

(٦) يُرِيدُ هِجْرَانَ الْقَلْبِ وَتَرْكَ الْإِخْلَاصِ فِي الذِّكْرِ ، فَكَأَنَّ قَلْبَهُ مَهَاجِرٌ لِلسَّانِ غَيْرِ مُوَاصِلٍ لَهُ (النهاية : ج ٢٤٥/٥) .

(٧) الْحَتَّى : ذِقَاقُ التَّبَنِ (لسان العرب : ج ٧٧٦/١) .

والسُّكْرُ كَيْ مِنَ النَّارِ ، وَالشَّعْرُ مِنْ إِبْلِيسَ ، وَالْحَمْرُ جَمَاعُ الْإِثْمِ ، وَالنَّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ ، وَالشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجَنُونِ ، وَشَرُّ الْمَكْسِبِ كَسْبُ الرَّبَا ، وَشَرُّ الْمَأْكَلِ مَالُ الْيَتِيمِ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَعِظَ بغيرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَإِنَّا نَصِيرُ أَحَدَكُمْ إِلَى مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَذْرُعٍ وَالْأَمْرُ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَمِلَاكُ الْعَمَلِ خَوَاتِمَةٌ ، وَشَرُّ الرُّوَايَا رَوَايَا الْكَذِبِ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ، وَسَبَابُ الْمُؤْمِنِ فِسْقٌ ، وَقِتَالُ الْمُؤْمِنِ كُفْرٌ ، وَأَكْلُ لَحْمِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ ، وَمَنْ يَتَّأَلَّ عَلَى اللَّهِ يَكْذِبُهُ (١) ، وَمَنْ يَغْفِرُ يُغْفَرُ لَهُ ، وَمَنْ يَغْفُ يَغْفُ اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَنْ يَكْظِمِ الْغَيْظَ يَأْجُرْهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَصْبِرْ عَلَى الرَّزِيَّةِ (٢) يُعَوِّضَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَّبِعِ السُّعْتَةَ يُسَمِعِ اللَّهُ بِهِ (٣) ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُضَعِّفِ اللَّهُ لَهُ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ يُعْذِبْهُ اللَّهُ . اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي وَلِأُمَّتِي ، اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي وَلِأُمَّتِي « قالها ثلاثاً ، ثم قال : « أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ » (٤) .

روي عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ عام تبوك يخطب الناس وهو مسند ظهره إلى راحلته ، فقال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ وَشَرِّ النَّاسِ ؟ إِنَّ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ رَجُلًا عَمِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى ظَهْرِ قَرْبِهِ ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ ، أَوْ عَلَى قَدَمِهِ ، حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ ، وَإِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ رَجُلًا فَاجِرًا يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ لَا يَرَعُوهُ (٥) إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ » (٦) .

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً ، ويقال : بضع عشرة ليلة ، لم يلق كيداً ، ولم يواجه عدواً ، وكانت جموع الروم وحلفاؤهم لما سمعوا بمقدمه ﷺ قد أخذها الرعب وتفرقت في البلاد إلى داخل حدودهم ، فجعل النبي ﷺ يرسل دعواته وسراياه إلى القبائل على أطراف الشام (انظر : مصور غزوة تبوك) ، ويقال إنه كتب إلى هرقل يدعو إلى الإسلام وإلا فالجزية أو الحرب (٧) .
مصالحة أهل أيلة وجرباء وأذرح ومقنا (٨) :

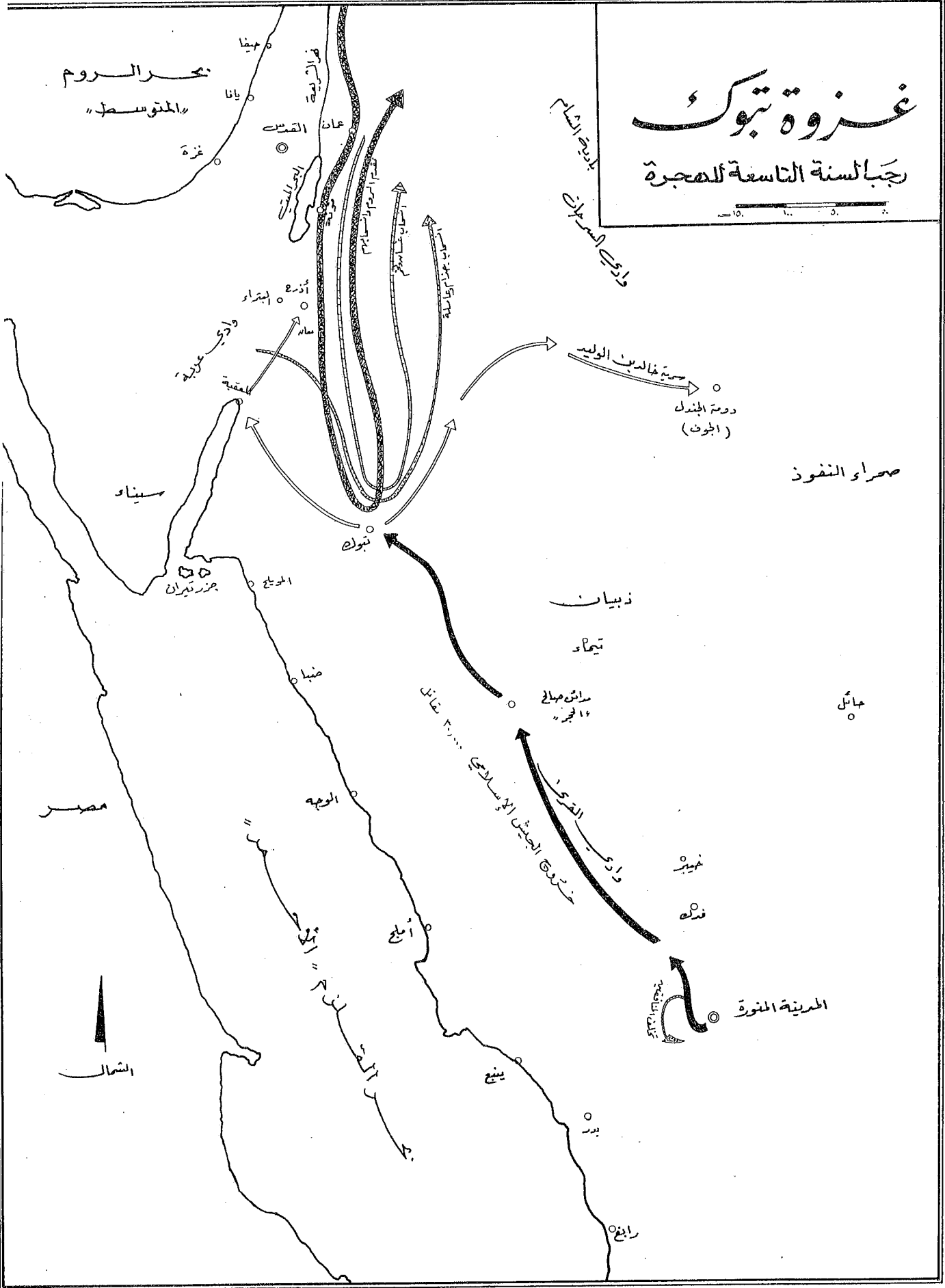
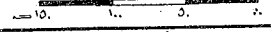
وَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بَتْبُوكَ يَحْتَنُ بِنِ رُؤْيَةَ صَاحِبِ أَيْلَةَ ، فَصَالِحَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَعْطَاهُ الْجَزِيَةَ ثَلَاثُمِائَةَ دِينَارٍ كُلِّ سَنَةٍ ، وَكَانُوا ثَلَاثُمِائَةَ رَجُلٍ ، وَأَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَغْلَهُ بِيضًا ، فَكَسَاهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَرْدًا ، وَكَتَبَ لَهُ وَلِأَهْلِ أَيْلَةَ كِتَابًا هَذَا نَصُهُ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذِهِ أَمْنَةٌ مِنَ اللَّهِ وَمُحَمَّدِ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ يَحْتَنُ بِنِ رُؤْيَةَ وَأَهْلُ أَيْلَةَ سَفْنِهِمْ وَسِيَّارَتِهِمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، لَهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدِ النَّبِيِّ ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْبَحْرِ ، فَمَنْ أَحَدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًا فَإِنَّهُ لَا يَحْوُلُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءَ يَرِدُونَهُ وَلَا طَرِيقًا يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ » .

وقيل : إن رسول الله ﷺ كتب إلى يَحْتَنَةَ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ إِلَيْهِ يَعْزُضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ أَوْ الْجَزِيَةَ ، كَمَا ذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ ، قَالَ : وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَحْتَنَةَ بِنِ رُؤْيَةَ وَسَرَوَاتِ أَهْلِ أَيْلَةَ : « سَلِمَتْ أَنْتُمْ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَقَاتِلَكُمْ حَتَّى

- (١) أَي مَنْ حَكَمَ عَلَيْهِ وَخَلَفَ ، كَقَوْلِكَ : وَاللَّهُ لَيُدْخِلَنَّ اللَّهُ فُلَانًا النَّارَ .. وَهُوَ مِنَ الْأَيْلَةِ وَهُوَ الْيَمِينُ (النِّهَايَةُ : ج ١/٦٢) .
- (٢) الرَّزِيَّةُ : الْمَصِيبَةُ (الْوَسِيطُ : ج ١/٢٤١) .
- (٣) السُّعْتَةُ : مَا سَمِعَ بِهِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ رِيَاءً لِيُسَمَعَ وَيُرَى . يُقَالُ : سَمِعَ اللَّهُ بِهِ : أَظْهَرَ إِلَى النَّاسِ عَرَضَهُ وَأَنَّ عَمَلَهُ لَمْ يَكُنْ خَالِصًا . انظر : لسان العرب : ج ٢/٢٠٩٧) .
- (٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢/١٦٦) ، وصحيح مسلم (ج ١/٤٩٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الجمع بين الصلاتين في الحضر ح ٥١ ، و (ج ٤/١٧٨٤) كتاب الفضائل - باب في معجزات النبي ﷺ ح ١٠ ، وسنن الترمذي (ج ٢/٤٢٨) أبواب الصلاة - باب ما جاء في الجمع بين الصلاتين ح ٥٥٣ ، ودلائل البيهقي (ج ٥/٢٤١) .
- (٥) أَي لَا يَنْكُفُّ وَلَا يَنْزَجِرُ (النِّهَايَةُ : ج ٢/٢٣٦) .
- (٦) سنن النسائي (ج ١/١١٦) كتاب الجهاد - فضل من عمل في سبيل الله على قدمه .
- (٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/١٨٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/١٦٦) ، والسيرة الحلبية (ج ٢/١٤٢) ، وسنن أبي داود (ج ٢/٢٧٢) كتاب الصلاة - باب إذا أقام بأرض العدو يقصر الصلاة ح ١٢٣٥ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣/١٣٣) و (ج ٤/٧٤) .
- (٨) أَيْلَةُ : مَدِينَةٌ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ مِمَّا يَلِي الشَّامَ (معجم البلدان : ج ١/٣٩١) . وَجَرَبَاءُ : مَوْضِعٌ مِنْ أَعْمَالِ عَمَّانَ بِالْبَلْقَاءِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَدْرَجَ (معجم البلدان : ج ٢/٧٢٣) . وَأَذْرَحُ : إِثْمٌ بَلَدٌ فِي أَطْرَافِ الشَّامِ مِنْ أَعْمَالِ الشَّرَاةِ ثُمَّ مِنْ نَوَاحِي الْبَلْقَاءِ وَعَمَّانَ مُجَاوِزَةً لِأَرْضِ الْحِجَازِ (معجم البلدان : ج ١/١٦١) . وَمَقْنَا : قَرْبُ أَيْلَةَ (معجم البلدان : ج ٨/١٢٨) .

غزوة تبوك

رجب السنة التاسعة للهجرة



بداية الشام
وادي السمرقند

سنة خالد بن الوليد
دومة الجندل
(الجوف)

صحراء النفوذ

ذبيان
تيماء

مراش مهباج
١٤٠٠

خروج الجيش الإسلامي
٣٠٠٠٠ مقاتل

نهمير
فدك

المدينة المنورة

نهر الروم
«المتوسط»

فزان
القشتك

وادي عربة
العتبة

سينا

جزر تيران

مصر

الشمال

أَكْتَبَ إِلَيْكُمْ فَأَسْلِمُوا أَوْ أُعْطِيَ الْجِزْيَةَ ، وَأَطَعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَرَسُولَهُ وَأَكْرِمَهُمْ وَكُتِبَ لَهُمْ كُتُوبٌ حَسَنَةٌ .. فَإِنَّهُمْ مَهْمَا قَاضَوْكَ عَلَيْهِ فَقَدْ رَضِيَتْهُ ، وَإِنَّ لَكُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ إِنْ أُطِغْتُمْ » .

واتاه أيضاً رسول الله ﷺ يهود جزبَاء وأذرح فأعطوه الجزية ، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم ، وهذا نصه : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ لِأَهْلِ جَزْبَاءِ وَأَذْرَحٍ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِأَمَانِ اللَّهِ وَأَمَانِ مُحَمَّدٍ ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مِائَةَ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ وَاقِيَةَ طَيِّبَةَ ، وَاللَّهُ كَفِيلٌ عَلَيْهِمْ بِالنُّصْحِ وَالْإِحْسَانِ لِلْمُسْلِمِينَ » .

وصالح رسول الله ﷺ يهود مَقْنَا ، ومقنا على ساحل البحر قريب من أَيْلَةَ ، وكتب لهم أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم ربع غزوه (١) وربع غارهم (٢) .

إسلام مالك بن أحمَر العَوْفِي :

وقدم على رسول الله ﷺ وهو بتبوك مالك بن أحمَر العَوْفِي فأسلم ، وسأله أن يكتب له كتاباً يدعو به إلى الإسلام ، فكتب له في رُقْعَةٍ من آدم : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَالِكِ بْنِ أَحْمَرَ وَلِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَمَاناً لَهُمْ مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَاتَّبَعُوا الْمُسْلِمِينَ وَجَانَبُوا الْمُشْرِكِينَ وَأَدَّوْا الْحَمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ وَسَهْمَ الْغَارِمِينَ وَسَهْمَ كَذَا وَسَهْمَ كَذَا ، فَهَمَّ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَأَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » (٣) .

بعث خالد رضي الله عنه إلى أكْبِيدِرِ دُوْمَةَ :

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكْبِيدِرِ بن عبد الملك بدُوْمَةَ الجَنْدَلِ ، وكان رجلاً من كِنْدَةَ قد ملكهم ، وكان نصرانياً ، وقال له : « إِنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقَرَ » . (انظر : مصور غزوة تبوك) .

ويقال : إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر ، رضي الله عنه ، على المهاجرين إلى دُوْمَةَ الجَنْدَلِ ، وبعث خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، على الأعراب معه .

فخرج خالد حتى إذا كان من حصن أكْبِيدِرِ بمنظر العين ، وكانت ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته ، فجاءت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ، قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لأحد ، فزله ، فأمر بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حَسَّان ، فتلقتهم خيل خالد ، رضي الله عنه ، فاستأسر أكْبِيدِرِ ، وقتل أخوه حتى قتل ، وهرب من كان معها فدخل الحصن . وأجار خالد أكْبِيدِرِ من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ على أن يفتح له دُوْمَةَ الجَنْدَلِ ، ففعل ، وصالحه على ألفي بغير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، فعزل للنبي ﷺ صفياً خالصاً ، ثم قسم ما بقي بين أصحابه ، فصار لكل رجل منهم خمس فرائض .

ثم قدم خالد بأكْبِيدِرِ وأخيه مَصَاد ، وكان في الحصن ، على النبي ﷺ ، فصالحه على الجزية ، وحقن دمه ودم أخيه مَصَاد وخلقى سبيلهما ، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم عليه ، وخته يومئذ بظفره .

ويقال : إن خالداً ، رضي الله عنه ، ذكر لأكْبِيدِرِ قول رسول الله ﷺ والذي أمره ، فقال له أكْبِيدِرِ : والله ما رأيتها قط جاءتنا إلا الباردة - يريد البقر - ولقد كنت أضمر لها إذا أردت أخذها ، فأركب لها اليوم واليومين ، ولكن هذا القدر .

فقال رجل من طييء يقال له بَجَيْرِ بن بَجْرَةَ يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد : « إِنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيدُ الْبَقَرَ » وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته لتصديق قول رسول الله ﷺ :

(١) أي رُبْعٍ مَاغَزَلَ نِسَاؤُهُمْ ، وقيل : هذا حَكْمٌ خَصَّ بِهِ هَؤُلَاءِ (النهاية : ج ٣٦٥/٢) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٠/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧٧/١ ، ٢٩٠) ، وصحيح مسلم (ج ١٧٨٥/٤) كتاب الفضائل - باب في معجزات النبي ﷺ ح ١١ .

(٣) انظر : جمع الزوائد (ج ٢٨/١) .

تبارك سائق البقرات إني رأيت الله يهدي كل هاد
فن يك حائداً عن ذي تبوك فإننا قد أمرنا بالجهاد

فقال له النبي ﷺ : « لا يَفْضُضُ اللهُ فَالِكَ » فأتى عليه تسعون سنة فما تحرك له سن .

وأهدى أكيدر إلى رسول الله ﷺ بغلة وجبة من سندس ، فجعل الناس يعجبون من حسن الجبة ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده لمتاديل سعد في الجنة أحسن من هذا » ، ثم وهبها رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ! تكرهها وألبسها ؟ قال : « يا عمر إنما أرسلت بها إليك لتبعتها وجهاً فتصيب بها مالا » وذلك قبل أن ينهى عن الحرير . ويقال إنه أعطاها لعلي ، رضي الله عنه ، وقال له : « شققة خمرأ بين النسوة » (١) .

وفاة عبد الله ذي الجحاديين رضي الله عنه :

وفي تبوك توفي عبد الله ذو الجحاديين المزي ، رضي الله عنه ، قال ابن مسعود : قت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر ، فأتبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو الجحادين قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ في حفرتة ، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه وهو يقول : « أدنيا إلي أخاك » فدلياه إليه ، فلما هبأ لشقته قال : « اللهم ! إني قد أمسيت راضياً عنه فأرض عنه » ، فقلت : ياليتني كنت صاحب الحفرة .

وإنما سمي ذا الجحاديين لأنه كان ينازع (٢) إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه ، حتى تركوه في جهاد ليس عليه غيره . والجحاد : الكساء الغليظ الجافي - فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما كان قريباً منه شق بجاده باثنين ، فاتزر بواحد واشتل بالآخر ، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال له : « من أنت ؟ » قال : أنا عبد العزى - وكان اسمه عبد العزى يومئذ - فقال : « أنت عبد الله ذو الجحاديين » ، ثم قال له : « أنزل مني قريباً » ، فكان يكون من أضيافه ﷺ ، وعلمه القرآن حتى قرأ قرآناً كثيراً ، وكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة ، فشكاه عمر إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ! ألا تسمع إلى صوت هذا الأعرابي يرفع صوته بالقرآن ؟ قد منع الناس القراءة ، فقال رسول الله ﷺ : « دعه يا عمر ، فإنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله » .

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك خرج معه وقال : يا رسول الله ! ادع الله لي بالشهادة ، فقال : « أبغني لحياء شجرة » ، فأتاه بذلك ، فربطها رسول الله ﷺ على عضده وقال : « اللهم ! إني أحرم دمة على الكفار » ، فقال : يا رسول الله ! ليس هذا أردت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنك إذا خرجت غازياً في سبيل الله فأخذتكم حمى فقتلتكم فأنت شهيد ، أو وقصتكم دابتكم فأنت شهيد ، لا تبال بأية كان » . فلما نزلوا تبوك أقاموا بها أياماً ، فأخذته الحمى ومات بها (٣) .

مساجد النبي ﷺ بين المدينة وتبوك :

وبنيت عدة مساجد في طريق النبي ﷺ إلى تبوك في الأماكن التي صلى فيها ، وقد ذكرها ابن إسحاق فعدها سبعة عشر مسجداً (٤) .

رجوع النبي ﷺ إلى المدينة ومكر المنافقين به :

ثم انصرف رسول الله ﷺ من تبوك قافلاً إلى المدينة ، وقال لأصحابه : « إني متعجل إلى المدينة ، فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل » .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨١/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٧٨٢/٢ ، ١٦٦) ، والمستدرک (ج ٥١٩/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٠/٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢١٤/٣) كتاب الهبة - باب قبول الهدية من المشركين ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٣٠/١) ، و (ج ١٢١/٣) ، ومجمع الزوائد (ج ٢١٠/٩) .

(٢) يُقال للإنسان إذا هوى شيئاً ونازعته نفسه إليه : هو يَنزِعُ إليه نزاعاً (لسان العرب : ج ٤٢٩٥/٦) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٣/٤) ، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ٦٧٢/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٦/٤) .

وفي الطريق تأمر اثنا عشر رجلاً من المنافقين - وقيل : أربعة عشر أو خمسة عشر - على الغدر بالنبي ﷺ عند العقبة التي بين تبوك والمدينة ، وقالوا : إذا أخذ العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي ، فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ بذلك ، فلما وصل الجيش العقبة نادى منادي النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد ، واسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع .

فسلك رسول الله ﷺ العقبة ، وسلك الناس بطن الوادي ، إلا النفر الذين مكروا برسول الله ﷺ لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة ، وأمر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر ، رضي الله عنها ، أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، وأمر حذيفة بن اليان ، رضي الله عنها ، أن يسوق من خلفه . فبينما رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سمع حسّ القوم قد غشوه وهم مثلثمون ، فأثقروا ناقته (١) حتى سقط بعض متاعه ، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردم ، فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ، فجعل يضرب وجوه رواحلهم بحجن كان معه ويقول : إليكم إليكم يا أعداء الله - ويقال : إن النبي ﷺ صرخ بهم فولوا مدبرين - فأرعبهم الله ، عز وجل - وعلموا أن رسول الله ﷺ اطلع على مكربهم به ، فاخطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة ، رضي الله عنه ، حتى أدرك النبي ﷺ ، فقال له : « اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت يا عمّار » ، فأسرع حتى خرج من العقبة فاستوى بأعلاها ينتظر الناس ، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة : « هل عرفت يا حذيفة أحداً من هؤلاء الركب ؟ » قال : لا ، كان القوم مثلثمين والليل مظلمة ، فقال : « هل علمت ما كان من شأن الركب وما أرادوا ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، فقال : « إنهم مكروا ليسيروا معي فيزحموني في العقبة فيطرخوني منها ، إن الله قد أخبرتني بهم وبمكربهم وسأخبرك بهم » ، فسأهم له وقال : « لا تخبرن أحداً » - ويقال : إنه سأمهم لحذيفة وعمار وقال : « اکتماهم » .

فلما أصبح رسول الله ﷺ وجاءه الناس أخبرهم بما أراد المنافقون ، فقالوا : يا رسول الله ! أولا تبعث إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : « لا ، أكره أن تحدث العرب بيئتها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم » ، ثم قال : « اللهم ! ازمهم بالديبيلة » ، قالوا : يا رسول الله ! وما الديبيلة ؟ قال : « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك »

ثم جمع رسول الله ﷺ الذين مكروا به وأخبرهم بما قالوا وما أجمعوا عليه ، فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذي ذكر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ ، وأنزل الله تعالى في ذلك أيضاً : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ (٣) . وعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة (٤) .

فقد روى مسلم بسنده عن أبي الطمّيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أشدك بالله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك ، قال : كنت أخبر أنهم أربعة عشر . فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم (٥) . ومات الاثنا عشر منافقين بحاربيّن الله تعالى ورسوله ﷺ .

ولذلك كان يقال لحذيفة ، رضي الله عنه ، صاحب سر رسول الله ﷺ . روي عن عروة بن الزبير قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ حين غزا تبوك نزل عن راحلته ، فأوحى إليه وراحلته بركة ، فقامت تجر زمامها حتى لقيها حذيفة بن اليان ، فأخذ بزمامها فاقتادها حتى رأى رسول الله ﷺ جالساً فأنابها ، ثم جلس عندها حتى قام رسول الله ﷺ فأتاه فقال : « من هذا ؟ » فقال : حذيفة بن اليان ، قال رسول الله ﷺ : « فإني أسير إليك أمراً فلاتذكرنّه ، إنني قد نهيت أن أصلي على فلان وفلان » رهط ذوي

(١) أنفّر الدابة وأنفّر بها ، أي جعلها فرجةً مندورة (لسان العرب : ج ٤٤٩/٦) .

(٢) نياط القلب : هو العرق الذي القلب معلق به (النهاية : ج ١٤١/٥) .

(٣) التوبة : ٧٤ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٢/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٥٥/٢) كتاب الزكاة - باب خوص التمر ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٥٢/٥) ، ومجمع

الزوائد (ج ١٠٩/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٦/٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠) .

(٥) صحيح مسلم (ج ٢١٤٤/٤) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ح ١١ .

عدد من المنافقين لم يعلم رسول الله ﷺ ذكرهم لأحد غير حذيفة بن اليان ، فلما توفي رسول الله ﷺ كان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في خلافته إذا مات رجل يظن أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فاقتراده إلى الصلاة عليه ، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه ، وإن انتزع حذيفة يده فأبى أن يمشي معه ، انصرف عمر معه فأبى أن يصلي عليه ، وأمر عمر ، رضي الله عنه ، أن يصلي عليه (١) .

هدم مسجد الضرار :

ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بني أوان ، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، فجاهه جماعة من المنافقين وسألوه أن يأتي مسجدهم بقباء ليصلي فيه - وهو مسجد الضرار - فلما قام رسول الله ﷺ ليأتيهم أنزل الله تعالى عليه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (٢) .

وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة واللبيلة المطهرة واللبيلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ ، فقال : « إني على جناح سفرٍ وحالٍ شغلٍ ولو قدمنا ، إن شاء الله ، لأتيناكم فصلتاً لكم فيه » .

ويذكر أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء فصلى بهم رسول الله ﷺ حسدتهم إخوانهم بنو عثم بن عوف ، وقالوا مع طائفة من المنافقين : نصلي في مربط حمار - فقد كان موضعه لامرأة تربط فيه حمارها - ولكننا نبني مسجداً ونبعث إلى رسول الله ﷺ يصلي فيه كما صلى في مسجد أصحابنا ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ، فيثبت لنا الفضل والزيادة على إخواننا . وكان المسلمون في تلك الناحية كلهم يصلي في مسجد قباء جماعة ، فلما بني هذا المسجد فصرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا بذلك المسجد ، كان به إضرار لأهل مسجد قباء وتفريق للمؤمنين ، وكان المنافقون يجتمعون فيه ويعيبون النبي ﷺ ويستهزؤون به .

ويقال : إن أبا عامر الراهب الذي سمّاه النبي ﷺ فاسقاً هو الأمر لهم ببنائه ، فقال لهم قبل خروجه إلى الشام : ابنوا لي مسجداً واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ ، فقالوا : إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحّب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة .

فلما نزل رسول الله ﷺ بني أوان وأباه خبر المسجد من السماء ، دعا مالك بن الدخشم أبا بني سالم بن عوف ، ومَعَن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي أبا بني العجلان ، فقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدماه وحرّقا » . فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرنني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرّقا وهدماه (٣) ، وتفرّقا عنه .

وكان الذين بنوه اثنا عشر رجلاً : خدام بن خالد من بني عبيد بن زيد ، ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وتعلّبت بن حاطب من بني أمية بن زيد ، ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزرع من بني ضبيعة بن زيد ، وعبد بن حنيفة أخو سهل بن حنيفة من بني عمرو بن عوف ، وجارية بن عامر ، وابناه : مَجْمَع وزيد ابنا جارية ، وتبّتل بن الحارث من بني ضبيعة ، وبخزج من بني ضبيعة ، وبجاد بن عثمان من بني ضبيعة ، ووديعة بن ثابت من بني أمية بن زيد رهط أبي لبابة بن عبد المنذر .

(١) السنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٠٠/٨) .

(٢) التوبة : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) يروى أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة من تبوك عرضه على عاصم بن عدي ليأخذ داراً ، فقال : ما كنت أتخذه وقد أنزل الله فيه ما أنزل ، ولكن أعطه ثابت بن أقرم فإنه لا منزل له ، فأعطاه ، فلم يولد في ذلك البيت مولود قط ولا حمام ولا دجاج . ويذكر أنه حفر في موضعه بقعة فأبصروا الدخان يخرج منها ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يتخذ محلاً لإلقاء الكناسه والحيفة . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٨٠/٣) ، والسيرة الحلبية (ج ١٤٤/٣) .

وكان مُجَمَّع بن جارية إذ ذاك غلاماً حَدَّثاً قد جمع من القرآن أكثره ، فقدّموه إماماً لهم وهو لا يعلم بشيء من شأنهم ، وقد ذكر أن بني عمرو بن عوف أصحاب مسجد قُبياء لما قُتِلَ إمام مسجدهم بالقادسية ، كلّموا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في خلافته أن يأذن لمَجَمَّع أن يؤمّهم في مسجدهم ، فقال : لا ، أو ليس بإمام المناققين في مسجد الضّرار ؟ فقال له مَجَمَّع : يا أمير المؤمنين ! والله الذي لا إله إلا هو ما علمت بشيء من أمرهم ، ولكني كنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا لا قرآن معهم ، فقدّموني أصلي بهم ، وما أرى أمرهم إلا على أحسن ما يذكرون ، فعذره عمر ، رضي الله عنه ، وتركه فصلّى بقومه (١) .

قدوم النبي ﷺ المدينة :

فلما أشرف رسول الله ﷺ على المدينة قال : « هذه طابّة أَسَكَنَنيها رَبِّي تَنفِي خَيْثَ أَهْلِها كَمَا يَنفِي الكَيْثُ خَيْثَ الحَدِيدِ » ، ولما رأى أحدًا قال : « هذا جَبِيلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ ، أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ دُورِ الأَنْصارِ ؟ » قالوا : بلى ، قال : « دُورُ بني النُجَّارِ ، ثم دُورُ بني عَبْدِ الأَشْهَلِ ، ثم دُورُ بني سَاعِدَةَ ، أو دُورُ بني الحارثِ بنِ الحَزْرَجِ ، وفي كُلِّ دُورِ الأَنْصارِ خَيْرٌ » . فأخبر سعد بن عبادَةَ ، رضي الله عنه ، بذلك ، فأدرك النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! خَيْرِ دُورِ الأَنْصارِ فَجَعَلنا آخراً ، فقال : « أَوَ لَيْسَ بِحَسْبِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الحِيارِ ؟ » .

وتسامع الناس بمقدم النبي ﷺ ، فخرجوا إلى ثنية الوداع يتلقونه تعظيماً له وإكراماً ، وفرحاً وسروراً به لطول غيبته ، فقد كان خروجه ﷺ إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان ، وجعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلّـع البـدر علينـا من ثنـيات الـوداع
وجـب الشـكر علينـا ماددـه الله داع

ودخل رسول الله ﷺ المدينة ضحى ، وكان قلباً يقدم من سفر سافره إلا ضحى ، وكان يبدأ بالمسجد ، فأقى مسجده فصلّى فيه ركعتين ، ثم قال : « الحمد لله على ما رزقنا في سفرنا هذا من أجرٍ وحسبةٍ » ، ثم جلس للناس (٢) .

أمر المخلفين :

كانت غزوة تبوك لظروفها الخاصة بها اختباراً شديداً من الله تعالى تميّز به المؤمنون من غيرهم ، فقد خرج في هذه الغزوة كل من كان مؤمناً صادقاً حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل ، فكان الرجل إذا تخلف وذكره لرسول الله ﷺ - كما تقدّم في تخلف أبي ذر رضي الله عنه - قال لهم : « دَعَوْهُ ، فَإِنْ يَكُنْ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاكُمْ اللهُ مِنْهُ » .

وكان قد تخلف عنه ﷺ - كما مضى ذكره - رهط من المنافقين والأعراب ، ومن حبسهم العذر ، وثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير عذر ، وهم الذين أبلّاهم الله تعالى ثم تاب عليهم .

وقد كان رسول الله ﷺ لما دنا من المدينة وتلقاه عامة الذين تخلفوا عنه ، قال لأصحابه : « لا تكلّموا رجلاً منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم » .

فأعرض عنهم رسول الله ﷺ والمؤمنون حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وعن أخيه ، وحتى إن المرأة لتعرض عن زوجها ، فكثوا بذلك أياماً حتى كرب الذين تخلفوا ، فجاءوا النبي ﷺ فجمعوا يعتذرون إليه بالجهد والأسقام ويخلفون له ، فعذرهم رسول الله ﷺ

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٤٤/٢) ، و (ج ١٨٥/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧٢/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٢/٥) ، وفتوح البلدان (ص : ١٧) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٩/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٥٥/٢) كتاب الزكاة - باب خرص التمر ، و (ج ٤١/٥) كتاب المناقب - باب فضل دور الأنصار ، و (ج ١٠٦/٦) كتاب المغازي - باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ، و (ج ٨٨/٦) كتاب التفسير - سورة براءة ، وصحيح مسلم (ج ١٩٥/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب في خير دور الأنصار ح ١٧٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٥٥/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٧/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٢٦٦/٥) ، والسيرة الحلبية (ج ١٤٤/٣) .

وبإيعامهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمر كعب بن مالك وصاحبيه وهما مَرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، رضي الله عنهم ، حتى أتت من الله توبتهم (١) .

ولنترك كعب بن مالك ، رضي الله عنه ، يحدثنا عن قصة تخلفه وتخلف صاحبيه ، قال كعب رضي الله عنه : ما تخلفت عن رسول الله ﷺ غزوة غزاها قط ، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد غير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة حين توثقنا على الإسلام ، وما أحب أني لي بها مشهد بدر ، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها .

قال : كان من خبري - حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك - أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ قلباً يريد غزوة يغزوها إلا ورى غيرها ، وكان يقول : « الْحَرْبُ خُدْعَةٌ » ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، واستقبل غزو عدو كثير ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبتهم ، وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يعني بذلك الديوان ، أي : لا يجمعهم ديوان مكتوب - فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك ، ما لم ينزل فيه وحي من الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثار ، وأحبت الظلال فالناس إليها صُفْرٌ (٢) ، فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أعدو لا تجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى شمر بالناس الجِد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ، ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى أسرعوا وتفرط الغزو (٣) ، فهممت أن أرتحل فأدرتهم وليتني فعلت ، فلم أفعل ، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم يمزني أني لأرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق (٤) ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟ » فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ! حبسه برداه والنظر في عطفيه (٥) ، فقال له معاذ بن جبل : بس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ .

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضري بتي ، فجعلت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي : فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أطل قادمًا زاح عن الباطل وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجعت أن أصدقه ، وصبح رسول الله ﷺ المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فجعلوا يخلصون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً (٦) ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم ويكفل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم المغضب ، ثم قال لي : « تَعَالَى » ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : « مَا خَلَفَكَ أَلَمْ تَكُنْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قلت : إني يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكن والله لقد علمت لأن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عني وليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد علي فيه إني لأرجو عقابي من الله

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٦/٤ ، ٢١٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٧/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٨٠/٥) .

(٢) أي : تميل (النهاية : ج ٣١/٣) .

(٣) تَفَرَّطَ الْغَزْوُ : فَاتَ وَقْتَهُ وَتَقَدَّمَ (النهاية : ج ٤٣٥/٣) .

(٤) أي : مطعوناً في دينه متهماً بالنفاق (النهاية : ج ٢٨٦/٣) .

(٥) عَطَفْتُ كُلَّ شَيْءٍ : جَانِبُهُ ، وَهُوَ مِنَ الْإِنْسَانِ مِنْ لَدُنِ رَأْسِهِ إِلَى وَرِكَيْهِ ، وَيُقَالُ : مَرَّ يَنْظُرُ فِي عِطْفِهِ : مَرَّ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ (الوسيط : ج ٦١٥/٢) .

(٦) ذكرنا فيما مضى أن هذا العدد كان من المناققين ، وأن المعتذرين من الأعراب كانوا أيضاً اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم ، وأن عبد الله بن أبي ابن سلول انسحب من أطاعه من أصحابه من ثبية الوداع وكانوا غير هؤلاء .

فيه ، ولا والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، فمّم حتى يقضي الله فيك » . فقممت وثار معي رجال من بني سلمة ، فأتبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا أحد غيري ؟ قالوا : نعم ؛ رجلان قالوا مثل مقالتك ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين فيها أسوة ، فصمت حين ذكروها لي ، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لي نفسي والأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبشنا على ذلك خمسين ليلة^(١) ، فأما صاحبنا فاستكانا وقعدا في بيوتها ، وأما أنا فكنيت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وأتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظرت إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ! أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت عني ، فعدت فناشدته ، فسكت عني ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، فضاقت عينا ، ووثبت فتسورت الحائط ، ثم غدوت إلى السوق ، فبينما أنا أمشي بالسوق وإذا تبطني يسأل عني من تبط الشام من قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يندل على كعب بن مالك ، فجعل الناس يشيرون له إلي ، حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، يقال : إنه جيلة بن الأيهم ، في سرقة من حرير^(٢) ، فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضجعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك ، فعمدت بها إلى تنور فسجرت بها .

فأقنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الحسين إذا رسول الله ﷺ يأتي ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعزل امرأتك ، قلت : أطلقتها أم ماذا ؟ قال : لا ، بل اعزلها ولا تقر بها ، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوفي عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله ! إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفنكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا تقرت بك » ، قالت : والله يا رسول الله ما به من حركة إلي ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تحوّفت على بصره . قال كعب : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، قلت : والله لا أستأذنه فيها ، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ لي في ذلك إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب .

قال : فلبشنا بعد ذلك عشر ليال ، فكل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ، ثم صليت الصبح صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التي ذكر الله منا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت علي نفسي ، قال : وما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلني علي النبي ﷺ ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد

(١) قيل : إنما اشتد الغضب على من تخلف وإن كان الجهاد فرض كفاية ، لأنه في حق الأنصار خاصة فرض عين لأنهم بايعوا على ذلك ومصداقه قولهم وهم يحفرون الخندق :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة لأنها كالنكت لبيعتهم . وقيل : إنما غلظ الأمر على الثلاثة وهجروا ، لأنهم تركوا الواجب بلا عذر ، لأن الإمام إذا استنفر الجيش عموماً لزهم النفير ، ولحق اللوم بكل فرد أن لو تخلف ، فهذا وجه ثان يؤيده قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَخْلَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَزْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ - التوبة : ١٢٠ - انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٣ : ٨٦٣ - ٨٧) .

(٢) أي قطعة من جيد الحرير ، وقد تقدم .

منهم ولا يصلي عليّ ، وقد كنت ابنتيت خيمة في ظهر سلع فكننت أقيم بها النهار صائماً وأوي إلى داري في الليل ، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ! أبشر ، قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج ، وكان الله أنزل توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الآخر من الليل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة في شأني ، معنية في أمري ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سلمة ! ثيب على كعب » ، قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ قال : « إذا يحطيمكم الناس^(١) فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلِ » ، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر أذن الناس بتوبة الله علينا ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبي مبشرون^(٢) ، وركض رجل إلي فرساً ، وسعى ساع من أسلم حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني نزعته ثوبي فكسوتها إياه بشارة ، والله ما أملك يومئذ غيرها ، واستعرت ثوبين من أبي قتادة فلبستها ، ثم انطلقت أتيت رسول الله ﷺ وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة ، ويقولون لتنهيك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله فحياني وهناني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره . - فكان كعب لا ينساها طلحة - قال فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال لي ووجهه يبرق من السرور : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « بل من عند الله »^(٣) ، فأخذت يده فقبلتها ، قال : وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ! إن من توبتي إلى الله ، عز وجل ، أن أخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « أمسك عليك بعض ممالك فهو خير لك » ، قلت : إني مسك سهمي الذي بخير ، وقلت : يا رسول الله ! إن الله قد نجاني بالصدق ، وإن من توبتي إلى الله أن لأحدث إلا صدقاً ما حبيت .

قال كعب : والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله ﷺ ذلك أفضل مما أبلاني ، والله ما تعدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي .

وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾^(٤) .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله ، تبارك وتعالى ، قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، قال : ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٥) .

قال : وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فعذرهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ما قضى ، فبذلك قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ وليس الذي ذكر الله من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة ، ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه^(٦) .

(١) أي : يَدْرُسُونَكُمْ وَيَزِدُّوْنَ عَلَيْكُمْ (النهاية : ج ٤٠٢/١) .

(٢) في رواية الواقدي لحديث كعب بن مالك قال : وخرج أبو الأغرور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل إلى هلال يبشره ببني واقف ، فلما أخبره سجد ، قال سعيد : فظننت أنه لا يرفع رأسه حتى تخرج نفسه ، وكان بالسرور أكثر بكاء منه بالحزن حتى خيف عليه ، ولقيه الناس يهتفونه ، فاستطاع المشي إلى رسول الله ﷺ ، لما ناله من الضعف والحزن والبكاء ، حتى ركب حماراً . (مغازي الواقدي : ج ١٠٥٢/٣) .

(٣) يروي أن رسول الله ﷺ أمر كعب بن مالك حين تيب عليه وعلى أصحابه أن يصلي ركعتين . انظر : المستدرک (ج ٤٤١/٣) .

(٤) التوبة : ١١٧ - ١١٨ .

(٥) التوبة : ٩٥ - ٩٦ .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٨٧/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢/٦) كتاب المغازي - باب غزوة تبوك ، و (ج ٨٨/٦) كتاب التفسير - سورة براءة ، وسنن أبي داود (ج ٩٩/٣) كتاب الجهاد - باب المكر في الحرب ح ٢٦٣٧ ، ومجمع الزوائد (ج ٤٢/٨) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٨٠/٥) .

- وأما الذين حبسهم العذر فقد قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيْتَخِمَهُمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴾ (١) .

وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَايًّا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ » ، قالوا : يا رسول الله ! وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ » (٢) .

أمر أبي لُبَابَةَ وَأَصْحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ :

روى البيهقي بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنها ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجُوا بِدُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا ﴾ (٣) . قال : كانوا عشرة رهط تخلَّفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع النبي ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، وكان مَرَّ النبي ﷺ إِذَا رَجَعَ مِنَ الْمَسْجِدِ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ قَالَ : « مَنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْتَفِقُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي ؟ » قالوا : هذا أبو لُبَابَةَ وَأَصْحَابُ لَهُ تَخَلَّفُوا عَنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى يُطْلِقَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَعْذِرُهُمْ ، قَالَ : « وَأَنَا أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أُطْلِقُهُمْ وَلَا أُعْذِرُهُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ ؛ رَغِبُوا عَنِّي ، وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْعَزْمِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ » . فلما أن بلغهم ذلك قالوا : ونحن لانطلق أنفسنا حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَخْرَجُوا بِدُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وعسى من الله واجب ، إنه هو التواب الرحيم ، فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم ، فجاؤوا بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله ! هذه أموالنا فنصدق بها عنا واستغفر لنا ، قال : « مَا أَمَرْتُ أَنْ أَخْذَ أَمْوَالَكُمْ » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول : استغفر لهم ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (٤) فخذ منهم الصدقة واستغفر لهم (٥) .

وروى البيهقي أيضاً في دلائل النبوة : أن أبا لُبَابَةَ لما أشار لبني قريظة بيده إلى حلقه أنه الذبيح ، فأخبر عنه رسول الله ﷺ بذلك قال له : « أَحْسِبْتَ أَنَّ اللَّهَ فَخِلٌ عَنِ يَدِكَ حِينَ تُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِهَا إِلَى حَلْقِكَ ؟ » فلبث حيناً ورسول الله ﷺ عاتب عليه ، ثم غزا تبوكاً ، فتخلف عنه أبو لُبَابَةَ فبين تخلف ، فلما قفل رسول الله ﷺ منها ، جاء أبو لُبَابَةَ يسلم عليه ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ففرغ أبو لُبَابَةَ ، فارتبط بسارية التوبة التي عند باب أم سلمة ، رضي الله عنها ، سبعاً بين يوم وليلة ، وقال لا يزال هذا مكاني حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله تعالى عليّ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجُوا بِدُنُوبِهِمْ .. ﴾ (٦) .

وقد تقمَّ أن أبا لُبَابَةَ ، رضي الله عنه ، ربط نفسه ببعض سواري المسجد في غزوة بني قريظة لقصته معهم لا بسبب تخلفه عن غزوة تبوك ، فالله أعلم .

ما نزل من القرآن الكريم حول غزوة تبوك :

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة ، نزل بعضها قبل الخروج ، وبعضها بعد الخروج ، وهو في السفر ، وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة ، وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة وفضل المجاهدين المخلصين وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين وفضح المنافقين ، وكانت سورة التوبة من أشد ما نزل في المنافقين حتى كانت تسمى الفاضحة وتسمى المبعثرة لما كشفت من

(١) التوبة : ٩١ - ٩٢ .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٠/٦) كتاب المغازي - باب غزوة تبوك .

(٣) التوبة : ١٠٢ .

(٤) التوبة : ١٠٣ .

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٢/٥) .

(٦) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٠/٥) .

سراير الناس ، وكان أصحاب النبي ﷺ يقولون : مازلنا نقرأ في سورة التوبة مما نزل في المنافقين : ومنهم .. ومنهم .. ومنهم .. حتى خشينا ألا ينفلت منا أحد أذنب ذنباً قط إلا ذكر فيها^(١) .

☆ ☆ ☆

عدد الغزوات والسرايا ونظرة عامة عليها :

وبغزوة تبوك انتهت الغزوات النبوية التي بلغ عددها سبعا وعشرين غزوة ، قاتل فيها في تسع غزوات : بدر وأحد والخندق وقريظة والمصطلق وخيبر والفتح وحنين والطائف .

وبلغت بعوث النبي ﷺ وسراياه ثمانياً وثلاثين بين بعث وسرية ، وقيل : سبعا وأربعين أو ثمانياً وأربعين . وقد كان رسول الله ﷺ يقول : « لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأُحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُونِي ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ! لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ » .

وكان النبي ﷺ إذا بعث بعثاً أغزاه أول النهار وقال : « تَأَلَّفُوا النَّاسَ وَلَا تَغَيِّرُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى تَدْعُوهُمْ ، فَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ وَلَا مَدِيرٍ وَلَا وَبَرٍ^(٢) ، إِلَّا تَأْتُونِي بِهِمْ مُسْلِمِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَأْتُونِي بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَتَقْتُلُوا رِجَالَهُمْ »^(٣) .

وإذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه لا يمكن لنا ولا لأحد من ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها ... لا يمكن لنا إلا أن نقول : إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا ، وأسدهم وأعظمهم فراسة وتيقظاً ، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف ، كما كان سيّد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة ، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الطرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير ، ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لغلظة في الحكمة وما إليها من تهيئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية ، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة ، واختيار أفضل خطة لإدارة دفعة القتال ، بل أثبت في كل ذلك أن له نوعاً آخر من القيادة غير ماعرفتها ، وتعرف الدنيا في القواد . ولم يقع ما وقع في أحد وحنين إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش - في حنين - أو من جهة معصيتهم أو امره ، وتركهم التقيّد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبها عليهم من حيث الوجهة العسكرية في أحد .

وقد تجلّت عبقريته ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين ، فقد ثبت مجابهاً للعدوّ ، واستطاع بحكته الفذة أن يجيّبهم في أهدافهم - كما فعل في أحد - أو يغيّر مجرى الحرب حتى يبذل الهزيمة انتصاراً - كما في حنين - مع أن مثل هذا التطور الخطير ، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد ، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر ، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا همّ النجاة بأنفسهم .

هذه من ناحية القيادة العسكرية الخالصة ، أما من نواح أخرى ، فيانه استطاع بهذه الغزوات والسرايا فرض الأمن وبسط السلام ، وإطفاء نار الفتنة ، وكسر شوكة الأعداء في صراع الإسلام والوثنية ، وإلجائهم إلى المصالحة ، وتخفيف السبيل لنشر الدعوة . وقد أريق في جميع هذه الغزوات والسرايا أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات ، فلم تتجاوز القتلى كلها (١٠١٨) قتيلاً من الفريقين .

كما استطاع أن يتعرّف من خلال هذه الغزوات على الخلفيين من أصحابه وعلى من يبطن النفاق ويضمر نوازع الغدر والخيانة . وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد ، الذين لا قوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام ، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفعة

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢١٢/٤) ، وكنز العمال (ج ٤٢٨/٢) .

(٢) أي : أهل البوادي والمدن والقرى . والوَبَر : هو من وَبَرَ الإِبِل ، لأنَّ بُيُوتَهُمْ يَتَّخِذُونَهَا مِثْلَ النَّهْيَةِ : ج ١٤٥/٥ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٨٠/٤ - ٢٨١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٦٢/٥ ، ٤٦٦) ، وصحيح البخاري (ج ١٥/١) كتاب الإيمان - باب الجهاد من الإيمان ، وصحيح مسلم (ج ١٤٩٧/٢) كتاب الإمارة - باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ح ١٠٦ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤١٦/٣) ، وكنز العمال (ج ٤٦٩/٤) .

القتال ، حتى استطاعوا إجلاءهم عن أرضهم وديارهم وأمواهم من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

واستطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات أن يوفر السكنى والأرض والحرف والمشاعل للمسلمين ، حتى قضى على كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار ، وهياً السلاح والكرع والعدة والنققات ، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمقتال ذرة من الظلم والطغيان والبغي والعدوان على عباد الله .

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية ، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان ، وأخذ الثأر ، والفوز بالوتر ، وكبت الضعيف ، وتخريب العمران وتدمير البنيان ، وهتك حرمت النساء ، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان ، وإهلاك الحرث والنسل ، والعبث والفساد في الأرض - في الجاهلية - إذ صارت هذه الحرب - في الإسلام - جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة ، وأغراض سامية وغايات محمودة ، يعتز بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان . فقد صارت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان ، إلى نظام العدالة والصف ، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف ، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه ، وصارت جهاداً في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أُمَّهَاتُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصيراً ﴾ (١) ، وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة .

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقواده ، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال . روى مسلم بسنده عن بُرَيْدَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْ صَاهٍ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، ثُمَّ قَالَ : « اَعْرَؤُوا بِاسْمِ اللَّهِ ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، اَعْرَؤُوا وَلَا تَغْلُوا ، وَلَا تَعْدُوا ، وَلَا تَمْتَلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالَ فَأَيْتَهُنَّ مَا أَحْبَبْتَ فاقْبَلْ مِنْهُمُ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحْوِيلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ السَّنِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْعَيْنَةِ وَالْفِيءِ شَيْءٌ ، إِلَّا أَنْ يَجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّمُوا الْجِزْيَةَ ، فَإِنْ هُمْ أَحْبَبُوا فاقْبَلْ مِنْهُمُ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ ، فَأَرَادُوا أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوا أَنْ تَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا » (٢) .

وكان يأمر بالتيسير ويقول : « بَشُرُوا وَلَا تُنْفَرُوا ، وَيَسِّرُوا وَلَا تَعْسِرُوا » (٣) . وكان إذا جاء قوماً بلبيل لم يغير عليهم حتى يصبح ، ونهى أشدَّ النهي عن التحريق في النار ، ونهى عن قتل النساء وضرهن ، ونهى عن النهب ، ونهى عن قطع الأشجار إلا إذا اشتدت إليها الحاجة ، ولا يبقى سواه سبيل ، وقال عند فتح مكة : « لَا تَجْهَرْنَ عَلَى جَرِيحٍ وَلَا يَتَبَعَنَّ مُدْبِرٌ وَلَا يَقْتُلَنَّ أُسَيْرٌ » (٤) . وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل (٥) ، وشدد في النهي عن قتل المعاهدين .. إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهاداً مقدساً (٦) .

☆ ☆ ☆

(١) النساء : ٧٥ .

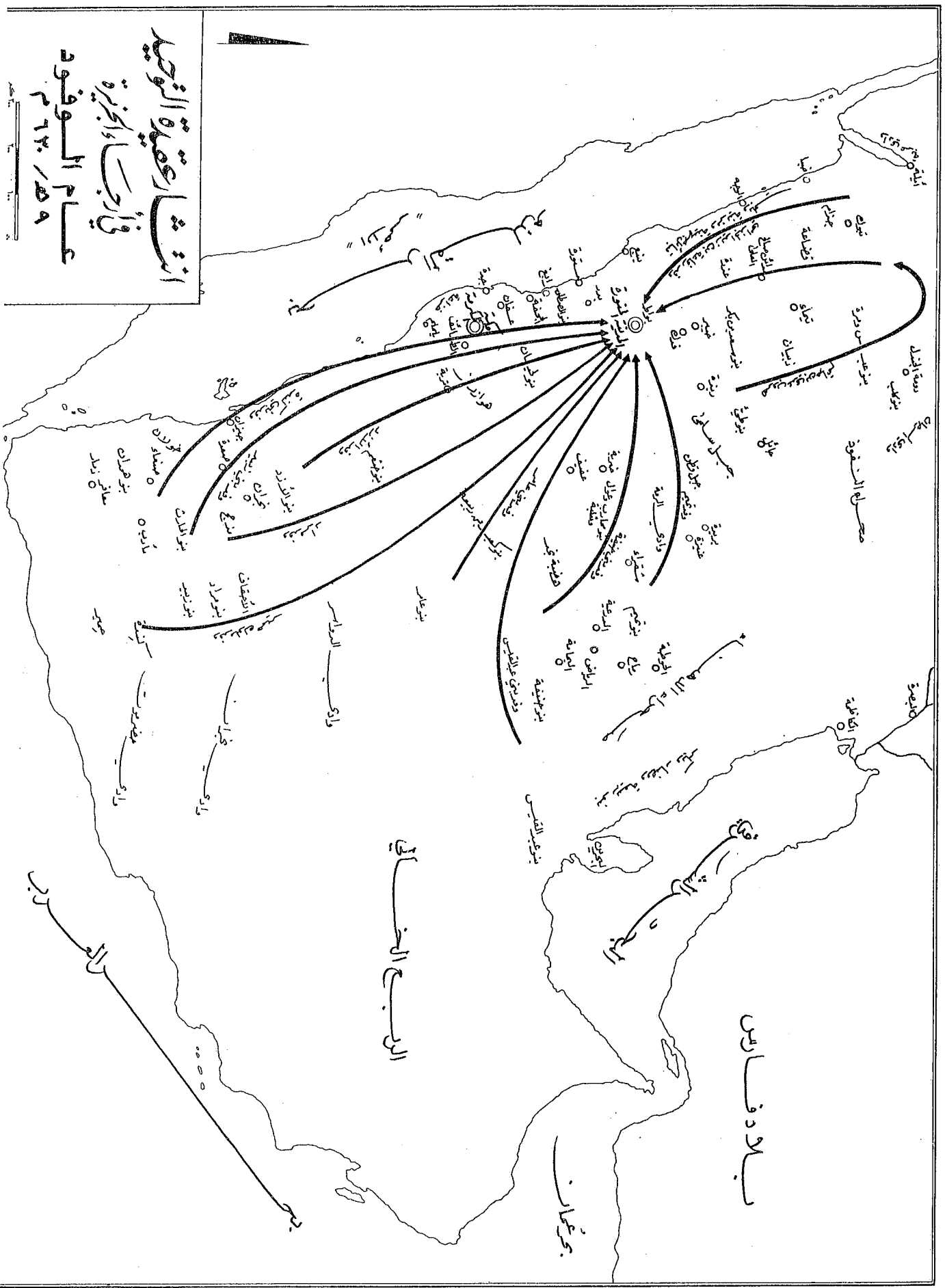
(٢) صحيح مسلم (ج ١٣٥٧/٣) كتاب الجهاد والسير - باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث .. ح ٣ .

(٣) صحيح مسلم (ج ١٣٥٨/٣) كتاب الجهاد والسير - باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ح ٦ .

(٤) فتوح البلدان (ص : ٥٣) .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٩٦/١) .

(٦) انظر : الرحيق المختوم (ص : ٤٩٦ - ٤٩٨) ، والسيرة النبوية / لأبي الحسن علي الحسيني الندوي (ص : ٣١٨) .



سقطرية

الريج الأحمر

الجزيرة سقطرية

في أرجاء الجزيرة

عام ١٣٠٦ هـ

١٠ كم

تتابع الوفود

ذكرنا أنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وقضى على الوثنية فيها قضاءً باتاً سارعت القبائل العربية إلى اعتناق الإسلام .

قال ابن إسحاق : وإنما كانت العرب تربيص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش ، وأمر رسول الله ﷺ. وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهادهم ، وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم ، عليها السلام ، وقادة العرب ، لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه ، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودونها^(١) الإسلام ، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله ، كما قال الله عز وجل ﴿ أَفُوجاً ﴾ يضربون إليه من كل وجه ، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفُوجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاشْتَغِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾^(٢) .

وتأكد ذلك أي تأكد بعد غزوة تبوك فقد ظهر للناس أن سلطان دولة الروم قد أخذ يتراجع أمام سلطان دولة الحق ، ولم يعد الخوف يمنح أحداً من الدخول في الإسلام بعد ما تبين لهم الهدى والحق ، ولذلك بلغت الوفود أوجها في السنة التاسعة للهجرة بعد مقدم النبي ﷺ من تبوك ، حتى سميت هذه السنة سنة الوفود لكثرة ما جاءه ﷺ من الوفود ، وتتابعت في السنة العاشرة والحادية عشرة للهجرة .

وكانت هذه الوفود ترد إلى المدينة فيضرب لهم رسول الله ﷺ منزلاً لرواحلهم قرب مسجده الشريف ، فيقيمون فيه أياماً ضيوفاً مكرمين ، فيسمعون من النبي ﷺ بيانه وموعظته ، وينتدب لهم من علماء الصحابة ، رضي الله عنهم ، من يجيبهم عما يسألون ، ويشرح لهم ما يجهلون ، ثم يدعهم إلى الإسلام في رفق ولين ، بعد أن يكونوا قد رأوا بأعينهم حال المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وعشرتهم وتعاونهم وعبادتهم فترق قلوبهم وتقترب بذلك من الحق ، وكان النبي ﷺ يعين للقوم إذا أسلموا أميراً منهم ، ويرسل أحياناً معهم من أصحابه من يفقههم أمور دينهم .

وتجدد الإشارة هنا إلى أن وقادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح ، لكن هناك قبائل توافدت قبله أيضاً كما مر معنا خلال عرض أحداث السيرة .

والوفود التي ذكرها أهل المغازي والسير يزيد عددها على السبعين ، ولا يمكن لنا استقصاها وبسط تفاصيلها ، وإنما سنذكر منها ماله فائدة أو أهمية في التاريخ ، ونشير إلى بعضها إشارة سريعة . وسنعمد في سردتها الترتيب الزمني . (انظر : مصور انتشار عقيدة التوحيد في أرجاء الجزيرة - عام الوفود) .

وفد ثقيف :

وكان قدومهم في رمضان سنة تسع للهجرة ، وكان من حديثهم أنه لما انصرف رسول الله ﷺ عنهم من غزوة الطائف أتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم ، رضي الله عنه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع ، ثم سأل

(١) أي أذلها . وقد تقدم .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٢٢١/٤) .

النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ » ، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم ، فقال عروة : يا رسول الله ! أنا أحب إليهم من أباكرهم - أي أولادهم - أو من أبصارهم ، ولو وجدوني نائماً ما أيقظوني .

فخرج عروة يدعو قومه إلى الإسلام ، وهو يظن أنهم يطيعونه ، لأنه كان سيداً محبباً مطاعاً فيهم ، فلما أشرف لهم على عليّة له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل جانب فأصابه سهم فقتله .

وفي رواية : أنه قدم الطائف عشاء ، فجاءته ثقيف يسلمون عليه بتحية الجاهلية ، فأنكرها عليهم وقال : عليكم بتحية أهل الجنة ؛ السلام ، فأذوه ونالوا منه ، فحلّم عنهم ، وخرجوا من عنده ، فجعلوا يأترون به ، فلما طلع الفجر قام عروة على غرفة له فأذن بالصلاة ، فخرجت إليه ثقيف من كل ناحية ، فرماه رجل من ثقيف من بني مالك بسهم فقتله ، فلبس رؤساء الأحلاف السلاح ، وقالوا : فوت عن آخرنا أو نثار به عشرة من رؤساء بني مالك ، فلما رأى عروة بن مسعود ما يصنعون وهو في سكرات الموت قال : لا تتقتلوا في قد تصدقت بدمي على صاحبه لأصلح بذلك بينكم ، وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ لقد أخبرني بهذا أنك تقتلونني ، فقيل له : ماترى في دمك ؟ فقال : كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إليّ فليس بي إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفونوني معهم ، فمات فدفنوه معهم ، ولما بلغ النبي ﷺ مقتله قال : « إِنَّ مَثَلَهُ فِي قَوْمِهِ كَمَثَلِ صَاحِبِ بَيْسِ فِي قَوْمِهِ ، دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ فَفَقَتَلُوهُ » .

وأقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم اثتروا بينهم ، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا ، وقال بعضهم لبعض : أفلاترون أنه لا يأمن لكم سرب^(١) ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع ، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً ، فكلّموا في ذلك عبد ياليل بن عمرو - وكان في سنّ عروة - فأبى وخشي أن يصنع به - إذا رجع - كما صنع بعروة ، وقال : لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً ، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك ، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبي العاص ، ونمير بن خراشة ، فخرج بهم عبد ياليل ، وهو نائب القوم^(٢) وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود ، لكي يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه . ويقال : بعثوا بضعة عشر رجلاً هم أشراف ثقيف ، فيهم كنانة بن عبد ياليل هو رئيسهم يومئذ .

ولما دنوا من المدينة ونزلوا قناة ألفوا بها المغيرة بن شعبه ، رضي الله عنه ، يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت رعيته نوباً على أصحابه ﷺ ، فلما رآهم ترك الركاب عند الثقيفيين وضبر^(٣) يشتدّ لبشر رسول الله ﷺ بقدمهم عليه ، فلقبه أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشرط لهم رسول الله ﷺ شروطاً ويكتبوا من رسول الله ﷺ كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه ، ففعل ، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره بقدمهم عليه ، فسّر رسول الله ﷺ بمقدمهم .

ثم خرج المغيرة إليهم ، فروّح الظهر معهم ، وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ ، فلما قدموا عليه لم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية ، وأهدوا لرسول الله ﷺ ، فقال : « أَهْدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَإِنْ كَانَتْ هَدِيَّةً فَإِنَّمَا يُبْتَغَى بِهَا وَجْهٌ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَضَاءُ الْحَاجَةِ ، وَإِنْ كَانَتْ صَدَقَةً فَإِنَّمَا يُبْتَغَى بِهَا وَجْهٌ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » ، قالوا : لا ، بل هدية ، فقبلها منهم ، وقعد يسائلهم ويسائلونه ، ثم أمر بإيئازهم في المسجد ليكون أرقّ لقلوبهم ، فضرب لهم قبة في ناحيته حيث يسمعون القرآن ويرون الناس إذا صلّوا .

وكانوا يغدّون إلى رسول الله ﷺ كل يوم ويخلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم لأنه أصغرهم ، وكان رسول الله ﷺ يأتيهم

(١) السَّرْبُ : المسلك والطريق (النهاية : ج ٢/٣٥٦) .

(٢) نائب القوم : سيّتهم (لسان العرب : ج ٦/٤٥٩٢) .

(٣) ضَبَّرَ : وثَّب (النهاية : ج ٣/٧٢) .

كل ليلة بعد العشاء يحدثهم قائماً على رجلية حتى يراوح بينها من طول القيام ، وأكثر ما يحدثهم مألقي من قومه قريش . وتأخر عنهم ذات ليلة عن الوقت الذي كان يأتيهم فيه ، فقالوا : لقد أبطأت عنا الليلة : فقال : « إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ جَزْئِي مِنَ الْقُرْآنِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّى أَتِمَّهُ » .

ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام ، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ كتاب صلح بينه وبين تقيف : يأذن لهم فيه بالزنى والربا وشرب الخمر ، وأن يعفيهم من الصلاة ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئاً من ذلك ، وقال : « لا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ » ، ثم سألوه أن يترك لهم طاغيتهم اللات لا يهدمها إلا بعد ثلاث سنين ، فأبى ، فسألوه أن يتركها سنة ، فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم ، حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهر أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذرائعهم ، ويكرهون أن يروّعوا قومهم يهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى عليهم رسول الله ﷺ أن يدعها شيئاً مسمى فخلا القوم بعضهم ببعض وتشاوروا ، فقالوا : وَيُحَكِّمُ ! إِنَّا نَخَافُ ، إن خالفناه ، يوماً كيوم مكة ، فلم يجدوا محيصاً من الاستسلام وقالوا : انطلقوا نكاتبه على ما سألنا .

فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : نعم ، لك ، ما سألت ، وأسلموا ، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات ، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقبل ذلك .

وفي رواية : أنهم اشترطوا عليه أن لا صدقة عليهم ولا جهاد ، ولا يستعمل عليهم غيرهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وقال لأصحابه بعد : « سَيَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا » .

وكان خالد بن سعيد بن العاص ، رضي الله عنه ، هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم ، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد ، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم ، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم بيده أن لهم ذمة الله وذمة محمد بن عبد الله على ما كتب لهم ، ودفع رسول الله ﷺ الكتاب إلى ثُمَيْرِ بْنِ خَرْشَةَ . وسألوه أن يُحَرِّمَ لَهُمْ وَجْالاً^(١) ، فكتب لهم : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ عِصَاةَ وَجٍّ وَصِيْدَةَ لَا يُعْضَدُ ، مَنْ وَجِدَ يَفْعَلُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ يُجَادِلُ وَتَنْزَعُ ثِيَابَهُ ، فَإِنْ تَعَدَّى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُؤَخَذُ فَيُبَلِّغُ بِهِ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ، وَإِنْ هَذَا أَمْرُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ رَسُولِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَلَا يَتَعَدَّهُ أَحَدٌ فَيُظْلِمَ نَفْسَهُ فِيهَا أَمْرَهُ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » .

فلما أسلموا صاموا مع رسول الله ﷺ ما بقي من رمضان ، وكان بلال ، رضي الله عنه ، يأيتهم بفقورهم وسحورهم من عند النبي ﷺ . روي أنه كان يأتيهم بالسحور فيقولون : إِنَّا لَنَرِي الْفَجْرَ قَدْ طَلَعَ ، فيقول بلال : قد تركت رسول الله ﷺ يتسحر - لتأخير السحور - ويأتيهم بفقورهم فيقولون : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فيقول : ما جئتم حتى أكل رسول الله ﷺ ، ثم يضع يده في الجفنة فيلتقم منها .

وحين أراد وفد تقيف الانصراف إلى بلادهم سألوهم رسول الله ﷺ أن يؤمّر عليهم رجلاً منهم يؤمّمهم ، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص - وهو أصغرهم - لما رأى من حرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين ، وقال أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ! إني قد رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن . وذلك أن الوفد ، كما ذكرنا ، كانوا يفتنون إلى رسول الله ﷺ ويختلفون عثمان بن أبي العاص على متاعهم ، فكان إذا رجعوا وقالوا بالهجرة يعمد إلى رسول الله ﷺ فيسأله عن الدين ، فأسلم قبلهم سراً ، وجعل يختلف إلى رسول الله ﷺ يستقرئه القرآن ، فقرأ سوراً من في رسول الله ﷺ ، وكان إذا وجده نائماً عمد إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، فسأله عن الدين واستقرئه القرآن ، وإلى أبي بن كعب فسأله واستقرئه ، حتى فقه في الدين وعلم ، فأعجب به رسول الله ﷺ وأحبه^(٢) .

(١) وَجٌّ : وإد بالطائيف . انظر : (معجم البلدان : ج ٢٩٩/٨) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٩٤/٤ - ١٩٨ ، ٢٠٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨٤/١ ، ٢١٢) ، و (ج ٥٠٢/٥ ، ٥٠٨) ، ومسنند الإمام أحمد =

روي عن عثمان بن أبي العاص ، رضي الله عنه ، أنه قال : قلت : يا رسول الله ! ادع الله أن يفقهني في الدين ويعلمني ، قال : « ماذا قلت ؟ » فأعدت عليه القول ، فقال : « لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أصحابك ، أذهب فأنت أمير عليهم وعلى من يقدم عليك من قومك » (١) .

وعنه أيضاً أن النبي ﷺ قال له : « أم قومك » ، قال : قلت : يا رسول الله ! إني أجد في نفسي شيئاً ، قال : « ادنُه » فجلست بين يديه ، ثم وضع كفه في صدري بين ثديي ، ثم قال : « تحوّل » ، فوضعتها في ظهري بين كتفي ، ثم قال : « أم قومك » ، فمن أم قوماً فليخفف فإن فيهم الكبير ، وإن فيهم المريض ، وإن فيهم الضعيف ، وإن فيهم ذا الحاجة ، وإذا صلى أحدكم وحده فليصل كيف شاء » (٢) .

وعنه أيضاً قال : كان من آخر ما عهد إلي رسول الله ﷺ - حين بعثني على ثقيف - أن قال : « يا عثمَان ! تجاوز في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » (٣) . وأمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم ، كي يعبد الله حيث كان لا يعبد .

وجاء عثمان ، رضي الله عنه ، يوماً إلى النبي ﷺ - بعد أن استعمله - يشكو إليه ، فقال : يا رسول الله ! إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك شيطان يقال له خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه ، وانتقل على يسارك ثلاثاً » . قال عثمان : ففعلت ذلك ، فأذهب الله عني .

وشكا عثمان إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله ﷺ : « ضع يدك على الذي تألم من جسدك ، وقل : بسم الله ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » (٤) .
إسلام ثقيف :

وانصرف الوفد إلى بلادهم ، بعد أن أقاموا نصف شهر ، وقد أكرمهم رسول الله ﷺ وحياهم ، فلما أتوا الطائف وجاءتهم ثقيف كتوم الحقيقة ، وأظهروا الحزن والكآبة ، وخوفهم بالحرب والقتال ، وقالوا لهم : أتينا رجلاً فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف ودان له الناس ، فعرض علينا أموراً شداً أبيناها عليه ، سألنا أن نهدم اللات ، ونبطل أموالنا في الربا ، ونحرم الخمر والزنى ، فأخذت ثقيف نخوة الجاهلية ، فقالوا : والله لا نقبل هذا أبداً ، فقالوا لهم : أصلحوا السلاح وتجهزوا للقتال ورموا حصنكم .

فكثت ثقيف كذلك يومين أو ثلاثة ، ثم ألقى الله ، عز وجل ، في قلوبهم الرعب ، فقالوا للوفد : والله مالنا به من طاقة وقد أداخ العرب كلها ، فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل وصالحوه عليه . فعند ذلك أبدى الوفد حقيقة الأمر وقالوا لهم : قد قاضينا وأسلمنا ، ووجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا إليه وفيما قاضينا عليه ، فافهموا ما في القضية وأقبلوا عافية الله ، فقالت ثقيف : لِمَ كتبونا هذا الحديث وغممونا أشد الغم ؟ فقالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان ، فأسلموا مكانهم (٥) .

- = (ج ٢١٨/٤) ، وسنن أبي داود (ج ١١٤/٢) كتاب الصلاة - باب في كم يقرأ القرآن ح ١٣٩٣ ، و (ج ٤٢٠/٣) كتاب الخراج والإمارة والقيء - باب ماجاء في خبر الطائف ح ٣٠٢٥ ، وسنن النسائي (ج ٢٧٩/٦) كتاب العُمري - عطية المرأة بغير إذن زوجها ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٠٠/٥) .
- (١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٧٠/٩) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير حكيم بن حكيم بن عباد وقد وثق .
- (٢) صحيح مسلم (ج ٤١٧/١) كتاب الصلاة - باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ح ١٨٦ .
- (٣) سيرة ابن هشام (ج ١٩٨/٤) .
- (٤) انظر : سنن أبي داود (ج ٣١١/١) كتاب الصلاة - باب في بناء المسجد ح ٤٥٠ ، وكنز العمال (ج ٤٨١/٤) ، وصحيح مسلم (ج ١٧٢٨/٤) كتاب السلام - باب استحباب وضع يده على موضع الأُم مع الدعاء ح ٦٧ ، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة ح ٦٨ .
- (٥) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٢/٥ - ٢٠٣) .

هدم اللات :

ومكثوا أياماً ثم قدم عليهم رسل رسول الله ﷺ قد أمر عليهم خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، لهدم الطاغية اللات وكانت سدنتها وحجابها بني مَعْتَب من ثقيف ، فلما قدموا عمدوا إلى اللات ليهدموها ، واستكفَّت (١) ثقيف كلها ؛ الرجال والنساء والصبيان ينظرون إليهم ولا يرون أنها مهدومة ويظنون أنها ممتنعة ، فقام للمغيرة بن شعبة ، وكان مع خالد ، فأخذ الفأس وقال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف ، فضرب بالفأس ، ثم سقط يركض ، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وقالوا : أبعد الله المغيرة قد قتلتها الربّة ، وفرحوا حين رأوه ساقطاً وقالوا : من شاء منكم فليقترب وليجتهد على هدمها ؛ فوالله لا تستطاع أبداً ، فوثب المغيرة فقال : قبّحكم الله يا معشر ثقيف إنما هي لكع حجارة ومدّر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا على سورها وعلا الرجال معه ، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سوّوها بالأرض ، وجعل صاحب المفتاح يقول : لِيَغْضَيْنَ الأساس فليخسفنّ بهم ، فلما سمع ذلك للمغيرة قال لخالد : دعني أحفر أساسها ، فحفره حتى أخرجوا تراها ، وانتزعوا حليها ، وأخذوا ثيابها ، فبهتت ثقيف ، ورجع أصحاب رسول الله ﷺ حتى قدموا عليه بحليها وكسوتها ، فقسّمه رسول الله ﷺ من يومه ، وحمدوا الله ، عز وجل ، على نصرته نبيّه ﷺ وإعزاز دينه .

وفي رواية : أن رسول الله ﷺ بعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدمها (انظر : مصور سرايا تحطيم الأصنام) ، وأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضي دين عروة بن مسعود وأخيه الأسود من مال الطاغية . فلما هدمها المغيرة وأخذ ما فيها من المال والحلي فعل أبو سفيان ما أمره به رسول الله ﷺ . وذلك أن أبا مَلِيح بن عروة بن مسعود وابن عمه قارب بن الأسود قدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف - حين قُتل عروة - يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعاهم على شيء أبداً ، فأسلما ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « تَوَلَّيَا مِنْ شَيْئِنَا » ، فقالا : تتولى الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « وخالكما أبا سفيان بن حرب » ، فقالا : وخالنا أبا سفيان ، فلما أسلمت ثقيف ووجه رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة إلى هدم الطاغية سأل رسول الله ﷺ أبو مَلِيح بن عروة أن يقضي عن أبيه عروة ديناً كان عليه من مال الطاغية ، فقال له رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » ، فقال له قارب بن الأسود : وعن الأسود يارسول الله فاقضه ، وعروة والأسود أخوان لأب وأم ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْأَسْوَدَ مَاتَ مُشْرِكاً » ، فقال قارب : يا رسول الله ! لكن تصل مسلماً ذا قرابة ، يعني نفسه ، وإنما الدين عليّ ، وإنما أنا الذي أطلب به ، فأجابه رسول الله ﷺ لذلك .

ويذكر أنه لما أسلمت ثقيف كلّم خالد ، رضي الله عنه ، رسول الله ﷺ في ربا الوليد الذي كان في ثقيف لما كان أبوه أوصاه به ، فنزلت هؤلاء الآيات في تحريم ما بقي من الربا بأيدي الناس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) إلى آخر القصة فيها (٣) .

وفد الدارين :

قدم وفد الدارين على رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك ، وهم عشرة نفر ، فيهم تميم الداري وأخوه نعيم ، وكانوا على دين النصرانية ، فأسلموا وحسن إسلامهم .

قيل : كانت وفادتهم عليه مرتين ، مرة بمكة قبل الهجرة ، ومرة بعدها . وفي المرة الأولى سألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم أرضاً من أرض الشام ، فأعطاهم حبرى وبيت عيّنون ، وكتب لهم كتاباً في قطعة من آدم ، وشهد العباس بن عبد المطلب وجههم بن قيس وشريحبيل بن حسنة .

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة قدموا عليه ، وسألوه أن يجدهم كتاباً آخر ، فكتب لهم كتاباً نسخته : « بِسْمِ اللَّهِ

(١) اسْتَكْفَتَ الْقَوْمَ حَوْلَ الشَّيْءِ : أَخَاطُوا بِهِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ (لسان العرب : ج ٣/٢٩٠) .

(٢) البقرة : ٢٧٨ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١/٩٠) ، و (ج ٢/٢٢) ، و (ج ٤/١٦٧ - ١٩٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢/٢٠٢) ، وكثر العيال (ج ٨/١٥٩) .

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هذا مَا أُعْطِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ تَمِيمًا الدَّارِيَّ وَأَصْحَابَهُ أَنْ لَهُمْ حَيْرَى وَعَيْنُونَ بِالشَّامِ ، قَرَبَتَهَا كُلُّهَا ، سَهْلَهَا وَجَبَلَهَا ، وَمَاءَهَا وَحَرَّتَهَا وَأَنْبَاطَهَا وَبَقَرَهَا ، وَلَا عَقَابِيَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ، لَا يُحَاقِفُهُمْ^(١) فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَا يَلِجُهُ عَلَيْهِمْ بَطْلُمْ ، وَمَنْ ظَلَمَهُمْ وَأَخَذَ مِنْهُمْ شَيْئًا فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . شهد أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية بن أبي سفيان وكتب .

وأهدى تميم الدارِيَّ لرسول الله ﷺ فرساً يقال له الورد ، فأعطاه عمر ، وأهدى له أحد الوفد هانيء بن حبيب راوية خر وأفراساً وقباء مَخَوَّصاً بالدَّهَبِ ، فقبل رسول الله ﷺ الأفراس والقباء وأعطاه العباس بن عبد المطلب ، فقال : ما أصنع به ؟ قال : « انْتَرِعِ الدَّهَبَ فَتَحْلِيَةَ نِسَاءِكَ أَوْ تَسْتَنْفِقَهُ ، ثُمَّ تَبِيعِ الدِّيَابِجَ فَتَأْخُذَ ثَمَنَهُ » ، فباعه العباس من رجل من يهود بثمانية آلاف درهم^(٢) .

روي عن تميم الدارِيَّ ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيَبْلُغَنَّ هذا الأُمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْيَنَ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هذا الدِّينَ بَعْرَ عَزْرِيذٍ أَوْ بَدَلٌ دَلِيلٍ ، عَزْرًا يُعَزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ ، وَذُلًّا يَذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ » . وكان تميم الدارِيَّ يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية^(٣) .

ومن فضائل تميم الدارِيَّ ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ روى عنه حيث خطب فقال : « إِنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَضْرَانِيًّا فَجَاءَ فَبَاقِبَ وَأَسْلَمَ ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافِقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَالِ » وذكر عنه الخبر . وملخصه أن تميمًا أخبر النبي ﷺ أنه ركب البحر مع ثلاثين رجلاً من لَحْمٍ وَجُدَامٍ ، فتأهت بهم سفينتهم ، فسقطوا إلى جزيرة ، فخرجوا إليها ، فلقبتهم دابة كثيرة الشعر ، فقالوا لها : ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قالوا : وما الجساسة ؟ فقالت : انطلقوا إلى هذا الرجل في الدُّيْرِ فإنه إلى خبركم بالأشواق ، فدخلوا الدبر ، فإذا رجل مقيد بالحديد ، فقال : من أنتم ؟ فقالوا : أناس من العرب ، قال : أخبروني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب ، قال : أقاتله العرب ؟ فقالوا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ، فأخبروه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه ، قال : أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه ، وإني مخبركم عني ، إني أنا المسيح ، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج ، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبية ، فهما محرمتان عليّ كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة منها استقبلني ملك بيده السيف صلّتا يصدني عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها .

ثم قال النبي ﷺ بعد أن حدّثهم الخبر : « هَذِهِ طَيْبَةٌ ، هَذِهِ طَيْبَةٌ ، هَذِهِ طَيْبَةٌ ، أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدِّثُكُمْ ذَلِكَ ؟ » فقال الناس : نعم ، قال : « فَإِنَّهُ أُعْجِبَنِي حَدِيثَ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافِقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الدَّجَالِ وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ »^(٤) .

وفد مرة :

وقدم وفد مرة على رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك في سنة تسع ، وهم ثلاثة عشر رجلاً ، رأسهم الحارث بن عوف ، فقالوا : يا رسول الله ! إننا قومك وعشيرتك ، ونحن قوم من بني لؤي بن غالب ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « أَيْنَ تَرَكْتَ أَهْلَكَ ؟ » قال : بسلاخ وما والاها ، قال : « وَكَيْفَ الْبِلَادُ ؟ » قال : والله ! إننا لمُسْتَبْتُونَ ، فادع الله لنا ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ! اسْقِهِمُ الْغَيْثَ » ، وأمر بلالاً أن يجيزهم ، فأجازهم بعشر أواق ، عشر أواق فضة ، وأعطى الحارث بن عوف اثنتي عشرة أوقية ، ورجعوا إلى بلادهم ، فوجدوها قد مطّرت في اليوم الذي دعا لهم رسول الله ﷺ^(٥) .

وفد فزارة :

وفد على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من تبوك أيضاً بضعة عشر رجلاً من بني فزارة ، فيهم خارجة بن حصن أخو عيينة وابن

(١) أي : لا يُحَاقِفُهُمْ . انظر : (النهاية : ج ١/٤١٤) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١/٢٦٧ ، ٢٤٣ ، ٤٩٠) ، وكنز العمال (ج ٣/٩١٧) .

(٣) مسند الإمام أحمد (ج ٤/١٠٣) .

(٤) انظر : صحيح مسلم (ج ٤/٢٢٦٢) . كتاب الفتن وأشراف الساعة - باب قصة الجساسة ح ١١٩ .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١/٢٩٧) .

أخيه الجد بن قيس بن حصن وهو أصغرهم ، مقرين بالإسلام ، وهم مستنون ، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم ، فقال أحدهم : يا رسول الله ! أسنتت بلادنا ، وأجذب جنابنا^(١) ، وغرت^(٢) عيالنا ، وهلكت مواشينا ، فادع ربك أن يعيشتنا ، وتشفع لنا إلى ربك ويشفع ربك إليك ، فقال رسول الله ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَيْلَكَ ، هذا أنا أشفع إلى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه ؟ لا إله إلا الله العظيم ، وسع كرسيه السموات والأرض وهو يئط من عظمته وجلاله^(٣) كما يئط الرّحل الجديد^(٤) . ثم قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليضحك من شققكم^(٥) وأزلكم^(٥) وقرب غياتكم^(٦) » ، فقال الأعرابي : أو يضحك ربنا يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، فقال الأعرابي : لن نؤدم يا رسول الله من رب يضحك خيراً ، فضحك رسول الله ﷺ من قوله ، فقام وصعد المنبر فتكلم بكلمات ، ورفع يديه حتى روي بياض إبطيه ، وكان مما حفظ من دعائه : « اللَّهُمَّ ! اسق بِلَدِّكَ وَبِهَيْمَتِكَ ، وَأَنْشُرْ رَحْمَتَكَ ، وَأُخِيْبِي بِلَدِّكَ الْمَيْتَ ، اللَّهُمَّ ! اسقِنَا عَيْثًا مَعِيْنَا ، مَرِيئًا مَرِيئًا^(٧) ، طَبَقًا^(٨) وَاسِعًا ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ ، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ ، اللَّهُمَّ ! سَقِنَا رَحْمَةً لَاسْقِيَا عَذَابٍ وَلَا هَدْمٍ وَلَا عَرَقٍ وَلَا مَحْزِيٍّ ، اللَّهُمَّ ! اسقِنَا الْعَيْثَ وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْأَعْدَاءِ » . فقام أبو كبابة بن عبد المنذر فقال : يا رسول الله ! إن التمرفي المرابد^(٩) ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ! اسقِنَا حَتَّى يَقُومَ أَبُو كِبَابَةَ عَرِيَانًا يَسُدُّ ثَعْلَبَ مَرِيْدِهِ^(١٠) بِإِزَارِهِ » . قالوا : فلا والله ما في السماء من قرعة^(١١) ولا سحب ، وما بين المسجد وسُلع من بناء ولا دار ، فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، فوالله ما رأينا الشمس ستاً ، وقام أبو كبابة عرياناً يسد ثعلب مريده بإزاره لئلا يخرج الترم منه . فجاء ذلك الأعرابي أو غيره ، فقال : يا رسول الله ! هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فصد رسول الله ﷺ المنبر فدعا ، ورفع يديه مداً حتى روي بياض إبطيه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا ، اللَّهُمَّ ! عَلَى الْآكَامِ وَالظَّرَابِ^(١٢) وَبُطُونِ الْأُودِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ » ، فانجابت السحابة^(١٣) عن المدينة كأنجياب الثوب . ولعل هذا المطر - كما قال صاحب السيرة الحلبية - كان عاماً للمدينة وما حولها حتى وصل إلى محل هؤلاء الوفود .

ثم أجاز رسول الله ﷺ بني فزارة بما يجيز به الوفود ورجعوا إلى بلادهم^(١٤) .

وفد همدان :

وقدم على رسول الله ﷺ وفد همدان من اليمن ، وقد كان رسول الله ﷺ بعث إليهم خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، يدعوهم

- (١) الجناب : الناحية (النهاية : ج ٣٠٢/١) .
- (٢) غرت : جاع (النهاية : ج ٥٥٢/٣) .
- (٣) أي : أنه يخجز عن حمليه ، والأطيطط : صوت الرّحل والإبل من ثقل أحمالها (لسان العرب : ج ١٢٢/١) .
- (٤) الشفق والإشفاق : الخوف (النهاية : ج ٤٨٧/٢) .
- (٥) الأزل : الشدة والضيق (النهاية : ج ٤٦١) .
- (٦) المعنى : أن الله يضحك من حصول الفرج لكم متصلاً بشدة الضيق ، وهذا قاله النبي ﷺ قبل صعود المنبر ، فيكون علمه بالوحي فبشرهم به . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٥٢٢) .
- (٧) المريع : المخصب الناجع (النهاية : ج ٢٢٠/٤) .
- (٨) أي مالاً للأرض مغطياً لها (النهاية : ج ١١٢/٢) .
- (٩) المرابد : جمع مربد ، وهو الموضع الذي يجعل فيه التمر لينشف . وقد تقدم .
- (١٠) أي ثقبته الذي يسيل منه ماء المطر (النهاية : ج ٢١٢/١) .
- (١١) أي قطعة من الغنم . وقد تقدم .
- (١٢) الظراب : الجناب الصغار ، واحدها : ظرب (النهاية : ج ١٥٦/٢) .
- (١٣) أنجابت السحاب : أي انجمت وتقبضت بعضه إلى بعض وانكشفت (النهاية : ج ٣١٠/١) .
- (١٤) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٤٢/٦) ، وعيون الأثر (ج ٢٤٩/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٢/٣) ، والسيرة الدحلانية على هامش السيرة الحلبية (ج ٢٨٢) .

إلى الإسلام في جماعة من أصحابه^(١) فيهم البراء بن عازب ، رضي الله عنها ، فأقام ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوه ، ثم إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، مكانه وأمر خالداً بالرجوع إليه ، وأن من كان مع خالد إن شاء بقي مع علي وإن شاء رجع مع خالد ، فكان البراء ممن بقي مع علي .

فلما دنا علي ، رضي الله عنه ، من القوم خرجوا إليه ، فصفا أصحابه صفاً واحداً ، ثم تقدم فصلى بهم ركعتين ، وهمدان ينظرون إليهم ويعجبون ، ثم تقدم علي بين يدي أصحابه وقرأ على همدان كتاب رسول الله ﷺ ، فأسلموا جميعاً ، فكتب بذلك إلى النبي ﷺ ، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال : « السَّلامُ على همدان ، السَّلامُ على همدان » .

ثم قدم وفدهم على رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك ، فبايعوه على الإسلام ، وكان فيهم أبو ثور مالك بن نَمَطٍ وهو ذو المشاعر ، وكان شاعراً جيداً ، ومالك بن أَيْقَع ، وضِمَام بن مالك السُّلَمِيّ ، وعميرة بن مالك الحارفي ، فلقوا رسول الله ﷺ وعليهم مقطعات الحيرت^(٢) والعائم المعدنية على الرواحل المهرية^(٣) والأرخبية^(٤) ، فقام مالك بن نَمَطٍ بين يديه ، فقال : يا رسول الله ! نصيبة^(٥) من همدان ، من كل حاضر وباد ، أتوك على قُلص نواج^(٦) متصلة بجبال الإسلام^(٧) ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، من مخالفاً^(٨) خارفاً ويام وشاكير^(٩) ، أهل السؤد^(١٠) والقود^(١١) ، أجابوا دعوة الرسول ، وفارقوا الآفات والأنصاب ، عهدهم لا ينقض ما أقامت لَمَلَع^(١٢) وما جرى اليعفور^(١٣) بصلع^(١٤) .

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه ، وأمر عليهم مالك بن نَمَطٍ ، واستعمله على من أسلم من قومه . وجاء في الكتاب : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هذا كتابٌ من رسولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لمخلافِ حَارِفٍ وأهلِ جنابِ الهَضْبِ وحِقَافِ الرَّمْلِ^(١٥) معَ وإفديها ذي المشاعرِ مالِكِ بنِ نَمَطٍ ومن أسلم من قومه ، على أن لهم فراعها^(١٦) وهساطها^(١٧) ، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، يأكلون

- (١) ذكر ابن حجر في فتح الباري (ج ٦٥/٨) أن ذلك كان في السنة الثامنة للهجرة بعد رجوعه ﷺ من الطائف وقسمه الغنائم بالجمرة .
- (٢) المَقَطَعُ مِنَ الثِّيَابِ : كُلُّ مَا يَفْصَلُ وَيُخَاطُ مِنْ قَمِيصٍ وَغَيْرِهِ ، وَمَا لَا يُقَطَعُ مِنْهَا كَالأُزْرِ والأُرْدِيَةِ (النهاية : ج ٨١٧/٤) ، والحيرت : جَمْعُ حَبْرَةٍ ، وهو ما كان مؤشياً مخططاً مِنَ البُرُودِ (النهاية : ج ٣٢٨/١) .
- (٣) نسبة إلى حَيٍّ عَظِيمٍ يُقَالُ لَهُ مَهْرَةٌ بِالْيَمَنِ . انظر : (لسان العرب : ج ٤٢٨٧/٦) .
- (٤) نسبة إلى أَرْحَبِ بَطْنٍ مِنْ هَمْدَانَ . انظر : (لسان العرب : ج ١٦٠٧/٢) . والمعنى أنهم قدموا مُتَجَمِّلِينَ بالثياب والعائم والرواحل .
- (٥) النَّصِيبَةُ : مَنْ يُنْتَقَضُ مِنَ الْقَوْمِ ، أَيْ يُخْتَارُ مِنْ نَوَاصِيهِمْ ، وَهِيَ الرُّؤُوسُ والأَشْرَافُ . وَيُقَالُ لِلرُّؤَسَاءِ : نَوَاصٍ ، كَمَا يُقَالُ لِلأَتْبَاعِ : أَدْنَابٍ (النهاية : ج ٦٨/٥) .
- (٦) قُلص نواج : نُوقُ مُسْرِعَاتِ (لسان العرب : ج ٤٣٦٠/٦) .
- (٧) أي عهوده وموآبته . انظر : (النهاية : ج ٣٢٢/١) .
- (٨) المِخْلَافُ : النَّاحِيَةُ (لسان العرب : ج ١٢٤٢/٢) . وهو بلغة أهل اليمن : المدينة .
- (٩) قبائل من همدان .
- (١٠) السؤد : المراد بها هنا الإبل .
- (١١) القود : الخيل (لسان العرب : ج ٣٧٧٠/٥) .
- (١٢) لَمَلَعٌ : جَبَلٌ (معجم البلدان : ج ٣٣٢/٧) .
- (١٣) اليعفور : الطَّبِيُّ ، مِنَ العَفْرِ وَهِيَ العَبْرَةُ وَلَوْ أَنَّ التُّرابَ (لسان العرب : ج ٣٠١٣/٤) .
- (١٤) الصَّلَعُ : القُوَّةُ (لسان العرب : ج ٢٥٩٩/٤) . وفي نسخة : بصلع : وهو اسم موضع (لسان العرب : ج ٢٤٨٢/٤) .
- (١٥) جناب الهَضْبِ وحِقَافِ الرَّمْلِ : مِنْ أَسْمَاءِ بِلَادِهِمْ . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٧١/٤) ، والنهاية (ج ٢٠٢/١) .
- (١٦) الفِرَاعُ : مَا عَلَا مِنَ الأَرْضِ وَارْتَفَعَ (النهاية : ج ٤٣٧/٣) .
- (١٧) الوهاط : المَوَاضِعُ المُطْمَئِنَّةُ ، وَاحِدُهَا وَهَطٌ (النهاية : ج ٢٣٢/٥) .

عِلَاقَهَا^(١) وَيُرْعُونَ عَافِيَهَا^(٢) ، لَمْ يَذَلِكْ عَهْدُ اللَّهِ وَذِمَامُ رَسُولِهِ ، وَشَاهِدُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ » .

ويذكر أن قيس بن مالك الأرحبي وفد على النبي ﷺ وهو بمكة ، فأسلم ، ورجع إلى قومه ، ثم أقبل إلى النبي ﷺ بإسلام قومه ، فقال رسول الله ﷺ : « نِعْمَ وَافِدَ الْقَوْمِ قَيْسٌ » ومسح بناصيته ، وكتب عهده على قومه همدان عربها ومواليها وخلانها أن يسمعوا له ويطيعوا ، وأن لهم ذمة الله وذمة رسوله ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .

وروي في فضائل همدان قول رسول الله ﷺ : « نِعْمَ الْحَيُّ هَمْدَانٌ ، مَا أَسْرَعَهَا إِلَى النَّصْرِ وَأَصْبَرَهَا عَلَى الْجَهْدِ ، وَمِنْهُمْ أَبْدَالٌ وَأَوْتَادُ الْإِسْلَامِ »^(٣) .

وفادة رسول ملوك حمير بإسلامهم :

وقدم على رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك مالك بن مرة الرهاوي رسول ملوك حمير وحامل كتابهم إلى النبي ﷺ بإسلامهم ، وهم : الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل^(٤) ذي رعين ومعاfer وهمدان .

ويذكر أن رسول الله ﷺ كان كتب إلى ملوك حمير يدعوهم إلى الإسلام ، وبعث بالكتاب مع عتاش بن أبي ربيعة المخزومي ، رضي الله عنه ، فأجابوه إلى ذلك ، وبعثوا إليه كتاباً بإسلامهم .

فكتب إليهم رسول الله ﷺ : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ النَّبِيِّ ، إِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ ، وَإِلَى نَعِيمِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ ، وَإِلَى النُّعْمَانَ قَيْلِ ذِي رَعَيْنٍ وَمَعَاْفِرٍ وَهَمْدَانَ ، أَمَا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ قَدْ وَقَعَ بِنَا رَسُولِكُمْ مُنْقَلَبَنَا مِنْ أَرْضِ الرُّومِ ، فَلَقِينَا بِالْمَدِينَةِ ، فَبَلَّغَ مَا أُرْسَلْتُمْ بِهِ ، وَخَبَرَ مَا قَبِلْتُمْ ، وَأَبَانَا بِإِسْلَامِكُمْ وَقَتْلِكُمُ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ هَدَاكُمْ يَهْدَاهُ إِنْ أَصْلَحْتُمْ وَأَطَعْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَأَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَأَعْطَيْتُمُ مِنَ الْمَغَانِمِ خُمْسَ اللَّهِ وَسَهْمَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَصَفِيَّةَ وَمَا كَتَبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّدَقَةِ » . وذكر لهم ما يجب عليهم من أنواع الصدقة وفرائضها ثم جاء في الكتاب : « وَإِنَّهَا فَرِيضَةُ اللَّهِ الَّتِي قَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَةِ ، فَمَنْ زَادَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ وَأَشْهَدَ عَلَى إِسْلَامِهِ وَظَاهَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : لَهُ مَا لَهُمْ ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ ، وَلَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ، وَإِنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ مَا لَهُمْ ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ فَإِنَّهُ لَا يَزِدُّ عَنْهَا ، وَعَلَيْهِ الْجَزِيَّةُ ؛ عَلَى كُلِّ حَالٍ ذَكَرَ أَوْ أُنْتَى خُرًا أَوْ عَبْدًا دِينًا وَوَفَّ مِنْ قِبَةِ الْمَعَاْفِرِ^(٥) أَوْ عَوْضَةً شِبَابًا ، فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَمَنْ مَنَعَهُ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ .

أَمَا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا النَّبِيَّ أَرْسَلَ إِلَى زُرْعَةَ ذِي يَزَنَ أَنْ إِذَا أَتَاكُمْ رُسُلِي فَأُصِيبِكُمْ بِهِمْ خَيْرًا : مَعَاذُ بَنِي جَبَلٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بَنِي زَيْدٍ ، وَمَالِكُ بْنُ عَبَّادَةَ ، وَعُقَيْبَةُ بْنُ نَمِرٍ ، وَمَالِكُ بْنُ مَرَّةٍ ، وَأَصْحَابُهُمْ ، وَأَنْ أَجْمَعُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْجَزِيَّةِ مِنْ مَخَالِفِكُمْ وَأُبْلِغُوها رُسُلِي ، وَإِنْ أَمِيرُهُمْ مَعَاذُ بَنِي جَبَلٍ ، فَلَا تَنْقَلِبِينَ إِلَّا رَاضِيًا .

أَمَا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . ثُمَّ إِنَّ مَالِكُ بْنُ مَرَّةٍ قَدْ حَدَّثَنِي أَنَّكَ أَسْلَمْتَ مِنْ أَوْلِي حَمِيرٍ ،

(١) العِلَاقُ : جَمْعُ عَلَفٍ ، وَهُوَ مَا تَأْكُلُهُ الْمَاشِيَةُ (النهاية : ج ٢٨٧/٣) . وقوله : « يَأْكُلُونَ عِلَاقَهَا » مجاز الحذف ؛ أي تَأْكُلُ مَا شِيتَهُمْ ، أَوْ مَجَاز لِعَوِي بِجَعْلٍ يَأْكُلُونَ بِمَعْنَى يَمْلِكُونَ . انظر شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٧١/٤) .

(٢) أي المباح الذي ليس لأحد فيه ملك ولا أثر ، من عَفَا الشَّيْءُ ؛ إِذَا أُنْذِرَ ، أَوْ مِنْ عَفَا يَعْفُو إِذَا خَلَصَ . انظر : (النهاية : ج ٢٦٦/٣) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٧/٤ - ٢٦٩) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٦/٥) كتاب المغازي - باب بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤١ ، ٢٤٠/١) ؛ ودلائل النبوة لليبهي (ج ٢٩٦/٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٣٥/٤) .

(٤) القَيْلُ : الْمَلِكُ . وقد تقدم .

(٥) في النهاية : الْمَعَاْفِرِيُّ ؛ هِيَ بُرُودٌ بِالْيَمَنِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى مَعَاْفِرٍ ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ بِالْيَمَنِ (النهاية : ج ٢٦٦/٣) .

وَقَتَلَتِ الْمُشْرِكِينَ ، فَأَبَشَرَ بِخَيْرٍ ، وَأَمَرَكَ بِجَمِيرٍ خَيْرًا ، وَلَا تَخُونُوا ، وَلَا تَخَادَلُوا ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ مَوْلَى غَنِيَّتِكُمْ وَفَقِيرِكُمْ ، وَإِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَجِلُ لِمُحَمَّدٍ ، وَلَا لِأَهْلِ بَيْتِهِ ، إِنَّمَا هِيَ زَكَاةٌ يَزْكِي بِهَا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَإِنَّ مَالِكَا قَدْ بَلَغَ الْخَبَرَ وَحَفِظَ الْغَيْبَ وَأَمَرَكَ بِهِ خَيْرًا ، وَإِنِّي قَدْ أُرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ مِنْ صَالِحِي أَهْلِي وَأَوْلِي دِينِهِمْ وَأَوْلِي عَلَيْهِمْ ، وَأَمَرَكَ بِهِمْ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمْ مَنْظُورٌ إِلَيْهِمْ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» (١) .

بعث معاذ وأبي موسى رضي الله عنهما إلى اليمن :

بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ، رضي الله عنهما ، إلى اليمن ، وأمرهما أن يعلما الناس القرآن وأمور دينهم ، واستعمل كل واحد منهما على مخالف منها - واليمن مخلافان ، وكانت جهة معاذ العليا إلى جهة عدن وكان من عمله الجند وله بها مسجد مشهور ، وكانت جهة أبي موسى السفلى - وقال لهما : « يَسِّرَا وَلَا تَعَسِّرَا ، وَيَبَشِّرَا وَلَا تَنْفِرَا ، وَتَطَبَّعَا » ، فقال أبو موسى : يا رسول الله ! إن أرضنا بها شراب من الشعير المزور (٢) وشراب من العسل البتبع (٣) ، فقال : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » .

فانطلق أبو موسى ، رضي الله عنه ، إلى عمله باليمن ، ثم أتبعه معاذ ، رضي الله عنه ، وذلك في آخر سنة تسع (٤) ، فكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه كان قريباً من صاحبه أحدث بها عهداً فسلم عليه ، وكانا يجلسان فيتذاكران قيام الليل .

وكان معاذ ، رضي الله عنه ، من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً وأسمهم كفاً ، فكثرت ديونه ، فلما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قال له : « لَعَلَّ اللَّهَ يَجْزِيكَ وَيُوَدِّي عَنكَ دَيْنَكَ » ، ثم أوصاه وعهد إليه وقال : « إِنَّكَ سَتَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَكَ مَا مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ ؟ فَقُلْ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » (٥) .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَكَيْلِيَّةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُوْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمُظْلَمِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ » (٦) .

وعن معاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن فقال : « كَيْفَ تَصْنَعُ إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟ » قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال : « فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟ » قال : فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قال : « فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ » قال : أجتهد رأيي لألو (٧) ، قال : فضرب رسول الله ﷺ صدره ، ثم قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا يَرْضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » (٨) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٨/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨٢/١) .

(٢) الْمَزْرُ : نَبِيذٌ يُتَّخَذُ مِنَ الدُّرَّةِ ، وَقِيلَ : مِنَ الشَّعِيرِ أَوْ الْحِنْطَةِ (النهاية : ج ٢٢٤/٤) .

(٣) الْبِتُّعُ : نَبِيذُ الْعَسَلِ ، وَهُوَ خَمْرُ أَهْلِ الْيَمَنِ (النهاية : ج ٩٤/١) .

(٤) اختلف في زمن بعث النبي ﷺ معاذاً ، رضي الله عنه ، إلى اليمن ، والراجح أنه كان في آخر سنة تسع عند منصرفه من تبوك . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٩٩/٣) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٠/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٤/٥ ، ٢٠٥) كتاب المغازي - بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، و (ج ١٩٩) كتاب استنابة المرتدين والمعاندين .. ، والمستدرک (ج ٢٧٤/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٨٤/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٠٢/٣) .

(٦) صحيح البخاري (ج ١٥٨/٢) كتاب الزكاة - باب أخذ الصدقة من الأغنياء وتبوء الفقراء حيث كانوا .

(٧) الْأَلُو : الْإِسْطِطَاعَةُ وَالتَّقْصِيرُ وَالْجُهْدُ (لسان العرب : ج ١١٨/١) .

(٨) مسند الإمام أحمد (ج ٢٣٠/٥) .

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ لما بعث به إلى الين قال : « إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ ؛ فَإِنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ » (١) .
وعنه أيضاً قال : آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في الغرزان قال : « أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مَعَاذَ بَنِ جَبَلٍ » (٢) .

وعنه أيضاً قال : لما بعثه رسول الله ﷺ إلى الين خرج معه رسول الله ﷺ يُوصِيهِ ، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته ، فلما فرغ قال : « يَا مَعَاذُ ! إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا ، أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا أَوْ قَبْرِي » ، فبكى معاذ جشعاً لفراق رسول الله ﷺ ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا » (٣) .
فخرج معاذ ، رضي الله عنه ، حتى إذا قدم الين نزل بين السكون والسكاسك ، وقام بما أمره به رسول الله ﷺ ، فأتته امرأة من أهل الين فقالت : يا صاحب رسول الله ! ما حقّ زوج المرأة عليها ؟ قال : ويحك ! إن المرأة لا تقدر على أن تؤدّي حقّ زوجها ؛ فأجهدي نفسك في أداء حقّه ما استطعت ، قالت : والله لئن كنت صاحب رسول الله ﷺ إنك لتعلم ما حقّ الزوج على المرأة ، قال : ويحك ! لو رجعت إليه فوجدته تنثعب^(٤) منخراه قيحاً ودماً فصصت ذلك حتى تذهيبه ما أدّيت حقّه^(٥) .

ولم يزل معاذ ، رضي الله عنه ، على الين إلى أن قدم في خلافة أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، ووافى السنة التي حجّ فيها عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، استعمله أبو بكر على الحجّ ، فالتقيا يوم التروية بنى فاعتنقا وعزّى كل واحد منهما صاحبه برسول الله ﷺ ثم أخلدا إلى الأرض يتحدّثان ، فرأى عمر مع معاذ غلماناً ، فقال : ما هؤلاء يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : أصبتهم في وجهي هذا ، قال عمر : من أيّ وجه ؟ قال : أهدوا إليّ وأكرمت بهم ، فقال عمر : اذكروهم لأبي بكر ، فقال معاذ : ما ذكرني هذا لأبي بكر ؟ وانصرف معاذ فرأى في النوم كأنه على شفير النار وعمر أخذ يحجزته من ورائه يمنع أن يقع في النار ، ففرغ معاذ فقال : هذا ما أمرني به عمر ، فقدم على أبي بكر فذكرهم له ، فسوّغه أبو بكر ذلك ، وقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَعَلَّ اللَّهَ يَجْبِرُكَ » (٦) .

وفد بني سعد بن بكر :

وبعثت بنو سعد بن بكر ، وهم بطن من هوازن ، ضيمام بن ثعلبة وأفدا إلى رسول الله ﷺ في السنة التاسعة للهجرة (٧) ، وقد كان النبي ﷺ أرسل إليهم من يدعوهم إلى الله تعالى ، غير أن القوم لم يطمئثوا فأرسلوا ضيمام بن ثعلبة ، فجاء حتى قدم المدينة ، فاتته إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد مع أصحابه ، فقال لهم : أيكم محمد ؟ والنبي ﷺ متكىء بين ظهرانيهم ، فقالوا : هذا الرجل الأبيض المتكىء ، فقال له ضيمام : ابن عبد المطلب ؟ فقال له النبي ﷺ : « نَعَمْ » ، قال : فإني سائلك فشدّد أو مغلظ عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك ، فقال النبي ﷺ : « لَا أُجِدُّ فِي نَفْسِي ، فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ » ، فقال : يا محمد ! أانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟ قال : « صَدَقَ » ، قال : فن خلق السماء ؟ قال : « الله » ، قال : فن خلق الأرض ؟ قال : « الله » ، قال : فن نصب هذه الجبال وجعل منها ما جعل ؟ قال : « الله » ، قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب الجبال الله أرسلك ؟ قال : « نَعَمْ » .

وفي رواية : قال : أنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال :

- (١) مسند الإمام أحمد (ج ٢٤٢/٥) .
- (٢) الموطأ (ص : ٦٥٠) ما جاء في حسن الخلق .
- (٣) مسند الإمام أحمد (ج ٢٣٥/٥) .
- (٤) انثعب الدّم : جَرَى وَسَالَ (النهاية : ج ٢١٢/١) .
- (٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٢٣٥/٥) ، وسيرة ابن هشام (ج ٢٦٠/٤) .
- (٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٨٨/٣) .
- (٧) ذكر ابن سعد في الطبقات (ج ٢٩٩/١) أن قدمه كان في رجب سنة خمس للهجرة ، والذي جزم به ابن إسحاق أنه وفد في سنة تسع وصوّبه الحافظ ابن حجر . انظر : (فتح الباري : ج ١٥٢/١) .

« اللَّهُمَّ نَعَمْ » ، قال : فأنتدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبدك وحده ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : « اللَّهُمَّ نَعَمْ » .

قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ، قال : « صدق » ، قال : فبالذي أرسلك الله أمرك بهذا ؟ - وفي رواية : قال : فأنتدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس ؟ قال : « اللَّهُمَّ نَعَمْ » . ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال : أمنت بما جئت به ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأنا رسول من ورثي من قومي ، وأنا ضيمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر ، وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف راجعاً ، فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لئن صدق كيدخلن الجنة » .

ولما رجع ضيمام ، رضي الله عنه ، إلى قومه كان أول ما تكلم به أن سب اللات والعزى ، فقالوا له : مه يا ضام ! اتق البرص ، اتق الجدام ، اتق الجنون ، فقال : ويلكم ! إنهما والله لا يضتران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه . فما أمسى من ذلك اليوم رجل ولا امرأة من قومه إلا وأسلم ، ثم بنوا المساجد وأذنوا بالصلوات ، فكان ابن عباس ، رضي الله عنهما ، يقول : ما سمعنا بوفد قوم كان أفضل من ضيمام بن ثعلبة (١) .

وفد عبد القيس :

عبد القيس قبيلة كبيرة ينتون إلى ربيعة ، وكانوا يسكنون بالبحرين ، ويدين بعضهم بالنصرانية . وكانت لهذه القبيلة وفادتان : الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبلها ، وكان عدد الوفد ثلاثة عشر رجلاً ، وفيها سألو عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان فيهم المنذر بن عائد ، وهو الأشج الغضري (٢) .

والثانية : كانت في سنة الوفود (٣) ، وكان عددهم فيها عشرين أو أربعين رجلاً ، وكان فيهم الجارود العبدي .

وقد ذكر في سبب الوفاة الأولى أن رجلاً منهم ، يقال له مُقْبِد بن حَيَّان ، كان يرد المدينة للتجارة ، فلقيه النبي ﷺ فقال له : « كَيْفَ قَوْمُكَ ؟ » ثم سأله عن أشرافهم رجل رجل بأسمائهم ، فأسلم مُقْبِد وتعلم الفاتحة وسورة ﴿ اقرأ ﴾ ، وكتب النبي ﷺ لقومه كتاباً ، فلما قدم البحرين أتاه المنذر بن عائد فأخبره الخبر فأسلم ، ثم أخذ المنذر كتاب النبي ﷺ فقرأه على قومه ، فأسلموا وأجمعوا المسير إلى رسول الله ﷺ ، فوفدوا إليه في سبعة أو ثلاثة عشر رجلاً ، في شهر حرام سنة خمس للهجرة .

روي أنه بينا رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال : « يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الْفَجِّ رُكْبٌ هُمْ خَيْرُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ، قَدْ أَنْصَرُوا الرِّكَابَ (٤) وَأَفْتَنُوا الرِّزَادَ » ، فقام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فتوجه نحو مقدمهم ، فلقي ركباً ، فقال : من القوم ؟ قالوا : قوم من بني عبد القيس ، فقال : أما إن النبي ﷺ قد ذكركم أنفاً فقال خيراً ، ثم مشى معهم حتى أتوا النبي ﷺ ، فقال : هذا صاحبكم الذي تطلبون ، فرمى القوم بأنفسهم عن رواحلهم بباب المسجد ، وتبادروا يقبلون يد النبي ﷺ ورجله ، فرحب بهم رسول الله ﷺ ودعا لهم ، فقال : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِعَبْدِ الْقَيْسِ إِذْ أَسْلَمُوا طَائِعِينَ غَيْرَ كَارِهِينَ ، غَيْرَ خَزَائِيَا (٥) وَلَا مُؤْتَوِرِينَ » ، ثم نظر إليهم فقال : « من

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢٤١) ، وصحيح البخاري (ج ١/٢٤٨) كتاب العلم - باب ما جاء في العلم وقوله تعالى ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ،

وصحيح مسلم (ج ١/٤١٨) كتاب الإيمان - باب السؤال عن أركان الإسلام ح ١٠ ، وسنن الدارمي (ج ١/١٦٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ١/٢٩٧) .

(٢) وقيل : اسمه عبد الله بن عوف . انظر : طبقات ابن سعد (ج ١/٣١٤) .

(٣) أي في السنة التاسعة ، وقيل : سنة ثمان قبل فتح مكة ، وقيل : سنة عشر . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٤/١٧) ، والإصابة

(ج ١/٢١٦) .

(٤) أي أهزلوها (النهاية : ج ٥/٧٢) .

(٥) خزاييا : جمع خزايان ، وهو المستحجي (النهاية : ج ٢/٣٠٧) . والمعنى أنهم أسلموا طوعاً من غير حرب أو سبي يُخزئهم ويفضحهم . انظر : (فتح

الباري : ج ١/١٣٧) .

سَيِّدُكُمْ وَرَعِيْمُكُمْ ؟ » فأشاروا إلى المنذر بن عائد ، فقال النبي ﷺ : « أهذا الأشج ؟ » فكان أول يوم وضع عليه هذا الاسم ، لضربة بوجهه بجافر حمار ، وكان قد تخلف بعد القوم حتى عقل راحلهم وضم متاعهم - وذلك بمراءى النبي ﷺ - ثم أخرج عبيته ، فألقى عنه ثياب السفر ولبس من صالح ثيابه ، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد النبي ﷺ فقبلها ، فرحب به رسول الله ﷺ وألطفه وأقعدته عن يمينه ، وكان رجلاً دميماً ، ففطن لنظر النبي ﷺ إليه ، فقال : يارسول الله ! إنه لا يستقى في مسوك^(١) الرجال ، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه : لسانه وقلبه ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنْ فِيكَ خَصَلَتَيْنِ يَحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ » قال : وما هما بأبي أنت وأمي ؟ قال : « الْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ » ، قال : فأنا أتخلق بها أم الله جبنني عليهما ؟ قال : « بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهَا » ، قال : الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله ورسوله . ثم سأله النبي ﷺ عن بلاده ، وسمى له قرى منها ، فقال الأشج : بأبي وأمي يارسول الله ! لأنت أعلم بأسماء قرانا منا ، فقال : « إِنِّي قَدْ وَطِئْتُ بِلَادَكُمْ وَفَسِحَّ لِي فِيهَا » ، ثم أقبل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ! أَكْرِمُوا إِخْوَانَكُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ أَشْبَاهُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ ! أَسْلَمُوا طَائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ وَلَا مُؤْتَوِرِينَ »^(٢) .

روي عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقال : « مَرْحَباً بِالْقَوْمِ ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا النَّدَامَى » ، فقالوا : يارسول الله ! إن بيننا وبينك المشركين من مضر ، وإنا لانصل إليك إلا في أشهر الحرم ، حدثنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة ، وندعو به من وراءنا ، قال : « أَمَرَكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ، الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ، هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ؟ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغَانِمِ الْخُمْسَ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ؛ مَا اتَّبَعْتُمْ فِي الدُّبَاءِ^(٣) وَالنَّقِيرِ^(٤) وَالْحَنْتَمِ^(٥) وَالْمَرْقَتِ^(٦) »^(٧) .

وروي أن وفد بني عبد القيس لما أتوا نبي الله ﷺ قالوا : يا نبي الله ! جعلنا الله فداك ، ماذا يصلح لنا من الأشربة ؟ فقال : « لَا تَشْرَبُوا فِي النَّقِيرِ » ، قالوا : يا نبي الله ! جعلنا الله فداك ، أو تدرى ما النقير ؟ قال : « نَعَمْ ، الْجِدْعُ يُنْقَرُ وَسَطُهُ فَتَقْدِفُونَ فِيهِ مِنَ التَّمْرِ ، ثُمَّ تَصْبُونَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا سَكَنَ عَلَيَانَهُ شَرِبْتُمُوهُ » ، قالوا : ففيم نشرب يارسول الله ؟ قال : « فِي أَسْقِيَةِ الْأَدَمِ الَّتِي يَلَاثُ عَلَى أَفْوَاهِهَا^(٨) » ، قالوا : يارسول الله ! إن أرضنا كثيرة الجردان ولا تبقى بها أسقية الأدم ، فقال رسول الله ﷺ : « وَإِنْ أَكَلْتَهَا الْجِرْدَانُ » قال ذلك ثلاث مرات ، فقال له الأشج : يارسول الله ! إن أرضنا ثقيلة وخمة ، وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة هيَّجت^(٩) ألواننا وعظمت بطوننا ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا تَشْرَبُوا فِي الدُّبَاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ ، وَلْيَشْرَبْ أَحَدُكُمْ فِي سِقَائِهِ يَلَاثُ عَلَى فِيهِ » ، فقال له الأشج : بأبي وأمي يارسول الله ! رخص لنا في هذه ، فأوما رسول الله ﷺ بكفيه وقال : « يَا أَشَجُّ ! إِنْ رَخَّصْتُ لَكَ فِي مِثْلِ

(١) الْمُسُوكُ : جَمْعُ مَسِكٍ وَهُوَ الْجِدْعُ . انظر : (الوسيط : ج ٨٧٢/٢) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣١٤/١) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٠٦/٤) ، وسنن أبي داود (ج ٢٩٥/٥) كتاب الأدب - باب في قبلة الرجل ح ٥٢٢٥ ، وجمع الزوائد (ج ٢٨٨/٩) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٣٢/٤ - ١٥) ، وفتح الباري (ج ٨٥/٨) .

(٣) الدُّبَاءُ : الفَرْعُ ، وَاحِدُهَا دُبَّاءَةٌ ، كَانُوا يَتَّبِعُونَ فِيهَا فَتَشْرَعُ الشَّدَّةُ فِي الشَّرَابِ (النهاية : ج ٩٦/٢) .

(٤) النَّقِيرُ : أَصْلُ النَّخْلَةِ يُنْقَرُ وَسَطُهُ ثُمَّ يُنْبَدُ فِيهِ التَّمْرُ وَيُلْقَى عَلَيْهِ الْمَاءُ لِيَصِيرَ نَبِيذًا مُسْكِرًا (النهاية : ج ١٠٤/٥) .

(٥) الْحَنْتَمُ : جِرَارٌ مَذْهُونَةٌ خَضْرٌ ، كَانَتْ تُحْمَلُ الْخَمْرُ فِيهَا إِلَى الْقَدِيئَةِ . وَاحِدَتُهَا حَنْتَمَةٌ (النهاية : ج ٤٤٨/١) .

(٦) الْمَرْقَتُ : هُوَ الْإِنَاءُ الَّذِي طَلَبِي بِالرُّقْتِ ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْقَارِ ، ثُمَّ اتَّبَعَتْ فِيهِ (النهاية : ج ٣٠٤/٢) . ومعنى النهي عن الانتباز في هذه الأوعية بخصوصها أنه يسرع فيها الإسكار ، فرمما يشرب منها من لا يشعر بذلك . وقيل : إنما اقتصر في المناهي على شرب الأنبذة في الأوعية المذكورة مع أن في المناهي ما هو أشد في التحريم لكثرة تعاطيهم لها . ثم إن النهي عن الانتباز في هذه الأواني إنما كان في أول تحريم الخمر حيث كانت نفوسهم راغبة في شربها معتادة لها ، ثم لما استقر أمر التحريم وتوطنت نفوسهم على تركها والتباعد عنها قال ﷺ : « اتَّبِعُوا فِيهَا بَدَا لَكُمْ وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا » . فالنهي عن الانتباز فيها منسوخ ، والقصد اجتناب المسكر فقط ، والله أعلم . انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٢٢/٣) ، والسيرة الدحلانية على هامش السيرة الحلبية (ج ١٩٣/٣) .

(٧) صحيح البخاري (ج ٢١٢/٥) كتاب المغازي - باب وفد عبد القيس .

(٨) أَي يَشُدُّ وَيُرْتَبُّ (النهاية : ج ٢٧٥/٤) .

(٩) أَي اصْفَرَّتْ . انظر : (النهاية : ج ٢٨٦/٥) .

هَذِهِ « وقال بكفّيه هكذا ، « شَرِئْتَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ » وفتح يديه وبسطها ، يعني أعظم منها ، « حتى إذا ثَمِيلَ أَحَدَكُمْ مِنْ شَرَايِهِ قَامَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ فَضَرَبَ سَاقَهُ بِالسَّيْفِ » . وكان في القوم رجل أصابته جراحة كذلك قال : لما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ جعلت أسدیل ثوبي أحبّها حياء من رسول الله ﷺ وقد أبداها الله له .

ثم ذكر لهم النبي ﷺ أنواع تمر بلدهم ، فقال : « لَكُمْ تَمْرَةٌ تَدْعُونَهَا التَّغْضُوضَ ، وَتَمْرَةٌ تَدْعُونَهَا الصَّرْفَانَ ، وَتَمْرَةٌ تَدْعُونَهَا التَّبْرُنِيَّ » حتى عدّد ألوان تمراتهم أجمع ، فقال له رجل من القوم : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! لو كنت ولدت في جوف هجر ما كنت بأعلم منك الساعة ، أشهد أنك رسول الله ، فقال : « إِنَّ أَرْضَكُمْ رَفَعَتْ لِي مُنْذُ قَعَدْتُمْ إِلَيَّ ، فَتَنْظَرْتُ مِنْ أَدْنَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا ، فَخَيْرُ تَمْرِكُمُ التَّبْرُنِيُّ يَذْهَبُ الدَّاءَ وَلَا دَاءَ فِيهِ » ، أو قال : « أَمَا إِنَّهُ خَيْرُ تَمْرِكُمْ وَأَنْفَعُهُ لَكُمْ » . فلما رجعوا من وفادتهم تلك أكثروا الغرز منه وعظمت رغبتهم فيه ، حتى صار عظم نخلهم وقرم التبرني .

ومكث الوفد في المدينة يتعلمون الإسلام ، وأحسن الأنصار ضيافتهم وأكرمهم ، وعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يتقبل عليهم رجلاً رجلاً فيعرضهم على ما تعلموا ، ففهم من تعلم التحيات وأم الكتاب والسورة والسورتين والسنة والسنتين ، ثم انصرفوا إلى بلادهم يدعون إلى الإسلام ، وكانت قريتهم جواثى بالبحرين أول قرية أقيمت فيها صلاة الجمعة بعد المدينة (١) .

الوفادة الثانية : وفي السنة التاسعة للهجرة قدم على رسول الله ﷺ أربعون أو عشرون رجلاً (٢) من بني عبد القيس ، فيهم رجال الوفادة الأولى إضافة إلى نفر آخرين ؛ منهم الجازود بن عمرو ، ويقال : ابن بشر ، وكان نصرانياً ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ورغبه فيه ، فقال : يا محمد ! إني قد كنت على دين ، وإني تارك ديني لدينك ، أفتضمن لي ديني ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ ، أَنَا ضَامِنٌ لَكَ أَنْ قَدْ هَدَاكَ اللَّهُ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ » ، فأسلم وأسلم أصحابه ، ففرح رسول الله ﷺ بهم فرحاً شديداً ، وقال : « يَا جَاوِدُ ! لَقَدْ تَأَخَّرَ بِكَ وَيَقُومُكَ الْمُؤَعِدُ ، وَطَالَ بِكُمْ الْأَمَدُ » ، قال : والله يا رسول الله ؛ لقد أخطأ من أخطأك قصده وعدم رشده ، وتلك وإيم الله أكبر خيبة وأعظم حوثة (٣) ، والرائد لا يكذب أهله ولا يغش نفسه . لقد جئت بالحق ، ونطقت بالصدق ، والذي بعثك بالحق نبياً واختارك للمؤمنين ولياً ؛ لقد وجدت وصفك في الإنجيل ، ولقد بشر بك ابن البتول ، فطول التحية لك ، والشكر لمن أكرمك وأرسلك ، لا أثر بعد عين ، ولا شك بعد يقين ، مَدَّ يَدَكَ فَاَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . فبايع هو وأصحابه .

وأنزلهم رسول الله ﷺ في دار رُمْلَةَ بنت الحارث ، وأجرى عليهم ضيافة ، وأقاموا عشرة أيام ، وكان الأشج يسأل رسول الله ﷺ عن الفقه والقرآن ، فكان النبي ﷺ يدينه منه إذا جلس ، وكان يأتي أبي بن كعب ، رضي الله عنه ، فيقرأ عليه .

وكان في الوفد الزارع ، أو الوازع ، وابن أخ له مجنون جاء به الوازع معه ليدعوله النبي ﷺ ، فضرب رسول الله ﷺ بيده ظهره ، ثم دعا له ، ومسح وجهه ، فبرأ حينه ، ولم تنزل تلك المسحة في وجهه وهو شيخ كبير كان وجهه وجه عذراء شاباً ، وما كان في القوم رجل يفضل عليه بعد دعوة النبي ﷺ له .

فلما أراد القوم الانصراف زوّدهم رسول الله ﷺ الأراك يستأكون به ، وأمرهم بجوائز ، وفضل عليهم الأشج فأعطاه اثنتي عشرة أوقية ونشأ . وكتب لعبد القيس كتاباً ، مما جاء فيه أنهم آمنون بأمان الله وأمان رسوله ، وعليهم الوفاء بما عاهدوا عليه ، وأن العلاء بن الحَضْرَمِيِّ أمين رسول الله ﷺ على البحرين ؛ على برّها وبحرها وما خرج منها ، وأهل البحرين أعوانه على الظالم ، وأنصاره

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٢١٤/٥) كتاب المغازي - باب وفد عبد القيس ، وصحيح مسلم (ج ٤٨/١ ، ٥٠) كتاب الإيمان - باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ . ح ٢٦ و ٢٨ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٠٦/٤) ، والمستدرک (ج ٢٠٢/٤) .

(٢) جاء في طبقات ابن سعد : أن رسول الله ﷺ كتب إلى العلاء بن الحَضْرَمِيِّ - وكان قد استعمله على البحرين لما أسلم ملكها - أن يقدم عليه عشرون رجلاً من عبد القيس ، فقدم عليه منهم عشرون رجلاً رأسهم الأشج ، وفيهم الجازود ، ومُنْقِذُ بن حَيَّان . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣١٤/١ ، ٣٦٠) .

(٣) الحَوْبَةُ : الإثم (النهاية : ج ٤٥٥/١) .

في الملاحم ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، ولهم على جند المسلمين الشُّركة في الفياء والعدل في الحكم والقصد في السيرة ، والله ورسوله يشهد عليهم .

وسأل الجارود رسول الله ﷺ الحُمَْلان ، فقال : « وَاللَّهِ مَا عِنْدِي مَا أُحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » ، قال : يا رسول الله ! فإن بيننا وبين بلادنا ضَوَالٌ^(١) من ضَوَالٍ النَّاسِ أَفْتَبَلِّغُ عَلَيْهَا إِلَى بِلَادِنَا ؟ قال : « لا ، إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا ، فَإِنَّمَا تِلْكَ حَرَقُ النَّارِ » . فخرج الجارود إلى قومه ، وكان حسن الإسلام ، صُلِباً على دينه حتى هلك ، وقد أدرك الردة .

فلما رجع من قومه من كان أسلم منهم إلى دينهم الأول مع الغُزور بن المنذر بن النعمان بن المنذر ، قام الجارود فتشَّهد شهادة الحق ، ودعا إلى الإسلام ، ثم قال : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَكْفُرُ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ^(٢) .
وفد نَجْران :

نَجْران بلدة كبيرة على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كانت تشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، وقد دخلت إليها النصرانية عن طريق الحبشة ، وصار للنصرانية فيها معابد وكنائس .

وفي السنة التاسعة للهجرة قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ، وكان النبي ﷺ قد كتب إليهم كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام ، أو إلى الجزية ، وإلا أذنهم بحرب ، فدعر أهل نجران ذعراً شديداً ، فبعثوا إليه وفدهم .

وقيل : إن وفاة نصارى نجران كانت مرتين ؛ المرَّة الأولى وفدوا عليه بمكة وهم حينئذ عِشْرُونَ رَجُلًا ، والمرَّة الثانية وفدوا عليه بالمدينة في السنة التاسعة^(٣) بعد أن كتب إليهم ، وكانوا ستين راجباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم ، أحدهم : العاقب وهو أمير القوم ، وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدر عن إلا عن رأيه ، واسمه عبد المسيح . والثاني : السيّد وهو ثَمَالِم^(٤) ، وصاحب رحلتهم ومجتهمهم ، واسمه الأيهم ، ويقال : شَرْحَيْبِل . والثالث : الأُسْقَف وهو حَبْرَم ، وإمامهم ، وصاحب مدراسهم ، واسمه أبو حارثة بن عَلَقَمَةَ من بني بَكْر بن وائل ، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسُن علمه في دينه ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم ، وكان يعرف أمر النبي ﷺ وشأنه وصفته مما علمه من الكتب المتقدمة .

فلما وجَّهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له وإلى جانبه أخ له يقال له كُوز بن عَلَقَمَةَ ، فعثرت بغلة أبي حارثة ، فقال له كُوز : تعيس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ - فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست ، فقال : ولم يا أخي ؟ قال : والله إنه للنبي الذي كُنَّا ننتظر ، فقال له كُوز : وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم شَرَفُونَا وَمَوْلُونَا وَأَكْرَمُونَا وَقَدْ أَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ ، فَلَوْ فَعَلْتَ نَزَعُوا مِنَّا كُلَّ مَا تَرَى . فأضمر عليها منه أخوه كُوز حتى أسلم بعد ذلك .

ويذكر أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، فكلما مات رئيس منهم فأفضت الرئاسة إلى غيره ختم على تلك الكتب خاتماً من الخواتم التي كانت قبله ، ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي فعثر ، فقال ابنه : تعيس الأبعد ، فقال له أبوه : لا تفعل ؛ فإنه نبي واسمه في الكتب ، فلما مات لم تكن لابنه هِمَّة إلا أن شدَّ فكسر الخواتم ، فوجد فيها ذكر النبي ﷺ ، فأسلم ، فحسُن إسلامه وحج .

(١) الضؤال : جنح ضالّة ، والمراد بها في هذا الحديث الضالّة من الإبل والبقر مما يخمي نفسه ويتقدّر على الإبعاد في طلب المرعى والماء بخلاف الغنم (النهاية : ج ٩٨/٣) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨٢/١ ، ٢١٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ١٠٥/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١٠٠/٢) ، و (ج ٦١/٥) ، و (ج ٢٨٨/٩) .

(٣) وقيل : كانت وفادتهم في السنة العاشرة . انظر : تاريخ الطبري (ج ١٣٩/٣) .

(٤) الثَمَالِم : المَلَجُ والغِيَاث (النهاية : ج ٢٢٢/١) .

فلما وصل الوفد المدينة دخلوا على رسول الله ﷺ في مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات ؛ حَبَبَ وأردية مكفوفة بالحرير ، محتمين بخواتم الذهب ، في جمال رجال بني الحارث بن كعب ، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ : مارأينا وفداً مثله . وقيل : إنه لما رأى فقراء المسلمين ماعلى هؤلاء من الزينة والزِّي الحسن تشوّفت نفوسهم إلى الدنيا ، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أُوْبَتِكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ (١) .

وقد خانت صلاتهم عند قدومهم ، فقاموا يصلّون في المسجد نحو المشرق ، فأراد الناس منعهم لما فيه من إظهار دينهم الباطل ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعَوْهُمْ » - تألّفأ لهم ورجاء لإسلامهم - فصلّوا إلى المشرق ، فلما فرغوا أتوا النبي ﷺ فأعرض عنهم ولم يكلمهم ، فاتوا عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، وكان معرفة لهم ، فقال : ذلك من أجل زيّكم هذا ، فانصرفوا يومهم ذلك ، ثم غدوا عليه بزِيّ الرهبان فسلموا عليه ، فردّ عليهم ، ثم قال : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ؛ لَقَدْ أَتَوْنِي الْمَرَّةَ الْأُولَى وَإِنَّ إِبْلِيسَ لَمَعَهُمْ » .

ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فامتنعوا وقالوا : أسأنا قبلك ، فقال : « كَذَّبْتُمْ ، يَمْتَعِكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثٌ : دَعَاؤُكُمْ لِلَّهِ وَلِسَانًا ، وَعِبَادَتُكُمْ الصَّالِيَةَ ، وَأَكْلُكُمْ الْخِنْزِيرَ » . وكثر الكلام والحجاج بينهم وبينه حتى قال رسول الله ﷺ : « لَوِدِدْتُ أَنْ يَبْنِي وَيَبْنِي أَهْلُ نَجْرَانَ حِجَابًا » من شدة ما كانوا يجادلونه .

ولم تزل بهم المسألة حتى قالوا له : ماتقول في عيسى ابن مريم ؟ فإنّا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبياً أن نعلم ماتقول فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا عِنْدِي فِيهِ شَيْءٌ يَوْمِي هَذَا » ، فكثت رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى أنزل الله عليه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنُ مِنَ الْمُمْذَرِّينَ ، فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢) .

وفي رواية : أن واحداً منهم قال له : المسيح ابن الله لأنه لأب له ، وقال آخر : المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى وأخبر عن الغيوب وأبرأ الأسقام وخلق من الطين طيراً ، وقال ثالث : إنه ثالث ثلاثة لقول الله فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فقال رسول الله ﷺ : « هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ » ، فغضبوا وقالوا : فن أبوه يا محمد ؟ فإن كنت صادقاً فأرنا عبداً لله يحيي الموتى ويشفي الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيراً . فسكت عنهم رسول الله ﷺ فلم يجيبهم ، فأَنْزَلَ اللهُ تعالى في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها .

فلما أصبح رسول الله ﷺ وقد أتاه الخبر من الله ، عزّ وجلّ ، عن المسيح عليه السلام ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاحظتهم ، إن ردّوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك ، فأبوا أن يقرّوا بما عرض عليهم من قوله في عيسى عليه السلام ، فقال لهم : « إِنْ أَنْكَرْتُمْ مَا أَقُولُ لَكُمْ فَهَلْكُمْ أَبَاهِلِكُمْ (٣) » ، فقالوا له : يا أبا القاسم ! دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب - وكان ذا رأيهم - فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى ؛ لقد عرفتم أن محمداً لني مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لاعتن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إله دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ، ثم انصرفوا إلى بلادكم ، فاتوا رسول الله ﷺ فقالوا : قد بدا لنا أن لا نباهلك ، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، فاحكم علينا بما أحببت نعظك ونصالحك .

وفي رواية : أنهم واعدوه أن يلاعنوه بالغداة ، فلما أصبح رسول الله ﷺ أقبل أخذاً بيد الحسن والحسين وفاطمة تمشي خلفه

(١) آل عمران : ١٥ .

(٢) آل عمران : ٥٩ - ٦١ .

(٣) الْمُتَبَاهِلَةُ : الْمُتَلَاعِنَةُ ، وَهُوَ أَنْ يَجْتَمِعَ الْقَوْمُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ فَيَقُولُوا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِ مِنَّا (النهاية : ج ١٦٧/١) .

وعليّ خلفها ، رضي الله عنهم ، فأرسل إليهم فجاءوا ، فقال أسقفهم لأصحابه : إني لأرى وجوهاً لوسألوا الله تعالى أن يزيل لهم جبلاً لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، فقالوا : يا أبا القاسم ! إنما أراد أن يلاعنك سفهاؤنا ، وإنا نحب أن تعفينا ، قال : « قَدْ أَغْفَيْتُكُمْ » .

فقبل رسول الله ﷺ منهم وقال : « إِنَّ الْعَذَابَ قَدْ أَظَلَّ نَجْرَانَ ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْلَا عَنُونِي لَأُمْطَرَ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَاراً » - وفي رواية قال : « لَقَدْ أَنَانِي الْبَشِيرُ بِهَلَكَةِ أَهْلِ نَجْرَانَ لَو تَمُّوا عَلَى الْمَلَاعِنَةِ حَتَّى الطَّيْرِ عَلَى الشَّجَرِ » - ثم صالحهم على الجزية على ألفي حلة ؛ ألف حلة في رجب ، وألف في صفر ، ومع كل حلة أوقية من الفضة ، وعلى عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين ربحاً ، وثلاثين بعبيراً ، وثلاثين فرساً ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم ، إن كان باليمن كيد ، وعلى أن لا تهدم لهم بيعة ، ولا يخرج لهم قس ، ولا يفتنوا عن دينهم ، مالم يحدثوا حدثاً^(١) ، أو يأكلوا رباً ، ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدمم وبيعهم . وكتب لهم بذلك كتاباً ، وأشهد عليه شهوداً ؛ منهم أبو سفيان بن حرب ، والأقرع بن حابس ، والغيرة بن شعبة وكتب .

فلما قبضوا كتابهم وأرادوا الانصراف إلى نجران طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبعث معهم رجلاً أميناً من أصحابه ليقبض مال الصلح ، وليحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها في أموالهم ، فقال رسول الله ﷺ : « ائْتُونِي الْعَشِيَّةَ أَبْعَثُ مَعَكُمْ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ » - وفي لفظ : « لَأُبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ » ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، قال : فرحمت إلى الظهر مهجراً ، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه ويساره ، فجعلت أظطاول له ليراني ، فلم يزل يلتبس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح ، فقال : « قُمْ يَا أَبَا عَبِيدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ » ، فلما قام قال رسول الله ﷺ : « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وَهَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ » - ولذلك كان يدعى في الصحابة بعد بالأمين - فدعاه ، فقال : « أَخْرِجْ مَعَهُمْ فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ » ، قال عمر رضي الله عنه : فذهب بها أبو عبيدة .

فرجعوا إلى بلادهم ، فلم يلبث السيّد والعاقب إلا يسيراً حتى قدما على النبي ﷺ فأسلما^(٢) ، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبي ﷺ حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ورحمته ورضوانه وسلامه ، ثم ولي أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فكتب بالوصاية بهم عند وفاته ، ثم أصابوا رباً ، فأخرجهم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، من أرضهم ، وكتب لهم : هذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران من سار منهم إنه آمن بأمان الله لا يضرم أحد من المسلمين ، وفاء لهم بما كتب لهم رسول الله ﷺ وأبو بكر . أما بعد ؛ فن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من جريب الأرض^(٣) ، فما اعتلوا من ذلك فهو لهم صدقة وعقبة لهم بمكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم . أما بعد ؛ فن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم ، فإنهم أقوام لهم الذمة ، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن يقدموا ، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التي اعتلوا غير مظلومين ولا معنوف عليهم^(٤) .

(١) قال أبو داود : إذا نقضوا بعض ما اشترط عليهم فقد أحدثوا .

(٢) تقدّم عند ذكر بعث النبي ﷺ عماله على الصدقات أنه بعث عليّاً ، رضي الله عنه ، إلى أهل نجران ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم ، فهذه غير قصة أبي عبيدة ، رضي الله عنه ، لأنه توجه معهم قبض مال الصلح ورجع ، وأما عليّ ، رضي الله عنه ، فبعثه النبي ﷺ بعد ذلك ليقبض من النصارى ما استحقّ عليهم من الجزية ، ويأخذ من أسلم ما وجب عليه من الصدقة . انظر : زاد المعاد (ج ٣/٦٤٥ - ٦٤٦) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٤/٤٣) .

(٣) الْجَرِيْبُ مِنَ الْأَرْضِ : مِقْدَارٌ مَعْلُومٌ الدَّرَاعِ وَالْمِسَاحَةِ (لسان العرب : ج ١/٥٨٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٢١٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣/٣٥٧) ، وصحيح البخاري (ج ٥/٢١٧) كتاب المغازي - باب قصة أهل نجران ، وصحيح مسلم (ج ٤/١٨٧١) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ح ٢٢ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣/١٧٥) ، والمستدرک (ج ٢/٥٩٤) ، و (ج ٣/٢٦٥) ، وسنن أبي داود (ج ٣/٤٣٠) كتاب الخراج والإمارة والفيء - باب في أخذ الجزية ح ٢٠٤١ ، ومجمع الزوائد (ج ١/١٥٥) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢/٤٥٦) ، ودلائل البيهقي (ج ٥/٢٨٥ - ٢٨٨) ، وتاريخ الطبري (ج ٣/١٣٩٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٤/٤١) ، وتفسير القرآن العظيم / لابن كثير (ج ١/٣٧٠) .

وفد بني عامر بن صعصعة :

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر بن صعصعة ، فيهم عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، وجبار بن سلمى ، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم ، وكان عامر يضمر الغدر بالنبي ﷺ ، وهو الذي غدر بأصحاب بدر معونة من قبل ، فلما أراد قومه أن يقدموا المدينة قالوا له : يا عامر ! إن الناس قد أساموا فأسلم ، فقال : والله لقد كنت آليت أن لأنتهي حتى تتبع العرب عقي ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟ ثم قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فأعله بالسيف .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل : يا محمد ! خالني ^(١) ، فقال : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » ، قال : يا محمد ! جعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به ، فجعل أربد لا يحير شيئاً ، ويست يده على السيف فلم يستطيع سله ، فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال : يا محمد ! خالني ، قال : « لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » ، فقال : ما جعل لي إن أسلمت ؟ قال : « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » ، فقال : أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك ؟ قال : « ليس ذلك لك ولا لقومك ، ولكن لك أئنة الخيل » ، فقال : أنا الآن في أئنة خيل نجد ، أتجعل لي الوبر ولك المندر ^(٢) ؟ قال : « لا » ، فقام عنه وقال : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً ، فلما ولى قال رسول الله ﷺ : « اللهم ! اكفني عامر بن الطفيل بما شئت ، وأبعث له داءً يقتله » ، واهد بني عامر ، وأغن الإسلام عن عامر .

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد : وبلك يا أربد !! أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندي على نفسي منك ، وإيم الله لأخافك بعد اليوم أبداً ، قال : لأبأ لك ، لا تعجل علي ، والله ما همت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟ - وفي رواية : إلا رأيت بيني وبينه سوراً من حديد - وفي رواية أخرى : لما أردت سل سيفي نظرت فإذا فحل من الإبل فاغر فاه بين يدي يهوي إلي ، فوالله لو سللته لخفت أن ييلع رأسي .

ثم رجعا حتى إذا كانا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه ، فأوى إلى بيت امرأة من بني سؤل ، وكانوا موصوفين باللؤم ، فصار يتأسف على مجيء الموت له في بيتها ، ويمس القرحة بيده ويقول : يا بني عامر ! أئنة كغدة البعير وموتاً في بيت امرأة من بني سؤل ؟ فلم يزل كذلك حتى مات في بيتها - وفي رواية : أنه قال : اتئوني بفرسي ، فركبه فأركضه حتى مات عليه .

وأما أربد فإنه لما قدم على قومه سألوه : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شيء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله . فخرج بعد مقاتله هذه بيوم أو يومين معه جملة يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتها ، فبكاه كبيد بن ربيعة ، وكان أخاه لأمه .

وأنزله الله ، عز وجل ، في عامر وأربد : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحِيلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمَتَّعَالِ ، سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴾ ثم ذكر أربد وما قتله الله به فقال : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ^(٣) .

(١) خالني : بكسر اللام وتشديدها : اتخذي خليلاً ، من خالته : صاقتها . وبكسر اللام وتخفيفها خالني : تفرذ لي خالياً حتى أحذتك ، من خلا فلان بصاحبه : انفرد به في خلوة . انظر : (الوسيط : ج ٢٥٢/١ ، ٢٥٣) .

(٢) عنى به المندر أو الحصر ، لأن مبانيتها إنما هي بالمندر ، وعنى بالوبر الأخيبة ، لأن أئنة البادية بالوبر .

(٣) الرعد : ٨ - ١٣ . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٢/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٥/٥) كتاب المغازي - باب غزوة الرجيع ، وجمع الزوائد (ج ١٢٥/٦) ، (ج ٤١/٧) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٠/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٢٠/٥) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٢/٤) .

وأما ثالثهم جَبَّار بن سَلْمَى فقد أسلم مع من أسلم من بني عامر وحسن إسلامه^(١). روي عن خارجة بن عبد الله بن كعب قال: قدم وفد كلاب في سنة تسع على رسول الله ﷺ، وهم ثلاثة عشر رجلاً، فيهم ليبيد بن ربيعة، وجَبَّار بن سَلْمَى، فأَنْزَلَهُمْ دارَ رَمْلَةَ بنت الحارث، وكان بين جَبَّار وكعب بن مالك خَلَّةٌ، فبلغ كعباً قدومه فرحب بهم، وأهدى لَجَبَّار وأكرمه، وخرجوا مع كعب فدخلوا على رسول الله ﷺ فسلموا عليه بسلام الإسلام، وقالوا: إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التي أمرته، وإنه دعانا إلى الله، فاستجبنا لله ولرسوله، وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردّها على فقرائنا^(٢).

ويذكر أنه قدم على رسول الله ﷺ عَلْقَمَةَ بن عِلَاقَةَ بن وهودة بن خالد بن ربيعة وابنه، وكان عمر، رضي الله عنه، جالساً إلى جنب رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أوسع لعَلْقَمَةَ»، فأوسع له، فجلس إلى جنبه، فقصّ عليه رسول الله ﷺ شرائع الإسلام، وقرأ عليه قرآناً، فقال: يا محمد! إن ربك لكريم، وقد آمنت بك وبإيعة على عكرمة بن خصفة أخي قيس، وأسلم هودّة وابنه وابن أخيه، وبأيع هودّة على عكرمة أيضاً. وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه مياهاً وأرضاً^(٣).

وروي الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن الشَّخِير أنه وفد إلى النبي ﷺ في رهط من بني عامر، قال: فأتيناه، فسلمنا عليه، فقلنا: أنت ولينا، وأنت سيدنا، وأنت أطول علينا طولاً، وأنت أفضل علينا فضلاً، وأنت الجفنة الغراء^(٤)، فقال: «قولوا قولكم ولا يستجركم الشيطان». قال: وربما قال: «لا يستهوينكم»^(٥).

وفد بني البكاء:

وفد على رسول الله ﷺ سنة تسع ثلاثة نفر من بني البكاء - وهم بطن من بني عامر بن صعصعة -: معاوية بن ثور، وهو يومئذ ابن مائة سنة، ومعه ابن له يقال له بشر، والفجيج بن عبد الله، ومعهم عبد عمرو الأصم، فأمر لهم رسول الله ﷺ بمنزل وضيافة، فأسلموا، وتعلموا ﴿الْحَمْدُ﴾ وسوراً من القرآن، وكتب رسول الله ﷺ للفجيج كتاباً أنه ومن تبعه ممن أسلم من قومه وأقام شرائع الإسلام، آمن بأمان الله وأمان محمد ﷺ. وسمى رسول الله ﷺ عبد عمرو الأصم عبد الرحمن وكتب له بمائه الذي أسلم عليه ذي القصة.

فلما أرادوا الرجوع إلى قومهم أجازهم رسول الله ﷺ كما يجيز الوفد، وقال له معاوية: إني أتبرك بمسك، وقد كبرت وإبني هذا برّ بي، فامسح وجهه، فمسح رسول الله ﷺ وجه بشر بن معاوية، وأعطاه أغنزاً عُفْرًا^(٦)، وبرك عليهن. قيل: فالتسنة ربما أصابت بني البكاء ولا تصيبهم^(٧).

وفد بني حنيفة:

بنو حنيفة قبيلة كبيرة، ينتون إلى ربيعة بن نزار من ولد عدنان، كانوا يسكنون اليمامة^(٨)، وفد على رسول الله ﷺ منهم بضعة عشر رجلاً، فيهم رجال بن عَنُقَوَةَ - ويقال: رجال - وطلح بن علي، ومجاعة بن مرارة، وكان معهم مسيلمة بن حبيب - ويقال: ابن ثامة - الكذاب. فأنزلوا في دار رَمْلَةَ بنت الحارث - وكانت دارها دار الوفود - وأجريت عليهم ضيافة، ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ في المسجد فأسلموا وبأيعوا.

(١) انظر في سبب إسلامه ماورد في وقعة بئر معونة في السنة الرابعة للهجرة.

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٢٠٠/١).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج ٢٧٢/١، ٢٧٣، ٢١١)، و(ج ٥١٧/٧).

(٤) قال ابن الأثير: كانت العرب تدعو السيدة المطعام حنفة، لانه يصنعها ويطيء الناس فيها؛ فسمي باسمها. والغراء: البهضاء؛ أي: أنها مملوءة بالشحم والدهن (النهاية: ج ٢٨٠/١).

(٥) مسند الإمام أحمد (ج ٢٥/٤).

(٦) أي: خالط نياضها حنزة (لسان العرب: ج ٢٠٠٩/٤).

(٧) انظر: طبقات ابن سعد (ج ٢٠٤/١).

(٨) اليمامة من الأماكن الحصبة في جزيرة العرب، وبها وادي حنيفة، وبه مياه ومواقع كانت عامرة ثم خربت، وهي اليوم خراب أو آثار.

وقيل : وجاءوا بمُسَيْلِمَةَ إلى رسول الله ﷺ يسته : ، بالثياب تعظيماً له - وكانت تلك عاداتهم فيمن يعظمونه ، وكان أمره عند قومه كبيراً - وكان النبي ﷺ جالس في أصحابه معه عسيب من سَعَفِ النَّخْلِ في رأسه خوصات (١) ، فلما انتهى إليه وهم يسترونه بالثياب كلمه وسأله أن يجعل له الأمر من بعده ، وأن يشركه معه في النبوة ، فقال له رسول الله ﷺ : « لَوْ سَأَلْتَنِي هَذَا الْعَسِيبَ مَا أَعْطَيْتُكَ » .

وقيل : إن بني حنيفة جعلوه في رحاهم ، فاما أ. لهما أقاموا أياماً مختلفون إلى رسول الله ﷺ ، وكان رَحَالُ بْنُ عَنفَوَةَ يتعلم القرآن (٢) من أبي بن كعب ، رضي الله عنه ، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أمرهم رسول الله ﷺ بجوائزهم ؛ خمس أواق لكل رجل ، فقالوا : يا رسول الله ! إنا خلفنا صاحباً لنا في رحالتنا يبصرها لنا وفي ركائبنا يحفظها علينا ، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم ، وقال : « أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بِشَرِّكُمْ مَكَاناً » - يعني لحفظه ضيعة أصحابه (٣) - ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاءوا مُسَيْلِمَةَ بما أعطاه ، وأخبروه بما قال عنه ، فقال : عرف أن الأمر إلي من بعده (٤) .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ أقبل ومعه ثابت بن قيس بن الشَّاسِ ، رضي الله عنه ، وفي يد النبي ﷺ قطعة من جريد ، حتى وقف على مُسَيْلِمَةَ في أصحابه - وقد بلغه أن مسيلمَةَ قال : إن جعل لي مُحَمَّدُ الأَمْرَ من بعده تبعته ، فقال له : « لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا ، وَلَنْ تَعُدَّوْا أَمْرَ اللَّهِ فِيكُمْ ، وَلَكِنْ أَدْبُرْتُ (٥) لِيَعْقُرَنَّكَ (٦) اللَّهُ ، وَإِنِّي لَأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتَ فِيهِ مَا أُرِيتَ ، وَهَذَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ يُجِيبُكَ عَنِّي (٧) » . ثم انصرف رسول الله ﷺ (٨) .

والذي رآه فيه ﷺ أنه رأى في المنام أن في يديه سوارين من ذهب ، قال : « فَأَهْمَنِي شَأْنُهُمَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ أَنْ أَنْفُخَهُمَا ، فَفَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا ، فَأَوْلَتْهُمَا كِنْدَانَيْنِ يَخْرُجَانِ (٩) » .

ويمكن الجمع بين ماسبق وبين رواية الصحيحين أن مُسَيْلِمَةَ أقام في رحاهم باختياره أنفة منه واستكباراً أن يحضر مجلس النبي ﷺ ، وعامله عليه الصلاة والسلام معاملة الكرم على عاداته في الاستئلاف ، فقال لقومه : « إِنَّهُ لَيْسَ بِشَرِّكُمْ مَكَاناً » ، لكونه كان يحفظ رحاهم ، وأراد ﷺ استئلافه بالإحسان بالقول المذكور والفعل حيث أعطاه مثل ما أعطى قومه ، فلما لم يفد في مُسَيْلِمَةَ توجه ﷺ بنفسه إليه ليقم عليه الحجة ويعذر إليه بالإندار .

ولما رجع الوفد إلى اليمامة أعطاهم رسول الله ﷺ إداوة فيها ماء من فضل طهوره ، وأمرهم أن يكسروا بيعتهم وينضحوا موضعها بهذا الماء ، ويتخذوا مكانها مسجداً . وأعطى رسول الله ﷺ مَجَاعَةَ بِنِ مَرَارَةَ أرضاً باليمامة يقال لها العوزة ، وكتب له بذلك كتاباً . فلما قدموا اليمامة فعلوا ما أمرهم رسول الله ﷺ ، واتخذوا مكان البيعة مسجداً نادى فيه بالأذان طلق بن علي ، وصارت الإداوة عند الأقرع بن مسلمة (١٠) .

(١) خُوصُ النَّخْلِ : وَرَقَةُ (النهاية : ج ٨٧/٢) .

(٢) سيأتي أن الرِّحَالَ ارتد بعد ذلك وأمن بمُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ .

(٣) أي : ظهروهم وخواتمهم .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٢/٤ - ٢٤٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣١٦/١) .

(٥) أي خَالَفْتُ الْحَقَّ . انظر : شرح الزرقاني على اللواهب اللدنية (ج ٢٢/٤) .

(٦) أي : لِيُهْلِكَنَّكَ (النهاية : ج ٢٧٢/٣) .

(٧) أي : أعلم النبي ﷺ مسيلمَةَ أنه إن كان يريد الإسهاب في الخطاب ، فهذا ثابت - وكان خطيبه - يقوم عنه في ذلك ، أما هو فقد اكتفى بما قاله ﷺ من جوامع الكلم . انظر : فتح الباري (ج ٩٠/٨) .

(٨) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٤٧/٤) كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام ، و (ج ٢١٦/٥) كتاب المغازي - قصة الأسود العنسي ، وصحيح مسلم (ج ١٧٨٠/٤) كتاب الرؤيا - باب رؤيا النبي ﷺ ح ٢١ .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧١/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٥٢/٩) كتاب التعبير - باب إذا طار الشيء في المنام .

(١٠) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣١٦/١) ، وسنن النسائي (ج ٢٨/٢) كتاب المساجد - اتخاذ البيع مساجد ، وجمع الزوائد (ج ٩/٦) ، وشرح الزرقاني على اللواهب (ج ٢٤/٤ - ٢٥) .

وأخيراً تحقق ما رآه النبي ﷺ في منامه ، فقد ادعى مُسئِلة الكذاب أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ ، كما ادعى الأسود العنسيّ النبوة بالين ، وذلك في السنة العاشرة للهجرة كما سيأتي بيانه في حينه .

وفد بهراء :

بهراء قبيلة من قُضاعة ، قدم وفد على رسول الله ﷺ من الين ، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً ، فأقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد بن عمرو ببني جديلة ، فخرج إليهم المقداد فرحب بهم وأنزلهم في منزل من الدار ، وجاءهم بحفنة من خيس كانت قد هيأتها امرأته ضباعة بنت الزبير قبل أن يجلوا ليجلسوا عليها ، قالت ضباعة : فحملها أبو معبد المقداد - وكان كريماً - إليهم ، فأكلوا منها حتى نهلوا ، وردت إلينا الجفنة وفيها أكل ، فجمعنا تلك الأكل في جفنة صغيرة ثم بعثنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « ضباعة أرسلت بهذا ؟ » قيل : نعم ، فقال : « ما فعل ضيف أبي معبد ؟ » قيل : عندنا ، فأصاب منها رسول الله ﷺ أكلاً هو ومن معه في البيت حتى نهلوا ، ثم بعث بها إلينا ، فأكل منها الضيف ما أقاموا ، نردها عليهم وما تغيض حتى جعل الضيف يقولون : يا أبا معبد ! إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا ، وما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين ، وقد ذكر لنا أن بلادكم قليلة الطعام إنا هو العلق أو نحوه ، ونحن عندك في الشبع ، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها أكلاً وردّها فهذه بركة أصابع رسول الله ﷺ ، فجعل القوم يقولون : نشهد أنه رسول الله ، وازدادوا يقيناً ، وذلك الذي أراد النبي ﷺ ، وتعلموا الفرائض ، وأقاموا أياماً ، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ يودّعونهم ، فأمر بجوائزهم ، ثم انصرفوا إلى أهلهم (١) .

وفد بني سعد هذيم (٢) :

وقدم على رسول الله ﷺ بنو سعد هذيم من الين ، وهم بطن من قُضاعة ، فنزلوا ناحية من المدينة ، ثم خرجوا يؤمّون المسجد ، فوجدوا رسول الله ﷺ يصلي على جنازة ، فلما انصرف قال : « من أنتم ؟ » فقالوا : من بني سعد هذيم ، فأسلموا وبإيعا رسول الله ﷺ على الإسلام ، ثم انصرفوا إلى رحالهم وقد كانوا خلفوا عليها أصغرهم ، فبعث رسول الله ﷺ في طلبهم ، فأتي بهم إليه ، فتقدّم صاحبهم فبايعه على الإسلام ، فقالوا : يا رسول الله ! إنه أصغرنا وإنه خادمنا ، فقال : « أصغر القوم خادمهم بآذن الله عليه » ، قالوا : فكان والله خيرنا وأقرنا للقرآن لدعاء رسول الله ﷺ له . ثم أمر بهم رسول الله ﷺ فأنزلوا وضيفوا ، فأقاموا ثلاثاً ، ثم جاؤوه يودّعونهم ، فقال : « أمروا عليكم أحدكم » ، وكتب لهم كتاباً فيه فرائض الصدقة ، ثم أمر بلالاً ، رضي الله عنه ، فأجازهم بأواق من فضة لكل رجل منهم ، ورجعوا إلى قومهم ، فزرعهم الله الإسلام ، وأمروا عليهم أصغرهم فكان يؤمهم (٣) .

وفد تَجيب :

قدم وفد تجيب على رسول الله ﷺ سنة تسع ، وهم من السكون ، حيّ بالين ، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً ، قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم ، فسّر رسول الله ﷺ بهم وأكرم منزلهم ، وقالوا : يا رسول الله ! سئنا إليك حقّ الله في أموالنا ، فقال : « ردّوها فاقسموها على فقرائكم » ، قالوا : يا رسول الله ! ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ! ما وفد علينا وفد من العرب مثل ما وفد به هذا الحي من تجيب ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الهدى بيد الله ، عزّ وجلّ ، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان » ، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء ، فكتب لهم بها ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسُنن ، فإزداد النبي ﷺ فيهم رغبة ، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم ، فأقاموا أياماً ولم يطلبوا اللبث ، فقيل لهم : ما يُعجلكم ؟ فقالوا : نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برويتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إياه وما ردّ علينا . ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ يودّعونهم ، فأمر بلالاً فأجازهم بأكثر ما كان يُحيز به الوفود ، وقال : « هل بقي منكم أحد ؟ » قالوا : غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سنّاً ، قال :

(١) انظر : عيون الأثر (ج ٢/٢٥١) ، وتاريخ الطبري (ج ١٢٢/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٥٧٤) .

(٢) سعد هذيم : هو سعد بن زيد ، لكن حضنه عبد أسود اسمه هذيم فأضيف إليه ، وهو أبو قبيلة من قُضاعة . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٥١٤) .

(٣) انظر : عيون الأثر (ج ٢٤٨/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧٠/١) .

« فَأَرْسَلُوهُ إِلَيْنَا » ، فأقبل الغلام إلى رسول الله ﷺ فقال : إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتي ، قال : « وَمَا حَاجَتِكَ ؟ » قال : تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي ، فقال : « اللَّهُمَّ ! اغفر له ، وارحمه ، واجعل غنائه في قلبه » ، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه ، فانطلقوا راجعين إلى أهلهم .

ثم وافوا رسول الله ﷺ في الموسم بمى سنة عشر ، فسألهم رسول الله ﷺ عن الغلام ، فقالوا : ما رأينا مثله أفنع منه بما رزقه الله ، فقال رسول الله ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَمُوتَ جَمِيعاً » ، فقال رجل منهم : أوليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله ؟ قال : « تَشَعَّبَ أَهْوَاؤُهُ وَهَمُومُهُ فِي أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا ، فَلَعَلَّ أَجَلَهُ أَنْ يُدْرِكَهُ فِي بَعْضِ تَلْكَ الْأَوْدِيَةِ فَلَا يَبَالِي اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ ، فِي أَيِّهَا هَلَكَ » .

قيل : فعاش ذلك الرجل فيهم على أفضل حال وأزهد في الدنيا وأفنع بما رزق ، فلما توفي النبي ﷺ ورجع من رجح من أهل اليمن عن الإسلام ، قام في قومه فذكروهم الله والإسلام ، فلم يرتد منهم أحد ، وجعل أبو بكر ، رضي الله عنه ، يذكره ويسأل عنه حتى بلغه حاله وما قام به ، فكتب إلى زياد بن كبيد يوصيه به خيراً^(١) .

وفد أزد شنوءة :

وقدم على رسول الله ﷺ جمع من أزد شنوءة ، يقال : أربائة أهل بيت ، فيهم صرد بن عبد الله الأزدي ، فنزلوا على فروة بن عمرو فحباهم وأكرمهم ، وأقاموا عنده عشرة أيام ، وكان صرد أفضلهم ، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن .

فخرج صرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجرش ، وهي يومئذ مدينة مغلقة وبها قبائل من قبائل اليمن ، وقد صوّت^(٢) إليها خنعم ، فدخلوها حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم ، فحاصروهم فيها قريباً من شهر ، وامتنعوا فيها منه ، ثم إنه رجع عنهم قافلاً ، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ظن أهل جرش أنه إنما ولي عنهم منهزماً ، فخرجوا في طلبه حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً شديداً . وقد كان أهل جرش يعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران ، فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشية بعد صلاة العصر ، إذ قال رسول الله ﷺ : « بَأَيِّ بِلَادِ اللَّهِ شَكَرَ ؟ » فقام إليه الجرشيان فقالا : يا رسول الله ! ببلادنا جبل يقال له : كشر ، وكذلك يسميه أهل جرش ، فقال : « إِنَّهُ لَيْسَ بِكَشَرٍ وَلَكِنَّهُ شَكَرٌ » ، قالوا : فما شأنه يا رسول الله ؟ قال : « إِنَّ بُدْنَ اللَّهِ لَتُنَحَّرَ عِنْدَهُ الْآنَ » . فجلس الرجلان إلى أبي بكر ، أو إلى عثمان ، فقال لهما : ويحك ! إن رسول الله ﷺ الْآنَ لَيَنْتَعَى لِكَمَا قَوْمِكَا ، فقوموا إلى رسول الله ﷺ فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما ، فقاما إليه فسألاه ذلك ، فقال : « اللَّهُمَّ ! ارْفَعْ عَنْهُم » .

فخرجوا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما ، فوجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبد الله الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال ، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر .

ثم قدم بعد ذلك وفد جرش على رسول الله ﷺ ، فأساموا ، فقال لهم النبي ﷺ : « مَرْحَباً بِكُمْ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجُوهَا ، وَأَصْدَقَهُ لِقَاءً ، وَأَطْيَبَةَ كَلَاماً ، وَأَعْظَمَةَ أَمَانَةً ! أَنْتُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْكُمْ » . وحكى لهم رسول الله ﷺ حِمَى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس والراحلة وللمثيرة بقرة الحرث ، فن رعاها من الناس فإلهم سحت^(٣) .

وفد الأزد :

وينسبون إلى جدِّهم الأعلى وهو الأزد بن الغوث ، روي عن سويد بن الحارث قال : وفدت سبع من قومي على رسول الله ﷺ ، فلما دخلنا عليه وكلمناه فأعجبه ما رأى من سمئنا وزيننا فقال : « مَا أَنْتُمْ ؟ » قلنا : مؤمنون ، فتبسم رسول الله ﷺ

(١) انظر : عيون الأثر (ج ٢٤٦/٢) .

(٢) صَوَى إِلَيْهِ : انْضَمَّ . وقد تقدم .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٦/٤) ، والمستدرک (ج ١٠٦/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٣٧/١) .

وقال : « إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فما حَقِيقَةُ قَوْلِكُمْ وَإِيْمَانِكُمْ ؟ » قلنا : خمس عشرة خَصْلَةٌ ؛ خمس منها أَمَرْتُنَا بِهَا رَسَلَكُ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا ، وخمس أَمَرْتُنَا أَنْ نَعْمَلَ بِهَا ، وخمس تَخَلَقْنَا بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَنَحْنُ عَلَيْهَا إِلَّا أَنْ تَكْرَهَ مِنْهَا شَيْئًا ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا الْخَمْسَةُ الَّتِي أَمَرْتَكُمْ بِهَا رَسَلِي أَنْ تُؤْمِنُوا بِهَا ؟ » قلنا : أَمَرْتُنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْبَيْتِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، قال : « وَمَا الْخَمْسَةُ الَّتِي أَمَرْتَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا ؟ » قلنا : أَمَرْتُنَا أَنْ نَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَنَقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَنُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَنُصُومَ رَمَضَانَ ، وَنُحَاجَّ الْبَيْتَ مِنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، فقال : « وَمَا الْخَمْسَةُ الَّتِي تَخَلَقْتُمْ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ » قالوا : الشُّكْرُ عِنْدَ الرِّخَاءِ ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ ، وَالرِّضَى بِمَرِّ الْقَضَاءِ ، وَالصَّدَقُ فِي مَوَاطِنِ الْإِقْدَاءِ ، وَتَرْكُ الشَّمَاتَةِ بِالْأَعْدَاءِ ، فقال رسول الله ﷺ : « حُكْمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِئِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ » ، ثم قال : « وَأَنَا أَزِيدُكُمْ خَمْسًا فَيَتِمُّ لَكُمْ عَشْرُونَ خَصْلَةً ، إِنْ كُنْتُمْ كَمَا تَقُولُونَ فَلَا تَجْمَعُوا مَا لَا تَأْكُلُونَ ، وَلَا تَتَّبِعُوا مَا لَا تَسْكُنُونَ ، وَلَا تَتَنَاقَسُوا فِي شَيْءٍ أَنْتُمْ عَنْهُ غَدًا تَزُولُونَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَعَلَيْهِ تُعْرَضُونَ ، وَارْغَبُوا فِيمَا عَلَيْهِ تَقْدَمُونَ ، وَفِيهِ تَخْلُدُونَ » . فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيته وعملوا بها (١) .

☆ ☆ ☆

وفاة أم كلثوم بنت النبي ﷺ :

وفي أواخر السنة التاسعة للهجرة توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ وهي عند عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، وكانت أسماء بنت عميس ، رضي الله عنها ، هي التي غسلتها في نسوة من الأنصار منهن أم عطية ولبلى بنت قائف ، وصلى عليها رسول الله ﷺ ، ونزل في حفرتها بالبقيع أبو طلحة رضي الله عنه . (انظر : مخطط قبور السلف المعروفة بالبقيع الشريف) .

وحزن عليها رسول الله ﷺ حتى رويت عيناه تدمعان وهو جالس على قبرها ، وقال لأصحابه : « زَوْجُوا عُثْمَانَ ، لَوْ كَانَتْ عِنْدِي ثَلَاثَةُ لَزَوْجْتُهُ ، مَا زَوْجْتُهُ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » (٢) .

وفاة عبد الله بن أبي سؤل :

وفي ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة مات عبد الله بن أبي ابن سؤل رأس المنافقين بعد أن مرض عشرين ليلة .

وكان رسول الله ﷺ يعوده في مرضه ، فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ ، فعرف فيه الموت ، فقال له : « قَدْ كُنْتُ أَتَهَاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودَ » ، قال : قد أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه ، ثم قال : يا رسول الله ! ليس هذا بحج عتاب ! هو الموت ، فإن مت فامتن علي ؛ فكفني في قبصك وصل علي واستغفر لي .

فلما مات عبد الله جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قبصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه . وفي رواية : أن ابن سلول طلب من رسول الله ﷺ وهو يموت قبصه ليكفن فيه ، فأعطاه قبصه الأعلى ، فطلب منه قبصه الذي يلي جلده ، فأعطاه رسول الله ﷺ ما سأل ، لأن ابن سلول كان قد كسى العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، قبصاً لما أسر يوم بدر ، فأراد النبي ﷺ أن يكافئه على ذلك لئلا يكون لمنافق عنده يد لم يجازره بها .

ثم سأل ابنه رسول الله ﷺ أن يصلي عليه ، فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة قام عمر ، رضي الله عنه ، فحال بينه وبين القبلة وقال له : يا رسول الله ! أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي ابن سؤل وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ وهو القائل كذا يوم كذا والقائل كذا يوم كذا ، يعدد أيامه له ، ورسول الله ﷺ يتبسم ، حتى إذا أكثر عليه قال : « يَا عَمْرُ ! أَخْرُ عَنِّي ، إِنَّنِي قَدْ خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ ، قَدْ قِيلَ لِي : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ (٣) وَسَأَرِيدُهُ عَلَى

(١) انظر : البداية والنهاية (ج ٩٤/٥) .

(٢) انظر : المستدرک (ج ٤٨/٤) ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٢٨٠/٦) ، وصحيح البخاري (ج ١٠٠/٢) كتاب الجنائز - باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله ، وجمع الزوائد (ج ٨٢/٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٨/٨) .

(٣) التوبة : ٨٠ .

السُّعَيْنَ - وفي رواية : « فَلَوْ أَعْلَمَ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غَفِرَ لِي لَزِدْتُ » - ثم صَلَّى عليه رسول الله ﷺ ومشى في جنازته حتى قام على قبره إلى أن فُرغ منه .

ولم يأخذ رسول الله ﷺ بقول عمر ، رضي الله عنه ، جرياً على ظاهر حكم الإسلام ولا إكرام ابنه ، فقد كان مسلماً بريئاً من النفاق ، واستثلاً لقومه . قال جابر رضي الله عنه : لما مات عبد الله بن أبي أقي ابنه النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! إنك إن لم تأتني لم نزل نعيبر بهذا ، فأتاه النبي ﷺ . قال عمر : فعجبت لي ولجراعتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم ، قال : فوالله ما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) ، فما صَلَّى رسول الله ﷺ بعده على منافق حتى قبضه الله تعالى (٢) .

حجّ أبي بكر رضي الله عنه بالناس :

وفي أواخر شهر ذي القعدة من سنة تسع للهجرة بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ، رضي الله عنه ، أميراً على الحج ليقم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، وبقي هو ﷺ في المدينة يتابع أعمال الدعوة واستقبال الوفود ، وإنما لم يرغب رسول الله ﷺ بالخروج إلى الحج لكرهته للاختلاط بأهل الشرك الذين يتنسكون بغير التوحيد ، وربما طافوا بالبيت عراة ، ولم يكن النبي ﷺ ليصدم للعقود التي بينه وبينهم .

فخرج أبو بكر ، رضي الله عنه ، في ثلاثمائة رجل من المدينة ، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة فلدها وأشعرها بيده واستعمل عليها ناجية بن جذذب الأسلمي ، رضي الله عنه ، وساق أبو بكر خمس بدنات .

فلما كان أبو بكر ، رضي الله عنه ، في بعض الطريق نزل صدر سورة براءة في نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد ، وفي تحريم دخول المشركين إلى البلد الحرام وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ (٣) . وكان العهد الذي بينه وبينهم عاماً وخاصاً ، فالعام ألا يُصد عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام ، والخاص ما كان بين رسول الله ﷺ وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة . فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ليؤدي عنه ، لأنه قد جرت عادة العرب أن لا ينقض العهد إلا من عقده ، أو كان ذا قرابة من أراد نقضه ، فأجرام في ذلك على عادتهم .

روي أنه لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر الصديق ، رضي الله عنه ، ليقم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ! لو بعثت بها إلى أبي بكر ، فقال : « لَا يُوَدِّي عَنِّي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي » ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، فقال له : « اخْرُجْ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ صَدْرِ بَرَاءَةٍ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَوْمَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بَيْنِي : أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ ، وَلَا يَخْرُجُ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَهُوَ إِلَى مَدَّتِهِ » .

فخرج علي ، رضي الله عنه ، على ناقرة رسول الله ﷺ الغضباء حتى أدرك أبا بكر ، رضي الله عنه ، بالطريق بالعرج ، أو بضجنان ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، بعثني رسول الله ﷺ أقرأ براءة على الناس في مواقف الحج وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده .

ويقال إن براءة نزلت قبل خروج أبي بكر ، رضي الله عنه ، فبعث بها رسول الله ﷺ ليقراها على أهل مكة ، ثم دعا علياً ، رضي الله عنه ، فقال له : « أَدْرِكْ أَبَا بَكْرٍ ، فَحَبِّثْنَا لِحَقَّتِهِ فَخَذِ الْكِتَابَ مِنْهُ فَأَذْهَبْ بِهِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَأَقْرَأْ عَلَيْهِمْ » ، فلحقه فأدركه

(١) التوبة : ٨٤ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤ / ٢١٠) ، وصحيح البخاري (ج ٦ / ٨٥) كتاب التفسير - سورة براءة ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣ / ٢٧١) ، وسنن أبي داود (ج ٣ / ٤٧٢) كتاب الجنائز - باب في العيادة ٣٠٩٤ ، وجمع الزوائد (ج ٧ / ٢٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٥ / ٢٨٥) ، وصحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٥ / ١٦٧) .

(٣) التوبة : ٢٨ .

بِالْحُجَّةِ فَأَخَذَ مِنْهُ الْكِتَابَ ، وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ ؟ وَجَدْتُ عَلِيَّ فِي شَيْءٍ ؟ قَالَ : « لَا ، أَنْتَ صَاحِبِي فِي الْغَارِ وَعَلَى الْحَوْضِ ، وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ جَاءَنِي فَقَالَ : لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ » .

ثم مضى فأقام أبو بكر ، رضي الله عنه ، للناس الحج ، حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ ، رضي الله عنه ، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ ، وقرأ على الناس براءة ، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده من المشركين ، وأجل لهم أربعة أشهر ، وكذلك أجل من لم يكن له عهد أربعة أشهر ، ليرجع كل قوم إلى ما أمنهم أو بلادهم . وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئاً ولم يظاهروا عليهم أحداً فأبقى عهدهم إلى منتهم .

وبعث أبو بكر ، رضي الله عنه ، أبا هريرة في أناس معه فأذنتوا مع عليّ في الناس بعرفة وبني وبني والمشاعر كلها : أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي ﷺ مشرك .

وبذلك قضى الإسلام نهائياً على معالم الشرك في مكة المكرمة ، وحفظ للبيت حرمة وقدسيتها ، دون أن يغدر بأحد من الناس ، بل أعطاهم الفرصة الكافية ليغادروا البلد الأمين ، وأكل لذوي العهود عهدهم^(١) .

✧ ✧ ✧

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٠١/٤ - ٢٠٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٤/٤) كتاب الجهاد والسير - كيف ينبذ إلى أهل العهد ، و (ج ٨١/٦) كتاب التفسير - سورة براءة ، وسنن النسائي (ج ٢٤٧/٥) كتاب مناسك الحج - الخطبة يوم التروية ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٥١/١) ، وجمع الزوائد (ج ٥٠/٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٨/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٩٨/٥) ، وفتح الباري (ج ٢٢١/٨) .

السنة العاشرة للهجرة

دخلت السنة العاشرة والنبي ﷺ يستقبل الوفود ، ويرسل دعواته وسراياه إلى قبائل العرب يدعونها إلى الإسلام ويفقهونها في الدين ويعلمونها كتاب الله ، عز وجل ، وسنة النبي ﷺ .

سرية خالد رضي الله عنه إلى بني الحارث بن كعب بنجران :

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، في شهر ربيع الأول سنة عشر ، ويقال : في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى ، في أربعائة من المسلمين إلى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا فاقبل منهم وأقيم فيهم وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم . (انظر : مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة : رجب ٩ هـ - صفر ١١ هـ) .

فخرج خالد ، رضي الله عنه ، حتى قدم عليهم ، فبعث الركب ان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيها الناس ! أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ، لِمَحَمَّدِ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ من خالد بن الوليد ، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثني إلى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم أن لأقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا أقت فيهم وقبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا فقاتلتهم ، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ ، وبعثت فيهم ركبانا قالوا : يا بني الحارث ! أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم أمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي ﷺ حتى يكتب إلي رسول الله ﷺ . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . وبعث بالكتاب مع بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه .

فكتب إليه رسول الله ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله ، إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ؛ فإن كتابك جاءني مع رسولك تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرتهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ ، وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب ؛ منهم : قيس بن الحصين ذي الغصاة (١) ، ويزيد بن عبد الممدان ، ويزيد بن المحجل ، وعبد الله بن قراد الزبيدي ، وشداد بن عبد الله القناني ، وعمرو بن عبد الله الضبابي ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرأهم قال : « من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ » قيل : يا رسول الله ! هؤلاء رجال بني الحارث بن كعب ، فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله ، قال رسول الله ﷺ : « وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » ، ثم قال : « أنتم الذين إذ زجروا استقمتموا » ، فسكتوا ، فلم يراجعهم منهم أحد ، ثم أعادها

(١) قيل له ذو الغصاة ؛ لغصاة كانت في حلقه لا يكاد يبين منها . انظر : الروض الأنف (ج ٢٢٨/٤) .

الثانية والثالثة فلم يراجعهم منهم أحد ، فلما أعادها الرابعة قال يزيد بن عبد المَدَان : نعم يا رسول الله ؛ نحن الذين إذا زَجروا استَقَدَموا ، قالها أربع مرار ، فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ خَالِدًا لَمْ يَكْتَبْ إِلَيَّ أَنْكُمْ أَسْلَمْتُمْ وَلَمْ تُقَاتِلُوا لَأَلْقَيْتُ رُؤُوسَكُمْ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ » ، فقال يزيد بن عبد المَدَان : أما والله ما حديدناك ولا حديدنا خالدا ، قال : « فَمَنْ حَمِدْتُمْ ؟ » قالوا : حمدنا الله ، عزَّ وجلَّ ، الذي هدانا بك يا رسول الله ، قال : « صَدَقْتُمْ » ، ثم قال : « بِمَ كُنْتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ » قالوا : لم نكن نغلب أحداً ، قال : « بَلَى ، قَدْ كُنْتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمْ » ، قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبداً أحداً بظلم ، ونصبر عند البأس ، قال : « صَدَقْتُمْ » .

وأقام الوفد في المدينة أشهراً يتعلمون الإسلام ، ثم انصرفوا إلى قومهم في بقيّة من شوال ، أو في صدر ذي القعدة ، وأجازهم رسول الله ﷺ بعشر أواق لكل رجل ، وأجاز قيس بن الحُصَيْنِ باثنتي عشرة أوقية ونش وأمره عليهم .

وكتب رسول الله ﷺ لِبَنِي الضَّبَابِ وَبَنِي قَنَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ أَنْ لَهُمْ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ مِنْ أَرْضٍ ، وَأَنْ لَهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَفَارَقُوا الْمَشْرِكِينَ ، وَأَقْطَعُوا أَنْسَاءَ مَنْهُمْ أَرْضًا وَكُتِبَ لَهُمْ بِذَلِكَ .

فلم يمكث الوفد بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ (١) .

بعث عمرو بن حَزْمٍ رضي الله عنه إلى نَجْرَانَ :

وبعث رسول الله ﷺ إلى بني الحارث بن كعب بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم ، رضي الله عنه ، ليفقههم في الدين ويعلمهم السنّة ومعالم الإسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم (انظر : مصور خروج العمال على الصدقات) ، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عهده وأمره فيه بأمره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؛ هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴿٣﴾ ، عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ لِعَمْرُو بْنِ حَزْمٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ ، أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِالْحَقِّ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ، وَأَنْ يُبَشِّرَ النَّاسَ بِالْخَيْرِ ، وَيَأْمُرَهُمْ بِهِ ، وَيَعْلَمَ النَّاسَ الْقُرْآنَ ، وَيُفَقِّهَهُمْ فِيهِ ، وَيُنْهِيَ النَّاسَ فَلَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِنْسَانٌ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ ، وَيُخَبِّرَ النَّاسَ بِالَّذِي لَهُمْ وَالَّذِي عَلَيْهِمْ ، وَيَلِينُ لِلنَّاسِ فِي الْحَقِّ ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ فِي الظُّلْمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ الظُّلْمِ وَنَهَى عَنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) ، وَيُبَشِّرَ النَّاسَ بِالْجَنَّةِ وَبِعَمَلِهَا ، وَيُنذِرَ النَّاسَ النَّارَ وَعَمَلِهَا ، وَيَسْتَأْذِنَ النَّاسَ حَتَّى يُفَقِّهُوا فِي الدِّينِ ، وَيَعْلَمَ النَّاسَ مَعَالِمَ الْحَجِّ وَسُنَّتَهُ وَفَرِيضَتَهُ وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَالْحَجَّ الْأَكْبَرُ : الْحَجَّ الْأَصْغَرَ هُوَ الْعُمْرَةُ ، وَيُنْهِيَ النَّاسَ أَنْ يَصُغَّرُوا أَحَدًا فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ صَغِيرٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَوْبًا يَنْبِي طَرَفِيهِ عَلَى عَاتِقِيهِ ، وَيُنْهِيَ النَّاسَ أَنْ يَحْتَبِي أَحَدًا فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ يُفْضِي بِفَرْجِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَيُنْهِيَ أَنْ يَغْتَصَّ أَحَدٌ شَعْرَ رَأْسِهِ فِي قَفَاةٍ ، وَيُنْهِيَ - إِذَا كَانَ بَيْنَ النَّاسِ هَيْجٌ (٥) - عَنِ الدُّعَاءِ إِلَى الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ ، وَلَيْكَنْ دَعْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، وَحَدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ ، فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللَّهِ ، وَدَعَا إِلَى الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ ، فَلْيُطْفِئُوا بِالسَّيْفِ حَتَّى تَكُونَ دَعْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَحَدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِإِسْبَاغِ الوُضُوءِ وَجُوهَهُمْ ، وَأَيْدِيهِمْ إِلَى الْمِرْفَاقِ ، وَأَرْجُلِهِمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَيَمْسَحُونَ بِرُؤُوسِهِمْ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ ، وَأَمَرَ بِالصَّلَاةِ لِوَقْتِهَا ، وَإِتْمَامِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْخُشُوعِ ، وَيُعَلِّسُ بِالصُّبْحِ ، وَيُهَجِّرُ بِالْمَاجِرَةِ (٥) حِينَ تَمِيلُ الشَّمْسُ ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ وَالشَّمْسُ فِي الْأَرْضِ مُدْبِرَةٌ ، وَالْمَغْرِبِ حِينَ يَقْبَلُ اللَّيْلُ ، لَا يُؤَخَّرُ حَتَّى تَبْدُو النَّجُومُ فِي السَّمَاءِ ، وَالْعِشَاءِ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، وَأَمَرَ بِالسُّعْيِ إِلَى الْجُمُعَةِ إِذَا نُودِيَ لَهَا ، وَالغُسْلِ عِنْدَ الرَّوْحِ إِلَيْهَا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمَعَانِمِ خُمْسَ اللَّهِ وَمَا كُتِبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَةِ مِنَ الْعَقَارِ عَشْرَ مِائَةِ عَيْنٍ وَسَقَتِ السَّمَاءُ ، وَعَلَى مَا سَقَى الْغَرْبُ (٦) نِصْفَ الْعَشْرِ ، وَفِي كُلِّ عَشْرٍ مِنَ الْإِبِلِ شَاتَانِ ، وَفِي كُلِّ عَشْرِينَ أَرْبَعِ شِيَاهِ ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ مِنَ الْبَقَرِ بَقْرَةٌ ، وَفِي كُلِّ ثَلَاثِينَ مِنَ الْبَقَرِ تَبِيعٌ

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٦٧/١ - ٢٦٩ ، ٢٣٩) .

(٢) للمائدة : ١ .

(٣) هود : ١٨ .

(٤) الهَيْجُ : الْحَرْبُ أَوْ الْفِتْنَةُ (الوسيط : ج ١٠١٢/٢) .

(٥) التَّهْجِيرُ : التَّبْكَيرُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ وَالْمُبَادَرَةُ إِلَيْهِ . وَأَرَادَ هُنَا الْمُبَادَرَةَ إِلَى أَوَّلِ وَقْتِ الصَّلَاةِ . وَالْمَاجِرَةُ وَقْتُ اشْتِدَادِ الْحَرِّ (النهاية : ج ٢٤٦/٥) .

(٦) الْغَرْبُ : الدَّلْوُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تَتَّخَذُ مِنْ جِلْدِ ثَوْبٍ (النهاية : ج ٢٤٧/٣) .

جَذَعٌ أَوْ جَذَعَةٌ ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ مِنَ النَّعْمِ سَائِمَةٌ وَحَدَّهَا شَاةٌ ، فَإِنَّهَا فَرِيضَةُ اللَّهِ الَّتِي افْتَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَةِ ، فَمَنْ زَادَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَإِنَّهُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِسْلَامًا خَالِصًا مِنْ نَفْسِهِ وَدَانَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَهُ مِثْلُ مَا لَهُمْ ، وَعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ يَهُودِيَّةٍ فَإِنَّهُ لَا يَزِدُّ عَنْهَا ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ : ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى ، حَزْرٌ أَوْ عَبْدٌ ، دِينَارٌ وَافٍ ، أَوْ عَوْضَةٌ ثِيَابًا ، فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَمَنْ مَنَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وتوفي رسول الله ﷺ وعمرو بن حزم ، رضي الله عنه ، عامه على نجران باليمن (١) .

وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ :

توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر عند مرضعته أم سيف أو أم بريدة ، وكان عمره ستة عشر شهراً .

روي أن رسول الله ﷺ أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، فدخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه ، فأخذه ﷺ فوضعه في حجره حتى خرجت نفسه ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، فقال له عبد الرحمن : تبكي يا رسول الله وأنت تنهى عن البكاء ؟ فقال : « إِنَّمَا نَهَيْتُ عَنِ النَّيَاحَةِ ، وَأَنْ يُنْدَبَ الْمَيِّتَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ ، وَإِنَّمَا هَذِهِ رَحْمَةٌ » - وفي رواية : قال : « يَا ابْنَ عَوْفِ ! إِنِّي لَمْ أَتَهُ مِنَ الْبُكَاءِ وَلَكِنِّي نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجْرَيْنِ ؛ صَوْتٌ عِنْدَ نَعْمَةٍ لَهُوَ وَلَعِبٌ وَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ ، وَصَوْتٌ عِنْدَ مُصِيبَةٍ ؛ لَطْمٌ وَجَوْهٌ وَشِقٌّ جَيُوبٍ ، وَهَذِهِ رَحْمَةٌ ، وَمَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ وَعَدَّ صَادِقٌ وَقَوْلٌ حَقٌّ ، وَأَنْ آخِرَنَا لَأَحِقَّ بِأَوْلِنَا لَحْزِنًا عَلَيْكَ حَزْنًا أَشَدَّ مِنْ هَذَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ ، تَبْكِي الْعَيْنُ ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ » . وقال : « إِنَّ لَهُ لَطِطْرَيْنِ تَكْمَلَانِ رِضَاعَةَ فِي الْجَنَّةِ » .

ثم أمر به رسول الله ﷺ فغُسلَ وكُفِّنَ ، وقيل : إنه قال لهم : « لَا تُدْرِجُوهُ فِي أَكْفَانِهِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ » ، فأناه ، فانكب عليه وبكى ، ثم حُمِلَ على سرير صغير من بيت مرضعته إلى البقيع ، وصلى عليه رسول الله ﷺ بالبقيع ، وقيل : بالمقاعد (٢) ، وكبر عليه أربعاً ، فقيل له : يا رسول الله ! أين ندفنه ؟ قال : « عِنْدَ قَرِيطِنَا عَثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ » . (انظر : مخطط قبور السلف المعروفة بالبقيع الشريف) . ونزل في حفرته الفضل بن عباس ، وأسامة بن زيد ، ويقال : علي بن أبي طالب ، ورسول الله ﷺ على شفير القبر والعباس ، رضي الله عنه ، جالس إلى جنبه ، فرأى ﷺ فرجة في اللبِنِ ، فأمر بها أن تُسْتَرُ وقال : « أَمَا إِنَّهَا لَا تَصْرُ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَكِنْ تَقْرِئُ عَيْنَ الْحَيِّ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَحَبَّ اللَّهُ أَنْ يُثَقِّنَهُ » . ولما فُرِغَ مِنْ دَفْنِهِ قَالَ : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » ، ثم أمر برش قبره ماء على قبره وهو أوَّلُ قَبْرِ رَشَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ .

وانكسفت الشمس يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : إنما انكسفت لموت إبراهيم ، فقام النبي ﷺ فصلى بالناس صلاة الكسوف ، فلما انصرف قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ وَلَا لِحَيَاتِهِ (٣) ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا وَادْعُوا اللَّهَ حَتَّى تَنْجَلِيَ » (٤) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٦٥/٤) ، وتاريخ الطبري (ج ١٢٠/٣) .

(٢) المقاعد : هو موضع قرب المسجد الشريف اتخذ للتعوذ فيه للخوائيج والوضوء . انظر : معجم البلدان (ج ١٠٨/٨) .

(٣) وهذا من دلائل صدق النبي ﷺ فلو كان خادعاً أو كاذباً لاستغل هذه الفرصة السانحة وأذاع في طول البلاد وعرضها أن الشمس إنما انكسفت لوفاته ابنه ، أو لوافق الناس على ما أذاعوا وأن هذه إحدى معجزات النبوة ، لكنه أبى إلا الصدق وأذاع الحقيقة . ذلك لأن الخادع يتعلق بالأوهام ويسارع إلى انتهاز مثل هذه الفرص ، ولكن النبي ﷺ كان صادقاً في أقواله ، صادقاً في أفعاله ، لا يستند إلى الأكاذيب في رفع شأنه وتعزير مركزه . انظر : محمد رسول الله ﷺ / محمد رضا (ص : ٤٢٨) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٤٢/٢) كتاب الكسوف - باب الصلاة في كسوف الشمس ، و (ج ١٠٥/٢) كتاب الجنائز - باب قول النبي ﷺ إِنَّا بِكُمْ لِحَزُونُونَ ، وصحيح مسلم (ج ٦٢٢/٢) كتاب الكسوف - باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ح ١٠ ، =

وفد خولان :

وقدم على رسول الله ﷺ في شعبان سنة عشر وفد خولان من اليمن ، وهم عشرة نفر ، فقالوا : يا رسول الله ! نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحن مؤمنون بالله ، عز وجل ، مصدقون برسوله ، قد ضربنا إليك أباط الإبل وركبنا خزون الأرض وسهولها ، والمينة لله ورسوله علينا ، وقمنا زائرين لك ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما ذكرتم من مسيركم إليّ ؛ فإن لكم بكل خطوة خطاها بغير أحدكم حسنة ، وأما قولكم زائرين لك ؛ فإنه من زارني بالمدينة كان في جوارِي يوم القيامة » ، قالوا : يا رسول الله ! هذا السفر الذي لا توى عليه^(١) ، ثم قال رسول الله ﷺ : « ما فعل عم أنس ؟ » وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه ، قالوا : بشر وعز^(٢) ، أبدلنا الله به ما جئت به ، ولو قد رجعنا إليه هدمناه . وسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء من أمر دينهم ، فأخبرهم بها ، وأمرهم بالوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وحسن الجوار لمن جاؤوا ، وأن لا يظلموا أحداً وقال : « فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » ، ثم أمر من يعلمهم القرآن والسنة ، وأنزلوا دار رملة بنت الحارث ، وأمر بضيافة فأجريت عليهم . ثم جاؤوا بعد أيام يودعونهم ، فأمر لهم بجوائز اثنتي عشرة أوقية ونش ، ورجعوا إلى قومهم ، فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس ، وحرّموا ما حرّم عليهم رسول الله ﷺ ، وأحلّوا ما أحلّ لهم^(٣) .

سرية علي رضي الله عنه إلى مدحج باليمن :

وفي شهر رمضان سنة عشر للهجرة بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، إلى بلاد مدحج من أرض اليمن في ثلاثمائة فارس ، وبعث خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، في جند آخر (انظر : مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة : رجب ٩ هـ - صفر ١١ هـ) ، وقال : « إن التقيت بالأمير علي بن أبي طالب » ، ثم عقد لعلي لواء ، وعمه بيده وقال : « امض ولا تلتفت ، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاثلهم حتى يقتلوك ، وادعهم إلى قول لا إله إلا الله ، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة ، فإن أجابوا فلا تتبع منهم غير ذلك ، والله لأن يهدي الله على يدك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس » .

وفي رواية : أنه قال له : « علمهم الشرائع وأفض بيئتهم » ، فقال علي : يا رسول الله ! تبعني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أعلم لي بالقضاء ! فوضع رسول الله ﷺ يده على صدر علي وقال : « اللهم ! اهده للقضاء ، اللهم ! ثبت لسانه واهد قلبه ، يا علي ! إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول ، فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء » . قال علي : فما أشكل علي قضاء بعد .

فخرج علي ، رضي الله عنه ، حتى أتى بلاد مدحج ، ففرق أصحابه ، وكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد ، فأتوا بغنائم وأطفال ونساء ونعم وشاء وغير ذلك ، فجعل علي على الغنائم بريرة بن الحصيب ، ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ورموا بالنبل والحجارة ، فصفت أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان الأسلمي ، ثم حل عليهم ، فقتل منهم عشرين رجلاً ، فانهزموا وتفرقوا ، فكف عن طلبهم ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، فأسرعوا وأجابوا ، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام ، وقالوا : نحن على من وراءنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله .

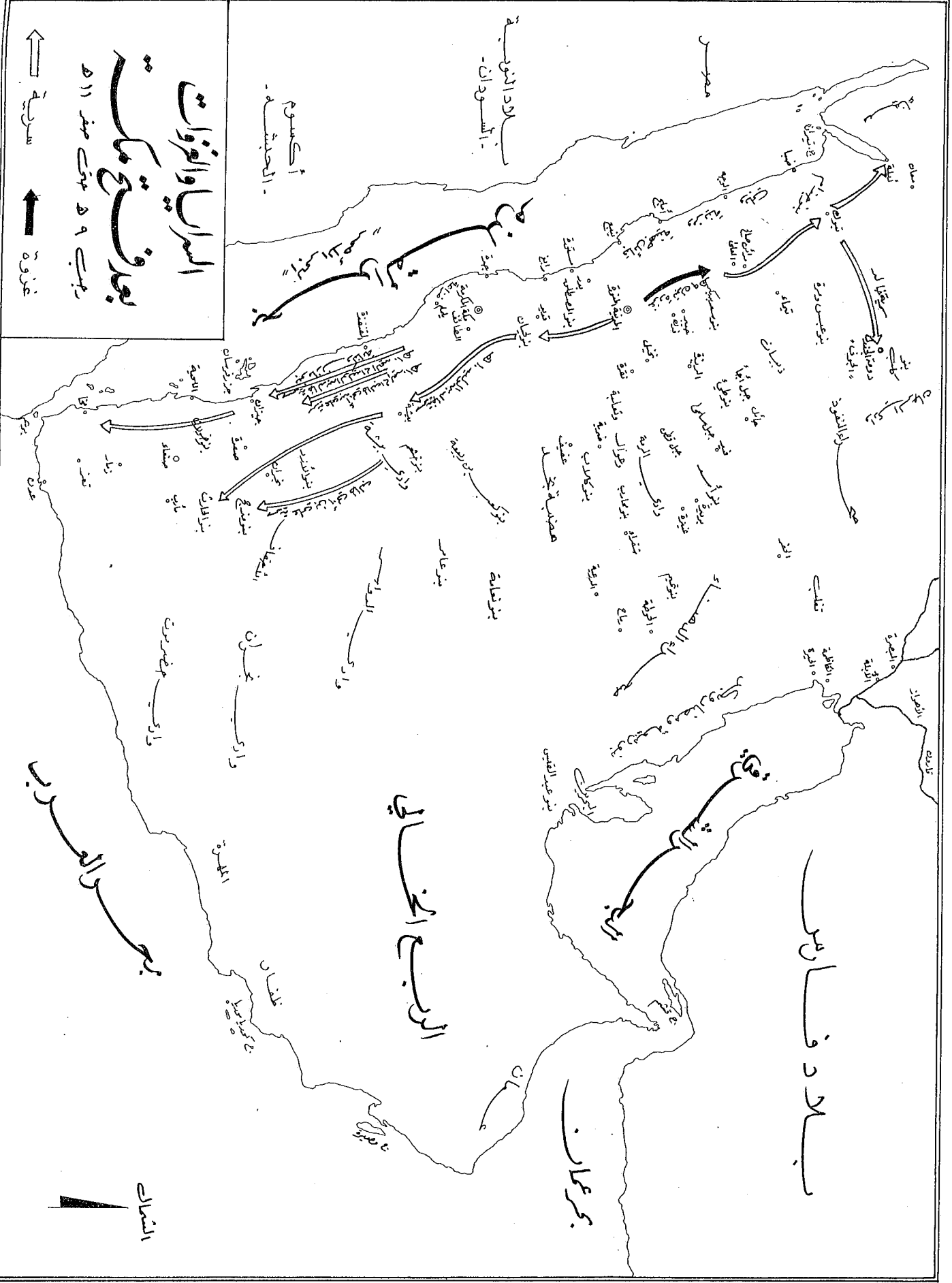
وجمع علي ، رضي الله عنه ، الغنائم فجزأها على خمسة أجزاء ، فكتب في سهم منها لله ، وأقرع عليها ، فخرج أول السهام سهم الخمس ، وقسم على أصحاب بقية المغنم ، ثم أقام علي ، رضي الله عنه ، فيهم يقرئهم القرآن ويعلمهم الشرائع ، وكتب إلى رسول الله ﷺ

= (ج ١٨٠٨/٤) كتاب الفضائل - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال .. ح ٦٣ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٢٨٢/٤) ، والمستدرک (ج ٤٠/٤) ، وسنن أبي داود (ج ٥٢٩/٣) كتاب الجنائز - باب في الصلاة على الطفل ح ٣١٨٨ ، وسنن ابن ماجة (ج ٤٧٣/١) كتاب الجنائز - باب ماجاء في النظر إلى الميت إذا أدرج في أكفانه ح ١٤٧٥ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٣٣٦/٣ ، ٤١١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٣٨/١ ، ١٤٠ - ١٤٤) .

(١) لا توى عليه أي لا ضياع ولا حسارة ، وهو من التوى : الهلاك (النهاية : ج ٢٠٧/١) .

(٢) العز : التبع والكثرة والأذى . انظر : (لسان العرب : ج ٢٨٧٥/٤) .

(٣) انظر : عيون الأثر (ج ٢٥٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣٢٤/١) .



بلاد فارس

بصرى

الربع الخليل

الشام

بحر العرب

السراب والغرارات

بغداد

رعب ٩٥ هـ حتى صفر ١١٥ هـ

سيرة

غزوة

بلاد الاموية - السوادان

أكسوم - الحبشة

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

نجبرهم ، فأمره ﷺ أن يوافيه الموسم ، فرجع عليّ ، فوافى النبي ﷺ بمكة قد قدمها للحج سنة عشر^(١) .

روي عن البراء ، رضي الله عنه ، قال : بعث النبي ﷺ جيشين وأمر على أحدهما عليّ بن أبي طالب ، وعلى الآخر خالد بن الوليد وقال : « إذا كان القتال فعليّ » ، قال : فافتتح عليّ حصناً ، فأخذ منه جارية ، فكتب معي خالد كتاباً إلى النبي ﷺ يشي به ، قال : فقدمت على النبي ﷺ فقرأ الكتاب ، فتغير لونه ، ثم قال : « مَا تَرَى فِي رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ » قال : قلت : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، وإنما أنا رسول ، فسكت^(٢) .

وفي صحيح البخاري عن بُرَيْدَةَ أنه قدم على رسول الله ﷺ فذكر له ما فعل عليّ ، فقال له رسول الله ﷺ : « يَا بُرَيْدَةُ ! أَتَبْغِضُ عَلِيًّا ؟ » فقلت : نعم ، قال : « لَا تَبْغِضْهُ ، فَإِنَّ لَهُ فِي الْخُمْسِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ »^(٣) .

ويروى أنه لما أقبل عليّ ، رضي الله عنه ، من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكة تعجل إلى رسول الله ﷺ ، واستخلف على جنده والخمس أبا رافع ، فعمد أبو رافع فكسا كل رجل من القوم حلة من البرّ الذي كان مع عليّ ، رضي الله عنه ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحُكَل ، قال : ويلك !! ما هذا ؟ قال : كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا في الناس ، فقال : ويلك ! انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله ﷺ ، فانزع الحُكَل من الناس فردّها في الخمس ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ اشتكى الجيش عليّاً ، رضي الله عنه ، فقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً ، فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! لَا تَشْكُوا عَلِيًّا ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَأَخْشَنُ فِي ذَاتِ اللَّهِ » أو « فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُشْكَى »^(٤) .

وفد مُراد :

وقدم على رسول الله ﷺ فرّوة بن مُسيك المُراديّ سنة عشر مفارقاً للملوك كندة ، ومتابعاً للنبي ﷺ ، فنزل على سعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، ومكث يتعلّم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه .

وقد كان بين قومه مُراد وبين همدان قبيل الإسلام وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أئخنوم^(٥) في يوم يقال له يوم الرُّدْم ، فقال له رسول الله ﷺ : « يَا فَرّوَةَ ! هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرُّدْم ؟ » فقال : يا رسول الله ! من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الرُّدْم ولا يسوءه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَمَا إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ قَوْمَكَ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا خَيْرًا » - وفي لفظ : « أَمَا إِنَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ بَقِيَ » . فلما أراد الانصراف أجازره رسول الله ﷺ باثنتي عشرة أوقية ، وحمله على بعير نجيب ، وأعطاه حلة من نسج عُمان ، واستعمله على مُراد وزبيد ومدحج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة ، وكتب له كتاباً فيه فرائض الصدقة ، ولم يزل على الصدقات هناك حتى توفي رسول الله ﷺ^(٦) .

وفد زُبَيْد :

وقدم على رسول الله ﷺ عشرة نفر من بني زُبَيْد ؛ فيهم عمرو بن معديكرب ، وكان فارس العرب مشهوراً بالشجاعة ، شاعراً مجيداً ، قال لابن أخته قيس بن المكشوح المُرادي - حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ - : يا قيس ! إنك سيّد قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له مُحَمَّد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبيّ ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه ، فإن كان نبياً كما يقول فإنه لن ينفى عليك ، إذا لقيناه اتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه . فأبى عليه قيس ذلك وسفّه رأيه ، فركب عمرو بن معديكرب حتى

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٧/٤) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١١١/١) ، والمستدرک (ج ٥٩٨/٢) ، و (ج ٨٨/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٦٩/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٠٢/٢ ، ١٠٤) .

(٢) رواه الترمذي في سننه (ج ٦٣٨/٥) كتاب المناقب - باب ٢١/ح ٢٧٢٥ وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) صحيح البخاري (ج ٢٠٧/٥) كتاب المغازي - بعث علي بن أبي طالب عليه السلام .. إلى اليمن .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٤/٤) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٠٤/٢) .

(٥) يُقال : أُئخن في العدو ؛ بالغ في قتاله ، وأئخن في الأرض ؛ بالغ في قتل أعدائه (الوسيط : ج ٩٤/١) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٧/١) ، وتاريخ الطبري (ج ١٣٤/٢ ، ١٣٦) .

قدم المدينة ، فنزل على سعد بن عباد ، رضي الله عنه ، فأكرمه وجابه ، ثم راح به إلى رسول الله ﷺ فأسلم هو ومن معه ، وأقام أياماً ، ثم أجازه رسول الله ﷺ بجائزة وانصرف إلى بلاده .

فلما بلغ قيساً إسلامه قال : خالفني وترك أمري ورأيي ، وتوعدّ عمرو . ويقال : إنه أسلم بعد ذلك ووفد على النبي ﷺ ، ويقال : إنه لم يسلم إلا في خلافة أبي بكر أو عمر رضي الله عنهما .

وأقام عمرو في قومه على إسلامه ، وعليهم قزوة بن مسيكة المرادي ، فلما توفي رسول الله ﷺ ارتد عمرو ، وقيل : ارتد مع الأسود العنسي ، ثم عاد إلى الإسلام وحسن إسلامه ، وأبلى يوم القادسية وغيرها^(١) .

وفد كندة :

وهم قبيلة من أكبر قبائل العرب ، ينسبون إلى كندة^(٢) لقب جدهم ثور بن عفير ، ورؤساء كندة من بين سائر العرب كانوا يسمون بالملوك ، وكانت منازلهم باليمن شرق الطائف . قدم على رسول الله ﷺ وفد من كندة سنة عشر ثمانون أو ستون ركباً ، رئيسهم الأشعث بن قيس ، فلما أرادوا الدخول على النبي ﷺ رجّلوا^(٣) جملهم^(٤) وتكحلوا ، ولبسوا جبب الحبرة وقد كففوها بالحرير^(٥) ، فلما دخلوا عليه قالوا : أتيت اللعن - وكانت تحيته - فقال رسول الله ﷺ : « لست ملكاً ، إنا أنا محمد بن عبد الله » ، قالوا : لانسيمك باسمك ، قال : « لكن الله سماني ، وأنا أبو القاسم » ، قالوا : يا أبا القاسم ! إنا قد خباننا لك خبياً فما هو ؟ وكانوا خبئوا لرسول الله ﷺ عين جرادة في حميت سمن ، فقال رسول الله ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّهِ ! إنا يفعل ذلك الكهان ، والكهانة والتكهن في النار » ، قالوا : كيف نعلم أنك رسول الله ؟ فأخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصي ، فقال : « هذا يشهد أنني رسول الله » فسبح الحصى في يده ، فقالوا : نشهد أنك رسول الله ، قال : « إني بعثني بالحق ، وأنزل كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أثقل في الميزان من الجبل العظيم ، وفي الليلة الظلمات في مثل ثور الشهاب » ، قالوا : فسمعنا منه ، فتلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَالصَّافَاتِ صَفَا ﴾ حتى بلغ : ﴿ وَرَبِّ الْمَشَارِقِ ﴾^(٦) ، ثم سكت رسول الله ﷺ ودموعه تجري على لحيته ، فقالوا : إنا نراك تبكي ، أفمن مخافة من أرسلك تبكي ؟ قال : « إن خشيتي منه أبكتني ، بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلكت » ، ثم تلا : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾^(٧) إلى آخرها .

ثم قال لهم رسول الله ﷺ : « ألم تسلموا ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فما بال هذا الحرير في أعناقكم ؟ » فشقوه وألقوه ، وقال له الأشعث بن قيس : يا رسول الله ! نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار^(٨) ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيع بن الحارث » - وكان العباس وربيع رجلين تاجرين ، وكانا إذا شاعا^(٩) في بعض العرب فسئلا من هما قالا : نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك ، وذلك أن كندة كانوا ملوكاً - ثم قال لهم : « لا ، بل نحن بنو النضر بن كنانة لا تقفوا

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٨/١) ، و (ج ٥٢٥/٥) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٢٧/٤) ، والإصابة (ج ٢٧٤/٣) .

(٢) للنبي ﷺ جثة منهم ، وهي أم جدته كلاب بن مرة ، وقيل : بل هي جدته كلاب أم أمه هند . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٧/٤ - ٢٨) .

(٣) الترجيل : تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه (النهاية : ج ٢٠٣/٢) .

(٤) الجمم : جمع جممة ، والجمة من شعر الرأس : ما سقط على المنكبين . وقد تقدم .

(٥) القميص المكفف بالحرير : الذي عمل على ذيله وأكمامه وجيبه كفاف من حرير ، وكفة كل شيء : طرته وخاصيته (النهاية : ج ١٩١/٤) .

(٦) الصافات : ١ - ٥ .

(٧) الإسراء : ٨٦ .

(٨) يعني جدته أم كلاب ، وأكل المرار هو الحارث بن عمرو ، ويقال خجر بن عمرو بن معاوية ، لقب بذلك لأكله شجراً يقال له المرار في غزوة غزاه . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٥/٤) .

(٩) شاع : انتشر وتفرق (لسان العرب : ج ٢٣٧/٣) .

أَمْنَا ، وَلَا تَنْتَفِي مِنْ أَيْبِنَا^(١) » ، فقال الأشعث بن قيس : هل فرغتم يامعشر كِنْدَةَ ؟ والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين .

وقال رسول الله ﷺ للأشعث : « هَلْ لَكَ مِنْ وَلَدٍ ؟ » فقال : غلام وُلِدَ لي في مخرجي إليك ، ولوددت لو أن مكانه شبيح القوم ، قال : « لَا تَقُولَنَّ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ قُرَّةَ عَيْنٍ وَأَجْرًا إِذَا قَبِضُوا ، ثُمَّ وَلِئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّهُمْ لَمَجْبُتَةٌ^(٢) مَحْزَنَةٌ ، إِنَّهُمْ لَمَجْبُتَةٌ مَحْزَنَةٌ » .

فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أجازهم بعشر أواق ، عشر أواق ، وأعطى الأشعث اثنتي عشرة أوقية ، وكان الأشعث رئيساً مطاعاً في الجاهلية ، وجيهاً في الإسلام ، إلا أنه كان من ارتدَّ بعد النبي ﷺ ، ثم عاد إلى الإسلام في خلافة الصديق ، رضي الله عنه ، وشهد بعد ذلك مع سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، القادسية والمداين وجؤلواء ، ونهاوند ، ومات سنة أربعين أو اثنتين وأربعين بالكوفة^(٣) .

ويقال : إن رسول الله ﷺ تزوج حين قدم عليه وفد كِنْدَةَ أخت الأشعث بن قيس ، ثم قبض ﷺ ولم تكن قدمت عليه ولا دخل بها . وزعم بعضهم أنه أوصى أن تُخَيَّرَ ؛ فإن شاءت ضرب عليها الحجاب وحُرِّمَت على المؤمنين ، وإن شاءت طُلِّقَت ونكحت من شاءت ، فاختارت النكاح ، فتزوجها بعد عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه^(٤) .

وفد حَضْرَمَوْت :

قدم وفد حضرموت على رسول الله ﷺ مع وفد كِنْدَةَ ، وكان فيهم وإيل بن حُجْر ، فلما دخل على النبي ﷺ قال : نحن في ملك عظيم وطاعة ، وفرضته ، وخرجت راعياً في الله ورسوله وفي دينه ، فقال له رسول الله ﷺ : « صَدَقْتَ » . ورحب به ، وأدى مجلسه ، وبسط له رداءه فأجلسه عليه ، ثم دعا الناس ، فاجتمعوا إليه ، فصعد المنبر وأصعده معه ، فحمد الله تعالى وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! هَذَا وَإِيلُ بْنُ حُجْرٍ أَتَاكُمْ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ مِنْ بِلَادِ حَضْرَمَوْتٍ ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ ، جَاءَكُمْ حَيَّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، بَقِيَّةُ أُنْبَاءِ الْمُلُوكِ ، فَارْفُقُوا بِهِ فَإِنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْمُلْكِ ، بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ يَا حُجْرُ وَفِي وَادِّكَ » . ومسح ﷺ رأسه ، ثم أنزله في منزل بعيد عن المدينة ، وأمر معاوية بن أبي سفيان أن يبوئه إِيَّاهُ ، فشى معه ووائل راكب حتى إذا كان ببعض الطريق ، قال له معاوية : يا وائل ! إن الرضاء قد أصابت قدمي ، فألق إليّ نعلك ، قال : لا ، إني لم أكن لألبسها وقد لبستها - وفي لفظ : ما أضنّ عليك بهاتين الجلديتين ، ولكن لست ممن يلبس لباس الملوك وأكره أن أعير بك - قال معاوية : فأردفني خلفك ، قال : لست من أرداف الملوك ، قال : إن الرضاء قد أحرقت قدمي ، قال : امش في ظل ناقتي كفاك به شرفاً . قال معاوية : فأتيت النبي ﷺ فأنبأته بقوله ، فقال : « إِنَّ فِيهِ لَعَبِيَّةٌ^(٥) مِنْ عَبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ » .

فلما كانت خلافة معاوية ، رضي الله عنه ، أتاه وائل بن حُجْر ، فأفعمه معاوية معه على السير وذكَّره بالحديث ، فقال له : أسيريري هذا خير أم ظهر ناقتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! كنت حديث عهد بجاهلية وكفر ، وكانت تلك سيرة الجاهلية ، فقد أتانا الله بالإسلام فستر الإسلام ما فعلت . وكان وائل يقول : ودِدت أي كنت حملته بين يدي .

وكان ممن قدم على النبي ﷺ في وفد حضرموت جَمْدٌ ومِخْوَسٌ ومِشْرَحٌ وأُبْصَعَةٌ ملوك حضرموت ، فلما خرجوا من عنده أصاب مِخْوَساً اللَّقْوَةَ^(٦) ، فرجع منهم نفر فقالوا : يا رسول الله ! سيّد العرب ضربته اللَّقْوَةُ ، فاذلّلنا على دوائه ، فقال

(١) أي : لا تنتهها ولا تقديها . وقيل : معناه : لا تترك النسب إلى الآباء وتنتسب إلى الأمهات (النهاية : ج ٩٥/٤) .

(٢) الْمَجْبُتَةُ : مَا يَحْمِلُ عَلَى الْعَجَبِ (الوسيط : ج ١٠٦/١) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٥٤/٤) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢١١/٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٨/١) ، و (ج ٢٤٦/٤) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٠٩/١) ، وتاريخ الطبري (ج ١٢٨/٣) ، وعيون الأثر (ج ٢٤١/٢ - ٢٤٢) .

(٤) انظر : المستدرک (ج ٢٨/٤) ، وعيون الأثر (ج ٢١١/٢) .

(٥) الْعَبِيَّةُ : الْكِبْرُ (النهاية : ج ١٦٩/٣) .

(٦) اللَّقْوَةُ : هِيَ مَرَضٌ يَعْزُضُ لِلْوَجْهِ فَيَمِيلُهُ إِلَى أَحَدِ جَانِبَيْهِ (النهاية : ج ٢٦٧/٤) .

رسول الله ﷺ : « خُذُوا مَخِيطًا فَأَحْمُوهُ فِي النَّارِ ، ثُمَّ أَقْبُوا شَفْرًا^(١) عَيْنِهِ ، فَفِيهَا شِفَاؤُهُ وَإِلَيْهَا مَصِيرُهُ ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا قُلْتُمْ حِينَ خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي ! » ، فصنعوه به فبرأ .

وكتب رسول الله ﷺ لوائل بن حَجْرٍ لما أراد الخروج إلى بلاده ثلاثة كتب ، كتاب له خالص يفضله فيه على قومه ، وكتاب له ولأهل بيته بأموالهم هناك ، وكتاب له ولقومه يأمرهم فيه بإقام الصلاة وما يجب عليهم في أموالهم من الصدقات ، وبيناهم عن أشياء تحرم عليهم ، وأقرّ وائل بن حَجْرٍ على ما بين يديه من الأرضين والحصون^(٢) .

وفد بني مُعَارِبِ بْنِ خَصِصَةَ :

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني مُعَارِبِ سنة عشر للهجرة ، وهم كانوا أغلظ العرب وأفظه على رسول الله ﷺ أيام عرض نفسه على القبائل في المواسم يدعوهم إلى الله عز وجل ، فجاء منهم عشرة نائبين عن من وراءهم من قومهم ، فأسلموا ؛ منهم سَوَاءُ بْنُ الْحَارِثِ وابنه خَزِيمَةَ . وكان بلال ، رضي الله عنه ، يأتهم بغداء وعشاء ، إلى أن جلسوا مع النبي ﷺ يوماً من الظهر إلى العصر فعرف رجلاً منهم فأمده النظر ، فلما رآه المُحَارِبِيُّ يَدِيمُ النَّظَرَ إِلَيْهِ قَالَ : كَأَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَوَهَّمَنِي ، قَالَ : « لَقَدْ رَأَيْتُكَ » ، فَقَالَ الْمُحَارِبِيُّ : إِي وَاللَّهِ ؛ لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَكَلَّمْتُنِي وَكَلَّمْتِكَ بِأَقْبَحِ الْكَلَامِ وَرَدَدْتِكَ بِأَقْبَحِ الرَّدِّ بَعَاظَ وَأَنْتَ تَطْوِفُ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ » ، ثُمَّ قَالَ الْمُحَارِبِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا كَانَ فِي أَصْحَابِي أَشَدَّ عَلَيْكَ يَوْمَئِذٍ وَلَا أَبْعَدَ عَنِ الْإِسْلَامِ مِنِّي ، فَأَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَبْقَانِي حَتَّى صَدَقْتَ بَكَ ، وَلَقَدْ مَاتَ أَوْلَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ كَانُوا مَعِيَ عَلَى دِينِهِمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ يَبِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » ، فَقَالَ الْمُحَارِبِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! اسْتَغْفِرُ لِي مِنْ مَرَاغِعِي إِيَّاكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْكُفْرِ » .

ومسح رسول الله ﷺ وجه خَزِيمَةَ بْنِ سَوَاءٍ فَصَارَتْ لَهُ عُرَّةٌ بِيضَاءَ ، وَأَجَازَهُمْ كَمَا يَجِيزُ الْوَفْدَ ، وَانصَرَفُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ^(٣) .



وهكذا تتابعت وفود القبائل العربية إلى المدينة في سنتي تسع وعشر ، وتأخر بعضها إلى السنة الحادية عشرة ، وقد ذكرنا منها آنفاً ماله فائدة أو أهمية ، ونذكر هنا بعضها الآخر على سبيل الاختصار .

فقد قدم على رسول الله ﷺ في رمضان سنة عشر وفد غسان ثلاثة نفر ، فأسلموا وصدّقوا ، ولما رجعوا إلى قومهم لم يستجيبوا لهم^(٤) .

وقدم عليه في رمضان أيضاً سنة عشر وفد غامد قبيلة من الأزد بالين ، فأقرّوا بالإسلام ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فيه شرائع من شرائع الإسلام ، وأمر النبي ﷺ أَبِي بِنِ كَعْبٍ ، رضي الله عنه ، أن يعلمهم القرآن ، وأجازهم وانصرفوا^(٥) .

وقدم عليه في شوال وفد سَلَامَانَ ؛ فِيهِمْ حَبِيبُ بْنُ عَمْرِو السَّلَامَانِيِّ ، فأسلموا ، وبأيعوا على الإسلام ، وسأل حبيب رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال ، فقال : « الصَّلَاةُ فِي وَقْتِهَا » ، وصلّوا معه يومئذ الظهر والعصر ، وسألوه عن شرائع الإسلام وعن الرُّقِيِّ ، وأقاموا ثلاثاً وضيافته تجري عليهم ، ثم ودّعوه وأمر لهم بجوائز وانصرفوا^(٦) .

(١) الشُّفْرُ : حَرْفٌ جَفْنُ الْعَيْنِ الَّذِي يُنْبَتُ عَلَيْهِ الشَّعْرُ (النهاية : ج ٤٨٤/٢) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٨٧/١ ، ٢٤٩ ، ٣٥٠) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٩٧/٦) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٧٢/٩ ، ٢٧٤) .

(٣) انظر : عيون الأثر (ج ٢٥٤/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٩٩/١) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٢٨/١) .

(٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٤٥/١) ، وعيون الأثر (ج ٢٥٧/٢) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٣٢/١) ، وعيون الأثر (ج ٢٥٧/٢) .

ووفد عليه ﷺ بنو عبس تسعة نفر ، فيهم ميسرة بن مسروق ، فأسلموا ، فدعا لهم رسول الله ﷺ بخير ، فقالوا : أخبرنا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال ومواش هي معاشنا ، فإن كان لإسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا ، فقال رسول الله ﷺ : « اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئاً » (١) . (٢) .

وقدم عليه وفد الصدف ، فجلسوا ولم يسلموا ، فقال : « مسلمون أنتم ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فهلاً سلمتم ؟ » ، فقاموا قياماً فسلموا ، ثم جلسوا وسألوا رسول الله ﷺ عن أوقات الصلاة فأخبرهم بها (٣) .

ووفد عليه الزهاويون ، وهم حي من مذحج ، فأسلموا ، وتعلموا القرآن والفرائض ، وأوصى لهم بجاذ مائة وسق بخيبر جارية عليهم ، وكتب لهم كتاباً (٤) .

ووفد عليه بنو المنتفق ، وهم قبيلة من عامر بن صعصعة ؛ فيهم لقيط بن عامر ، فبايعوا وأسلموا ، وبايعوه على من وراءهم من قومهم ، فأقطعهم رسول الله ﷺ أرضاً وكتب لهم بها ، وقال عنهم ﷺ : « إنهم من أتقى الناس في الأولى والآخرة » (٥) .

ووفد عليه من البن غافق ، وبارق ، ومهرة عليهم مهري بن الأبيض ، وجيشان فأسلموا وبايعوا ، وعلمهم الصلاة والسنة والفرائض ، وقدم عليه وفد عنزة ، وعبس ، وأجأ ، وكلفة (٦) .

وقدم عليه وفد بني تغلب ستة عشر رجلاً مسلمين ونصارى ، فصالح رسول الله ﷺ النصارى على أن يقرهم على دينهم ، وأجاز المسلمين منهم بجوائزهم ، وعلمهم شرائع الإسلام (٧) .



(١) أي كن ينقصكم أو يظلمكم من أعمالكم شيئاً (لسان العرب : ج ٤١١١/٥) .

(٢) انظر طبقات ابن سعد (ج ٢٩٥/١ ، ٢٩٦) .

(٣) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٢٩/١) .

(٤) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤٤/١) . والجاذ : بمعنى المجنود ؛ أي نخل يجذ منه ما يبلغ مائة وسق (النهاية : ج ٢٤٤/١) .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ١٢/٤) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٨٠/١ ، ٢٤٢ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٢٧/٦) ، وسنن أبي داود (ج ٦٥٨/١) كتاب الصلاة -

باب الرجل يخطب على قوس ح ١٠٩٦ ، وجمع الزوائد (ج ٥١/١٠) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣١٦/١) .

حَجَّةُ الْوُدَاعِ

أقام رسول الله ﷺ في المدينة يضحّي كلّ عام من السنة الثانية للهجرة ، ويغزو المغازي ويبعث البعث ، فلما كانت السنة العاشرة للهجرة حجّ حَجَّةُ الْوُدَاعِ .

وسميت بذلك لأن رسول الله ﷺ ودّع الناس فيها ولم يحجّ بعدها ، وتسمّى حَجَّةُ الْبَلَاغِ وَحَجَّةُ الْتَّامِ وَالْكَامِلِ ، لأنه ﷺ بلغ الناس الشرع في الحجّ قولاً وفعلاً ، وذكر لهم ما يحلّ وما يحرم وقال لهم : « هَلْ بَلَّغْتُ » ، ولنزول قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (١) .

وكان المسلمون يُسمونها حَجَّةَ الْإِسْلَامِ لأنه ﷺ لم يحجّ من المدينة بعد فرض الحجّ (٢) غيرها . أما بعد النبوة قبل الهجرة فحجّ النبي ﷺ ثلاث حجّات ، وقيل : حجّتين وهما اللتان بايع فيها الأنصار عند العقبة ، وذكر بعضهم أنه ﷺ كان يحجّ كل سنة قبل أن يهاجر ، وكان رسول الله ﷺ قبل النبوة يقف بعرفات ويفيض منها إلى الْمُرْدَلِفَةِ ، مخالفاً لقريش ، توفيقاً له من الله ، عزّ وجلّ ، فإنهم كانوا يقولون : ليس لنا أن نخرج من الحرم ، نحن الحُمس ، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها إلى المزدلفة ويرون ذلك لسائر العرب .

وأما عدد عمّر النبي ﷺ فأربع ، كلهن في ذي القعدة ، إلا التي كانت مع حجّته ؛ عمرة من الحديبية ، وعمرة من العام المقبل ، وعمرة من الجِعْرَانَةِ حيث قسم غنائم حُنَيْنِ ، وعمرة مع حجّته (٣) .

خُرُوجُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ وَإِحْرَامِهِ مِنْ ذِي الْحَلِيفَةِ :

وفي ذي القعدة سنة عشر للهجرة أذن رسول الله ﷺ في الناس بالحج ، وتجهز وأمر الناس بالجهاز ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتي برسول الله ﷺ في حجّته . قال جابر رضي الله عنه : فلم يبق أحد يقدر أن يأتي ركباً أو راجلاً إلاّ قدم .

خرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم السبت لأربع ليال بقين من ذي القعدة ، وذلك نهاراً بعد أن ترجّل وادّهن وبعد أن صلى الظهر أربعاً ، واستعمل على المدينة أبا دُجَانَةَ الساعدي ، ويقال : سيباع بن عَرْفُطَةَ الغفاري .

وخرج معه ﷺ أكثر من مائة ألف حاج (٤) ، وكانت نساؤه كلهنّ معه في الموادج (٥) . روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن

(١) المائدة : ٣ .

(٢) قيل : كان فرض الحج سنة ست ، وقيل : سنة تسع أو عشر ، والراجح أنه فرض سنة تسع للهجرة ، وإنما تأخّر النبي ﷺ عن المبادرة إلى الحج في السنة التاسعة لما كان فيه من بقايا المشركين الذين كانوا يطوفون بالبيت عمرة كما ذكرنا سابقاً . انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٥٧/٣) ، وزاد المعاد (ج ١٠١٢ - ١٠١٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٨/٤) ، وصحيح البخاري (١٥٥/٥ ، ٢٢٣) كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية ، باب حجة الوداع ، والمستدرک (ج ٤٧٠/١ ، ٤٨٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٢/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٥٧/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٠٤/٣ - ١٠٦) .

(٤) وهذه عِدَّةٌ من خرج معه ، أما الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك ، كالقبيين بمكة ، والذين أتوا من البين مع عليّ وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما . انظر : السيرة الدحلانية على هامش السيرة الحلبية (ج ٢/٣) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٦٩/٢ ، ١٧٠ ، ٢٠٩) كتاب الحج - باب ما يلبس المحرم من الثياب ... ، باب من بات =

رسول الله ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع : « هَذِهِ ثُمَّ ظَهَرَ الْحَضْرُ (١) » . قال : فكَانَ كَلْهَنَ يَخْجُجْنَ إِلَّا زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ وَسُودَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ ، وَكَانَتَا تَقُولَانِ : وَاللَّهِ لَا تَحْرُكُنَا دَابَّةٌ بَعْدَ أَنْ سَمِعْنَا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ (٢) .

وانطلق النبي ﷺ إلى ذي الحليفة سالكا طريق الشجرة حتى بلغها قبل أن يصل العصر ، فصلاها ركعتين ، ثم بات هناك حتى أصبح .

فلما أصبح ﷺ قال لأصحابه : « أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتٍ مِنْ رَبِّي ، فَقَالَ : صَلِّ فِي هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ وَقُلْ عُمْرَةَ فِي حَجَّةٍ » . فَاغْتَسَلَ ﷺ لِإِحْرَامِهِ ، ثُمَّ طَيَّبْتَهُ عَائِشَةُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، بِيَدِهَا بَدْرِيَّةُ (٣) وَطَبِيبٌ فِيهِ مَسْكٌ ، فِي بَدْنِهِ وَرَأْسِهِ ، حَتَّى كَانَ وَيَبِصُ (٤) الطَّيِّبَ يَرَى فِي مَفْرَقِ النَّبِيِّ ﷺ وَحَيْثُ وَهُوَ مَحْرَمٌ ، ثُمَّ لَبَّدَ شَعْرَ رَأْسِهِ بِالْعَسَلِ حَتَّى لَا يَشْعَثُ ، ثُمَّ تَجَرَّدَ فِي إِزَارِهِ وَرَدَائِهِ ، ثُمَّ دَعَا يَهْدِيهِ فَأَشْعَرَهُ وَقَلَّدَهُ ، وَكَانَ عَلَى هَدْيِهِ نَاجِيَةُ بْنُ جُنْدَبٍ الْأَسْمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ثُمَّ صَلَّى الظُّهْرَ رَكْعَتَيْنِ فِي مَسْجِدِ ذِي الْحَلِيفَةِ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ سُنَّةِ الْإِحْرَامِ ، ثُمَّ أَهْلًا بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فِي مَصَلَاةٍ وَقَرْنَ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ خَرَجَ فَرَكِبَ نَاقَتَهُ الْقِصْوَاءَ فَأَهْلًا أَيْضًا ، ثُمَّ أَهْلًا لَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِ (٥) عَلَى الْبَيْدَاءِ (٦) ، وَقَالَ ﷺ : « اللَّهُمَّ ! حَجَّةٌ لَارِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ » . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاكِبًا عَلَى رَحْلِ رَثٍّ وَقَطِيفَةٍ تَسَاوِي أَرْبَعَةَ دِرَاهِمٍ أَوْ لَا تَسَاوِي .

ثم لبى النبي ﷺ فقال : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لِأَشْرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لِأَشْرِيكَ لَكَ . لَبَّيْكَ إِلَهَ الْخَلْقِ ، لَبَّيْكَ حَجًّا حَقًّا تَعَبُدًا وَرِقًّا » ، وَالنَّاسُ مَعَهُ يَزِيدُونَ فِيهَا : لَبَّيْكَ ذَا الْمَعَارِجِ وَلَبَّيْكَ ذَا الْفَوَاضِلِ ، فَلَمْ يَنْكُرْ عَلَيْهِمْ .

وأقى النبي ﷺ جبريل ، عليه السلام ، وأمره أن يأمر أصحابه برفع أصواتهم بالتلبية فإنها من شعائر الحج ، ففعلوا ، قالت عائشة رضي الله عنها : فَمَا بَلَّغْنَا الرُّوحَاءَ حَتَّى سَمِعَتْ عَامَّةُ النَّاسِ قَدْ بُحَّتْ أَصْوَاتُهُمْ مِنَ التَّلْبِيَةِ .

وفي ذي الحليفة ولدت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر الصديق محمد بن أبي بكر ، رضي الله عنهم ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع ؟ قال : « اغتسلي واستثفري ببؤبؤ وأحرمي » (٧) .

- = بندي الحليفة حتى أصبح ، باب ذبح الرجل البقر عن نسائه ... وصحيح مسلم (ج ٨٨٧/٢) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، وسنن النسائي (ج ١٦٤/٥) كتاب مناسك الحج - إحلال النساء ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٢/٢) ، و (ج ٢٠٦/٨) ، و (ج ٢٧٢/٢) .
- (١) أي أنكنت لا تمدن تخرجن من بيوتكن ، وتلزم الحضر ، هي جمع الحضر الذي يئسط في البيوت (النهاية : ج ٣٩٥/١) .
- (٢) مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٤/٦) .
- (٣) الدريرة : نوع من الطيب ، مجموع من خلط (النهاية : ج ١٥٧/٢) .
- (٤) الوبيص : البريق (النهاية : ج ١٤٦/٥) .
- (٥) أي : حملته . وقد تقدم .
- (٦) البيداء : اسم موضع بين مكة والمدينة ، بقرب ذي الحليفة إلى جهة مكة ، سميت بيداء لأنها لا بناء بها ولا أثر . انظر : شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ١٤٥/٨) ، والنهاية (ج ١٧١/١) .
- (٧) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٦/١) باب من تطيب ثم اغتسل ، و (ج ١٦٦/٢ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ٢٠٧) كتاب الحج - باب خروج النبي ﷺ على طريق الشجرة ، باب قول النبي ﷺ العقيق واد مبارك ، باب من بات بندي الحليفة حتى أصبح ، باب من أشعره وقلد بندي الحليفة ثم أحرم ، و (ج ٢١١/٧) كتاب اللباس - باب الدريرة ، وصحيح مسلم (ج ٨٤٨/٢ ، ٨٨٧ ، ٩١٢) كتاب الحج - باب الطيب للمحرم عند الإحرام ح ٤٤ ، باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب تقليد الهدى وإشعاره عند الإحرام ح ٢٥٥ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٦٠/١) ، و (ج ٢٢٥/٢) ، وسنن أبي داود (ج ٣٦٠/٢) كتاب المناسك - باب التلبيد ح ١٧٤٨ ، وسنن النسائي (ج ١٦٢/٥) كتاب مناسك الحج - رفع الصوت بالإهلال ، وسنن ابن ماجه (ج ٩٦٥/٢) كتاب المناسك - باب الحج على الرجل ح ٢٨٩٠ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٣٥/٥ ، ٤٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٢/٢) ، و (ج ٢٥٨/٣) .

مسير النبي ﷺ إلى مكة :

ومضى رسول الله ﷺ يسير المنازل ويؤم أصحابه في الصلوات في مساجد له قد بناها الناس وعرفوا مواضعها ، فرّ بالروحاء والأثاية وبالعرج والأبواء وعسفان . (انظر : مصور خط سير النبي ﷺ في حجة الوداع) .

يروى أنه لما كان النبي ﷺ بالعرج فقد البعير الذي عليه زاده ﷺ وزاد أبي بكر ، رضي الله عنه ، وكانت زمالتها^(١) واحدة ، وكان ذلك البعير مع غلام لأبي بكر ، فقال أبو بكر ، رضي الله عنه ، للغلام : أين بعيرك ؟ قال : قد أضلته البارحة ، فقال أبو بكر : بعير واحد تضيئه ! فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول : « أنظروا إلى هذا المخرم وما يصنع » .

ويروى أنه لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان قال : « لقد مرّ به هودٌ وصالحٌ على بكراتٍ حمرٍ ، خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأرديتهم النياز^(٢) ، يلبون يحجون البيت العتيق » .

ثم نزل النبي ﷺ بسرّف ، فقال لأصحابه : « من لم يكن معه هدي فآحَب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان معه الهدي فلا » . وكان رسول الله ﷺ خير أصحابه عند الإحرام فقال لهم : « من آحَب أن يهمل بعمرة فليهمل ، ومن آحَب أن يهمل بحجة فليهمل ، ولولا أنني أهديت لأهللت بعمرة » . قالت عائشة رضي الله عنها : فمنهم من أهل بعمرة ، ومنهم من أهل بحجة ، وكنت من أهل بعمرة .

وحاضت السيدة عائشة ، رضي الله عنها ، في ذلك اليوم الذي ندب فيه رسول الله ﷺ أصحابه إلى فسح الحج إلى العمرة لمن لم يكن معه هدي ، قالت عائشة رضي الله عنها : فدخل علي رسول الله ﷺ وأنا أبكي ، فقال : « ما يبكيك يا هنتاة ؟ » قلت : سمعت قولك لأصحابك فمضت العمرة ، قال : « وما شأنك ؟ » قلت : لا أصلي ، قال : « فلا يصيرك ، إنما أنت امرأة من بنات آدم كآب الله عليك ما كتب عليهن فكوني في حجتي فمسي الله أن يزرُقكيها » . - وفي روايات أخرى قال : « مالك يا عائشة ؟ لعلك نفيست ؟ » قالت : نعم ، والله لو ددت أني لم أخرج معكم عامي هنا في هذا السفر ، فقال : « لا تقولن ذلك ؛ فإنك تقضين كل ما يقضي الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت ، أتقضي رأسك وأمتشطبي ، وأهلي بالحج ودعي العمرة » ففعلت^(٣) .

مبيت النبي ﷺ بذي طوى ودخوله مكة :

ثم واصل رسول الله ﷺ سيره حتى نزل بذي طوى ، فبات بها ليلة الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة ، ثم أصبح فاغتسل وصلى بها الفجر ، ثم نهض إلى مكة فدخلها نهاراً من أعلاها من كداء من الثنية العليا التي بالبطحاء صبيحة يوم الأحد المذكور ، ونزل بالمسلمين بظاهر مكة عند الحجون^(٤) . (انظر : مصور مناسك الحج) .

- دخوله المسجد الحرام وطوافه بالبيت :

ثم أتى رسول الله ﷺ المسجد الحرام ضحى فدخله من باب عبد مناف ، وهو باب بني شيبنة المعروف الآن بباب السلام ، وكان

(١) الرمالة : البعير الذي يُحمل عليه الطعام والمتاع (النهاية : ج ٢/٢١٢) .

(٢) النياز : جمع نيرة ، وهي كل شئلة مخططة من مآزر الأعراب ، كأنها أخذت من لون النير ؛ لما فيها من السواد والبياض . وقد تقدم .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢٧٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢/١٧٢ ، ١٧٣) كتاب الحج - باب كيف تهل الحائض والنفساء ، باب قول الله تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۗ ﴾ ، و (ج ٣/٥) أبواب العمرة - باب إذا أهدى للمحرم حماراً وحشياً ، وصحيح مسلم (ج ٢/٨٧٢) كتاب الحج - باب بيان وجوه الإحرام ... ح ١٢٠ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١/٢٢٢) ، و (ج ٦/٢٤٤) ، وسنن النسائي (ج ٥/١٨٢) كتاب مناسك الحج - ما يجوز للمحرم أكله من الصيد ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/١٧٢) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٢/١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٧٨) كتاب الحج - باب ما يلبس المحرم من الثياب والأردية والأزر ، باب دخول مكة نهاراً أو ليلاً ، باب الاغتسال عند دخول مكة ، باب من أين يخرج من مكة ، وصحيح مسلم (ج ٢/٩١٧) كتاب الحج - باب استحباب المبيت بذي طوى ح ٢٧٧ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٥/٧٤) ، وعيون الأثر (ج ٢/٢٧٢) .

رسول الله ﷺ إذا رأى البيت رفع يديه وكبر وقال : « اللَّهُمَّ ! أَنْتَ السَّلَامُ ، وَمِنْكَ السَّلَامُ ، فَحَيِّتَا رَبَّنَا بِالسَّلَامِ . اللَّهُمَّ ! زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا وَمَهَابَةً وَبِرًّا ، وَزِدْ مِنْ حَجَّهِ أَوْ اعْتَمَرِهِ تَكْرِيمًا وَتَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَبِرًّا » .

ثم بدأ بالحجر الأسود فاستلمه وقبله وفاضت عيناه بالبكاء ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : استقبل رسول الله ﷺ الحجر ، ثم وضع شفثيه عليه يبكي طويلاً ، ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب يبكي ، فقال : « يَا عُمَرُ ! هَهُنَا تُسَكَّبُ الْعِبْرَاتُ » (١) .

روى البخاري بسنده عن عمر ، رضي الله عنه ، أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله ، فقال : إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك (٢) .

ثم طاف رسول الله ﷺ بالبيت ماشياً ، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ، يستلم الحجر الأسود والركن اليماني في كل طوفة (٣) ، وقد اضطلع برداءه فجعل طرفيه على أحد كتفيه وأبدي كتفه الأخرى ومنكبه ، وكان كلما حاذى الحجر الأسود استلمه بيده ثم قبلها وكبر ، أو استلمه بمحجنه وقبل المحجن وكبر إذا ازدحم الناس عليه . ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه قبل الركن اليماني أو قبل يده عند استلامه . وكان ﷺ يدعو بين الركنين اليمانيين - أي الأسود واليماني - فيقول : « رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » ، ويقول : « رَبِّ قَنِّبِي بِنَا رَزَقْتَنِي وَبَارِكْ لِي فِيهِ ، وَاخْلُفْ عَلَيَّ كُلَّ عَائِبَةٍ لِي بِخَيْرٍ » .

فلما فرغ ﷺ من طوافه قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه ، ثم جاء إلى المقام فقرأ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (٤) ورفع صوته يسمع الناس ، ثم صلى ركعتين ، جاعلاً المقام بينه وبين البيت ، قرأ فيها بعد الفاتحة بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . ثم عاد ﷺ إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم ذهب إلى زمزم فشرب منها (٥) ، وصب على رأسه ، ثم رجع فاستلم الركن (٦) .

- طوافه ﷺ بين الصفا والمروة :

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الصفا من الباب الذي يقابل الحجر الأسود ، وقيل : خرج من باب بني مخزوم ، فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (٧) ثم قال : « أُبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ » ، ثم رقي عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٠٦/٢) كتاب الحج - باب من ساق البدن معه ، والمستدرک (ج ٤٥٤/١) ، وسنن ابن ماجه (ج ٩٨٢/٢) كتاب المناسك - باب استلام الحجر ح ٢٩٤٥ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٧٢/٥ ، ٧٤) ، وجمع الزوائد (ج ٢٢٨/٣) .

(٢) صحيح البخاري (ج ١٨٢/٢) كتاب الحج - باب ما ذكر في الحجر الأسود .

(٣) روي عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « وَكُلَّ بِهِ » - أي الركن اليماني - « سُبْعُونَ مَلَكًا ، فَمَنْ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ التَّغْفِيرَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، قَالُوا آمِينَ » ، وروي عنه أن النبي ﷺ قال في الركن الأسود : « مَنْ فَاوَضَهُ فَإِنَّا نِفَاوِضُ يَدَ الرَّحْمَنِ » سنن ابن ماجه (ج ٩٨٥/٢) كتاب المناسك - باب فضل الطواف ح ٢٩٥٧ .

(٤) البقرة : ١٢٥ .

(٥) روى الحاكم في المستدرک (ج ٤٧٢/١) بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مَاءُ زَمْرَمٍ لَيْسَ شَرِبَ لَهُ ، فَإِنْ شَرِبْتَهُ تَشْتَفِي بِهِ شَفَاكَ اللَّهُ ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ مُسْتَعِينًا أَعَادَكَ اللَّهُ ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِيَقْطَعَ ظَمَأَكَ قَطَعَهُ » . وكان ابن عباس إذا شرب ماء زمزم قال : اللَّهُمَّ ! أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا ، وَرِزْقًا وَاسِعًا ، وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧٩/٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٦) كتاب الحج - باب فضل مكة وبنائها ، باب التكبير عند الركن ، باب من لم يستلم إلا الركنين اليمانيين ، باب من طاف بالبيت إذا قدم مكة ، باب من ساق البدن معه ، وصحيح مسلم (ج ٨٨٧/٢ ، ٩٢٤) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب استحباب استلام الركنين اليمانيين في الطواف ح ٢٤٦ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٩٤/٣) ، والمستدرک (ج ٤٥٥/١) ، وسنن أبي داود (ج ٤٤٤/٢) كتاب المناسك - باب الاضطباع في الطواف ح ١٨٨٢ ، وسنن النسائي (ج ٢٣١/٥) كتاب مناسك الحج - استلام الركنين في كل طواف ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٧٤/٥) ، وجمع الزوائد (ج ٢٤١/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٢/٢) .

(٧) البقرة : ١٥٨ .

الله وكبره ، وقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أله المُلْكُ وله الحُصْدُ وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لا إله إلا الله وحده ، أنجزَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَرَمَ الْأَخْزَابَ وَحْدَهُ » ، ثم دعا بين ذلك ، وقال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المَرْوَةِ حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى وقال : « لا يَقْطَعُ الْوَادِي إِلَّا شِدًّا ^(١) » ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ وارْحَمْ وَأَنْتَ الْأَعَزُّ الْأَكْرَمُ » ، حتى إذا جاوز الوادي وأصعد مشى ، حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا ^(٢) .

وكان سعيه ﷺ بين الصفا والمروة ماشياً ، وقيل : كان راكباً على بعيره ، فقد روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما قال : طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت ^(٣) وبالصفا والمروة ليراه الناس ، وليشرف وليسألوه ، فإن الناس غشوه ^(٤) .

وعن قدامة بن عبد الله بن عمارة قال : رأيت رسول الله ﷺ يسعى بين الصفا والمروة على بعير ، لا يضرب ولا طرد ولا إليك ^(٥) .

وسبيل الجمع بين الأحاديث أنه ﷺ سعى ماشياً أولاً ، ثم أتم سعيه راكباً لما ازدحم الناس عليه ، ويدل لذلك ما رواه مسلم بسنده عن أبي الطَّيْبِ أَنَّهُ قَالَ لَابْنِ عَبَّاسٍ : أَخْبَرَنِي عَنِ الطَّوَّافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ رَاكِباً أَسْنَةً هُوَ ؟ فَإِنْ قَوْمِكَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ سُنَّةٌ ، قَالَ : صَدَقُوا وَكَذَبُوا ، قَالَ : وَمَا قَوْلُكَ صَدَقُوا وَكَذَبُوا ؟ قَالَ : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَثُرَ عَلَيْهِ النَّاسُ يَقُولُونَ : هَذَا مُحَمَّدٌ ، هَذَا مُحَمَّدٌ ، حَتَّى خَرَجَ الْعَوَاتِقُ ^(٦) مِنَ الْبَيْتِ ، قَالَ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُضْرَبُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمَّا كَثُرَ عَلَيْهِ رَكِبَ . وَالسَّعْيُ وَالسَّعْيُ أَفْضَلُ ^(٧) .

أمر النبي ﷺ أصحابه بفسخ الحج إلى العمرة :

فلما أكمل رسول الله ﷺ طوافه بالصفا والمروة سبعة أشواط ، وكان على المروة أمر من لم يكن معه هدي من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة ، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة ، ويقصروا ، ثم يجيئوا الحِلَّ كله من وطء النساء والطيب ولبس الخيط ، وأن يبقوا كذلك إلى يوم التروية ، وهو يوم الثامن من ذي الحجة . فقالوا : يا رسول الله ! قد أحرمتنا بالحج فكيف نجعلها عمرة ؟ قال : « أَنْظَرُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ فَأَفْعَلُوا » ، فكبر ذلك عليهم وضاحت به صدورهم ، فردوا عليه القول ، فغضب ، ثم انطلق حتى دخل على عائشة ، رضي الله عنها ، وهو غضبان ، فرأت الغضب في وجهه ، فقالت : مَنْ أَغْضَبَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ ، قَالَ : « أَوْ مَا شَعَرْتُ أَنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِأَمْرٍ فَإِذَا هُمْ يَتَرَدَّدُونَ ؟ » - وفي لفظ : « وَمَالِي لَا أَغْضَبُ وَأَنَا أَمْرٌ بِالْأَمْرِ فَلَا أَتَّبِعُ ^(٨) ؟ » . ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً

(١) أي عدواً . وقد تقدم .

(٢) انظر : صحيح مسلم (ج ٨٨٨/٢) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، وسنن النسائي (ج ٢٤٢/٥) كتاب مناسك الحج - السعي في بطن المسيل ، ومجمع الزوائد (ج ٢٤٨/٣) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٧٢/٥) ، وزاد المعاد (ج ٢٢٧/٢) .

(٣) اختلف في طوافه ﷺ بالبيت عند قدومه هل كان على قدميه أو كان راكباً ، والأرجح أن طوافه راكباً كان في طواف الإفاضة لا في طواف القدوم . انظر : زاد المعاد (ج ٢٢٩/٢ - ٢٣٠) .

(٤) صحيح مسلم (ج ٩٢٧/٢) كتاب الحج - باب جواز الطواف على بعير وغيره ح ٢٥٥ .

(٥) أي لم تكن الناس تضرب عنده ولا تطرد ليتنحوا عن طريقه ، ولا يقال إليك إليك كما يفعل عند الملوك والمكبرين . انظر : (لسان العرب : ج ١٢٠/٨) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ١٩٤/٨) . والخبر رواه البيهقي في سننه الكبرى (ج ١٠١/٥) .

(٦) العواتق : جمع عاتق ، وهي الشاة أول ما تدرك (النهاية : ج ١٧٧/٣) .

(٧) صحيح مسلم (ج ٩٢٢/٢) كتاب الحج - باب استحباب الرمل في الطواف ... ح ٢٢٧ .

(٨) جاء في صحيح البخاري (ج ١٧٥/٢) كتاب الحج - باب التمتع والإقراء والإفراد بالحج ... أن المشركين كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر النجور . ولذلك أمرهم النبي ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة لإبطال ما كانت تزعمه الجاهلية ، ولذلك شدد عليهم وغضب لما تلكأ بعض الصحابة عن امتثال أمره تأثراً بما ألفوه من قبل في الجاهلية ، فشدد عليهم لإزالة التحرج من نفوسهم عن فعل مشروع . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٣٥/٨) .

في الناس لما رأى من ترددهم ، فقال لهم : « قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَنْتَقِئُكُمْ لِلَّهِ وَأُصَدِّقُكُمْ وَأُبْرِكُكُمْ ، وَلَوْ لَا هَدَيْتِي لَحَلَلْتُ كَمَا تَحِلُّونَ ، فَجَلُّوا ، فَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبُرْتُ مَا أَهْدَيْتُ » .

فسمعوا وأطاعوا ، وحلَّ الناس كلهم ، إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي ، وهم أبو بكر وعمر وطلحة والزبير ، رضي الله عنهم ، وحلَّ نساؤه بعمرة إلا عائشة ، رضي الله عنها ، لم تحلَّ من أجل حيضها .

وهناك سأل سُرَاقَةُ بن مالك بن جُعْثَم غُفَيْبُ أمره ﷺ لهم بالفسخ والإحلال : هل ذلك لعامهم خاصة أم للأبد ؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال : « دَخَلَتْ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (١) .

إقامة النبي ﷺ بمكة :

عاد رسول الله ﷺ إلى منزله الذي نزل فيه بظاهر مكة ؛ أي بأعلاها عند الْحَجُّونَ ، فأقام به أربعة أيام : يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء وليلة الخميس ، ولم يعد إلى البيت بعد طوافه به حتى رجع من عرفة ، وكان ﷺ مدة مقامه هناك إلى يوم التروية يقصر الصلاة (٢) .

قدوم علي رضي الله عنه من اليمن :

وقدم علي ، رضي الله عنه ، من اليمن حاجاً ، فدخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها ، فوجدها قد حلت وتهيأت ، فقال : مالك يا بنت رسول الله ؟ قالت : أمرنا رسول الله ﷺ أن نحلَّ بعمرة ، فحللنا ، ثم أتى رسول الله ﷺ فلما فرغ من الخبر عن سفره ، قال له رسول الله ﷺ : « أَنْطَلِقُ فَطَفُّ بِالْبَيْتِ وَحَلُّ كَمَا حَلَّ أَصْحَابُكَ » ، قال : يا رسول الله ! إني أهلت كما أهلت ، فقال : « ارْجِعْ فَاحْلِلِي كَمَا حَلَّ أَصْحَابُكَ » ، قال : يا رسول الله ! إني قلت حين أحرمت : اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَهَلُّ بِمَا أَهَلَّ بِهِ نَبِيُّكَ وَعَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، قال : « فَهَلْ مَعَكَ مِنْ هَدْيٍ ؟ » قال : لا ، فأشركه رسول الله ﷺ في هديه .

وفي رواية : أن علياً ، أنكر ما فعلت فاطمة ، رضي الله عنها ، فذهب إلى رسول الله ﷺ مُحَرَّشاً (٣) عليها مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه ، فقال ﷺ : « صَدَقْتُ صَدَقْتُ ، مَاذَا قُلْتَ حِينَ قَرَضْتَ الْحَجَّ ؟ » قال علي : اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَهَلُّ بِمَا أَهَلَّ بِهِ رَسُولُكَ ، قال : « فَإِنَّ مَعِيَ الْهَدْيَ فَلَا تَحِلُّ » . وكان علي ، رضي الله عنه ، قد قدم بهدي من اليمن ، فكان مجموع الهدى الذي قدم به هو والذي أتى به النبي ﷺ مائة (٤) .

ويمكن الجمع بين هذه الرواية ورواية أنه لم يكن معه هدي ، بأن الهدى تأخر مجيئه بعده ، لأن علياً ، رضي الله عنه ، تعجَّل إلى رسول الله ﷺ من اليمن واستخلف على الجيش رجلاً من أصحابه كما سبق ذكره (٥) .

قدوم أبي موسى رضي الله عنه من اليمن :

وقدم من اليمن أيضاً على رسول الله ﷺ أبو موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، فجاء ورسول الله ﷺ منيخ بالبطحاء ، فقال له ﷺ : « أَحَجَجْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، قال : « كَيْفَ قُلْتَ ؟ » قال : قلت : لبيك إهلالاً كإهلالك ،

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٧١/٢) كتاب الحج - باب التمتع والإفراق والإفراد بالحج . . . و (ج ١٠٣/٩) كتاب التمني - باب قول النبي ﷺ لو استقبلت من أمري ما استدبرت ، و (ج ١٣٧/٩) كتاب الاعتصام - باب نهي النبي ﷺ عن التحريم إلا ما تعرف بإباحته ، وصحيح مسلم (ج ٨٧٤/٢ ، ٨٧٩ ، ٨٨٨ ، ٩٠٧ ، ٩١١) كتاب الحج - باب بيان وجوه الإحرام ح ١٢٠ ، وح ١٢٠ ، باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب ما يلزم من طاف بالبيت وسعى ح ١٩١ ، باب جواز العمرة في أشهر الحج ح ٢٠٣ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٨٧/٤) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٩/٢ ، ١٨٩) كتاب الحج - باب ما يلبس المحرم من الثياب ، باب من لم يقرب الكعبة ولم يطف حتى يخرج إلى عرفة ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٢/٢) ، وعيون الأثر (ج ٢٧٥/٢) .

(٣) أراد بالتحريش هاهنا ذكر ما يوجب عتاباً لها (النهاية) ج ٣٦٨/١ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/٤) ، وصحيح مسلم (ج ٨٨٨/٢) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٤/٤) . وراجع الخبر في سرية علي رضي الله عنه إلى مدحج باليمن .

قال : « فَبُهْلَ سَقَّتَ مَعَكَ هَدْيًا ؟ » قال : لم أسق ، قال : « فَطُفَّ بِالْبَيْتِ وَاسِعَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، ثُمَّ حِلَّ » ، ففعل (١) .

خروج النَّبِيِّ ﷺ وأصحابه إلى مَنَى :

فلما كان يوم التروية وكان يوم الخميس ، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ، توجه رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين إلى منى ، وقد أحرم بالحج من كان أحل منهم من رحالهم ، وكان ﷺ قد خطب الناس قبل يوم التروية بيوم فأخبرهم بمناسكهم وقال لهم : « مَنَزَلْنَا عَدَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِالْخَيْفِ الْأَيْمَنِ حَيْثُ اسْتَقْسَمَ الْمُشْرِكُونَ » .

فلما وصل النبي ﷺ إلى منى نزل هناك ، وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وبات بمبنى تلك الليلة ، وكانت ليلة الجمعة ، وصلى بها الصبح ، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس (٢) .

توجه النَّبِيِّ ﷺ إلى عَرَفَةَ وخطبته بها :

فلما طلعت الشمس نهض رسول الله ﷺ إلى عَرَفَةَ ، وأمر أن تضرب له قبة من شعر بئمة ، فسار ﷺ سالكاً طريق صَبَ ، وكان من أصحابه الملبى ، ومنهم المكبر ، وهو يسمع ذلك ولا يتكبر على هؤلاء ولا على هؤلاء ، فوجد القبة قد ضربت له بئمة فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ، ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عَرَفَةَ ، فخطب الناس ، وهو على راحلته ، خطبة عظيمة جامعة ، قرر فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أَيُّهَا النَّاسُ ! اسْمَعُوا قَوْلِي ، فَإِنِّي لَا أَذْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمُؤَقَفِ أَبَدًا ، أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحَرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا وَكَحَرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، وَقَدْ بَلَّغْتُ ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ أُتِمَّتْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كُلُّ رِبَا مُؤْضِعٌ ، وَلَكِنْ لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ، قَضَى اللَّهُ أَنَّهُ لَا رِبَا ، وَإِنَّ رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مُؤْضِعٌ كُلُّهُ ، وَإِنْ كُلُّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مُؤْضِعٌ ، وَإِنَّ أَوَّلَ دِمَائِكُمْ أَضَعُ دَمَ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَكَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَتَقَلَّبَتْهُ هَذِلٌ ، فَهُوَ أَوَّلُ مَا أَبْدَأَ بِهِ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ .

أَمَا بَعْدُ ؛ أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَّبِعُ مِنْ أَنْ يُعْبِدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا ، وَلَكِنَّهُ إِنْ يُطْعَمَ فِيهَا سَوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ النَّسِيءَ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَيُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (٣) ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ : ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَةٌ ، وَرَجَبٌ مُضَرٌ (٤) الَّذِي بَيْنَ جَمَادَى وَشَعْبَانَ .

أَمَا بَعْدُ ؛ أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُؤْطِئَنَّ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ آذَنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَصَاحِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ (٥) ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النَّسَاءِ وَأَسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا ، فَإِنَّهِنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ (٦) لَا يَمْلِكُنَّ أَنْفُسَهُنَّ شَيْئًا ،

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٠٥/٥) كتاب المغازي - بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع .

(٢) انظر : صحيح مسلم (ج ٨٨٩/٢) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، والمستدرک (ج ٤٦١/١) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٥٠/٣) .

(٣) روى ابن سعد في الطبقات (ج ١٨٦/٢) بسنده عن مجاهد فذكر الحديث وفيه قال : فكانت الجاهلية يحجون في كل شهر من شهور السنة عامين ،

فوافق حج النبي ﷺ في ذي الحجة فقال : « هذا يوم استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض » .

(٤) قال السهيلي في الروض الأنف (ج ٢٤٨/٤) : « إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان ، وتسميه رجبا ، من رجبت الرجل ورجبته إذا عظمت ، ورجبت النخلة إذا دعمتها ، فبين عليه السلام أنه رجب مضر لرجب ربيعة » .

(٥) أي غير شاق (النهاية : ج ١١٣/١) .

(٦) العواني : جمع عانية ، وهي الأسييرة ، وقد تقدم . يقول : إنما هن عندكم بمنزلة الأشرى .

وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإنني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اغتصمتم به فلن تضلوا أبداً ؛ أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ! استمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم ! هل بلغت ؟ « فقال الناس : اللهم نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ! أشهد » - وفي رواية أنه قال : « وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها^(١) إلى الناس : « اللهم ! أشهد ، اللهم أشهد » ثلاث مرات .

وروي أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم عرفة : « أيها الناس ! إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه ، وإنه لا تجوز وصية لوارث ، والولد للفراس وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مولى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً »^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ وهو على ناقته المخضمة بعرفات ، فقال : « أتدرون أي يوم هذا ، وأي شهر هذا ، وأي بلد هذا ؟ » قالوا : هذا بلد حرام ، وشهر حرام ، ويوم حرام ، قال : « ألا وإن أموالكم ودماءكم عليكم حرام كحرمته شهركم هذا في بلدكم هذا ، وإني فرطكم على الحوض ، وأكاثرت بكم الأمم فلا تسودوا وجهي ، ألا وإني مستنقذ أناساً ، ومستنقذ مني أناس فأقول يا رب ! أضحايي ؟ فيقول : إنك لا تدري ما أخذتوا بئدك »^(٣) .

وكان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف أخو صفوان بن أمية ، فكان رسول الله ﷺ يقول له : « يا ربيعة ! قل : يا أيها الناس ! إن رسول الله ﷺ يقول كذا » فيصرخ به^(٤) .

- جمع النبي ﷺ بين الظهر والعصر ووقوفه بعرفة :

فلما فرغ رسول الله ﷺ من خطبته أمر بلالاً ، رضي الله عنه ، فأذن ، ثم أقام الصلاة ، فصلى الظهر ركعتين ، ثم أقام ، فصلى العصر ركعتين أيضاً ، ولم يصل بينهما شيئاً .

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة^(٥) بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً مشتغلاً بالدعاء والتضرع والابتهال حتى غربت الشمس .

وقد شك الناس في صيامه ﷺ يوم عرفة ، فأرسلت إليه أم الفضل زوج العباس ، رضي الله عنها ، بقدر لبن فشربه أمام الناس وهو على بعيره .

وأمر النبي ﷺ الناس أن يرتفعوا عن بطن عرنة فقال : « عرنة كلها موقف ، وارْتَفِعُوا عَنْ بَطْنِ عَرْنَةَ » ، وأخبرهم أن عرفة لا تختص بموقفه الذي هو عليه بل قال : « وَقَفْتُ هَهُنَا ، وَعَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ »^(٦) .

(١) قيل : صَوَابَةٌ يَنْكُبُهَا ، ومعناه : يَقْلِبُهَا وَيَرْدُّهَا إِلَى النَّاسِ مَشِيرًا إِلَيْهِمْ . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٨٤/٨) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٥/٤ - ٢٧٧) ، وصحيح مسلم (ج ٨٨٩/٢) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ .

(٣) سنن ابن ماجه (ج ١٠١٦/٢) كتاب المناسك - باب الخطبة يوم النحر ح ٢٠٥٧ .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٧/٤) .

(٥) حَبْلُ الْمَشَاةِ : الْحَبْلُ : قِطْعَةٌ مِنَ الرَّمْلِ ضَخْمَةٌ مُتَشَدِّةٌ ، وَحَبْلُ الْمَشَاةِ : أَي طَرِيقُهُمُ الَّذِي يَسْلُكُونَهُ فِي الرَّمْلِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ صَفَّهُمْ وَمُجْتَمِعَهُمْ فِي مَشْيِهِمْ تَشْبِيهًا بِحَبْلِ الرَّمْلِ (النهاية : ج ٢٣٢/١) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٧/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٩٨/٢) كتاب الحج - باب الوقوف على الدابة بعرفة ، وصحيح مسلم (ج ٨٩٠/٢) ، ٨٩٣) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب ماجاء أن عرفة كلها موقف ح ١٤٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٨٩/٤) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١١٥/٥) ، وزاد المعاد (ج ٢٣٤/٢) .

وأرسل إلى الناس أن يكونوا على مشاعرهم ويقفوا بها ، فعن يزيد بن شيبان قال : كنا وقوفاً بعرفة مكاناً بعيداً من الموقف ، فأتانا ابن مِرْبَع الأنصاري فقال : إني رسول رسول الله ﷺ إليكم يقول : « كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ » (١) .

وهناك أقبل ناس من أهل نجد فسألوا النبي ﷺ عن الحج ، فقال : « الْحَجُّ عَرَفَةٌ ، مَنْ جَاءَ لَيْلَةَ جَمْعٍ (٢) قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ فَقَدْ أَدْرَكَ حَجَّةً » .

وكان رسول الله ﷺ في دعائه رافعاً يديه إلى صدره كاستطعام المسكين ، قال جرير رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ واقفاً بعرفة متأبطاً رداءه ، رافعاً يديه لا يجاوزان رأسه ، وعَضَلَتَاهُ تَرَعْدَانِ .

وأخبر رسول الله ﷺ الناس أن أفضل الدعاء يوم عرفة فقال : « خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . وأخبرهم أنه : « مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَإِنَّهُ لَيَدْتُوهُمْ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ : مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ ؟ » .

وذكر من دعاء النبي ﷺ يوم عرفة : « اللَّهُمَّ ! لَكَ الْحَمْدُ كَالَّذِي تَقُولُ وَخَيْرًا مِمَّا تَقُولُ ، اللَّهُمَّ ! لَكَ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي وَإِلَيْكَ مَأْيِي ، وَلَكَ رَبِّي تُرَائِي ، اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَسُوسَةِ الصَّدْرِ ، وَشَتَاتِ الْأَمْرِ ، اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا يَلِجُ فِي اللَّيْلِ وَشَرِّ مَا يَلِجُ فِي النَّهَارِ وَشَرِّ مَا تَهْبُ بِهِ الرِّيَّاحُ مِنْ شَرِّ بَوَائِقِ الدَّهْرِ » (٣) .

وعن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْثَرُ دُعَائِي وَدُعَاءِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي بِعَرَفَةَ ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . اللَّهُمَّ ! اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا ، وَفِي سَمْعِي نُورًا ، وَفِي بَصَرِي نُورًا . اللَّهُمَّ ! اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ وَسْوَاسِ الصَّدْرِ وَشَتَاتِ الْأَمْرِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ . اللَّهُمَّ ! إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا يَلِجُ فِي اللَّيْلِ وَشَرِّ مَا يَلِجُ فِي النَّهَارِ وَشَرِّ مَا تَهْبُ بِهِ الرِّيَّاحُ مِنْ شَرِّ بَوَائِقِ الدَّهْرِ » (٤) .

وكان من دعائه ﷺ أيضاً في عرفة : « اللَّهُمَّ ! إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي ، وَتَرَى مَكَانِي ، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي ، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي ، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ الْمُسْتَعِيثُ الْمُسْتَجِيرُ الْمُسْتَقْفِرُ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمَسْكِينِ ، وَأُبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالُ الْمُنْذِبِ السُّذُوبِ ، وَأُدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ ؛ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ ، وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ ، وَذَلَّ جَسَدُهُ ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ . اللَّهُمَّ ! لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ شَقِيئًا ، وَكُنْ بِي رَوْفًا رَحِيمًا ، يَا خَيْرَ الْمَسْئُولِينَ وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ » .

وروي أن رسول الله ﷺ دعا عشية عرفة لأتمته بالمغفرة والرحمة ، فأكثر الدعاء ، فأجابه الله ، عز وجل ، أن قد فعلت ، وغفرت لأمتك إلا من ظلم بعضهم بعضاً ، فقال : « يَا رَبِّ ! إِنَّكَ قَادِرٌ أَنْ تَغْفِرَ لِلظَّالِمِ وَتُثَبِّبَ الْمَظْلُومَ خَيْرًا مِنْ مَظْلَمَتِهِ » . فلما كان من الغد عاد ﷺ فدعا لأتمته غداة المزدلفة ، فلم يلبث النبي ﷺ أن تبسم ، فقال بعض أصحابه : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمِّي ضحككت في ساعة لم تكن تضحك فيها ، فما أضحكك أضحكك الله سنك ، قال : « تَبَسَّيْتُ مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيسَ حِينَ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، قَدِ اسْتَجَابَ لِي فِي أُمَّتِي وَغَفَرَ لِلظَّالِمِ أَهْوَى يَدْعُو بِالنُّبُورِ وَالْوَيْلِ وَيَحْتَسُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ، فَتَبَسَّيْتُ مِمَّا يَصْنَعُ مِنْ جَزَعِهِ » (٥) .

(١) سنن النسائي (ج ٢٥٥/٥) كتاب مناسك الحج - باب رفع اليدين في الدعاء بعرفة .

(٢) أي المزدلفة .

(٣) انظر : سنن النسائي (ج ٢٦٤/٥) كتاب مناسك الحج - فبين لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١١٧/٥) ، ومجمع الزوائد (ج ١٦٩/١٠) ، وسنن الترمذي (ج ٥٣٧/٥ ، ٥٧٢) كتاب الدعوات - باب ٨٨/ح ٣٥٢٠ ، باب في دعاء يوم عرفة ح ٣٥٨٥ ، وصحيح مسلم (ج ٩٨٣/٢) كتاب الحج - باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة ح ٤٣٦ .

(٤) السنن الكبرى للبيهقي (ج ١١٧/٥) .

(٥) انظر : مجمع الزوائد (ج ٢٥٢/٣) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٤/٤) .

وعن طلحة بن عبيد الله بن كرزب أن رسول الله ﷺ قال : « ما رُوي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ، ولا أذخر ، ولا أحقر ، ولا أعيط منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما أرى يوم بدر » ، قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : « إنه قد رأى جبريل يزغ الملائكة » (١) .

- نزول قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ :

ونزل على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٢) . فلما سمعها عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بكى ، فقال له النبي ﷺ : « ما يبكيك يا عمر ؟ » فقال : أبكاني أنا كنتا في زيادة ، أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص ، فقال : « صدقت » . فكانت هذه الآية نعي رسول الله ﷺ فإنه لم يعيش بعدها إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ولم ينزل بعدها شيء من الأحكام .

روي أن رجلاً من اليهود أتى عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! آية في كتابكم تقرؤونها لوعينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : أي آية ؟ قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ قال عمر : الحمد لله الذي جعله لنا عيداً ، قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة (٣) .

- حكمه ﷺ في الذي سقط عن راحلته :

وهناك بعرفة سقط رجل من المسلمين عن راحلته وهو محرم فوات ، فأمر رسول الله ﷺ أن يكفن في ثوبيه ، ولا يمس بطيب ، وأن يغسل بماء وسدر (٤) ، ولا يغطى رأسه ولا وجهه ، وأخبر أن الله تعالى يبعثه يوم القيامة يلبي (٥) .

إفاضة النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة (٦) :

فلما غربت الشمس واستحکم غروبها بحيث ذهبت الصفرة قليلاً وغاب القرص ، أفاض رسول الله ﷺ من عرفة إلى المزدلفة ، سالكا طريق المازمين (٧) ، وهو يلبي في مسيره ، وقد أردف أسامة بن زيد ، رضي الله عنهما ، خلفه .

وأفاض ﷺ بالسكينة وقد ضم إليه زمام ناقته ، حتى إن رأسها ليصيب طرف رحله وهو يقول : « أيها الناس ! عليكم بالسكينة ، فإن البر ليس بالإيضاع (٨) » . وجعل ﷺ يسير العنق ، وهو ضرب من السير ليس بالسرير ولا البطيء ، فإذا وجد فجوة - وهو المتسع - سار النص (٩) وهو فوق العنق ، وكلما أتى حبلًا (١٠) من الحبال أرخى للناقاة زمامها قليلاً حتى تصعد ، فلما كان في الطريق

(١) الموطأ (ص : ٢٩١) جامع الحج .

(٢) المائة : ٣ .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨١) كتاب الإيمان - باب زيادة الإيمان وتقضائه ، وكنز العمال (ج ٢٩١٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٦٧٣) .

(٤) السدر : شجر التَّبَق ، وأجودُ تَبَقٍ هَجَرَ ، وهو أشدُّ تَبَقٍ يُعْلَمُ حَلَاوَةً ، وأطيبُهُ رَائِحَةً ، يَفُوحُ فَمَ أَكْلِهِ وَثِيَابٌ مَلَابِسِهِ كَمَا يَفُوحُ الْعَطْرُ . انظر : (لسان العرب : ج ١٩٧١٣) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٢٢) أبواب العمرة - باب الحرم يموت بعرفة .

(٦) قيل : سُمِّيَتْ بذلك من التزلُّفِ والازدلاف ، لأن الناس يزدلفون ؛ أي يتقربون إلى الله تعالى بالوقوف بها ، وقيل : سُمِّيَتْ بذلك لحيء الناس إليها في زلف من الليل ؛ أي : في ساعات .. ويقال لها جَمْعٌ أيضاً لأن الناس يجتمعون فيها ، أو لأنه يُجمع فيها بين صلاتي المغرب والعشاء . انظر : (النهاية : ج ٢٦٩١) ، وشرح الزرقاني على اللواهب اللدنية (ج ١٨٤/٨) .

(٧) وهو موضع معروف بين عرفة والمشعر ، وتقدّم أنه دخل عرفة من طريق ضَبِّ ، وهكذا كانت عادته ﷺ في الأعياد أن يخالف الطريق . انظر : زاد المعاد (ج ٢٤٦/٢) .

(٨) الإيضاع : أن يُحْمَلَ بَعِيْرَةٌ عَلَى سُرْعَةِ السَّيْرِ . وقد تقدّم .

(٩) النصُّ : ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ تَرِيحٌ (النهاية : ج ٦٤/٥) .

(١٠) الحَبْلُ : التَّلُّ اللَّطِيفُ مِنَ الرَّمْلِ الضَّخْمِ . انظر : صحيح مسلم بشرح النووي (ج ١٨٧٨) .

عند الشعب نزل صلوات الله عليه وسلامه فبال وتوضاً وضوءاً خفيفاً ، فقال له أسامة : الصلاة يا رسول الله ، فقال : « الصَّلَاةُ أَمَانَتُكَ » (١) .

- جمعه ﷺ بين المغرب والعشاء في المزدلفة :

ثم سار النبي ﷺ حتى أتى المزدلفة فتوضاً فأسبغ الوضوء ، ثم أمر بالأذان ، فأذّن المؤذن ، ثم أقام ، فصلى المغرب قبل حطّ الرّحال وتبريك الجمال ، فلما حطّوا رحلهم أمر فأقيمت الصلاة ، فصلى العشاء ركعتين بإقامة بلا أذان ، ولم يصلّ بينها شيئاً ، وقد روي أنه صلاهما بأذنين وإقامتين ، وروي بإقامتين بلا أذان ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر (٢) .

- إذنه ﷺ لضعفة أهله بالتعجل إلى منى :

وأذن النبي ﷺ في تلك الليلة لضعفة أهله من النساء والصبيان أن يتقدّموا إلى منى قبل طلوع الشمس ، وكان ذلك عند غيبوبة القمر ، وأمر الصبيان أن لا يرموا الحجر حتى تطلع الشمس ، أما النساء فقد أذن لهنّ أن يرمين قبل طلوع الشمس خوفاً عليهنّ من مزاحمة الناس وحطّهم (٣) .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : نزلنا المزدلفة فاستأذنت النبي ﷺ سُودَةَ أن تدفع قبل حطّمة الناس ، وكانت امرأة بطيئة ، فأذن لها ، فدفعت قبل حطّمة الناس ، وأقننا حتى أصبحنا نحن ثم دفعنا بدفعه ، فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت سودة أحبّ إليّ من مفروح به (٤) .

- وقوف النبي ﷺ بالمشعر الحرام (٥) ثم دفعه إلى منى :

فلما كان وقت الفجر قام النبي ﷺ فصلى بالناس الصبح مغسلاً بأذان وإقامة ، وهو يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر ، وكان يوم السبت .

ثم ركب ﷺ القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، ودعا الله وكبّره وهلّله ووحّده ، ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً . وأخبر الناس حين وقف على المشعر الحرام أن المزدلفة كلها موقف فقال : « هَذَا الْمَوْقِفُ ، وَكُلُّ الْمَزْدَلِفَةِ مَوْقِفٌ ، وَإِرْتَفَعُوا عَنِ بَطْنِ مَحْسَرٍ » (٦) .

وهناك سأله عروة بن مضرّس الطّائفي فقال : جئت يا رسول الله من جبلي طيّبٍ ؛ أكلت مطيّبي ، وأتعبت نفسي ، والله

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٠٠/٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٤) كتاب الحج - باب السير إذا دفع من عرفة ، باب أمر النبي ﷺ بالسكينة عند الإفاضة ، باب الجمع بين الصلاتين بالمزدلفة ، باب التلبية والتكبير غدّة النحر ، وصحيح مسلم (ج ٨٩٠/٢) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٢٨/٥) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٠١/٢ ، ٢٠٢) كتاب الحج - باب الجمع بين الصلاتين بالمزدلفة ، باب من جمع بينها ولم يتطوع ، باب من يصلي الفجر بجمع ، وصحيح مسلم (ج ٨٩١/٢ ، ٩٣٧) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب الإفاضة من عرفات ح ٢٨٧ .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٠٢/٢) كتاب الحج - باب من قدّم ضعفة أهله بليل ، ومسنّد الإمام أحمد (ج ٣٢٠/١) ، وسنن أبي داود (ج ٤٨٠/٢) كتاب المناسك - باب التعجيل من جمع ح ١٩٤٠ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٤/٢) ، وزاد المعاد (ج ٢٥٧/٢) .

(٤) صحيح البخاري (ج ٢٠٢/٢) كتاب الحج - باب من قدّم ضعفة أهله بليل ...

(٥) هو جبل من جبال مزدلفة يُسمّى قَرْح ، سُمّي المشعر لأنه معلّم للعبادة ، والحرام لأنه من الحَرَمِ أو لِحَرَمَتِهِ . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ١٩٠/٨) .

(٦) مَحْسَرٌ : بَرْزَخٌ بَيْنَ مَنَى وَبَيْنَ مَزْدَلِفَةَ ، لَا مِنْ هِذِهِ وَلَا مِنْ هِذِهِ . وَعَرَسَةٌ : بَرْزَخٌ بَيْنَ عَرَفَةَ وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، فَبَيْنَ كُلِّ مَشْعَرَيْنِ بَرْزَخٌ لَيْسَ مِنْهَا . زاد المعاد (ج ٢٥٧/٢) .

ما تركت من جبل إلا وقفت عليه ، هل لي من حجّ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أفرخ روعك^(١) يا عروة ! من أدرك معنا هذه الصلاة وأتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً تمّ حجّه ، وقضى تفته^(٢) » .

وأمر النبي ﷺ ابن عباس ، رضي الله عنها ، غداة يوم النحر أن يلتقط له حصى الجبار ، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخدّف ، فلما وضعهن في يده قال : « بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين » .

ثم دفع رسول الله ﷺ من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس ، مخالفاً للمشركين الذين كانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس ، وأردف خلفه الفضل بن عباس ، وانطلق أسامة بن زيد على رجله في سباق قريش .

فلما دفع رسول الله ﷺ مرّت به طعن يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليه ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر ، فحوّل رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل ؛ يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسّر^(٣) .

وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس ، رضي الله عنها ، قال : أردف رسول الله ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته ، وكان الفضل رجلاً وضيقاً ، فوقف النبي ﷺ للناس يفتيمهم ، وأقبلت امرأة من شتمه وضيئة تستفتي رسول الله ﷺ فطفق الفضل ينظر إليها ، وأعجبه حسنهما ، فالتفت النبي ﷺ والفضل ينظر إليها ، فأخلف بيده^(٤) فأخذ بذقن الفضل ، فمدل وجهه عن النظر إليها ، فقالت : يا رسول الله ! إن فريضة الله في الحج على عباده أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة ، فهل يقضي عنه أن أحج عنه ؟ قال : « نعم »^(٥) .

وفي رواية للترمذي والإمام أحمد ما يدل على أن السؤال وقع عند المنحر بعد الفراغ من الرمي ، وأن العباس ، رضي الله عنه ، كان شاهداً ، وفيها أنه عليه الصلاة والسلام لوى عنق الفضل ، فقال له العباس : يا رسول الله ! لِمَ لويت عنق ابن عمك ؟ قال : « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما »^(٦) .

وفي مسيره ﷺ إلى متى أتاه رجل فسأله عن أمّه قال : يا رسول الله ! إن أمي عجوز كبيرة وإن حملتها لم تستمسك ، وإن ربطتها خشيت أن أقتلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضية ؟ » قال : نعم ، قال : « فصح عن أمك » .

وكان رسول الله ﷺ يسير سيراً ليئناً وعليه السكينة ، فلما أتى بطن محسّر حرّك ناقته قليلاً . قال ابن القيم : وهذه كانت عادته ﷺ في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه ، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل ما قصّ الله علينا ، ولذلك سمي ذلك الوادي وادي محسّر ، لأن الفيل خسّر فيه ؛ أي : أعبأ وانقطع عن الذهاب إلى مكة ، وكذلك فعل ﷺ في سلوكه الحجر ديار ثمود ؛ فإنه تقنّع بثوبه^(٧) وأسرع السير كما مرّ معنا في غزوة تبوك .

(١) أفرخ روعك : هو مثل قديم للعرب ؛ أي : ليذهب فرعك وخوفك ، فإن الأمر ليس على ما تحاذر (النهاية : ج ٤٢٥/٣) .

(٢) التفت : هو ما يفعله المعتمر بالحج إذا حلّ ، كقصّ الشارب والأطفار ، وتنفّ الإبط ، وحلق العانة (النهاية : ج ١٩١/١) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٧/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٢/٢ ، ٢٠٤) كتاب الحج - باب من يصلي الفجر بجمع ، باب متى يدفع من جمع ، وصحيح مسلم (ج ٨٩١/٢ ، ٩٣٥) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب الإفاضة من عرفات .. ح ٢٧٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٧٢/٣) و (ج ٢٦١/٤) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٦٤/٣) ، والموطأ (ص : ٢٦٨) الوقوف بعرفة والمزدلفة ، وسنن النسائي (ج ٢٨٦/٥) كتاب مناسك الحج - التقاط الحصى ، وعيون الأثر (ج ٢٧٧/٢) .

(٤) أي أذارة من خلفه . انظر : (النهاية : ج ٦٩/٢) .

(٥) صحيح البخاري (ج ٦٣/٨) كتاب الاستئذان - باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم .. ﴾ .

(٦) انظر : سنن الترمذي (ج ٢٣٢/٣) كتاب الحج - باب ما جاء أن عرفة كلها موقف ح ٨٨٥ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٧٧/١) .

(٧) أي : تقنّع به (الوسيط : ج ٧٦٨/٢) .

ولما دخل رسول الله ﷺ مُحَسَّرًا قال للناس : « عَلَيْكُمْ بِحَصَى الْخَذْفِ (١) الَّذِي يُرْمَى بِهِ الْجَمْرَةَ » ، ثم أمرهم بالسكينة وقال : « لِنَأْخُذَ أُمَّتِي مِنْسَكَهَا عَنِّي فَإِنِّي لَا أُدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاهُمْ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا » .

ثم سلك رسول الله ﷺ بهم الطريق الوسطى التي تخرجهم على الجمرة ، وكان يلي في مسيره ذلك حتى شرع في الرمي (٢) .

رمي النَّبِيِّ ﷺ جَمْرَةَ الْعُقْبَةِ يَوْمَ النَّحْرِ :

فلما أتى رسول الله ﷺ جَمْرَةَ الْعُقْبَةِ ، وَتَسَمَّى الْجَمْرَةَ الْكَبْرَى ، وَقَفَ فِي أَسْفَلِ الْوَادِي ، وَجَعَلَ الْبَيْتَ عَنْ يَسَارِهِ وَمَنْى عَنْ يَمِينِهِ ، وَاسْتَقْبَلَ الْجَمْرَةَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، وَمَعَهُ بِلَالٌ وَأَسَامَةُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَحَدُهُمَا أَخَذَ بِخَطَامِ نَاقَتِهِ ، وَالْآخَرُ يَظْلُمُهُ ثُوبٌ مِنَ الشَّمْسِ ، وَكَانَ الْوَقْتُ ضَحَىً ، فَرَمَاهَا مِنْ بَطْنِ الْوَادِي بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ ، مِثْلَ حَصَى الْخَذْفِ ، يَكْتَبِرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنْهَا وَهُوَ يَقُولُ : « لِنَأْخُذُوا مِنْسَاكِكُمْ فَإِنِّي لَا أُدْرِي لَعَلِّي لَا أَحْجُ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ » . فلما فرغ قال : « اللَّهُمَّ ! اجْعَلْهُ حَجًّا مَبْرُورًا وَذَنْبًا مَغْفُورًا » (٣) .

روي عن قَدَامَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْكَلَابِيِّ أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَمَى الْجَمْرَةَ جَمْرَةَ الْعُقْبَةِ مِنْ بَطْنِ الْوَادِي يَوْمَ النَّحْرِ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ صَهْبَاءَ ، لَا ضَرْبَ وَلَا طَرْدَ وَلَا إِلَيْكَ إِلَيْكَ (٤) .

وعن سليمان بن عمرو الأَحْوَصِ الْأُزْدِيِّ قَالَ : حَدَّثْتَنِي أُمِّي أَنَّهَا رَأَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَرْمِي جَمْرَةَ الْعُقْبَةِ مِنْ بَطْنِ الْوَادِي وَخَلْفَهُ إِنْسَانٌ يَسْتَبِرُّهُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَصِيبُوهُ بِالْحِجَارَةِ وَهُوَ يَقُولُ : « أَيُّهَا النَّاسُ ! لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَإِذَا رَمَيْتُمْ فَارْمُوا بِمِثْلِ حَصَى الْخَذْفِ » . ثم أقبل ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ بَابِنَ لَهَا ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ أَبَى هَذَا ذَاهِبِ الْعَقْلُ ، فَادْعِ اللَّهَ لَهُ ، قَالَ لَهَا : « أَتَيْتَنِي بِمَاءٍ » ، فَأَتَتْهُ بِمَاءٍ فِي تَوْرَةٍ (٥) مِنْ حِجَارَةٍ ، فَتَنَفَّلَ فِيهِ وَغَسَلَ وَجْهَهُ ، ثُمَّ دَعَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : « اذْهَبِي فَاغْسِلِي بِهِ وَاسْتَشْفِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ » ، فَقُلْتُ لَهَا : هَبِي لِي مِنْهُ قَلِيلًا لِأَبْنِي هَذَا ، فَأَخَذَتْ مِنْهُ قَلِيلًا بِأَصَابِعِي ، فَسَحَتْ بِهَا شِقَّةَ ابْنِي ، فَكَانَ مِنْ أَبْرَ النَّاسِ ، فَسَأَلْتُ الْمَرْأَةَ بَعْدَ مَا فَعَلَتْ ابْنَهَا ؟ قَالَتْ : بَرَىءَ أَحْسَنَ بَرَىءٍ (٦) . قيل : إِنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ أَوْ ابْنَهُ الْفَضْلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٧) .

خُطْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِمِنَى يَوْمَ النَّحْرِ :

ثم خطب النبي ﷺ النَّاسَ بِمِنَى حِينَ ارْتَفَعَ الضُّحَى ، وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ الْجِمَارَاتِ عَلَى نَاقَتِهِ ، وَقِيلَ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ ، وَعَلِيٌّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَعْبُرُ عَنْهُ ، وَالنَّاسُ بَيْنَ قَائِمٍ وَقَاعِدٍ ، وَأَعَادَ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ بَعْضَ مَا كَانَ أَلْقَاهُ يَوْمَ عَرَفَةَ ، وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ الْجَمْعِ الَّذِي اجْتَمَعَ حَوْلَهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَبْلِغَ مَا ذَكَرَهُ كُلِّ النَّاسِ .

وَقَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ هَذِهِ تَحْرِيمَ الزُّنَى وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ ، وَذَكَرَ حَرَمَةَ يَوْمِ النَّحْرِ وَحَرَمَةَ مَكَّةَ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ ، فَكَانَ بِمَا قَالَ : « الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ؛ ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَاتٌ

(١) أي صِغَارُ (النهاية : ج ١٦٢) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٠٤/٢) كتاب الحج - باب التلبية والتكبير غداة النحر ، وصحيح مسلم (ج ٨٩١/٢ ، ٩٢٢) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ . باب استحباب إمامة الحاج التلبية ح ٢٦٨ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٢٢/٣) ، و (ج ٢٠٨/٥) ، وسنن النسائي (ج ١١٩/٥) كتاب مناسك الحج ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٢٨/٥) ، وزاد المعاد (ج ٢٥٥/٢ - ٢٥٦) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٢١٧/٢ ، ٢١٨) كتاب الحج - باب رمي الجمار ، باب رمي الجمار من بطن الوادي ، باب رمي الجمار بسبع حصيات ، وصحيح مسلم (ج ٨٩١/٢ ، ٩٤٣) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب استحباب رمي جمرَةَ الْعُقْبَةِ يَوْمَ النَّحْرِ رَاكِبًا ح ٣١٠ وح ٣١١ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٢٩/٥) .

(٤) مسند الإمام أحمد (ج ٤١٢/٣) .

(٥) أي : إِنْءَ (النهاية : ج ١٩٩/١) .

(٦) مسند الإمام أحمد (ج ٢٧٩/٦) .

(٧) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣٠٦/٨) .

ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمِ وَرَجَبٍ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جَاهِئِ وَشَعْبَانَ ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننوا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننوا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أَلَيْسَ الْبَلَدَةُ ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننوا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَسَبِّحُوا اللَّهَ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ؛ أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَالًا - أَوْ قَالَ : كُفَّارًا - يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدَ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضٌ مَن يُبَلِّغُهُ أَن يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِن بَعْضٍ مَن سَبَّعَهُ ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ » .

وأمر النبي ﷺ الناس في خطبته بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله وإن كان عبداً أسوداً مجذوعاً^(١) ، وعلمهم مناسكهم ، وأمرهم بالتبليغ عنه^(٢) .

روي عن عبد الرحمن بن معاذ التميمي قال : خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمبى ، ففتحت أساعنا ، حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا ، فطفق يعلمهم مناسكهم حتى بلغ الجحار^(٣) ..

وعن جبير بن مطعم قال : قام رسول الله ﷺ بالحنيف من منى فقال : « نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَبَّحَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا ، قَرَّبَ حَامِلٍ فِيهِ غَيْرُ فِقِيهِ ، وَرَبَّ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ . ثَلَاثٌ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَالنَّصِيحَةُ لِوَلَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِزُومُ جِبَاعَتِهِمْ ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَحِيْطٌ مِنْ وَرَائِهِمْ »^(٤) .

وروي أنه ﷺ قال في تلك الخطبة : « أَلَا لَا يَجْنِي جَانٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَا يَجْنِي وَالِدٌ عَلَى وَالِدِهِ ، وَلَا وَلَدٌ عَلَى وَالِدِهِ » ، وقال أيضاً : « اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَصَلُّوا حَسَنًا ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ » .

وحضَّ ﷺ الناس في تلك الخطبة على الصدقة ، وودَّع حينئذ الناس^(٥) ، فقالوا : هذه حجة الوداع .

ثم أنزل ﷺ المهاجرين والأنصار منازلهم ، فقال : « لِيُنْزِلَ الْمُهَاجِرُونَ هَهُنَا » وأشار إلى مينة القبلة ، « وَالْأَنْصَارُ هَهُنَا » وأشار إلى ميسرة القبلة ، « ثُمَّ لِيُنْزِلَ النَّاسُ حَوْلَهُمْ » ، ونزل هو ﷺ على يسار مصلى الإمام بمبى .

وسئل رسول الله ﷺ أن يبني له بمبى بناء يظله من الحرِّ ، فقال : « لَا ، مِنِّي مَنَاحٌ مَن سَبَقَ » .

وهناك سئل ﷺ عن حلق قبل أن يذبح ، وعن ذبح قبل أن يرمي ، فقال : « لَا حَرَجَ » ، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : فما سئل عن شيء قَدَّمَ ولا أَخَّرَ ، إِلَّا قَالَ : « أَعْمَلُ وَلَا حَرَجَ »^(٦) .

نحر النبي ﷺ البُدن بمبى :

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المنحر بمبى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده وقال : « نَحَرْتُ هَهُنَا وَمِنِّي كُلُّهَا مَنَحَرًا ، فَأَنْحَرُوا فِي

(١) في النهاية : مَجْدَعُ الْأَطْرَافِ ؛ أَي : مَقْطَعُ الْأَعْضَاءِ (النهاية : ج ٢٤٧/١) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٢١٧/٢) كتاب الحج - باب الخطبة أيام منى ، و (ج ٢٢٤/٥) كتاب المغازي - باب حجة الوداع ، وصحيح مسلم

(ج ٩٤٤/٢) كتاب الحج - باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً ... ح ٢١١ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٥١/٥) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٤٠/٥) ، ومجمع الزوائد (ج ٤٠٢/٩) .

(٣) سنن أبي داود (ج ٤٩٠/٢) كتاب المناسك - باب ما يذكر الإمام في خطبته بمبى ح ١٩٥٧ .

(٤) سنن ابن ماجه (ج ١٠١٥/٢) كتاب المناسك - باب الخطبة يوم النحر ح ٣٠٥٦ .

(٥) أي بقوله : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ، وبقوله : « خذوا عني مناسككم ، فإني لأدري لعلكم لا تروني بعد عامي هذا » .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ٢١/١) كتاب العلم - باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها ، و (ج ٢١٧/٢) كتاب الحج - باب الخطبة أيام منى ،

ومسند الإمام أحمد (ج ٠٦١/٤) و (ج ٢٥١/٥) ، و سنن الترمذي (ج ٢٢٨/٣) كتاب الحج - باب ما جاء أن منى مناخ من سبق ح ٨٨١ ، و (ج ٢٧٢/٥) كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة التوبة ح ٣٠٨٧ ، ومجمع الزوائد (ج ١١٩/٢ ، ٢٦٩) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٢٩/٥) .

رِحَالِكُمْ ، وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ . وَكَانَتْ تَقْرَبُ إِلَيْهِ الْبَدَنُ أَرْسَالاً ، فَقَرَّبَ مِنْهُنَّ إِلَيْهِ خَمْسَ أَوْسْتٍ فَطَفِقْنَ يَزْدَلِفْنَ إِلَيْهِ بِأَيْتِهِنَّ بِيَدًا ، وَكَانَ ﷺ يَنْحَرُهَا قَائِمَةً مَعْقُولَةً يَدُهَا الْيَسْرَى ، وَكَانَ عَدَدُ هَذَا الَّذِي نَحَرَهُ عَدَدَ سِنِّي عَمْرِهِ ، ثُمَّ أَمْسَكَ وَأَمْرَ عَلِيًّا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنْ يَنْحَرَ مَا غَبَرَ^(١) ، وَهِيَ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ بَدَنَةً ، تَمَامَ الْمِائَةِ ، وَأَشْرَكَهُ ﷺ فِي هَدْيِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « أَقْسِمُ لِحَوْمِهَا وَجُلُودِهَا وَجَلَالَهَا^(٢) بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَا تُعْطَيْنَ جَزَارًا مِنْهَا شَيْئًا فِي جِزَارَتِهَا ، وَخَدُّ لَنَا مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ حَذِيَّةٌ^(٣) مِنْ لَحْمٍ ، ثُمَّ اجْعَلُهَا فِي قِدْرٍ وَاحِدٍ حَتَّى نَأْكُلَ مِنْ لَحْمِهَا وَنَحْسُوَ مِنْ مَرَقِهَا » ، ففعل^(٤) .

- ذبحه ﷺ البقر عن نسائه :

وذبح رسول الله ﷺ عن نسائه البقر ، لأنهن كنّ متمتعات وعليهن الهدى ، ويقال : إنه ذبح عنهن كلهن بقرة واحدة .

وذبح المسلمون عن أنفسهم ، فنحروا البعير عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، وذلك أن رسول الله ﷺ قال لهم عندما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة : « فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَمَنْ وَجَدَ هَدْيًا فَلْيَنْحَرْ » ، فكانوا يشتركون في الهدى^(٥) .

حلق النبي ﷺ رأسه ودعاؤه للمخلّقين :

فلما فرغ رسول الله ﷺ من نحر هديه دعا الخلاق ، فحلق رأسه الشريف ، فحلقه معمر بن عبد الله رضي الله عنه .

روي عن معمر بن عبد الله قال : كنت أرحل لرسول الله ﷺ في حجة الوداع ، قال : فقال لي ليلة من الليالي : « يَا مَعْمَرُ ! لَقَدْ وَجَدْتُ اللَّيْلَةَ فِي أَنْسَاعِي^(٦) اضْطِرَابًا » ، قال : فقلت : أما والذي بعثك بالحق لقد شدتها كما كنت أشدتها ، ولكنه أرخاها من قد كان نفيس علي^(٧) لكافي منك لتستبدل بي غيري ، قال : فقال : « أَمَا إِنِّي غَيْرُ فَاعِلٍ » . قال : فلما نحر رسول الله ﷺ هديه بني أمرني أن أحلقه ، فأخذت الموسى ، فقممت على رأسه ، قال : فنظر رسول الله ﷺ في وجهي ، وقال لي : « يَا مَعْمَرُ ! أَمْكَنَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ شَحْمَةِ أذُنِهِ وَفِي يَدِكَ الْمَوْسَى » ، قال : فقلت : أما والله يارسول الله ! إن ذلك لمن نعمة الله عليّ ومته ، قال : فقال : « أَجَلٌ ، إِذَا أَقْرَأَكَ » ، قال : ثم حلقت رسول الله ﷺ^(٨) .

وروي أنه ﷺ قال للخلاق : « خُدْ » وأشار إلى جانبه الأيمن ، فبدأ بشقه الأيمن فحلقه ، فلما فرغ منه قسم شعره بين من يليه ، وقيل : وزعه الشعرة والشعرتين بين الناس ، ثم أشار إلى الخلاق فحلق شقه الأيسر ، ثم قال : « هَهُنَا أَبُو طَلْحَةَ ؟ » فدفعه إليه ، وقيل : أعطاه لأمّ سلمة زوج أبي طلحة رضي الله عنهما^(٩) .

(١) غَبَرَ : بَقِيَ (لسان العرب : ج ٢٢٠٥/٤) .

(٢) جُلُّ الدَابَّةِ وَجَلُّهَا : الَّذِي تُلَبَّسُهُ لِتُصَانَ بِهِ (لسان العرب : ج ٦٦٤/١) .

(٣) الْحَذِيَّةُ : الْقِطْعَةُ ، وَقِيلَ : الْحَذِيَّةُ : مَا قُطِعَ مِنَ اللَّحْمِ طَوْلًا (النهاية : ج ٢٥٧/١) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٨/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢١٠/٢ ، ٢١١) كتاب الحج - باب نحر الإبل مقيدة ، باب يتصدق بجلود الهدى ، وصحيح مسلم (ج ٨٩٢/٢ ، ٨٩٣) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب ما جاء أن عرفة كلها موقف ح ١٤٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٦٠/١) و (ج ٢٣٩/٥) ، وسنن أبي داود (ج ٣٧٠/٢ ، ٣٧١) كتاب المناسك - باب في الهدى إذا عطب قبل أن يبلغ ح ١٧٦٥ وح ١٧٦٧ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٠٩/٢) كتاب الحج - باب ذبح الرجل البقر عن نسائه ... ، وصحيح مسلم (ج ٩٥٥/٢) كتاب الحج - باب الاشتراك في الهدى .. ح ٣٥٢ ، والمستدرک (ج ٤٦٧/١ ، ٤٧٤) .

(٦) النَّسْعَةُ : سِتْرٌ مَضْفُورٌ يُجْعَلُ زِمَامًا لِلْبَعِيرِ وَغَيْرِهِ ، وَالْجَمْعُ : نَسَعٌ وَأَنْسَاعٌ (النهاية : ج ٤٨/٥) .

(٧) نَفِيسٌ عَلَيْهِ بِالشَّيْءِ : ضَنٌّْ بِهِ وَلَمْ يَزَرَ يَسْتَأْهِلُهُ (لسان العرب : ج ٤٥٠٣/٦) .

(٨) مسند الإمام أحمد (ج ٤٠٠/٦) .

(٩) انظر : صحيح مسلم (ج ٩٤٧/٢) كتاب الحج - باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يحلق .. ح ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

وفي صحيح البخاري عن أنس ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره (١) .
وعنه أيضاً قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه ، وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل (٢) .
وعنه أيضاً قال : لما حلق رسول الله ﷺ رأسه بمى أخذ شِقَّ رأسه الأيمن بيده ، فلما فرغ ناولني فقال : « يا أنس ! انطلق بهذا إلى أمِّ سَكَيْمٍ » ، فلما رأى الناس ما خصَّها به من ذلك تنافسوا في الشَّقِّ الآخر ، هذا يأخذ الشيء وهذا يأخذ الشيء . قال محمد : فحدثته عبدة الساماني فقال : لأن يكون عندي منه شعرة أحب إليّ من كل صفراء وبيضاء أصبحت على وجه الأرض وفي بطنها (٣) .
ثم أخذ رسول الله ﷺ من شاربه وعارضيه (٤) ، وقلم أظفاره (٥) ، روي عن عبد الله بن زيد أنه شهد النبي ﷺ عند المنحر هو ورجل من الأنصار ، فقسم رسول الله ﷺ ضحايها فلم يصبه ولا صاحبه شيء ، وحلق رأسه في ثوبه فأعطاه وقسم منه على رجال ، وقلم أظفاره فأعطاه صاحبه (٦) .
وحلق أناس من أصحابه ﷺ وقصر بعضهم ، فدعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً ، ولم تقصرين مرة (٧) .

تطيب النبي ﷺ وإفاضته إلى البيت :

ثم لبس رسول الله ﷺ القميص وأصاب الطيب ، وطيبته عائشة ، رضي الله عنها ، بطيب فيه مسك ، قبل أن يطوف طواف الإفاضة .
ثم ركب النبي ﷺ فأفاض إلى مكة قبل الظهر ، فطاف طواف الإفاضة على راحلته كي يراه الناس ، وليشرف ، وليسألوه ، فإن الناس غشوه ، يستلم الركن بحجته ، كلما أتى عليه أشار إليه به وكبر (٨) .

- شربه ﷺ من زمزم :

ثم أتى النبي ﷺ زمزم وبنو عبد المطلب يسقون (٩) ، فقال : « انزعوا بني عبد المطلب ! فلو أن يغلبكم الناس على سقائيتكم لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ » ، ثم ناولوه دلواً فشرب منه ، ثم مَجَّ فيه ، ثم أفرغه في زمزم . وقيل : إنه ﷺ نزع الدلو بنفسه لم يعنه على نزعها أحد .
وروي أنه ﷺ شرب من نبيذ (١٠) السقاية أولاً ، ثم شرب من زمزم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : قدم النبي ﷺ على راحلته

- (١) صحيح البخاري (ج ٥٤/١) كتاب الوضوء - باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان .
- (٢) صحيح مسلم (ج ١٨١٢/٤) كتاب الفضائل - باب قرب النبي عليه السلام من الناس .. ح ٧٥ .
- (٣) مسند الإمام أحمد (ج ٢٥٦/٣) .
- (٤) غارياً الإنسان : صَفَحْتَا حَدِيثِهِ . وقد تقدّم .
- (٥) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٧٤/٢) .
- (٦) مسند الإمام أحمد (ج ٤٢/٤) .
- (٧) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٢٥/٥) كتاب المغازي - باب حجة الوداع ، وصحيح مسلم (ج ٩٤٦/٢) كتاب الحج - باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير ح ٢٢١ .
- (٨) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨٥/٢ ، ١٨٦ ، ٢٢٠) كتاب الحج - باب التكبير عند الركن ، باب الطيب بعد رمي الجمار والحلق قبل الإفاضة ، وصحيح مسلم (ج ٨٤٩/٢ ، ٨٩٢ ، ٩٢٦) كتاب الحج - باب الطيب للمحرم ح ٤٦ ، باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب جواز الطواف على بعير وغيره .. ح ٢٥٤ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٤/٢) .
- (٩) أي يُفَرِّغُونَ بالدلاء ويصُبُونَهُ في الحياض ويسكَبُونَهُ للناس .
- (١٠) النَّبِيذُ : ما نَبَيْدَ مِنْ عَصِيرٍ أَوْ نَحْوِهِ ؛ أي : طَرِحَ ، وهو ما لم يُسَكَّرْ ، فإذا أُسَكَّرَ حَرَّمَ (لسان العرب : ج ٤٢٢٢/٦) .

وخلفه أسامة ، فاستسقى فأتيناه إناء من نبيذ فشرب ، وسقى فضله أسامة ، وقال : « أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ كَذَا فاصْنَعُوا » ، ثم أتى زمزم فشرب منها^(١) .

إقامة النبي ﷺ بمنى :

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى منى من يومه ذلك ، فصلى الظهر بها ركعتين ، وقيل : صلاها بمكة ، ومكث ﷺ بمنى أيام التشريق الثلاثة ولياليها يؤذي الناسك ، ويعلم الشرائع ، ويذكر الله تعالى ، ويكبر في ذب كل صلاة . قال جابر بن عبد الله رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح من غداة عرفة يقبل على أصحابه فيقول : « على مكانكم » ، ويقول : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الله أكبر ، والله الحمد » فيكبر من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق^(٢) .

وأمر رسول الله ﷺ شخصاً أن ينادي في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمناً ، وأيام منى أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل . وكان ﷺ يأتي الجمار في أيام التشريق الثلاثة ، بعد زوال الشمس ، ماشياً ذاهباً وراجعاً ، فيرمي كل جمرة بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، ويقف عند الأولى والثانية فيطيل القيام ويتضرع ، ويرمي الثالثة ولا يقف عندها ، ثم يرجع فيصلّي الظهر ركعتين ، لأنه كان يقصر الصلاة بمنى .

ويذكر أنه ﷺ كان يزور البيت كل ليلة أيام منى ، وقيل : بل الصحيح أنه لم يرجع إلى مكة بعد أن طاف للإفاضة وبقي في منى إلى حين الوداع .

واستأذن النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، أن يبني بمكة ليالي منى من أجل سقايته ، فأذن له . واستأذنه رعاء الإبل في البيوتة خارج منى عند الإبل ، فأرخص لهم أن يرموا يوم النحر ، ثم يجمعوا رمي يومين بعد يوم النحر يرمونه في أحدها ، ثم يرموا يوم النفر^(٣) .

خطبة النبي ﷺ في أوسط أيام التشريق^(٤) :

وخطب النبي ﷺ الناس بمنى خطبتين : خطبة يوم النحر وقد تفتتت ، والخطبة الثانية في أوسط أيام التشريق . وكانت خطبته في هذا اليوم تشبه خطبته يوم النحر^(٥) . وزاد فيها بعض الأمور ، من ذلك ما روي عن أبي نضرة قال : حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق ، فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَأَفْضَلُ لِعَرَبِيٍّ عَلَى

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١٩١/٢) كتاب الحج - باب سقاية الحاج ، وصحيح مسلم (ج ٨٩٢/٢ ، ٩٥٢) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب وجوب المبيت بمنى ليالي أيام التشريق .. ح ٣٤٧ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٣٧٢/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٨٢/٢) .

(٢) انظر : صحيح مسلم (ج ٨٩٢/٢ ، ٩٥٠) كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ ح ١٤٧ ، باب استحباب طواف الإفاضة يوم النحر ح ٣٣٥ ، وسنن الدارقطني (ج ٥٠/٢) ، وجمع الزوائد (ج ٢٦٤/٣) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ١٩١/٢ ، ١٩٧ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩) كتاب الحج - باب سقاية الحاج ، باب الصلاة بمنى ، باب الزيارة يوم النحر ، باب رمي الجمار ، باب الدعاء عند الجمرتين ، وصحيح مسلم (ج ٨٠٠/٢) كتاب الصيام - باب تحريم صوم أيام التشريق ح ١٤٥ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٥١٣/٢) و (ج ٤٥٠/٥) ، والمستدرک (ج ٤٧٧/١) ، وسنن أبي داود (ج ٤٩٥/٢) كتاب المناسك - باب رمي الجمار ح ١٩٦٩ ، وسنن ابن ماجه (ج ١٠١٤/٢) كتاب المناسك - باب رمي الجمار أيام التشريق ح ٣٠٥٤ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٤٦/٥) ، وزاد المعاد (ج ٢١٠/٢ - ٢١١) .

(٤) قيل : هو ثاني يوم النحر ، وهو أوسطها أي خيارها ، وقيل : هو ثاني أيام التشريق ، ويقال له يوم النفر الأول لجواز النفر فيه . انظر : زاد المعاد (ج ٢٨٨/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٦٩/٣) .

(٥) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٧٢/٥) ، وسنن أبي داود (ج ٤٨٨/٢) كتاب المناسك - باب أي يوم يخطب بمنى ح ١٩٥٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٥١/٥) .

أَعَجِمِي وَلَا لِعَجَمِي عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدًا عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، أَبْلَغْتُ ؟ » قالوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (١) .

وعن كعب بن عاصم الأشعري قال : سمعت رسول الله ﷺ يخُطب في حجة الوداع في أوْسط أيام التشريق يقول : « هَذَا الْيَوْمَ حَرَامٌ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « فَإِنَّ حُرْمَتَكُمْ بَيْنَكُمْ كَحُرْمَتِهِ ، أَنْتُمْ مَنِ الْمُسْلِمِ ؟ الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، أَنْتُمْ مَنِ الْمُؤْمِنِ ؟ الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، أَنْتُمْ مَنِ الْمُهَاجِرِ ؟ الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَاتِ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَالْمُؤْمِنُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ هَذَا الْيَوْمِ ؛ لَحْمُهُ عَلَيْهِ حَرَامٌ أَنْ يَأْكُلَهُ بِالْغَيْبِ وَيَغْتَابَهُ ، وَعِرْضُهُ عَلَيْهِ حَرَامٌ أَنْ يَخْرِقَهُ ، وَوَجْهُهُ عَلَيْهِ حَرَامٌ أَنْ يُلْطِمَهُ ، وَأَذَاهُ عَلَيْهِ حَرَامٌ أَنْ يُوْذِيَهُ ، وَعَلَيْهِ حَرَامٌ أَنْ يَدْفَعَهُ دَفْعًا يَتَعَنَّعُهُ (٢) » (٣) .

وقيل : وقعت هذه الخطبة ؛ أي خطبته أوْسط أيام التشريق ، عقب نزول سورة النصر عليه ، فعن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : أنزلت هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٤) على رسول الله ﷺ في وْسط أيام التشريق ، وعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته الفُصْواءَ فَرَحِلَتْ له ، فركب ، فوقف بالعقبة ، واجتمع الناس ، فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! » فذكر الحديث في خطبته (٥) .

إِفاضة النبي ﷺ من مِئِيٍّ ونزوله الْمُحْصَبِ :

ثم نهض النبي ﷺ من مِئِيٍّ في آخر يوم من أيام التشريق ، وهو يوم النَّفْرِ الآخر ، ونفر معه المسلمون ، بعد الزوال ، فأفاض إلى الْمُحْصَبِ ، وهو الأْبْطَحُ ، وهو خَيْفُ بني كِنَانَةَ ، فوجد أبا رَافِعٍ - وكان على ثِقَلِهِ (٦) - قد ضرب له فيه قَبَّةً ، فنزل هناك . وقد كان النبي ﷺ قال وهو بمنى : « نَحْنُ نَازِلُونَ غَدًا بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاتَمُوا عَلَى الْكُفْرِ » وهو المكان الذي ضرب فيه أبو رافع قَبَّتَهُ توفيقاً من الله ، عز وجل ، دون أن يأمره به رسول الله ﷺ .

فأقام ﷺ بِالْمُحْصَبِ بقية يومه ذلك وليلته ، فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم رقد رقدته هناك (٧) .

اعتار عائشة رضي الله عنها من التَّعْنِيمِ :

وفي تلك الليلة ، ليلة الحُصْبَةِ ، رَغِبَتْ عائشة ، رضي الله عنها ، إلى النبي ﷺ أن يُعْمِرَها عُمْرَةً مفردة ، فقالت له : يا رسول الله ! يرجع الناس بعمره وحجة ، وأرجع أنا بحجة ، أو قالت : يا رسول الله ! أيرجع الناس بأجرين وأرجع بأجر ؟ وفي رواية : قالت : يا رسول الله ! أعمرت نساءك وتركتني ! فقال لها : « يَسَعُكَ طَوْافُكَ لِحَجِّكَ وَعُمْرَتِكَ » فأبت ، فدعا ﷺ أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر ، رضي الله عنها ، وأمره أن يُعْمِرَها من التَّعْنِيمِ ، تطيباً لقلبها ، وقد كان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً إذا هَوِيَ الشيء تابعها عليه ، فخرجت مع أخيها ، فأهلَّت بعمره من التَّعْنِيمِ ، ففرغت من عمرتها ليلاً ، ثم أقبلت مع أخيها حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في جوف الليل وهو بِالْمُحْصَبِ ، فقال : « هَلْ قَرَعْتُمَا ؟ » قالت : نعم ، فأذن في الناس بالرحيل (٨) .

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٤١١/٥) .

(٢) أي يُصَيِّبُهُ أَدَى يُقْلِقُهُ وَيُرْجِعُهُ (النهاية : ج ١٩٠/١) .

(٣) رواه الهيثمي في جمع الزوائد (ج ٢٧٢/٣) وقال : رواه الطبراني في الكبير وفيه كرامة بنت الحسين ولم أجد من ذكرها .

(٤) النصر : ١ .

(٥) السنن الكبرى للبيهقي (ج ١٥٢/٥) .

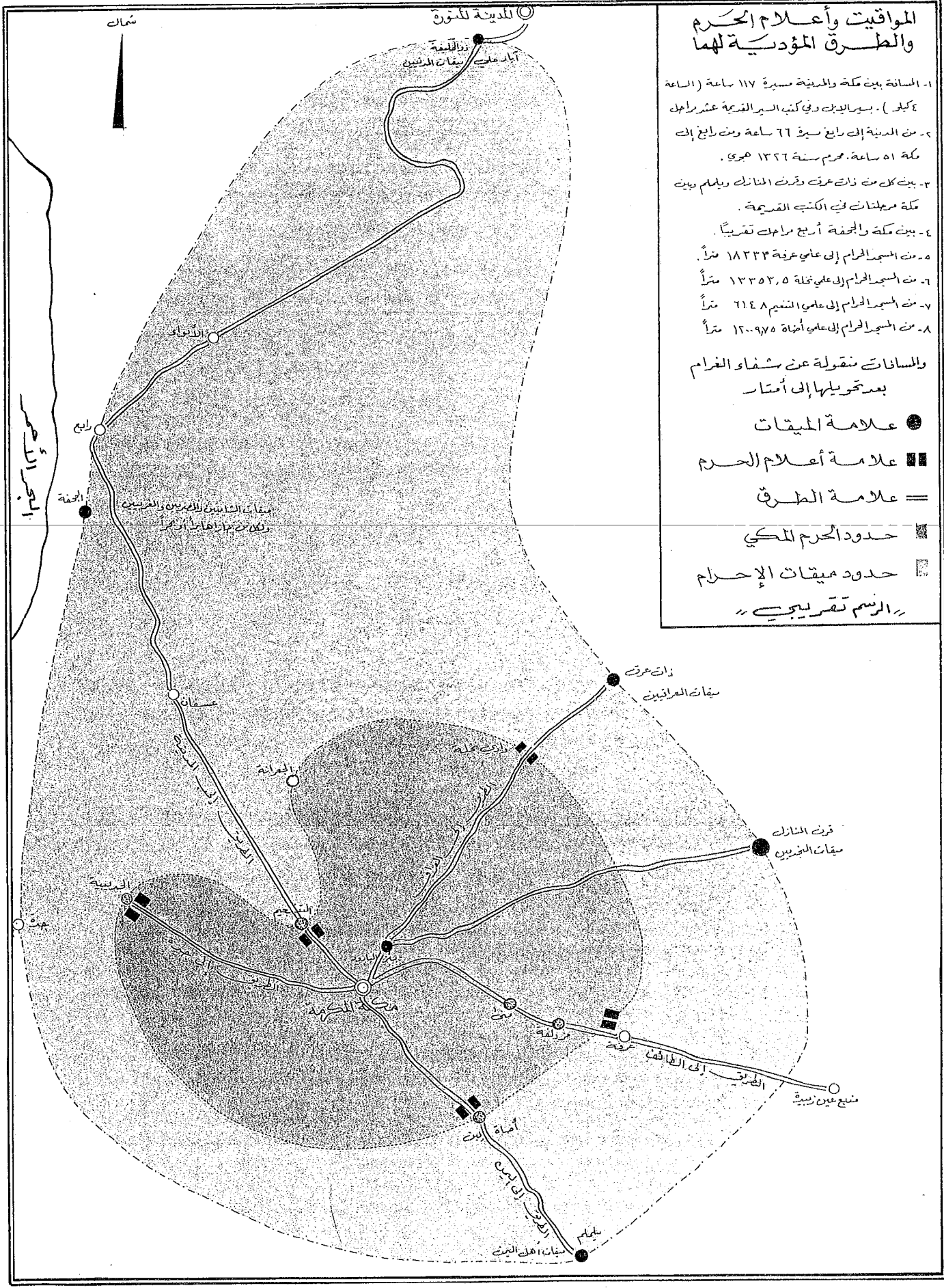
(٦) الثَّقَلُ : مَتَاعُ الْمُسَافِرِ . وقد تقدم .

(٧) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨١/٢ ، ٢٢٠) كتاب الحج - باب نزول النبي ﷺ مكة ، باب المحصب ، وصحيح مسلم (ج ٩٥٢/٢) كتاب الحج - باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر والصلاة به ح ٣٤٢ ، وسنن أبي داود (ج ٥١٢/٢) كتاب للناسك - باب طواف الوداع / ح ٢٠٠٦ ، وطبقات ابن سعد (ج ١٧٤/٢) ، وعيون الأثر (ج ٢٧٩/٢) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٢/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٧٤/٢) كتاب الحج - باب التمتع والإقراء والإفراد بالحج ، و (ج ٦٧٣) أبواب العمرة - باب المعتبر إذا طاف طواف العمرة ، وصحيح مسلم (ج ٨٧٩/٢ ، ٨٨٠) كتاب الحج - باب بيان وجوه الإحرام ح ١٢٢ وح ١٣٤ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٧٨/٦) .

المواقف وأعلام الحرم والطرق المؤدية لهما

- ١- المسافة بين مكة والمدينة مسيرة ١١٧ ساعة (الساعة ٤ كيل). - بمرابيك وفي كتب السير القديمة عشر راوول
 - ٢- من المدينة إلى رابع سب ٦٦ ساعة ومن رابع إلى مكة ٥١ ساعة. محرم سنة ١٣٢٦ هـ.
 - ٣- بيت كان من ذات عرفت فزنت المنازك ويلام بيت مكة مرطلبات في الكتب القديمة.
 - ٤- بين مكة والجحفة أربع مرامل تقريباً.
 - ٥- من المسجد الحرام إلى عامي عرفة ١٨٢٢٣ متراً.
 - ٦- من المسجد الحرام إلى عامي مكة ١٢٣٥٢,٥ متراً.
 - ٧- من المسجد الحرام إلى عامي النعم ٦١٤٨ متراً.
 - ٨- من المسجد الحرام إلى عامي أضاة ١٢٠٩٧٥ متراً.
- والمسافات منقولة عن سفاه الغرام بعد تحويلها إلى أمتار
- علامة الميقات
 - علامة أعلام الحرم
 - = علامة الطرق
 - حدود الحرم المكي
 - حدود ميقات الإحرام
 - « الرسم تقريبي »



طواف الوداع :

وأمر النبي ﷺ الناس أن لا ينصرفوا إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان الناس ينصرفون في كل وجه ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرَ عَهْدِهِ بِالْبَيْتِ » . ثم دخل النبي ﷺ مكة في تلك الليلة - ليلة الحصة - فطاف بالبيت طواف الوداع سحراً قبل صلاة الصبح ، ولم يَزْمَلْ في هذا الطواف .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من طوافه وقف في الملتزم بين ركن الحجر وبين باب الكعبة فدعا الله تعالى^(١) ، فعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : طُفَّتْ مع عبد الله بن عمرو ، فلما فرغنا من السبع ركعنا في ذُبر الكعبة ، فقلت : ألا تتعوذ بالله من النار ؟ قال : أعوذ بالله من النار ، قال : ثم مضى فاستلم الركن ، ثم قام بين الحجر والباب ، فألصق صدره ويديه وخطه إليه ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل^(٢) .

ورخص النبي ﷺ في ترك طواف الوداع للحائض كصفيه أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، فإنها حاضت ليلة النفر من منى ، فأخبر رسول الله ﷺ فقال : « أَحَابِسْتَنَا هِيَ ؟ » فقالوا له : إنها قد أفاضت يوم النحر ، قال : « فَلْتَنْفِرْ إِذَا »^(٣) .

ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج ، شكت إليه أم سلمة ، رضي الله عنها ، أنها لم تطف ، فقال لها النبي ﷺ : « إِذَا أُقِيمَتْ صَلَاةُ الصُّبْحِ فَطُوفِي عَلَى بَعِيرِكَ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ » ، قالت أم سلمة : فطُفْتُ من وراء الناس ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

ثم خرج رسول الله ﷺ من المسجد من باب الخَزْوَرَةَ ، مرتحلاً إلى المدينة ، وقد استصحب معه شيئاً من ماء زمزم^(٤) .
- واختلف في دخول النبي ﷺ البيت في حجته ، فرجح البعض أنه لم يدخله في حجته ولا في عمرته ، وإنما دخله يوم فتح مكة ، كما جاء مصرحاً بذلك في الصحيحين ، وقد تقدّم ذكر ذلك^(٥) .

وذهب البعض الآخر أنه دخله في الحج ، لما روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ خرج من عندها وهو مسرور ، ثم رجع إلي وهو كئيب ، فقال : « إِنِّي دَخَلْتُ الْكَعْبَةَ ؛ لَوِاسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبُرْتُ مَا دَخَلْتُهَا ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ قَدْ شَقَقْتُ عَلَى أُمَّتِي »^(٦) - وفي رواية أخرى عنها أنه قال : « فَعَلْتُ الْيَوْمَ أَمْرًا لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ فَعَلْتُهُ ! دَخَلْتُ الْبَيْتَ ، وَلَمَلَّ الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِي لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَهُ فَيَنْصَرِفَ فِي نَفْسِهِ حَزَازَةً ، وَإِنَّا أَمْرُنَا بِالطَّوْافِ بِهِ وَلَمْ نُؤْمَرْ بِالْدُخُولِ »^(٧) . لكن ليس في هاتين الروايتين أن دخوله كان في حجته فالله أعلم .

- (١) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٢٠/٢) كتاب الحج - باب طواف الوداع ، وصحيح مسلم (ج ٨٧٥/٢ ، ١٦٣) كتاب الحج - باب بيان وجوه الإحرام .. ح ١٢٣ ، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض ح ٣٧٩ ، وعيون الأثر (ج ٢٨٠/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٧٤/٣) .
- (٢) سنن ابن ماجه (ج ٩٨٧/٢) كتاب المناسك - باب الملتزم ح ٢٩٦٢ . والحديث ذكره ابن القيم في زاد المعاد (ج ٢٩٨/٢) وقال : فهنا يجهل أن يكون في وقت الوداع ، وأن يكون في غيره ، ولكن قال مجاهد والشافعي بعده وغيرهما : إنه يستحب أن يقف في الملتزم بعد طواف الوداع ويدعو ، وكان ابن عباس ، رضي الله عنه ، يلتزم ما بين الركن والباب ، وكان يقول : لا يلتزم ما بينهما أحد يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه .
- (٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٢١٤/٢ ، ٢٢٠) كتاب الحج - باب الزيارة يوم النحر ، باب طواف الوداع ، وعيون الأثر (ج ٢٧٧/٢) .
- (٤) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨٩/٢) كتاب الحج - باب من صلى ركعتي الطواف خارجاً من المسجد ، و (ج ١٧٥/٦) كتاب التفسير - سورة والطور ، وسنن الترمذي (ج ٢٩٥/٣) كتاب الحج - باب ١١٥/ح ٩٦٣ ، ومجمع الزوائد (ج ٢٣٨/٣ ، ٢٨٧) .
- (٥) راجع غزوة الفتح ، وانظر حول هذا الخلاف : زاد المعاد (ج ٢٩٦/٢ - ٢٩٧) ، وفتح الباري (ج ٤٦٦/٣) .
- (٦) سنن أبي داود (ج ٥٢٦/٢) كتاب المناسك - باب في دخول الكعبة ح ٢٠٢٩ .
- (٧) طبقات ابن سعد (ج ١٧٩/٢) .

ارتحال النبي ﷺ إلى المدينة :

خرج رسول الله ﷺ من مكة من الثانية السفلى ثنية كدى ، وكانت مدة إقامته بها عشرة أيام ، فلما وصل إلى غدير خم ، موضع بين مكة والمدينة بالقرب من الجحفة (١) ، نزل فخطب الناس ، فوعظهم وذكرهم ، فكان مما قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أَمَا بَعْدُ ؛ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّا أَنَا بَشَرٌ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَنَّ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبْ ، وَإِنِّي مَسْئُولٌ وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ ، فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وجهت ونصحت ، فجزاك الله خيراً ، قال : « أَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ جَنَّةَ حَقٍّ وَنَارَهُ حَقٌّ ، وَأَنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ ، وَأَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ؟ » قالوا : بلى نشهد بذلك ، قال : « اللَّهُمَّ ! اشْهَدْ » .

ثم حثهم رسول الله ﷺ في خطبته على التسك بكتاب الله ورغب فيه ، وأوصى بأهل بيته ، فقال : « أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ (٢) : أَحَدَهُمَا كِتَابُ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ (٣) مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ » - وفي لفظ : « وَأُولَئِكَ كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ ، فَخَذُّوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ . وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي » .

وفي رواية أنه قال : « إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ ؛ أَحَدَهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخِرِ : كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَعِترَتِي ، فَاَنْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُقُونِي فِيهَا ، فَإِنَّهَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ » .

ثم بين النبي ﷺ فضل علي ، كرم الله وجهه ، فأخذ بيده ، فقال : « أَلَسْتُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِهِمْ ؟ » قالوا : بلى ، قال : « أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فَهَذَا وَلِيُّ مَنْ أَنَا مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ ! وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، اللَّهُمَّ ! عَادِ مَنْ عَادَاهُ ، وَأَنْصُرْ مَنْ أَنْصَرَهُ ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ » (٤) .

ولما أتى رسول الله ﷺ ذا الحليفة بات بها ، لأنه ﷺ ، كان يكره أن يطرق الناس أهاليهم ليلاً على غير أهبة ، فلما أصبح ورأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، آيُّونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ ، صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَرَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » .

ثم دخل ﷺ المدينة نهراً من طريق المَعْرَس ، فأتى مسجده ، فركع فيه ركعتين ، ثم انصرف إلى بيته .

ويقال إنه خطب الناس لما قدم من حجته فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَسُوْفِي قَطُّ ، فَاغْرِفُوا ذَلِكَ لَهُ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنِّي عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَاضٍ ، فَاغْرِفُوا ذَلِكَ لَهُمْ . أَيُّهَا النَّاسُ ! أَحْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَأَصْهَارِي وَأَخْتَانِي (٥) لَا يَطْلُبَنَّكُمْ اللَّهُ بِمَظْلَمَةٍ مِنْهُمْ . أَيُّهَا النَّاسُ ! ارْزُقُوا أَسِنَّتَكُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِذَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَقُولُوا فِيهِ خَيْرًا » .

(١) وقيل : هو موضع بالجحفة . انظر : (معجم البلدان : ج ٤٦٥/٣) .

(٢) يقال لِكُلِّ خَطِيرٍ نَفِيسٍ ثَقْلٌ ، وسُمِّيَ هُنَا كِتَابُ اللَّهِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ ثَقَلَيْنِ ، لِأَنَّ الْأَخْذَ بِهِمَا وَالْعَمَلَ بِهِمَا ثَقِيلٌ ، فَسَمَّاهَا ثَقَلَيْنِ إِعْظَامًا لِقَدْرِهِمَا وَتَفْخِيحًا لِشَأْنِهِمَا . انظر : (النهاية : ج ٢١٦/١) .

(٣) أي : نُورٌ هُدَاةٌ . وقيل : عَهْدَةٌ وَأَمَانَةٌ الَّذِي يُؤْمِنُ مِنَ الْعَذَابِ (النهاية : ج ٢٢٢/١) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ١٥٢/٢) أبواب التقصير - باب ما جاء في التقصير ، و (ج ١٧٨/٢) كتاب الحج - باب أين يخرج من مكة ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٤٨/٣) ، وصحيح مسلم (ج ١٨٧٢/٤ ، ١٨٧٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ج ٣٦ وح ٢٧ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١١٩/١) ، والمستدرک (ج ١٠٩/٣ ، ٥٣٢) ، وسنن ابن ماجه (ج ٤٢/١) المقدمة - فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ج ١١٦ ، وجمع الزوائد (ج ١٦٤/٩) .

(٥) خَتَنَ الرَّجُلُ : الْمَتَزَوَّجُ بِابْنَتِهِ أَوْ بِأَخْتِهِ ، وَكُلٌّ مَنْ كَانَ مِنْ قِبَلِ الْمَرْأَةِ مِثْلُ الْأَبِ وَالْأَخِ (لسان العرب : ج ١١٠٢/٢) .

وقال رسول الله ﷺ للناس : « عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ كَحَجَّةٍ ، أَوْ كَحَجَّةٍ مَعِي » وذلك تطيباً لخواطر من تخلف ، فقد أصاب الناس بالمدينة عند خروجه ﷺ للحج جَدْرِيٍّ أَوْ حَصْبَةٍ مَنَعَتْ كَثِيراً مِنْهُمْ مِنَ الْحَجِّ مَعَهُ ﷺ (١) .

☆ ☆ ☆

تنبؤ مسيئمة والأسود العنسي الكذابين :

تقدم أن مسيئمة بن حبيب قدم المدينة في السنة التاسعة في وفد قومه بني حنيفة ، وأنه سأل رسول الله ﷺ أن يجعل له الأمر بعده حتى يتبعه ، فأبى ﷺ ، فلما رجع الوفد إلى اليمامة بقي مسيئمة يفكر في أمره حتى ادعى أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ فادعى النبوة وقال للوفد الذين كانوا معه : ألم يقل لكم حين ذكرتوني له : أما إنه ليس بشركم مكاناً (٢) ، ماذا إلا ما كان يعلم أنه قد أشركت في الأمر معه .

وشهد له الرجال بن عنقوة أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر معه ، فافتتن الناس به . وكان الرجال واسمه نهار قد وفد مع قومه على النبي ﷺ فأسلم ، وقرأ سوراً من القرآن ، وفقه في الدين ، فراه ﷺ يوماً مع قرات بن حيان وأبي هريرة ، رضي الله عنهما ، فقال : « ضُرْسُ أَحَدِكُمْ فِي النَّارِ مِثْلُ أَحَدٍ » ، فما زالوا خائفين حتى ارتد الرجال ، وأمن بمسيئمة وشهد زوراً له أن النبي ﷺ قد أشركه معه في النبوة . فكان الرجال أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيئمة الكذاب ؛ فإنه صدقوه واستجابوا له .

وكان رسول الله ﷺ قد أرى قبل ذلك في المنام أنه وضع في يديه سواران من ذهب ، فكبراً عليه ، وأهماً ، فأذن له فنفضها فطارا ، فأولها كذابين يخرجان . فلما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع في أواخر ذي الحجة من سنة عشر خرج الأسود العنسي بالين ومسيئمة الكذاب باليمامة يدعيان النبوة ، فتحقق ماتأوله رسول الله ﷺ كما أشرنا إلى ذلك في وفد بني حنيفة .

وجعل مسيئمة الكذاب يسجع الأساجيع ، وينظم من كلام الكهان والمنجمين مضاهاة للقرآن ، فن ذلك قوله : لقد أنعم الله على الحبلي ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى . وقوله : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجنأ ، والخابزات خبزأ ، والثاردات ثردأ ، واللاقيات لقيأ ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتكم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمُعْتَرَّ (٣) فأووه ، والباغي فناوئوه . وسجع عدو الله على سورة ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، فقال : إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لرئك وهاجر ، إن مبعضك رجل فاجر (٤) .

ثم وضع مسيئمة عن قومه الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنى ترغيباً لهم في أتباعه ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي ، فافتتن به قومه ، وصادف ذلك هوى في أنفسهم فتبعوه وأصفقوا معه (٥) .

وسمى مسيئمة نفسه رحمان اليمامة ، غير أن رسول الله ﷺ سماه مسيئمة الكذاب ، واشتهر بهذا الاسم حتى لا يكاد يعرف بغيره .

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٦/٢) كتاب الحج - باب خروج النبي ﷺ على طريق الشجرة ، و (ج ٤/٣ ، ٨) أبواب العمرة - باب عمرة في رمضان ، باب ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو ، وسنن أبي داود (ج ٢٢١/٣) كتاب الجهاد - باب في الصلاة عند القدوم من السفر ح ٢٧٨٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٧٤/٦) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٨٠/٣) ، و (ج ١٥٧/٩) ، وعيون الأثر (ج ٢٨٠/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٧٧ ، ٢٥٧/٣) .

(٢) راجع وفد بني حنيفة ، فقد ذكرنا هناك أنه ﷺ قال لهم ذلك تأليفاً له رجاء أن يسلم .

(٣) الْمُعْتَرَّ : الْفَقِيرُ ، وَقِيلَ : الْمُتَعَرِّضُ لِلْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْأَلَ (لسان العرب : ج ٢٨٧٤/٤) .

(٤) قال الإمام أحمد زيني دحلان : ظن اللعين الخذول أن الجواهر تعادل الكوثر ، فجهل اللغة مع أن الكوثر الخير الكثير ، فليت شعري ما الذي جاء به ؟ فإنه أخذ لفظ القرآن وحرف الكلم عن مواضعه وأبدل شأنك بمبعضك ، ولكونه هو الفاجر أرق الفجور في لسانه ، وصرف عن الإتيان بمثله ، ولم يعرف الخذول أنه محروم عن الوصول إلى المطلوب ، فما أبقح هذا التسجيع الركيك الذي لا يساوي أقل كلام من كلام الفصحاء ، فضلاً عن كلام رب العالمين . السيرة الدحلانية على هامش السيرة الحلبية (ج ٢٢/٣) .

(٥) أي : اجتمعوا إليه (النهاية : ج ٢٩/٣) .

روي أنه لما أكثر الناس في شأن مسيئة قام رسول الله ﷺ فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أَمَا بَعْدُ ؛ فَقَدْ أَكْثَرْتُمْ فِي شَأْنِ هَذَا الرَّجُلِ ، وَإِنَّهُ كَذَّابٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كَذَّابًا يُخْرَجُونَ قَبْلَ الدَّجَالِ ، كُلُّهُمْ يَدْعِي النُّبُوَّةَ » . وفي لفظ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخْرَجَ ثَلَاثُونَ دَجَالًا كُلُّهُمْ يَدْعِي النُّبُوَّةَ » .

وكان مسيئة صاحب نيروجات^(١) ، يقال : إنه أول من أدخل البيضة في القارورة^(٢) ، وأول من وصل جناح الطائر المقصوص ، ويقال : إنه لما بلغه أن النبي ﷺ مسح رأس صبي كان ألم به داء فشفي في الوقت ، ومج في عين بئر فكثر ماؤها ، وتفل في عين علي ، رضي الله عنه ، وكان أرمداً فبرأ ، لما بلغه ذلك مسح رأس صبي فشرع قرعاً فاحشاً ، وتفل في بئر ففسار ماؤها ، وفي عين بصير فعمي ، ومسح بيده ضرع شاة حلوب فارتفع درها وبيس ضرعها ، ودعا لرجل في ابنين له بالبركة ، فرجع إلى منزله فوجد أحدهما قد سقط في البئر والآخر أكله الذئب ، فكانت آياته كلها منكوسة ، وكان قومه قد علموا واستبان لهم ولكن الشقاء غلب عليهم ، وقيل : إنما استبان ذلك بعد مهلكه .

روي أن طلحة النمرى جاء الهامة فقال : أين مسيئة ؟ قالوا : مه رسول الله ! فقال : لا ، حتى أراه ، فلما جاءه قال : أنت مسيئة ؟ قال : نعم ، قال : من يأتيك ؟ قال : رحمان ، قال : أفي نور أو في ظلمة ؟ فقال : في ظلمة ، فقال : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر .

وكتب مسيئة إلى رسول الله ﷺ : من مسيئة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد ؛ فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قریشاً قوم يعتدون . وبعث بالكتاب مع رجلين من قومه ، يقال لأحدهما ابن النواحة ، والآخر ابن أثال ، فلما قرىء الكتاب على رسول الله ﷺ قال لها : « فَمَا تَقُولَانِ أُنْتُمَا ؟ » قالا : نقول كما قال ، قال : « أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ » فقالا : نشهد أن مسيئة رسول الله ، فقال النبي ﷺ : « أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تَقْتُلُ لَصَرَبْتُ أَغْنَاكُمَا » .

ثم كتب إلى مسيئة : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مَسِيئَةَ الْكِنَانِ ، السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » . وقال ﷺ : « الْغَبْوَةُ لَعْنَةُ اللَّهِ » ، وبعث بالكتاب مع السائب بن العوام أخي الزبير بن العوام ، وقيل : مع حبيب بن زيد بن عاصم ابن نسيئة بنت كعب رضي الله عنهم .

فلما بلغ مسيئة الكتاب غضب ، وقتل رسول النبي ﷺ ، ويروى أن مسيئة أخذ حبيب بن زيد ، رضي الله عنها ، فجعل يقول له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ، وجعل يقطعها عضواً عضواً حتى مات في يده ، لا يزيد على ذلك إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمن به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيئة قال : لا أسمع .

استمر مسيئة في فجوره وإفترائه الكذب والدجل على لسان الوحي ، وظهرت في بني تميم امرأة يقال لها سجاح بنت الحارث التميمية فادعت النبوة أيضاً ، وتابعتها على ذلك جماعة من قومها ، فاتصل بها مسيئة فخادعها إلى أن تزوجها ، واجتمع قومها مع قومه على طاعته .

وتفاقم أمر مسيئة الكذاب وازدادت شوكته بعد وفاة النبي ﷺ ، وأخذ يجمع الجموع ويتهبأ لقتال المسلمين ، فجهز له أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، جيشاً أمر عليه خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، فقتل أصحاب مسيئة ، ثم كان الفتح بقتل مسيئة ؛ قتله عبد الله بن زيد بن عاصم أخو حبيب ، حيث خرج هو وأمه نسيئة ، وباشرت أمه الحرب بنفسها حتى قتل الله مسيئة ورجعت وبها اثنا عشر جرحاً من بين طعنة وضربة . وقيل رماه وحشي بحربته ، كما ذكرنا من قبل ، ثم ضربه عبد الله بالسيف على هامته ، وكان عمره حين قتل مائة وخمسين سنة^(٣) .

(١) النيرج : أخذ تشبة السحر ، وليست بحقيقته ، ولا كالسحر ، إنما هو تشبية وتلبيس (لسان العرب : ج ٤٢٩٢/٦) .

(٢) وذلك أن الشادر إذا ضرب في الخل ضرباً جيداً وجعلت فيه بيضة بنت يوماً ؛ فإنها تمتد كالخيط ، فتجعل في القارورة ، ويصب عليها الماء البارد

فتجمد . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٢١/٤) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٤/٤ ، ٢٧٠ - ٢٧٢) ، وصحيح البخاري (ج ٥٢/٩) كتاب التعبير - باب إذا طار الشيء في المنام ، ومسنود الإمام أحمد =

خروج الأسود الكذاب :

وظهر في اليمن بصنعاء الأسود العنسيّ ، فادعى النبوة أيضاً ، وتبعه قومه بنو عَنَس ، وجماعة من بني مذحج ، وسمى نفسه رحمان اليمن كما تسمى مسيلة رحمان اليمامة .

واسم الأسود عبّهة بن كعب ، وإنما لقب بالأسود لأنه كان أسود الوجه ، وكان يقال له أيضاً ذو الحِجَار ، لأنه كان يَحْمَرُّ وجهه دائماً .

وكان الأسود كاهناً مشعوذاً ، وكان يريهم الأعاجيب ، ويسبي قلوب من سمع منطقه ، وكان أول خروج بعد عودته ﷺ من الحج ، فكاتبته مذحج وواعده نجران ، فوثبوا بها ، وأخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد ، وأنزلوه منزلها ، ثم لم ينشب الأسود أن استولى على صنعاء فأخذها ، ثم قوي أمره بمرض رسول الله ﷺ ، ودانت له سواحل من السواحل ، واتقاه المسلمون .

وكان مع الأسود شيطانان يقال لأحدهما سَحِيق والآخر شَقِيق ، وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمور الناس ، وكان باذان عاملاً للنبي ﷺ على صنعاء ، فلما مات جاء شيطان الأسود فأخبره ، فخرج في قومه حتى ملك صنعاء ، وأخرج المهاجر بن أبي أمية عنها ، وكان عاملاً للنبي ﷺ على صنعاء أيضاً ، وتزوج المرزبانة زوجة باذان ، وكانت تكرهه ، فواعدت فيروز الدَيْلَمِيّ (١) وأصحابه ، وكانوا مسلمين ، فدخلوا عليه ليلاً وقد سقته الخمر صرفاً حتى سكر ، وكان على بابهِ ألف حارس ، فثقب فيروز ومن معه الجدار حتى دخلوا ، فقتله فيروز واحتسز رأسه ، وأخرجوا المرأة وما أحبوا من متاع البيت . وكان ذلك قبل وفاة النبي ﷺ بخمسة أيام ، فأتاه الوحي من السماء ، فأخبر به أصحابه ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : أتى الخبر النبي ﷺ من السماء الليلة التي قتل فيها العنسيّ لَيْشَرْنَا ، فقال : « قَتَلَ الْعَنْسِيُّ الْبَارِحَةَ ، قَتَلَهُ رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُبَارَكِينَ » ، قيل : ومن هو ؟ قال : « فَيْرُوزٌ ، فَازَ فَيْرُوزٌ » - وفي رواية قال : « قَتَلَ اللَّهُ الْأَسْوَدَ الْعَنْسِيَّ ، قَتَلَهُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ فَيْرُوزُ الدَيْلَمِيّ » .

ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر ، رضي الله عنه ، في آخر شهر ربيع الأول ، وكان ذلك أول فتح أتى أبا بكر وهو بالمدينة (٢) .

ارتداد طَلِيحَةَ بنِ حُوَيْلِدِ الْأَسَدِيِّ :

وكذلك ظهر في بني أسد في حياة النبي ﷺ متنبيء ثالث ، بعد الأسود ومُسَيْلِمَةَ ، هو طَلِيحَةَ بن حُوَيْلِدِ الْأَسَدِيِّ ، وكان قد وفد على رسول الله ﷺ مع قومه وأسلم ، ثم ارتدّ وادعى النبوة ، وتبعه جماعة ، فكتب إلى رسول الله ﷺ يدعوهم إلى المودعة ، فوجه النبي ﷺ ضرار بن الأزور إلى عماله على بني أسد وأمرهم بقتال من ارتدّ ، ولم يلبث الأمر كذلك حتى توفي رسول الله ﷺ .

فلما كانت خلافة أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، بعث إليه خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، وأمره أن يقاتل من ارتدّ ، ثم يسير إلى اليمامة ، فسار خالد ، رضي الله عنه ، فقاتل طَلِيحَةَ فهزمه وهرب إلى الشام ، ثم أسلم إسلاماً صحيحاً ، ولم يعمص عليه بعد إسلامه ، وشهد القادسية وهاوند مع المسلمين (٣) .

☆ ☆ ☆

(١) (ج ٢٩٦/١) ، والمستدرك (ج ٥٤١/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧٢/١ ، ٢١٧) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٨٩/٨) ، وتاريخ الطبري (ج ١٤٧/٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦) ، والإصابة (ج ٥٢٩/١) ، والاستيعاب / لابن عبد البر (ج ٢٢٨/١) ، والسيرة المدحلية على هامش السيرة الحلبية (ج ٢٢/٣) ، والروض الأنف (ج ٢٢٥/٤) ، وفتح الباري (ج ٩١/٨) .

(٢) كان فَيْرُوزٌ من الأبناء الذين أسلموا باليمن مع باذان ، وبعثوا وفتحهم إلى رسول الله ﷺ ببيعتهم وإسلامهم وذلك سنة عشر . انظر : طبقات ابن سعد (ج ٥٢٣/٥) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٢٢/٤) .

(٣) انظر : تاريخ الطبري (ج ١٨٥/٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٣٣٥/٥) ، وكنز العمال (ج ٥٧٢/١٣) ، وفتوح البلدان (ص : ١١٣ ، ١١٥) .

(٣) انظر : تاريخ الطبري (ج ٢٥٦/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٥٥/٤) .

السنة الحادية عشرة للهجرة

وفد النَّخَع :

النَّخَع قبيلة من الين من مَذْحِج ، وهم آخر الوفود قدوماً على النبي ﷺ ، وكانت وفادتهم في نصف المحرم سنة إحدى عشرة للهجرة .

قدم وفد النَّخَع على رسول الله ﷺ في مائتي رجل ، فنزلوا دار رَمْلَةَ بنت الحارث ، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام ، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، بالين ، فقال رجل منهم يقال له زُرَّازة بن عمرو وكان نصرانياً : يا رسول الله ! إني رأيت في سفري هذا عجباً ، فقال : « وما رأيت ؟ » قال : رأيت أتاناً تركتها في الحيِّ كأنها ولدت جدياً أسفح أحوى^(١) ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل تركت أمة لك مصيرة على حمل ؟ » قال : نعم يا رسول الله تركت أمة لي قد حملت ، قال : « فإنها قد ولدت غلاماً وهو ابنك » ، قال : فما باله أسفح أحوى ؟ فقال : « اذن مني » ، فدنا منه ، قال : « هل بك من برص تكثمته ؟ » قال : نعم والذي بعثك بالحق ما علم به أحد ولا أطلع عليه غيرك ، قال : « فهو ذاك » قال : يا رسول الله ! ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان^(٢) ومسكتان^(٣) ، قال : « ذاك ملك العرب رجع إلى أحسن زيِّه وبهجته » ، قال : ورأيت عجوزاً شطباء^(٤) خرجت من الأرض ، قال : « تلك بقيَّة الدنيا » ، قال : ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو وهي تقول : لظى لظى ، بصير وأعمى ، أطعموني أكلكم ، أهلكم ومالكم ، قال رسول الله ﷺ : « تلك فتنة تكون في آخر الزمان » ، قال : يا رسول الله ! وما الفتنة ؟ قال : « يقتل الناس إمامهم ويشتمون أطباق الرأس^(٥) » وخالف رسول الله ﷺ بين أصابعه ، ثم قال : « يحسب المسيء فيها أنه محسن ، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أحل من شرب الماء ، إن مات ابنك أذرك الفتنة ، وإن مت أنت أذركها ابنك » ، فقال : يا رسول الله ! ادع الله أن لا أدركها ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ! لا يدركها » ، فمات وبقي ابنه عمرو فكان من خلع عثمان بالكوفة .

ويقال : إن النخع بعثوا رجلين منهم إلى النبي ﷺ وافدين بإسلامهم ؛ أُرطاة بن شراحيل من بني حارثة ، وألجهمش واسمه الأرقم من بني بكر ، فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فعرض عليهما الإسلام فقبلاه ، فبايعاه على قومهما ، وأعجب رسول الله ﷺ شأنهما وحسن هيئتهما ، فقال لهما : « هل خبفتما وراءكما مثلكما ؟ » قالا : يا رسول الله ! قد خلفنا من قومنا سبعين رجلاً ، كلهم أفضل منا ، وكلهم يقطع الأمر وينفذ الأشياء ، ما يشاركوننا في الأمر إذا كان ، فدعا لهما رسول الله ﷺ ولقومهما بخير ، وقال : « اللهم ! بارك في النَّخَع » . قال ابن مسعود رضي الله عنه : شهدت رسول الله ﷺ يدعو لهذا الحي من النَّخَع ، أو قال : يثني عليهم ، حتى تمنيت أني رجل منهم^(٦) .

(١) أي : أسود لئس بشديد السواد (النهاية : ج ٤٦٥/١) .

(٢) الدملج : الحجر الأملس والمفضد من الحلي (النهاية : ج ١٢٤/٢) .

(٣) المسكتة : السوار (النهاية : ج ٣٣١/٤) .

(٤) الشطباء : الشيب . وقد تقدم .

(٥) أراد أنهم يشتمون في الفتنة والحرب اشتباك أطباق الرأس ، وهي عظامه التي يدخل بعضها في بعض (النهاية : ج ٤٤٦/٢) .

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٤٦/١) ، و (ج ٥٣١/٥) ، وجمع الزوائد (ج ٥١١/١) .

سرية أسامة رضي الله عنه إلى أبنى (١) :

لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة ، أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، يبتغي بذلك إرهابهم حتى لا يفكروا في الإغارة على المدينة ، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد ، رضي الله عنها ، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداورم من أرض فلسطين ، وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة ، فقال له : « سِرْ إِلَى مَوْضِعٍ مَقْتَلِ أَبِيكَ فَأَوْطِئْهُمْ الْخَيْلَ ، فَقَدْ وَلَيْتُكَ هَذَا الْجَيْشَ ، فَأَعِزْ صَبَاحاً عَلَى أَهْلِ أُنْبَى وَحَرِّقْ عَلَيْهِمْ ، وَأَسْرِعِ السَّيْرَ تَسْبِقِ الْأَخْبَارَ ، فَإِنَّ ظَفَرَكَ اللَّهُ فَأَقْلِلِ اللَّبْثَ فِيهِمْ ، وَخُذْ مَعَكَ الْأَدْلَاءَ ، وَقَدِّمِ الْعَيْونَ وَالطَّلَائِعَ أَمَامَكَ » .

فلما كان يوم الأربعاء بدأ بالنبي ﷺ وجعه الذي قبضه الله ، عز وجل ، فيه ، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ، ثم قال : « اغزِ بِسْمِ اللَّهِ ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَقَاتِلْ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ » ، فخرج أسامة بلوائه معقوداً ، فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي ، وعسكر بالجرف على فرسخ من المدينة ، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب (٢) في تلك السرية ، فيها أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وقنادة بن النعمان ، وسلمة بن أسلم بن حريش .

وتكلم أناس في إمرة أسامة ، واعترضوا على توليته قيادة الجيش ، لحداثة سنه ، فقالوا : أمر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار ! فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب غضباً شديداً ، فخرج وهو في مرضه عاصباً رأسه ، وعليه قطيعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أَمَا بَعْدُ ؛ أَيُّهَا النَّاسُ ! فَمَا مَقَالَةٌ بَلَّغْتَنِي عَنْ بَعْضِكُمْ فِي تَأْمِيرِي أَسَامَةَ ، فَلَعْمُرِي لَئِنْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَتِي أَسَامَةَ لَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَتِي أَبَاهُ مِنْ قَبْلِهِ ، وَإِنَّمِ اللَّهُ إِنْ كَانَ لَخَلِيفَةً لِلْإِمَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَإِنْ ابْتَهَ مِنْ بَعْدِهِ لَخَلِيفٌ لِلْإِمَارَةِ ، وَإِنْ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِنَّهَا لَمَخِيلَانِ (٣) لِكُلِّ خَيْرٍ ، فَاسْتَوْصُوا بِهِ خَيْراً ؛ فَإِنَّهُ مِنْ خِيَارِكُمْ » .

ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته ، وذلك يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول ، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة ، رضي الله عنه ، يودعون رسول الله ﷺ ويخرجون إلى العسكر بالجرف ، وثقل النبي ﷺ واشتد به المرض ، فجعل يقول : « أَنْفِذُوا بَعَثَ أَسَامَةَ » ، واستثنى ﷺ أبا بكر ، رضي الله عنه ، وأمره بالصلاة بالناس .

لكن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ جعلت أسامة ينتظر في معسكره حتى يعرف ما يقضي الله به ، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٤) كما سيأتي .

☆ ☆ ☆

(١) أُنْبَى : اسم موضع بين عسقلان والرُّمَّةِ ، وقيل : هي قرية ناحية البلقاء عند مؤتة . انظر : السيرة الحلبية (ج ٢٠٧/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٨٩/٢) .

(٢) انتدب القوم إلى الأمر : دعاهم وحثهم ، وانتدبوا إليه : أشرعوا (لسان العرب : ج ٤٨٨٠/٦) .

(٣) يقال : إن فلاناً لمخيل للخير ؛ أي : خليف (لسان العرب : ج ١٣٠٥/٢) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٧٨/٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٨) ، وصحيح البخاري (ج ١٧/٦) كتاب المغازي - باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنها في مرضه الذي توفي فيه ، وطبقات ابن سعد (ج ١٨٩/٢ ، ١٩٠) .

وفاة النبي ﷺ

ولما بلغ هذا الدين ذروة الكمال ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وبدت طلائع انتشاره في العالم وظهوره على الأديان كلها ، أحسن النبي ﷺ بدنوا أجله ، فأخذ يتهيأ للقاء ربه ، وظهر منه من الأقوال والأفعال ما يدل على اقتراب الرحيل ومفارقة الدنيا .

علامات دنو أجل النبي ﷺ :

وأول ما عرّف الله سبحانه نبيه ﷺ اقتراب أجله نزول سورة النصر ، فقد روى البخاري بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أن عمر ، رضي الله عنه ، سأله عن قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قال : أجل أو مثل ضرب لمحمد ﷺ ، نعت له نفسه (١) .

وعنه أيضاً أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، دعاه مع أشياخ بدر فسألهم عن قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، فقال ابن عباس : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فتح مكة ، فذاك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِذْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ ، قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم (٢) .

وعنه أيضاً قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ حتى ختم السورة قال : نعت إلى رسول الله ﷺ نفسه حين نزلت ، فأخذ بأشد ما كان قط اجتهداً في أمر الآخرة (٣) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلا يقول فيها : « سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي » (٤) .

وقد قيل : إن هذه السورة آخر سورة أنزلت عليه في أوسط أيام التشريق ، كما ذكرنا في حجة الوداع ، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع ، وأنه نعت إليه نفسه ، فخطب الناس وودعهم (٥) .

- مدارسة القرآن ومضاعفة اعتكاف رمضان :

وكان النبي ﷺ يعرض القرآن كل عام في رمضان على جبريل ، عليه السلام ، مرة فعرضه في ذلك العام الذي قبض فيه مرتين . فقد روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ أسر إلى فاطمة ، رضي الله عنها ، فأخبرها « أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ (٦) كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ ، وَلَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي ، فَإِنِّي نَعَمَ

(١) صحيح البخاري (ج ٢٢٠/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨٩/٥) كتاب المغازي .

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٢/٩) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحد أسانيد رجاله رجال الصحيح .

(٤) صحيح البخاري (ج ٢٢٠/٦) كتاب التفسير - سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ .

(٥) انظر : السنن الكبرى للبيهقي (ج ١٥٢/٥) ، ومجمع الزوائد (ج ٢٦٦/٣) .

(٦) أي : كان جبريل يدارسة جميع ما نزل من القرآن ، من المعارضة : المُقَابَلَة ، ومِنه عَارَضْتُ الْكِتَابَ بِالْكِتَابِ ؛ أي : قَابَلْتَهُ بِهِ (النهاية : ج ٢١٢/٣) .

السَّلَفُ أَنَا لَكَ^(١) . وفي رواية : أنه قال لها : « إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمَ رَزِيَّةً مِنْكَ ، فَلَا تَكُونِي مِنْ أَدْنَى امْرَأَةٍ صَبْرًا »^(٢) .

وكان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام ، فاعتكف ذلك العام الذي قبض فيه عشرين ، وأكثر من الذكر والاستغفار لعله بانقضاء أجله ﷺ^(٣) .

- وكان رسول الله ﷺ يعرض لأصحابه باقتراب أجله ، ويلمّح لهم بذلك ، فقد مرّ معنا في حجة الوداع أنه خطب الناس بعرفة ، فقال : « إِنِّي لَا أُدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ غَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا » ، وقال وهو عند جرة العقبة : « لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ ؛ فَإِنِّي لَا أُدْرِي لَعَلِّي لَا أَحْجُ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ » ، وقال لهم أيضاً لما نزل بغدير خمّ : « أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّا أَنَا بَشَرٌ يَوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبْ ... وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ تَقْلِينَ ؛ كِتَابُ اللَّهِ وَعِزَّتِي » .

وروي عن سَمْرَةَ بن جُنْدَب ، رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله ﷺ يقول لنا : « إِنَّ أَحَدَكُمْ سَيُوشِكُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ نَظْرَةً بِأَلَّةٍ مِنْ أَهْلِ وَوَلَدٍ »^(٤) .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ! لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلَا يَرَانِي ، ثُمَّ لَأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مَعَهُمْ »^(٥) .

وعن وائلة بن الأسقع قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال : « أَتَزْعُمُونَ أَنِّي مِنْ آخِرِكُمْ وَفَاةٌ ، أَلَا إِنِّي مِنْ أَوْلِيكُمْ وَفَاةٌ ، تَتَّبِعُونِي أَفْنَادًا^(٦) يَهْلِكُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »^(٧) .

وعن العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، قال : رأيت في المنام كأن الأرض قترع بأشطان^(٨) شِداد ، فقصصت ذلك على رسول الله ﷺ ، فقال : « ذَاكَ وَفَاةُ ابْنِ أَخِيكَ »^(٩) .

صلاة النبي ﷺ على شهداء أحد واستغفاره لأهل البقيع :

ولما عاد رسول الله ﷺ من حجة الوداع ، التي أشار فيها إلى دنو أجله ، خرج إلى أحد فصلّى على الشهداء ، بعد ثماني سنين ، كالمودع للأحياء والأموات ، ثم انصرف ، فطلع المنبر فقال : « إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ قَرِطٌ^(١٠) ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ ، وَإِنْ مَوَّعِدَكُمْ الْحَوْضُ ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا ، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا »^(١١) .

وفي أواخر شهر صفر خرج رسول الله ﷺ إلى البقيع من جوف الليل ، فاستغفر لأهله ، فعن أبي مويّهبة مولى رسول الله ﷺ قال : بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل ، فقال : « يَا أَبَا مَوْيَهْبَةَ ! إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ أُسْتَعْفَرَ لِأَهْلِ هَذَا الْبَقِيعِ ، فَأَنْطَلِقُ مَعِيَ » ،

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٩٨) كتاب الاستئذان - باب من ناجى بين يدي الناس .

(٢) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٦٧) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٦٧٣) كتاب الاعتكاف - باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان .

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٩٩) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

(٥) صحيح مسلم (ج ١٨٣٧٤) كتاب الفضائل - باب فضل النظر إليه ﷺ وتمنيه ح ١٤٢ .

(٦) أي : تتبعونني ذوي قنيد ، أي ذوي عجز وكفر للنعمّة ، وفي النهاية : أي جماعات متفرقين قوماً بعد قوم ، واجدهم قنيد (لسان العرب : ج ٢٤٧٢/٥) .

(٧) مسند الإمام أحمد (ج ١٠٦٤) .

(٨) الأشطان : جمع شطن ، وهو الحبل ، وقيل : هو الطويل منه . انظر : (النهاية) ج ٤٧٥/٢ .

(٩) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (ج ٢٢٩) وقال : رواه البزار والطبراني ورجاله ثقات .

(١٠) أي متقدمكم (النهاية) ج ٤٣٤/٣ .

(١١) انظر : صحيح البخاري (ج ١٢٠/٥) كتاب المغازي - باب غزوة أحد .

فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم قال : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ ، لِيَهْنِيءَ لَكُمْ مَا أَصْحَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْحَحَ النَّاسُ فِيهِ ، أَقْبَلْتُ الْفِتْنَ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يَتَّبِعُ آخِرُهَا أَوْلَهَا ، الْآخِرَةُ شَرُّ مِنَ الْأُولَى » ، ثم أقبل عليّ فقال : « يَا أَبَا مُؤَيْهَبَةَ ! إِنْني قَدْ أُوتَيْتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ، ثُمَّ الْجَنَّةَ ، فَخَيَّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي وَالْجَنَّةِ » ، قال : فقلت : بأبي أنت وأمي ؛ فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، قال : « لا ، والله يا أَبَا مُؤَيْهَبَةَ ! لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ » ، ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف (١) .

ابتداء شكوى النبي ﷺ ومدة مرضه :

وابتداء رسول الله ﷺ بشكواه ، الذي قبضه الله فيه ، في أواخر شهر صفر لليلة أو لليلتين بقيتا منه ، وقيل : في أول شهر ربيع الأول ، وذلك يوم الأربعاء أو الاثنين ، وقيل : يوم السبت .

وكانت مدة مرضه ﷺ ثلاثة عشر يوماً ، وهو المشهور ، وقيل : سبعة أو ثمانية أيام ، وقيل : أكثر من ذلك وأقل .

وكان رسول الله ﷺ في مدة مرضه يصلي بالناس ، إلى أن ثقل به المرض جداً ، فانقطع ثلاثة أيام وأمر أبا بكر ، رضي الله عنه ، أن يصلي بالناس (٢) .

روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : رجعت إليّ رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة البقيع وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول : وإرأساه ! قال : « بَلْ أَنَا وَإِرَاسَاهُ ! » قال : « مَا صَرَكَ لَوْمَتٌ قَبْلِي فَغَسَلْتُكَ وَكَفَّنْتُكَ ، ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكَ وَدَفَّنْتُكَ » ، قلت : لكنني أو لكاني بك والله لو فعلت ذلك ؛ لقد رجعت إلى بيتي ، فأعرست فيه ببعض نسائك ، قالت : فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم بدىء بوجعه الذي مات فيه (٣) .

وفي رواية ابن إسحاق عن أبي مؤيّهبة أن ابتداء مرضه ﷺ كان لما رجعت من زيارته للبقيع واستغفاره لهم ليلاً ، فإنه لما أصبح ابتداء بوجعه من يومه ذلك (٤) .

ويروى أن أول ما اشتكى النبي ﷺ في بيت ميمونة ، وقيل في بيت زينب بنت جحش ، رضي الله عنها ، والأول أصح ، قالت عائشة رضي الله عنها : فخرج في يومه ذلك حتى دخل عليّ ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا مرّ بابي ربما يلقي الكلمة ينفع الله ، عز وجل ، بها ، فمرّ ذات يوم فلم يقل شيئاً ، ثم مرّ أيضاً فلم يقل شيئاً ، فقلت : يا جارية ! ضعي لي وسادة على الباب وعصبت رأسي ، قالت : فمرّ بي في يومه ذلك ، فقال : « يَا عَائِشَةُ ! مَا شَأْنُكَ ؟ » فقلت : أشتكي رأسي ، فقال رسول الله ﷺ : « ذَلِكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيًّا فَأَسْتَعْفِرُ لَكَ وَأَدْعُو لَكَ » ، قالت : فقلت غيبي : وَأَنْكَلِيَاءَ ! وَاللَّهِ إِنِّي لَأُظَنُّكَ تَحَبُّ مَوْتِي ، وَلَوْ كَانَ ذَاكَ لَطَلَّتْ آخِرَ يَوْمِكَ مُعْرِساً بِبَعْضِ أَرْوَاجِكَ ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « بَلْ أَنَا وَإِرَاسَاهُ ! » ، ثم رجعت رسول الله ﷺ إلى بيت ميمونة ، فاشتد وجعه (٥) .

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٠/٤) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣١٩/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٧٢/١) كتاب الصلاة - باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة ، ومسند الإمام أحمد (ج ٤٨٨/٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٤/٢ ، ٢٧٢) ، وتاريخ الطبري (ج ١٨٥/٣) ، والسيرة الدحلانية على هامش الحلبيّة (ج ٢٣٨/٣) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٥٢/٨) .

(٣) مسند الإمام أحمد (ج ٢٢٨/٦) .

(٤) سيرة ابن هشام (ج ٢٢٠/٤) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١٠٠/٩) كتاب الأحكام - باب الاستخلاف ، وصحيح مسلم (ج ٢١٢/١) كتاب الصلاة - باب استخلاف الإمام .. ح ٩١ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢١٩/٦) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٥٥/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ١٨٧/٣) ، ومختصر تاريخ دمشق / لابن عساکر (ج ٢٧٢/٢) .

تمريض النَّبِيِّ ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها :

وكان رسول الله ﷺ في مرضه يُحْمَلُ في ثوبٍ يُطَافُ به على نساءه ، يقسم بينهن ، فلما اشتدَّ وجعه ، وكان عند ميمونة ، رضي الله عنها ، دعا أزواجه فاستأذنن أن يمرض في بيت عائشة ، رضي الله عنها ، فأذن له .
وذكر أن فاطمة ، رضي الله عنها ، هي التي خاطبت أمهات المؤمنين بذلك ، فقالت : إن رسول الله ﷺ يشقّ عليه أن يطوف عليكن ، فقلن : هو في حلّ .

وروي أن رسول الله ﷺ لما كان في مرضه جعل يدور في نساءه ويقول : « أين أنا غدأ ؟ أين أنا غدأ ؟ » حرصاً على بيت عائشة ، ففهم أزواجه مراده ، فأذن له يكون حيث شاء ، وقلن : يا رسول الله ! قد وهبنا أيامنا لأختنا عائشة ، فخرج رسول الله ﷺ يشي بين رجلين من أهله ، أحدهما العباس بن عبد المطلب - وقيل : الفضل بن عباس - والآخر علي بن أبي طالب ، عاصباً رأسه ، تحطّ رجلاه في الأرض ، حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها . فكثرت رسول الله ﷺ الأسبوع الأخير من حياته عندها رضي الله عنها^(١) .

اشتداد وجع النَّبِيِّ ﷺ :

واشتدّت وطأة المرض على رسول الله ﷺ ، واتقدت حرارة العلة في بدنه ، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق الثياب .
روي عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : أتيت النبي ﷺ في مرضه فمسسته وهو يُوعك^(٢) وَعَكَا شديداً ، فقلت : إنك لتُوعك وعكاً شديداً ، وذلك أن لك أجرين ، قال : « أجل ، وما من مسلمٍ يُصيبه أذى إلا حاتت^(٣) عنه خطايا كما تحات ورق الشجر^(٤) » .

وعن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : دخلت على النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو محموم ، فوضعت يدي من فوق القطيفة ، فوجدت حرارة الحمى ، فقلت : ما أشدَّ حممك يا رسول الله ! قال : « إنا كذلك معشر الأنبياء يُضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر » ، قال : فقلت : يا رسول الله ! أي الناس أشدَّ بلاء ؟ قال : « الأنبياء » ، قلت : ثم من ؟ قال : « ثم الصالحون .. »^(٥) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : ما رأيت أحداً أشدَّ عليه الوجع من رسول الله ﷺ^(٦) .

وعن بكر بن عبد الله أن عمر دخل على رسول الله ﷺ وهو محموم أو مؤرود^(٧) ، قال : فوضع يده عليه فقبضها من شدة حره ، قال : فقال : يا نبي الله ! ما أشدَّ وركك ، أو أشدَّ حممك ! قال : « فإني قد قرأت الليلة أو البارحة ، بحمد الله سبعين سورةً فيهن السبع الطول » ، قال : يا نبي الله ! قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؛ فلو رفقت بنفسك ، أو خففت عن نفسك ! قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »^(٨) .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢١/٤ ، ٢٢٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢٧/٥) كتاب المناقب - باب فضل عائشة رضي الله عنها ، و (ج ١٢/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، و (ج ١٤٩/٧) كتاب الطب - باب شدة المرض ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٢) ، و (ج ١٦٨/٨) ، وفتح الباري (ج ١٤١/٨) .

(٢) الوُعْكُ : هو الحمى ، وقيل : ألمها (النهاية : ج ٢٠٧/٥) .

(٣) حاتت : تساقطت (النهاية : ج ٢٢٧/١) .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٥٣/٧) كتاب الطب - باب ما يقال للمريض وما يجيب .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٢٠٧/٤) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٦) طبقات ابن سعد (ج ٢٣١/٢) .

(٧) المؤرود : من أسماه الحمى ، وقيل : هو يومها إذا أخذت صاحبها لوقت ، وقد وردت الحمى فهو مؤرود (لسان العرب : ج ٤٨١٠/٦) .

(٨) طبقات ابن سعد (ج ٢٠٨/٢) .

وكانت عائشة ، رضي الله عنها ، تقرأ بالمعوذات وتنفث على رسول الله ﷺ ، وتمسح بيده رجاء بركتها^(١) . روى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وبالمعوذتين جميعاً ، ثم مسح بها وجهه ، وما بلغت يدها من جسده . قالت عائشة : فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به^(٢) .

وروى ابن عساكر بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان جبريل يأتي النبي ﷺ في وجهه كل يوم وليلة ، فيسلم عليه ويقول : إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول : كيف تجدك يا مُحَمَّد ؟ - وهو أعلم بالذي تجد منك ، ولكنه أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً ، وأن يتسم كرامتك وشرفك على الخلق ، وأن يكون سنة في أمتك - فيحدثه بقدر الذي يجد من شدة أو رخاء ، فإذا قال : « أجدني شاكياً » ، قال جبريل : يا مُحَمَّد ! إن الله لم يشدد عليك أن يكون من خلقه أحد هو أكرم عليه منك ، ولكن أحب أن تدعوه وتضرع إليه ، ولا تكف عن ذلك حتى تلقاه للذي أعد لك في ذلك من الثواب والفضيلة على الخلق ، وإذا قال : « أجدني مريحاً » ، قال : احمد الله واشكره ؛ فإن ربك يحب أن يحمد ويُشكر ، ليزيدك إلى ما أعطاك^(٣) .

لدة النبي ﷺ :

وقد كان رسول الله ﷺ من شدة وجعه يغمى عليه في مرضه ثم يفيق ، وأغمى عليه مرة فخاف من حوله عليه ، وظنوا أن به ذات الجنب^(٤) ، وكان قد اجتمع إليه نساء من نسائه ؛ أم سلمة وميمونة ، رضي الله عنهما ، ونساء من نساء المسلمين ؛ منهن أسماء بنت عميس ، رضي الله عنها ، وعنده فاطمة ابنته ، رضي الله عنها ، والعباس عمه ، رضي الله عنه ، فأجمعوا على أن يلدوه^(٥) ، وقال العباس : لألدنه ، فلدوه ، قيل : لدة أم سلمة وأسماء بنت عميس ، فجعل يشير إليهم أن لا تلدوني ، فقالوا : كراهية المريض للدواء . فلما أفاق رسول الله ﷺ ووجد أثر اللدود ، قال : « مَنْ صَنَعَ هَذَا بِي ؟ » قالوا : يا رسول الله ! عمك - ويقال : إن العباس لم يكن له في ذلك رأي ، لكن النساء هبن رسول الله ﷺ فاعتلن بالعباس ، فقال : « هَذَا دَوَاءٌ أَتَى بِهِ نِسَاءٌ جُنَّ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْأَرْضِ » وأشار نحو أرض الحبشة ، وكانت فيها أسماء بنت عميس ، ثم قال : « وَلِمَ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ ؟ أَلَمْ أَنْهَكُمُ أَنْ تَلْدُونِي ؟ » فقال عمه العباس : خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب ، وقلنا : كراهية المريض للدواء ، فقال : « إِنَّ ذَلِكَ لَدَاءٌ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَقْدِفَنِي بِهِ ، أَنَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، لَا يَبْقَى فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ إِلَّا لَدَّ إِلَّا عَمِّي ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ » . فلدوا كلهم ، ولقد لدت ميمونة ، رضي الله عنها ، وإنها لصائمة لقسَم رسول الله ﷺ عقوبة لهم بما صنعوا به^(٦) .

وكان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : « يَا عَائِشَةُ ! مَا أزالُ أَجدُ أَلَمَ الطَّعامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرٍ ، فَهَذَا أَوَانٌ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ » .

ودخلت أم بشر بن البراء بن معرور ، رضي الله عنهم ، على رسول الله ﷺ تعودته في مرضه الذي مات فيه ، فستته فقالت : ما وجدت مثل وُعُوكَ عليك على أحد ، فقال رسول الله ﷺ : « كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ كَذَلِكَ يُضَاعَفُ عَلَيْنَا الْبَلَاءُ ، مَا يَقُولُ النَّاسُ ؟ » قالت : زعم الناس أن برسول الله ذات الجنب ، فقال : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَهَا عَلَيَّ ، إِنَّمَا هِيَ هَمَزَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَلَكِنَّةَ

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧٠/٧) كتاب الطب - باب الرُّقَى بِالْقُرْآنِ وَالْمَعْوِذَاتِ .

(٢) صحيح البخاري (ج ١٧٢/٧) كتاب الطب - باب النَّفْثِ فِي الرَّقِيَّةِ .

(٣) مختصر تاريخ دمشق (ج ٢٧٥/٢) .

(٤) ذات الجنب : هي الدُّبَيْلَةُ وَالذُّمْلُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي تَطْهَرُ فِي بَاطِنِ الْجَنْبِ وَتَنْفَجِرُ إِلَى دَاخِلِ ، وَقَلَّمَا يَسْلَمُ صَاحِبُهَا (النهاية : ج ٣٠٢/١) . وفي الطب الحديث : هي التهاب في الغشاء المُحِيطِ بِالرِّئَةِ (الوسيط : ج ١٣٩/١) .

(٥) لَدَّ الْمَرِيضُ : أَخَذَ بِلِسَانِهِ فَمَدَّهُ إِلَى أَحَدٍ شَقِي الْقَمِ ، وَصَبَّ الدَّوَاءَ فِي الشَّقِّ الْآخَرَ (لسان العرب : ج ٤٠١٩/٥) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٩/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٧/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، ومسند الإمام أحمد (ج ١١٨/٦) ، والمستدرک (ج ٢٠٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٣٦/٢) ، وتاريخ الطبري (ج ١٩٥/٢) ، ومختصر تاريخ دمشق (ج ٣٧٢/٢) .

مِنَ الْأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ أَنَا وَابْنِكَ يَوْمَ خَيْبَرَ؛ مَا زَالَ يُصِيبُنِي مِنْهَا عِدَادٌ^(١) حَتَّى كَانَ هَذَا، وَأَنْ أُنْقِطَاعَ أُبْهَرِي». فكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة^(٢).

فعني النبي ﷺ نفسه إلى ابنته رضي الله عنها :

ودعا النبي ﷺ ابنته فاطمة ، رضي الله عنها ، فعنى إليها نفسه ، وبشّرها بأنها سيّدة نساء العالمين أو سيّدة نساء هذه الأمة ، كما روى البخاري في صحيحه^(٣).

وروى أيضاً بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : دعا النبي ﷺ فاطمة ، عليها السلام ، في شكواه الذي قبض فيه ، فسارها بشيء فبكت ، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت ، فسألناها عن ذلك - أي بعد وفاته - فقالت : سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجهه الذي توفي فيه فبكت ، ثم سارني فأخبرني أي أول أهله يتبعه فضحكت^(٤).

دعاء النبي ﷺ لأصحابه ووصيته لهم :

وقبل ستة أيام من الوفاة اجتمع نفر من الصحابة في بيت عائشة ، رضي الله عنها ، فرحب بهم رسول الله ﷺ وحيّاهم ، ودعا لهم بالهدى والنصر والتوفيق ، وقال لهم : « أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، إني لكم منه نذير مبين أن لا تعملوا على الله في عباده وبلاديه ، فإن الله قال لي ولكم : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٥) ، وقال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾^(٦) . ثم أخبرهم بدنو أجله وقرب لحوقه بالرفيق الأعلى .

قالت عائشة رضي الله عنها : ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، فجاء ، فخلاب به ، فجعل النبي ﷺ يكلمه ووجه عثمان يتغير ، قالت : فكان مما قال له : « يَا عُمْتَانُ ! عَسَى أَنْ يَقْمَصَكَ اللَّهُ قَمِيصًا ؛ فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلُكُهُ ». فقال النعمان بن بشير بعد ذلك لعائشة : يأم المؤمنين ! أين كنت عن هذا الحديث ؟ فقالت : نسيتته ورب الكعبة حتى قُتل الرجل^(٧).

آخر خطبة خطبها النبي ﷺ :

وقبل الوفاة بخمسة أيام اشتد الوجع برسول الله ﷺ واتقدت الحرارة في بدنه حتى أغمي عليه - وكان النبي ﷺ قد أخبر أن الأنصار قد اجتمعت في المسجد ليكون لقدمه مجلس النبي ﷺ منهم وإشفاقهم أن يموت - فلما أفاق قال : « هَرَيْقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قَرَبٍ لَمْ تَحُلُّ أَوْ كَيْتَهُنَّ » - وفي لفظ : « هَرَيْقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قَرَبٍ مِنْ أَبِي شَتَّى حَتَّى أُخْرَجَ إِلَى النَّاسِ فَأَعْهَدَ إِلَيْهِمْ » ، فأجلسوه في مخضب^(٨) لحفصة بنت عمر ، رضي الله عنها ، وصبوا عليه الماء ، حتى طفق يقول : « حَسْبُكُمْ حَسْبُكُمْ » .

وعند ذلك أحس رسول الله ﷺ بخفة فخرج متوكئاً على الفضل بن عباس ، رضي الله عنها ، عاصباً رأسه بعصابة سوداء ، وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه ، حتى دخل المسجد ، فتلقته الأنصار رجالهم ونساؤهم وأبنائهم ، فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي

(١) يُقَالُ : بِهِ عِدَادَةٌ مِنْ أَلَمٍ يُعَاوَدُهُ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ . وَالْعِدَادُ : اهْتِيَاجٌ وَجَعٌ اللَّدِيغِ ، وَذَلِكَ إِذَا تَمَّتْ لَهُ سَنَةٌ مِنْ يَوْمٍ لُدِغَ هَاجَ بِهِ الْأَلَمُ (النهاية : ج ١٨٩/٣) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١١/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، وطبقات ابن سعد (ج ٣١٤/٨) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٧٩/٨) كتاب الاستئذان - باب من ناجى بين يدي الناس .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٢/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

(٥) القصص : ٨٣ .

(٦) الزمر : ٦٠ .

(٧) انظر : مجمع الزوائد (ج ٢٤/٩ ، ٩٠) ، وسنن ابن ماجة (ج ٤٢/٨) المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ح ١١٣ .

(٨) الْمِخْضَبُ : إِجَانَةٌ تُغْسَلُ فِيهَا الثِّيَابُ (النهاية : ج ٢٩/٢) .

لأَجِبْكُمْ» ، ثم صعد المنبر ، ولم يصعده بعد ذلك اليوم ، ثم جلس ، فسمع الناس به وأهل السوق فحضروا المسجد ، فحمد الله وأثنى عليه وخطب الناس ، فكان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ، فأكثر الصلاة عليهم ، ثم قال : « إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَزَيْنَتِهَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ » ، فبكى أبو بكر ، رضي الله عنه ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، أو قال : فدينك بأبائنا وأمهاتنا ، فعجب الصحابة وقالوا : ما يبكي هذا الشيخ إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله ؟ قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : فكان رسول الله ﷺ هو العبد ، وكان أبو بكر أعلمنا .

ثم قال رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا بَكْرٍ ! لَا تَبْكُ ! إِنَّ أُمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ » - وفي لفظ : « عَلَى رَسُولِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؛ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَّنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِنِ أَبِي قَحَافَةَ » - « وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ أَخُوهُ الْإِسْلَامَ وَمَوَدَّتُهُ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ تَيْنُنَا عِنْدَهُ ، لَا يَتَّبِقِينَ فِي الْمَسْجِدِ بَابَ الْأَسَدِ ، إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ (١) » .

وفي رواية : أنه قال : « مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَا نَقَعْنِي مَالٌ أَحَدٌ قَطُّ مَا نَقَعْنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ » . فبكى أبو بكر ، رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله ! هل أنا وما لي إلا لك يا رسول الله ؟ هل أنا وما لي إلا لك يا رسول الله ؟

ثم قال رسول الله ﷺ : « أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ » .

ثم أوصى رسول الله ﷺ بالأنصار ، فقال : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ! اسْتَوْصُوا بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي (٢) ، وَقَدْ قَضُوا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ » .

وفي رواية أنه قال : « أَمَا بَعْدُ ؛ أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّ النَّاسَ يَكْتُمُونَ وَتَقِلُّ الْأَنْصَارُ حَتَّى يَكُونُوا كَاللِّحِ فِي الطَّعَامِ ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ أَمْرًا يَضُرُّ فِيهِ أَحَدًا أَوْ يَنْفَعُهُ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ » (٣) .

وفي تاريخ ابن عساکر أنه أوصى المسلمين بالمحبة وصلة الرحم ؛ المهاجرين منهم والأنصار ، فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! بَلِّغْنِي أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ الْمَوْتَ ، كَأَنَّهُ اسْتِنكَارٌ مِنْكُمْ لِلْمَوْتِ ، هَلْ خَلَدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فَيُنْبِئُ قَبْلِي فَيُنْبِئُ إِلَيْهِ فَأَخْلَدَ فِيكُمْ ؟ أَلَا إِنِّي لَأَحِقُّ بِرَبِّي وَإِنَّكُمْ لَأَحِقُّونَ بِهِ ، فَأَوْضِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ الْأُولِينَ خَيْرًا ، وَأَوْصِي الْمُهَاجِرِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٤) ، وَإِنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي بِأَمْرِ اللَّهِ ، فَلَا يَحْمِلُنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ أَمْرِ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ ، وَمَنْ غَالَبَ اللَّهُ غَلَبَهُ ، وَمَنْ خَادَعَ اللَّهُ خَدَعَهُ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٥) .

(١) روي أن العباس بن عبد المطلب قال : يا رسول الله ! مالك فتحت أبواب رجال في المسجد ، وما بالك سددت أبواب رجال في المسجد ؟ فقال

النبي ﷺ : « يا عباس ! ما فتحت عن أمري ، ولا سدّدت عن أمري » . طبقات ابن سعد (ج ٢٢٨/٢) .

(٢) أراد أنهم بطانته وموضع سره وأمانته والذين يعتمد عليهم في أموره ، واستغاث الكرش والعينة لذلك ، لأن المجرر يجمع علفه في كرشه ، والرجل يصنع ثيابه في عيبته (النهاية : ج ١٦٢/٤) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٧/٤ ، ٢٢٨) ، وصحيح البخاري (ج ١٢٦/١) كتاب الصلاة - باب الخوخة والمرف في المسجد ، و (ج ٤٢/٥) كتاب

المناقب - باب قول النبي ﷺ اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ، و (ج ١٤/٦) كتاب للغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، وصحيح مسلم

ج ٢٧٧/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن بناء المساجد على القبور ح ٢٢ ، و (ج ١٨٥/٤) كتاب فضائل الصحابة - باب من

فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ح ٢ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٢٠٥/٣) و (ج ٢١١/٤) ، والمستدرک (ج ٢٨٢/٤) ، وسنن الترمذي

(ج ٦٠٩/٥) كتاب المناقب - باب ١٥/ح ٣٦٦١ ، وسنن ابن ماجه (ج ٣٦/١) المقدمة - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ح ٩٤ ، وجمع

الزوائد (ج ٢٥/٩) و (ج ٣٦/١٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٥٢/٢ ، ٢٥٥) .

(٥) سورة محمد : ٢٢ .

(٤) سور العصر .

وأوصيكم بالأضار خيراً ، فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم ، أن تحسبوا إليهم ، ألم يشاطروكم الشار ؟ ألم يؤسعوا عليكم في الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنيهم ويتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثروا عليهم ، ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ، ألا وإن مؤعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرد علي غداً فليكف يده ولسانه إلا مما ينبغي .

فقال العباس رضي الله عنه : يا نبي الله ! أوصي بقريش ، فقال : « إني إنما أوصي بهذا الأمر قريشاً ، الناس تبع لقريش برهم ليرهم ، وفاجرهم لفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيراً . يا أيها الناس ! إن الذنوب تغير النعم ، وتبدل القسم ، فإذا بر الناس برهم أمئتهم ، وإذا فجر الناس عقوبهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُولِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) » (٢) .

ثم عرض رسول الله ﷺ نفسه للقصاص ، فقال : « إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم ، فمن كنت جلدت له ظهراً ، فهذا ظهري ، فليستقذ منه ، ألا ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقذ منه ، ومن كنت أخذت منه مالا فهذا مالي فليستقذ منه ، لا يقولن رجل إني أخشى الشخياء من قبل رسول الله ، ألا وإن الشخياء ليست من طبيعتي ولا من شأني ، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ حقاً إن كان له ، أو حلتني ، فلقيت الله وأنا طيب النفس ، ألا وإني لأرى ذلك مغنياً عني حتى أقوم فيكم مراراً .

ثم نزل رسول الله ﷺ فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر وعاد لمقاتله في الشخياء وغيرها ، ثم قال : « يا أيها الناس ! من كان عنده شيء فليزرده ، ولا يقل فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة » . فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ! إن لي عندك ثلاثة دراهم ، قال : « أما إننا لا نكذب قائلًا ولا نستخلفه ، فبم صارت لك عندي ؟ » قال : تذكر يوم مر بك مسكين فأمرتني أن أدفعها إليه ؟ فقال : « ادفعها إليه يا فضل » . ثم قام إليه رجل آخر ، قال : عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله ، قال : « ولم غللتها ؟ » قال : كنت محتاجاً إليها ، قال : « خذها يا فضل » .

ثم قال : « يا أيها الناس ! من حس من نفسه شيئاً فليقم أدع له » ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ! والله إني لكذاب ، وإني لمناق ، وإني لنؤوم ، وما من شيء من الأشياء إلا وقد أتيت به ، فقال له عمر : يا هذا ! فضحت نفسك ، قال : « مة يا ابن الخطأب ! فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة » ثم قال : « اللهم ! ارزقه صدقاً وإيماناً ، وصير أمره إلى خير » . ثم قام آخر فقال : يا رسول الله ! إني لبخيل ، وإني لجبان ، وإني لنؤوم ، فدعا له ﷺ ، قال الفضل : فلقد رأيتك أشجعنا وأقلنا نوماً . ثم قامت امرأة فقالت : إني لكذابة وإني لكذابة فادع الله أن يذهب عني ذلك ، قال : « أذهبني إلى منزل عائشة » ، فلما رجع رسول الله ﷺ إلى منزل عائشة وضع عصاه على رأسها ، ثم دعا لها ، وقال : « أطيلي السجدة ؛ فإن أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً » ، قالت عائشة رضي الله عنها : فوالله ما فارقني حتى عرفت دعوة رسول الله ﷺ فيها (٣) .

هم النبي ﷺ أن يكتب كتاباً ووصيته أصحابه :

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال النبي ﷺ وقد اشتد به الوجع : « ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً » . وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال عمر : قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختموا ، منهم من يقول : قرأوا يكتب لكم النبي ﷺ ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف ، وغوا رسول الله ﷺ قال : « قوموا عني » .

وكان ابن عباس ، رضي الله عنهما ، يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك

(١) الأنعام : ١٢٩ .

(٢) انظر : مختصر تاريخ دمشق (ج ٢٨٠/٢) .

(٣) انظر : مجمع الزوائد (ج ٢٥/٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٥٥/٢) .

الكتاب^(١) من اختلافهم ولغظهم^(٢) .

وأوصاهم النبي ﷺ في ذلك اليوم بثلاث^(٣) : أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب وقال : « لا يتركُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ » ، وأوصى بإجازة الوفد بنحو ما كان يُجيزهم ، وأوصى بإنفاذ بعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما^(٤) . وقيل : بل الوصية الثالثة الاعتصام بكتاب الله ، فعن أبي موسى الغافقي قال : آخر ما عهد إلينا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال : « عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَسَتْرَجُوعُونَ إِلَى قَوْمِ يُحِبُّونَ الْحَدِيثَ عَنِّي » أو كلمة تشبهها « فَمَنْ حَفِظَ شَيْئاً فَلْيُحَدِّثْ بِهِ ، وَمَنْ قَالَ عَلَيَّ مَسْأَلُكُمْ أَقْلُ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »^(٥) .

تخدير النبي ﷺ من عبادة القبور واتخاذها مساجد :

وحذر رسول الله ﷺ المسلمين أن يتخذوا قبره مسجداً ، وأخبرهم أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وقال : « اللَّهُمَّ ! لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَتَسَاءُ يُعْبَدُ ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ »^(٦) . قالت عائشة رضي الله عنها : لولا ذلك لأبرز قبره^(٧) ، خشي أن يتخذ مسجداً^(٨) .

آخر صلاة صلاها النبي ﷺ بالناس وإمامة أبي بكر رضي الله عنه لهم :

ولم يزل رسول الله ﷺ حريصاً على أن يصلي بالناس على ما كان به من شدة الوجع حتى غلبه المرض وأعجزه عن الخروج ، فلما كان يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام خرج إلى الناس وهو عاصب رأسه ، فصلّى بهم المغرب ، فقرأ بالمرسلات عرفاً ، قالت أم الفضل رضي الله عنها : ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله .

(١) اتفق العلماء المتكلمون في شرح الحديث على أن كلام عمر ، رضي الله عنه ، من دلائل فقهه ودقيق نظره ، لأنه خشي أن يكتب ﷺ أموراً ربما عجزوا عنها واستحقوا العقوبة عليها ، لأنها منصوطة لا مجال للاجتهاد فيها ، فقال عمر : حسبنا كتاب الله ؛ لعلمه أن الله تعالى أكل دينه فأمن الضلال على الأمة ، وأراد التخفيف على رسول الله ﷺ حين رأى وقد غلب عليه الوجع . ولو كان النبي ﷺ يريد أن يكتب لهم شيئاً مفروضاً لا يستغنون عنه لم يتركه باختلافهم ولغظهم ، لقول الله عز وجل : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ كما لم يترك تبليغ غيره بمخالفة من خالفه ومعاداة من عاداه ، وإنما أراد ما حكى سفيان بن عيينة عن أهل العلم قبله أن يكتب استخلاف أبي بكر ، ثم ترك كتابته اعتقاداً على ما علم من تقدير الله تعالى ذلك ، فكان عمر أفتقه من ابن عباس وموافقيه رضي الله عنهم . انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج ١٨٤/٧) ، وصحيح مسلم بشرح النووي (ج ٩٠/١) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١١/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، و (ج ١٥٦/٧) كتاب الطب - باب قول المريض قوموا عني .

(٣) في سيرة ابن هشام (ج ٤٠٧/٣) أنه ﷺ أوصى بست ، فذكر أنه أوصى للرهبان والداريين والسبائين والأشعريين بجاذ مائة وسق لكل منهم ، ثم ذكر وصيته بإنفاذ بعث أسامة ، وأن لا يترك بجزيرة العرب دينان .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٥/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١١/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٩٥/١) .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (ج ١١٢/١) وقال : رواة هذا الحديث عن آخرهم يحتج بهم .. ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٥/٤) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٩٥/١) ، والموطأ . (ص : ١١٩) جامع الصلاة .

(٧) أي لكشف قبر النبي ﷺ ولم يتخذ عليه الحائل ، والمراد : الدفن خارج بيته ، وهذا ما قالته عائشة ، رضي الله عنها ، قبل أن يُوسَّع المسجد النبوي ، ولهذا لما وُسع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة ، حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة (فتح الباري : ج ٢٠٠/٣) .

(٨) صحيح البخاري (ج ١٢/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

فَعِنْدَمَا حَضَرَتْ صَلَاةَ الْعِشَاءِ ثَقُلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعَهُ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَصَلَّى النَّاسُ ؟ » قُلْنَا : لَا ، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ ، قَالَ : « ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ » ، قَالَتْ : فَفَعَلْنَا ، فَغَاتَسَلْنَا ، فَذَهَبَ لِيَنْوُءَ (١) فَأَغْمَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ ، فَقَالَ : « أَصَلَّى النَّاسُ ؟ » قُلْنَا : لَا ، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَتْ : فَفَعَدَ فَغَاتَسَلْنَا ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْوُءَ فَأَغْمَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ ، فَقَالَ : « أَصَلَّى النَّاسُ ؟ » قُلْنَا : لَا ، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَتْ عَائِشَةُ : وَالنَّاسُ عَكَوْفٌ فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا - : يَا عَمْرُؤُ! صَلِّ بِالنَّاسِ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُؤُ : أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ ، فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الْأَيَّامَ سَبْعَ عَشْرَةَ صَلَاةً (٢) .

وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ : لَمَّا اسْتَعِزَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٣) وَأَنَا عِنْدَهُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَالَ : دَعَاهُ بِلَالٌ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَقَالَ : « مُرُوا مَنْ يَصَلِّيُ بِالنَّاسِ » ، قَالَ : فَخَرَجْتُ إِذَا عَمْرُؤُ فِي النَّاسِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ غَائِبًا ، فَقُلْتُ : قِمْ يَا عَمْرُؤُ فَصَلِّ بِالنَّاسِ ، قَالَ : فَجَاءَ ، فَلَمَّا كَبَّرَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَوْتَهُ ، وَكَانَ عَمْرُؤُ رَجُلًا مُجَهَّرًا (٤) ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ ؟ يَا أَبَى اللَّهِ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ ، يَا أَبَى اللَّهِ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ » . قَالَ : فَبِعَثْتُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَجَاءَ بَعْدَ أَنْ صَلَّى عَمْرُؤُ تِلْكَ الصَّلَاةَ ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ ، قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَمْعَةَ : قَالَ لِي عَمْرُؤُ : وَيْحَكَ !! مَاذَا صَنَعْتَ يَا ابْنَ زَمْعَةَ ؟ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ حِينَ أَمَرْتَنِي إِلَّا أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَكَ بِذَلِكَ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا صَلَّيْتُ بِالنَّاسِ ، قَالَ : قُلْتُ : وَاللَّهِ مَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ ، وَلَكِنِّي حِينَ لَمْ أَرَأْ أَبَا بَكْرٍ رَأَيْتُكَ أَحَقَّ مِنْ حَضْرٍ بِالصَّلَاةِ بِالنَّاسِ (٥) .

وَرَاجِعَتْ عَائِشَةُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، النَّبِيَّ ﷺ ثَلَاثَ أَوْ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ لِيَصْرِفَ الْإِمَامَةَ عَنْ أَبِيهَا ، فَأَبَى . قَالَتْ عَائِشَةُ : لَمَّا مَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَحَضَرَتْ الصَّلَاةَ فَأَذَّنَ ، قَالَ : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ (٦) إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، أَوْ قَالَتْ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ ضَعِيفُ الصَّوْتِ كَثِيرُ الْبِكَاةِ إِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ ، قَالَ : « مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » ، قَالَتْ : فَعُدْتُ بِمِثْلِ قَوْلِي ، فَقَالَ : « إِنَّكَ نُّصَاحِبٌ يَوْسُفَ فَمُرُوهُ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ » . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا أَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَحَبَّ أَنْ يُصْرِفَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ لَا يَحْتَبُونَ رَجُلًا قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا ، وَأَنَّ النَّاسَ سَيَتَشَاءُونَ بِهِ فِي كُلِّ حَدَثٍ كَانَ ، فَكُنْتُ أَحَبَّ أَنْ يُصْرِفَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ (٧) .

رَوَى الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يَصَلِّيَ بِالنَّاسِ » ، قَالَتْ عَائِشَةُ : قُلْتُ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ مِنَ الْبِكَاةِ ، فَمُرُّ عَمْرُؤُ فَلْيُصَلِّ ، فَقَالَ : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ » ، قَالَتْ عَائِشَةُ لِحَفْصَةَ : قَوْلِي لَهُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ مِنَ الْبِكَاةِ ، فَمُرُّ عَمْرُؤُ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ ، فَفَعَلْتُ حِفْصَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَهْ ! إِنَّكَ لَأَنْتَ نُّصَاحِبٌ يَوْسُفَ ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ » ، قَالَتْ حِفْصَةُ لِعَائِشَةَ : مَا كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكَ خَيْرًا (٨) .

(١) نَاءً يَنْوُءُ نَوَاءً : نَهَضَ بِجَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ ، وَقِيلَ : أَثْقَلَ فَسَقَطَ (لسان العرب : ج ٤٥٦٦/٦) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧٥/١) كتاب الصلاة - باب إنما جعل الإمام ليؤتم به ، و (ج ١١٦/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته وسنن الترمذي (ج ١١٢/٢) أبواب الصلاة - باب ما جاء في القراءة في المغرب ح ٣٠٨ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٢) .

(٣) أي : اشتدَّ بِهِ الْمَرَضُ وَأَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ (النهاية : ج ٢٢٨/٣) .

(٤) أي صاحب جهرٍ ورفيعٍ لصوته (النهاية : ج ٣٢١/١) .

(٥) سيرة ابن هشام (ج ٣٣٠/٤) .

(٦) رَجُلٌ أَسِيفٌ : أي تَرِيحُ الْبِكَاةِ وَالْحَزْنَ ، وَقِيلَ : هُوَ الرَّقِيقُ (النهاية : ج ٤٨/١) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٣٠/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٦٦/١) كتاب الصلاة - باب حدَّ المريض أن يشهد الجماعة .

(٨) صحيح البخاري (ج ١٨٢/١) كتاب الصلاة - باب إذا بكى الإمام في الصلاة .

آخر صلاة حضرها النبي ﷺ مع المسلمين :

ثم إن رسول الله ﷺ وجد في نفسه خفة ، وذلك قبل يوم أو يومين من وفاته ، فخرج يهادى^(١) بين رجلين ؛ أحدهما العباس والآخر علي ، رضي الله عنهما ، ورجلاه تخطبان في الأرض من الوجد ، وأبو بكر ، رضي الله عنه ، يصلي بالناس الظهر ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر ، فأوماً إليه النبي ﷺ أن مكانك ، وأمرها فأجلساه إلى يسار أبي بكر ، فكان رسول الله ﷺ قاعداً وأبو بكر قائماً ، يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ والناس يقتدون بصلاة أبي بكر ويسمعهم التكبير^(٢) .

وقيل : إن آخر صلاة شهدها النبي ﷺ مع المسلمين صلاة الصبح^(٣) ، صلاها خلف أبي بكر رضي الله عنه . فعن أم سلمة ، رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان في وجهه إذا خف عنه ما يجد خرج فصلّى بالناس ، وإذا وجد ثقله قال : « مَرَوْا النَّاسَ فَلْيُصَلُّوا » ، فصلّى بهم ابن أبي قحافة يوماً يوماً الصُّبح ، فصلّى ركعة ، ثم خرج رسول الله ﷺ فجلس إلى جنبه ، فأتمّ بأبي بكر ، فلما قضى أبو بكر الصلاة أتمّ رسول الله ﷺ ما فاتته^(٤) .

وفي رواية أن أبا بكر تكص^(٥) عن مصلاه ، فدفع رسول الله ﷺ في ظهره ، وقال : « صَلِّ بِالنَّاسِ » ، وجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فصلّى قاعداً عن يمين أبي بكر ، فلما فرغ من الصلاة قال : « لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَوْمُهُ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِهِ » .

ثم أقبل على الناس فكلمهم رافعاً صوته ، حتى خرج صوته من باب المسجد ، يقول : « أَيُّهَا النَّاسُ ! سَعَرَتِ النَّارُ ، وَأَقْبَلَتِ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا تَمَسَّكُونَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ ، إِنِّي لَمْ أُحِلَّ إِلَّا مَا أَحَلَّ الْقُرْآنُ ، وَلَمْ أُحْرَمْ إِلَّا مَا حَرَّمَ الْقُرْآنُ »^(٦) .

رجوع أسامة رضي الله عنه من معسكره بالجرُف :

فلما كان يوم الأحد اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه ، وترامت الأخبار إلى جيش أسامة فشاع الحزن والاضطراب في صفوفه ، فهبط أسامة وهبط الناس معه إلى المدينة ، والنبي ﷺ معتمور^(٧) ، فدخل عليه أسامة ، فطأطأ فقبله ورسول الله ﷺ قد أصمت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة . قال أسامة : فعرفت أنه يدعو لي^(٨) .

إعتاق النبي ﷺ غلمانه وتصدقّه بما عنده :

وأعتق رسول الله ﷺ في مرضه هذا أربعين نفساً ، وكانت عنده سبعة أو ستة دنانير ، فلما كان يوم الأحد قبل الوفاة بيوم أمر عائشة ، رضي الله عنها ، أن تتصدق بها ، فبعثت بها عائشة إلى علي ، رضي الله عنها ، فتصدق بها وكانت قد شغلت به^(٩) .
روي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه : « يَا عَائِشَةُ ! مَا فَعَلْتَ الذَّهَبُ ؟ » فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة ، فجعل يقبلها بيده ويقول : « مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِاللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، لَوْلَقِيَّتِهِ وَهَذِهِ

(١) أي : يمشي يئتيها مُتَمِدّاً عَلَيْهَا ، مِنْ ضَعْفِهِ وَتَأْيِيلِهِ (النهاية : ج ٢٥٥/٥) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ١٦٩/١ ، ١٧٤ ، ١٧٦) كتاب الصلاة - باب حدّ المريض أن يشهد الجماعة ، باب من قام إلى جنب الإمام لعله ، باب الرجل يأتم بالإمام ويأتم الناس بالمأموم ، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به ، والرقيق المختوم (ص : ٥٢٦) .

(٣) عند ابن إسحاق أنها كانت يوم الاثنين صبيحة وفاته ﷺ . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٩/٢) ، لكن الأظلم أنه ﷺ لم يخرج يوم توفّي للصلاة ، وإنما اكتفى بالنظر إلى المسلمين وهم في صلاة الصبح ، كما في الصحيحين . انظر : صحيح البخاري (ج ١٩١/١) كتاب الصلاة - باب هل يلتفت لأمر ينزل ، وصحيح مسلم (ج ٢١٥/١) كتاب الصلاة - باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر ح ٩٨ .

(٤) طبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٢) .

(٥) تَكَمَّ الرَّجُلُ يَنْكَمُ : رَجَعَ إِلَى خَلْفِهِ (لسان العرب : ج ٤٥٤٢/٦) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٢٢/٢) .

(٧) أي : مُتَمَنَّى عَلَيْهِ . انظر : (النهاية : ج ٢٨٤/٣) .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٢٩/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ١٩٠/٢) .

(٩) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٣٧/٢ ، ٢٣٩) ، والوفا بأحوال المصطفى ﷺ (ج ٧٨١/٢) .

عِنْدَهُ ، أَنْفَقِيهَا»^(١) . ولم يكن عندهم في مرضه دهن للمصباح يُوقد فيه ، فلَمَّا اشْتَدَّ وجعه ليلة الاثنين أرسلت عائشة ، رضي الله عنها ، إلى امرأة من النساء فقالت : اقطري لنا في مصباحنا من عَكْتِكَ السمن ، فإن رسول الله ﷺ أمسى في جديد الموت^(٢) (أي أوله) .

آخر نظرة نظرها النبي ﷺ إلى المسلمين :

بات رسول الله ﷺ ليلة الاثنين دَنِيًّا^(٣) ، ولم يبق رجل ولا امرأة إلا أتى المسجد لوجع رسول الله ﷺ ، فلما طلع الفجر أصبح رسول الله ﷺ مُفِيحًا^(٤) ، فكشف سِتْرَ الْحَجْرَةِ ، ونظر إلى الناس وهم صفوف خلف أبي بكر ، رضي الله عنه ، فقال : « إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه : لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسوله ﷺ ، وأبو بكر يصلي بالمسلمين صلاة الفجر ، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ كشف ستر حجرة عائشة ، رضي الله عنها ، وقام على الباب ينظر إليهم ، وهم صفوف في الصلاة ، قال أنس : كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك سروراً لما رأى من هيبته في الصلاة ، قال : فهمنا أن نفتتن في الصلاة من الفرح بروية النبي ﷺ ، وما نظرنا منظرأً كان أعجب إلينا من وجه النبي ﷺ حين وضع لنا ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتمموا صلاتكم . قال أنس : ما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة منه تلك الساعة ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر ، ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى .

ولما رأى الناس رسول الله ﷺ قد أصبح مُفِيحًا ظَنُّوا أنه قد أُفْرِقَ^(٥) من وجعه ، وخرج عليهم علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، من عند رسول الله ﷺ ، فقال له الناس : يا أبا حسن ! كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فانصرفوا إلى منازلهم وحوادثهم مستبشرين . أما العباس ، رضي الله عنه ، فقد عرف الموت يومئذ في وجه النبي ﷺ ، فأخذ بيد علي فقال له : أنت والله عبد العصا^(٦) بعد ثلاث ، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا ، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر ، إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا علمناه ، فأوصى بنا الناس ، فقال علي : إنا والله لئن سألتها رسول الله ﷺ فنحنها لا يعطيناها الناس بعده ، وإني والله لأسأله رسول الله ﷺ .

واستأذن أبو بكر ، رضي الله عنه ، النبي ﷺ في الخروج إلى أهله بالسُّح ، فقال : يانبي الله ! إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نُحِبُّ ، واليوم يوم بنت خارجة أفأتيتها ؟ قال : « نَعَمْ » ، فخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّح .

ودخل أسامة بن زيد ، رضي الله عنها ، على رسول الله ﷺ ليودِّعه ، فقال له رسول الله ﷺ : « اغد على بَرَكَةِ اللَّهِ » ، فانطلق أسامة إلى معسكره وأمر الناس بالرحيل . وانقلبت كل امرأة من نساء رسول الله ﷺ إلى بيتها في ذلك اليوم^(٧) .

الوصية الأخيرة :

كان آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ حين حضره الموت : « الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ، كرر ذلك مراراً حتى جعل يغرغر بها صدره ، وما يكاد يفيض بها لسانه .

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٤٩/٦) .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٢٣٩/٢) .

(٣) رَجُلٌ دَنِيٌّ وَمُدْنَفٌ : بَرَاءَةُ الْمَرَضِ حَتَّى أَشْفَى عَلَى الْمَوْتِ (لسان العرب : ج ١٤٣٢/٢) .

(٤) أَفَاقُ الْعَلِيلِ إِفَاقَةٌ : نَفَقَةٌ (لسان العرب : ج ٢٤٨٩/٥) .

(٥) أَفْرَقَ الْمَحْمُومُ وَالْمَرِيضُ : بَرَأَ (لسان العرب : ج ٢٤٠٠/٥) .

(٦) يُقَالُ لِلْقَوْمِ إِذَا اسْتَدَلُّوا مَاهُمْ إِلَّا غَيْبَهُ الْعَصَا ، وَقَوْلُهُمْ غَيْبَهُ الْعَصَا : أَي يُضْرَبُونَ بِهَا (لسان العرب : ج ٢٩٨٠/٤) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٣١/٤ ، ٣٣٢) ، وصحيح البخاري (ج ١٧٢/١ ، ١٩١) كتاب الصلاة - باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة ، باب هل

يلتفت لأمر ينزل ، و (ج ١٥٦/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، وطبقات ابن سعد (ج ١٩١/٢ ، ٢١٩) ، ودلائل النبوة للبيهقي

(ج ٢٠٠/٧) .

ويروى أنه أوصى بالصلاة والزكاة ومُلك الجين ، وأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قال كذلك حتى فاضت نفسه^(١) .

احتضار النبي ﷺ ووفاته :

وَوَعِكَ رسول الله ﷺ حين رجع إلى الحجرِ أَشَدَّ الوَعِكِ ، فاضطجع في حجر عائشة ، رضي الله عنها ، وجعل يتغشاه الكرب الشديد ، حتى تأذت ابنته فاطمة ، رضي الله عنها ، من شدة ما يلقي ، فقالت : واكرب أبناهُ ! فقال : « لا كَرْبَ على أَيْبِكِ بَعْدَ اليومِ ، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَيْبِكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا ، المُوَافَاةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وَذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة ، رضي الله عنها ، فقال لها النبي ﷺ : « لا تَبْكِي يَا بِنْتِي ! قُولِي إِذَا مِتُّ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! فَإِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ بِهَا مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ مَعْوِضَةٌ » ، قالت : ومنك يا رسول الله ؟ قال : « ومني » .

قالت عائشة رضي الله عنها : وجعل يُعْمَى عليه حتى يُغْلِبُ ، وجبهته تَرُشَّحُ عرقاً ما رأيته من إنسان قطُّ ، فجعلت أَسْلِتُ ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء قطُّ أطيب منه ، فكنت أقول له إذا أفاق : بأبي وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح ! فقال : « يا عَائِشَةُ ! إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ بِالرُّشْحِ ، وَالْكَافِرُ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقِهِ كَنَفْسِ الْحِمَارِ » .

وبينا رسول الله ﷺ يعالج سكرات الموت وعائشة مسندته إلى صدرها ، دَخَلَ عبد الرحمن بن أبي بكر ، رضي الله عنها ، وفي يده سواك رطب يَسْتَنْ^(٢) به ، قالت عائشة رضي الله عنها : فرأيتُه ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته ، فاشتد عليه ، فقلت له : أَلَيْتَهُ لَكَ ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فأخذته ففضضته حتى لَيْتَنَهُ ونفضته وطيبته ثم دفعته إليه ، فاستن به ، فما رأيت رسول الله ﷺ استنَّ استِنَانًا قطُّ أحسن منه ، ثم ناولنيهِ فسقط من يده ، فجمع الله بين ريقِي وريقه في آخر يوم من الدنيا وأوَّل يوم من الآخرة .

قالت عائشة رضي الله عنها : وبين يديه رَكْوَةٌ أو علبه فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول : « لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، إِنَّ لِمَوْتِ سَكَرَاتٍ ، اللَّهُمَّ ! أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ أَوْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ » . فكانت عائشة تقول بعد ذلك : لا أكره شدة لولت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ ، وفي لفظ : ما أخطأ أحداً بهون موت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ^(٣) .

روي عن أبي الحَوَيْرِثِ قال : إن رسول الله ﷺ لم يشتك شكوى إلا سأل الله العافية ، حتى كان في مرضه الذي مات فيه ، فإنه لم يكن يدعو بالشفاء ، ويقول : « يَا نَفْسُ ! مَا لَكَ تَلَوِّذِينَ كُلَّ مَلَأَةٍ ؟ »^(٤) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان مسح بيمينه ، ثم قال : « أَذْهَبِ الْبَأْسَ رَبِّ النَّاسِ ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي ، لا شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ ، شِفَاءَ لا يَغَادِرُ سَقَمًا » ، فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع ، فانتزع يده من يدي ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي واجْعَلْني مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى »^(٥) . وفي رواية أنه قال لها :

(١) قَاظَ : مَاتَ ، وَقَاظَتْ نَفْسُهُ : أَي : خَرَجَتْ رُوحُهُ (لسان العرب : ج ٢٥٠٢/٥) . وانظر : المستدرک (ج ٥٧٢) ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ١٠/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٣/٢) .

(٢) الاِسْتِنَانُ : اسْتِعْمَالُ السَّوَاكِ ، وَهُوَ اقْتِعَالٌ مِنَ الاِسْتِنَانِ ؛ أَي : يَمُرُّ عَلَيْهَا (النهاية : ج ٤١١/٢) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٢/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٢/٦ - ١٨) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، وسنن الترمذي (ج ٣٠٨/٣ ، ٣٠٩) كتاب الجنائز - باب ما جاء في التشديد عند الموت ح ٩٧٨ وح ٩٧٩ ، وسنن ابن ماجه (ج ٥٢١/١) كتاب الجنائز - باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ ح ١٦٢٩ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢١٢/٢) .

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٠/٧) .

(٥) الرَّفِيقُ الْأَعْلَى : جَمَاعَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، وَقِيلَ : مَعْنَى الْحَقِيقِيِّ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ؛ أَي : بِاللَّهِ تَعَالَى ، يُقَالُ : اللَّهُ رَفِيقٌ بِعِبَادِهِ مِنَ الرَّفِيقِ وَالرَّفِيقَةِ (النهاية : ج ٢٤٦/٢) .

(٦) صحيح مسلم (ج ١٧٢١/٤) كتاب السلام - باب استحباب رقية المريض ح ٤٦ .

« ارْفَعِي عَنِّي ؛ فَإِنَّا كَانَ يَنْفَعُنِي فِي الْمَدَّةِ » (١) .

قالت عائشة : ووجدت رسول الله ﷺ يتقل في حجري ، فذهبت أنظر في وجهه ، فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بَلِ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ » ، قالت : فقلت : خَيْرْتِ فَاخْتَرْتِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ .

وفي رواية أنها سمعته ﷺ يقول قبل أن يموت وأخذته بَحَّة : « ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ (٢) ، اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي ، وارْحَمْنِي ، وَالْحَقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى » ، قالت : فكان هذا آخر ما سمعته من كلامه ﷺ (٣) .

روى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول : « إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يَحْيَا أَوْ يُخَيَّرَ » ، فلما اشتكى وحضره القبض ، ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه ، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ، ثم قال : « اللَّهُمَّ ! فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى » ، فقلت : إذا لا يجاورنا ، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح (٤) .

قالت عائشة رضي الله عنها : ثم مال رأسه ﷺ على منكبي ، وخرجت من فيه نطفة باردة وقعت على ثَغْرَةِ نَحْرِي (٥) ، فاقشعرت لها جلدي ، وفاضت روحه الشريفة ﷺ ، قالت : فلما خرجت نفسه لم أجد ريحاً قطُّ أطيب منها .

قالت : وتوفي رسول الله ﷺ وليس عنده أحد غيبي في اليوم الذي كان يدور عليّ فيه في بيتي - وكانت قد بعثت أخيها عبد الرحمن إلى أبيها لما رأت أن النبي ﷺ قد احتضر ، فأت رسول الله ﷺ قبل أن يأتي أحد - قالت : فن سَفَّهِي وحدائفة سَنِي أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري ، ثم وضعت رأسه على وسادة وسجّيته برد حَبْرَةٍ ، وقمت التِّدِيمَ (٦) مع النساء وأضرب وجهي (٧) .

روى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، أنها كانت تقول : إن من نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَفَّى فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَخْرِي وَنَحْرِي (٨) ، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ (٩) .

وقيل : إن رسول الله ﷺ توفي ورأسه في حجر عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، والأول أصح (١٠) .

قال جابر رضي الله عنه : لما توفي رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، عزّتهم الملائكة يسمعون الحِسَّ ولا يرون الشخص ، فقالت : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإيّاها فارْجُوا ، فإنما المحروم من حُرْمِ الثَّوَابِ ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (١١) .

(١) مسند الإمام أحمد (ج ٢٦٠/٦) .

(٢) النساء : ٦٩ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٢٩/٤ ، ٢٣٣) ، وصحيح البخاري (ج ١٢/٦ ، ١٣) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

(٤) صحيح البخاري (ج ١٢/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

(٥) الثَغْرَةُ : هي ثَغْرَةُ النَّحْرِ فَوْقَ الصَّدْرِ (النهاية : ج ٢١٢/١) .

(٦) اللَّدْمُ : اللَّطْمُ وَالضَّرْبُ بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ يُسَبِّحُ وَقَعْمُهُ ، وَالتِّدِيمُ النَّسَاءُ : إِذَا ضَرَبْتَ وَجْهَهُنَّ فِي اللَّيْلِ (لسان العرب : ج ٤٠٢١/٥) .

(٧) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٣٣/٤) ، وصحيح البخاري (ج ١٦/٦) ، وسنن النسائي (ج ٢٤١/٦) كتاب الوصايا - هل أوصى النبي ﷺ .

(٨) اللباس - باب البرود والحبرة والشملة ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٢١/٦ ، ٢١٩) ، وسنن النسائي (ج ٢٤١/٦) كتاب الوصايا - هل أوصى النبي ﷺ .

(٩) أي : أَنَّهُ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى صَدْرِهَا وَمَا يَحَازِي سَخْرَهَا مِنْهُ . وَالسَّخْرُ : الرَّؤْيَةُ ، وَالنَّحْرُ : الصَّدْرُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ .

(١٠) صحيح البخاري (ج ١٥/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته .

(١١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٢٦٢/٢) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٧٧/٨) .

(١٢) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٥٧/٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

زمن وفاة النبي ﷺ وسنّه يومئذ :

وكانت وفاة النبي ﷺ حين اشتد الضحاء من يوم الاثنين في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة بلا خلاف ، واختلف في أي الاثنين كانت وفاته ، فقيل لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وقيل : ليلتين مضتا منه ، تمام عشر سنين كوامل من مقدمه ﷺ المدينة ، وله ثلاث وستون سنة على أرجح الأقوال (١) .

وكان ذلك اليوم أشد الأيام سواداً ووحشة ومصاباً على المسلمين ، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس . قال أنس رضي الله عنه : ما رأيت يوماً قطّ أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله المدينة ، وشهدت وفاته فما رأيت يوماً قطّ أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي رسول الله ﷺ فيه (٢) .

وعنه أيضاً قال : لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي وإننا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (٣) .

وقالت فاطمة ، رضي الله عنها ، لما مات رسول الله ﷺ : يا أبتاه ! أجب رباً دعاه ، يا أبتاه ! من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ! إلى جبريل ننعاه .

وقالت : وأبتاه ! من ربّه ما أدناه ، وأبتاه ! ربّه يكرمه إذا أتاه ، وأبتاه ! الربّ ورسله يسلم عليه حين يلقاه .

وبكت أمّ أمّين ، رضي الله عنها ، فقيل لها : ما يبكيك يا أمّ أمّين ؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ ، فقالت : ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، وكان يأتينا غضاً جديداً كل يوم وليلة (٤) .

كيف تلقى الصحابة نبأ الوفاة ؟

تقدّم أنه لما احتضر رسول الله ﷺ أرسلت عائشة إلى أبيها أبي بكر ، رضي الله عنه ، كما أرسلت فاطمة إلى علي رضي الله عنها ، ثم أرسلت كل امرأة إلى حميها أن رسول الله ﷺ يموت ! وبعثت بذلك أمّ أمّين إلى ابنها أسامة بن زيد ، رضي الله عنها ، فلم يرجع أحد حتى توفي النبي ﷺ ، فأقبل أسامة وأقبل معه عمر وأبو عبيدة ، رضي الله عنهم ، فانتبهوا إلى رسول الله ﷺ وقد مات ، ثم دخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة ، ودخل بريدة بن الحصيب بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرز عنده .

ونزل خبر وفاة رسول الله ﷺ على الصحابة كالصاعقة ، لشدة حُبهم له ، وما تعودوه من العيش في كنفه ، عيش الأبناء في حجر الآباء ، بل أكثر من ذلك ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) .

وشعروا أن آفاق المدينة أظلمت ، فتركهم لوعة الشكل حيارى لا يدرون ما يفعلون ، فمنهم من أقعد فلم يطبق القيام ، ومنهم من أخرس فلم يطبق الكلام ، ومنهم من دَهِش فحوّل ولم يكذب يصدق نبأ وفاته ﷺ . فكان علي ، رضي الله عنه ، ممن أقعد فلم يستطع

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢/٤ ، ٢٣٢) ، وصحيح البخاري (ج ٢/١٢٧) كتاب الجنائز - باب موت يوم الاثنين ، و (ج ٥/٧٢) كتاب المغازي - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وصحيح مسلم (ج ٤/١٨٢٧) كتاب الفضائل - باب كم أقام النبي ﷺ بمكة والمدينة ح ١١٩ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢/١٩٧) ، ودلائل البيهقي (ج ٧/٢٣٤ ، ٢٣٥) .

(٢) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٣/١٢٢) .

(٣) سنن الترمذي (ج ٥/٥٨٨) كتاب المناقب - باب في فضل النبي ﷺ ح ٣٦١٨ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب صحيح .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٦/١٨) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، وصحيح مسلم (ج ٤/١٩٠٧) كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أمّ أمّين رضي الله عنها ح ١٠٣ ، والمستدرک (ج ٢/١٦٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٧/٢٦٧) .

(٥) التوبة : ١٢٨ .

أن يتحرك ، وعثمان ، رضي الله عنه ، فيمن أخرس ؛ يذهب ويجيء ولا يستطيع أن يتكلم ، وعمر ، رضي الله عنه ، في مقدمة من أنكر موته ﷺ (١) .

روي عن القاسم بن محمد أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ذهب بصره ، فدخل عليه أصحابه يعودونه ، فقال : إنما كنت أريدكما لأنظر بهما إلى رسول الله ﷺ ، فأما إذا قبض الله نبيه فما يسرني أن ما بها بطبي من طيباء تباله (٢) .

واقترح الناس على النبي ﷺ في بيت عائشة ، رضي الله عنها ، ينظرون إليه ، فقالوا : كيف يموت وهو شهيد علينا ونحن شهداء على الناس ، فيموت ولم يظهر على الناس ؟ لا والله مامات ، ولكنه رفع كف عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، وكبرجمن ! وتوعدوا من قال إنه مات ، ونادوا في حجرة عائشة وعلى الباب : لا تدغوه ؛ فإن رسول الله ﷺ لم يموت .

وجاء عمر مع المغيرة بن شعبة ، رضي الله عنها ، فاستأذنا على رسول الله ﷺ ، فأذنت لها عائشة ، قالت : وجذبت إلي الحجاب ، فنظر عمر إليه فقال : واغشياه ! ما أشد غشي رسول الله ﷺ ، ثم قاما ، فلما دتوا من الباب قال المغيرة : يا عمر ! مات رسول الله ﷺ ، قال : كذبت ؛ بل أنت رجل تحوسك فتنة (٣) ؛ إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يُفني الله ، عز وجل ، المنافقين .

فلما خرج عمر ، رضي الله عنه ، سل سيفه - وكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، غائباً بالسُّج - فتوعد الناس وقال : لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بالسيف . ثم قام في المسجد وخطب الناس فقال : إن رجلاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي ، وإن رسول الله ﷺ والله مامات - قال عمر : والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك - ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران ؛ فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات .

ولم يزل عمر ، رضي الله عنه ، يتكلم حتى أزيد شدقه مما يُوعِد ويقول . فقام العباس ، رضي الله عنه ، فقال : إن رسول الله ﷺ قد مات ، وإنه لبشر ، وإنه يأسن كما يأسن البشر ، أي قوم ! فادفنوا صاحبكم فإنه أكرم على الله من أن يميته إمامتين ؛ أيّمت أحدكم إمامة ويميته إمامتين وهو أكرم على الله من ذلك ؟ أي قوم ! فادفنوا صاحبكم ؛ فإن يك كما تقولون فليس بعزيز على الله أن يبيح عنه التراب . إن رسول الله ﷺ والله مامات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً ، فأحلّ الحلال وحرمّ الحرام ، ونكح وطلق ، وحارب وسالم ، ما كان راعي غنم يتبع بها صاحبها رؤوس الجبال يخط عليها العِصاه بمخبطه ، ويمدّر حوضها (٤) بيده ، بأنصب ولا أداب من رسول الله ﷺ كان فيكم ، أي قوم ! فادفنوا صاحبكم (٥) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : والله إني لأمشي مع عمر في خلافته وهو عامد إلى حاجة له ، وفي يده الدرّة ، وما معه غيري ، قال : وهو يحدث نفسه ، ويضرب وحيثي قدمه (٦) بدرّته ، إذ التفت إليّ ، فقال : يا ابن عباس ! هل تدري ما كان حملني على مقالتي التي قلت حين توفي رسول الله ﷺ ؟ قال : قلت : لا أدري يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم ، قال : فإنه والله إن كان الذي حملني على ذلك

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٩١/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠١/٧ ، ٢٣٤) ، ومختصر تاريخ دمشق (ج ٢٨٤/٢) ، ومسند الإمام أحمد (ج ٦١) .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٢١٢/٢) .

(٣) أي تخالطك وتختك على زكوبها (النهاية : ج ٤٦٠/١) .

(٤) مدّر الحوض : طيّنة وأصلحه بالمدّر لئلا يخرج منه الماء ، والمدّر : هو الطين المتبايك (النهاية : ج ٣٠٩/٤) .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٤/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٨٥) ، كتاب المناقب ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢١٩/٦) ، وسنن الدارمي (ج ٣٩١) ، وجمع الزوائد (ج ١٨٢/٥) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧١/٢) .

(٦) الوحيي : الجانب الأيسر من كل شيء ، وقال بعضهم : إنسي القدم ما قبل منها على القدم الأخرى ، وحييها ما خالف إنسيها (لسان العرب : ج ٤٧٨٥/٦) .

إلا أني كنت أقرأ هذه الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١) ، فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بأخر أعمالها ؛ فإنه للذي حملني على أن قلت ما قلت (٢) .

موقف أبي بكر رضي الله عنه من نبأ الوفاة :

ثم أقبل أبو بكر ، رضي الله عنه ، على فارس من مسكنه بالسُّنْح حين بلغه الخبر ، حتى نزل فدخل المسجد ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على عائشة ، فتيم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! مات رسول الله ﷺ ، ثم أكب عليه قبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي طيبت حياً وميتاً ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة الأولى التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها مorte أبداً (٣) ، ورد الثوب على وجهه ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : أيها الخالف على رسلك ؛ أنصت ، فأبي عمر إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس ! إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَبْصُرَ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٥) ، فنسج (٦) الناس ييكون .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس ، كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

وقال عمر : فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففقرت (٧) حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي ﷺ قد مات . قيل : فكان عمر ، رضي الله عنه ، أجزع الناس كلهم ، وكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، أثبتهم . وكانت عائشة ، رضي الله عنها ، تقول : فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها ، لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً ، فردم الله بذلك ، ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذي عليهم ، وخرجوا به يتلون : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية (٨) .

وفي رواية عن عروة أن أبا بكر ، رضي الله عنه ، قال للناس : إن الله تبارك وتعالى ، نعى نبيكم إلى نفسه وهو حي بين أظهركم ونعائم إلى أنفسكم ، فهو الموت حتى لا يبقى أحد إلا الله ، عز وجل ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ... ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٩) ، وقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤١/٤) .

(٣) أشار بذلك رضي الله عنه إلى الرد على من زعم أنه ﷺ سيحيا فيقطع أيدي رجال وأرجلهم ، لأنه لو صح ذلك للزم أن يموت مorte أخرى ، فأخبر أنه أكرم على الله من أن يجمع عليه موتتين كما جمعها على غيره ؛ كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ، وكالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٧٨/٨) .

(٤) الزمر : ٣٠ .

(٥) آل عمران : ١٤٤ .

(٦) النشيج : صَوْتٌ مَعَهُ تَوَجُّعٌ وَبُكَاءٌ كَمَا يَرُدُّ الصَّبِيُّ بُكَاءَهُ فِي صَدْرِهِ (النهاية : ج ٥٢/٥) .

(٧) العقر : أَنْ تُسَلِّمَ الرَّجُلَ قَوَائِمَهُ مِنَ الْخَوْفِ . وقيل : هو أَنْ يَفْجَأَهُ الرَّوْعُ فَيُدْهَشَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ، وقد تقدم .

(٨) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٤/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٨/٥ ، ٩) كتاب المناقب ، و (ج ١٧/٦) كتاب المغازي . باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٢٠/٦) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٩٥/٣) .

(٩) القصص : ٨٨ .

فان .. (١) ، وقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. ﴾ (٢) . ثم قال : إن الله تبارك وتعالى ، عمّر محمداً ﷺ وأبقاه حتى أقام دين الله ، وأظهر أمر الله ، وبلغ رسالة الله ، وجاهد في سبيل الله ، ثم توفاه الله على ذلك ، وقد ترككم على الطريقة ، فلن يهلك هالك إلا من بعد البيئنة والشفاء ، فمن كان الله ربّه ؛ فإن الله حيّ لا يموت ، ومن كان يعبد محمداً وينزله إلهاً ، فقد هلك إلهه ، وآتقوا الله أيها الناس ! واعتصموا بدينكم ، وتوكلوا على ربكم ، فإن دين الله قائم ، وإن كلمة الله تامّة ، وإن الله ناصر من نصره ، ومعزّ دينه ، وإن كتاب الله ، عزّ وجلّ ، بين أظهرنا ، وهو النور والشفاء ، وبه هدى الله محمداً ﷺ وفيه حلال الله وحرامه ، والله لا ينالي من أجلب علينا من خلق الله ، إن سيوف الله لمسلولة ، ماوضعناها بعد ، ولنجاهدنّ من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يبيّقين أحد إلا على نفسه (٣) .

أمر سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة :

وقبل أن يقوم المسلمون بتجهيز رسول الله ﷺ بايعوا أبا بكر ، رضي الله عنه ، بالخلافة حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم ، وتزريق شملهم ، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم ، وليفارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة ، وشملهم منتظم ، وعليهم أمير يتولى أمورهم ، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه .

روي أن عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد رضي الله عنه : أشهدت وفاة رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : فمتى بويج أبو بكر ؟ قال : يوم مات رسول الله ﷺ ؛ كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة (٤) .

إلا أنه قبل أن تتم البيعة جرت مناقشات ومجادلات ، وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة ، وذلك أنه لما تحقق موت النبي ﷺ انحاز غالب المهاجرين إلى أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، وانضم إليهم من الأنصار أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل ، واعتزل عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وجمع من بني هاشم في بيت فاطمة رضي الله عنها . وانحاز الأنصار بأجمعهم (٥) إلى سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة ، وكان سعد ، رضي الله عنه ، مريضاً مزماً بثيابه بينهم ، فأتى أت إلى أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، فقال : إن هذا الحيّ من الأنصار مع سعد بن عباد في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتساقم أمرهم ، أو أن يحدثوا أمراً يكون فيه حرب ، فانطلقوا وبقي رسول الله ﷺ على فراشه مسجى بثوبه ، قد أغلق دونه الباب أهله ، حتى كان يوم الثلاثاء ، وبويج أبو بكر ، فأخذوا في جهازه (٦) .

وملخص ما كان من حديث سقيفة بني ساعدة ، كما رواه البخاري وابن إسحاق والإمام أحمد وغيرهم من أصحاب السنن والمغازي ، أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لما أخبر أن الأنصار قد اجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة قال لأبي بكر رضي الله عنه : يا أبا بكر ! انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار ، فانطلقا معهم أبو عبيدة بن الجراح ، قال عمر : فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلاً صالحاً وهما عويم بن ساعدة ، ويقال : عويمر ، ومعن بن عدي (٧) ، وهما من الأوس ، فذكرا لنا ما تمألاً عليه القوم ، وقالوا :

(١) الرحمن : ٢٦ .

(٢) آل عمران : ١٨٥ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (ج ٢١٧/٧) .

(٤) تاريخ الطبري (ج ٢٠٧/٣) .

(٥) قال صاحب السيرة الحلبية : اجتمعوا أولاً ثم تفرق عنهم أسيد بن حضير ، رضي الله عنه ، ومن معه من بني عبد الأشهل . (السيرة الحلبية : ج ٢٥٦٣) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٥/٤) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٥٦/٣) ، وفتح الباري (ج ٣٠٧) .

(٧) عويم بن ساعدة ، رضي الله عنه ، هو الذي قيل لرسول الله ﷺ : من الذين قال الله ، عزّ وجلّ ، لهم : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهَّرِينَ ﴾ ؟ - التوبة : ١٠٨ - فقال رسول الله ﷺ : « نِعْمَ الْمُرءُ مِنْهُمْ عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ » . وأما معن بن عدي ، رضي الله عنه ، فإن الناس لما بكوا على رسول الله ﷺ حين توفاه الله ، عزّ وجلّ ، وقالوا : والله لو ددنا أننا متنا قبله ؛ إنا نخشى أن نفتتن بعده ، قال : لكني والله ما أحبّ أني مت قبله ، حتى أصدقته ميتاً كما صدقته حياً . فقتل معن ، رضي الله عنه ، يوم اليامة شهيداً في خلافة أبي بكر ، رضي الله عنه ، يوم مسيئمة الكتاب . انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٠/٤) .

أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلنا : نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار ، قالوا : فلا عليكم أن لا تقرّبوهم ، واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين ، قال عمر : فقلت : والله لئن أتيتهم ، فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا هم مجتمعون ، وإذا بين ظهرانيهم رجل مرمل ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : سعد بن عباد ، فقلت : ماله ؟ قالوا : ورجع ، فلما جلسنا قليلاً قام خطيبهم فشهد وأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ؛ فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا أو بيننا ، وقد دفت دافة^(١) من قومكم ، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، ويعصّبونا الأمر^(٢) .

قال عمر : فلما سكت أردت أن أتكلّم ، وكنت قد زوّرت في نفسي مقالة^(٣) أعجبتني أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر ، وكنت أداري منه بعض الحدّ ، فلما أردت أن أتكلّم ، قال أبو بكر : على رسلك يا عمر ، فكرهت أن أغضبه ، فتكلّم أبو بكر فكان هو أحلم ، أو أعلم مني ، وأوفر ، والله ماترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديتها مثلها أو أفضل منها حتى سكت .

فقال : أما بعد ؛ فما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش ؛ هم أوسط العرب^(٤) نسباً وداراً^(٥) ، وكنا معشر المهاجرين أول من آمن بالله وبالرسول ، ونحن أولياؤه وعشيرته وذوو رحمه ، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده ، وأنتم يا معشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ، رضيكُم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته . فلم يترك شيئاً نزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا وذكره ، ومنه : « لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَاوْدِيَا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ وَاوْدِيَا سَلَكَتْ وَاوْدِي الْأَنْصَارِ » . ثم قال : فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلةكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتنون^(٦) بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور .

وقال : ولقد علمت ياسعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد : « قَرِيْشٌ وَّلَاةٌ هَذَا الْأَمْرِ ، قَبْرُ النَّاسِ تَبِعَ لِبَرِّهِمْ ، وَفَاجِرُهُمْ تَبِعَ لِفَاجِرِهِمْ » . فقال له سعد بن عباد : صدقت ، فنحن الوزراء وأنتم الأمراء ، قال أبو بكر : وأنتم إخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في دين الله ، وأحبّ الناس إلينا ، وأنتم أحقّ الناس بالرضا بقضاء الله والتسليم لفضيلة إخوانكم ، وأن لا تحسدوهم على خير ، وإني قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعوا أيها شئتم . قال عمر : فأخذ بيدي وييد أبي عبيدة بن الجراح ، فلم أكره مما قال غيرها ، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحبّ إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئاً لأجده الآن .

فقال عند ذلك قائل من الأنصار وهو الحباب بن المنذر : أنا جدّيلها المَحْكَكُ^(٧) وعَدَيْتُهَا الْمَرْجَبُ^(٨) ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش ، وإنا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم ، ولكننا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم ، فقال له عمر : إذا كان كذلك فت إن استطعت .

(١) دَفَّتْ ، دَافَةٌ : أي دَبَّ قَوْمٌ بِالْإِسْتِعْلَاءِ وَالتَّرْفُوعِ عَلَيْنَا ، وَالدَّافَةُ : الْقَوْمُ يَسِيرُونَ جَمَاعَةً سِرّاً لَيْسَ بِالشَّدِيدِ . انظر : السيرة الحلبية (ج ٣٥٧/٣) ، و (النهاية : ج ١٢٤/٢) .

(٢) أي يَقْتَطِعُونَا وَيَنْحَوِنَا وَيَسْتَبِدُّوْا بِالْأَمْرِ دُونَنَا . انظر : السيرة الحلبية (ج ٣٥٧/٣) ، و (لسان العرب : ج ١١٥١/٢) .

(٣) أي هَيِّاتُ وَأَصْلَحْتُ ، وَكَلَامٌ مُزَوَّرٌ : مُحَسَّنٌ (النهاية : ج ٣١٨/٢) .

(٤) أَوْسَطُ الشَّيْءِ : أَفْضَلُهُ وَخِيَارُهُ (لسان العرب : ج ٤٨٢٢/٦) .

(٥) يريد مكة المكرمة .

(٦) يُقَالُ : افْتَنَاتَ عَلَيْهِ : إِذَا انْفَرَدَ بِرَأْيِهِ دُونَهُ فِي التَّصَرُّفِ فِيهِ . وقد تقدم .

(٧) الْجَدَيْلُ : تَصْغِيرُ جَدَلٍ ، وَهُوَ الْعَوْدُ الَّذِي يُنْصَبُ لِلْإِبْلِ الْجَزْبِيِّ لِتَحْتَكَّ بِهِ ، وَهُوَ تَصْغِيرُ تَعْظِيمٍ ؛ أَي : أَنَا مِمَّنْ يُسْتَشْفَى بِرَأْيِهِ كَمَا تُسْتَشْفَى الْإِبِلُ الْجَزْبِيُّ بِالْإِحْتِكَالِ هَذَا الْعَوْدِ (النهاية : ج ٢٥١/٨) .

(٨) الْعَدَيْتُ : تَصْغِيرُ الْعَدْيِ ، وَهِيَ النَّخْلَةُ ، وَهُوَ تَصْغِيرُ تَعْظِيمٍ ، وَتَرْجِيْبُهَا بِأَنْ يُجْعَلَ حَوْلَهَا شَوْكٌ لِكَلِّ يَرْفَى إِلَيْهَا ، وَمِنْ التَّرْجِيْبِ أَنْ تُعْمَدَ بِخَشَبَةِ ذَاتِ شُعْبَتَيْنِ وَالرَّادُ : أَنَا ذُو الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ الَّذِي يَسْتَشْفَى بِهِ فِي الْحَوَادِثِ وَلَا سِوَا فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ . انظر : (النهاية : ج ١١٧/٢) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٥٨/٣) .

فتكلم أبو بكر رضي الله عنه : فقال : لا ، ولكننا الأمراء ، وأتم الوزراء ، وهذا الأمر بيننا وبينكم نصفين كقصد الأبلمة^(١) .
 فقام خطيب الأنصار ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرنه برجل منا ، فزى أن يلي هذا الأمر رجلان : أحدهما منكم ، والآخر منا . وتتابع خطباء الأنصار على ذلك ، فقام زيد بن ثابت رضي الله عنه وقال للأنصار : إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين ، وإن الإمام يكون من المهاجرين ، ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ . فقال أبو بكر : جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار وثبت قائلكم ، قال عمر : يا معشر الأنصار ! ألسنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر ، ثم أخذ زيد بن ثابت بيد أبي بكر فقال : هذا صاحبكم فبايعوه ، فقام الحباب بن المنذر فقال : يا معشر الأنصار ! املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم فاجئوهم عن هذه البلاد ، أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة^(٢) ، فقال عمر : إذا يقتلك الله ! قال : بل إياك يقتل ! فقال أبو عبيدة رضي الله عنه : يا معشر الأنصار ! إنكم أول من نصر وأزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .

فقام بشير بن سعد أبو النعمان فقال : يا معشر الأنصار ! إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا ، فإن الله ولي المنة علينا بذلك ، ألا إن محمداً ﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وإيم الله لا يراي الله أنازعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوه ولا تنازعوه .

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأياهما شئتم فبايعوا ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : « أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ، فقالا : لا والله لا تتولى هذا الأمر عليك ، اسبط يدك نبايعك ، قال عمر : فكثرت اللفظ وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف ، فقلت : اسبط يدك يا أبا بكر نبايعك ، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : بل أنت يا عمر ! فأنت أقوى لما مني ، فقال عمر : أنت أفضل مني ، ثم كرر ذلك ، فلما كانت الثالثة فتح عمر يد أبي بكر وقال : إن لك قوتي مع فضلك ، قال عمر : فبايعته وبايعه المهاجرون ، ثم بايعته الأنصار ، ونزونا^(٣) على سعد بن عباد ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عباد ، فقلت : قتله الله .

ويقال : إن أول من بايعه من الناس بشير بن سعد ، فناداه الحباب بن المنذر ، فقال : ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ أنتشئت على ابن عمك الإمارة ! فقال : لا والله ؛ ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم .

قال عمر : أما والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقتنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا ، فإما نبايعهم على ما لا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فساد .

ولما تولى عمر ، رضي الله عنه ، الخلافة خطب الناس في آخر خلافته ، فكان مما قال : إنه بلغني أن قائلًا منكم يقول : والله لو قدم مات عمر بايعت فلاناً فلا يتغيرن أمرؤ أن يقول : إنما كانت بيعة أبي بكر فلتنة^(٤) وتمت ، ألا وإنها قد كانت كذلك ، ولكن الله وفق شرها ، وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر ، فن بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا^(٥) .

(١) القد : الشق ، والأبلمة : خوصة الثقل ، يقول : نحن وإياكم في الحكم سواء ، لا فضل لأمر على مأمور كالأخوصة إذا شقت بائنتين متساويتين (النهاية : ج ١٧/١) .

(٢) أعدت الأمر جذعاً أي : جديداً كما بدأ . وإذا طمئت حرب بين قوم فقال بعضهم : إن شئتم أعذناها جذعة ، أي : أول ما يبئسداً فيها .

(٣) أي وثبنا ، وقيل : وقمنا عليه (النهاية : ج ٤٤/٥) .

(٤) أي فجة أو بقة لاعتنا استبعادها لها . فلم تم فيها مشاورة جميع المسلمين ومنهم بنو هاشم الذين اجتمعوا مع علي في بيت فاطمة ، رضي الله عنها ، ومثل هذه البيعة جديرة بأن تكون مهيبة للشع والفطنة ، فعصم الله من ذلك ووق . والفتنة : كل شيء فعل من غير روية ، وإنا بودر بها خوف انتشار الأمر . وقيل : أراد بالفتنة الخلسة . أي إن الإمامة يوم السيف مالت إلى توليها الأنفس ، ولذلك كثر فيها الشاجر ، فما قلدها أبو بكر إلا انتزاعاً من الأيدي واختلاصاً . انظر (السيرة الحلبية : ج ٣٦٠/٣) ، و (النهاية : ج ٤٦٧/٣) .

(٥) أي خوف وقوعها في القتل . ومعنى الحديث : أن البيعة حقها أن تقع صادرة عن المشورة والاتفاق ، فإذا استبد رجلان دون الجماعة فبايع أحدهما =

وقال أبو بكر، رضي الله عنه، وقد سأله أبو رافع الطائي رفيقه في غزوة ذات السلاسل عم قبيلى في بيعتهم، فقال وهو يحذثه بما تكلمت به الأنصار، وما كلمهم به، وما كلم به عمر بن الخطاب الأنصار وما ذكرهم به من إمامتي إياهم بأمر رسول الله ﷺ في مرضه؛ فبايعوني لذلك وقبيلتها منهم، فقال له أبو رافع: ما حملك على ذلك؟ وقد نهيتني أن أتأمر على اثنين، فقال: لم أجد من ذلك بدأ؛ خشيت على أمة محمد ﷺ الفرقة، وتحوّفت أن تكون فتنة تكون بعدها ردة^(١).

البيعة العامة:

تمت مبايعة أبي بكر، رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة يوم الاثنين يوم وفاته ﷺ، فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء اجتمع الناس في المسجد، فكانت البيعة العامة على المنبر.

قال أنس رضي الله عنه: لما بُويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، وقام عمر فتكلم بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس! إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت، وما وجدت في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهدته إني رسول الله ﷺ، ولكنني قد كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبّرنا - يريد بذلك أن يكون آخرهم - فإن يك محمد قد مات؛ فإن الله تعالى قد أبقي فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه فإنه أولى المسلمين بأمركم. فبايع الناس أبا بكر بيعته العامة بعد بيعة السقيفة، وكان أبو بكر، رضي الله عنه، يقول لهم: بايعوني على السمع والطاعة لله ولكتابه، ثم للأمر، فيقولون: نعم، فبايعهم.

ثم قام أبو بكر، رضي الله عنه، فخطب الناس، فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: أما بعد؛ أيها الناس! فياني قد وُئيت عليكم ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن وسنّ النبي ﷺ السنن، فعلّمنا فعلّمنا. أيها الناس! إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، اعلموا أن أكيس الكيس التقوى، وأن أحقّ الحُقوق الفجور، والصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحقّ منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قطّ إلاّ عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم^(٢).

وجاء في رواية أنه قال: يا أيها الناس! لوددت أن هذا كفانيه غيري، ولئن أخذتموني بسنة نبيكم ﷺ ما أطيقها؛ إن كان لمعضوماً من الشيطان، وإن كان لينزل عليه الوحي من السماء^(٣).

روي عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أنه لما قعد أبو بكر، رضي الله عنه، على المنبر نظر في وجوه القوم فلم ير علياً، رضي الله عنه، فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابن عمّ رسول الله ﷺ وختنته أردت أن تشقّ عصا المسلمين! فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه. ثم لم ير الزبير بن العوام، رضي الله عنه، فسأل عنه حتى جاؤوا به، فقال: ابن عمّة رسول الله ﷺ وحواريّه أردت أن تشقّ عصا المسلمين! فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فبايعه^(٤).

= الآخر، فذلك تظاهر منها بشقّ العصا وإطراح الجماعة، فإن عقبة لأخذ بيعة فلا يكون المتفقود لة واحداً منها، وليكونا مغزولين من الطائفة (النهاية: ج ٣٥٦/٣).

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٣٠٠/٤، ٣٣٥ - ٣٣٩)، وصحيح البخاري (ج ٨/٥) كتاب المناقب، و(ج ٢٠٨/٨، ٢١٠) كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، ومسند الإمام أحمد (ج ٥/١، ٨، ٢١، ٥٦)، و(ج ١٨٥/٥)، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ١٤٢/٨، ١٤٥)، وطبقات ابن سعد (ج ١٨٢/٣، ١٨٦)، وتاريخ الطبري (ج ٢٠٢/٣، ٢١٨)، وكنز العمال (ج ٦٥٢/٥)، وفتح الباري (ج ٣١/٧).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (ج ٣٤٠/٤)، وصحيح البخاري (ج ١٠٠/٩) كتاب الأحكام - باب الاستخلاف، وكنز العمال (ج ٦٢٩/٥)، وطبقات ابن سعد (ج ١٨٢/٣).

(٣) انظر مسند الإمام أحمد (ج ١٢/١) وفيه أنه قال ذلك بعد وفاة النبي ﷺ بشهر.

(٤) روه البيهقي في السنن الكبرى (ج ١٤٢/٨) والحاكم في المستدرک (ج ٧٦/٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وإنما تأخر عليّ والزبير، رضي الله عنهما، عن البيعة لأنهما وجدا في أنفسهما لعدم مشاورتهما مع جمع من بني هاشم لم يحضروا اجتماع سقيفة بني ساعدة.

لكن ورد في الصحيحين أن علياً ، رضي الله عنه ، لم يبايع ستة أشهر حتى توفيت فاطمة ، رضي الله عنها . فقد روى البخاري بسنده عن عائشة ، رضي الله عنها ، فذكرت الحديث وفيه أن فاطمة ، رضي الله عنها ، سألت أبا بكر ميراثها من أبيها ﷺ إلى أن قالت : وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر ، فلما توفيت دفنها زوجها عليّ ليلاً ، ولم يؤذن بها أبا بكر ، وصلى عليها ، وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة ، فلما توفيت استنكر عليّ وجوه الناس ، فالتبس مصالحة أبي بكر ومبايعته ، ولم يكن يبايع تلك الأشهر ، فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا أحد معك ، كراهية لمخض عمر ، فقال عمر : لا والله لا تدخل عليهم وحدك ، فقال أبو بكر : وما عسيتم أن يفعلوا بي ؟ والله لا آتينهم ، فدخل عليهم أبو بكر ، فتشهد عليّ ، فقال : إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا بالأمر ، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيباً ، حتى فاضت عينا أبي بكر . فلما تكلم أبو بكر قال : والذي نفسي بيده ! لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي ، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال ، فلم آل فيها عن الخير ، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته . فقال عليّ لأبي بكر : موعدك العشيّة للبيعة . فلما صلى أبو بكر الظهر رقي على المنبر فتشهد وذكر شأن عليّ وتخلّفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر إليه ، ثم استغفر وتشهد عليّ فعظم حقّ أبي بكر ، وحدث أنه لم يحمله على الذي صنع نفاسه على أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضله الله به ، ولكننا نرى لنا في هذا الأمر نصيباً ، فاستبدت علينا ، فوجدنا في أنفسنا . فسّر بذلك المسلمون وقالوا : أصبت ، وكان المسلمون إلى عليّ قريباً ، حين راجع الأمر المعروف^(١) .

وقد جمع الحافظ ابن كثير بين رواية الصحيح والتي قبلها وهي صحيحة أيضاً ، بأن علياً ، رضي الله عنه ، بايع أولاً مع الناس البيعة العامة على المنبر ، ولكن لما حصل من فاطمة ، رضي الله عنها ، عتب على الصديق بسبب ما كانت متوهمة من أنها تستحق ميراث رسول الله ﷺ ، ولم تعلم بما أخبرها به الصديق ، رضي الله عنه ، أن أباها قال : « لا نُورَثُ ما تَرَكَنا فهو صدقة »^(٢) ، فحصل لها - وهي امرأة من البشر ليست بواجبة العيصة - عتب وتغضب ، ولم تكلم الصديق في حاجة حتى ماتت ، واحتاج عليّ أن يراعي خاطرها بعض الشيء ، فلما ماتت رضي الله عنها بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ رأى عليّ أن يجده البيعة لأبي بكر ، رضي الله عنه ، وبسبب وقوع هذه البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة أن علياً ، رضي الله عنه ، لم يبايع قبلها فنفي ذلك ، والمثبت مقدّم على النافي كما هو معلوم^(٣) .

ويؤيد صحة ما ذهب إليه ابن كثير ما رواه الحاكم في المستدرک بسند صحيح عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أن أبا بكر قام فخطب الناس واعتذر إليهم وقال : والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط ، ولا كنت فيها راغباً ولا سألتها الله ، عز وجل ، في سر ولا علانية ، ولكنني أشفققت من الفتنة ، ومالي في الإمارة من راحة ، ولكن قلّدت أمراً عظيماً مالي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم ، فقبل المهاجرون منه ما قال وما اعتذر به ، قال علي ، رضي الله عنه ، والزبير : ما غضبنا إلا لأننا قد أخرجنا عن المشاورة ، وإنا نرى أبا بكر أحقّ الناس بها بعد رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، إنه لصاحب الغار وثاني اثنين ، وإنا لنعلم بشرفه وكبره ، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي^(٤) .

وروي عن الحسن قال : قال عليّ : لما قبض النبي ﷺ نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي ﷺ قد قدّم أبا بكر في الصلاة ، فرضينا لديننا من رضي رسول الله ﷺ لدينا ، فقدّمنا أبا بكر^(٥) .

وهكذا يظهر لنا إجماع الصحابة المهاجرين منهم والأنصار على تقديم أبي بكر ، رضي الله عنه ، ويظهر تصديق قول النبي ﷺ : « يَأبَى اللهَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أبا بكرٍ » ، ويظهر لنا أيضاً أن رسول الله ﷺ لم يوص لأحد بعده ، ولم ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس ، ولكنه أشار إشارة قوية إلى الصديق رضي الله عنه ، كما روى ابن إسحاق بسنده عن القاسم بن محمد قال : فلولا مقالة

(١) صحيح البخاري (ج ١٧٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

(٢) كما سنبين ذلك فيما يأتي .

(٣) انظر : البداية والنهاية (ج ٢٤٩/٥) .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٦٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٥) طبقات ابن سعد (ج ١٨٢/٣) .

قالها عمر عند وفاته لم يشكّ المسلمون أن رسول الله ﷺ قد استخلف أبا بكر ، ولكنه قال عند وفاته : إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أتركهم فقد تركهم من هو خير مني ، فعرف الناس أن رسول الله ﷺ لم يستخلف أحداً ، وكان عمر غير متهم على أبي بكر (١) .

وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا تستخلف علينا ؟ فقال : ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلف ، ولكن إن يريد الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم (٢) .

وسأل طلحة بن مضرّف عبد الله بن أبي أوفى : هل كان النبي ﷺ أوصى بشيء ؟ فقال : لا ، قال : كيف كتب على الناس الوصية ، أو أمروا بالوصية ؟ قال : أوصى بكتساب الله . قال طلحة : وقال هزئيل بن شريحيل : أبو بكر كان يتأمر على وصي رسول الله ﷺ ، ودّ أبو بكر أنه وجد من رسول الله ﷺ عهداً فخزّم أنفه بخزّام (٣) .

جهاز النبي ﷺ :

فلما بويع أبو بكر ، رضي الله عنه ، بالخلافة أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء ، وقد عُرف الموت في أظفاره اخضرت ، وربما بطنه ورؤي في خنصره انثناء (٤) .

- غسّل النبي ﷺ :

ولما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه ، فقالوا : والله ما ندري أنجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرّد موتانا ، أو نغسله وعليه ثيابه ؟ فألقى الله عليهم النوم حتى مامتهم رجل إلا ذقنه في صدره ، ثم كلمهم مكلّم من ناحية البيت لا يدرون من هو : أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه .

فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه ، يصبّون الماء فوق القميص ، ويدلكونه والقميص دون أيديهم ، وغسّل ثلاث غسلات ؛ الأولى بالماء القراح ، والثانية بالماء والسدر ، والثالثة بالماء والكافور . والماء من بئر عرس ، وهي بئر بقاء كان رسول الله ﷺ يشرب منها ويؤتي له بالماء منها ، وكان يقول : « نِعْمَ البِئْرُ بِبِئْرِ عَرَسٍ ، هي من عيون الجنة ، وماؤها أطيب المياهِ » ، وكان النبي ﷺ قد أوصى أن يغسل منها ، قال : « إذا أنا ميتٌ فاغسلوني بسبع قربٍ من بئر عرسٍ » .

وكان الذين ولّوا غسله ﷺ : علي بن أبي طالب ، والعبّاس بن عبد المطلب ، وإبناه الفضل وقثم ، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وأوس بن خولي أحد بني عوف بن الحزرج قال لعلي : أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله ﷺ ! وكان أوس من أهل بدر ، قال : ادخل ، فدخل فحضر غسل رسول الله ﷺ .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لما أخذنا في جهاز رسول الله ﷺ أغلقنا الباب دون الناس جميعاً ، فنادت الأنصار : نحن أخواله ومكاننا في الإسلام مكاننا ! ونادت قريش : نحن عصيته ! فصاح أبو بكر : يا معشر المسلمين ! كل قوم أحقّ بجزائرتهم من غيرهم ، فننشدكم الله فإنكم إن دخلتم أخرجتموه عنه ، والله لا يدخل عليه إلا من دعي .

فكان العبّاس والفضل وقثم يقبلونه مع علي ، وأسامة بن زيد وشقران يصبّان الماء ، وعلي يغسله قد أسنده إلى صدره - وقيل : غسّله علي ، والفضل محتضنه ، والعبّاس يصبّ الماء ، وأسامة وأوس ينقلان الماء - وعلى النبي ﷺ قميص ويبدد علي خرقه يتتبع بها تحت

(١) سيرة ابن هشام (ج ٣١/٤) .

(٢) الخبر رواه الحاكم في المستدرک (ج ٧٩/٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٣) أي : لو وجد أبو بكر ، رضي الله عنه ، من رسول الله ﷺ عهداً لعلي ، رضي الله عنه ، بالخلافة لانتقاد الأريمة إليه كما ينتقاد البعير في يد جازه . والخلافة : حلقه من شعر تجعل في أحد جانبي منخري البعير . انظر : (النهاية : ج ٢٩/٢) . وانظر الخبر في : صحيح البخاري (ج ٢/٤) كتاب الوصايا - باب الوصايا وقول النبي ﷺ وصية الرجل مكتوبة عنده ، ومسنّد الإمام أحمد (ج ٢٨١/٤) ، ودلائل البيهقي (ج ٢٢٧/٧) .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤١/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧١/٢ ، ٢٧٤) .

القَمِيص لا يُفَضِي بيده إلى جسده الشريف ، وعليّ يقول : بأبي أنت وأمي ما أطيبك حيّاً وميتاً !! ولم يُر من رسول الله ﷺ مما يرى من الميت ، بل قيل : سطعت عليهم ريح طيّبة لم يجدوا مثلها قطّ .

وقيل : إن عليّاً ، رضي الله عنه ، غسل النبي ﷺ بوضيّة منه له ، قال علي : أوصى رسول الله ﷺ أن لا يُغسله أحد غري ، فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طُمست عيناه . قال عليّ : فكان العباس وأسامة يناولان الماء وراء السّتر ، قال : فا تناولت عضواً إلا كآبنا يُقلّبه معي ثلاثون رجلاً حتى فرغت من غسله .

وقيل : إن العباس ، رضي الله عنه ، لم يشهد غسله ﷺ كان بالباب ، وقال : لم يمنعني أن أحضّر غسله إلا أني كنت أراه يستحي أن أراه حاسراً^(١) .

- تكفين النبي ﷺ :

ولما فرغ من غسل رسول الله ﷺ كفن في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة^(٢) من كَرْسَف^(٣) ، ليس فيها قييص ولا عِمامة ، قيل : إزار ورداء ولفافة ، أدرجوه فيها إدراجاً ، كفنه أربعة : عليّ والعبّاس والفضل وشُقْران رضي الله عنهم ، وطيبوه بنافِجَة^(٤) مسك وجدوها في ثياب رسول الله ﷺ .

وقيل : كفن في ثلاثة أثواب ؛ ثوبين صَحَارِيَّين^(٥) ، وبُرْد حَبْرَة ، أو حَلَّة ، فذكر ذلك لعائشة ، رضي الله عنها ، فقالت : قد أتى بالبرّد ولكنهم ردّوه ، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة ، وأخذ البرّد أو الحَلَّة عبد الله بن أبي بكر وقال : هذه مسّت جلد رسول الله ﷺ لا تفارقني حتى أكفن فيها ، فحبسها ما حبسها ، ثم قال : لو رضيها الله ، عزّ وجلّ ، لنبيّه ﷺ لكفنه فيها ، لا حاجة لي فيها ، فباعها وتصدّق بثمنها ، فعجب الناس من رأيه الأوّل ومن رأيه الآخر^(٦) .

- الصلاة على النبي ﷺ :

ولمّا كفن رسول الله ﷺ وُضع على سريرته في بيته ، ثم دخل الناس عليه أرسالاً ، أي جماعات متتابعين ، يصلّون عليه ولا يؤمّمهم أحد . وأوّل من صلّى عليه العبّاس بن عبد المطلب وبنو هاشم ، ثم صلّى عليه المهاجرون ، ثم الأنصار ، وصلّت عليه النساء بعد الرجال ، ثم صلّى عليه الصبيان ، ثم العبيد .

روي أن المسلمين لما رأوا الصلاة على نبيّهم ﷺ اجتمع رأيهم على أنه الإمام ولا إمام عليه ، فدخل أبو بكر وعمر فقالا : السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته ! ومعها نفر من المهاجرين والأنصار قدر ما يسع البيت ، فسلموا عليه كما سلم أبو بكر وعمر وصفوا صفواً لا يؤمّمهم عليه أحد ، فقال أبو بكر وعمر ، وهما في الصف الأوّل حيّال رسول الله ﷺ : اللهم ! إنّنا نشهد أن قد بلغ ما أنزل إليه ، ونصح لأمته ، وجاهد في سبيل الله حتى أعزّ الله دينه وتمّت كلماته ، فأمن به وحده لا شريك له ، فاجعلنا يا إلهنا من يتبع

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤١/٤ ، ٣٤٢) ، والمستدرک (ج ٣٥٤/١) ، و (ج ٥٩٣) ، وسنن ابن ماجة (ج ٤٧١/١) كتاب الجنائز - باب ماجاء في غسل النبي ﷺ ح ١٤٦٨ ، وطبقات ابن سعد (ج ٥٠٤/١) و (ج ٢٧٧/٢ - ٢٨٠) ، ودلائل النبوة للمبيهقي (ج ٢٤٤/٧) ، ومختصر تاريخ دمشق (ج ٣٩٢/٢) .

(٢) منسوبة إلى السحول وهو القصار ، لأنه يسخّلها أي يغسلها ، وقيل : منسوبة إلى سحول وهي قرية باليمن (النهاية : ج ٣٤٧/٢) .

(٣) الكرسف : القطن .

(٤) النافجة : وعاء المسك (الوسيط : ج ٩٤٧/٢) .

(٥) صحار : قرية باليمن نسب التوب إليها ، وقيل : هو من الصحرة ، وهي حُمرة خفيفة كالغبرة (النهاية : ج ١٢/٢) .

(٦) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٢/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٩٥/٢) كتاب الجنائز - باب الثياب البيض للكفن ، وصحيح مسلم (ج ٦٤٩/٢) كتاب الجنائز - باب في كفن الميت ح ٤٥ ، وسنن أبي داود (ج ٥٠٧/٣) كتاب الجنائز - باب في الكفن ح ٣١٥٢ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧٩/٢ ، ٢٨٥) ، (٢٨٧) .

القول الذي أنزل معه ، واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا ونعرفه ، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحماً ، لا نبتغي بالإيمان بدلاً ولا نشترى به ثمناً أبداً ، فيقول الناس : آمين آمين ! ثم يخرجون ويدخل آخرون حتى صلوا عليه^(١) .

- دفن النبي ﷺ :

ولما فرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء ووضعه على سريره جعل أصحابه يتشاورون أين يدفنونه ؟ فقال قائل : ندفنه في مسجده عند منبره أو في مصلاه ، وقال آخر : بل ندفنه مع أصحابه في البقيع فقد كان يكثر الاستغفار لهم ، وقال ثالث : نحمله إلى حرم الله وأمنه ومولده ودار قومه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن عندي من هذا خيراً وعلماً ؛ سمعت النبي ﷺ يقول : « مَا قُبِضَ نَبِيٌّ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ قُبِضَ » فادفونوه في الموضع الذي قبض فيه فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب ، أو في أحب البقاع إليه ، فقبلوا ذلك من رأيه^(٢) .

وقد روي عن يحيى بن سعيد أن النبي ﷺ قال : « مَا عَلَى الْأَرْضِ بَقَعَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَكُونَ قَبْرِي بِهَا مِنْهَا » ثلاث مرات ، يعني المدينة^(٣) .

وروي عن عائشة ، رضي الله تعالى عنها ، قالت : رأيت كأن ثلاثة أبقار سقطت في حجرتي ، فسألت أبا بكر ، رضي الله عنه ، فقال : يا عائشة ! إن تصدق رؤياك يدفن في بيتك خير أهل الأرض ثلاثة ، فلما قبض رسول الله ﷺ ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ودفن قال لي أبو بكر : يا عائشة ! هذا خير أبقارك وهو أحدها^(٤) .

ثم اختلف الصحابة في حفر قبره ﷺ هل يجعل له لحد ، أو يجعل له شق ؟ وكان في المدينة رجلان يحفران القبور ، هما أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو طلحة زيد بن سهل ، الأول يصرح كحفر أهل مكة ، والثاني يُلحَد وكان يحفر لأهل المدينة ، فدعا العباس ، رضي الله عنه ، رجلين فقال لأحدهما : اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وللآخر : اذهب إلى أبي طلحة ، اللهم ! خِرْ لرسول الله ﷺ ، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به ، فقال أبو طلحة : والله إني لأرجو أن يكون الله قد خار لنبيه ﷺ ، إنه كان يرى اللحد فيعجبه^(٥) .

وقيل : إن المرسل والقائل ما ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فعن عائشة قالت : لما مات رسول الله ﷺ اختلفوا في اللحد والشق ، حتى تكلموا في ذلك وارتفعت أصواتهم ، فقال عمر : لا تصخبوا عند رسول الله ﷺ حياً ولا ميتاً ، أو كلمة نحوها ، فأرسلوا إلى الشقاق واللاحد جميعاً ، فجاء اللاحد فلحد لرسول الله ﷺ^(٦) .

ولما جاء أبو طلحة ، رضي الله عنه ، خَطَّ حول الفراش ، ثم حَوَّل رسول الله ﷺ بالفراش في ناحية من البيت ، وحفر أبو طلحة القبر فأنتهى به إلى أصل الجدار إلى القبلة ، وصنع له لحداً .

فلما أرادوا أن يَدْخُلُوا رسول الله ﷺ قبره جعلوا سريره عند مؤخر القبر ، فكان رأسه الشريف عند المحل الذي يكون فيه رجلاه ، فأدخل من هناك وسلّ من قِبَل رأسه الشريف ﷺ ، وجعل رأسه مما يلي بابه الذي كان يخرج منه للصلاة . وقيل : إنه أدخل من قِبَل القبلة ولم يُسَلِّ سَلّاً ، والأول أصح .

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٩٠/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٥٠/٧) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٢/٤) ، وسنن الترمذي (ج ٢٣٨/٣) كتاب الجنائز - باب ٣٢/١٨ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٣٩٥/٣) ، و (ج ٣٠/٤) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦١/٧) ، ومختصر تاريخ دمشق (ج ٤٠٤/٢) .

(٣) الموطأ (ص : ٣٠٧) .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٦٠/٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ورواه ابن سعد في الطبقات (ج ٢٩٢/٢) من طريق آخر بمنه وقال فيه : فقال أبو بكر : ما أولتها ؟ قالت عائشة : أولتها ولنا من رسول الله ﷺ ، فسكت أبو بكر حتى قبض رسول الله ﷺ .

(٥) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٢/٤) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٩٨/٢) .

(٦) سنن ابن ماجه (ج ٤٩٧/١) كتاب الجنائز - باب ماجاء في الشق ح ١٥٥٨ .

ودخل قبره العباس ، وعليّ ، والفضل ، وقثم ، وشقران ، وقال أوس بن خوليّ : يا عليّ ! أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ ، فقال له : انزل ، فنزل مع القوم - ويقال : نزل معهم أسامة بن زيد ، وعقيل بن أبي طالب - وكان شقران فرش في اللحد تحته قطيفة حمراء كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها ، وقال : والله لا يلبسها أحد بعدك ، فدفنت مع رسول الله ﷺ .
وقيل : جعلوها في القبر لأن الأرض كانت نديّة ، أو عملاً بقوله ﷺ : « أفرشوا لي قطيفتي في لحدي ، فإنّ الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء » .

ثم أُطبق على النبي ﷺ بتسع لينات وأهيل عليه التراب^(١) . وكان آخر من طلع من قبره الشريف ﷺ قثم بن العباس ، رضي الله عنهما . فقد روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن الحارث قال : اعترت مع علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، في زمان عمر ، أو في زمان عثمان ، فنزل على أخته أمّ هانئ بنت أبي طالب ، فلما فرغ من عمرته رجع ، فسكب له غسل فاغتسل ، فلما فرغ من غسله دخل عليه نفر من أهل العراق ، فقالوا : يا أبا حسن ! جئناك نسألك عن أمر نجب أن نخبرنا عنه ، قال : أظنّ المغيرة بن شعبه يحدثكم أنه كان أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ ، قالوا : أجل ، عن ذلك جئناك نسألك ، قال : أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ قثم بن عباس .

قال ابن إسحاق : وقد كان المغيرة بن شعبه يدعي أنه أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ ، يقول : أخذت خاتمي ، فألقيته في القبر ، وقلت : إن خاتمي سقط مني ، وإنما طرحته عمداً لأمسّ رسول الله ﷺ ، فأكون أحدث الناس عهداً به ﷺ^(٢) . ويقال : ألقى الفأس في القبر وقال : الفأس الفأس ، ثم نزل فأخذها . ويقال : بل إن عليّاً رضي الله عنه لما قال المغيرة ذلك نزل وناولها الخاتم أو الفأس ، أو أمر من نزل وناولها ذلك ، وقال له : لا يتحدث الناس أنك نزلت في قبر النبي ﷺ ، ولا تحدث أنت الناس أن خاتمك في قبره . ويروي أنه لما وضع رسول الله ﷺ في لحده ، قال المغيرة : قد بقي من رجليه شيء لم يصلحوه ، قالوا : فادخل فأصلحه ، فدخل فسوّ قدميه بيده وقال : أهيلوا عليّ التراب ، فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف ساقيه ، ثم خرج ، فكان يقول : أنا أحدثكم عهداً برسول الله ﷺ^(٣) .

ورسّ قبره ﷺ بالماء ، رسّه بلال ، رضي الله عنه ، بقربة ؛ بدأ من قِبَل رأسه من شِقّه الأيمن حتى انتهى إلى رجليه ، ثم ضرب بالماء إلى الجدار ، لم يقدر على أن يدور من الجدار .

وجعل عليه من حصباء العرصة الحمراء ، ورفع قبره قدر شبر عن الأرض^(٤) . روي عن القاسم قال : دخلت على عائشة فقلت : يا أمّته ! اكشفي لي عن قبر النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وصاحبيه ، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لامشرفة ولا لاطئة ، مطبوحة ببطحاء العرصة الحمراء ، فرأيت رسول الله ﷺ مقدماً ، وأبا بكر رأسه بين كفتي النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وعمر رأسه عند رجلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم^(٥) .

وروي عن مالك بن أنس قال : قُسم بيت عائشة باثنين : قسم كان فيه القبر ، وقسم كان تكون فيه عائشة ، وبينهما حائط ،

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٤/٤) ، وصحيح مسلم (ج ٦٦٥/٢ ، ٦٦٦) كتاب الجنائز - باب في اللحد ونصب اللبن على الميت ح ٩٠ ، باب جعل القطيفة في القبر ح ٩١ ، وسنن أبي داود (ج ٥٤٥/٣) كتاب الجنائز - باب كم يدخل القبر ح ٣٢٠٩ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٥٤/٤ ، ٥٥) ، ودلائله (ج ٢٥٢/٧ ، ٢٥٣) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٩٩/٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٥) ، ومختصر تاريخ دمشق (ج ٤٠٠/٢ ، ٤٠١) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٦٤/٣) .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ٣٤٤/٤) .

(٣) انظر : مسند الإمام أحمد (ج ٨١/٥) ، وجمع الزوائد (ج ٣٦٠/٩) ، والمستدرک (ج ٤٤٨/٣) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ١٢٨/٢) كتاب الجنائز - باب ما جاء في قبر النبي ﷺ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٤١٧/٣) ، ودلائله (ج ٢٦٤/٧) .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (ج ٣٦٩/١) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

فكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلاً^(١) ، فلما دُفن عمر لم تدخله إلا وهي جامعة عليها ثيابها^(٢) .

وكان دفنه ﷺ ليلة الأربعاء ، قالت عائشة : ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي^(٣) من جوف الليل من ليلة الأربعاء^(٤) .

وكانت تلك الليلة ليلة حزينة في المدينة ، قالت أم سلمة رضي الله عنها : نحن مجتمعون نبيكي ولم نم ، ورسول الله ﷺ في بيوتنا ونحن نسكن لرؤيته على السرير ، إذ سمعنا صوت الكرازين^(٥) في السحر ، قالت : فصحنا وصاح أهل المسجد ، فارتجت المدينة صيحة واحدة ، وأذن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبي ﷺ فقال : أشهد أن محمداً رسول الله بكى وانتحب ، وانتحب أهل المسجد ، فزادنا حزناً ، وعالج الناس الدخول إلى قبره ، فغلق دونهم ، فيا لها من مصيبة ! ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ .

وقد قال النبي ﷺ بنفسه : « يا أيها الناس ! أيأ أحد من الناس ، أو من المؤمنين ، أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري ، فإن أحداً من أممي كن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتني » .

وقالت فاطمة ، رضي الله عنها ، حين دُفن النبي ﷺ : يا أنس ! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟ قيل : فما رؤيت ضاحكة بعد رسول الله ﷺ حتى لحقت به^(٦) .

وروي أنه لما مات رسول الله ﷺ جاءت فاطمة ، رضي الله عنها ، فأخذت قبضة من تراب القبر فوضعت على عينيها فبكت ، وأنشأت تقول :

ماذا على من شمّ تربة أحد
صبت علي مصائب لو أنها

ورثت النبي ﷺ عمته صفية بنت عبد المطلب ، رضي الله عنها ، بمراثي كثيرة ؛ منها قولها :

أفأطيم بكّي ولا تسأمي
هو المرء يبكي وحقّ البكاء
فأوحشت الأرض من فقهده
فإني بعهدك حتى المما

ورثته عمته أروى ، رضي الله عنها ، فكان مما قالت :

ألا يارسول الله كنت رجاءنا
وكنت بنا رؤفاً رحيماً نبينا
أفأطيم صلى الله رب محمد
أبا حسن فارقته وتركته

(١) أي متبدلة في ثياب مهنتها . يقال : تفضلت المرأة إذا لبست ثياب مهنتها ، أو كانت في ثوب واحد (النهاية : ج ٤٥٦/٣) .

(٢) طبقات ابن سعد (ج ٢٩٤/٢) .

(٣) المساحي : جمع مسحاة ، وهي المجرقة من الحديد ، وقد تقدم .

(٤) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٣٤٢/٤) ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٦٢/٦) .

(٥) الكرازين : جمع كرزين ، وهو الفأس . انظر : (النهاية : ج ١٦٢/٤) .

(٦) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨/٦) كتاب المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، وسنن ابن ماجه (ج ٥١٠/١) كتاب الجنائز - باب ماجاء في

الصر على المصيبة ح ١٥٩٩ ، وطبقات ابن سعد (ج ٣١٢/٢) ، و (ج ٢٣٦/٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٦٧/٧) .

(٧) الغالية : نوع من الطيب مركب من نسك وعنبر وعود ودهن (لسان العرب : ج ٣٢٩٢/٥) .

(٨) انظر : الوفا بأحوال المصطفى (ج ٨٠٢/٢) .

ورثاه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، رضي الله عنه ، فقال أبياتاً ، منها :

أرقتُ فبتَ ليلى لا يــــــزول
وأسمعــــــدني البكاء وذاك فيما
لقد عظمت مصيبتنا وجلت
وأضحت أرضنا مما عراها
فقدنا الوحي والتنزيل فينا
وذاك أحقّ من سالت عليه
نبيّ كان يجلو الشكّ عنّا
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً

وليل أخي المصيبة فيه طول
أصيب المسلمون به قليل
عشيّة قيل قبض الرسول
تكاد بنا جوانبها تميل
يروح به ويغدو جبرئيل
نفوس الناس أو كادت تسيل
بما يوحى إليه وما يقول
علينا والرسول لنا دليل

ورثاه أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، بأبيات منها قوله :

لما رأيت نبينا منجداً^(١)
وارتعت روعة مستهام وإليه
أعتيق ويحك ! إن حبك قد ثوى
ياليتني من قبل مهلك صاحبي
فلتحدثن بدائع من بعده

ضأقت عليّ بعرضين السدور
والعظم مني وأهن مكسور
وبقيت منفرداً وأنت حسير
غُيبت في جدت عليّ صخور
تغيّباهنّ جوانح وصدور

ورثاه حسان بن ثابت ، رضي الله عنه ، فكان مما قال :

ما بال عينك لاتنام كأنما
جزعاً على المهديّ أصبح ثاوياً
يا ويح أنصار النبي ورهطه
جنّي يقيسك التراب لهفي ليتني
أقيم بعدك بالمدينة بينهم

كجّلت ماقيها بكحل الأزمرد
ياخير من وطىء الحصى لا تبعد
بعد المغيب في سواء المُلحد
كنت المغيب في الضريح الملحد
يا لهف نفسي ليتني لم أولد

وقال أيضاً :

كنت السواد لناظري
من شاء بعدك فليمت

فعمي عليناك الناظر
فعليناك كنت أحقاد^(٢)

كيف فارق النبي ﷺ الدنيا ؟

توفّي رسول الله ﷺ وما ترك درهماً ولا ديناراً ، ولا عبداً ولا أمة ، إلا بغلته البيضاء وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقة .
قالت عائشة رضي الله عنها : لقد توفّي رسول الله ﷺ وما في رقبتي من شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير في رقبتي ،
فأكلت منه حتى طال عليّ ، فكلمته ففني . قالت : وليتني لم أكله ، فلو تركناه لأكلنا منه أكثر من ذلك .

وتوفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير ، ما وجد ما يفتكها حتى مات ، فافتكها أبو بكر رضي الله
عنه^(٣) .

(١) أي ملقى على الجذالة وهي الأرض (النهاية : ج ٢٤٨/١) .

(٢) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٣١٩/٢ - ٣٢٨) ، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية (ج ٢٨٥/٨ - ٢٨٧) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٢/٤) - كتاب الوصايا - باب الوصايا وقول النبي ﷺ وصية الرجل مكتوبة عنده ، و (ج ٤٩/٤) كتاب الجهاد =

وقد روي أنه لما توفي رسول الله ﷺ أمر عليّ صائحاً يصيح : من كان له عند رسول الله ﷺ عِدَّةٌ أو دين فليأتني ! فكان يبعث كل عام عند العقبة يوم النحر من يصيح بذلك حتى توفي ، فلا يأتيه أحد من خلق الله بحق ولا باطل إلا أعطاه ، ثم كان الحسن بن علي يفعل ذلك حتى توفي ، ثم كان الحسين يفعل ذلك ، وانقطع ذلك بعدهم رضي الله عنهم .

وكان رسول الله ﷺ قد وعد ناساً أن لو قد جاءه مال البحرين أعطاهم كذا وكذا ، فلما قبض رسول الله ﷺ وجاء مال البحرين ، نادى منادي أبي بكر بالمدينة : من كانت له عند رسول الله ﷺ عِدَّةٌ فليأتني ! قال جابر رضي الله عنه : فأتيته فقلت : إن رسول الله ﷺ قد كان قال لي : « لو قد جاءنا مال البحرَيْنِ لأعطينك هكذا وهكذا وهكذا » ، فقال لي أبو بكر : اخشع ، فحشوت خشيته ، فقال لي : عُدَّها ، فعددتها فإذا هي خمسمائة ، فأعطاني ألفاً وخمسمائة . قال جابر : ففرض عليّ بن أبي طالب دين رسول الله ﷺ وقضى أبو بكر عِدَّته (١) .

وجاءت فاطمة ، رضي الله عنها ، إلى أبي بكر تلتس ميراثها من أبيها ﷺ : أرضه من فدك وسهمه من خيبر ، فقالت له : من يرثك ؟ قال : أهلي وولدي ، قالت : فإني لأرث النبي ﷺ ؟ فقال : « والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا نُورثُ ما تَرَكْنَا صدقةً » ، فإني أعول من كان النبي ﷺ يقول ، وأنفق على من كان النبي ﷺ ينفق عليه ، وإني والله لأعير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ ، ولأعلن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ ، فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ (٢) .

وقد روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يَتَّقِسِمَ وَرَثَتِي دِينَاراً ، ما تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي وَمَوْثَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ » (٣) .

فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة ، رضي الله عنها ، شيئاً وحجبها وغيرها من أزواجه ﷺ وعمه العباس ، رضي الله عنه ، عن الميراث بهذا النص الصريح ، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته (٤) فلم تكلمه حتى توفيت رضي الله عنها (٥) .

ما وقع بعد وفاة النبي ﷺ من الفتن :

ولما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين ، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب ، وأشرأبت (٦) اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقدهم نبيهم ﷺ ، حتى جمعهم الله على أبي بكر . قالت عائشة : فلو نزل بالجيال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها (٧) ، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي محطها

= والسير - باب ما قيل في درج النبي ﷺ والقميص في الحرب ، و (ج ١١٧/٨) كتاب الرقاق - باب فضل الفقر ، ومسنند الإمام أحمد (ج ١٠٢/٣) ، وسنن الترمذي (ج ٦٤٢/٤) كتاب صفة القيامة / ح ٢٤٦٧ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٤/٧) ، والسيرة الحلبية (ج ٣٦١/٣) .

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١١٩/٤) كتاب الجهاد والسير - باب ما أقطع النبي ﷺ من البحرين ، وطبقات ابن سعد (ج ٣١٧/٢ ، ٣١٨ ، ٣١٩) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٩٦/٤) كتاب الجهاد والسير - باب فرض الخمس ، و (ج ١١٥/٥ ، ١٧٧) كتاب المغازي - باب حديث بني النضير ، باب غزوة خيبر ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٠٢/٦) .

(٣) صحيح البخاري (ج ١٨٦/٨) كتاب الفرائض - باب قول النبي ﷺ « لا نورث ما تركنا صدقة » .

(٤) أي أنها لم تطلب منه حاجتها ولم تضطر إلى لقاؤه ، إذ لم ينقل أنها رضي الله عنها لقيته ولم تسلم عليه . وروي أنه لما مرضت فاطمة أنها أبو بكر الصديق فاستأذن عليها ، فقال عليّ : يا فاطمة ! هنا أبو بكر يستأذن عليك ، فقالت : أتحب أن أذن ؟ قال : نعم ، فأذنت له ، فدخل عليها يترضاها ، وقال : والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا لأتبعاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ومرضاتكم أهل البيت ، ثم ترضاها حتى رضيت . انظر : السيرة الحلبية (ج ٣٦١/٣) ، ودلائل البيهقي (ج ٢٨١/٧) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١٧٧/٥) كتاب المغازي - باب غزوة خيبر .

(٦) أشرأبت : ارتفعت وعلت (النهاية : ج ٤٥٥/٢) .

(٧) أي كثرها ، والهَيْضُ : الكثرة بعد الجبر وهو أشد ما يكون من الكثرة (النهاية : ج ٢٨٨/٥) .

وغنائها في الإسلام ، وكانت تقول مع هذا : ومَن رأى ابن الخطاب عرف أنه خلق غناء الإسلام ، كان والله أخوذياً^(١) نسيحاً وخديه^(٢) ، قد أعدّ للأمور أقرانها^(٣) .

وقد روي أنه لما ارتدّ من العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : نصلي ولا نزكي ، وقال بعضهم : لا نصلي ولا نزكي ، أجمع أبو بكر ، رضي الله عنه ، على قتالهم ، فقال له عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله » ؟ فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، قال عمر : فقلت : يا خليفة رسول الله ! تألف الناس وارفق بهم ، فقال : جبار في الجاهلية خوار في الإسلام ، فماذا أتألفهم ؟ أبشعر مفتعل أو بشعر مفتري ؟ قبض النبي ﷺ وارتفع الوحي ، فوالله لو منعوني عقاباً^(٤) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ، قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر فعرفت أنه الحق . قال : فقاتلنا معه ، فكان والله رشيد الأمر^(٥) .

إنفاذ بعث أسامة رضي الله عنه :

وقد كان أول عمل بدأ به أبو بكر ، رضي الله عنه ، لما بويع بالخلافة أن أمر بإنفاذ بعث أسامة ، رضي الله عنه ، وأمر منادياً فنادى : ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا أخرج إلى عسكره بالجرف .

فلما ارتدّت العرب كَلّم أبو بكر ، رضي الله عنه ، في حبس جيش أسامة ، وأن يجعله عدّة لأهل الردّة ، فأبى وقال : والله لأن تحطّفي الطير أحبّ إليّ من أن أبداً بشيء قبل أمر رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري ، لأنفذت بعث أسامة ، ثم كَلّم أبو بكر أسامة في عمر أن يأذن له في التخلف ، ففعل .

فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة للهجرة خرج أسامة ، رضي الله عنه ، في ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم ألف فرس ، وودّعه أبو بكر رضي الله عنه بعد أن سار إلى جنبه ساعة ماشياً وأسامة راكباً ، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصديق ، فقال أسامة : يا خليفة رسول الله ! إما أن تركب ، وإما أن أنزل ، فقال : والله لست بنازل ولست براكب ! وما عليّ أن أغرّب قدمي في سبيل الله ساعة . ثم قال له : أستودع الله دينك وأمانتكم وخواتم علك .

فسار أسامة ، رضي الله عنه ، إلى أهل أُنَبي ، فشنّ عليهم الغارة ، وكان شعارهم يامنصور أميت ، فقتل من أشرف له ، وسي من قدير عليه ، وحرّق في طوائفها بالنار ، وحرّق منازلهم وحروثهم ونخلهم ، فصارت أعاصير من الدخاخين ، وأجال الخيل في عرصاتهم^(٦) ، ولم يقتل من المسلمين أحد ، وأسهم للفرس سهمين ولصاحبه سهماً ، وأخذ لنفسه مثل ذلك ، فلما أمسى أمر الناس بالرحيل ، ثم أخذ السير ، فوردوا وادي القرى في تسع ليال ، ثم بعث بشيراً إلى المدينة يخبر بسلامتهم ، ثم قصد بعد في السير ، فسار إلى المدينة ستاً ، وخرج أبو بكر رضي الله عنه في المهاجرين وأهل المدينة يتلقونهم سروراً بسلامتهم ، ودخل أسامة واللواء أمانه يحمله بريدة بن الحصيب حتى انتهى إلى المسجد ، فدخل ، فصلى ركعتين ، ثم انصرف إلى بيته .

(١) الأَخُوذِيُّ : الجادُّ المُتَكَبِّرُ - أي المُسْرِعُ - في أموره ، الحَسَنُ السِّيَاقُ لِلأُمُورِ (النهاية : ج ٤٥٧/١) .

(٢) تَريِدُ : رَجُلًا لَاعِيِبَ فِيهِ . وَأَصلُهُ أَنَّ التَّوْبَةَ التَّفِيْسَ لَا تُنْسَجُ عَلَى مَنَوَالِهِ غَيْرَ . وَلَا يُقَالُ إِلَّا فِي المَدْحِ (النهاية : ج ٤٦٥) .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٤٥/٤) ، والسنة الكبرى للبيهقي (ج ٢٠٠/٨) .

(٤) العِقَالُ : الحَبْلُ الَّذِي يُعْقَلُ بِهِ البَعِيرُ الَّذِي كَانَ يُؤْخَذُ فِي الصَّدَقَةِ ، لِأَنَّ عَلَى صَاحِبِهَا التَّسْلِيمَ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ القَبْضُ بِالرِّبَاطِ (النهاية : ج ٢٨٠/٣) .

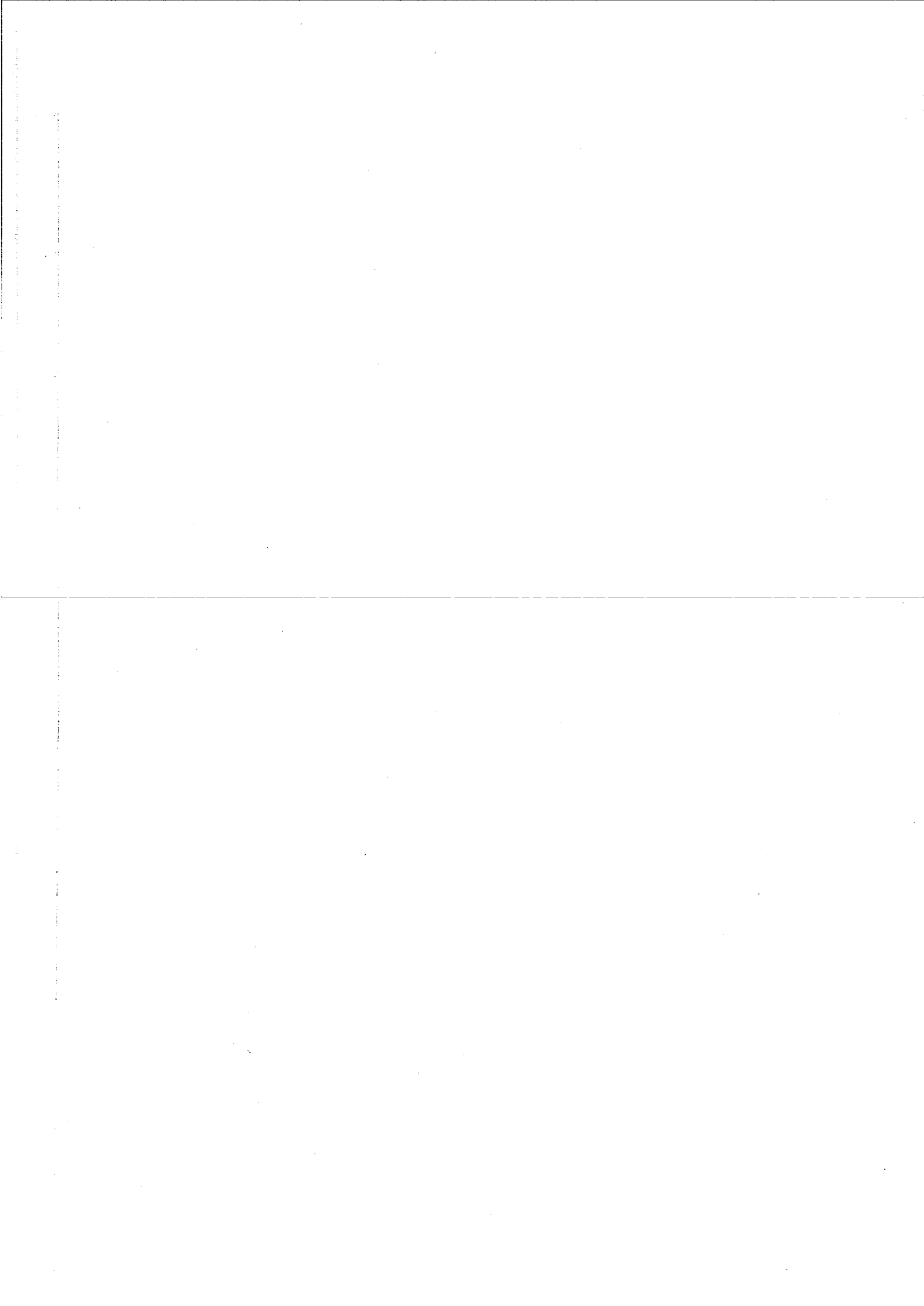
(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١١٥/٩) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٤٧٧/٢) .

(٦) العَرَصَاتُ : جَمْعُ عَرَصَةٍ ، وَهِيَ كُلُّ مَوْضِعٍ وَاسِعٍ لِابْنَاءِ فِيهِ (النهاية : ج ٢٠٨/٣) .

ولما بلغ الروم ما صنع أسامة ، رضي الله عنه ، قالوا : ما بالي هؤلاء يموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا . فكان لهذا البعث أثر عظيم في إرهاب الروم ، كما كان سبباً لعدم ارتداد كثير من طوائف العرب ، أرادوا ذلك وقالوا : لولا قوّة أصحاب محمد ﷺ ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ، فثبتوا على إسلامهم (١) .

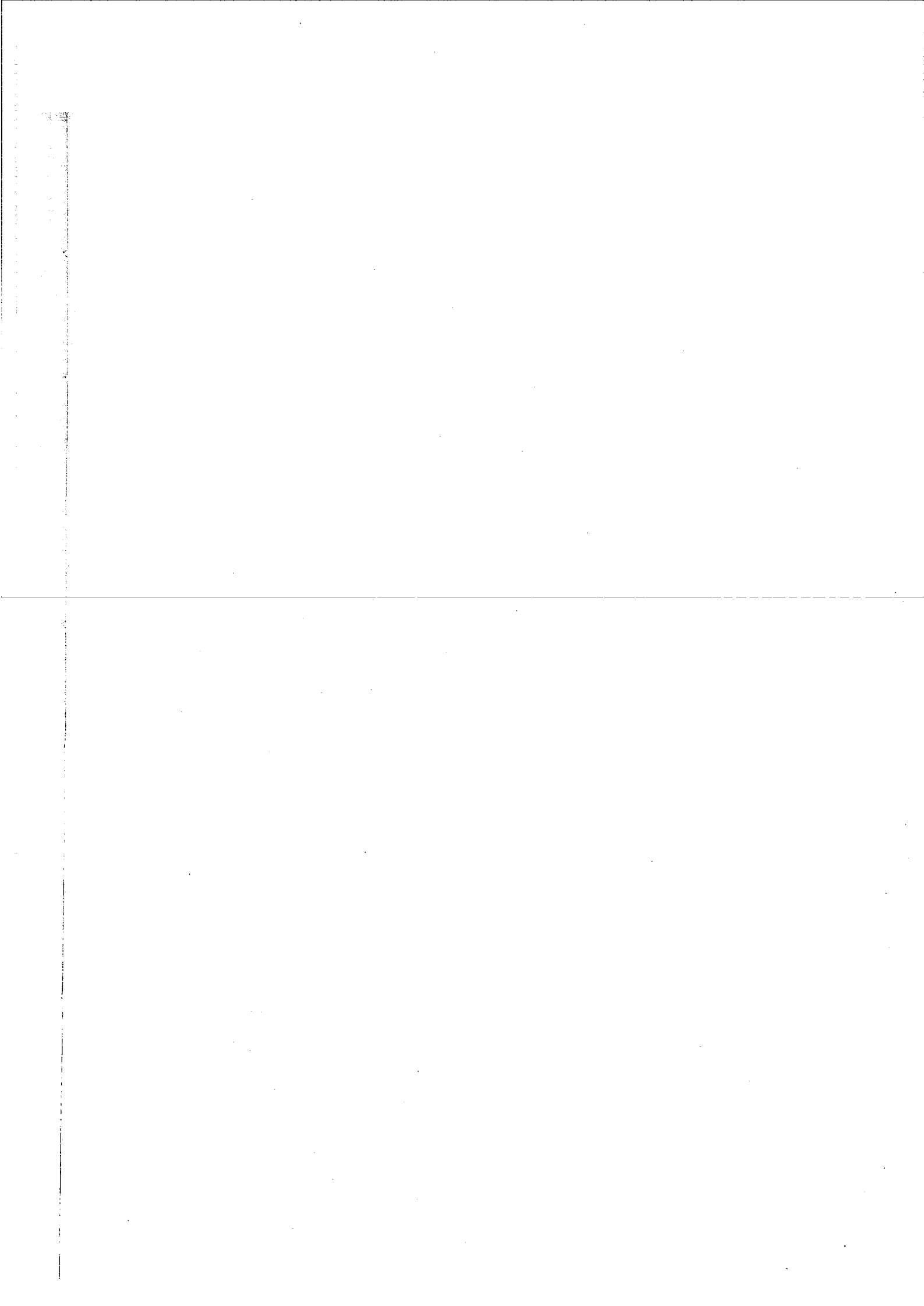
☆ ☆ ☆

(١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ١٩١/٢) ، و (ج ٦٧/٤) ، وتاريخ الطبري (ج ٢٢٢/٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦) ، وكنز العمال (ج ٥٧٥/١٠) ، والسيرة الحلبية (ج ٢٠٩/٣) .



القسم الرابع

« شمائل النبي ﷺ »



شمائل النبي ﷺ

إن من واجب كل مسلم أن يتعرف إلى شمائل رسول الله ﷺ وكالاته النفسية والروحية والعقلية وذلك لينال مقام محبته الصادقة ، لأن المعرفة هي سبب المحبة فكلما زادت المعرفة بمحاسن المحبوب زادت المحبة له . قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : سألت خالي هند بن أبي هالة التيمي - وكان وصافاً - عن حلية رسول الله ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به^(١) .

وقد أوجب الله سبحانه على المسلمين أن يحبوا النبي ﷺ فوق محبة الآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والتجارة والأموال ، وأوعد من تخلف عن تحقيق ذلك بالعقاب ، فقال جلّ وعلا : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٢) .

ولا ريب أن أسباب المحبة ترجع إلى أنواع الجمال والكمال والنوال ، كما قرره العلماء ، فإذا كان الرجل يحب لكرمه أو لشجاعته أو لحلمه أو لعلمه أو لتواضعه أو لتعبده وتقواه ، أو لزهده وورعه ، أو لكمال عقله أو وفور فهمه ، أو جمال أدبه ، أو حسن خلقه ، أو فصاحة لسانه ، أو حسن معاشرته ، أو كثرة بزه وخيره ، أو لشفقتة ورحمته ، أو نحو ذلك من صفات الكمال ... فكيف إذا تأصلت واجتمعت هذه الصفات وغيرها من صفات الكمال في شخص واحد ، وتحققت فيه أوصاف الكمال ومحاسن الجمال على أكل وجوهها ؟ ألا وهو سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذي جمع الله له صفات الكمال ومحاسن الخصال ؛ بحيث يقول كل من نعمته لم يرقبله ولا بعده مثله . وكان من أثره أن القلوب فاضت بإجلاله ، والرجال تقانوا في حياطته وإكباره ، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره ، فالذين عاشروه وصحبوه أحبوه إلى حدّ الهيام ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يبخش له ظفر . قال أبو سفيان بن حرب لزيد بن الدثنة ، رضي الله عنه ، وقد قدمه المشركون ليضربوا عنقه : أنشدك الله يا زيد ! أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلِكَ ؟ قال : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي ، فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحُب أصحاب محمد محمدًا .

وقال عروة بن مسعود الثقفي يوم الحديبية بعد أن كلم رسول الله ﷺ في شأن قريش : أي قوم ! والله لقد وفدت على الملوك ، على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا ، والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فندلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يجِدُون إليه النظر تعظيماً له^(٣) .

وفيا يلي نورد صورة جملة عن جمال خلقه وكال خلقه وسمو آدابه ﷺ .

(١) طبقات ابن سعد (ج ٤٢٢/١) .

(٢) التوبة : ٢٤ .

(٣) انظر : سيرة ابن هشام (ج ١٦٤/٢ ، ٣٦١) ، وسيدنا محمد رسول الله ﷺ / للشيخ عبد الله سراج الدين (ص : ٤ - ٨) .

صفات النبي ﷺ الخلقية :

إن الله تعالى خلق سيدنا محمداً ﷺ في أجمل صورة بشرية وأكمل خلقة آدمية ، وألقى عليه محبة ومهابة عظيمة . قال علي رضي الله عنه ، في وصفه : من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه . ووصفه هند بن أبي هالة فقال : كان فخماً مُفخماً^(١) ، يتلألاً وجهه تلاكوا القمر ليلة البدر .

وقالت أم مَعْبُد : رأيت رجلاً ظاهر الوضاعة ، أبلج الوجه^(٢) .. وسمي قَسِيم^(٣) .. أجمل الناس وأباهم من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب .

وقال البراء بن عازب رضي الله عنهما : كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنه خلقاً . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه ﷺ ، وقال أيضاً : كان أحسن الناس صفة وأجملها ، وإذا ضحك يتلألاً .

وقال جابر بن سَمْرَةَ رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان^(٤) وعليه حلة حمراء ، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر ؛ فلهو كان أحسن في عيني من القمر^(٥) .

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة والمشهورة الكثيرة في بيان جمال صورته ﷺ وتناسب أعضائه في حسنه ، وسنسط صفات النبي ﷺ الخلقية من مجمل تلك الأحاديث .

كان رسول الله ﷺ ربعة ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المترددة^(٦) ، وكان إلى الطول أقرب ، ضخم الرأس ، كثير الشعر رجليه ، ليس بالجعد ولا السبط^(٧) ، إن انفردت عقيصته^(٨) فرق وإلا فلا^(٩) ، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وقفه ، واسع الجبين ، في وجهه تدوير ، أزهر^(١٠) أو أبيض اللون مُشرباً بحمرة ، واسع العينين ، شديد سواد الحدقة ، في بياض عينية حمرة لا تفرقه ، طويل الأهداب ، أكحل^(١١) ، دقيق الحاجبين طويلهما مع تقوس ، سوابغ في غير قرن^(١٢) ، بينها عرق يُديره الغضب^(١٣) ، أفتى الأنف^(١٤) ،

- (١) أي عظيمًا مُعظماً في الصدور والعيون ، ولم تكن خلقته في جنبه الضخامة (النهاية : ج ٤١٩/٣) .
- (٢) أي مُشرق الوجه مُسفره (النهاية : ج ١٥١/٨) .
- (٣) الوسامة : الحسن الوضيء الثابت (النهاية : ج ١٨٥/٥) ، والقسامة : الحسن ، ورجل مُقسَّم الوجه : أي : جميل كله كأن كل موضع منه أخذ قسماً من الجبال (النهاية : ج ٦٣/٤) .
- (٤) ليلة إضحيان : أي مُضيئة مُفجرة . وقد تقدم .
- (٥) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٢٨/٤) كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢٨٠/٢) ، والمستدرک (ج ٩/٣) ، وسنن الدارمي (ج ٣٠/٨) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٢٢/١) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٥/٨) .
- (٦) القصير المترددة : أي المتناهي في القصر كأنه تردده بعض خلقه على بعض وتداخلت أجزاءه (النهاية : ج ٢١٢/٢) .
- (٧) السبط من الشعر : المُتسبط المُشربل ، أي : لم يكن شعره ﷺ شديد الجعرة ولا شديدة السبوط بل بينها . انظر : (النهاية : ج ٢٣٤/٢) .
- (٨) العقيصة : الشعر المقصوص ، وهو نحو من المصفور ، وأصل العقص : اللئ وإذخال أطراف الشعر في أصوله (النهاية : ج ٢٧٥/٣) .
- (٩) أي : إن صار شعرة فرقتين بنفسه في مفرقه تركه ، وإن لم ينفرق لم يفرقه بل يتركه على حاله . انظر (النهاية : ج ٤٢٨/٣) .
- (١٠) الأزهر : الأبيض المُشتمير ، والزهر والزهره : البياض النير ، وهو أحسن الألوان (النهاية : ج ٢٢١/٢) .
- (١١) الكحل : سواد في أجنان العين خلقه (النهاية : ج ١٥٤/٤) . وفي رواية عن جابر بن سَمْرَةَ : وكنت إذا رأيتك قلت أكحل العينين وليس بأكحل القرن : التقاء الحاجبين . ومعنى سوابغ في غير قرن : أن طرفي حاجبيه قد سبغا ؛ أي : طالا حتى كادا يلتقيان . وقد جاء في حديث أم مَعْبُد أنه كان ﷺ أقرن الحاجبين ، فالمراد أنه كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمل فيرى بين حاجبيه فاصلاً لطيفاً . انظر : (النهاية : ج ٥٤/٤) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٩١/٤ ، ٩٣) .
- (١٢) يُديره الغضب : أي يمتليء دماً إذا غضب كما يمتليء الشرع لبناً إذا دُر (النهاية : ج ١١٢/٢) .
- (١٤) القنا في الأنف : طولها ورفقة أرنبتها مع حدب في وسطه . وقد تقدم . والأرنبة : طرف الأنف (النهاية : ج ٤١/١) .

له نور يحسبه من لم يتأمله أشم^(١) ، أسيل الحدّين^(٢) ، ضليع الفم^(٣) ، مُفْلَج الثنايا^(٤) ، أُشْنَب^(٥) ، وَفْتَرُ عن مثل حبّ الغمام^(٦) ، وإذا تكلم رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه ، كَثَّ اللَّحْيَةُ^(٧) ، شديد سواد الرأس واللحية ، توفاه الله ، عز وجل ، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء ، عرقه في وجهه كاللؤلؤ ، وريحه أطيب من المسك الأذقر^(٨) ، في عنقه سَطَع^(٩) ، كان عنقه جيد دمية في صفاء الفضة^(١٠) ، عزيز الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمام يشبه جسده ، ضخم الكراديس^(١١) ، معتدل الحلق^(١٢) ، بادن متاسك^(١٣) ، سواء البطن والصدر^(١٤) ، أنور المتجرّد^(١٥) ، موصول ما بين اللبّة^(١٦) والسرة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، طويل الذراعين والساقين ، سَبَطَ القَصَب^(١٧) ، في ساقيه حَمْوَشَةٌ^(١٨) ، ضخم الكفّين والقدمين ، شين الأصابع^(١٩) طويلها ، كأن أصابعه قضبان الفضة ، وكانت كفّه ألين من الحرير ، وأبرد من الثلج ، وأطيب رائحة من المسك ، كأنها كفّ عطار مسّها بطيب أو لم يسّها به ، يصفحه المصافح فيظلّ يومه يجد ريحها ، ويضعها على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان . وكان منهوس العقيين^(٢٠) ، أخصّ القدمين^(٢١) ، مسيحها^(٢٢) يتبّو عنها الماء^(٢٣) ، إذا مشى

- (١) السَّمُّ : ارتفاع قَصَبَةِ الأنف واستواء أغلاها وإشراق الأرتبة قليلاً (النهاية : ج ٥٠٢/٢) .
- (٢) أي غير مُرتَفِعِ الوجْهِ (النهاية : ج ٤٩١/١) .
- (٣) ضليع الفم : أي عظيمة ، وقيل : واسعة . والعرب تَدُمُّ ضَيْقَةَ وتَمُدُّحُ سَعْتَهُ لدلالاته على قُوَّةِ الفصاحة ، وقيل : هو كناية عن فصاحته . وقيل : المراد رِقَّةُ الشفتين وحسنهما . انظر : (النهاية : ج ٩٦٣/١) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٨٨/٤) ، وجمع الزوائد (ج ٢٧٦/٨) .
- (٤) الفلج : فرجة ما بين الثنايا والرُباعيات (النهاية : ج ٤٦٨/٢) .
- (٥) الشنب : البياض والتبريق والتحديد في الأسنان (النهاية : ج ٥٠٣/٢) .
- (٦) يفتّر : أي يتبسّم ويكثر حتى تبدو أسنانه من غير قهقهة ، وحبّ الغمام : البرد ، شبه به فتّره في بياضه ويُرده (النهاية : ج ٤٢٧/٢ ، ج ٢٢٦/١) .
- (٧) الكثافة في اللحية : أن تكون غير رقيقة ولا طويلة ولكن فيها كثافة (النهاية : ج ١٥٢/٤) .
- (٨) أي طيب الريح (النهاية : ج ١٦١/٢) .
- (٩) السطع : الارتفاع والطول (النهاية : ج ٣٦٥/٢) . وفي رواية أنه كان أحسن عباد الله عتقاً ، لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر . انظر : دلائل النبوة لأبي نعم (ج ٨١٧/٢) .
- (١٠) الجيد : العنق ، والدُمِيَّةُ : الصورة المصوّرة ، شبه عتقه بعتقه لأنه يتأقن في ضعتها ويألغ في تحسبها . وقيل : وصف عتقه بالدُمِيَّةِ في الإشراق والاعتدال وظرف الشكل وحسن الهيئة والكمال ، وبالفضة في اللزّن والإشراق والجمال . انظر : (النهاية : ج ٣٢٤/١ ، ج ١٢٥/٢) .
- (١١) الكراديس : هي رؤوس العظام ، وأحدها كَرْدُوسٌ . وقيل : هي ملتقى كل عظمين ضخمين : كالركبتين والمرفقتين والمنكبين ، أراد أنه ضخّم الأضغاء . وقد تقدّم .
- (١٢) أي أن جميع أعضاء جسمه بخلقها الله تعالى كاملة متناسبة مع بعضها غير متنافرة .
- (١٣) البادن : الضخم ، والمتاسك : هو السني يُمسك بعض أعضائه بعضاً ، فهو معتدل الحلق ، وقيل : المراد أنه ممتلئ الجسم ، ليس بالتحيل ولا الخزل ، وأن أعضائه متاسكة بقواها وليست مسترخية . انظر : (النهاية : ج ١٠٧/٨) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢٠٠/٤) .
- (١٤) أي هما متساويان لا يتبو أحدهما عن الآخر . وسواء الشيء : وسطه لاشتواء المسافة إليه من الأطراف (النهاية : ج ٤٢٧/٢) .
- (١٥) أي : ما جرّده عنه الثياب من جسده وكشف ، يريد أنه كان مشرقاً الجسد (النهاية : ج ٢٥٦/١) .
- (١٦) اللبّة : هي النقرة التي فوق الصدر . وقد تقدّم .
- (١٧) سبط القصب : الممتد الذي ليس فيه تعقّد ولا تنوّ . والقصب هنا : ساعدة وساقاة . انظر : (النهاية : ج ٣٣٤/٢) .
- (١٨) حمش الساقين ، وأحمش الساقين : أي تقيفهما (النهاية : ج ٤٤٠/١) .
- (١٩) أي في أنامله غلظ بلا قصر ، ويحتمد ذلك في الرجال ؛ لأنه أشدّ لقبضهم ، ويدّم في النساء (النهاية : ج ٤٤٤/٢) .
- (٢٠) أي لحمها قليل (النهاية : ج ١٣٦/٥) .
- (٢١) الأخص من القدم : الموضع الذي لا يَلصق بالأرض منها عند الوطء . والمراد أن ذلك الموضع من أسفل قدميه بخلق مرتفع عن الأرض انظر : (النهاية : ج ٨٠/٢) .
- (٢٢) مسيح القدمين : أي ملساوان لئتنان ، ليس فيها تكسّر ولا شقاق ، فإذا أصابها الماء نبا عنها (النهاية : ج ٣٢٧/٤) .
- (٢٣) يتبو عنها الماء : أي يسيل ويتمرّ سريعاً لئلا ستهيا (النهاية : ج ١١٧/٥) .

تَقَلَعُ^(١) وألقى جسده إلى الأمام كأنها يَنْحَطُّ من صَبَبٍ^(٢) ، وسار في خَطْوٍ ثابت برفق وسكينة ووقار ، وقد خفض بصره إلى الأرض ، وهو مع ذلك سريع المَشْيِ واسع الخَطْوِ^(٣) ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنُجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث . وقال جابر رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ لا يلتفت إذا مشى ، وكان ربما تعلق رداؤه بالشجرة أو بالشيء فلا يلتفت حتى يرفعه ، لأنهم كانوا يمزحون ويضحكون وقد أمنوا التفاته . وكان ﷺ إذا التفت التفت جميعاً^(٤) . وكان ﷺ حسن الصوت قويه ، وفيه صَحْلٌ^(٥) ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سماه وعلاه البهاء ، لم ير قبله ولا بعده مثله ﷺ .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأنورهم لوناً ، لم يصفه واصف قط بمعنى صفته إلا شبهه وجهه بالقمر ليلة البدر ، يُعرف رضاه وغبضه في سرار وجهه^(٦) . وكان ﷺ إذا رضي أو سُرَّ فكأن وجهه المرآة ، أو قطعة قر ، وإذا غضب تلون وجهه واحمرت عيناه ، وكان إذا اشتدَّ وجده أكثر من مسِّ لحيته ﷺ .

وكان أبو بكر ، رضي الله عنه ، إذا رآه يقول :

أمين مصطفى للخير يــــدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كثيراً ما ينشد قول زهير بن أبي سلمى :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنصور ليللة البدر

فيقول من سمعه : كذلك كان ﷺ .

وقال علي رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ أبيض شديد الوضوح^(٧) ، أعْرَ أَبْلَجُ^(٨) ، ولم يكن بالمظهم^(٩) ولا المكلثم^(١٠) .

وقيل لأبي الطفيل : رأيت رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم ، قيل : كيف رأيتَه ؟ فقال : كان رسول الله ﷺ مليحاً مقصداً^(١١) .

وقال أنس رضي الله عنه : ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كفِّ رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكاً ولا عنبراً أطيب من رائحة رسول الله ﷺ^(١٢) .

(١) أي : رفع رجله من الأرض رفعاً قوياً ، متداركاً إجمالاً بالأخرى مشية أهل القوة والجلالة ، لا كمن يمشي اختيلاً ويُقارب خطاه ؛ فإن ذلك من مشي النساء ويوصفَن به . انظر : (النهاية : ج ١٠٧/٤) ، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٢١٧/٤) .

(٢) أي : كأنها يتزل في موضعٍ مُنَحْدِرٍ ، وقد تقدم . وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٢١٩/٤) .

(٣) أي مع كون مشيه هونا خطاه واسعة ، كأنها الأرض تطوى لهُ . انظر : شرح الزرقاني على المواهب (ج ٢١٨/٤) .

(٤) أي لأنه لا يسارق النظر . وقيل : لا يلوي عنقه يمنة ويسرة إذا نظَّر إلى الشيء ، وإنما يفعل ذلك الطائش الحفيظ ، ولكن كان يُقبَلُ جميعاً ويُذِيرُ جميعاً (النهاية : ج ٢٥٨/٤) .

(٥) أي بحة سيرة ، وهي أخلى في الصوت من أن يكون حاداً . انظر : (النهاية : ج ١٢٣/٣) .

(٦) السراير والسرر : واحد الأساير ، وهي الخطوط التي تجتمع في الجهة وتتكسر . انظر : (النهاية : ج ٣٥٩/٢) .

(٧) الوضوح : التبايض من كل شيء (النهاية : ج ١٩٥/٥) .

(٨) الأعْرُ من العرة : تبايض الوجه (النهاية : ج ٢٥٤/٢) . والأبْلَجُ : هو الذي قد وضح ما بين حاجبيه فلم يفتنرنا . وقيل : أبلج الوجه ؛ أي مشرقه كما تقدم . انظر : (النهاية : ج ١٥١/٨) .

(٩) المظهم : المنتفخ الوجه ، وقيل : الفاحش السمن ، وقيل : النجيف الجسم ، وهو من الأضداد (النهاية : ج ١٤٧/٣) .

(١٠) المكلثم : هو من الوجوه القصير الحسن الذي الجبهة ، المستدير مع خفة اللحم . والمراد أنه كان أسيل الوجه ولم يكن مستديراً (النهاية : ج ١٦٩/٤) .

(١١) المقصد : هو الذي ليس بطويل ولا قصير ولا جسيم ، كأن خلقه نجي به القصد من الأمور والمعتدل الذي لا يميل إلى أحد طرفي التفریط والإفراط . أي كان ﷺ متوسطاً في جميع صفاته . انظر : (النهاية : ج ٦٧/٤) .

(١٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٧/٢ - ٨) ، وصحيح البخاري (ج ٢٢٧/٤ - ٢٣٠) كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ ، و (ج ٢٠٧/٧ ، ٢٠٨) كتاب =

- وفور عقله وفصاحة لسانه ﷺ :

أما وفور عقله وذكائه فلا مرية أنه كان ﷺ أعقل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة ، مع عجب شائله وبديع سيره ، فضلاً عما أفاضه من العلم ، وقرره من الشرع ، دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه ، لم يمر في رجحان عقله ونفاذ رأيه لأول بدية .

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان رسول الله ﷺ أفصح خلق الله وأعذبهم كلاماً وأسرعهم أداء ، وأحلام منطقاً حتى كان كلامه يأخذ بجامع القلوب ويسلب الأرواح . أوتي جوامع الكلم^(١) ، وخصَّ ببدايع الحكيم ، وعلم السنة العرب ، فكان يخاطب كل قبيلة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله .

قالت أمّ مَعْبُد في وصفها للنبي ﷺ : حلوا المنطق ، فصل^(٢) لا نزر ولا هذر^(٣) ، كأن منطقة خرزات نطم يتحدثون .

وكان رسول الله ﷺ يستمع الشعر ويتنوقه ويستحسن الجيد منه ، وقد رمى لكعب بن زهير ببردته حينما أنشده لاميته المشهورة : بانت سعاد . وكان يدعو شاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه ليردّ على قصائد وفود العرب بالشعر .

قال الشريد رضي الله عنه : ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال : « هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئاً ؟ » قلت : نعم ، قال : « هيه^(٤) » ، قال : فأنشدته بيتاً ، فقال : « هيه » ، ثم أنشدته بيتاً ، فقال : « هيه » ، حتى أنشدته مائة بيت .

وقال النابغة الجعدي : أتيت النبي ﷺ فأنشدته من قولي :

علونا العباد عفة وتكرماً وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فقال النبي ﷺ : « أين المظهر يا أبا ليلى ؟ » قال : الجنة ، فقال : « أجل إن شاء الله » ، قال النابغة : ثم قال لي : « أنشدني » ، فأنشدته من قولي :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له
ولا خير في جهل إذا لم يكن له

بوادٍ تحمي صفوه أن يكدرها
حليم إذا ما أورد الأمر أصدرها

فقال النبي ﷺ : « أحسنت لا يفض الله فاك » .

لكن عرف النبي عن النبي ﷺ أنه كان إذا استشهد بأبيات من الشعر كسر أوزانها عامداً ، قالت عائشة رضي الله عنها : ماجع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً .

تفاءل بما تهوى يكن فلقيماً يتقال لشيء كان إلا تحقّق

قالت : ولم يقل تحقّقاً لئلا يُعربه فيصير شعراً . فقد منع رسول الله ﷺ عن صنعة الشعر - لاعت تذوقه - صيانة لشخصه

= اللباس - باب الجعد ، وصحيح مسلم (ج ٤/١٨٢٠ ، ١٨٢٣) كتاب الفضائل - باب في صفة فم النبي ﷺ ح ٩٧ ، باب كان النبي ﷺ أبيض .. ح ٩٩ ، باب شبيهه ﷺ ح ١٠٩ ، والمستدرک (ج ٩/٣) ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٠١/١ ، ١١٦ ، ١٥١) ، و (ج ٢٥٨/٢ ، ٣٢٨ ، ٣٨٠) ، و (ج ١٤٢/٦) ، وسنن الترمذي (ج ٥٩٨/٥ ، ٥٩٩ ، ٦٠٣) كتاب المناقب - باب ماجاء في صفة النبي ﷺ ح ٣٦٣٧ ، و ح ٣٦٣٨ ، و ح ٣٦٤٥ ، وسنن النسائي (ج ١٨٢/٨) كتاب الزينة - اتخاذ الجملة ، وسنن الدارمي (ج ٣٠/١) ، وطبقات ابن سعد (ج ٣١٩/١ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٢) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٧٥/١) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٨١٥/٢ - ٨١٧) .

(١) أي الكلم الجوامع لمعان كثيرة بالفاظ قليلة ، وقيل : المراد بها القرآن . انظر : (النهاية : ج ٢٩٥/١) .

(٢) أي بين ظاهر ، يفصل بين الحق والباطل (النهاية : ج ٤٥١/٣) .

(٣) أي ليس بقليل فيدل على عيب ، ولا كثير فاسد (النهاية : ج ٤٠/٥) .

(٤) هيه : كلمة استزادة من الكلام . وقد تقدم .

الكريم من التقليد ، فقد أَرَادَهُ اللهُ أَنْ يَكُونَ فَرِيداً مُتَفَرِّداً ، لَا يَجْرِي لِسَانُهُ بِتَكَلُّفٍ ، وَلَا يَصْطَنِعُ الْكَلَامَ اصْطِنَاعاً ، وَطَهَّرَ قَلْبَهُ لِيَكُونَ وَعَاءً لِكَلِمَاتِهِ الْإِلَهِيَّةِ (١) .

صفات النَّبِيِّ ﷺ الْخُلُقِيَّةُ :

وَمَا كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَجْمَلَ خَلْقٍ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى خَلْقاً كَانَ أَكْمَلَهُمْ خَلْقاً ، فَقَدِ جَمَعَ اللهُ لَهُ الْفَضَائِلَ ، وَنَزَّهَهُ عَنِ الْمَائِبِ ، وَطَهَّرَهُ مِنَ الْأَرْجَاسِ ، وَهَذَّبَهُ وَأَدَّبَهُ ، لِيَكُونَ قَدْوَةً يَقْتَدِي النَّاسُ بِهِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، قَالَ ﷺ : « أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي » ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ اللهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

وَقَدْ سَأَلَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ . يَعْنِي تَأَدَّبَ بِأَدَابِهِ ، وَتَخَلَّقَ بِمَحَاسِنِهِ ، وَالتَّزَمَ أَوْامِرَهُ وَزَوَاجِرَهُ .

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً ، وَأَوْسَعَهُمْ صَدْرًا ، وَأَوْفَاهُمْ ذِمَّةً ، وَأَلْيَنَهُمْ عَرِيكَةً ، وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً ، وَأَبْعَدَ النَّاسِ عَنْ سُوءِ الْأَخْلَاقِ ؛ لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَّفَحِّشًا ، وَلَا سَبَابًا وَلَا لَعْنًا ، وَلَا سَخَابًا بِالْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ ، وَكَانَ لَا يَقَابِلُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ بَلْ يَقُولُ لِأَحَدِهِمْ عِنْدَ الْمُعْتَبَةِ : « مَا لَةَ تَرَبَّ جَبِينُكَ ؟ » .

قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ بِالْمَدِينَةِ ، وَأَنَا غُلَامٌ لَيْسَ كُلُّ أَمْرِي كَمَا يَشْتَهِي صَاحِبِي أَنْ يَكُونَ ، مَا قَالُ لِي فِيهَا أَفٌ ، وَلَا قَالَ لِي لَمْ فَعَلْتُ هَذَا وَلَا فَعَلْتُ هَذَا .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ لَطْفًا ، مَا كَانَ يَمْتَنِعُ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ مِنْ عَيْدٍ وَلَا مِنْ أُمَّةٍ وَلَا صَبِيٍّ أَنْ يَأْتِيَهُ بِالْمَاءِ فَيَغْسِلُ وَجْهَهُ بِالْمَاءِ وَذِرَاعِيهِ (يَرِيدُونَ التَّبَرُّكَ بِهِ) . وَكَانَ يَجِيبُ مِنْ دَعَاةٍ ، وَيَقْبَلُ الْمُهْدِيَةَ ، وَلَوْ كَانَتْ كُرَاعًا (٣) . قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : مَا كَانَ أَحَدٌ أَحْسَنَ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَمَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَا مِنْ أَهْلِهِ إِلَّا قَالَ لِبَيْتِكَ . وَمَا التَّقَمَّ رَجُلٌ أُذُنَهُ فَيَنْحِي رَأْسَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْحِي رَأْسَهُ ، وَمَا أَخَذَ أَحَدٌ بِيَدِهِ فَتَرَكَ يَدَهُ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَدْعُ يَدَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَصَافِحُهُ إِلَّا أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَصْرِفْهُ عَنْهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ، يَبْدَأُ مِنْ لِقَائِهِ بِالسَّلَامِ ، وَيَكْرُمُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَرَبْمَا يَسْطُرُ لَهُ رِدَاءَهُ وَأَثَرَهُ بِالْوَسَادَةِ الَّتِي تَحْتَهُ وَيَعِزُّ عَلَيْهِ إِنْ أَبَى ، لَمْ يُرْمَقْدِمًا رِكَبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ ، وَلَمْ يُرْقَطْ مَا دَأً رَجْلَيْهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ وَذَلِكَ لِعَظِيمِ أَدَبِهِ وَكَانَ وَقَارَهُ ﷺ .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَطْلَقَ النَّاسَ وَجْهًا وَأَكْثَرَهُمْ تَبَسُّمًا ، وَأَحْسَنَهُمْ بَشْرًا ، قَالَ جَرِيرٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : مَا خَجَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قَطُّ مِنْذُ أَسَلَمْتُ ، وَلَا رَأَى إِلَّا تَبَسَّمَ .

وَقَالَتْ أُمُّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَا يَحْدِثُ بِمَحْدِثٍ إِلَّا تَبَسَّمَ فِيهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَحْمَقَكَ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهَا : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَحْدِثُ بِمَحْدِثٍ إِلَّا تَبَسَّمَ .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَكْنِي أَصْحَابَهُ وَيَدْعُوهُمْ بِأَحَبِّ أَسْمَائِهِمْ ، إِكْرَامًا لَهُمْ وَاسْتِئْثَالَةً لِقُلُوبِهِمْ ، وَلَا يَقْطَعُ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ حَتَّى يَجُوزَ (٤) فَيَقْطَعُهُ بِنَهْيِ أَوْ قِيَامِ ، وَكَانَ يَبْسُطُ جِلْسَاءَهُ وَيَزِجُ مَعَهُمْ ، لِإِدْخَالِ السَّرُورِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا . قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَزَاحًا ، وَكَانَ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُؤَاخِذُ الْمَزَاحَ الصَّادِقَ فِي مَزَاحِهِ » . وَسُئِلَ بَعْضُ السَّلَفِ عَنْ مَرِحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : كَانَتْ لَهُ مَهَابَةٌ ، فَكَانَ يَبْسُطُ النَّاسَ بِالذُّعَابَةِ .

(١) انظر : صحيح مسلم (ج ١٧٦٧/٤) كتاب الشعر ج ١ ، والمستدرک (ج ٩٣) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٤/٧) ، ومجمع الزوائد (ج ١٢٦/٨) ، والشفا بتعريف حقوق المصطفى/للقاضي عياض (ج ١٦١/١ ، ١٦٧) .

(٢) القلم : ٤ .

(٣) الكراع من البقر والغنم : مُسْتَدَقُّ السَّاقِ الْعَارِي مِنَ اللَّحْمِ (الوسيط : ج ٧٨٩/٢) .

(٤) أي يجاوز الحق ، من جازته يجوزه إذا تعداه . انظر : (النهاية : ج ٣١٤/١) .

وقال جابر بن سَمْرَةَ رضي الله عنه : جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، وربما تبسم معهم .

وقيل لزيد بن ثابت رضي الله عنه : حدثنا عن بعض أخلاق النبي ﷺ ، فقال : كنت جاره ؛ فكان إذا نزل الوحي بعث إليّ فأتية فأكتب الوحي ، وكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، أو كل هذا نحدثكم عنه ؟

وكان رسول الله ﷺ يتفقّد أصحابه ويسأل عنهم ، فمن كان غائباً دعا له ، ومن كان شاهداً زاره ، ومن كان مريضاً عاده . وكان إذا أتى بيت قوم أتاها ما يلي ركنه الأيمن أو الأيسر ولا يأتيه مستقبلاً بابه - تأدباً منه ﷺ - ويقول : « السّلام عليكم السّلام عليكم » ، وكان يستأذن ثلاثاً .

وكان رسول الله ﷺ كريم العشرة مع زوجاته وسائر أهله ؛ يلاطفهنّ ويدخل السرور عليهنّ ، ويعاملهنّ بالود والإحسان ، ويشاركهنّ في مهنتهنّ . سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها : كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ؟ فقالت : كان ألين الناس ، بساماً ضحكاً . وسئلت أيضاً : ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله ؟ فقالت : كان في مهنة أهله يخيّط ثوبه ، ويخسف نعله ، ويحلب شاته ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة . وقد كان رسول الله ﷺ يقول : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » .

وكان ﷺ يداعب الصبيان ويمازحهم ، ويجلسهم في حجره . قيل : كان يصفّ عبد الله وعبيد الله وكثير بن العباس ، ثم يقول لهم : « مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا » ، فكانوا يسبقون إليه ، فيقومون على ظهره وصدرة ﷺ ، فيقبلهم ويلتمهم . وكان يركب الحسن والحسين على ظهره ، ويمشي على يديه ورجليه ، كما قال جابر رضي الله عنه : دخلت على النبي ﷺ وهو يمشي على أربعة ، وعلى ظهره الحسن والحسين ، رضي الله عنهما ، وهو يقول : « نِعْمَ الْجَمَلُ جَمَلَكُمَا ، وَنِعْمَ الْعِدْلَانِ (١) أَنْتُمَا » .

وكان رسول الله ﷺ لا يضيّع الإحسان ، ولا ينكر الجميل والمعروف لإنسان ، قال أبو أمامة رضي الله عنه : قدم وفد النجاشي على النبي ﷺ فقام يخدمهم ، فقال أصحابه : نحن نكفيك ، فقال : « إِنَّهُمْ كَانُوا لِأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ وَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَكْفَهُمْ » .
وقال عمرو بن أخطب رضي الله عنه : استسقى رسول الله ﷺ ، فأتيته بإناء فيه ماء وفيه شعرة فرفعتها ثم ناولته ، فقال : « اللَّهُمَّ ! جَمَلُهُ » ، فصار عمره ثلاثاً وتسعين سنة وما في رأسه وشعرة بيضاء .

وكان رسول الله ﷺ أوفى الناس وأوصلهم للرحم ، يحفظ الودّ ويحفظ بالعهد . قالت عائشة رضي الله عنها : ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة ، هلكت قبل أن يتزوجني ، لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا ، وَأَمْرُهُ اللَّهُ أَنْ يَبْشِرَهَا بَيْتٍ مِنْ قِصْبٍ ، وَإِنْ كَانَ لِيَذْبَحُ الشَّاةَ فِيهَدِي فِي خِلَالِهَا مِنْهَا مَا يَسْعَوْنَ .

وقالت أيضاً : جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي ، فقال لها : « مَنْ أَنْتِ ؟ » قالت : أنا حَنَامَةُ الْمُزَنِّيَّةُ ، فقال : « بَلْ أَنْتِ حَسَانَةُ الْمُزَنِّيَّةُ ، كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدُنَا ؟ » قالت : بخير بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ، قالت عائشة : فلما خرجت قلت : يا رسول الله ! تُقْبَلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الْإِقْبَالَ ؟ فقال : « إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ ، وَإِنْ حَسَنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ » .

ولما كان يوم حنين وأوطاس وجيء بالسبي ، جاءت جارية إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ! أنا أختك ، أنا شيماء بنت الحارث ، فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه ، ثم قال : « سَلِيْهُ تُعْطِيْهِ ، وَأَشْفَعِيْ تُشَفِّعِي » (٢) .

(١) الْعِدْلُ : يَصِفُ الْجَمْلَ يَكُونُ عَلَى أَحَدِ جَنْبَيْ الْبَعِيرِ (لسان العرب : ج ٢٨٤/٤) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٨/٢) ، وصحيح البخاري (ج ٤٧/٥ ، ٤٩) كتاب المناقب - باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها ، باب ذكر جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ، و (ج ١٥/٨ ، ١٧) كتاب الأدب - باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، باب كيف يكون الرجل في أهله ، وصحيح مسلم (ج ٥١٢/١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب جامع صلاة الليل .. ح ١٣٩ ، ومسند الإمام أحمد (ج ٢١٤/١) ، =

- حلمه وعفوه ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ عظيم الحلم والعفو ، شديد الاحتمال^(١) والصبر على ما يكره ، ما انتقم لنفسه من شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى . قالت عائشة رضي الله عنها : ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

وقالت أيضاً : ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ، ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نبيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه ، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل .

ومن الثابت أن كل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، إلا رسول الله ﷺ فكان لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلا حملاً ، روي أنه ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أخذ شق ذلك على أصحابه مشقة شديدة ، فقالوا له : لو دعوت عليهم ، فقال : « إني لم أبعث لعاناً ، ولكني بعثت داعياً ورحمةً ، اللهم ! اغفر لقومي - أو اهد قومي - فإنهم لا يعلمون » .

ولما قال له ذو الحويصرة التيمي لما قسم غنائم حنين : اعدل ! فإن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، لم يزهده ﷺ في جوابه أن بين له ما جهله ، ووعظ نفسه ، وذكرها بما قال له : فقال : « وَيُحَاكَّ ! فَمَنْ يُعْدِلُ إِنْ لَمْ أُعْدِلْ ؟ خَيْبَتْ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أُعْدِلْ » ونهى من أراد من أصحابه قتله .

وجاءه زيد بن سَعْنَةَ اليهودي يتقاضاه ديناً عليه فجدد ثوبه عن منكبه ، وأخذ بجميع ثيابه ، وأغظ له ، ثم قال : إنكم يا بني عبد المطلب مطّل ، فانتهره عمر ، وشدّد له في القول ، والنبي ﷺ يتبسّم ، فقال رسول الله ﷺ : « أنا ، وهو ، كُنّا إلى غير هذا منك أحوَجُ يا عَمْرُ ! تَأْمُرُنِي بِحَسَنِ الْقَضَاءِ ، وَتَأْمُرُهُ بِحَسَنِ التَّقَاضِي » ، ثم قال : « لَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثٌ » ، وأمر عمر ، رضي الله عنه ، يقضيه ماله ، ويزيده عشرين صاعاً لها رَوْعَه . فكان سبب إسلامه وذلك أنه كان يقول : ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيد شدة الجهل إلا حملاً ، فاخترته بهذا فوجدته كما وصف .

ومن عظيم خبره في العفو ما حكم به على المشركين يوم فتح مكة وقد أظفره الله عليهم وهم لا يشكّون في استئصال شأفتهم فما زاد على أن عفا وصفح وقال : « مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ » قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ » . ومن ذلك أنه لم يؤاخذ عبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه من المنافقين بما نقل عنهم في جهته ﷺ قولاً وفعلاً ، بل قال لمن أشار عليه بقتله : « لا ، لئلا يُنْحَدَثَ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » .

وجيء إليه ﷺ برجل ، فقيل : هذا أراد أن يقتلك ، فقال له النبي ﷺ : « لِمَ تُرْعَ (٢) لِمَ تُرْعَ ، لو أَرَدْتَ ذَلِكَ لِمَ يَسْلُطُكَ اللَّهُ عَلَى قَتْلِي » .

ومن المظاهر التي يتجلّى فيها عفوه ﷺ وحلمه تحمله أذى المؤذنين وغلظة الجافين ، قال أنس رضي الله عنه : كنت أمشي مع

= (ج ٢٠٠/٢) ، و (ج ١٨٩/٤) ، و (ج ١٩٩/٥ ، ٢٤٠) ، و (ج ١٢١/٦ ، ٢٣٦) ، والمستدرک (ج ١٦١) ، و (ج ٤٦٦/٢) ، وسنن الترمذی (ج ٢٥٧/٤) كتاب البر والصلة - باب ما جاء في المزاج ح ١٩٩٠ ، و (ج ٦٥٤/٤) كتاب صفة القيامة - باب ٤٦ ح ٢٤٩٠ ، و (ج ١٤٠/٥) كتاب الأدب - باب ما جاء في إنشاد الشعر ح ٢٨٥٠ ، وسنن أبي داود (ج ١٤٧/٥) كتاب الأدب - باب في حسن العشرة ح ٤٧٩٤ ، وسنن ابن ماجه (ج ٦٣٦/١) كتاب النكاح - باب حسن معاشره النساء ح ١٩٧٧ ، وجمع الزوائد (ج ١٧/٩ ، ١٨٢) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٥٢/٧) ، ودلائل النبوة للبيهقي (ج ٢٠٠/٢ ، ٢٠٧) ، ودلائل النبوة لأبي نعيم (ج ٢٣١/١ ، ٢٣٢) ، وكنز العمال (ج ١٥٢/٧) ، ومختصر تاريخ دمشق (ج ٢١٧/٢) ، (٢١٩) .

(١) الحليم : حالة توفّر وثبات عند الأسباب المحركات ، وقيل : هو الأناة والصبر وسعة الصدر . والاحتمال : حبس النفس عند الآلام والمؤذيات ومثلها الصبر . وأما العفو فهو ترك المؤاخذه . انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى/للقاظمي عياض (ج ٢١٩/١) .

(٢) أي : لا فرّع ولا خوف (النهاية : ج ٢٧٧/٢) .

رسول الله ﷺ وعليه برد نجراي غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبدته ، ثم قال : يا محمد ! مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعباء .

وقد كان حمله ﷺ يسع مالا يسعه حلم الصحابة ، رضي الله عنهم ، وكان في ذلك معلماً رقيقاً ومصلاً رحباً . قال معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه : بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ! فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واكل أمياه ! ما شأنكم تنظرون إليّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمّونني سكت ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كهرني^(١) ولا ضربني ولا شتمني ، قال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن »^(٢) .

- مداراته ﷺ للناس ورفقه بهم :

وكان رسول الله ﷺ شديد المداراة للناس ، عظيم الرفق بهم ، يتحمل جفوتهم ويلطفهم ، ويقابل غلظتهم بلطيف المقال والحال وذلك تألفاً لهم أو اتقاء شرهم ، يسلك بهم مسالك الرحمة واللين والتؤدة في التعليم والإرشاد لئلا ينفروا أو يشردوا . قال ابن مسعود رضي الله عنه : كان النبي ﷺ يتحولنا بالموعظة^(٣) في الأيام كراهة السامة علينا .

روي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء ، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ، ثم قال : « أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابي : لا ، ولا أجلت ، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه ، فأشار النبي ﷺ إليهم أن كفوا ، فلما قام النبي ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت ، فقال له : « إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت » ، فزاده رسول الله ﷺ شيئاً ، فقال : « أحسنت إليك ؟ » فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشير خيراً ، فقال له النبي ﷺ : « إنك كنت جئتنا فأعطيناك فقلت ما قلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء ، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم » . فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ : « إن أصحابكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال ، وإنا قد دعونا فأعطيناه فزعم أنه قد رضي ، أكذاك ؟ » قال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشير خيراً ، فقال النبي ﷺ : « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كنت له ناقة فشردت عليه ، فأتبتها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً . فقال صاحب الناقة : خلوا بيثي وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم بها ، فتوجه إليها صاحب الناقة فأخذ لها من قشام^(٤) الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رخلها واستوى عليها ، ولو أنني أطعنتكم حيث قا ، ما قال دخل النار » .

وروي أن أعرابياً دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس ، فقال : اللهم ! اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد معنا ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : « لقد احتظرت واسعاً » ، ثم ولى ، حتى إذا كان في ناحية المسجد وقف يبول ، فثار إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « دعوة وأهريقوا على بؤله ذنوباً^(٥) من ماء ، فإننا بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » ، ثم التفت إلى الأعرابي فقال : « إنما بنيت هذا البيت لذكر الله والصلاة ، وإنه لا يزال فيه » . فكان الأعرابي يقول بعد أن فقّه : فقام النبي ﷺ إليّ بأبي هو وأمي فلم يسب ولم يؤتب ولم يضرب .

(١) الكهر : الأتھار . وقد كهره يكهره ؛ إذا زبره واستقبله بوجه عبوس (النهاية : ج ٢١٢/٤) .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٢٣٥/٢) ، و (ج ١٤٤/٤) ، وصحيح البخاري (ج ٢٣٠/٤) كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ ، و (ج ١٨٧/٧) كتاب اللباس - باب البرود والخبرة والشمة ، وصحيح مسلم (ج ٢٨١/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب تحريم الكلام في الصلاة .. ج ٢٢ ، والمستدرک (ج ٦٠٤/٢) ، وجمع الزوائد (ج ١١٧/٦) ، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ٢٤٩/١) ، وعيون الأثر (ج ٢٢٩/٢) .

(٣) أي يتعمدنا . وقال أبو عمرو : الصواب : يتحولنا بالحاء ؛ أي : يتقلب الحال التي ينشطون فيها للموعظة فيعظهم فيها ، ولا يكثرون عليهم فيملاؤا (النهاية : ج ٨٨/٢) .

(٤) القشام : اسم لما يؤكل (لسان العرب : ج ٣٦٢٩/٥) .

(٥) الذنوب : الذنوب العظيمة ، وقيل : لا تسمى ذنوباً إلا إذا كان فيها ماء .

واستأذن رجل على النبي ﷺ فقال : « ائذنوا لآلِ عِشِيرَةِ ابْنِ الْعَشِيرَةِ » ، فلما دخل ألان له الكلام ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ! قلت ما قلت ثم أنت له في القول ، فقال : « أَيُّ عَائِشَةَ ! إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ » .

وأقَى النبي ﷺ فتى شاب فقال : يا رسول الله ! ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه ، فقال : « ائذنه » ، فدنا منه قريباً فجلس ، قال : « أَتُحِبُّهُ لِأُمَّكَ ؟ » قال : لا والله ؛ جعلني الله فداءك ، قال : « ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ » ، ثم قال له : « أَتُحِبُّهُ لِأَبْنَتِكَ ؟ » قال : لا والله ؛ جعلني الله فداءك ، قال : « ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَبْنَاتِهِمْ » ، ثم قال : « أَتُحِبُّهُ لِأَخْتِكَ ؟ » قال : لا والله ؛ جعلني الله فداءك ، قال : « ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ » ، ثم قال : « أَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ » قال : لا والله ؛ جعلني الله فداءك ، قال : « ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ » ، قال : « أَتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ ؟ » قال : لا والله ؛ جعلني الله فداءك ، قال : « ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ » ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده عليه وقال : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ ذُنُوبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَسِّنْ فَرْجَهُ » . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (١) .

- رحمته ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ شديد الرأفة والرحمة (٢) بجميع الخلائق على اختلاف أحوالهم وما يعتري نفوسهم من فتور وملل ، فمن ذلك الناس وغير الناس من الطير والحيوان والنبات . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) ، وهو عليه الصلاة والسلام يقول عن نفسه : « إِنَّا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ » .

لقد كان رسول الله ﷺ شديد الرأفة بالمسلمين ، كثير المراجعة لاختلاف أحوالهم وما يعتري نفوسهم من فتور وملل ، فمن ذلك تخفيفه وتسهله عليهم ، وكرهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم ، كقوله ﷺ : « لَوْلَا أَنِ اشْقُ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرَتِهِمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ » .

ومن ذلك أنه صلى ذات ليلة في المسجد ، فصلّى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثرت الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ ، فلما أصبح قال : « قَدْ رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ وَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ » وذلك في رمضان .

ومن مظاهر رحمته ﷺ بكأوه لموت أحد أصحابه ، فقد روي أنه قبل عثمان بن مظعون ، رضي الله عنه ، وهو ميت وعيناه تهرقان .

وكان عليه الصلاة والسلام أرحم الناس بالنساء ، وقد روي في ذلك الشيء الكثير ، فمن ذلك قوله : « إِنِّي لِأَقْوَمُ فِي الصَّلَاةِ أَرِيدُ أَنْ أَطَوَّلَ فِيهَا ، فَأَتَّبِعُ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي (٤) كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّهِ » .

ومن ذلك أن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والإبل تسرع إذا سمعت الحداء ، فيشق ذلك على النساء ، فقال له النبي ﷺ : « يَا أَنْجِشَةَ ! زُوَيْدُكَ سَوْقُكَ بِالْقَوَارِيرِ » .

وكان رسول الله ﷺ يرحم أهله ويعاونهم في الأمور البيتية ، فما كان ﷺ من جبايرة الرجال ، بل كان كثيراً ما يخدم نفسه بنفسه ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ يخيظ ثوبه ، ويخصف نعله ، ويعمل ما يعمل الرجل في بيوتهم .

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٢٧/١) كتاب العلم - باب ما كان النبي ﷺ يتخولم بالموعظة ، و (ج ٢٧/٨ ، ٢٨) كتاب الأدب - باب قول النبي ﷺ « يسروا ولا تعسروا » ، باب المداراة مع الناس ، ومسند الإمام أحمد (ج ٥٠٢/٢) ، و (ج ٢٥٦/٥) ، وجمع الزوائد (ج ١٥/٨) .
(٢) الرأفة تقتضي إبعاد كل شر وفساد وضرر ، والرحمة تقتضي جلب كل خير وصلاح ونفع .
(٣) الأنبياء : ١٥٧ .
(٤) أتجوز في صلاتي : أي أخففها وأقللها (النهاية : ج ٣١٥/١) .

وأما رحمته ﷺ الأطفال فما أشدها ، فكان يمسح رؤوسهم ويقبلهم ، روي أن رسول الله ﷺ قبل الحسن بن علي ، رضي الله عنها ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « مَنْ لَا يُرَحِّمَ لَا يُرَحَّمْ » . وكان رسول الله ﷺ يأخذ أسامة بن زيد فيقعد على فخذه ، ويقعد الحسن على فخذه الآخر ، ثم يضمهما ويقول : « اللَّهُمَّ ! اِرْحَمْهُمَا فَإِنِّي أُرْحَمُهُمَا » .

لقد كان رسول الله ﷺ للمسلمين أبا رحيماً ، يحنو عليهم حنو الممرضات على الفطيم ، لا شأن له بما متعمهم الله به من مال ، ووسع لهم في الرزق ، أما ديونهم وما يتقل كواهلهم فكان يحملها ﷺ ويقول : « أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، فَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ وَلَمْ يَتْرِكْ وَفَاءً فَعَلَيْنَا قَضَاؤَهُ ، وَمَنْ تَرَكَ مَالاً فَلَوْرَتَيْهِ » .

وكان يوصي بالعبيد خيراً ويقول : « اللَّهُ اللَّهُ فِيْنَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ! أَلْبَسُوا ظُهُورَهُمْ ، وَأَشْبِعُوا بَطُونَهُمْ وَأَلْبِنُوا لَهُمُ الْقَوْلَ » .

وكان ﷺ يرحم الحيوان ويوصي صاحبه ألا يجيعه أو يتعبه ، وكان يقول : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » ، ومر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه ، فقال : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً ، وَكُلُّوهَا صَالِحَةً » .

وقد شملت رحمته ﷺ النبات وحتى الجهاد ، فكان يوصي بالشجر ألا يقطع ، وكان يقول عن جبل أحد : « هَذَا جَبَلٌ يُجْبِنُنَا وَنُجِبُهُ » ، حتى تراب الأرض كان يمسح به وجهه متبهاً ويقول : « تَمَسَّحُوا بِالْأَرْضِ فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَةٌ » (١) .

- تواضعه ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ أشد الناس تواضعاً وأبعدهم عن الكبر مع علو مقامه ورفعة مرتبته ﷺ ، فلم يكن يحب التبريز في شيء ، ولا أن يبالغ الناس في مدحه فيطروه كما أطرت الأمم السابقة أنبياءها ، أو أن يرفعه فوق منزلته ، روي أن رجلاً قال : يا محمد ! ياسيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ تُرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ » .

وقال جرير رضي الله عنه : أتى النبي ﷺ برجل ترعد فرائضه ، فقال له : « هَوْنٌ عَلَيْكَ ، فَإِنَّا أَنَا ابْنُ أُمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ فِي هَذِهِ الْبَطْحَاءِ » ، ثم تلا جرير : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرُ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٢) .

ويتجلى تواضعه ﷺ في سائر أحواله الخاصة والعامة ، فكان من تواضعه ﷺ أنه يخدم نفسه بنفسه ، ويزور ضعفاء المسلمين ومساكينهم ، ويلطفهم ويؤانسهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنازتهم . وكان يركب الحمار ، ويردف خلفه ، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير ، ويمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لها حاجتها ، وكان يجلس بين ظهرائي أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أنهم هو حتى يسأل ، وكان يجلس على الأرض ، ويأكل طعامه بالأرض ، ويلعق أصابعه ، ويلبس الحشن من الثياب . ومن تواضعه أنه ماعاب طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

ولما فتحت عليه مكة ودخل بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قدامته تواضعاً لله تعالى ، وحباً على رحل

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨١/١) كتاب الصلاة - باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ، و (ج ٥/٢) كتاب الجمعة - باب السواك يوم الجمعة ، و (ج ٦٢/٢) باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل من غير إيجاب ، و (ج ٩٩/٧) كتاب الأطعمة - باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم وأسفارهم ، و (ج ٩٨/١٠ ، ٤٤) كتاب الأدب - باب رحمة الولد وتقبيله ومعاقبته ، باب وضع الصبي على الفخذ ، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه ، و (ج ١٨٧/٨) كتاب الفرائض - باب قول النبي ﷺ من ترك ما لأهلته ، وصحيح مسلم (ج ١٥٤٨/٢) كتاب الصيد والذبائح - باب الأمر بإحسان الذبح والقتل .. ح ٥٧ ، والمستدرک (ج ٣١١/١) ، وسنن الدارمي (ج ٩/١) ، وسنن أبي داود (ج ٤٩/٣ ، ٥٠) كتاب الجهاد - باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم ح ٢٥٤٨ ، و ح ٢٥٤٩ ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٥٤/٢) .

(٢) ق : ٤٥ .

رثَ وعليه قطيفة ماتساوي أربعة دراهم وقد فُتحت عليه الأرض ، فقال : « اللَّهُمَّ ! اجْعَلْهُ حَجًّا لارِيَاءَ فِيهِ وَلَا سَمْعَةَ » (١) .

- جوده ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ أجود الناس وأنفعهم للناس ، ما سئل عن شيء قطّ فقال لا ، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة .

وقال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئاً لغد ، ولقد توفي ودعه مرهونة عند يهودي في نفقة أهله . وروي أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ، ثم قام إليها فقسها ، فما رَدَ سائلاً حتى فرغ منها .

وكان ﷺ كريم النفس ، يكرم السائل بنفسه ، ولا يكبل صدقته إلى أحد ، وكان من كرمه إذا لم يكن عنده شيء يعطيه السائل أمره أن يستقرض عليه . روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فسأله أن يعطيه ، فقال النبي ﷺ : « مَا عِنْدِي شَيْءٌ وَلَكِنْ ابْتِغْ عَلَيَّ ؛ فَإِذَا جَاءَنِي شَيْءٌ قَضَيْتُهُ » ، فقال عمر : يارسول الله ! قد أعطيتك فما كلفك الله مالا تقدر عليه ، فكره ﷺ قول عمر ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ! أنفيق ولا تخف من ذي العرش إقللاً ، فتبسّم رسول الله ﷺ وعُرف في وجهه البشر لقول الأنصاري ، ثم قال : « بهذا أمرت » (٢) .

- حياؤه ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ أشدّ الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إخفاءً (٣) ، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كان النبي ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خيثرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه .

وكان من حياؤه ﷺ لا يثبت بصره في وجه أحد ، وكان يُكفي عما اضطره الكلام إليه مما يكره . قالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل : ما بال فلان يقول ؟ ولكن يقول : « مَا بِالْأَقْوَامِ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا ؟ » .

وكان يمنعه الحياء أن يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه . روي أن رجلاً دخل على رسول الله ﷺ وعليه أثر صفرة ، فلما خرج قال : « لَوْ أَمَرْتُمْ هَذَا أَنْ يُغْسِلَ ذَاغَنَهُ » .

فكان رسول الله ﷺ أحقّ الناس بقول الفرزدق :

يُغْضِي حِيَاءً وَيَغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ
فَلَا يَكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَيْتَسِمُ (٤)

(١) انظر : سيرة ابن هشام (ج ٤/٢٤) ، وصحيح البخاري (ج ٤/٢٣٠) كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ ، وصحيح مسلم (ج ٤/١٨١٢) كتاب الفضائل - باب قرب النبي عليه السلام من الناس وتبركهم به ح ٧٦ ، ومسنَد الإمام أحمد (ج ٣/١٥٢٣) ، و (ج ٦/٢٥٦٦) ، والمستدرک (ج ٢/٤٦٧٢) ، و (ج ٤/١١٩٤) ، وسنن النسائي (ج ٨/١٠١٨) كتاب الإيمان وشرائعه - صفة الإيمان والإسلام ، وسنن ابن ماجة (ج ٢/٩٦٥) كتاب المناقب - باب الحج على الرجل ح ٢٨٩٠ ، وسنن الدارمي (ج ١/٣٥) ، ومجمع الزوائد (ج ٩/٢٠) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٤/٤٩٧) كتاب الجهاد والسير - باب ما قيل في درع النبي ﷺ .. ، و (ج ٤/١٣٧) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ، وصحيح مسلم (ج ٤/١٨٠٦) كتاب الفضائل - باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطّ فقال لا .. ح ٥٧ ، وسنن الترمذي (ج ٤/٥٨٠) كتاب الزهد - باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله ح ٢٣٦٢ ، والشاغل الحمدي للترمذي (ص : ١٩٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ١/٣٠٧) ، وعيون الأثر (ج ٢/٢٢٩) .

(٣) الحياء : رقة تعترى وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته ، أو ما يكون تركه خيراً من فعله ، والإغضاء : التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته . انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ج ١/٢٤١) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٨/٢٢٨) كتاب الأدب - باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، وسنن أبي داود (ج ٥/١٤٢) كتاب الأدب - باب في حسن العشرة ح ٤٧٨٨ ، وح ٤٧٨٩ ، وعيون الأثر (ج ٢/٣٢١) .

- شجاعته ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأصبر الناس وأجلدهم ، وقد حضر المواقف الصعبة وفر الكساء والأبطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح ، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه ؛ تولى عنه أصحابه يوم حنين فجعل يركض بغلته نحو المشركين وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » معلناً عن نفسه لعداءه . قال ابن عمر رضي الله عنهما : ما رأيت أحداً أجود ولا أنجد ولا أشجع ولا أَوْضاً من رسول الله ﷺ .

وقال علي رضي الله عنه : كنا إذا حمي البأس ، ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ ، فلا يكون أحد منا أدنى إلى القوم منه . وقال البراء رضي الله عنه مثله وزاد : وإن الشجاع منا للذي يحاذي به .

وكان ﷺ إذا اعترت أصحابه المخاوف أسرع بنفسه إلى كشفها ، روي أنه فرغ أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت ، فاستقبلهم النبي ﷺ وقد استبرأ الخبر^(١) وهو على فرس لأبي طلحة عزي ، وفي عنقه سيف ، وهو يقول : « لم تراغوا لم تراغوا »^(٢) .

- زهده ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، وأشدهم إعراضاً عن زهرتها ، وكان يقول : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ، ويقول : « اللهم ! اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

روي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، دخل على رسول الله ﷺ وهو على حصير قد أثر في جنبه ، فقال : يا نبي الله ! لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا ، فقال : « مالي وللدنيا ؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها » .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : لقد أصبحت وأمسيت ترغبون فيما كان رسول الله ﷺ يزهده فيه ، أصبحت ترغبون في الدنيا ، وكان رسول الله ﷺ يزهده فيها ، والله ما أتت على رسول الله ﷺ ليلة من دهره إلا كان الذي عليه أكثر ماله .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض . وقالت أيضاً : كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً ، وإنما هو التمر والماء ، إلا أن نؤتي باللحم .

وكان ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً ، وما أكل خبزاً منخولاً ، وما أكل على خوان^(٣) قط إنما كان يأكل على السفرة^(٤) ، لا يملأ بطنه في يوم من طعامين ؛ إن أكل لحماً لم يزد عليه ، وإن أكل تمرًا لم يزد عليه .

وكان ﷺ يصلي على الحصير والفروة المدبوعة ، وكان فراشه الذي ينام عليه أدمًا حشوه ليف ، وربما نام على الحصير فأثر في جسده الشريف كما تقدم .

ومع ذلك لم يكن النبي ﷺ يرفض الهدية تأتيه بالشهي من المأكول والناعم من الملابس ، ولكنه كان يرفض أن يسعى إلى هذا العيش اللين أو يفكر فيه أو ينشغل به .

وكان بيت النبي ﷺ من جريد يمسه الطين ، وكانت بعض حجراته من حجارة مرصوفة ، وكانت جميعاً مسقوفة بالجريد ، وكان بابُه يقرع بالأظافر^(٥) .

(١) استبرأ الشيء : تقصى بحدته ليقطع الشبهة عنه (الوسيط : ج ٤٥/١) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (ج ٤٧/٤) كتاب الجهاد والسير - باب الحائل وتعليق السيف بالعنق ، وصحيح مسلم (ج ١٤٠/١٣) كتاب الجهاد والسير - باب في غزوة حنين ح ٧٩ ، والمستدرک (ج ١٤٢/٢) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٧٢/١) ، والشفاء بتعريف حقوق المصطفى (ج ٢٣٥/١) .

(٣) الخوان : هو ما يوضع عليه الطعام عند الأكل .

(٤) السفرة : طعام يتخذ المسافر ، وأكثر ما يحمل في جلد مستدير ، فنقل اسم الطعام إلى الجلد وسمي به (النهاية : ج ٢٧٢/٢) .

(٥) انظر : صحيح البخاري (ج ١٨٦/١) كتاب الصلاة - باب صلاة الليل ، و (ج ٩١/٧) كتاب الأطعمة - باب الخبز المرقق ، و (ج ١٢١/٨) كتاب =

- عدله ﷺ وأمانته :

وكان رسول الله ﷺ أعدل الناس ، قواماً بالقسط ، منتصراً للحق ، حيث كان الحق ، مع القوي أو الضعيف ، مع الشريف أو الوضع ، مع الغني أو الفقير ، مع الرجل أو المرأة ، مع الحر أو العبد . روي أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ ، فأمر بقطع يدها ، فكلمه أسامة ، رضي الله عنه ، في ذلك ، فغضب وقال : « أَتَكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حَدِّهِ اللَّهِ ؟ » ، ثم قام ﷺ فخطب الناس وقال : « أَمَا بَعْدُ ؛ فَإِنَّا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » .

وكان رسول الله ﷺ آمن الناس وأعفهم وأصدقهم لهجة ، اعترف له بذلك مخالفوه وأعداؤه ، حتى كانوا يسّمونه قبل نبوته الأمين ، وكانوا يتحاكمون إليه في الجاهلية قبل الإسلام ، حتى إن أبا جهل قال له : إِنَّا لَا نَكْذِبُكَ وَلَكِنْ نَكْذِبُ بِمَا جِئْتَ بِهِ .
وسأل هرقل عنه ﷺ أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا (١) .

- وقاره ومهابته ﷺ :

وكان رسول الله ﷺ أشد الناس وقاراً وأعظمهم مهابة ، وقد تقدّم قول علي ، رضي الله عنه ، في وصفه : مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةِ هَابِهِ ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةَ أَحَبَّهُ .

وقال خارجة بن زيد الأنصاري : كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه ، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه .

وقد كان الصحابة ، رضي الله عنهم ، لا يستطيعون إمعان النظر فيه ، لقوة مهابته ومزيد وقاره ، ومن ثم لم يصفه إلا صغارهم ، أو من كان في تربيته قبل النبوة كسيدنا علي وهند بن أبي هالة رضي الله عنهما .

ومن عظيم مهابته وكال وقاره ﷺ كان من جلس إليه هابه وربما أخذته رعدة شديدة من قوة هيئته ، ولذلك كان يباسطهم ويلاطفهم ليسكن روعهم ، قال بريدة رضي الله عنه : كُنَّا إِذَا قَعَدْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ نَرْفَعِ رُؤُوسَنَا إِلَيْهِ إِعْظَاماً لَهُ .

وكان رسول الله ﷺ طويل الصمت ، قليل الضحك ، لا يضحك إلا تبسماً ، ولا يتكلم في غير حاجة ، فإذا تكلم أوجز وأبلغ ، وكان لا يقول هجراً (٢) ولا ينطق هذراً (٣) ، يخاطب كل إنسان على قدر عقله ، وكان في كلامه ترتيل أو ترسيل ، إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه ، وكان إذا جلس يتحدث يكثر أن يرفع طرفه إلى السماء ، وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، وكان بكأوه ﷺ من جنس ضحكه ، لم يكن بشهيق ورفع صوت ، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ، ولكن تدمع عيناه حتى تهملان (٤) .

= الرقاق - باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا ، وصحيح مسلم (ج ٧٣٠/٢) كتاب الزكاة - باب في الكفاف والقتاعة ح ١٢٦ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٣٠١/١) ، و (ج ٢٠٤/٤) ، وسنن الترمذي (ج ٥٨٠/٤) كتاب الزهد - باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله ح ٢٣٦٠ ، ومجمع الزوائد (ج ٤٣/٨) ، و (ج ٣١٢/١٠) ، وطبقات ابن سعد (ج ٢٤٠/١) .

(١) انظر : صحيح البخاري (ج ٥/١) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، و (ج ١١٢/٥) كتاب المغازي ، والشفا/للقياضي عياض (ج ٢٦٨/١ - ٢٦٩) .

(٢) أي فُحْشاً . وقد تقدّم .

(٣) الهذَرُ : الكلام الذي لا يُعْتَبَرُ به ، وقيل : هو سَقَطُ الكلام . يقال : هَذَرَ الرَّجُلُ فِي مَنْطِقِهِ يَهْذِرُ هَذْرًا . والمراد أنه لا يَخْلِطُ في كلامه ولا يَنْطِقُ بِمَا لَا يَنْبَغِي . انظر : (لسان العرب : ج ٤٦٤٢/٦) .

(٤) انظر : صحيح البخاري (ج ٣٥/١) كتاب العلم - باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه ، وصحيح مسلم (ج ٥٩٢/٢) كتاب الجمعة - باب تخفيف الصلاة ح ٤٣ ، ومسنند الإمام أحمد (ج ٩٧/٥) ، والمستدرک (ج ١٢١/١) ، وسنن أبي داود (ج ١٧١/٥) كتاب الأدب - باب المهدي في الكلام ح ٤٨٢٧ ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٠٧/٣) .

ولنترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ كما روى عنه الحسن بن عليّ، رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ متواصلاً للأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه^(١)، ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لأفصول ولا تقصير^(٢)، دمثاً^(٣) ليس بالحافي ولا المهيبن^(٤)، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئاً، لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، لا تغضبه الدنيا وما كان لها فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولمن يقيم لغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جلّ ضحكك التبسّم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

قال الحسن: فكتمتها الحسين بن عليّ زماناً، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومجلسه ومخرجه وشكله فلم يدع منه شيئاً.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول النبي ﷺ، فقال: كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء، جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، فبردة ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئاً، وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين: فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاكل بهم، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألتهم عنه، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم^(٥)، ويقول: «لبيّغ الشاهد الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدميه يوم القيامة». لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره. يدخلون رواداً^(٦) ولا يفترقون إلا عن ذواق^(٧)، ويخرجون أدلة^(٨).

قال: فسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول الله ﷺ يحزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشراً ولا خلقه، ويتفقد أصحابه،

(١) الأشدّاق: جوانب الفم، وإنما يكون ذلك لرحب شفتيه. والعرب تمتدح بذلك لدلالة السعة على الفصاحة. انظر: (النهاية: ج ٤٥٢/٢)، وشرح الزرقاني على المواهب (ج ٩٤/٤).

(٢) أي: أن كلامه فاصل بين الحق والباطل، ومفضل لا يتداخل في بعضه، بحيث يتلقاه السامع بوضوح دون التباس، لا يكثر فيل، ولا يقصر فيدخل.

(٣) أي: أنه كان لين الخلق في سهولة (النهاية: ج ١٢٢/٢).

(٤) أي: ليس بالغليظ الخلق والطبع، أو ليس بالذي يخفو أصحابه. والمهين: بضم الميم وفتحها؛ فالضم على الفاعل، من أهان: أي لا يهين من صحبة، والفتح على المفعول، من المهانة: الحقارة، وهو مهين: أي: حقير (النهاية: ج ٢٨١/١).

(٥) أي: أن سيرته في الجزء الذي جعله للأمة إيثار أهل الفضل، وهم أهل العلم والصلاح والشرف، فيقدمهم في الدخول عليه ﷺ، كما وأن سيرته ﷺ في الوقت الذي جزأه للأمة أنه قسمه بين الأمة على قدر فضلهم في الدين من جهة الصلاح والتقوى، وعلى قدر درجاتهم في الدين، فن أهل الفضل ومن بقية الناس من هو ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاكل بهم؛ أي يكون مشغولاً بإجابة طلباتهم وأسئلتهم وقضاء حاجاتهم، كما وأنه يشغلهم فيما يصلحهم وينفعهم، ويصلح الأمة وينفعها؛ إما: بأن يفتح لهم باب الأسئلة، ليفيض عليهم الأجوبة، أو يبتدئهم بالإخبار عما ينفعهم، وبيان الذي ينبغي لهم أن يعلموه من الأحكام والمواعظ، والنصيحة والوصية بما يصلح شأنهم ويسعدهم في دينهم ودنياهم. فما كان ﷺ يترك جزءاً من الزمن فارغاً عما ينفع الأمة ويصلح أمرها، وما كان يترك أصحابه في فراغ من الوقت وبطالة من العمل، بل كان ﷺ يشغلهم بما يصلحهم وينفعهم، ويصلح الأمة وينفعها. انظر: سيدنا محمد رسول الله ﷺ للشيخ سراج الدين (ص: ٢٢٦).

(٦) أي يدخلون عليه طالبين العلم ومتمسكين بالحكم من عنده، والرواد: جمع رائد، وأصل الرائد الذي يتقدم القوم ينبصر لهم الكلاً ومساقط الغيث (النهاية: ج ٢٧٥/٢).

(٧) ضرب الذواق مثلاً لما يسألون عنده من الخير؛ أي: لا يتفرقون إلا عن علم وأدب يتعلمونه، يقوم لأنفسهم وأرواحهم مقام الطعام والشراب لأجسامهم (النهاية: ج ١٧٢/٢).

(٨) الأدلة: جمع دليل، ويخرجون أدلة أي: بما قد علموه فيدلون عليه الناس، يعني يخرجون من عنده فقهاء (النهاية: ج ١٢١/٢).

ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهنه . معتدل الأمر غير مختلف^(١) ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا ، لكل حال عنده عتاد^(٢) ، لا يقصر عن الحق ولا يجوز ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة .

قال : فسألته عن مجلسه ، فقال : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، لا يؤطِن الأماكن^(٣) ، وينهي عن إبطانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث انتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه في حاجة صابره^(٤) حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو ميسور من القول قد وسع الناس منه بسطه وخلفه ، فصار لهم أباً ، وصاروا في الحق عنده سواء . مجلسه مجلس حِلْم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤن فيه الحرم^(٥) ، ولا تُنثى قَلتاته^(٦) ، متعادلين ، يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين ، يُوقرون فيه الكبير ويرحون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون أو يحوطون الغريب .

قال : قلت : كيف كانت سيرته في جلسائه ؟ قال : كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب ولا فحاش ولا عياب ، يتغافل عما لا يشتهي^(٧) ، ولا يؤس منه راجيه ولا يخيب فيه^(٨) ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء ، والإكثار ، ومالا يعنيه . وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه . وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ، ولا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أوليتهم ، يضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للمغريب على الجفوة في منطقه ومسالته ، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم^(٩) ، ويقول : « إذا رأيتُم طالبَ الحاجةِ يَطْلُبُها فأزِفِدُوهُ »^(١٠) . ولا يقبل الثناء إلا من مكافء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام^(١١) .

خشيتته وخشوعه ﷺ واجتهاده في العبادة :

وكان رسول الله ﷺ أشد الناس خشية وخوفاً من الله تعالى ، وذلك لأنه أعلمهم بالله تعالى كما قال رسول الله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » .

وكان ﷺ شديد الورع ، روي أنه وجد تحت جنبه ثمرة من الليل فأكلها ، فلم يمت تلك الليلة ، فقال بعض نسائه : يا رسول الله ! أرقت البارحة ؟ قال : « إني وجدْتُ تحتَ جنبِي ثمرةً فأكلتها ، وكانَ عندنا تمرٌ من تمرِ الصدقةِ ، فخشيتُ أن تكونَ مِنه » .

وكان رسول الله ﷺ مع ما أكرمه الله به من الرسالة والاصطفاء وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أعظم الناس اجتهاداً في

- (١) أي : أن جميع أفعاله وأقواله ﷺ على غاية من الاعتدال ، يحفظ من أن يصدر عنه أمور متخالفة ، أو يمارض بعضها بعضاً ، وهذا دليل على كمال عقله وإحكام أمره ﷺ .
- (٢) أي : عنده ما يصلح لكل ما يقع من الأمور (النهاية : ج ١٧٧/٣) .
- (٣) أي : لا يتخذ لنفسه مجلساً يُعرف به (النهاية : ج ٢٠٤/٥) .
- (٤) قاومه : فاعله من القيام ؛ أي : إذا قام معه ليَقْضِي حاجته صبر عليه إلى أن يَقْضِيها (النهاية : ج ١٢٥/٤) .
- (٥) أي : لا يذكرون بقبیح ، كان يَصانُ مجلسه ﷺ عن رفث القول (النهاية : ج ١٧٨) .
- (٦) أي : لا تشاع ولا تداع ، يُقال : نثوت الحديث ثنواً ، والنثا في الكلام يُطلق على القبيح والحسن . والفلتات : جمع فلتة ، وهي الزلة . أي : أنه لم يكن لمجلسه قَلتات فنثى (النهاية : ج ١٦٥) .
- (٧) أي : يظهر الغفلة والإعراض عما يستحسنه من الأقوال والأفعال التي تصدر من بعض الجلساء ، تلطفاً ورفقاً بالجلساء .
- (٨) أي : من رجاه في أمر لم يقطع رجاه ولا يخيبه فيما رجاه .
- (٩) أي : إنه كان الصحابة ليستجلبون الغرباء ، ويرغبون في حضورهم مجلس النبي ﷺ ، ليستفيدوا بسبب أسئلتهم .
- (١٠) أي : أعينوه على حاجته حتى يصل إليها . أو أعطوه بعض كفايته . انظر : (النهاية : ج ٢٤١/٢) .
- (١١) انظر : طبقات ابن سعد (ج ٤٢٢/١) ، وجمع الزوائد (ج ١٧٤/٨) ، ودلائل النبوة لأبي نعم (ج ٨٠٤/٢) ، ودلائل البيهقي (ج ٢٨٨/١) .

العبادة ، وحرصاً عليها ، وولعاً بها . قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : قام النبي ﷺ حتى تورّمت قدماه ، فقيل له : غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ، قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

وقالت عائشة رضي الله عنها : وكان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها . وقد بلغ من خشوعه في صلاته أنه كان يُسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء كما قال عنه عبد الله بن الشخير رضي الله عنه .

وقال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه ، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئاً ، وكان لا تشاء تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ، ولا نائماً إلا رأيته .

وكان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه ، وكان إذا صلى الفجر جلس في مصلاه يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، وكان يستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة ويقول : « اللهم ! اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أسأؤوا استغفروا » .

وكان إذا دعا استقبال القبلة ورفع يديه ثم لا يردّها حتى يمسح بها وجهه ، وكان يعجبه الجوامع من الدعاء (١) ، وكان أكثر دعائه : « اللهم ! ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ... اللهم ! إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهزم وعذاب القبر . اللهم ! أت نفسي تقوها ، وزكها أنت خير من زكها ، أنت وليها ومولاها . اللهم ! إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » .

وكان إذا اجتهد في الدعاء قال : « يا حيّ يا قيوم » ، وكان لا يدع هؤلاء الدعوات حين يسي وحين يصبح : « اللهم ! إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم ! إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي . اللهم ! استر عوراتي ، وأمن روعاتي . اللهم ! احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أقتال من تحتي » .

وكان إذا أراد أمراً قال : « اللهم ! خّر لي واختر لي » ، وإذا خاف قوماً قال : « اللهم ! إنا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

وإذا سافر قال : « اللهم ! إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم ! هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بُعدة ، اللهم ! أنت الصاحب في السفر ، والحليفة في الأهل ، اللهم ! إني أعوذ بك من وعشاء السفر (٢) ، وكآبة المنظر ، وسوء المتقلب في المال والأهل » .

وإذا عاد مريضاً قال : « أذهب البأس ربّ الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً » .

وإذا هنأ بالنكاح قال : « بارك الله لك وبارك عليك ، وجمّع بينكما بالخير » (٣) .

(١) الجوامع من الدعاء : هي التي تجتمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة ، أو تجتمع الثناء على الله تعالى وآداب المسألة (النهاية : ج ٢٩٥/١) .

(٢) وعشاء السفر : شدته ومشقته .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٥٠/٢) كتاب الصوم - باب ما يذكر من صوم النبي ﷺ وإفطاره ، و (ج ١٦٧/٦) كتاب التفسير - سورة الفتح ، و (ج ١٥٧/٧) كتاب الطب - باب دعاء العائد للمريض ، و (ج ٣١/٨) كتاب الأدب - باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، و (ج ٨٢/٨ ، ١٠٢) كتاب الدعوات - باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ، باب قول النبي ﷺ « ربنا آتنا في الدنيا حسنة » ، وصحيح مسلم (ج ٤٦٤/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح .. ح ٢٨٧ ، و (ج ٩٧٨/٢) كتاب الحج - باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ح ٤٢٥ ، و (ج ٢٠٨٨/٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة .. باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ح ٧٣ ، ومسند الإمام أحمد (ج ١٩٢/٢) ، و (ج ١٨٩/٦ ، ٢٢٥) ، والمستدرک (ج ٥٣٧/١) ، وسنن الترمذي (ج ٤٠٠/٣) كتاب النكاح - باب ما جاء فيا يقال للمتزوج ح ١٠٩١ ، و (ج ٤٩٦/٥ ، ٥٣٥) كتاب الدعوات - باب ما جاء ما يقول عند الكرب ح ٢٤٣٦ ، باب ٨٦ / ح ٣٥١٦ ، وسنن أبي داود (ج ١٨٧/٢) كتاب الصلاة - باب ما يقول الرجل إذا خاف قوماً ح ١٥٣٧ ، و (ج ٣١٥/٥) كتاب الأدب - باب ما يقول إذا أصبح ح ٥٠٧٤ ، وسنن النسائي (ج ١٣/٣) كتاب السهو - باب البكاء في الصلاة ، وسنن ابن ماجه (ج ١٢٥٥/٢) كتاب الأدب - باب الاستغفار ح ٢٨٢٠ ، وجمع الزوائد (ج ١٠٧/١٠) .

- ومن آدابه العامة ﷺ :

كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ، روي أن امرأة أتت النبي ﷺ بهدية فأبى أزواجه أن يقبلنها فقلن : إننا لَنأخذ ، فأمرهن النبي ﷺ فأخذنها ، ثم أقطعها وادياً .

وكان يحب الفأل الحسن ويكره الطَّيْرَةَ ، ويحب حسن الأسماء ويغير قبيحها ، وكان يقول : « إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ »

وكان يعجبه التين في شأنه كله ؛ في تنعله وترجله وطهوره .

وكان ﷺ أنظف خلق الله تعالى بدأ وثوباً وبيتاً ومجلساً ، فلقد كان بدنه الشريف ﷺ نظيفاً وضيئاً ، كما وصفه أصحابه فقالوا : ظاهر الوضوء .. أنور المتجرد ؛ أي : مشرق الجسد ، وذلك أن أعضائه المتجردة عن الشعر والثياب هي في غاية الحسن ونضاعة اللون ، وفي هذا دليل نظافته ﷺ . كما ورد في صفته : كأن عنقه إبريق فضة مشرب ذهباً ، وظهره كأنه سبيكة فضة ، وعن أبي جحيفة قال : كاني أنظر إلى وبيص ساقيه . وإن طيب عرقه ﷺ لهو أكبر دليل على نظافة بدنه وثيابه ، قال أنس رضي الله عنه : دخل علينا النبي ﷺ فقال (١) عندنا ، فعرق ، وجاءت أمي بقارورة ، فجعلت تسلك العرق فيها (٢) ، فاستيقظ النبي ﷺ فقال : « يَا أُمَّ سَلِيمِ ! مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ ؟ » قالت : هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب .

وقال جابر رضي الله عنه : كان النبي ﷺ لا يسلك طريقاً فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرقه ، أو قال : من

ريح عرقه .

وكان رسول الله ﷺ حسن السمات والزي الحسن ، يرجل شعره ، ويكثر دهن رأسه وتسريح لحيته بالماء ، وكان يسدل شعره أولاً لحبه موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء ، ثم فرق رأسه بعد . وكانت له حلة يلبسها للعبيد والجمعة ، وكان يكتحل بالإنثد عند النوم ثلاثاً ، ويقلم أظفاره ويقصر شاربه يوم الجمعة قبل أن يخرج إلى الصلاة ، وكان يحب السواك لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان يحب الطيب ، قال أنس رضي الله عنه : ما عرض على النبي ﷺ طيب قط فردّه ، وكان يقول : « حَبَّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النَّسَاءَ وَالطَّيِّبَ ، وَجَعَلَتْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » (٣) .

والأحاديث في بسط أخلاقه الحميدة وآدابه الشريفة ﷺ كثيرة جداً ، وإنما أتينا على ذكر بعض منها ، وملخص ما جاء في بعضها الآخر مما يعطي صورة مجملّة عن مظاهر كاله وعظيم صفاته ﷺ ، لعلها تذكّر العاقل وتنبيه الغافل وتعلم الجاهل ليسير بنور سيرته وليتأسى بكمال أخلاقه ﷺ .

أما حقيقة ما كان عليه النبي ﷺ من الصفات والخصال ، فإن أحداً من الناس مهما كمل عقله واتسع علمه لا يستطيع أن يحيط بها ، ولا أن يدرك بحاسن هذا النبي الكريم ﷺ ، ولا أن يستقصى أنواع كاله وألوان جماله ، كيف وقد بلغ أعلى قمة من الكمال حتى صار خلقه القرآن ؟ وفي الأثر أن خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، خرج في سرية من السرايا فنزل ببعض الأحياء ، فقال له سيّد ذلك الحيّ : صف لنا محمداً ، فقال : أما إني أفصل فلا ، فقال الرجل : أجمل ، فقال : الرسول على قدر المرسل . ولقد أحسن البوصيري حيث قال :

(١) قَالَ يَقْبَلُ قَيْلَوْلَةَ ، فَهُوَ قَائِلٌ . وَالْقَيْلَوْلَةُ : الْإِسْتِرَاحَةُ نَيْفَ النَّهَارِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهَا نَوْمٌ .

(٢) أَيْ تَمَسَّحَتْهُ وَتَلَقَّيْتَهُ فِيهَا (لسان العرب : ج ٢٠٥٩/٣) .

(٣) انظر : صحيح البخاري (ج ٥٢/١) كتاب الوضوء - باب التين في الوضوء والغسل ، و (ج ٢٠٦/٣) كتاب الهبة وفضلها - باب المكافاة في الهبة ، و (ج ٢٣٠/٤) كتاب المناقب - باب صفة النبي ﷺ ، وصحيح مسلم (ج ١٨١٥/٤) كتاب الفضائل - باب طيب عرق النبي ﷺ .. ح ٨٣ ، ومسنّد الإمام أحمد (ج ٣٥٤/١) ، و (ج ٣٣٢/٢) ، و (ج ٢٦١/٣ ، ٢٨٥) ، وسنن أبي داود (ج ٢٣٦/٥) كتاب الأدب - باب في تغيير الأسماء ح ٤٩٤٨ ، سنن الدارمي (ج ٣٢/١) ، والسنن الكبرى للبيهقي (ج ٢٤٧/٣) ، ومجمّع الزوائد (ج ١٧٠/٢) ، و (ج ١٧١/٥) ، و (ج ٢٧٧/٨) ، و (ج ١٤٩/٩) ، وطبقات ابن سعد (ج ٤٨٤/١) .

أعيان الورى فهم معناه فليس يرى للقرب والبعد فيه غير مُنفجِم (١)
كالشمس تظهر للعينين من بُعد صغيرة وتكبر الطُرف من أَمَم (٢)

وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأفضل خلق الله أجمعين ، وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد لله ربّ العالمين .

☆ ☆ ☆

(١) يُقال : كَلُمْتُهُ حتى أَفْحَمْتُهُ ، إذا أَسَكَّنْتُهُ في حُصُومَةٍ أو غَيْرِها (لسان العرب : ج ٣٢٥٩/٥) .
(٢) انظر شرح الزرقاني على المواهب (ج ٧٧/٤) . والأَمَمُ : القُرْبُ (النهاية : ج ٦٩/١) .



فهرس موضوعات

الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة
تمة القسم الثالث	٤٠١ - ٥
السنة الرابعة للهجرة	٣٤ - ٧
سرية أبي سلمة رضي الله عنه إلى بني أسد	٧
سرية عبد الله بن أنيس رضي الله عنه لقتل ابن نبيح الهذلي	٨
بعث الرجيع	٩
- ما نزل من القرآن في بعث الرجيع	١٣
سرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه لقتل أبي سفيان	١٣
وقعة بئر معونة	١٥
غزوة بني النضير	١٨
مصور غزوة بني النضير	٢٠
تحريم الحجر	٢٢
- شأن أعشى بني قيس	٢٤
غزوة بدر الآخرة	٢٤
زواج النبي ﷺ من أم سلمة رضي الله عنها	٢٦
غزوة ذات الرقاع	٢٩
مصور السرايا والغزوات بين أحد والخندق	٣٠
- سبب الغزوة ونتيجتها	٣١
- شأن عبادة بن بشر رضي الله عنه	٣١
- قصة غورث	٣٢
- قصة جمل جابر رضي الله عنه	٣٣
- أعاجيب حدثت في غزوة ذات الرقاع	٣٤
السنة الخامسة للهجرة :	٨٣ - ٣٥
غزوة دومة الجندل	٣٥
وفد مزينة	٣٥
زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها	٣٦
- نزول الحجاب	٣٩
- من فضائل زينب رضي الله عنها	٣٩
غزوة بني المصطلق :	٤٢

الموضوع	الصفحة
مصور غزوة بني المصطلق	٤٣
- زواج النبي ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها	٤٤
- نزول سورة المنافقين وعودة النبي ﷺ إلى المدينة	٤٥
شهداء المسلمين في غزوة بني المصطلق	٤٨
- حديث الإفك	٤٨
- نزول آية التيمم	٥٣
غزوة الخندق :	٥٥
- خروج الأحزاب وأسماء رؤسائهم وعدتهم	٥٥
- مشاركة النبي ﷺ أصحابه وحفر الخندق	٥٦
- معجزات ظهرت في غزوة الخندق	٥٨
- منازل المشركين حول المدينة	٥٩
- خروج المسلمين ، منزلهم وعددهم	٥٩
- مناوشات المشركين	٦٠
- نقض بني قريظة العهد	٦٠
مصور غزوة الأحزاب « الخندق »	٦٢
- اشتداد الخوف وظهور النفاق	٦٣
- حراسة المدينة	٦٣
- اشتداد الحصار وسعي النبي ﷺ إلى مصالحة غطفان	٦٤
- اقتحام نفر من المشركين الخندق	٦٤
- قتلى الفريقين وإصابة سعد بن معاذ رضي الله عنه	٦٥
- استمرار القتال وفوات الصلاة	٦٦
- خداع نعيم بن مسعود للمشركين	٦٧
- دعاء النبي ﷺ على الأحزاب	٦٩
- هزيمة الأحزاب	٦٩
- استخبار النبي ﷺ عما حل بالمشركين ومناداة أبي سفيان بالرحيل	٧٠
- الرجوع من الخندق	٧٢
غزوة بني قريظة :	٧٣
مصور إجلاء بني قريظة	٧٤
- نزول بني قريظة على حكم رسول الله ﷺ وتنفيذ الحكم	٧٦
- تقسيم غنائم بني قريظة واصطفاء النبي ﷺ رجلاً	٧٩
- شهداء غزوة بني قريظة	٨٠
- وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه	٨٠
- ما نزل من القرآن في أمر الخندق وبني قريظة	٨٣
وفد أشجع	٨٣
مصور السرايا والغزوات بين غزوتي الخندق والحديبية	٨٤

١١٤ - ٨٥ السنة السادسة للهجرة :
٨٥ سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى القرطاء
٨٥ غزوة بني لحيان
٨٦ سرية عكاشة بن محصن رضي الله عنه إلى الغمر
٨٦ سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى ذي القصة
٨٧ سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى ذي القصة
٨٧ سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني سليم بالجحوم
٨٧ سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى العيص
٨٩ سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى الطرف
٨٩ سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القرى
٨٩ سرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل
٩٠ سرية علي بن أبي طالب رضي الله إلى فذك
٩٠ سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القرى
٩٢ سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى مدين
٩٢ سرية عبد الله بن عتيك رضي الله عنه لقتل سلام بن أبي الحقيق
٩٣ مصور مجموعة الغزوات والسرايا مع اليهود
٩٥ سرية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لقتل اليسير بن رزام
٩٥ سرية كرز بن جابر رضي الله عنه إلى العرنين
٩٧ صلح الحديبية :
٩٧ - استنفار المسلمين ومسيرهم إلى مكة
٩٨ - محاولة خالد بن الوليد الإغارة على المسلمين وصلاة الخوف
٩٨ - محراف النبي ﷺ عن طريق المشركين ونزوله بالحديبية
١٠٠ مصور غزوة الحديبية
١٠١ - وساطة بديل بن ورقاء بين النبي ﷺ وقريش
١٠٢ - السفارات بين النبي ﷺ وبين قريش
١٠٤ - مبعوث النبي ﷺ إلى قريش
١٠٤ - إشاعة مقتل عثمان رضي الله عنه وبيعة الرضوان
١٠٦ - سبب نزول قوله تعالى ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾
١٠٦ - المصالحة بين النبي ﷺ وقريش
١٠٨ - رد أبي جندل
١٠٨ - حزن المسلمين وموقف عمر رضي الله عنه من شروط الصلح
١٠٩ - تحلل النبي ﷺ من الإحرام وأمره المسلمين به
١١٠ - رجوع النبي ﷺ ونزول سورة الفتح
١١٢ - أحداث جرت في الطريق إلى المدينة
١١٢ - أمر المهاجرات بعد الصلح
١١٣ - أمر أبي بصير

الصفحة	الموضوع
١١٥ - ١٧٤	السنة السابعة للهجرة :
١١٥	كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء
١١٦	- كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة
١١٧	- كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ملك الروم
١٢٠	- كتاب النبي ﷺ إلى كسرى ملك الفرس
١٢١	- كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية
١٢٣	- كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق
١٢٣	- كتاب النبي ﷺ إلى هودبة بن علي ملك اليمامة
١٢٤	مصور كتب الرسول الأعظم ﷺ إلى الملوك والأمراء
١٢٦	إسلام فروة بن عمرو الجذامي
١٢٦	إسلام رفاعة بن زيد الجذامي
١٢٧	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى حسمى
١٢٨	ما أصاب النبي ﷺ من سحر يهود
١٣٠	غزوة ذي قرد أو الغابة
١٣٦	غزوة خيبر :
١٣٦	- تجهز المسلمون للغزو وخروجهم
١٣٧	- قدوم أبي ثعلبة الحشني
١٣٧	- كتاب النبي ﷺ إلى يهود خيبر
١٣٧	- طريق النبي ﷺ إلى خيبر وما جرى في الطريق
١٣٩	- إغارة النبي ﷺ على خيبر
١٣٩	- افتتاح حصون خيبر
١٤٠	مصور فتح خيبر
١٤٥	- شأن أبي اليسر رضي الله عنه
١٤٥	- نهي النبي ﷺ عن لحوم الجمر الأهلية
١٤٧	- مفاوضة أهل خيبر ومصالحتهم
١٤٧	- نقض يهود العهد وقتل ابني أبي الحقيق
١٤٨	- قسمة الغنائم
١٤٩	- قدوم جعفر بن أبي طالب رضي الله والأشعريين
١٥٠	- فضل أصحاب السفينة
١٥١	- وفد دوس
١٥٢	- زواج النبي ﷺ من صفية بنت حيي
١٥٤	- أمر الشاة المسمومة
١٥٥	- قتلى اليهود في غزوة خيبر
١٥٥	- شهداء المسلمين ومن أصيب منهم
١٥٦	- مانهى عنه النبي ﷺ يوم خيبر
١٥٧	- إصابة المسلمين بالحمى

١٥٨ قدوم أبان بن سعيد رضي الله عنه من نجد
١٥٨ أمر فدك
١٥٨ حصار وادي القرى
١٥٩ أمر تجم
١٥٩ - العودة إلى المدينة
١٦٠ أمر الحجاج بن علاط السلمي رضي الله عنه
١٦٢ إجلاء يهود خيبر والجزيرة
١٦٤ زواج النبي ﷺ من أم حبيبة رضي الله عنها
١٦٥ السرايا فيما بين غزوة خيبر وعمرة القضاء :
١٦٥ - سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تربة
١٦٦ مصور السرايا بين غزوة الحديبية وفتح مكة المكرمة
١٦٧ - سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى بني مرة
١٦٧ - سرية غالب بن عبد الله رضي الله عنه إلى الميعة
١٦٨ - سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى يمن وجبار
١٦٨ - أسرتامة بن أثال الحنفي وإسلامه
١٧٠ عمرة القضاء
١٧٢ - زواج النبي ﷺ من مهيونة بنت الحارث رضي الله عنها
١٧٤ - سرية ابن أبي العوجاء رضي الله عنه إلى بني سليم
١٧٥ - ٢٦٠ السنة الثامنة للهجرة :
١٧٥ إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة
١٧٨ سرية غالب بن عبد الله رضي الله عنه إلى بني الملوح
١٧٨ سرية غالب بن عبد الله رضي الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنهم
١٧٩ سرية شجاع بن وهب رضي الله عنه إلى بني عامر بالسي
١٧٩ سرية كعب بن عمير رضي الله عنه إلى ذات أطلاق
١٨١ غزوة مؤتة
١٨١ - سببها
١٨١ - أمراء الجيش
١٨٢ - توديع الجيش ووصية النبي ﷺ إليه
١٨٢ مصور غزوة مؤتة
١٨٤ - نزول الجيش الإسلامي بمعان وعدة العدو وعتاده
١٨٤ - لقاء العدو وتعبئة الجيش الإسلامي
١٨٦ - تولية خالد رضي الله عنه الجيش ونهاية المعركة
١٨٧ - نعي النبي ﷺ الأمراء الثلاثة
١٨٨ - مواساة رسول الله ﷺ لآل جعفر رضي الله عنهم
١٨٩ - تلقي أهل المدينة جيش مؤتة
١٩٠ - ماغنه المسلمون يوم مؤتة

الموضوع

الصفحة

- ١٩١ سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى ذات السلاسل
- ١٩٣ وفد بكر بن وائل وشيبان
- ١٩٤ سرية أبي عبيدة رضي الله عنه إلى سيف البحر
- ١٩٦ سرية أبي قتادة رضي الله عنه إلى خضرة
- ١٩٦ سرية عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه إلى الغابة
- ١٩٧ سرية أبي قتادة أو ابن أبي حدرد رضي الله عنها إلى بطن إضم
- ١٩٩ غزوة فتح مكة :
- ١٩٩ - سبب الغزوة
- ٢٠٠ - خزاعة تستنجد بالنبي ﷺ
- ٢٠١ - قريش تبعث أبا سفيان ليجدد الصلح
- ٢٠٢ - تهيؤ النبي ﷺ للغزو وكتابه الأمر
- ٢٠٣ - كتاب حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى أهل مكة
- ٢٠٤ - خروج النبي ﷺ من المدينة
- ٢٠٤ - إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية
- ٢٠٥ - هجرة العباس عم النبي ﷺ
- ٢٠٥ - قدوم بني سليم وعقد الألوية
- ٢٠٥ - إفطار النبي ﷺ ونزوله بمَرِّ الظَّهْرَانِ
- ٢٠٦ - تحسس قريش الأخبار وإسلام أبي سفيان بن حرب
- ٢٠٨ - مغادرة النبي ﷺ مر الظهران إلى مكة
- ٢٠٩ - نزع النبي ﷺ الراية من سعد بن عبادة رضي الله عنه
- ٢٠٩ - نزول النبي ﷺ ببني طوى وتنظيمه الجيش
- ٢١٠ - مصور فتح مكة المكرمة
- ٢١١ - دخول المسلمين مكة وشأن أهل الخندمة
- ٢١٣ - اغتسال النبي ﷺ وصلاته في دار أم هانئ رضي الله عنها
- ٢١٣ - إجارة أم هانئ رضي الله عنها قريبين لها
- ٢١٣ - طواف النبي ﷺ بالبيت وتطهيره المسجد من الأصنام
- ٢١٤ - نخوف الأنصار من بقاء النبي ﷺ بمكة
- ٢١٤ - دخول النبي ﷺ الكعبة وتطهيرها من الصور
- ٢١٥ - خطبة النبي ﷺ على باب الكعبة وعفوه عن أهل مكة
- ٢١٦ - دفع النبي ﷺ مفتاح الكعبة إلى أهله
- ٢١٦ - بلال رضي الله عنه يؤذن على ظهر الكعبة
- ٢١٧ - إسلام أبي تحافة
- ٢١٧ - إسلام فضالة بن عمير
- ٢١٧ - إسلام السائب بن أبي السائب
- ٢١٨ - إهدار النبي ﷺ دماء نفر من المشركين

- ٢٢١ بيعة أهل مكة
- ٢٢٢ إسلام صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى
- ٢٢٤ خطبة النبي ﷺ غداة يوم الفتح
- ٢٢٥ إقامة النبي ﷺ بمكة وأعماله فيها
- ٢٢٥ سرية سعد بن زيد رضي الله إلى مناة
- ٢٢٦ سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى العزى
- ٢٢٦ سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى سواع
- ٢٢٦ سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني جذيمة
- ٢٢٨ بعض ما حكم به النبي ﷺ في مكة
- ٢٣٠ غزوة حنين :
- ٢٣٠ سببها
- ٢٣٠ نصيحة دريد بن الصمة وتنظيم مالك جيشه
- ٢٣١ استكشاف النبي ﷺ خبر هوازن
- ٢٣١ خروج النبي ﷺ إلى حنين
- ٢٣٢ عيون مالك بن عوف يأتونه بخير المسلمين وتعبثته الجيش
- ٢٣٢ تعبئة النبي ﷺ أصحابه
- ٢٣٣ هزيمة المسلمين وثبات النبي ﷺ
- ٢٣٤ شيبه بن عثمان يهجم بقتل النبي ﷺ
- ٢٣٤ رجوع المسلمين وانهمام العدو
- ٢٣٧ مطاردة المشركين وسرية أبي عامر رضي الله إلى أوطاس
- ٢٣٨ جمع الغنائم
- ٢٣٩ شهداء المسلمين
- ٢٣٩ سرية الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه إلى ذي الكفين
- ٢٤٠ غزوة الطائف :
- ٢٤٠ طريق النبي ﷺ إلى الطائف
- ٢٤١ حصار الطائف وإصابة نفر من المسلمين
- ٢٤١ رمي النبي ﷺ أهل الطائف بالمنجنيق وأمره بقطع أعناقهم
- ٢٤٢ نزول عبيد من حصن الطائف وإسلامهم
- ٢٤٢ عيينة بن حصن يمرض ثقيفاً على المسلمين
- ٢٤٣ رؤيا النبي ﷺ ورحيل المسلمين
- ٢٤٤ عدة شهداء المسلمين
- ٢٤٤ إسلام سراقه بن مالك
- ٢٤٤ قسمة الغنائم بالجعرانة
- ٢٤٧ شأن ذي الخويصرة التميمي
- ٢٤٨ عتب الأنصار وخطبة النبي ﷺ فيهم

الموضوع	الصفحة
- قدوم وفد هوازن	٢٤٩
- إسلام مالك بن عوف النصري	٢٥١
- اعتار النبي ﷺ من الجعرانة وانصرافه إلى المدينة	٢٥١
قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى وإسلامه	٢٥٢
بعث قيس بن سعد رضي الله عنه إلى صداء وقدم وفدهم	٢٥٤
وفد ثعلبة	٢٥٥
كتاب النبي ﷺ إلى ملك عمان	٢٥٦
كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين	٢٥٧
زواج النبي ﷺ من الكلابية ومفارقتها لها	٢٥٨
ولادة إبراهيم ابن النبي ﷺ	٢٥٩
السنة التاسعة للهجرة :	٢٦١ - ٢٦٢
وفد ثماله والحدان	٢٦١
وفد باهلة	٢٦١
بعث النبي ﷺ عماله على الصدقات	٢٦٢
مصور خروج العمال على الصدقات	٢٦٣
بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق	٢٦٤
سرية عيننة بن حصن إلى بني العنبر من تميم	٢٦٤
قدوم وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات	٢٦٥
سرية قطبة بن عامر رضي الله عنه إلى خثعم	٢٦٧
وفد بني عذرة	٢٦٨
وفد بني أسد بن خزيمه	٢٦٨
سرية الضحاك بن سفيان رضي الله عنه إلى بني كلاب	٢٦٩
وفد بلي	٢٦٩
مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة : رمضان ٨ هـ - ربيع الآخر ٩ هـ	٢٧٠
سرية علقمة بن مجزز رضي الله عنه	٢٧١
سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الفلس وإسلام عدي بن حاتم	٢٧١
وفد طيء	٢٧٤
وفد بجيلة وأحمس	٢٧٤
مصور سرايا تحطيم الأصنام	٢٧٥
- هدم ذي الخلصة	٢٧٦
وفد خثعم	٢٧٧
وفاة النجاشي	٢٧٧
هجر النبي ﷺ أزواجه	٢٧٧
غزوة تبوك :	٢٨٢
- سبب الغزوة	٢٨٢
- استنفار النبي ﷺ المسلمين للغزو	٢٨٢

٢٨٣	- حض النبي ﷺ المسلمين على النفقة
٢٨٤	- البكاؤون
٢٨٥	- المعذرون من الأعراب
٢٨٥	- تخلف المنافقين
٢٨٧	- تحريق بيت سويلم اليهودي
٢٨٧	- خروج النبي ﷺ إلى تبوك
٢٨٨	- شأن أبي خيثمة وأبي ذر رضي الله عنهما
٢٨٨	- مرور النبي ﷺ بالحجر وإخباره عن هبوب ريح شديدة
٢٨٩	- ملاقاته للمسلمون من شدة وما ظهر من معجزات للنبي ﷺ
٢٩٠	- فقدان ناقة النبي ﷺ وظهور النفاق
٢٩١	- اتمام النبي ﷺ بعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه
٢٩١	- شأن أبي رهم الغفاري
٢٩٢	- فوات صلاة الفجر وخبر الميضأة
٢٩٣	- انبثاق الماء في عين تبوك
٢٩٣	- نزول النبي ﷺ بتبوك
٢٩٤	- مصالحة أهل أيلة وجرباء وأذرح ومقنا
٢٩٥	- مصور غزوة تبوك
٢٩٦	- إسلام مالك بن أحمr العوفي
٢٩٦	- بعث خالد رضي الله عنه إلى أكيدر دومة
٢٩٧	- وفاة عبد الله ذي الجحادين رضي الله عنه
٢٩٧	- مساجد النبي ﷺ بين المدينة وتبوك
٢٩٧	- رجوع النبي ﷺ إلى المدينة ومكر المنافقين به
٢٩٩	- هدم مسجد الضرار
٣٠٠	- قدوم النبي ﷺ المدينة
٣٠٠	- أمر الخلفين
٣٠٤	- أمر أبي لبابة وأصحابه رضي الله عنهم
٣٠٤	- ما نزل من القرآن الكريم حول غزوة تبوك
٣٠٥	- عدد الغزوات والسرايا ونظرة عامة عليها
٣٠٧	- مصور انتشار عقيدة التوحيد في أرجاء الجزيرة عام الوفود
٣٠٨	- تتابع الوفود :
٣٠٨	- وفد ثقيف
٣١٢	- هدم اللات
٣١٢	- وفد الدارين
٣١٣	- وفد مرة
٣١٣	- وفد فزارة
٣١٤	- وفد همدان

الموضوع	الصفحة
وفادة رسول ملوك حمير بإسلامهم	٢١٦
بعث معاذ وأبي موسى رضي الله عنها إلى اليمن	٢١٧
وفد بني سعد بن بكر	٢١٨
وفد عبد القيس	٢١٩
وفد نجران	٢٢٢
وفد بني عامر بن صعصعة	٢٢٥
وفد بني البكاء	٢٢٦
وفد بني حنيفة	٢٢٦
وفد هبراء	٢٢٨
وفد بني سعد هذيم	٢٢٨
وفد تحيب	٢٢٨
وفد أزد شنوءة	٢٢٩
وفد الأزد	٢٢٩
وفاة أم كلثوم بنت النبي ﷺ	٢٣٠
وفاة عبد الله بن أبي ابن سلول	٢٣٠
حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس	٢٣١
السنة العاشرة للهجرة :	٢٣١ - ٢٣٢
سرية خالد رضي الله عنه إلى بني الحارث بن كعب بنجران	٢٣٣
بعث عمرو بن حزم رضي الله عنه إلى نجران	٢٣٤
وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ	٢٣٥
وفد خولان	٢٣٦
سرية علي رضي الله عنه إلى مذحج باليمن	٢٣٦
مصور السرايا والغزوات بعد فتح مكة : رجب ٩ هـ - صفر ١١ هـ	٢٣٧
وفد مراد	٢٣٨
وفد زبيد	٢٣٨
وفد كندة	٢٣٩
وفد حضرموت	٢٤٠
وفد بني محارب بن خصفة	٢٤١
حجة الوداع :	٢٤٢
- خروج النبي ﷺ للحج وإحرامه من ذي الحليفة	٢٤٢
مصور خط سير النبي ﷺ في حجة الوداع	٢٤٥
- مسير النبي ﷺ إلى مكة	٢٤٦
- مبيت النبي ﷺ بذي طوى ودخوله مكة	٢٤٦
- دخوله ﷺ المسجد الحرام وطوافه بالبيت	٢٤٦
- طوافه ﷺ بين الصفا والمروة	٢٤٧
- أمر النبي ﷺ أصحابه بفسخ الحج إلى العمرة	٢٤٨

٢٤٩	إقامة النبي ﷺ بمكة
٢٤٩	قدوم علي رضي الله عنه من اليمن
٢٤٩	قدوم أبي موسى رضي الله عنه من اليمن
٢٥٠	خروج النبي ﷺ وأصحابه إلى منى
٢٥٠	توجه النبي ﷺ إلى عرفة وخطبته بها
٢٥٢	إفاضة النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة
٢٥٤	إذنه ﷺ لضعفة أهله بالتعجل إلى منى
٢٥٤	وقوف النبي ﷺ بالمشعر الحرام ثم دفعه إلى منى
٢٥٦	رمي النبي ﷺ بحجر العقبة يوم النحر
٢٥٦	خطبة النبي ﷺ بمنى يوم النحر
٢٥٧	نحر النبي ﷺ البدن بمنى
٢٥٨	ذبحه ﷺ البقر عن نسائه
٢٥٨	حلق النبي ﷺ رأسه ودعاؤه للحلقين
٢٥٩	تطيب النبي ﷺ وإفاضته إلى البيت
٢٥٩	شربه ﷺ من زمزم
٢٦٠	إقامة النبي ﷺ بمنى
٢٦٠	خطبة النبي ﷺ في أوسط أيام التشريق
٢٦١	إفاضة النبي ﷺ من منى ونزوله المحصب
٢٦١	اعتبار عائشة رضي الله عنها من التنعيم
٢٦٢	مصور المواقيت وأعلام الحرم
٢٦٢	طواف الوداع
٢٦٤	مصور مناسك الحج
٢٦٥	ارتحال النبي ﷺ إلى المدينة
٢٦٦	تنبؤ مسيلمة والأسود العنسي الكذابين
٢٦٨	ارتداد طليحة بن خويلد الأسدي
٢٦٩ - ٤٠١	السنة الحادية عشرة للهجرة :
٢٦٩	وفد النخع
٢٧٠	سرية أسامة رضي الله عنه إلى أبي
٢٧١	وفاة النبي ﷺ :
٢٧١	علامات دنو أجل النبي ﷺ
٢٧٢	صلاة النبي ﷺ على شهداء أحد واستغفاره لأهل البقيع
٢٧٣	ابتداء شكوى النبي ﷺ ومدة مرضه
٢٧٤	تمريض النبي ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها
٢٧٤	اشتداد وجع النبي ﷺ
٢٧٥	لد النبي ﷺ

الموضوع	الصفحة
- نعي النبي ﷺ نفسه إلى ابنته رضي الله عنها	٣٧٦
- دعاء النبي ﷺ لأصحابه ووصيته لهم	٣٧٦
- آخر خطبة خطبها النبي ﷺ	٣٧٦
- هم النبي ﷺ أن يكتب كتاباً ووصيته أصحابه	٣٧٨
- تحذير النبي ﷺ من عبادة القبور واتخاذها مساجد	٣٧٩
- آخر صلاة صلاها النبي ﷺ بالناس وإمامة أبي بكر رضي الله عنه لهم	٣٧٩
- آخر صلاة حضرها النبي ﷺ مع المسلمين	٣٨١
- رجوع أسامة رضي الله عنه من معسكره بالجرف	٣٨١
- إعتاق النبي ﷺ غلمانه وتصدق بهما عنده	٣٨١
- آخر نظرة نظرها النبي ﷺ إلى المسلمين	٣٨٢
- الوصية الأخيرة	٣٨٢
- احتضار النبي ﷺ ووفاته	٣٨٣
- زمن وفاة النبي ﷺ وسنه يومئذ	٣٨٥
- كيف تلقى الصحابة نبأ الوفاة ؟	٣٨٥
- موقف أبي بكر رضي الله عنه من نبأ الوفاة	٣٨٧
- أمر سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة	٣٨٨
- البيعة العامة	٣٩١
- جهاز النبي ﷺ	٣٩٣
- غسل النبي ﷺ	٣٩٣
- تكفين النبي ﷺ	٣٩٤
- الصلاة على النبي ﷺ	٣٩٤
- دفن النبي ﷺ	٣٩٥
- كيف فارق النبي ﷺ الدنيا ؟	٣٩٨
- ما وقع بعد وفاة النبي ﷺ من الفتن	٣٩٩
- إنفاذ بعث أسامة رضي الله عنه	٤٠٠

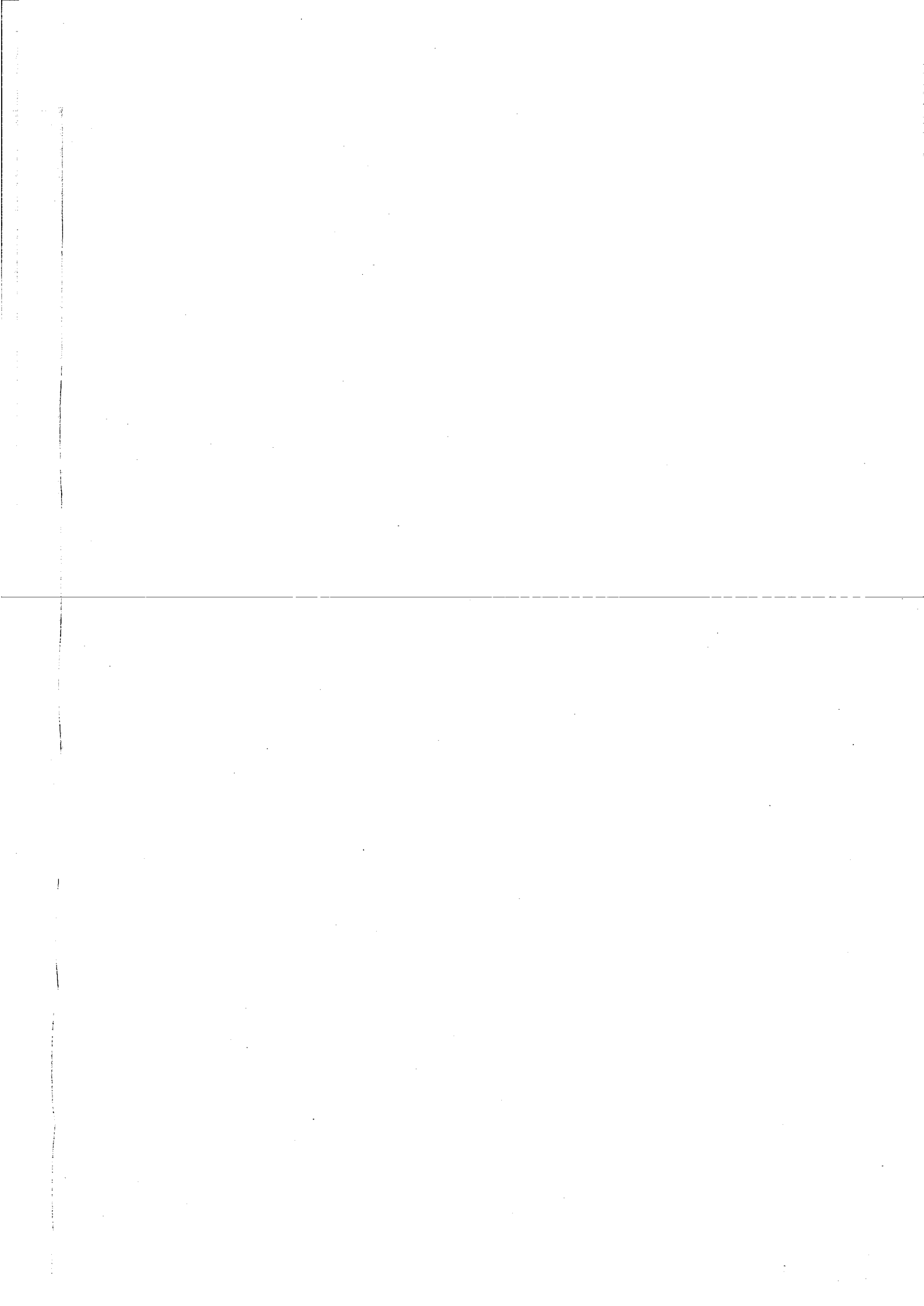
٤٠٣ - ٤٢٣

القسم الرابع

« شمائل النبي ﷺ »

صفات النبي ﷺ الخلقية	٤٠٦
- وفور عقله وفصاحة لسانه ﷺ	٤٠٩
صفات النبي ﷺ الخلقية	٤١٠
- حلمه وعفوه ﷺ	٤١٢
- مداراته ﷺ الناس ورفقه ﷺ	٤١٣
- رحمته ﷺ	٤١٤
- تواضعه ﷺ	٤١٥
- جوده ﷺ	٤١٦

٤١٦	- حياة ﷺ
٤١٧	- شجاعته ﷺ
٤١٧	- زهده ﷺ
٤١٨	- عدله ﷺ وأمانته
٤١٨	- وقاره ومهابته ﷺ
٤٢٠	- خشيته وخشوعه ﷺ واجتهاده في العبادة
٤٢٢	- من آدابه العامة ﷺ
٤٤١	- الفهرس



المصادر والمراجع

اسم المؤلف	اسم الكتاب	التحقيق والطبعة والمطبعة ودار النشر
خير الدين الزركلي	مراجع تاريخ التأليف في السيرة	
الإمام أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني	الأعلام الأنساب	
الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد	
الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي	تذكرة الحفاظ	
الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	تهذيب التهذيب	
الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد ابن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي	الجرح والتعديل	
الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي	سير أعلام النبلاء	
المؤرخ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي	شذرات الذهب في أخبار من ذهب	
محمد بن سعد	الطبقات الكبرى	دار صادر - بيروت
ابن سيد الناس	عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير	دار الفكر
ابن النديم	الفهرست	
الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	لسان الميزان	
القاضي الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي	المحدث الفاصل بين الراوي والواعي	
جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأنابكي	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	
إسماعيل باشا البغدادي	هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين	
صلاح الدين خليل بن إيبك الصفدي	الوافي بالوفيات	
أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان	وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان	
أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق	مراجع المقدمة عن وضع الجزيرة العربية قبل الإسلام	
	أخبار مكة	
تحقيق رشدي الصالح ملحق / ط ٣ /		
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م / دار الأندلس - بيروت		

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة والمطبعة ودار النشر
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام	سعيد الأفغاني	ط ٢ / ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م / دار الفكر - دمشق
الأصنام	أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي	تحقيق أحمد زكي - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م / الدار القومية - القاهرة
الرحيق المختوم	الشيخ صفى الرحمن المباركفوري	ط ١ / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م / مكة المكرمة
زاد المعاد في هدي خير العباد	الإمام ابن قيم الجوزية	تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر أرنؤوط / ط ٨ / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
سيرة النبي ﷺ	أبو محمد عبد الملك بن هشام	تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الفكر
السيرة النبوية	أبو الحسن علي الحسيني الندوي	ط ٢ / ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / دار الشروق - جدة
الطبقات الكبرى	محمد بن سعد	دار صادر - بيروت
الكامل في التاريخ	ابن الأثير	ط ٤ / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان
ماذا خسّر العالم بالخطايا المسلمين	أبو الحسن علي الحسيني الندوي	ط ٦ / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م / دار الكتاب العربي - بيروت
المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى	د. محمد السيد الوكيل	ط ١ / ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / دار المجتمع - جدة
معالم تاريخ العرب قبل الإسلام	د. أحمد أمين سليم	مكتب كريدية إخوان - بيروت
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام	د. جواد علي	ط ١ / دار العلم للملايين - بيروت
يثرّب قبل الإسلام	د. محمد السيد الوكيل	ط ١ / ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / دار المجتمع - جدة

مصادر أقسام الكتاب الأربعة ومراجعتها

كتيب التفسير	الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير
تفسير القرآن العظيم	القرشي الدمشقي
	بيروت ودار إحياء التراث العربي - بيروت

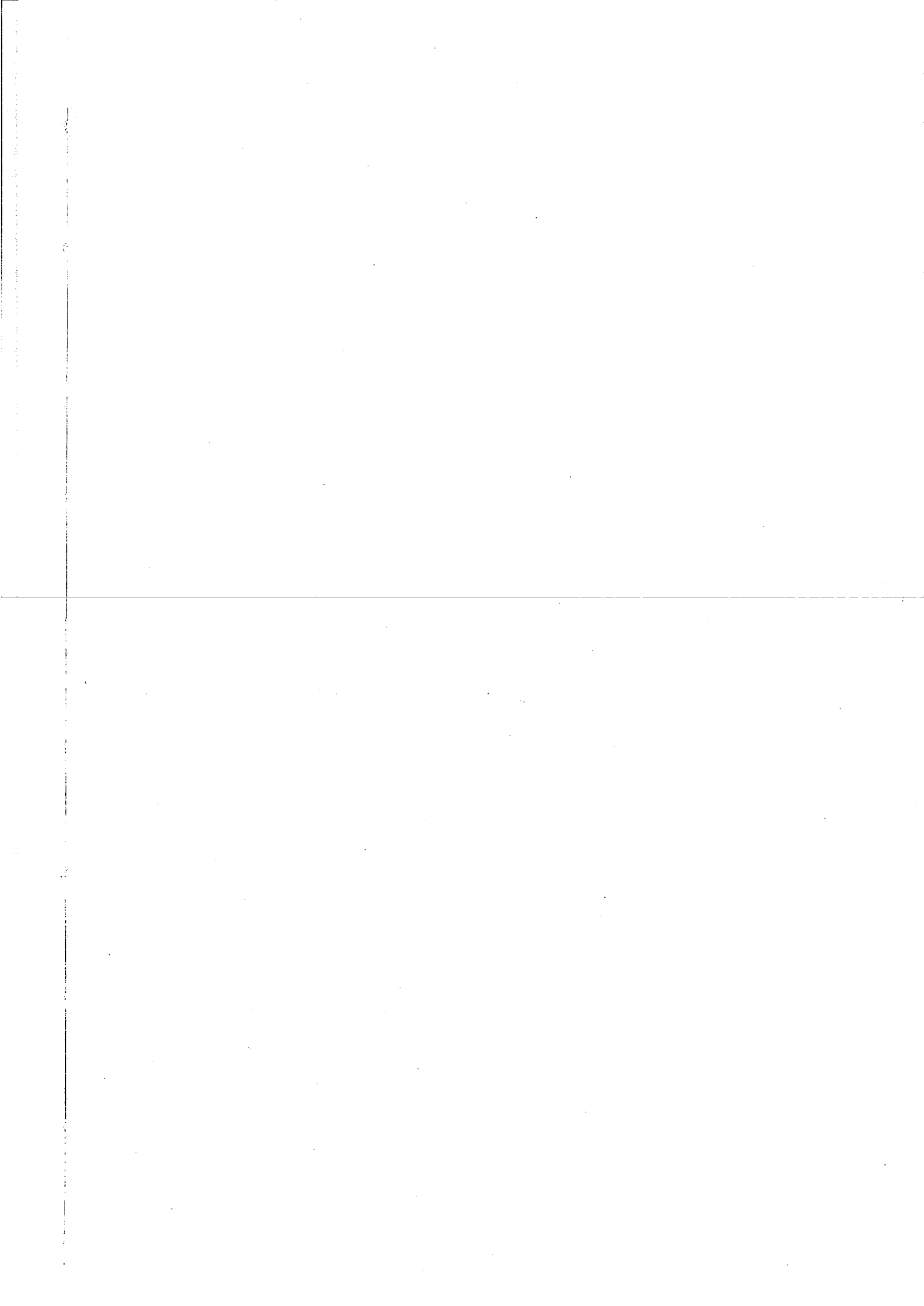
التحقيق والطبعة والمطبعة ودار النشر	اسم المؤلف	اسم الكتاب
	محمد علي الصابوني الشيخ محمد جمال الدين القاسمي	صفوة التفاسير محاسن التأويل كتب الحديث وشروحها
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م / دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان	الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني	سنن ابن ماجه
١ / ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م / دار الحديث - حمص - سوريا . تحقيق أحمد محمد شاکر / دار إحياء التراث العربي - بيروت	الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي الإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي	سنن أبي داود ومعه كتاب معالم السنن للخطابي سنن الترمذي
تحقيق عبد الله هاشم يماني المدني / ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م / دار المحاسن للطباعة - القاهرة نشر دار إحياء السنة النبوية	الإمام علي بن عمر الدارقطني	سنن الدارقطني
تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / دار الكتب العلمية - بيروت	الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي الإمام سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني المكي	سنن الدارمي سنن سعيد بن منصور
١ / ١٣٤٤ هـ / مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند / دار صادر بيروت	الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي	السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي لابن التركاكي
دار القلم / بيروت - لبنان	الإمام أحمد بن شعيب النسائي	سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وبمحاشره الإمام الجليل السندي صحيح البخاري
طبع بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م - دار إحياء التراث العربي	الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي	صحيح البخاري
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / ٢ / ١٩٧٢ م - دار إحياء التراث العربي ٢ / ١٩٧٢ م / دار إحياء التراث العربي	الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي	صحيح مسلم صحيح مسلم بشرح النووي

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة والمطبعة ودار النشر
فتح الباري بشرح صحيح البخاري	الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز /المكتبة السلفية
كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال	العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري	الطبعة الخامسة مصححة / ١٤٠١هـ - ١٩٨١م / مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٢ / ١٩٦٧م / نشر دار الكتاب - بيروت - لبنان
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	الإمام أبو عبد الله الحاكم النيسابوري	نشر دار الكتاب العربي / بيروت - لبنان
المستدرک علی الصحیحین وبذیلہ التلخیص للحافظ الذهبي	الإمام أحمد بن حنبل / عمل الشيخ محمد ناصر الدين الألباني	طبعة عام ١٣١٣هـ / مطبعة الميمنية بمصر / المكتب الإسلامي - دار صادر - بيروت
مسند الإمام أحمد بن حنبل	الإمام مالك - رواية يحيى بن يحيى الليثي	شرح وتعليق أحمد راتب عرموش / ط ١/ ١٣٩٠ - ١٩٧١ / دار النفائس - بيروت
موطأ الإمام مالك	سميرة الزايد د. عماد الدين خليل	ط ١ / المطبعة العلمية - دمشق ط ٣ / ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م مؤسسة الرسالة - دار النفائس
كتب السيرة النبوية	الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر	ط ١ / ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م / مطبعة الصباح
الجامع في السيرة النبوية دراسة في السيرة	الحافظ الكبير أبو نعيم الأصبهاني	تحقيق محمد رواس قلعه جي / ط ١/ ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م / دار ابن كثير - دمشق بيروت
الدرر في اختصار المغازي والسير	أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي	وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه د. عبد المعطي قلعجي / ط ١ / ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م / دار الكتب العلمية - بيروت
دلائل النبوة	الشيخ صفي الرحمن المباركفوري	ط ١ / ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م / مكة المكرمة
دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة	أبو القاسم ابن عبد الله الخثعمي السهيلي	دار الفكر
الرحيق المختوم		
الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام		

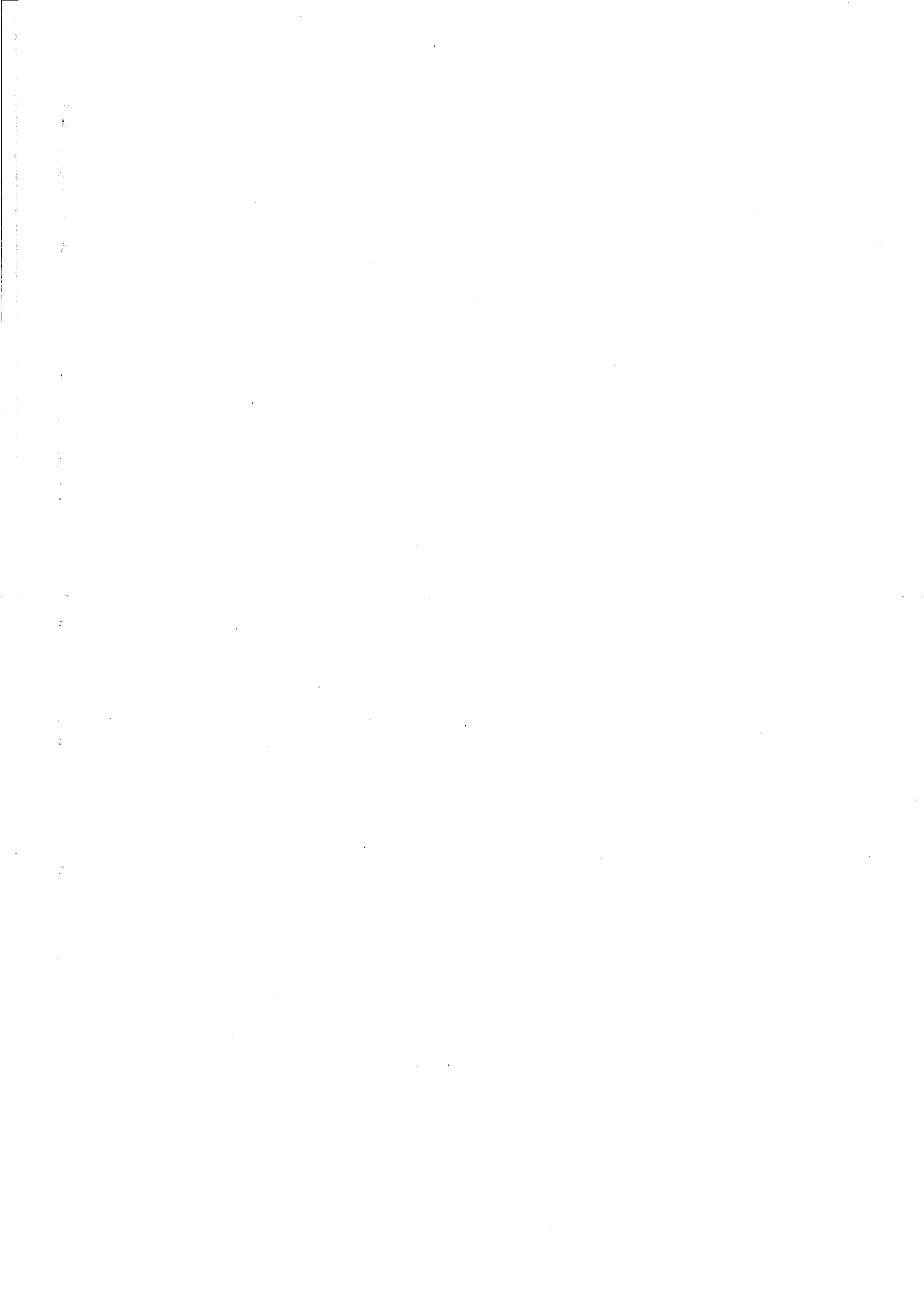
التحقيق والطبعة والمطبعة ودار النشر	اسم المؤلف	اسم الكتاب
تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر أرنؤوط / ط ٨ / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م المكتبة الإسلامية / بيروت	الإمام ابن قيم الجوزية	زاد المعاد في هدي خير العباد
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الفكر	الإمام علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي للإمام أحمد زيني دحلان أبو محمد عبد الملك بن هشام	السيرة الحلبية من إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون وبهامشها السيرة النبوية والآثار المحمدية سيرة النبي ﷺ
ط ٢ / ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م / دار المعرفة - بيروت	الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي	شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني
تحقيق مصطفى عبد الواحد / دار المعرفة - بيروت - لبنان	الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير	شمائل الرسول
خرج أحاديثه وعلق عليه عزت عبيد الدعاس / ط ٢ / ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م دار الفكر	الإمام أبو عيسى محمد بن سورة الترمذي	الشمائل المحمدية
ط ٧ / ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م / دار الفكر - بيروت	ابن سيد الناس	عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير
ط ٧ / ١٩٧٦ م - مطبعة حسان - القاهرة	د. محمد سعيد رمضان البوطي	فقه السيرة
تحقيق : د. مارسدن جونس / طبعة عام ١٩٦٤ م / مطابع دار المعارف بالقاهرة - مصر	الشيخ محمد الغزالي	فقه السيرة
تحقيق مصطفى عبد الواحد / ط ١ / ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م / مطبعة السعادة بمصر	الشيخ محمد رضا محمد بن عمر بن واقد	محمد رسول الله المغازي
	الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي	الوفا بأحوال المصطفى
تحقيق رشدي الصالح ملحسن / ط ٣ / ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م / دار الأندلس - بيروت	أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق	كتب التاريخ والتراجم والأخبار أخبار مكة

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة والمطبعة ودار النشر
الإصابة في تمييز الصحابة	الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني	ط ١ / ١٣٢٨ هـ / مطبعة السعادة بمصر مؤسسة الرسالة - بيروت
وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب	الحافظ ابن عبد البر النمري القرطبي	تحقيق أحمد زكي / نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤ م / نشر الدار القومية - القاهرة
الأصنام	أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي	ط ٢ / ١٩٧٤ م / مكتبة المعارف - بيروت
البداية والنهاية	الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير	تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / ط ٢ / دار المعارف بمصر
تاريخ الطبري «تاريخ الرسل والملوك»	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري	تحقيق نشاط غزاوي / مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق
تاريخ مدينة دمشق / القسم الأول «السيرة النبوية»	الإمام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر	ط ٤ / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م / دار الكتاب العربي
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء	الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني	دار صادر - بيروت
الطبقات الكبرى	محمد بن سعد	طبعة عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م / دار الكتب العلمية - بيروت
فتوح البلدان	الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري	تحقيق روحية النحاس / ط ١ / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / دار الفكر
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر / الجزء الثاني السيرة النبوية	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	طبعة عام ١٩٧٢ م
كتب العقيدة	الإمام إبراهيم الباجوري	ط ٥ / ١٩٧٧ م / دار الفكر
شرح جوهر التوحيد	د. محمد سعيد رمضان البوطي	الناشر محمد أمين دمج / بيروت
كبرى اليقينيات الكونية	الحافظ ابن ماكولا	المكتبة التجارية الكبرى / مصر
المعاجم	مجد الدين الفيروز أبادي	تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي / نشر دار المعارف مصر / مكتبة النوري - دمشق
الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب	ابن منظور	
القاموس المحيط		
لسان العرب		

التحقيق والطبعة والمطبعة ودار النشر	اسم المؤلف	اسم الكتاب
ط ١ / ١٩٦٧ م / نشر دار الكتاب العربي - بيروت	محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي	مختار الصحاح
ط ١ / ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م / وزارة التربية - الجمهورية العربية السورية	محمد خير أبو حرب	المعجم المدرسي
ط ١ / ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م / مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر	الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي	معجم البلدان
مجمع اللغة العربية / المكتبة العلمية - طهران	إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار	المعجم الوسيط
طبعة عام ١٩٨٤ م / المكتبة الإسلامية - استانبول - تركيا	محمد فؤاد عبد الباقي	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي / ط ٢ / ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م - دار الفكر	الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير	النهاية في غريب الحديث والأثر



الفهرس العام
لأهم موضوعات الكتاب



الفهرس العام

لأهم موضوعات الكتاب

الصفحة

الموضوع

الجزء الأول

١١	تقديم
١٣	المقدمة
١٥	أهمية دراسة السيرة النبوية
٢٤	تاريخ التأليف في السيرة النبوية
٩٢ - ٣٢	مقدمة عن وضع الجزيرة العربية قبل الإسلام

القسم الأول

« من الولادة إلى البعثة »

٩٥	نسب النبي ﷺ وولادته
٩٦	أسرة النبي ﷺ
١٠٤	الآيات التي ظهرت لآمنة عند حملها برسول الله ﷺ
١٠٩	رضاع النبي ﷺ
١١١	فطام النبي ﷺ وحادثة شق الصدر
١١٤	وفاة أم النبي ﷺ
١١٤	كفالة عبد المطلب للنبي ﷺ
١١٥	كفالة أبي طالب للنبي ﷺ
١١٧	سفر النبي ﷺ إلى الشام
١١٨	رعي النبي ﷺ الغم
١١٨	كلاءة الله عز وجل للنبي ﷺ وسيرته قبل البعثة
١١٩	شهود النبي ﷺ حرب الفجار
١١٩	شهود النبي ﷺ حلف الفضول
١٢٠	اشتغال النبي ﷺ بالتجارة
١٢١	زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة
١٢٢	أولاد النبي ﷺ
١٢٣	بناء الكعبة ومشاركة النبي ﷺ
١٢٥	صفة النبي ﷺ في الكتب السماوية
١٢٩	تنبؤ الأجر والرهبان والكهان بمبعث النبي ﷺ
١٣٢	حجب الشياطين عن استراق السمع عند قرب المبعث
١٣٣	بقايا الحنفاء قبل بعثة النبي ﷺ

القسم الثاني

« البعثة والدعوة في دورها المكي »

١٤١	بعثة النبي ﷺ :
١٤١	- مقدمات نزول الوحي
١٤٣	- نزول الوحي
١٤٥	- فترة الوحي
١٤٥	- نزول الوحي مرة ثانية والأمر بالدعوة إلى الله
١٤٦	- مراتب الوحي وشدة نزوله
١٤٨	أدوار الدعوة في حياة النبي ﷺ ومراحلها
١٤٩	المرحلة الأولى : الدعوة إلى الإسلام سرّاً
١٤٩	- المسلمون الأوائل
١٥١	- أول فرض الصلاة والوضوء
١٥٢	- استخفاء النبي ﷺ والمسلمين في دار الأرقم
١٥٤	المرحلة الثانية : الجهر بالدعوة
١٥٤	الدعوة في الأقربين
١٥٥	الدعوة على جبل الصفا
١٥٦	- موقف قريش من النبي ﷺ إثر جهره بالدعوة
١٥٦	- وفد قريش إلى أبي طالب
١٥٩	- أساليب قريش في محاربة النبي ﷺ ودعوته
١٦٢	تعذيب قريش للمسلمين
١٦٤	أول من جهر بالقرآن
١٦٦	استهزاء المشركين بالنبي ﷺ
١٧٣	رسل قريش إلى أحبار يهود وامتحنهم النبي ﷺ
١٧٤	عناد كفار قريش وموقفهم من القرآن الكريم
١٧٦	الهجرة الأولى إلى الحبشة
١٧٩	مفاوضة قريش أبا طالب في أمر النبي ﷺ
١٨٠	محاولة قريش اغتيال النبي ﷺ
١٨٢	إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه
١٨٢	إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
١٨٧	إغراءات قريش للنبي ﷺ
١٨٩	تعنت قريش وطلبهم الآيات المعجزات
١٩١	انشقاق القمر
١٩١	الهجرة الثانية إلى الحبشة
١٩٥	أول وفد قدم على النبي ﷺ
١٩٥	مقاطعة قريش بني هاشم وحصار الشعب
١٩٩	آخر مفاوضات قريش لأبي طالب

الصفحة	الموضوع
٢٠٠	وفاة أبي طالب
٢٠١	وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها
٢٠٢	زواج النبي ﷺ بسودة بنت زمعة رضي الله عنها
٢٠٣	اشتداد إيداء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب
٢٠٩	الخروج إلى الطائف
٢١١	وفد الجن وإسلامهم
٢١٣	عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل والأفراد
٢٢١	بدء إسلام الأنصار
٢٢٤	الإسراء والمعراج
٢٤٤	بيعة العقبة الأولى
٢٤٥	بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة ودعوته إلى الإسلام فيها
٢٤٥	- إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما
٢٤٨	بيعة العقبة الثانية
٢٥٥	الهجرة إلى المدينة
٢٥٥	- الإذن بالهجرة
٢٥٦	- أوائل المهاجرين وصور من المصاعب التي لاقوها
٢٦٣	- هجرة النبي ﷺ
٢٧٨	- تأسيس مسجد قباء وفضيلته
٢٨٠	- استقبال أهل المدينة للنبي ﷺ وترحيبهم به وفرحهم

القسم الثالث

« الدولة الإسلامية والدعوة في دورها المدني »

٢٨٧ - ٢٢٦	السنة الأولى للهجرة :
٢٨٧	إقامة النبي ﷺ في دار أبي أيوب رضي الله عنه
٢٨٩	زواج النبي ﷺ من عائشة رضي الله عنها
٢٩٦	أسس المجتمع الجديد :
٢٩٦	أولاً : بناء المسجد
٣٠١	ثانياً : المؤاخاة بين المسلمين
٣٠٣	ثالثاً : كتابة الصحيفة بين المهاجرين والأنصار وموادة اليهود
٣٠٦	مشروعية الأذان
٣٠٨	عداء اليهود ومناقشاتهم
٣٢٠	موقف مشركي المدينة من النبي ﷺ
٣٢٣	الإذن بالقتال
٣٢٤	السرايا والغزوات :
٣٢٤	- سرية حمزة رضي الله عنه إلى سيف البحر
٣٢٥	- سرية عبيدة بن الحارث رضي الله عنه إلى رابغ
٣٢٥	- سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى الخرار

الموضوع	الصفحة
السنة الثانية للهجرة :	٢٢٧ - ٢٩٦
غزوة ودان أو الأبواء	٢٢٧
غزوة بواط	٢٢٧
غزوة العشيرة	٢٢٧
غزوة سفوان	٢٣٠
سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى نخلة	٢٣٠
صرف القبلة	٢٣٣
فرض صوم رمضان وزكاة الفطر	٢٣٦
غزوة بدر الكبرى	٢٣٧
زواج علي من فاطمة رضي الله عنها	٢٨٤
ظهور النفاق في المدينة	٢٨٩
سرية عمير بن عدي رضي الله عنه لقتل عصماء بنت مروان	٢٩١
سرية سالم بن عمير رضي الله عنه لقتل أبي عفاك	٢٩١
غزوة بني قينقاع	٢٩٢
غزوة السويق	٢٩٥
السنة الثالثة للهجرة :	٢٩٧ - ٤٥٠
غزوة بني سليم (قرقرة الكدر)	٢٩٧
غزوة ذي أمر (أمار)	٢٩٧
مقتل كعب بن الأشرف	٢٩٨
غزوة بجران	٤٠٣
سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى القردة	٤٠٣
زواج أم كلثوم بنت النبي ﷺ	٤٠٤
زواج النبي ﷺ من حفصة رضي الله عنها	٤٠٤
زواج النبي ﷺ من زينب بنت خزيمة رضي الله عنها	٤٠٥
غزوة أحد	٤٠٦
غزوة حمراء الأسد	٤٤٧

الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة
السنة الرابعة للهجرة :	٧ - ٣٤
سرية أبي سلمة رضي الله عنه إلى بني أسد	٧
سرية عبد الله بن أنيس رضي الله عنه لقتل ابن نبيح الهذلي	٨
بعث الرجيع	٩
سرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه لقتل أبي سفيان	١٣
وقعة بدر معونة	١٥
غزوة بني النضير	١٨
تحريم الخمر	٢٢

٢٤	غزوة بدر الآخرة
٢٦	زواج النبي ﷺ من أم سلمة رضي الله عنها
٢٩	غزوة ذات الرقاع
٨٣ - ٣٥	السنة الخامسة للهجرة :
٣٥	غزوة دومة الجندل
٣٥	وفد مزينة
٣٦	زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها
٤٢	غزوة بني المصطلق
٤٤	زواج النبي ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها
٤٨	- حديث الإفك
٥٥	غزوة الخندق
٧٣	غزوة بني قريظة
٨٢	وفد أشجع
١١٤ - ٨٥	السنة السادسة للهجرة :
٨٥	سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى القرطاء
٨٥	غزوة بني لحيان
٨٦	سرية عكاشة بن محصن رضي الله عنه إلى الغمر
٨٦	سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى ذي القصة
٨٧	سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى ذي القصة
٨٧	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني سليم بالجموم
٨٧	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى العيص
٨٩	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى الطرف
٨٩	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القرى
٨٩	سرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل
٩٠	سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى فدك
٩٠	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القرى
٩٢	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى مدين
٩٢	سرية عبد الله بن عتيك رضي الله عنه لقتل سلام بن أبي الحقيق
٩٥	سرية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لقتل اليسير بن رزام
٩٥	سرية كرز بن جابر رضي الله عنه إلى العرنين
٩٧	صلح الحديبية
١٧٤ - ١١٥	السنة السابعة للهجرة :
١١٥	كتب النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء
١٢٧	سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى حسمى
١٢٨	مأصاب النبي ﷺ من سحر يهود
١٣٠	غزوة ذي قرد أو الغابة

الموضوع	الصفحة
غزوة خيبر	١٣٦
- قدوم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والأشعرين	١٤٩
- وفد دوس	١٥١
أمر فذك	١٥٨
حصار وادي القرى	١٥٨
أمر تيماء	١٥٩
إجلاء يهود خيبر والجزيرة	١٦٢
زواج النبي ﷺ من أم حبيبة رضي الله عنها	١٦٤
السرايا فيما بين غزوة خيبر وعمرة القضاء :	١٦٥
- سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تربة	١٦٥
- سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى بني مرة	١٦٧
- سرية غالب بن عبد الله رضي الله عنه إلى الميعة	١٦٧
- سرية بشير بن سعد رضي الله عنه إلى يمن وجبار	١٦٨
أسر ثمامة بن أثال الحنفي وإسلامه	١٦٨
عمرة القضاء	١٧٠
- زواج النبي ﷺ من مهينة بنت الحارث رضي الله عنها	١٧٣
سرية ابن أبي العوجاء رضي الله عنه إلى بني سليم	١٧٤
السنة الثامنة للهجرة :	١٧٥ - ٢٦٠
إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة	١٧٥
سرية غالب بن عبد الله رضي الله عنه إلى بني الملوح	١٧٨
سرية غالب بن عبد الله رضي الله عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله عنهم	١٧٨
سرية شجاع بن وهب رضي الله عنه إلى بني عامر بالسي	١٧٩
سرية كعب بن عمير رضي الله عنه إلى ذات أطلاق	١٧٩
غزوة مؤتة	١٨١
سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى ذات السلاسل	١٩١
وفد بكر بن وائل وشيبان	١٩٣
سرية أبي عبيدة رضي الله عنه إلى سيف البحر	١٩٤
سرية أبي قتادة رضي الله عنه إلى خضرة	١٩٦
سرية عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه إلى الغابة	١٩٦
سرية أبي قتادة أو ابن أبي حدرد رضي الله عنهما إلى بطن إضم	١٩٧
غزوة فتح مكة	١٩٩
- سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني جذيمة	٢٢٦
غزوة حنين	٢٣٠
سرية الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه إلى ذي الكفين	٢٣٩
غزوة الطائف	٢٤٠
قدوم وفد هوازن	٢٤٩
قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى وإسلامه	٢٥٢

٢٥٤	بعث قيس بن سعد رضي الله عنه إلى صباء وقدم وفدهم
٢٥٥	وفد ثعلبة
٢٥٦	كتاب النبي ﷺ إلى ملك عمان
٢٥٧	كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين
٢٥٩	ولادة إبراهيم ابن النبي ﷺ
٢٦١ - ٢٦٢	السنة التاسعة للهجرة :
٢٦١	وفد ثماله والحدان
٢٦١	وفد باهلة
٢٦٢	بعث النبي ﷺ عماله على الصدقات
٢٦٤	سرية عيينة بن حصن إلى بني العنبر من تميم
٢٦٥	قُدوم وفد بني تميم ونزول سورة الحجرات
٢٦٧	سرية قطبة بن عامر رضي الله عنه إلى خثعم
٢٦٨	وفد بني عذرة
٢٦٨	وفد بني أسد بن خزيمه
٢٦٩	سرية الضحاك بن سفيان رضي الله عنه إلى بني كلاب
٢٦٩	وفد بلي
٢٧١	سرية علقمة بن مجزز رضي الله عنه
٢٧١	سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الفللس وإسلام عدي بن حاتم
٢٧٤	وفد طيء
٢٧٤	وفد بجيلة وأحمس
٢٧٦	- هدم ذي الخلفة
٢٧٧	وفد خثعم
٢٧٧	هجر النبي ﷺ أزواجه
٢٨٢	غزوة تبوك
٢٠٨	تتابع الوفود :
٢٠٨	وفد ثقيف
٢١٢	وفد الدارين
٢١٢	وفد مرة
٢١٢	وفد فزارة
٢١٤	وفد همدان
٢١٦	وفادة رسول ملوك حير بإسلامهم
٢١٧	بعث معاذ وأبي موسى رضي الله عنهما إلى اليمن
٢١٨	وفد بني سعد بن بكر
٢١٩	وفد عبد القيس
٢٢٢	وفد نجران
٢٢٥	وفد بني عامر بن صعصعة
٢٢٦	وفد بني البكاء

الموضوع	الصفحة
وفد بني حنيفة	٢٢٦
وفد بهراء	٢٢٨
وفد بني سعد هذيم	٢٢٨
وفد تجيب	٢٢٨
وفد أزد شنوءة	٢٢٩
وفد الأزد	٢٢٩
حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس	٢٣١
السنة العاشرة للهجرة :	٢٣٢ - ٢٣٨
سرية خالد رضي الله عنه إلى بني الحارث بن كعب بنجران	٢٣٣
بعث عمرو بن حزم رضي الله عنه إلى نجران	٢٣٤
وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ	٢٣٥
وفد خولان	٢٣٦
سرية علي رضي الله عنه إلى مذحج باليمن	٢٣٦
وفد مراد	٢٣٨
وفد زييد	٢٣٨
وفد كندة	٢٣٩
وفد حضرموت	٢٤٠
وفد بني محارب بن خصفة	٢٤١
سجدة الوداع	٢٤٢
تنبؤ مسيامة والأسود العنسي الكذابين	٢٤٦
ارتداد طليحة بن خويلد الأسدي	٢٤٨
السنة الحادية عشرة للهجرة :	٢٤٩ - ٤٠١
وفد النخع	٢٤٩
سرية أسامة رضي الله عنه إلى أبي	٢٧٠
وفاة النبي ﷺ	٢٧١
ما وقع بعد وفاة النبي ﷺ من الفتن	٢٩٩
إنفاذ بعث أسامة رضي الله عنه	٤٠٠

القسم الرابع

« شمائل النبي ﷺ »

صفات النبي ﷺ الخلقية	٤٠٦
صفات النبي ﷺ الخلقية	٤١٠
خشيتته وخشوعه ﷺ واجتهاده في العبادة	٤٢٠
- من آدابه العامة ﷺ	٤٢٢
المصادر والمراجع	٤٣٩